الصراعات والوئام

في

زنجبار

ذكريات علي بن محسن البرواني



ترجمة أ. د. السيد عمر

أستاذ العلوم السياسية بجامعة حلوان بمصر

أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية بجامعة العلوم التطبيقية بالبحرين

1847

الكتاب : **الصراعات والوئام في زنجبار**
ذكريات علي بن محسن البرواني
ترجمة: أ.د. السيد عمر

الطباعة : دار الغرير للطباعة والنشر

التوزيع: مكتبة بيروت.. سلطنة عمان - مسقط
ص ب 2105 الرمز البريدي 112
محمول :00968990105O4
00968990587S0
فاكس :00968247006 77
مكتبة بيروت - ج. م. ع – القاهرة
هاتف : 0020124707674
Email: b_bookshop@yahoo.com

رقم الإيداع 2011/66 سلطنة عمان

طبعة 2011
تصميم الغلاف: **مدني البكري**

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
qurani-tukufu@yahoo.com

الصراعات والوئام
في
زنجبار

(ذكريات)

علي بن محسن البرواني

ترجمة

أ. د. السيد عمر

أستاذ العلوم السياسية بجامعة حلوان بمصر

أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية بجامعة العلوم التطبيقية بالبحرين

2010-1431

{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}الأحزاب:23

{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ }

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} الحج: 46

{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ }

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم** فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَ**لَيُمَكِّنَنَّ** لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ**لَيُبَدِّلَنَّهُم** مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً **يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً** وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} **النور:55**

إلى كل من يقول لمن ظلموه حين يكتب الله له النصر المبين "إذهبوا فأنتم الطلقاء"

الإهداء

إلي أبي وأمي. . . . . .

إلـــي كـــل مـــن يفضـــلون أن يخـــدموا عـــن أن يخـــدمهم غيرهم. . .

إلي كل من يحبذون العطاء علي الأخذ

أهدي هذا الكتاب،،،،

علي بن محسن البرواني

الفهرست

	الموضوع	الصفحة
	الإهداء	3
تصدير أ. د. السيد عمر	ذاكرة أمتي، بمداد عالمها البرواني	6
	شكر وعرفان	58
	المقدمة	59
الفصل الأول	لمحة من سيرتي الذاتية	61
الفصل الثاني	الدين في مواجهة العلمانية	76
الفصل الثالث	إطلالة خاطفة في التاريخ	87
الفصل الرابع	السواحيلية: الشعب واللغة	124
الفصل الخامس	القومية الزنجبارية والعرقية	138
الفصل السادس	مصادرة الممتلكات	163
الفصل السابع	إزالة بعض الأوهام	171
الفصل الثامن	التعليم	189
الفصل التاسع	الحرب والزراعة	254
الفصل العاشر	بحثا عن الوحدة	273
الفصل الحادي عشر	الآصرة المصرية	311
الفصل الثاني عشر	الزواج	348
الفصل الثالث عشر	نفثة من الطائفية	355
الفصل الرابع عشر	الحلم الضائع	372
الفصل الخامس عشر	العمل السياسي	434
الفصل السادس عشر	زنجبار والرق	460
الفصل السابع عشر	الأصولية	490
الفصل الثامن عشر	في الحكومة	507

الفصل التاسع عشر	حكومة المثقفين	528
الفصل العشرون	انضمام زنجبار إلي الأمم المتحدة	543
الفصل الحادي والعشرون	ذكريات السجون	561
الفصل الثاني والعشرون	إطلاق السراح من المعتقل	607
الفصل الثالث والعشرون	كنت سجين نيريري	627
	الخاتمة	729
الملاحق		
1 – رثاء المؤلف بالمجلة البريطانية لدراسات الشرق الأوسط		731
2 – رثاء المؤلف في جريدة الجارديان اللندنية		736
3 – قائمة الخرائط		742
4 – قائمة الصور		742
5 – فهرس الأعلام والبلدان		744

ذاكرة أمتي، بمداد عالمها البرواني

تصدير

أ. د. السيد عمر

قد أطمح في أن يشاطرني السواد الأعظم من قراء السفر الذي بين أيدينا الموسوم (**الصراعات والوئام في زنجبار: سيرة ذاتية**)، بمجرد تصفح فصوله الأولى، بل سطوره الأولى، أنهم أمام مؤلف بقلم شخص تجري في عروقه **دماء الإسلام** بروافدها العربية والإفريقية والإنسانية المتناغمة، ويحمل في ضميره وقلمه هموم أمته العربية الإسلامية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ويقدم **عبرة ثرية** لم نكن في أي وقت مضى بمثل ما نحن عليه الآن من حاجة إلى بناء **الوعي بها وتمثلها**، ورؤية حاضرنا ومستقبلنا على هدى منها.

ومع أن التنوع في الألسن آية من آيات الله، وقطاع عريض من أمتي الإجابة والدعوة ينطق بالإنجليزية، ومن المرجح أن يكون هذا الكتاب في إصدارته الأصلية بالإنجليزية معين وعي لهم، فإن حقيقة أن الطبعة الإنجليزية كانت محدودة العدد، تستدعي صدور طبعة أخرى بالإنجليزية على نطاق واسع. ومع ذلك فإن ما تؤكد هذه الدراسة أن اللغة العربية هي المفتاح الأصيل لفهم ذاكرة الأمة التي تختزنها، وأن دور ما عداها من لغات يجب أن لا يتعدى دور الشارح المعاون. ومن هنا تأتي أهمية تعريبها.

وقد لا أقع في ضوء ذلك في أي قدر من المبالغة، أن قلت أن هذا الكتاب الذي من الله تعالى عليّ **بتعريبه**، على أمل إتاحته لمن هم أولى به من غيرهم، من أبناء أمتنا العربية الإسلامية، هو بمثابة **بوصلة** نابعة من **القبلة الإسلامية الإنسانية الجامعة**، وهو في الوقت عينه دليل عليها، ومفتاح لمشروع بحثي واسع الأفق ومتعدد المحاور والمداخل.

وأذكر أنني حين فاتحني نجل المؤلف، الأخ المهندس **محمد البرواني** في أمر ترجمته إلى العربية، وشرعت في قراءة سريعة لمقدمته، وخاتمته، ونتف عشوائية من مضامين ما تحت بعض عناوينه، لتقرير ما إذا كنت سأترجمه أم سأعتذر، أم سأضعه على جدول أعمالي البحثية بعد حين، **أسرني** موضوع الكتاب. ووجدتني مدفوعا دفعا إلى إرجاء كل ما أنا مشغول به من بحث علمي، وتقديمه عليها والتفرغ له.

فلقد وجدت فيه **بؤرة جامعة** لم تسنح الفرصة كثيرا لي بمثلها للجمع بين حلقات مشواري العلمي مع الدراسات الإفريقية في مرحلة الماجستير، **وانتقالي في وسطه** إلى رحاب الفكر الإسلامي في مرحلة الدكتوراه، وانكبابي في **العقدين الماضيين** على حقول النظرية الإسلامية والتأصيل المفاهيمي، والتحليل السياقي القرآني في بحوثي اللاحقة، و**مشواري** مع الترجمة من الإنجليزية إلى العربية الذي تواصل من بداية العقد السابع من القرن المنصرم، وانصب بالأساس على الدراسات المتعلقة بالصراع العربي الإسرائيلي بخاصة، والعلاقات الغربية الإسلامية بعامة.

وألفيت نفسي أمام مؤلف، موضوعه في عمق التنظير السياسي الرابط بين الإسلام والعروبة وإفريقيا. وعايشت على مدى شهور تفرغت خلالها لترجمته، وللقراءة في موضوعه، الإحساس بالتقصير بحق أمتي، وبواجب السعي إلى التخفف من حالة الجهل بحاضرها وماضيها.

وشعرت بأنني صرت مملوكا **لرباعية**، ضلعها **الأول** هو: **التيسير** من الله تعالى لي على نحو فريد لإنجاز مهمة الترجمة. وضلعها **الثاني** هو: **الملازمة** لموقع التلميذ المتعلم من دروس النموذج الذي يقدمه المؤلف. وضلعها **الثالث** هو: **الحزن على** ما ألمّ ولا يزال يلم بأمّتي من محن، بينما تعم الغفلة قطاعات عريضة منها، بين حدي المبالغة في حسن النية، والنزعة الفردية المبنية على وهم البعض بأن بوسعهم أن يتجنبوا حياة الضنك، ويعانقوا الحياة الطيبة، ويتأهلوا للإرتقاء في الأسباب، ولأن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولأن تفتح عليهم أبواب الخيرات من السماء والأرض، من أي باب غير التماهي مع **هوية أمتهم** الواحدة الشاهدة غير القابلة للتجزئة، وتحصينها والتحصن بها. **والضلع الأخير هو: مزيد من الإيمان** بأن لا مخرج لأمتنا مما تردت فيه غير عملية تنشئة إسلامية، تقوم على تخلية عقل الأمة من الأوهام والمغالطات، وعلى التحلية بشحنه مجددا بمنظومة قيم التوحيد الإسلامي. وتجلي الدراسة التي بين أيدينا **الخطوط العريضة** لتلك التخلية والتحلية، وترسم معالم **الضوابط** والمعايير التي تحتاج أمتنا إليها في مواجهة ما أصاب فكرها **النابع** من تكلس، وما أصاب فكرها **الوافد** من سيولة وقصور في الانتقاء والتمحيص، وما تناهب خطط الإصلاح الإسلامية، الإنسانية الأفق ، الجادة، من تحديات ومحاذير.

وهكذا وضعني المؤلف رحمه الله، ومعي القارئ، ليس أمام **زنجبار** بمقاييس **الجغرافيا**، بل أمامها بمقياس **الهوية الجامعة**، وكأنها عينة دم يحلل من خلالها طبيب ماهر على نحو فريد، حالة أمته، ويستخلص سننا إلهية كونية لا زمانية ولا مكانية بخصوصها، ويحدد **وصفة** تعافيها واستعادتها لمكانتها ولدورها السرمدي في نشر السلام فيما بين شعوبها من جهة، وفيما بين شعوب العالم قاطبة من جهة أخرى.

وتفصيلات **واحة الخريطة الفكرية** للدراسة التي بين أيدينا تحتاج من القارئ قراءة واعية ومتأنية لهذا العمل الفكري الذي يقدم المؤلف فيه خلاصة تجربته، بل حياته، والذي يعد من الصناعات الفكرية الثقيلة التي يأخذ منها كل قارئ بقدر طاقته. ويستحيل أن يتعاطى معها أي قارئ وهو مسترخ ومتكئ على أريكته.

أما ما أقدمه في هذا التصدير فهو مجرد إطلالة خاطفة على ثلاثية: **القضية المركزية للدراسة**، و**نواتها**، **ومفاصل الخيط الفكري الناظم لها**، على أمل تسويغ دعواي التي عنونت بها هذا التصدير بأنه ذاكرة أمة بقلم واحد من أنبه علمائها، كان وسيظل بفكره عالم أمة.

أما **القضية** المركزية للدراسة فهي: **الحالة المتردية لأمتنا والمخرج منها**. وتنطلق الدراسة هنا من الحالة الزنجبارية مستدعية لماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها. وهي، للأسف، تقيم في هذا السياق الحجة على الأجيال الأخيرة من أمتنا بأنها درجت على **سباعية** ممقوتة. فهي لا **تتعلم** من ماضيها. **وتلدغ** من الجحر الواحد أكثر من مرة. **وتغرق** في حسن النية كثيرا إلى حد لا تأخذ معه بالأسباب. **وتتغافل** عن سنن التدافع بين الخير

والشر. **وتتمادى** في **تقليد** الغير رغم تحذير الله ورسوله لها من مغبة ذلك، ورغم مرارة عاقبة سوابقه. **وتترك للغير** أمر كتابة تاريخها بما يحرمها من وضوح الرؤية. **ولا تنقب بنفسها** عن زاد نابع من أصولها الفكرية الصحيحة، ومن مرجعية معطيات بيئتها.

ويخلص المؤلف بعد وصف هذا الداء العضال إلى أن أمتنا بحاجة إلى **مراجعة جادة** لكل هذه المثالب، إن هي أرادت التأهل لحمل أمانة الخلافة بأمر الله في الأرض من جديد. و**يبشرها** رغم كل ما ابتليت به، بأنها بخير. فلديها إمكانات ومكنات ظاهرة وكامنة هائلة **للتوبة النصوح**، و**للعودة الحميدة** إلى الوضعية الصحيحة التي تصير معها خير أمة أخرجت للناس، محصنة من الفتنة في دينها، ومخرجة للبشرية مما تردت فيه من خواء أخلاقي وقيمي.

وأما **نواة الدراسة** فهي مجرد **حلقة** من حلقات الصراع بين الحق والباطل ضمن قضية الأمة، بل الإنسانية، السالف بيانها. **موقعها الجغرافي** هذه المرة هو **جزيرة إسلامية** في محيط. و**بطلها** هو مفكر عربي مسلم يجسد بالدماء التي تجري في عروقه، وبطبيعة فكره وسلوكه، عمق **البعد الإسلامي الجامع** الذي لا يحقق كرامة الإنسان ولا يكفل حريته بحق، ولا يؤسس أي ناظم عمراني غيره، وئاما تقام به جنة الله على الأرض، وتحفظ به الأمانة التي حملها الإنسان وأشفقت السماوات والأرض والجبال منها، بعدل وإحسان، لا موضع معه للظلم ولا للجهالة.

والمتعاركون في هذه الجولة **أربعة** هم: مفهوم **الأمة** بأفقه الإنساني السامي، ومفهوم **القومية** بدركاته الطائفية والعرقية، وبقزمية مفهوم الحق والواجب في إطاره، **ومنظومة القيم**

الإسلامية في مقابل **الأيديولوجيات والعقائد السياسية** التي ولدت من رحم الصراع بين الدولة والكنيسة والمجتمع في العالم الغربي، التي لا علاقة تذكر بينها وبين ما كانت عليه بيئتنا الإسلامية. ومع ذلك تبناها فريق من النخب في عالمنا الإسلامي، واستبدلوا بها وهي الأدنى، قيمهم وتراثهم الأصيل الذي هو خير. وفي محرابها ضحوا بكل شئ، وخرجوا صفر اليدين، بعد أن دمروا البشر والحجر والزرع والحيوان.

والقارئ مدعو في سياق هذه **القضية** وتلك **النواة** إلى التفكر في معطيات **الرؤية الكلية الإسلامية** كما تبلورت في عقل ووجدان المرحوم الشاعر والمفكر والسياسي **علي محسن البرواني** العربي الزنجباري، العائد في أصوله الأولى إلى جذور عمانية، الذي تجري في عروقه دماء عربية وإفريقية متعددة الروافد. وتسكن في روحه وفي سويداء عقله وقلبه، أصالة إسلامية نقية، المولود عام 1919، والمتوفي عام 2006.

وبين هذين التاريخين **مسيرة حياة** تتجادل في ظلها جهود بناء، وتحديات وعوامل هدم رهيبة. وعلى متصل الابتلاء **بالشر والخير فتنة** ، يتعارك الحق والباطل. ويعلو الزبد حينا. إلا أن ما ينفع الناس هو الذي يمكث في الأرض في نهاية المطاف.

وبعد **محن** لا يطيق الصبر عليها إلا أصحاب العزم من البشر المتسلحون **بهويتهم الدينية** الصحيحة، وبإيمانهم بأن **النفعية السياسية** العابرة إلى بوار، وأن **القيم الإسلامية الأخلاقية** هي الباقية، ينتزع المؤلف ممن انقلبوا على أعقابهم اعترافا بأنهم ركبوا **الجواد الخاسر**، بينما يجد هو نفسه صاحب **عصارة عبقرية** فذة في الطفولة والشباب، وفي اليسر وفي العسر معا، و**فيض حكمة**

تتناغم فيه بوضوح استقامة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، مع التغذية الصحيحة لها بطيب العلم الديني والدنيوي، وفي يده **ثمار يانعة لعطاء خالد** من:**اهتداء** عشرات الأشخاص على يديه إلى الإسلام، وهو في غياهب السجن، إلى **ترجمة** تفسير قرآني يراه معبرا عن الوسطية الإسلامية من العربية إلى السواحيلية، إلى **كتابة** هذه **المذكرات** التي بين أيدينا التي يرسم فيها معالم حالة الأمة، والمخرج منها إلى رحاب استعادة الوضعية اللائقة بها بوصفها الأمة الواحدة الشاهدة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر.

ولقد حرص المؤلف رحمه الله وهو يرسم معالم **القضية ونواتها**، على أن يحول نفسه من **شخص** إلى **فكرة**. ولعلنا نستدعي هنا مقولة المفكر الإسلامي الراحل **مالك بن نبي** في تلخيص أهم **إنجاز** حققته الأمة الإسلامية في **غزوة أحد** التي انهزم المسلمون فيها كجولة، وكان هو زادها الأهم في تمثل فكرة وفاة النبي يوم أن مات بالفعل. ففي يوم أحد أصيب النبي عليه السلام وأشيع أنه قتل. وتحول النبي بهذا الحدث من: **شخص** إلى **فكرة**، بتنزل **قول الله تعالى:**" {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن **مَّاتَ أَوْ قُتِلَ** انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ } (آل عمران144). ومن رصيد التحول من شخص إلى فكرة ولدت يوم أحد ذاتها مقولة: **إن كان محمد قد مات فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد**. ومن رحمها عمت في كل أرجاء المدينة المنورة أصداء قولة الصديق أبي بكر، الخالدة ، يوم وفاة النبي " **من كان يعبد محمدا فإنّ محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإنّ الله حي باق لا يموت**".

ومن يقرأ مذكرات مفكرنا علي محسن البرواني هذه، يلمس بكل قوة في كل سطورها صراحة وضمنا، حرصه رحمه الله على أن لا يقع قارؤه في فخ الإعجاب به إلى حد يستحضره معه **شخصا**، على حساب **الفكرة**. فهو على الدوام يؤكد أنه **إنسان عادي** جدير بأن لا يستهان به وبأن لا يبالغ فيه ، تسللت وساوس إلى نفسه حينا، ووقع في تفكير صبياني حينا آخر، وتردد في حياته بين اليسر والعسر، وبين النجاح والفشل، وعرف وفاء الصديق، كما عرف نكوص بعض من توسم فيهم الخير على أعقابهم، ووجد الصالح والطالح في المنشط والمكره. وعشق الحرية، وعرف إيثار غيره على نفسه، وابتلي بالاتهام بما ليس فيه. وكره العزلة وأجاد اصطناع الأخوة والصداقة، في كل وضع وجد نفسه فيه، حتى في السفر العابر. وتأسس ما حصله من علم وخبرة على معطيات بيئته، وكانت تنشئته في بيئة دينية منفتحة ومتسامحة هي حجر الأساس في صموده أمام خطر **الغرور بالنجاح**، وأمام **خطر اليأس** أمام صولات الدهر ونكباته.

نحن إذن على الدوام أمام شخص يحذرنا من الافتتان بشخصه، ويدعونا إلى التبتل مثله في رحاب **الفكرة الإسلامية النقية الجامعة**، والاجتهاد في خدمتها، مع تسليم الأمر فيما هو فوق استطاعتنا لله رب العالمين.

وعند الجمع بين **القضية والنواة والمؤلف الفكرة** يجد القارئ نفسه وجها لوجه مع **إضاءات معرفية ملهمة**، حول **ثلاث** من أهم نكبات الأمة الإسلامية المعاصرة، متشابكة فيما بينها، ومنسوجة مع سوابقها. **أولاها**: محاربة الإسلام بالعبث **بلغات أساسية** في العالم الإسلامي، بفك عرى التواصل بينها وبين اللغة العربية. ولم

يكن العبث **باللغة السواحيلية** وفض عرى الصلة بينها وبين الإبجدية العربية، وتجريدها من أصولها العربية والإسلامية، هو أول سابقة من نوعها للعبث بلغات رئيسة بالعالم الإسلامي. فما حدث **للغة التركية** مواكبا لإلغاء مؤسسة رأس الخلافة الإسلامية على يد كمال أتاتورك هو فعل مماثل حذو القذة بالقذة.

أما **النكبة الثانية** التي كانت الأولى إحدى وسائل تصنيعها، فهي **ضياع زنجبار** بعد التأسيس لجعلها نموذجا يحتذى، لدولة ذات نظام إسلامي يقوم على نبذ كل النواظم التفريقية المفتعلة بين البشر، ويعبر عن توجه إسلامي لتجاوز العدل في التعامل مع الغير إلى رحاب الإحسان، وإعطاء الآخر ما هو فوق حقه، والقبول منه ببعض واجبه.

فهذا **الحدث الجلل** أتى بعد **سلب الأندلس** ومن بعدها **فلسطين** فيما لو اكتفينا بالمحطات الكبرى، وغضضنا الطرف عن ابتلاع الاتحاد السوفيتي السابق **لأسيا الوسطى**، على سبيل المثال.

والعجيب أيضا في تلك الحالات الثلاثة هو قلب الطغاة **الصورة الإدراكية**، وتصوير ما حدث على أنه تحول صوب ما ينبغي أن يكون، من منظور القوى المستهدفة للمكون الإسلامي والمشوهة له، مع تجميل صورة الجلاد، وتقبيح صورة الضحية، ومشاركة فريق من بني جلدتنا في ذلك الإفك المفترى، عن عمد بقصور في الرؤية وانعدام للبصيرة تارة، وبجهالة أو جهل تارة أخرى.

ولباب هذه النكبة هو حركة إفساد في الأرض بعد إصلاحها،لا تزال حلقاتها الدموية والغادرة تتواصل منذ منتصف ستينيات القرن العشرين. **بيت لها بليل، وبلغت أوجها على يد قادة الانقلاب**

الدموي الذي أزال زنجبار من خريطة الدول القومية المعترف بها والمتمتعة بعضوية منظمة الأمم المتحدة، بعد أقل من شهر واحد من إعلان استقلالها، مع استكانة كل الدول الإسلامية لهذا التحول وقبولها به، والذي هو دليل على غلبة الانتهازية السياسية النفعية على الاعتبارات الأخلاقية، وعلى غياب الرؤية الاستراتيجية والبصيرة في أوساط أنظمة الحكم في عالمنا الإسلامي في عصر ما بعد الاستعمار التقليدي.

وهذا الحدث الذي أزهقت به ألوف الأرواح المسلمة من الشيوخ والنساء والأطفال العزل، وزج به بمئات، بل ألوف الشرفاء الأبرياء، في غياهب السجون من بينهم مؤلف الدراسة التي بين أيدينا، وصودرت به ممتلكات وأوقاف خيرية، وتحولت به دولة إسلامية واعدة إلى كيان تعيش معظم فعالياته الفكرية بين جدران السجن، أو القهر تحت كابوس الاعتقال بلا محاكمة، أو العيش في المهجر، لم يكن مرة أخرى هو **الحدث الأول** من نوعه.

فالموقف ممن **أسمته أوربا**: رجلها المريض، والمصادرة الأوربية على طموحات محمد علي، وتتويج ذلك في منتصف عشرينيات القرن العشرين بقضاء أتاتورك على **الخلافة التركية**، وما أحاط بصنيعه بالخلافة من غموض وقلب للحقائق، في الأوساط الإسلامية، بلغ حد الظن أنه مصلح لها، وما سمي:**الثورة القومية العربية** ضد الحكم التركي. وما تمخض هذا كله عنه من انفراط عقد العالم الإسلامي، وصناعة مبضع سايكس بيكو، وتمزيق نسيج أمتنا، وغرس الكيان الصهيوني في المفصل الأفروأسيوي الإسلامي، **والموقف تجاه ما** كان قد تبقى من أراض فلسطينية لم

تحتلها إسرائيل حتى عام 1967 ليسا إلا نموذجين مماثلين لسقوط دولة زنجبار المسلمة.

وأما **النكبة الثالثة** التي عمقت سابقتيها، وعوقت إمكانية التخلص من آثارهما فهي: **تجاوز أنظمة ما بعد الاستقلال للمدى الذي وصلت إليه قوى الاستعمار التقليدي** ذاتها في مصادرة الحرية الدينية، وفي التضييق على حق كل أصحاب دين أو نحلة دينية في تنظيم شؤونهم الخاصة وفق مرئياتهم ومرجعيتهم الدينية، والمبالغة في انتهاك كل الحرمات لصالح **ما يسمى: الأمن القومي وأمن الدولة**، والتمادي في الاعتماد على أساليب الإدارة الغربية، وعدم التنقيب في تراثنا، ولا في واقعنا عن نظم نابعة لا تابعة، والتحرك باتجاه تعميق القابلية لاستدامة تعثرنا، والدخول في حالة الخواء الأخلاقي الراهنة، التي ترسم هذه الدراسة الجامعة معالمها، ومعالم المخرج الإسلامي منها.

ولعلنا نستحضر هنا ما قاله حكيم الأمة المستشار طارق البشري من أن أنظمة الحكم التي قامت في ديارنا الإسلامية بعد عصر الاستعمار التقليدي، قضت على الأنساق المجتمعية، وحولت الأفراد في مواجهة الدولة إلى ما يشبه حبات قمح في جوال، يستطيع أضعف عصفور أن ينال من كل حبة منها على حدة. ونضيف أنه في ظل هوس ما يسمى الأمن القومي الذي هو بضاعة أمريكية الأصل، استبيحت كل الحرمات، وانفتح الباب واسعا لمعايرة مقاصد الشريعة الخمسة، المرعية في كل الأمم، المتعلقة بحفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض، **بمعايير غربية**، وقعنا في ظلها في تيه لا نظير له، صرنا معه كمن يبني بيته خارج أرضه، أو ينشد الماء في سراب بقيعة.

وتطرح هذه الدراسة **أسئلة بالغة الأهمية**، وتقدم **إضاءات** على **صعيد** وصفها وتفسيرها، ورصد كشف حسابها، واستشراف مستقبل الأمة من خلالها، جديرة بأن تقرأ أكثر من مرة، وبأن نرجع البصر والبصيرة فيها كرتين، وأن تحولها الجماعة العلمية المسلمة في كل فروع المعرفة إلى دليل لعملها البحثي. وسأكتفي هنا بمس خفيف لمسألتين: **الأسئلة الكبرى** المطروحة في هذه الدراسة، والمفاصل الكبرى **للخيط الفكري** الناظم لها.

أما عن **السؤال الأم** الذي تنبثق منه الدراسة فهو: **ما السر في استهداف زنجبار بالذات بالإضعاف قبل الاستقلال، وبالإزاحة من الخريطة السياسية فور الاستقلال؟** والإجابة **بالمختصر المفيد**: لأنها كانت رقما صعبا في معادلة الإسلام في إفريقيا، وفي الترابط بين العروبة والسياق الأفروأسيوي المنبثق من تلك المعادلة.

وسيرى القارئ كيف مثلت **زنجبار بؤرة** للترابط بين أسيا وإفريقيا، وكيف امتزجت فيها من أقدم العصور، دماء من كل أرجاء العالم، وكيف استوت فيها **الوسطية والتسامح الإسلاميين** على سوقهما، جنبا إلى جنب مع دور قوى الداخل والخارج المضادة، في **نقض هذا المركب الحضاري**، وفي تفكيك عراه.

فزنجبار احتوت على **خميرة إسلامية** فاعلة عبر تاريخها، وقيض الله لها، في لحظة ما قبل الكارثة، **نخبة مثقفة صاحبة نية وبصيرة**، فرضت استقلالها، وانفتحت على مصر خاصة، وعلى العالم بوجه عام. وعنيت بنشر المعرفة في دول الجوار قدر عنايتها بنشر المعرفة داخل حدودها. ونسجت منوال نظرتها إلى بلادها، وإلى الخارج، لا على أنها نخبة ببلد يمثل نقطة بالغة

الضآلة في محيط، بل على أنه قلب كيان حضاري جامع ضربت جذوره في عمق التاريخ. وامتدت فروعه من قلب إفريقيا شرقا إلى قلب الهند غربا. وحملت تلك الصفوة في أحشائها حلما واعدا فيما لو أتيحت لها الفرصة، بإقامة نموذج حضاري قدوة يتخطى أثره زنجبار إلى البر الإفريقي وإلى قلب أسيا. وتناغم خطابها مع أفعالها في الداخل والخارج. ووجد خصوم التمكين لتلك المعادلة أن إجهاض تلك التجربة في مهدها وبالقوة قضية وجود بالنسبة لهم.

ومن أحشاء هذا السؤال الرئيس، ومن ثنايا الإجابات المقدمة له، نحاول الإمساك معا ، **بالخيط الناظم** للطرح المعرفي الذي يسوقه المؤلف لذاكرة أمتنا، على نحو نكتفي معه، في هذا التصدير برصد الأسئلة المتفرعة من هذا السؤال الرئيس، ثم نتبعها بإشارة **عابرة لمحطاته الكبرى الأربع عشرة**، تاركين التفصيل بكل دقته ودقائقه لقراءة متأنية للكتاب ذاته.

والأسئلة **المتفرعة** مباشرة من السؤال الرئيس **كثيرة، من أهمها**: هل إصلاح حال الأمة مرهون فقط بوجود **نخبة إسلامية مثقفة** متمثلة لأخلاقيات وقيم صفوة صدر الإسلام؟ **أم أن سنن التغيير** تقتضي عملية تنشئة حضارية تعم الأمة، توفر للصفوة المدد والمعايير الضابطة في آن واحد، وتحصنها من الغرور الكاذب، ومن دواعي القنوط، ومن البلادة، ومن المغاضبة، ومن الإفراط، ومن التفريط؟ **وهل محاكاة** الصفوة الأولى يمكن أن تكون فاعلة إن هي وقفت عند تمثل القيم اللازمانية واللامكانية، دون قراءة واعية لخبرة الجمع بين فقه النصوص وفقه الواقع، في إنزالها على واقع زماني ومكاني بعينه تعيشه أمتنا الآن ؟ **وكيف** نفرق في

المحصلة الأخيرة بين خسارة **جولة** أو معركة وبين خسارة **قضية** إزهاق الحق للباطل؟ **وما السبيل** لأن تستعيد أمتنا عافيتها بتمثل ركن الإسلام الأول بالتخلص من كل ما ينبغي تخليته، والتحلي بما ينبغي أن تتحلى به من التوحيد الخالص ؟

وسيجد القارئ نفسه في مواجهة هذه الأسئلة عبر عدسة الحالة الزنجبارية، أمام بلد كثر علماؤه، وتفانى بنوه في طلب العلم وفي الجمع بين العلم والعمل، وتشكلت لديه نخبة واعية ذات بصيرة. ومع ذلك سيقف حائرا مثلي أمام تهاوي هذا كله وبسرعة مذهلة **أمام مكر قلة منظمة معادية لا خلاق لها**، وعلى نحو قلب الموازين في غمضة عين، وجرد الحق مما بيده من أسلحة باطراد وثبات مذهلين. وسيجد القارئ نفسه مذهولا أمام القبول، أو قل السكوت والتعاطي السلبي تجاه من استهدفوا تلك التجربة، على نحو أتاح الفرصة واسعة أمامهم لتبديل حال زنجبار وقلبها رأسا على عقب.

إلا أن سؤال العاقبة، أو خلاصة كشف الحساب، المهم في نظري هو: **من الذي امتطى الجواد الخاسر ؟ الصفوة** التي كان المؤلف في موقع القلب منها التي كان مصيرها في الظاهر هو الإبعاد من سدة الحكم إلى غياهب السجون، والشتات خارج زنجبار، والخوف والقتل البطئ على حد تعبير المؤلف داخل تنزانيا؟ أم من يسمون **قادة الثورة** القابعون بمراكز السلطة منذ عام 1964 حتى الآن، وإن اختلفت أشخاصهم؟.

على صعيد هذا السؤال انتزع المؤلف اعتراف واحد من رموز الثورة، بأنهم **كسبوا جولة وخسروا أنفسهم وأهليهم، وكانوا وبالا على أمتهم**. فلقد التهمت نيران ذلك الانقلاب الدموي الغادر،

القائمين به، وبأيديهم، كواحدة من سنن الله تعالى الكونية في عاقبة المفسدين في الأرض.

ولعلنا ننعم النظر في عمق هذا التصريح الشفوي الفردي الذي نطق به من كان قبل أن يسول له الشيطان، وتجرفه الأماني الزائفة، رفيق جهاد للمؤلف موهوب وواعد، نقض غزله أنكاثا من بعد قوة في لحظة ظاهرها هو: وجود المؤلف المثابر على قضية أمته موقع اللاجئ السياسي بالقاهرة، مقابل تبوء صديقه الآبق موقع ممثل دولته في مؤتمر إعلامي بالقاهرة. وفي عمق تلك اللوحة صورة المؤلف مستبشرا يدعو إلى قراءة كتابه الذي سطره بمداد اليقين بأنه ملاق ربه، وصورة المسؤول الكبير العاض على أنامله من غيظ ما جناه على نفسه، الباكي بعد فوات الأوان على ما ألحقه النظام الذي ساندة بعروبته وبإسلامه.

بيد أن الأهم والأعمق من ذاك التصريح، بالنسبة لذاكرة الأمة والعبرة المستفادة، هو ما رصده المؤلف من دمار مادي وإفلاس أخلاقي جره هؤلاء على بلادهم بأدلة دامغة ومكثفة، سيقف القارئ والباحث أمامها مطولا، مهما كان حظه من المعرفة بحالة أمتنا والإنسانية. أما تلك **الصفوة** الزنجبارية المبتلاة، فهي بتقديري جديرة بقراءة واعية لنموذجها بكمالاته ونواقصه، في ترتيبات ما قبل الاستقلال، وفي سلوكياتها في كل المواقف التي عصفت بها، وبالأخص تمثل دعوة زعيمها علي محسن البرواني. لعدم جدوى مناهضة الاستعمار والتخلص من القابلية للاستعمار بأساليب من صنعه. فحرية أمتنا لن تصنع بالمظاهرات، ولا بالكتابة في صحف الغرب، ولا بالوقوف وراء الميكرفونات وإغراق العقل المسلم بالشعارات والأماني. طريق الحرية هو التنشئة الحضارية

الإسلامية الجامعة. و**مفتاحها** هو: كتابة تاريخنا بماضيه وحاضره ومستقبله بأيدينا. **والتنقيب في** ذاتنا الحضارية عن **وصف لدائنا، وعن وصفة للتداوي منه** هو مطلوب أمتنا الأول.

وليسمح لي القارئ الكريم بأن أصطحبه بعد هذه اللمسة العابرة لقضية هذه الدراسة ونواتها وأسئلتها، مع **المفاصل الرئيسة للخيط الفكري الناظم** لها، الذي جمعه مؤلفها في عنوانها، وفي الجملة الأخيرة منها.

فهو في **عنوانها**، باحث عن المخرج للتحرك بها من حالة إلى نقيضها: من **(الصراعات)** إلى **(الوئام)** في فضاء معرفي منبعه زنجبار، ولكن أفقه المكاني والزماني والمعرفي يمتد ليشمل الكرة الأرضية كلها. فأي إنسان في أي زمان ومكان، واحد من **اثنين:** أخ في الدين، أو أخ في الإنسانية ، أو قل فرد في: **أمة إجابة** دخلت في دين الله، **وأمة دعوة** تدعى إلى السلام الإسلامي الذي لا وجود في قاموسه لكلمة الإكراه في الدين، والذي هو رحمة للعالمين. والمرادف الدقيق لكلمة **الزيف** هو القول **بفروق جوهرية** بين البشر الذين هم كلهم نسل آدم وحواء.

وهو في **آخر كلمات** خطها قلمه في هذه المذكرات، يعتبر الحركة على هذا المتصل **قضية حياة يعيش بها ولها** ، ويعمل بدأب لا يتوقف، يلخصه ببلاغة بدعوته ربه أن **يقبضه** إليه يوم **يتوقف عن العطاء**. والمفارقة أنه هو بتركه علما ينتفع به، بات صاحب **عمر معنوي** لن يتوقف عطاؤه أبدا ما دام هناك طالب علم نافع على وجه هذه الأرض. ومن المجافي للصواب حسبانه قد مات، على محك إتيان علمه الطيب أكله كل حين بإذن ربه.

ونخلص من كل ما سلف إلى أن الخيط الفكري الناظم للدراسة هو: **فريضة البحث عن الوئام ما دام في جسد المرء عرق ينبض.** وهو هنا يرسم معالم مهمة على هذا الطريق، ويقدم العبرة والأسوة الحسنة في السير عليه، ويحدد شروط السير ومحاذيره وزاده، وعاقبته المرجوة.

وعلى **متصل هذا الناظم**، نصاحب المؤلف رحمه الله وهو ينبهنا إلى أنه بصدد تقديم شهادته للأمة، بصراحة لامواربة معها ولا فيها، في كتاب عنوانه ناطق بمضمونه، يتعجل التخلية بينه وبين القارئ، ويستكثر بضع صفحات قدم بها له، ليلقى بيد القارئ بمهارة من سطوره الأولى بأول شواهد تواضعه. فهو فيما يقوله ليس ابن خلدون، حتى يجاريه في صنع مقدمة كمقدمته. وسرعان ما يصب هذا التواضع ذاته في تجلية رفعة قامته المعرفية التي ستتكشف مع كل سطر يقرأه الناظر في كتابه الذي بين أيدينا. ويصرح المؤلف بأنه يكتب لمن يحبونه ويحبهم. ولا يسعى لمحاكمة مقولات أحد. ويؤكد أنه ليس من غرضه النقد ولا النقض. بل سيترك الحقيقة تقدم نفسها بنفسها. ويعتذر لمن يمسهم صدعه بالحقيقة، بأنه لا يملك إلا ان يصدع بها. وبكرامة بالغة ينحي نفسه **كشخص**، لتتربع **الفكرة**. ومن هنا فحسب يتأهل لأن يرى نفسه يتقلب بين الشكر والصبر، ولأن يغيب القارئ عنه وعن نفسه، في محراب فكرته.

ونود أن نؤكد في مستهل مشوارنا مع محاولة الإمساك بالخيط المعرفي الناظم لهذه الدراسة وبيان مفاصله الكبرى، على الدلالة العميقة لحرص السلف على **اعتبار الهوية**. هويتنا الإسلامية يجب أن تكون هي الميزان، وغيرها موزون بها.

ففي مقابل واقع مرير صار الغرب معه هو المعيار، وغدت الساعة تتحدد بخط جرينتش، والتاريخ يكتب وكأن الجذر اليوناني والروماني للغرب الحديث هو التاريخ الذي لا تاريخ معه ولا قبله، وكأن المشروع الحضاري الغربي الراهن الذي تكاثرت علامات هرمه وشواهد جنوحه هو نهاية التاريخ، نجد والد المؤلف يسجل تاريخ ميلاد ابنه بالتقويم الهجري. وبه يتحدد مقابله بالتقويم الميلادي وليس العكس.

وفي حين يستحضر المؤلف البشري المتضمنة في مولده في ربيع الأول، فإنه يسارع إلى نفي أية أساطير تشاؤمية ترتبط بدلالة مولده يوم الثالث عشر من يناير 1919. وهذا في رأيي أحد مفاتيح شخصية علي محسن البرواني المهمة. فهو حتى حين يدخل السجن في مثل يوم مولده، فإنه يثبت **للسجن فضلا عليه** في فهم الشخصية الإنسانية، وفي الإيمان بقضاء الله وقدره، وفي تعلم الحب والتواضع والتضحية بالنفس، أو بالأحرى المزيد من تلك الخصال ، ويعضد ذلك بمقابل أهم يتمثل في **حياة زوجية هنيئة** دامت قرابة نصف قرن بدأت في مثل ذلك اليوم.

وينطلق المؤلف بنا من هذا الموقف الرمزي المهم، إلى **الولادة المتعثرة** لدولة زنجبار، وإلى ضرورة **القراءة السياقية** لأحداث الأمة وأيامها. ويربط بين **طرد** المسلمين من أسبانيا، و**القضاء** على الخلافة العثمانية، و**العصف** بكيان زنجبار عام 1964.

وحين يتأمل في سر استقرار النظام الحاكم هناك حتى الآن رغم كل الويلات التي جرها على البلاد، يربط المؤلف مرة أخرى بين: نكبة زنجبار، والمد الاشتراكي في اليمن الجنوبي، واضمحلال دور مصر والأزهر في إفريقيا.

ومن **المفصل الأول** على الخيط الفكري الناظم لهذه المذكرات، يضع المؤلف يدنا على **أخطر داء** أصيبت به أمتنا. **فأمتنا بوضعيتي** ما ينبغي أن تكون، وما يمكن أن يكون، هي **أمة اقرأ** ، التي هي معكوس **الجاهلية** التي كانت قائمة قبل الإسلام. ووحدة تلك الأمة واستقامتها رهن بتنشئتها على **صحيح الوحي والعلم**. وأول ما نخر ولا يزال ينخر في بنيتها ويقوضها هو **الأساطير التي** تغرس في عقول النشء، وتصور لهم **طوائف** أخرى على هيئة شيطانية لا إنسانية.

ولاريب في كون هذه الأساطير هي باب الشر الرئيس في تاريخ الإنسانية وفي كل زمان ومكان. فمنها ولدت **الشعوبية في** عالمنا الإسلامي. ومنها نبعت كل سوءات الدولة القومية الراهنة ونتنها. وعليها تغذت **الفاشية والنازية والعنصرية** و**الشوفينية** البيضاء والسوداء على السواء. وبزادها ومقولاتها ترعرعت النعرات العرقية وحركات التصفية العرقية ، وانتشرت كالفطر في عصر ما بعد الحرب الباردة، التالي لعصر الثنائية القطبية الأمريكية السوفيتية، وما يحلو لكثيرين تسميته عصر العولمة، أو النظام العالمي الجديد، أو الأحادية القطبية الأمريكية، أو الحرب الباردة الجديدة بين عالم الشمال والخطر الإسلامي الأخضر، والصيني الأصفر، أو الحرب العالمية على الإرهاب. وفي هذا السياق تروج وبشدة أساطير: الحدود الدموية للإسلام، واستعصاء العقل الإسلامي على القبول بالآخر وعلى العيش في الحاضر، ومركزية إسرائيل في التقدير الإلهي لمصير البشرية والحياة على الأرض، ونذر معركة هرمجدون الفاصلة بين الخير والشر.

ويقرر المؤلف على صعيد الحالة التي كانت عليها زنجبار على هذا المحك أن **الأساطير الطائفية** كانت مستشرية في زنجبار بين الأطفال، دون الكبار، وينعتها بالتبعية **بالأساطير الصبيانية**. ويعبّر هذا القول عن طبيعة شخصيته، وعائلته المتحررة تماما من تلك الأساطير، وعن عملية تنشئته الاجتماعية التي عرفت درجة عالية من الانفتاح وسعة الأفق على شتى تيارات الفكر، وعلى مختلف الأعراق. ويثير وصف الصبيانية هذا، **سؤالا بالغ الأهمية**: هل يمكن لمجتمع تعشش الأساطير الطائفية في عقول صغاره، أن تخلو نفوس كباره منها في السر والعلن ؟ أم أن الوئام بين الكبار يظل قشرة رقيقة تخفي تحتها قابلية كامنة لسوء الظن والصراع ؟

يبرهن درس زنجبار على أن من يشب على شئ يصعب تخليص عقله كبيرا منه، وعلى أن الأساطير الطائفية كانت كامنة في نسيج المجتمع الزنجباري كله، وبحاجة إلى تخليصه منها عبر **عملية** تربوية جامعة، و**بصيرة** لدى أنظمة الحكم تجفف منابعها، وتعالج آثارها. ولهذين الهدفين نذر المؤلف حياته. وبمدى النجاح والفشل في تحقيقهما ربط مصير الأمة في حاضرها ومستقبلها.

ولعل **تجربة الانقلاب** على حكومة الوحدة الوطنية والاستقلال، **والجهد الجهيد** الذي بذله للإنتقال بمجتمعه الزنجباري، من مجتمع **المكتبات** و**الجمعيات والرابطات التي** يقف همها عند الهم الطائفي، وتغيب لديها الرؤية الجامعة لهموم وتطلعات الوطن والأمة والإنسانية جمعاء ، إلى **رحاب** وعاء مؤسسي جامع هو الحزب الوطني الزنجباري قائم على المواطنة الجامعة، يؤشران على أن **جدلية التفاعل** بين أعراف وتقاليد الوئام التي ترسخت

في مجتمع زنجبار قبل العهد الاستعماري، وبين **فيروسات الطائفية** التي سعى المستعمر الغربي وإرسالياته التبشيرية إلى غرسها والتمكين لها في نسيج المكون الإنساني لذلك المجتمع ، كانت قد أصابت ذلك النسيج بقابليات طائفية كامنة بالغة الخطورة.

وينبه المؤلف هنا إلى أن **الطائفية** ليست غرسا أسطوريا وحسب، بل هي صناعة استعمارية كذلك. فالمستعمر سهر على تخليق فوارق مفتعلة بين البشر، وعلى تكريس **الفروق الطائفية** بسياسة فرق ثم وحد بين المتفرقين تسد. ويفتح أنظارنا هنا في التجربة الزنجبارية على قيام المستعمر الإنجليزي بعملية مأسسة للمجتمع والدولة على ركيزة طائفية، من جهة، مشفوعة بالخلط بين السياسي والإجتماعي، بحيث تتقابل المصالح الفئوية الضيقة، ولا يصير هناك من يتحدث عن المصلحة القومية الجامعة ويمثلها.

وفي حين وجدت **قوانين** تحظر على الموظفين المدنيين الاشتغال بالسياسة، فإن المستعمر كان يغمض عينه عن تلك القوانين حين يصب العمل السياسي باتجاه **تكريس الطائفية**، ويقف له بالمرصاد حين يصب باتجاه **القاسم الجامع المشترك** بين أبناء المجتمع الواحد. ومن بين أخطر الأساليب الاستعمارية في تخليق الطائفية في الحالة الزنجبارية، **التخويف** من الحزب الوطني صاحب برنامج الوحدة الوطنية والتسامح ومحاولة الإلتفاف على مسعاه لجمع كلمة الأمة، وللتنشئة على التقاء أبناء الأمة بكل أطيافها، على ما يتفقون عليه وعلى أن يعذر كل منهم الآخر فيما اختلفوا حوله. وأهم آلية لجأ الاستعمار وأعوانه إليها لتحقيق ذلك هي اختلاق حزب طائفي هو الحزب الإفريقي الشيرازي،

المتماهي معهم في التفكير بعقلية طائفية، وفي التشكيك في نوايا دعاة الوحدة الوطنية، وفي السهر على منع قيام حكومات وحدة وطنية، وفي اعتبار كل الوسائل مشروعة إبادة كل من يناهض عنصريته.

ولعل ما ختم به المؤلف مذكراته هذه من تصورات لبناء فكر إسلامي صحيح والتنشئة عليه، يؤشر بدوره على تسليمه هو ومن ساروا على دربه بأن إعادة بناء الأمة لن تبدأ، إلا من دور التعليم ومن خلال عقول النشء.

أما **الوسيلة الثانية** التي استعان المستعمر بها في تكريس الطائفية، والمصادرة على الأوعية المؤسسية الجامعة، فهي **المصالح المكتسبة للنخب المرتبطة بالإدارة الاستعمارية.**

ويسجل المؤلف هنا مفارقة كون العوام البسطاء من أبناء الشعب كانوا هم الأسرع لتلبية داعي الاستقلال والحرية والوحدة، في مقابل **تقاعس** السواد الأعظم من **النخبة المثقفة التي** تربت في أحضان الإدارة الاستعمارية، سواء في مقاعد الفصل الدراسي، أو في كراسي المناصب الإدارية، و**اجتهادها** في البحث عن معاذير لاتخاذ مواقف سلبية من الحركة الوطنية.

ووصل تحري العدالة في القول بالمؤلف هنا إلى حد إثباته أن عناصر من النخبة المثقفة قدمت الصالح العام لأمتها على مصالحها الخاصة، وخدمتها سرا عبر المواقع الوظيفية التي كانت تشغلها تارة، وعبر التضحية بتلك المناصب بالفعل تارة أخرى، وأن **فريقا** من المستعمرين أنفسهم غلبت حاستهم الإنسانية والمهنية على حاستهم البيروقراطية والاستعمارية، وكانت لهم بصمتهم وعطاءهم المشكور في التربية والتعليم، وفي الزراعة،

وفي بناء شبكة الطرق، وفي إقامة العدل بين المزارعين والتجار في زنجبار قبل النكبة.

ومن داء **الطائفية** ينتقل بنا المؤلف إلى **المفصل الثاني** على هذا الخيط الفكري، متمثلا في ظاهرة غريزية يلتقي فيها البشر مع الحيوانات، تتعلق **باستئساد العناصر القوية على الضعيفة.** ويبين لنا أن الأمم تتداول هذه الوضعية حسب قوتها وضعفها، وأن اليهود عانوا طويلا من داء استهداف قوى الغرب لهم واستضعافهم حتى عهد قريب، قبل أن يتخذ الغرب بالتعاون الوثيق معهم، من المسلمين هدفا لهذا الاستضعاف والتشويه حاليا.

فوضعية تكالب الأمم الراهنة على أمتنا الإسلامية كما تتكالب الأكلة على قصعتها، ليست بالحالة الفريدة، ولا هي بالحالة التي لا فكاك منها للأمة التي تقع فيها، فيما لو أخذ بأسباب التعافي منها، واستلهمت أسباب وسنن النهوض الحضاري، واستعادة المكانة والعزة.

ومن قلب تلك الظاهرة تنتقل بنا الدراسة إلى **المفصل الثالث** على هذا الخيط الفكري الناظم لها الرابط بين **استهداف الغرب للمسلمين وبين مسعاه لردهم عن دينهم.** ويطرح المؤلف في هذا السياق **سؤاله المهم : لماذا إصرار** الغرب على استهداف المسلمين وعلى تلمس كل السبل المؤدية إلى استضعافهم؟ والإجابة العميقة التي يقدمها، هي أن: **المسلمين أمة أبت الارتداد عن دينها، واستعصت على الاستعمار، وتمسكت بعزتها.** والغرب يأبى التسليم لهم بذلك. وسلاحه في مواجهة فاعلية روح تلك الأمة وإمكانية استعادتها فاعلية شعار

(وإسلاماه)، في مواجهة تسلطه واستئساده، هو: **إزاحتها** عن ثوابت دينها **بالعلمنة**. وإن أخفق مسعى العلمنة في تشكيكهم في دينهم ، فلا مناص من **إبادتهم** بكل السبل الناعمة والخشنة.

وعطاء الدراسة في هذا **المفصل الحيوي** غزير وعميق. فأمتنا أمام مسعى غربي لصناعة مئات الوثائق الدولية المسماة بعهود ومواثيق حقوق الإنسان. وتظل تلك المواثيق حبرا على ورق منقطعة الصلة بواقع الحقوق المتبادلة بين الأعراق داخل الدول، وبين الشعوب والأمم، فضلا عن عملية التسلل تحت عناوين مراوغة تتعلق بالتمكين للمرأة والطفل والمجتمع المدني، للنخر في كيان الأمة وابتزازها.

ويرافق هذا **الخطاب الغربي المراوغ** الذي يتناقض في ظله قول الغرب مع فعله، تصديره لوهم أنه **فصل بين الدين والدولة** مع دعوتنا إلى تقليده، ومحاولة إيهامنا بأن سر تخلفنا المادي عنه ليس هو نهبه لخيراتنا وعبثه بعقولنا وبمنظومة قيمنا وأعرافنا، وإنما عدم محاكاته في دعواه تلك، بالمفاصلة بين ديننا الإسلامي والدولة والشأن العام.

ويبرهن المؤلف بعشرات الحجج والمؤشرات على أن الغرب **كاذب** في **دعوى الفصل بين الدين والدولة**، فضلا عن عدم وجود وجه يذكر للشبه بين الكنيسة التي ثار عليها الغرب، وبين واقع المسجد الجامع في العالم الإسلامي.

ويربط المؤلف بين **العلمانية**، والسعي إلى تشويش رؤية المسلم لدينه وتيسير تنصيره من جهة، ويقارن من جهة أخرى بين مضامين التساهل بل التشجيع الغربي للرموز المسيحية واليهودية

مع الاستهداف البالغ للرموز الإسلامية حتى شديدة الشبه بها. ويختتم هذه المعالجة بنص **بيان مسيحي إسلامي** صاغه هو ومجموعة من المفكرين المسيحيين منذ أربعة وثلاثين عاما. ولا يزال هذا البيان قابعا مع ألوف من الوثائق في أضابير عالمنا الذي بات يعاني من تخمة الوثائق، ومن جفاف الإنسانية وغياب أي أثر لها في أرض الواقع. ومن موجبات الشعور بالغصة والمرارة أن المؤلف رحمه الله لا يدعو **الغرب** فحسب إلى تفعيل ذلك البيان ، بل يدعو **قادة بلادنا** في عصر ما بعد الاستقلال إلى تمثل مضامينه ، في ترتيب العلاقة بين أبناء شعوبهم، وبين دولهم ومجتمعاتهم.

ويختتم المؤلف هذه النقطة المفصلية، بإضاءة معرفية مهمة، عن **مصادرة** المستعمر، ثم **السياسات** القومية الضيقة من بعده، على منابع تاريخية مهمة للوئام ونبذ الصراع، **تشمل**: الوصال والتعارف بين الشعوب والأمم المتحقق منذ قرون عبر **الرياح الموسمية**، وعبر ظواهر: **الشيخ** المدرسة، **والحلقات** الدراسية المتراتبة والمتشابكة، و**مجتمع** التعليم الحر المستدام، و**مؤسسة** الوقف الأهلي والخيري، **والإحسان** والاحتساب العلمي والتنافس بين التربويين في صناعة العقول، قبل الإصابة بداء التعليم من أجل الإسترزاق، وحبس المعرفة بدعوى حقوق الملكية الفكرية، الوافد من الغرب.

أما **المفصل الرابع** على هذا الخيط الفكري الناظم، فيتعلق باستهداف الغرب والإرساليات الغربية **للغة السواحيلية**، بغية فك ارتباطها الوثيق باللغة العربية وبالإسلام. فاللغة السواحيلية كانت قناة وصل بين لغات البانتو والعربية، ومن ثم بين الشعوب

الناطقة بها والإسلام، وكانت تكتب بأبجدية عربية، ويزيد عدد المفردات العربية الأصل في قاموسها عن النصف.

وتبين الدراسة كيف شكك المستعمر والمبشر المسيحي في وجود **الإنسان السواحيلي نفسه**. وكما تكالب المستعمر على إفريقيا وقسمها بين قواه الاستعمارية بحجة أنها أرض بلا مالك يحق له غزوها، غزا اللغة السواحيلية من مدخل مزيف قائم على التعامل مع تلك اللغة على أنها بلا صاحب، ونقل أبجديتها إلى اللاتينية، وغير قاموسها ونطقها بالاستعانة بأناس وافدين إليها ليست هي لسانهم الأم، علمهم إياها على النحو الشائه الذي اختلقه بصفة **لغة ثانية**، ثم نصبهم **مرجعية** لها، وربط المناصب الحكومية بتعلمها على تلك الطريقة الجديدة، وحول العارفين بها على أصولها الأولى بذلك، إلى **أميين وعاطلين** بين عشية وضحاها. واستعان بوسائل الإعلام الجماهيرية في محو ما تبقى من روح اللغة الأصلية، وفي التمكين للغة الجديدة المنزوعة الروح، المبتوتة الصلة بالعروبة والإسلام. ولم يعد ينطق بتلك اللغة على أصولها الأولى غير قلة تعلمت في مدارس غير علمانية.

وفي إجابتها عن السبب في صنيع المستعمر هذا باللغة السواحيلية دون غيرها من اللغات واللهجات الإفريقية، تقدم هذه الدراسة **حجة ثلاثية الروافد: ارتباطها** بالإسلام، **وثراؤها** وانفتاحها بحكم انتشار الناطقين بها على آفاق تمتد من قلب إفريقيا إلى الهند، **وتعبيرها** عن أمة متحضرة عريقة ذات تاريخ، على نحو لم يكن له نظير في البر الإفريقي، وبدرجة أذهلت المستعمر في بداية احتكاكه بإفريقيا وتكالبه على استعمارها.

وبحثت الإرساليات التبشيرية والمستعمر عن حل معضلة تلك اللغة. وتبين لهما صعوبة إزالتها من الوجود وهي بهذا التمكن، فاستعاضا عن ذلك بإزاحتها عن وظيفتها، وتوظيفها في عكس اتجاهها الأول بالتلاعب بها وتبديلها. وفي القلب من هذه العملية برمتها يقبع القصد الغربي إلى التشكيك في الهوية السواحيلية الإسلامية وإزالتها من الوعي الإفريقي.

ومرة أخرى تضعنا الدراسة أمام **سؤال هام**: ما السر في مركزية زنجبار في المخطط الاستعماري الرامي إلى فك الارتباط بين الإسلام والدولة، وكذا فك الارتباط بين اللغة السواحيلية وكل من اللغة العربية والإسلام؟ الإجابة أن زنجبار كانت نقطة مستعصية على عملية فك الارتباط بين العروبة والإسلام من جهة، وشرق إفريقيا من جهة أخرى. وكان كسر حلقتها هو مفتاح قلب حركة التاريخ في هذا الإتجاه.

والسر في ذلك أنها كانت هي الأسبق في منطقة شرق إفريقيا، في **إلغاء الرق ومناهضته**، وفي الحرص على **الحرية الدينية**، وعلى حق الدعوة إليها، وفي **التخلص** من سيطرة الاستعمار والإرساليات التبشيرية على المؤسسات التعليمية وعلى الخدمات الصحية. وعرفت زنجبار قبل غيرها تأسيس **تعليم علماني** مجاني للبنين والبنات، مع ربطه **بفصول القرآن**، وتعميم الخدمة **الصحية المجانية**.

وعلاوة على ذلك، فإن حقيقة كون أكثر من 90% من سكانها مسلمين، وما عرفته من تقاليد مستقرة لرعاية مشاعر الأقليات مهما كانت ضآلة حجمها في نسيج المجتمع، لم تترك مجالا للمستعمر للتمييز في مجالي التعليم والخدمة الصحية على أساس

ديني طائفي، ولا للفصل بين التعليم العلماني والديني. وظل البعد الإسلامي هو الجامع بين كل فئات شعبها.

ونأتي هنا **للمفصل الخامس** على هذا الخيط الفكري الناظم، متمثلا في **النكبة التي** حلت بمجتمعاتنا في عصر ما يسمى: الاستقلال وما بعد الاستعمار التقليدي، من جراء الإصابة **بفيروس الاشتراكية** المولود في الغرب بالصراع، والناذر نفسه للصراع، والمناهض لفطرة الإنسان بمعاداة الدين والأسرة والملكية الخاصة، والرامي وفق مثاليته إلى العودة بالبشرية إلى حالة ما قبل الدولة.

وهنا نجد أنفسنا أمام طرح فكري معرفي بالغ العمق لإشكالية التلاعب بالمفاهيم بمصادرة الممتلكات والتغول على كل الحرمات تحت مسمى: **التأميم**. ومن رحم هذا الإجراء الذي في ظاهره الرحمة ومن قبله أبشع العذاب، عانت مجتمعاتنا ولا تزال، من أزمة شرعية ومن تناقضات مركبة، فيما يتعلق بمرجعية التعامل مع الأنفس والأموال والأعراض. وعمت آفة أكل أموال الناس بالباطل الجميع إلا من رحم ربي، وتكرست حالة البلادة الضميرية تارة، وحالة المحاكاة في أكل مال الغير بالحيلة والأساليب المخادعة، وبالقوة والإكراه السافرين، على مستوى كل انساق المجتمع.

واستشرى الفساد في كل المؤسسات الرسمية وغير الرسمية. وغاصت الأنظمة الحاكمة في دولنا القومية في وحل الإكراه تارة، وفي مخاضات الحلول الجزئية المراوغة التي تستعيض بوعد التعويض عن رد المظالم إلى أهلها. ومرة أخرى يعري المؤلف دعوى **التعويض**، ويبين أنها أشد فتكا بالأمة من **المصادرة** ذاتها.

وفي ربطه الرصين بين رد المظالم واستعادة روح الأمة، وبالأخص بين استعادة الممتلكات المصادرة والوقف كشرط للسير بالأمة من جديد على طريق الإصلاح الحقيقي، يسمي المؤلف الأشياء بمسمياتها. **فالتأميم**: سرقة جماعية للممتلكات. و**التعويض** محاولة لإضفاء المشروعية على تلك السرقة، وهو بالتالي جريمة أبشع. وأزمة إفريقيا ليست قصورا في الموارد الطبيعية. فثرواتها عند التدقيق أكبر من ثروات البلدان العربية البترولية. والغائب الوحيد الذي لا قوام لكل تلك الثروات الظاهر منها والكامن، إلا به هو: منظومة القيم الأخلاقية، والتحرر معها وبها من التردي في أتون الانتهازية السياسية الرخيصة.

وينتقل بنا المؤلف بهذه المناسبة إلى حمى **التحصين وتقوية جهاز المناعة الحضارية**، ضد **الأوهام المتراكمة** التي تستهدف عقولنا في عصر الناظم القومي والعرقي والعنصري للدول، وصناعة بيوت العنكبوت، التي تلبس الحق بالباطل، وترمي إلى تشويه كل ما له صلة بالإسلام مؤسسة وأشخاصا وأفكارا.

وتتصدر **الأوهام** التي تدعونا الدراسة إلى التحرر منها أساطير **الطائفية وعالم الأشباح والسحرة** الذي باتت تسكن عقول النشء. ومن بين الأساطير التي يعريها المؤلف هنا: **تفضيل النظام الجمهوري** على النظام **الملكي** بإطلاق، وكأن العبرة ليست بالمضمون والمعايير، وكأننا أمام وهم تقدم لخطى، كل فكرة جديدة في ظلها جيدة لمجرد كونها جديدة، وكل فكرة قديمة رديئة ومتخلفة لمجرد كونها قديمة. ولا أساس من العدل الفكري في تلك الرؤية التي تهدر ثروة البشرية من الخبرة التاريخية، لصالح أفكار مستحدثة لم تختبر جيدا بعد.

فالقديم ليس طالح كله. ولا الجديد صالح كله. والتدمير لذات التدمير مفسدة للعمران. والشعوب بلا رأس حاكم، وبلا أنساق للرعاية المتبادلة، وبلا ملكية، تغدو مضيعة وسهلة القياد. والتجارب الثورية الاشتراكية التي قامت على العبث بنظام الملكية الخاصة والعامة وبمعايير الأمة وثوابت قيمها وتقاليدها، أصابت الشعوب بالعقم. وهي أقرب ما تكون بفعلها بالشعوب التي ابتليت بها، بفعل واحد من **اثنين**: من يخصي **الثور**، فيجعله أقدر على جر المحراث أو العربة، وعاجز في الوقت نفسه عن التكاثر، أو **النسر الذي** يقتات على جثث ضحاياه، فيموت، وتأكله هو نفسه، الديدان والنمل.

أما **الوهم الثاني** الذي تدعونا الدراسة إلى التحرر منه، في ضوء خبرة زنجبار في لحظة التحضير للإستقلال فهو: **الحلول الوافدة من الخارج**. ويبين المؤلف في هذا الصدد، أن الحلول التي طرحها الخبراء الإنجليز – دولة الاحتلال- وكذا التي طرحها خبراء الأمم المتحدة، لمشكلة تفتت الحيازات الزراعية في زنجبار على نحو لا يتمشى مع متطلبات الزراعة الحديثة والسوق، صبت في **اتجاه: تأبيد** التبعية للغرب، **وإغراق** الدولة في الدين الخارجي، و**التمكين** لأنظمة الحكم من تحقيق تغول الدولة على المجتمع.

وبعد أن يفند المؤلف عورات تلك الحلول الوافدة التي تخفي أجندات مقدميها، يطرح بتواضع جم **بدائل ثلاثة نابعة**، ويوصي باختبارها أولا، ثم الاختيار من بينها في ضوء ملائمتها وجدواها الحضارية والاقتصادية.

أما **الوهم الثالث** فهو دعوى **المساواة الاشتراكية الجوفاء**. ففي حين يروج اليساريون **خطاب المساواة** حتى لو كانت على حساب الحرية والعدالة، يرصد المؤلف شواهد مخالفة أفعالهم لأقوالهم، وممارستهم أبشع صور انتهاك المساواة حتى في أبسط صور العلاقة فيما بينهم، ناهيك عن العلاقة مع غيرهم، وبوار مشروعهم العمراني وتربع الزيف والنفاق في قلبه.

وفي مقابل تصرف هؤلاء على نحو يجافي المساواة جملة وتفصيلا، يطرح المؤلف من مرجعية إسلامية إنسانية ، فكرة **التمييز لصالح المستضعفين**، ويلح على تطبيقها، وينجح في إقناع القائمين على العملية التربوية في بلاده بها، وينفذها بالفعل فيما يتعلق بفرص التعليم الثانوي لأبناء الريف، والبعثات الخارجية لمدرسي المدارس الريفية.

أما **الوهم الرابع** فهو مركب **الإرجاف بالتخويف** من **الحل الإسلامي** ومن **المكون العربي** في المركب السكاني في البلدان الإفريقية، مع تصوير الحلول المستوردة خاصة تلك المبنية على الأيدلوجية الاشتراكية على أنها البديل الوحيد الناجع لصناعة حاضر إفريقيا ومستقبلها.

ويضعنا المؤلف رحمه الله، هنا في قلب عملية رصد وتفنيد أوهام نسجت بهدف تشويه العمل الإسلامي الوطني، والتخويف من المد العربي في إفريقيا، والتهويل من خطر الأحزاب والمنظمات ذات التوجه الإسلامي. وبعد التفنيد ينعت المرجفين المروجين لتلك المفتريات بنعت: **الفوضوية الأصولية، التي** تتبتل في محراب مقولات اشتراكية تجاوزها الزمن حتى في الغرب الذي ولدت فيه، وتتغذى على نفايات الغرب، وتستهدف كل قابليات التقدم في

أمتنا سرا وجهرا، وتقهر الحريات. وفي حين تدعي تلك الأنظمة الزائفة أنها حررت شعوبها من المستعمر، فإنها تعرضها **لعبوديات مركبة ومنوعة**، تشهد بها ساحات السجون، وأضابير القوانين الاستثنائية، ومؤشرات الافتراق الصارخ بين القوانين والدساتير والواقع المعاش، وضمور قابليات الحياة على أيديها في النبات والحيوان والبشر.

ويثبت المؤلف **للعرب عامة وللمسلمين** بوجه عام، بأدلة تاريخية دامغة ومستفيضة، أنهم على عكس ما روج ضدهم في زنجبار منذ انقلاب 1964 الدموي حتى الآن، لم يدخل العرب زنجبار **غزاة بالقوة**، بل دخلوها **بالإسلام وبالمصاهرة والتجارة**، **وبدعوة** من أبنائها مرارا لهم لمساعدتهم في التخلص من نير الاستعمار البرتغالي، ومن بعده الاستعمار البريطاني والألماني. وقادوا حركة المقاومة ضد المستعمر، ولم يترفعوا أبدا عن العمل بأي مهنة مهما كانت شاقة، وسعوا على الدوام إلى المصاهرة والانصهار في نسيج المجتمع، وإلى تمثل وسطية الإسلام وسماحته في تعاملهم مع كل أبناء وطنهم.

وفي المقابل، يثبت المؤلف أن **دعاة الثورة مارسوا تمييزا ممنهجا ضد المسلمين رغم كونهم الأغلبية الساحقة**، حتى في السجون، وقوضوا دور المجتمع في التعليم المؤسس للهوية والمبني عليها. وفي حين كان سيل من المبشرين البروتستانت يأتون إلى سجون، جل نزلائها من المسلمين، لم يأت إليها دعاة مسلمون إلا في النادر، اللهم إلا لأغراض تتعلق بمزيد من التمكين للحكام من نهش البقية المتبقية من حرمات النزلاء وكرامتهم، مع الاستعاضة

بوعظ السجين المظلوم بالصبر عن وعظ السجان الجلاد بالكف عن الظلم.

وعلى إثر تفنيد تلك الأوهام، ينتقل المؤلف بنا إلى **المفصل السادس** المعني **بالتعليم والتعلم** ، مبينا أن مكانهما ليس هو **المدرسة** فحسب، بل **الحياة**. فهو **معلم متعلم** رفيع في السجن، ينفتح على دراسة الأديان المقارنة، ويجلي للقلة غير المسلمة من النزلاء عبقرية الإسلام وتهافت الخطاب الكنسي، ويفاصل بينه وبين حقيقة الكتاب المقدس. وعلى يديه، وبالنموذج العملي قبل الكلمة يهتدي عشرات الأشخاص إلى الإسلام، ويعود كثيرون عن الغي إلى بحبوحة الصواب والاستقامة الإسلامية، ويتم ترتيب أسباب محاكمات عادلة لأناس تثبت من كونهم ضحايا مثله ومظلومين.

ومن بين ما تعلمه المؤلف ويعلمه لنا ضرورة وضع **جمعيات حقوق الإنسان العاملة بالداخل والخارج في حجمها الصحيح.** فهي مع كل الهالة الدعائية المنسوجة حولها، تعمل بنوع من التوافق مع الحكومات حين يتعلق الأمر بناشطين مسلمين، ولا تقيم الأرض وتقعدها إلا بالنسبة لغير المسلمين، وبتنسيق ملحوظ مع حكومات غربية، وهي إلى النفعية السياسية أقرب منها إلى الإلتزام الأخلاقي الإنساني.

ومن بين ما علمه المؤلف، وما يحذرنا من مغبته، أننا أصبحنا أمة تفرط كثيرا في **آثارها ورموزها**. فأين صاع المدينة ومكيالها وميزانها؟ وأين شجرات العائلات التي هي مفتاح معرفة الأرحام وصلة الرحم؟ وأين توثيقنا لتاريخنا، لا على أنه تاريخ حكومات،

بل على أنه تاريخ أمة ومجتمع وبشر منتشرون في كل أرجاء المعمورة، لهم بصمتهم وإنجازاتهم في كل مجالات الحياة ؟

ويضع المؤلف أيدينا هنا على حقيقة أن من أخطر ما نفتقده كتربويين بمؤسسات التربية والتعليم المعاصرة، من الحضانة إلى الجامعة هو **غياب**- أو على الأقل ضبابية ووهن - **الرباعية الذهبية** التالية: **اعتماد التدريس على خطة مدروسة وسلسلة منهجية محددة** (والذي أدى في النموذج الذي عايشه المؤلف، إلى تمكن الدارسين من إتقان اللغة الإنجليزية بدرجة أكبر من إتقانهم اللغة العربية، لاعتماد طريقة تدريس الأخيرة على جهد المدرس وتخطيطه، على عكس الأولى)، **وغياب نموذج الطالب** النابه الذي تحتفظ ذاكرته بأسماء كل أساتذته، ويمتلك الوعي بتقييم عميق لهم على شاكلة نموذج المؤلف هنا، **وغياب الهيئة العلمية المحتسبة لله** المتنافسة في الإحسان العلمي، على شاكلة أساتذته، **وغياب نوعية الخريج المؤهل** لمواصلة التعلم والتعليم بعد تخرجه في الجامعة.

ورغم الضجيج العالي الراهن لما يسمى ببرامج الجودة والاعتماد وتقييم الطلبة للأستاذ والأستاذ للطلبة وفق معايير موضوعية، وتوصيف مقررات فروع المعرفة الإنسانية والاجتماعية، وفق معايير قابلة للقياس العلمي التي غطى حديثها الآن على كل حديث غيره ، فإنني أقول من موقع الشهادة والمسؤولية، أنها تمثل **مكاء وتصدية**، و**هراء وافدا** تطغى المعايير الشكلية فيه على الجوهر، وتغلب عليه سمة المحاكاة لخارج مغاير لبيئتنا، ويعمق تبعيتنا للغير على حساب بصمتنا الحضارية. وتنقسم الجماعة العلمية في مواجهته بين منتفعين يركبون موجته، وبين مجاهرين

بالتحذير من مغبته على عقول النشئ في حاضر أمتنا ومستقبلها، وبين منصاعين له في الظاهر دون الباطن، ممتثلين لشكلياته، غير متمثلين لجوهره مفضلين المقاومة الكامنة على السافرة. وشتان بينه وبين النموذج النابع الأصيل المطروح علينا في هذه الدراسة.

إلا أن قمة العبرة والخبرة التي تدعونا هذه الدراسة إلى تعلمها وتعليمها، أنه لا **خسارة** في هذه الحياة **تعادل المساس بهويتنا الدينية**، ولا **مكسب** فيها يضاهي **الحفاظ** عليها. ويفسح المؤلف صفحات طوال لتجلية هذه المسألة عبر تجربة عملية، يورد شهادة صاحبتها بنصها، لا بتعقيبه عليها، تتعلق بسرقة تاجر غربي لهوية فتاة عربية تنتمي للأسرة الزنجبارية المالكة. ومع أن عملية سرقة الهوية فجة في هذه الحالة، فإنها ليست فريدة من نوعها. فكثير من أبناء أمتنا سرقت هويتهم، وتحولوا إلى صورة ممسوخة، وتقطعت بهم السبل على نحو لم يصيروا فيه غربيين، ولم يبقوا معه شرقيين.

وربما يكون الفرق المهم في هذا السياق أن صاحبة هذه التجربة اندفعت بمرارتها إلى تحذير من وراءها، رغم حقيقة أنها بعنادها لم تشمر عن ساعديها لإنقاذ نفسها، في حين أن كثيرين غيرها ممن صرعتهم الأيدلوجيات السياسية التي ولدت في الغرب واتخذوها دينا لهم، صبروا على الترويج لها حتى بعد أن بارت لدى أصحابها الأصليين، وعكفوا على الضلالة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأنهم يمثلون التقدم، ومن يخالفهم يمثل الرجعية والتخلف.

وهنا وعلى هذا المفصل المعرفي، يقف القارئ أمام سيدة فقدت بمجرد السلب الظاهري لهويتها العربية الإسلامية كل شئ. فكيف بمن يفقد هويته تلك شكلا ومضمونا؟ فقط نجح من احتال على هوية تلك الفتاة في جعلها محسوبة على المسيحية. ورغم محاولتها التدثر بالجهل، وخلطها بين المثابرة والعناد، فإنها تهدي إلينا بفصاحة **خلاصة** درسها مع الغرب المسيحي في **خمس وصايا، يعقب عليها المؤلف بتوصية واحدة من وحيها.**

الوصية الأولى أنه **لا شئ** في الحياة يعوض المرء عن فقدان هويته الإسلامية.

و**الوصية الثانية** أنه **لا شئ يمتلك** سلطانا على ضمائرنا أكثر من ديننا.

والوصية الثالثة أن **المسيحية ديانة** هانت على أهلها وهمشوها. ولا خطر جدي فيها على الإسلام. ففاقد الشئ لا يعطيه.

والوصية الرابعة أن وضعية المرأة في الغرب بريق بلا مضمون. فلا وجه للمقارنة ولا للمقاربة بين **كرامة** المرأة في الشرق الإسلامي **وهوانها** في الغرب. فهي في الشرق الإسلامي **موضع رعاية الدين ذاته**. والمسلم مستحضر للمعية الإلهية في التعامل معها. ومعايير التعامل معها أرقى من أي نظير لها في الغرب. وفي مقابل **قلة تسئ** إلى المرأة في العالم الإسلامي، توجد قلة تحسن معاملة المرأة في الغرب. وشاغل الغرب الحديث الأول، ليس كرامة المرأة، بل توظيفها في خدمة مشروعه الاستعماري والتجاري، على نحو لا يحرمها من أنوثتها فحسب، بل يجردها من إنسانيتها كذلك.

وتفضح صاحبة التجربة هنا مسعى على مستوى الإمبراطور الألماني نفسه، لتوظيفها في عملية استعمار بالإكراه بالقوة، بذريعة الحصول على ميراثها من سلطنة أخيها، مصحوبة بتجريدها من كل اعتبار بعد العثور على مدخل آخر لتحقيق ذلك الهدف بدونها.

والوصية الخامسة هي دعوتنا إلى الوعي **بأن الرق في المشرق الإسلامي كان له وجه إنساني، وضوابط يفرضها الدين والعرف والتقاليد المستقرة**، يأكل المولى في ظلها مما يأكل سيده، ويلبس مما يلبس، ويصل مدى المجاملة بينهما إلى حد مشاركة السلطان نفسه في أفراح مواليه. أما في الغرب، فإن الرق كان صناعة الاستعمار. وعنه نافح الغرب بكل السبل، وكان أول الواقعين فيه وآخر القابلين للتخلي عنه بأشكاله القديمة، مع استحداث صنوف منه أبشع عنصرية من سابقتها. والكيفية التي نشأت بها مجتمعات ما يسمى العالم الجديد، وأنهار الدم التي تسيل، والخرائب والدمار المادي والأخلاقي والنفسي الذي تخلفه، حروب يسعرها الغرب في كل مكان، شاهد لا يزال حيا على ذلك.

ويظل بيت القصيد الذي تنبهنا إليه تلك الفتاة العربية الزنجبارية التي غرر الغرب بها، وفشل في أن يحصل منها على غير ظاهرها، من أنه بات يمثل مصنعا كبيرا **لنوعين من** أبشع صور الرق التي عرفتها البشرية.

أما **النوع الأول** فهو دوره في انقسام البشر داخله إلى **فريقين: أثرياء** إلى حد التخمة، **وفقراء** إلى حد العدم. وتصب في معين هذا الرق الفجوة التي تحرص السياسات الغربية على استدامتها وعلى اتساعها بين الشمال والجنوب.

وأما **النوع الثاني** فهو الذي تصطنعه آلة الحرب الغربية المعاصرة. فالغرب يتفنن في إنتاج أدوات الفتك بكل ما على وجه البسيطة بما فيها الإنسان. والإكراه والقهر بالقوة الناعمة والخشنة الممارس على الشعوب بتلك القوات لون من **الرق الجماعي**. وعملية تزييف صورة الآخر واصطناع العدو، وتصوير أهداف الحرب على غير حقيقتها، التي يتعرض لها **جنود** تلك الجيوش الغربية، فضلا عن إكراههم، نمط جديد بشع من الرق. ولا بأس أن نلمح هنا إلى ما ذكره نعوم تشومسكي من أن مجمع الأمن القومي الأمريكي يتخذ من الجنود الأمريكيين أنفسهم، وليس من الأمم الأخرى فحسب، حقل تجارب لأسلحته الفتاكة الجديدة.

أما **الوصية السادسة** التي يستخلصها المؤلف من عبرة تلك التجربة، فهي أن **الخارج المسيحي الاستعماري** كان ولايزال يمارس لعبة يسميها: **العبث الدبلوماسي بالنخب الحاكمة أو الساعية إلى السلطة** في عالمنا الإسلامي. ويتصدر أدوات هذا العبث: **تهميش** البعد الأخلاقي لصالح الانتهازية السياسية، تحت عناوين براقة، مثل: التعددية السياسية والحزبية والديموقراطية والإصلاح الليبرالي. ويبحث الاستعماريون الغربيون القدامى والجدد والدائرون في فلكهم، عن اختراق أمتنا عن طريق من تراودهم أطماع شخصية غير مسؤولة على حساب أمتهم.

وبصناعة الفوارق والتعارض المختلق، يتسلل المستعمر الجديد كالقديم تماما، ويحول كل من يتعاون معه عن قصد أو عن غير وعي إلى **نفاية** بمجرد انتهاء الدور المراد منه تأديته. ويؤكد المؤلف هنا على أهمية التنشئة على: الشك في أخلاقيات المستعمر، واستلهام نماذج للقدوة من عظماء أمتنا.

ونصل هنا إلى **المفصل السابع** على هذا الخيط الفكري الناظم، المتعلق بتنبيه الأمة إلى مسألة كانت هي السابقة في التأكيد عليها، ولكننا لم نكن خير خلف لسلفنا. فغفلنا عنها وضيعناها، ولانزال. تلك هي حقيقة أنه رغم الأهمية القصوى **لقلب** العالم الإسلامي، فإن سلامة ذلك القلب رهن بتحصين **ثغور الأمة**.

ونظرة عابرة على خريطة عالمنا الإسلامي تبين بكل قوة جسامة الاستهداف، ومساعي التفريغ الكمي والنوعي والتمزيق بمبضع حلاق على قارعة طريق، الذي تعرضت له أرضنا وعقولنا، منذ الهجمة المغولية والصليبية والأوربية حتى الآن.

وتضع الدراسة أمتنا أمام **معلومة بالغة العمق والخطورة**، نكتفي في هذه العجالة التمهيدية بذكر **خلاصة خبرتها**. فالخبرة التاريخية لسيرة التعامل الغربي مع زنجبار، وثغور أخرى مماثلة تكشف عن أن الغرب عامل مناطق الثغور الإسلامية بكرم بالغ حتى هيئ لنفسه فيها موطئ قدم يقفز منه إلى القلب. وما أن رسخ أقدامه في القلب حتى كشف عن وجهه الحقيقي لتلك الثغور، وتحول إلى تهميشها أو إخضاعها، وتفريغها من مقومات البقاء. ويقيم المؤلف حجته تلك على مسح يتعدى حالة زنجبار، إلى ثغور مماثلة في شتى أرجاء العالم.

أما **المفصل الثامن** فيتعلق بأهم **عاملين** في مقاومة الاستعمار في إفريقيا. ويبين المؤلف هنا أن الخبرة التاريخية تبرهن على ارتباط مصير تلك المقاومة بعاملين: **الدور المصري** بوصفه مصدر الإلهام، **ودور** أنساق المجتمع. فمع قوة هذين العاملين كان التخلص من الاستعمار القديم. ومع تردي هذين العاملين كان استئساد الاستعمار الجديد.

ويقدم المؤلف في هذه الدراسة وصفا دقيقا للدور المصري في إفريقيا منذ العهد الناصري حتى الآن بإيجابياته وسلبياته، نترك للقارئ الوقوف على تفصيلاته في مواضعها من هذه الدراسة. وتكفينا هنا الإشارة إلى **أمرين رئيسين** كانا ولا يزالان يمثلان كابوسا رهيبا بالنسبة للدور المصري في إفريقيا: **أسوار** البيروقراطية المصرية العالية ودروبها الوعرة، و**الحساسية** المفرطة من جانب خصوم ذلك الدور تجاهه وتكتلهم بكل السبل ضده، وتلمسهم سبل إجهاضه.

ويرصد المؤلف شواهد مهمة في تجليته لهذين البعدين على عسر الحصول على عون مصري، وعلى افتقاد ذلك الدور للتخطيط والبصيرة الكفيلة بثبات خطاه، وعلى تشوهه بفعل جدلية البيروقراطية والعقائد السياسية الوافدة في أذهان حاشية المقربين من صانع القرار من جهة، والاستهداف المخطط له، من جانب خصومه ونجاحهم في توليد حساسية مضادة له في الأوساط الإفريقية غير العربية، دون رد مصري على مستوى تلك التحديات.

أما على صعيد **العامل الثاني** الخاص بقوة نسيج المجتمع، فيقدم المؤلف طرحا فكريا عميقا حول أهمية تأسيس الأسرة على الزواج من بيت. ويبين الشبكة العلاقية ومنظومات الحقوق والواجبات التي تترتب على المصاهرة. ويجلي حقيقة اليسر البالغ في المتطلبات الشرعية لعقد القران، مقابل العقبات الرهيبة التي تضعها العادات والتقاليد في سبيل بناء الأسرة.

ويجلي المؤلف هنا **أمرين: وعيه** بشبكة علاقاته القرابية، رغم كونه نموذجا فريدا للإيمان بوحدة النفس البشرية، ومن ثم وحدة

بني الإنسان بداية ومسيرة ومصيرا، **والدور المهم لتلك الأنساق** القرابية في الداخل والخارج، وفي السراء وفي الضراء. وهو رغم حفاوته البالغة بتلك الأنساق يضبطها بمقولة للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يصر على إيرادها بالعربية في مذكراته المكتوبة بالإنجليزية، ترد البشر جميعا إلى آدم وحواء، وتوقف التفاخر بينهم على أصلهم من الطين والماء.

أما **المفصل التاسع** فيتعلق بوصف **داء النخبة المتعلمة** في عالمنا الإسلامي ووصف الدواء له. أما الداء فهو **افتتان** مؤسساتنا التربوية بشعار مخادع هو: **الخريج الممثل للكمال عند تخرجه**. وهذا الهدف خيالي، وهو ضار حتى على فرض إمكانية تحقيقه. فالحياة كالنهر الجاري، يستحيل العوم في نفس مياهه مرتين. فلا تقييم الخريج لمنحه شهادة التخرج ، ولا للحكم بصلاحيته للعمل، ينبغي أن يؤسس على مثل هذا الشعار، بل على مبدأ آخر هو: **القدرة على تحقيق المزيد من الإرتقاء المتواصل بعد التخرج.**

وداء الصفوة المتعلمة المؤسسة على الشعار الأول هو: **افتقادها** للمثابرة وثبات العزيمة بعد التخرج، **وانشغالها** بالتنقيب عن الحيل والحلول السهلة، لا عن الجوهر، **وإخفاقها في** تحقيق الوفاق بين التزامها المهني والتزامها الديني والوطني، **واكتفائها** بدور الناقل عن دور المبدع، **ورضاها** بأن تتعرف على نفسها وعلى غيرها بنظارة غيرها، **وظاهرة عدم خلوها** عادة من عناصر كارهة للحرية، رغم حقيقة أنه حتى الحيوانات مجبولة على حب الحرية.

والمخرج هو تجاوز ذلك **الشعار** إلى ذلك **المبدأ**. ويدعو المؤلف النخبة المتعلمة إلى **رباعية مهمة** قوامها: **استعادة** آصرة تمكنها

من اللغة العربية، **والتحول** من مستهلكين للفكر إلى منتجين له خاصة فيما يتعلق بالعلوم المعنية بالهوية العربية الإسلامية، **والارتباط** من مواقع التعلم ومن مواقع العمل بالمجتمع على نحو نظامي ومؤسسي ومخطط، **ومناهضة** الثنائيات الغربية المصطنعة التي تفكك بها عرى المجتمع وتزرع بها الفتنة، بالتنشئة على الإيثار، **والتعاون على** البر والتقوى بدفع المظالم والانحياز للمستضعفين، وسد أبواب الفرقة الكامنة والظاهرة.

ويرسم المؤلف هنا معالم صفوة أصيلة، شعارها: العطاء لا الأخذ. وغايتها: هي أن تخدم أمتها، لا أن تحول أمتها إلى خادمة لها. ويهدي إلينا بصراحة بالغة وصاياه **الخمس**: الأولى: **الصحيح** أخلاقيا صحيح سياسيا. والثانية: **الطموح الشخصي** مفسد لصاحبه وأقصى ما يمكنه أن يرتقي به يرتقي كومة نمل، في حين أنه يتأهل بالتخلص منه ويحمل هم الأمة بأخلاقية لارتقاء قمة أعلى جبل. والثالثة: **مفاتيح النجاح** ليست بيد البشر بل بيد الله تعالى، وما علينا غير الاجتهاد في الأخذ بالأسباب مع صدق النية في العمل. **والرابعة: وجوب الحذر من شعار:** مزيد من الواقعية وقليل من المثالية. فترويجه باب خبيث للعبث بالهوية وللتحول دون أن نشعر من الأخلاقية إلى الانتهازية الرخيصة. **والخامسة والأخيرة: وجوب** التحرر من تخدير شعار تحديد هوية الإنسان بحقوق المواطنة الحصرية، واستعادة الوعي ببناء تلك الهوية على إنسانية الإنسان العابد، الذي سواه الله تعالى ونفخ فيه من روحه، وخلقه حرا، وكلفه بأن يعمل من أجل البقاء حرا، وجعل مدار عزته وكرامته على الحرية المسؤولة بجناحيها: التحرير والتحرر.

وتتناسج رؤية المؤلف هنا مع دعوة المفكر العربي الراحل عبدالوهاب المسيري إلى تجاوز إنسان الموضع الذي اصطنعته الحضارة الغربية المادية، بالإنسان **الكوني الرباني** الذي عرفه الإسلام. كما يستدعي مقولة عالمة الأمة الراحلة منى أبو الفضل في التمييز بين حضارة المسقط الأفقي والبندول المتأرجح الغربية، وبين حضارة المسقط الرأسي والميزان التوحيدية.

أما **المفصل العاشر** فيؤشر على **أمرين**: أولهما **التحرر** من وهم التحول من الزراعة إلى الصناعة، والافتتان بالذهب والعملات الصعبة ، واستهلاك أسوأ ما ننتج، لصالح تخصيص الأفضل للتصدير، في محاكاة سافرة لأسطورة لمسة ميداس، التي لم يخرج صاحبها من نشوتها المتمثلة في تحول كل ما تلمسه يده إلى ذهب، إلا لما لمست يده جسد ابنته فحولته إلى ذهب. فلقد استولى هذا الوهم على عقلية من صاغوا خطط التنمية الإقتصادية في بلادنا بمختلف صورها، في عهد ما بعد الاستعمار، وتقلبوا بها من إخفاق إلى آخر، لم تقم معه صناعة ولا بقيت زراعة، ولا روح إنسان.

ولعل **الأمر الثاني** المقابل، هو الأهم وهو التجربة التي يعرضها المؤلف بالتفصيل لتحقيق زنجبار **الاكتفاء الغذائي الذاتي** في ظروف استثنائية بحجم الحرب العالمية الثانية.

ومن أهم ما يجب الوقوف عنده هنا، بيان المؤلف الكيفية التي تعانق بها الانفتاح العلمي على الخارج من جانب صفوة خبراء الزراعة والطب البيطري بزعامته من أبناء أمتنا الإسلامية في نقطة بحجم زنجبار، وفي ظروف بعسر الحرب العالمية الثانية، وإيجابيات التركيز على بناء القناعة الجماهيرية، في مقابل

العواقب الوخيمة للإعتماد على السلطات الممنوحة بقوانين استثنائية، في تحقيق تلك الغاية التي تحتاج جل إن لم يكن كل دول عالمنا الإسلامي لمحاكاتها واستلهام عبرتها.

أما **المفصل الحادي عشر** فيتعلق بابتلاء أمتنا بذهاب **الشيوخ الراسخين** في العلم وتشتيتهم، وظهور فئة من **المعممين المتعالمين**. ومع أن الفئة الأخيرة كانت على الدوام قلة يسيرة، فإنها هي الأكثر تنظيما والأعلى صوتا، والأقوى مددا ماديا ومعنويا ونفسيا، من قوى خارجية ذات مصالح في عالمنا الإسلامي. والأغلبية العظمى من الأمة تائهة ومغلوبة على أمرها.

وسقوط سلطنة زنجبار، ودخول الاشتراكية في حضرموت، وتردي الدور الريادي المصري السياسي والاقتصادي، ودور الأزهر التربوي والتنويري في إفريقيا، وراء التمكين لفئة ممن يدعون المشيخة، في حين يقف دورهم عند صناعة الجدل العقيم. وكل منهم يضبط إيقاعه على هوى من يموله ممن لا علاقة لهمومهم بالدين، بل بالمنافع السياسية العابرة. وبذا باتت الأمة أمام ما يسميه المؤلف: **خطر** التبديل، و**الفتنة التي** هي أشد من القتل، و**تراجع** صناعة الإخاء، **ورواج** صناعة الكراهية، **والتلقين** الطائفي، بدلا من التحصين ضد الطائفية، بعد أن تقطعت السبل بالأمة، بتجفيف منابع زراعة الوسطية والتسامح في زنجبار وحضرموت.

وفي هذا السياق ذاته يستعرض المؤلف **كارثة النفخ في كير الطائفية في زنجبار** منذ أواخر العقد الخامس من القرن العشرين، والجهد الدؤوب والمخطط والمتواصل الذي تمت به إزالة دولة

زنجبار من الخريطة السياسية للعالم ، والزج بصفوتها المثقفة في السجون وفي الشتات، وشل مؤسسات مجتمعها التربوية الإسلامية، وتبديل أخلاقيات شعبها.

وينبهنا إلى خلاصة الدرس الزنجباري في هذا الصدد، وهي أن وراء ذلك حقيقة أن **رحيل المستعمر صوري**. فهو قابع فينا، وعمليات التفكيك التي سهر عليها ونفاياته الفكرية لا تزال فاعلة. ويحدد المسؤول عن سقوط زنجبار وما حل بها **بخماسية: الإرث الاستعماري** المستقطب لعناصر من الداخل، **والانتهازية العنصرية غير الأخلاقية** التي قد تبدأ ضد عنصر ما، ولكنها ما تلبث أن تتحول بطبيعتها ضد كل الأعراق الأخرى، و**التواطؤ** البريطاني، و**مؤامرة** جوليوس نيريري الخارجية، **والسذاجة والعشوائية** العربية في الفعل وفي رد الفعل داخل زنجبار وخارجها.

ومن أهم الشواهد التي يسوقها المؤلف لدعم حجته في هذا الصدد، دلالة عدم المساس بشعرة من شخص أجنبي أثناء الانقلاب الدموي عام 1964، وعدم استجابة العناصر الزنجبارية لداعي المقاومة وإغلاق بيوتهم على أنفسهم حتى سيقوا منها إلى الموت أو السجن أو الشتات، واستجابة مصر ومحيط زنجبار الجغرافي السريعة لمطالب قادة الانقلاب، بما فيها تصفية مشروعات التعاون المبرمة بينها وبين نظام الحكم في زنجبار قبل ذلك الانقلاب النكد.

أما **المفصل الثاني عشر** فيتعلق بوصف ونقض ما دأبت عليه أنظمة الحكم الثورية في عالم ما بعد الاستعمار التقليدي من تشويه صورة النخب الحاكمة من قبلها، ورمي خصومها بكل

عيوبها من جهة، واجترار **الصور النمطية** التي شكلتها الإرساليات التبشيرية وحركات الاستشراق عن عالمنا الإسلامي، القائمة على اتهام العروبة والإسلام، والتزهيد في أي طريق للتقدم خارج النموذج الغربي وبمعاييره.

وهم في هذا الصدد يكرسون أوهاما مزيفة تعريها هذه الدراسة، وتتجاوز نقدها إلى نقضها من أساسها، تجعل الإفريقي يشعر بدونيته وبفضل الغربي عليه. ويقدم الاستعمار والمسكونة عقولهم به من بعده صورة للإفريقي تصوره عبدا، جاء المستعمر الأبيض إليه بالحرية من الرق، وبما يكسوه من العري، وبالدين الذي يخرجه به من الوثنية، وبالتحضر الذي يخرجه به من البداوة والتصحر إلى آفاق المعرفة والتقدم.

وعبر عملية تمحيص لتلك الدعوى يثبت المؤلف زيفها، ويبين أن الاستعمار ظاهرة من **قبيل ما شره أكبر من خيره**. ويوضح كيف ارتبطت تلك الظاهرة بالتمكين لعملية تحريف واسعة للتاريخ وقلب للحقائق وللموازين، وغرس للأحقاد ولعوامل الفرقة، وتغذية بالنفايات والدعاية المريضة والربا والمخدرات، وعقد النقص، وتبديد الهوية. وتعري الدراسة مرة أخرى على نحو تشيب من هوله الولدان، إفك الغرب والإرساليات التبشيرية في مجالات امتهان المرأة والمتاجرة بعرضها، وعلاقة الأديرة المفترض أنها صوامع للرهبانية والتفرغ للعبادة بالعبيد الطواشي، والتكسب بالاستثارة الجنسية بجسد المرأة.

أما المفصل **الثالث عشر** فيتعلق بتزييف الغرب للمفاهيم. ويتخذ من بيان الكيفية التي ولد بها مصطلح **الأصولية في** الغرب دالا على فئة بعينها من المسيحيين المؤمنين بعصمة الكتاب المقدس،

المتمسكين بتأويله الحرفي، والكيفية التي تم بها تحويله إلى مفهوم يتعلق بالتنطع والتعنت والتعصب الديني، ثم تحويله بهذا المعنى المحرف إلى مفهوم يشمل كل المسلمين المؤمنين بالوحي الإلهي وبعصمة القرآن.

وعبر تفنيد هذا **المسخ المفاهيمي**، يبين المؤلف أن عدوان الغرب على المسلمين، سيصب فيما لو قوبل برد إسلامي مثابر ومستنير، في صالح الإسلام في نهاية المطاف على نحو بدت بشائره تظهر، تماما كما حدث في تجربة الاضطهاد والتشويه التي شنتها روما ضد المسيحية الأولى، قبل ان ينتهي بها المطاف إلى الدخول فيها. ويبرهن على أن الغرب يعاني من عدم التسامح الديني حتى مع نفسه داخل المذاهب المسيحية المختلفة.

ومع التسليم بأن قوى كثيرة في العالم قادرة على صنع توترات محلية وإقليمية، فإن الغرب وحده هو القادر على صنع **الحرائق الكونية الكبيرة**. وخبرة الحروب العالمية والتشوهات الفكرية، والعقائد السياسية المتطرفة التي عرفها العالم خلال القرن العشرين خير شاهد على ذلك. وكل ما بالعالم من توترات هو مجرد **أعراض** وليس هو علة المرض. أما جذر تلك التوترات الذي لا خلاص منها دون التعامل الجاد معه فهو **المظالم الغربية**. ويقول المؤلف بحق أن الغرب ترك بلادنا وهي شبيهة بمن أصيب أحد أطرافه بالغرغرينة، قد لا يضمن حتى ببتر الطرف المصاب البقاء على قيد الحياة.

وأخيرا نأتي إلى **المفصل الرابع عشر** المتعلق بحالة حقوق الإنسان في عالمنا الإسلامي بعد عصر الاستعمار التقليدي. وبمعالجة عميقة ومستفيضة يسلط المؤلف الضوء على كارثة

الاعتقال الوقائي بلا محاكمة، **وغلبة** القوانين الاستثنائية، و**هزال** دور منظمات حقوق الإنسان، **وشرعية** الهروب إلى الحرية، **والعقبات الكئود** التي تصادف من يرغب فيها، والتضحيات الجسام التي يتعين على الأفراد والجماعات والأمة أن تقدمها من أجلها.

ويبين المؤلف أن المعتقلات في بلادنا **مأوى للمظلومين، ومفرخة لتصنيع المجرمين من الأبرياء**، مع افتقار الأنظمة الحاكمة لأفق سياسي بعيد النظر للمعالجة الحضارية لتلك الحالة، بدل المعالجة الأمنية قصيرة النظر الدائرة ، بالتالي، في دائرة شك خبيثة، لا تعرف معها العفو، ولا تستطيع معها تخليص نفسها من شبح انقضاض المعارضة عليها، ولا تخليص خصومها من كابوس إمكانية التصفية الجسدية أو الاعتقال مجددا.

ويوضح المؤلف كيف صارت تلك الخصال من أساسيات نظام الحكم التنزاني من منتصف الستينيات من القرن المنصرم، على نحو طال الدمار والفساد والنفاق والرشوة معه كل شئ. وانعدم الوفاء بالوعود. وصار الهدم غاية بحد ذاته. وحولت المزارع والمصانع، من إنتاج الفواكه والعصائر، إلى إنتاج الخمور، والغرق في الربا والميسر. وصرنا أمام أنظمة حكم مختزلة في رئيسها. وأمام شخص رئيس تجب إرادته كل القوانين والإرادات، ويسجن على هواه من يشاء، كيف شاء، وحين يشاء. ويحرم معارضيه من جواز السفر حتى بعد العتق من المعتقل. ويمنع غيره من البناء، ويتفنن هو في تدمير كل ما بناه سابقوه.

وعلى **المفصل الخاتم** يبين المؤلف **قيمة الحرية**، ويصور لنا الكيفية التي هرب بها إليها من سجن تنزانيا نيريري الكبير، حتى

في موقع لاجئ في مصر ثم في كينيا، وأخيرا في الخليج العربي. ويقدم كشف حساب دقيق وملهم لمنظمات حقوق الإنسان يضعها معه أمام مسؤوليتها عن هزال دورها بالقياس بحالة السجون في تنزانيا. ويهمس في آذان الأحرار في العالم أن يتكاتفوا في مواجهة **ظاهرة الاعتقال الوقائي** لأجل غير مسمى بحكم الواقع، أو بقوانين الطوارئ. فهو أبشع من الشنق. وبما أن اقضية الحرية واحدة لا تقبل التجزئة، فإنه يستنهض الأحرار في كل مكان ، في مواجهة أنظمة لا تحتمل أي درجة من النقد والمعارضة، وتسجن بالشبهة لا بالدليل القاطع، ويدعوهم لتحاشي التصرف على نحو يولد إحساس المسجونين السياسيين بالنسيان، وإلى زيارة السجون وعدم الاعتماد على ما تقوله الحكومات بشأن أحوال السجون، وابتكار أساليب يستطيعون بها تمكين المسجونين السياسيين من تقديم ما لديهم من أدلة يصعب عليهم الاحتفاظ بها وإخراجها إلى النور عبر قنوات الاتصال الرسمية مع الخارج. ويتهم الغرب بتجميل صورة الأنظمة التي تستهدف ضحايا مسلمين، والتماس الأعذار لها. ويدعو أحرار العالم إلى التحول من مجاملة الطغاة ومهادنتهم إلى المفاصلة معهم، وتخييرهم بين الكف عن طغيانهم، وبين العزلة والمحاسبة.

وتلقي الدراسة الضوء على بشاعة الاعتقالات العشوائية والجماعية، والمعاملات اللاإنسانية في السجون. ويبين المؤلف – وربما كان هذا هو الأهم– أن معظم البسطاء الأبرياء في السجون هم ضحايا للفساد السياسي من جهة، ولأوهام السياسات الاشتراكية والرأسمالية المجلوبة من الخارج من جهة أخرى. كما أن كثير من **المجرمين المحترفين** هم نتاج فوضى المعاملات الأمنية التي تزج بأطفال بريئين في الحبس الاحتياطي، فيتعلمون

الجريمة بداخل المعتقل. ويبين المؤلف على صعيد التجربة الزنجبارية، أن أنظمة الحكم الانقلابية لم تقف عند حد عدم امتلاك مشروع وطني لاستعادة استيعاب معارضيها في نسيج المجتمع بعد اعتقالهم عقودا من الزمان دون محاكمة ودون تهمة، بل تعدت ذلك إلى مصادرة حلمهم في القيام بذلك بجهدهم الخاص، وجردتهم من الحلم، ومن فرصة الحياة الامنة على تراب بلادهم.

ويرسم المؤلف خريطة الثورة الحقيقة التي نستلهم بها وحدة نسيج أمتنا واستقامتها الأخلاقية، ونستعيد بها **صناعة ثقافة المحيط الهندي الجامعة والحاضنة لنا جميعا**، ونخرج شرق إفريقيا بها من حالة الخواء الأخلاقي والقيمي التي تردت فيها، إلى تلك الوضعية التي كانت زنجبار تسمى فيها عند العرب: بلاد الأخلاق.

وعلى قيثارة تفكيك الخطاب الكنسي وبيان عواره بالمقارنة بالكتاب المقدس من جهة، وبيان ضوابط الانفتاح على القرآن ومعانيه على نحو معبر عن الوسطية الإسلامية ومتشرب لروح الإسلام، ينهي المؤلف هذه المذكرات، ولسان حاله يرتل **قول الله تعالى:**" فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} (الأعلى: 9)، بعد أن رسم في تقديري معالم خريطة **فكرية** تحتاج القضية التي تطرحها، والمحاور التي دارت معالجتها عليها إلى أن تتبناها مراكز بحوث جادة، وتصنع منها جدول أعمال لقضايا الأمة الأولى بالبحث، وتؤسس على منوالها: فقه الأمة.

ويراودني أمل كبير في إقدام نخبة ممن سيقرأون هذا الكتاب من باحثينا ومفكرينا على استلهام موضوعات بحثية منه ، والتعمق

في سبر مقولاته، ومحاولة الإرتقاء إلى مستوى الطموح والتحدي المعرفيين اللذين يمثلهما على صعيد وصف حالة الأمة، وعلى صعيد رسم معالم طريق التنشئة الحضارية الإسلامية الحقة.

وربما يكون السر في أن المؤلف اقتصد في المقدمة التي كتبها لهذه الدراسة الهامة ، أنه يعي ويأمل في أنها ستكون محلا لقراءات مشاركة، ولمداخلات علمية عديدة، وستلد مبادرات ومقارنات ومقاربات فكرية عديدة. فلنتصفح معا هذه الدراسة الواعية.

السيد عمر

طحا نوب – مصر

العاشر من رمضان 1431 هـ

الصراعات والوئام في زنجبار

(ذكريات)

تأليف

علي بن محسن البرواني

شكر وعرفان

خالص شكري لمن راجعوا مخطوطة هذا الكتاب وصححوها، السادة: علي محمد يحيى، علي سالم حافظ، عيسى ناصر الإسماعيلي، الأستاذ إبراهيم الزين صغيرون، محمد حميد، سليمان شحبل، محمد عبد المطلب، عبد الله محسن، وحفيدتي غاية محمد، فكل هؤلاء وغيرهم كانت لهم لمسات مفيدة أثرت هذا الكتاب.

وشكري وامتناني الخاص لابن أختي خلفان محمد علي تلك المهمة الدقيقة الخاصة بالتفاوض مع كل المعنيين بإخراج هذا الكتاب مطبوعا.

أما حفيدي خالد بن وليد فكان هو الفني الذي عالج كل المشكلات الناجمة عن محاولاتي غير الاحترافية لاستخدام الحاسوب في كتابة هذه الدراسة.

المقدمة[1]

ليس ثمة حاجة تذكر لمقدمة أو توطئة لهذه المذكرات. فعنوانها ناطق بمضمونها. ولست بزاعم في هذا الكتاب أني أقدم بحثا أو دراسة محكمة وفق الأصول العلمية المتعارف عليها. فالكتاب الذي بين أيدينا هو مجرد **حكاية بسيطة ومباشرة** عن أحداث وأفكار وبشر حسبما أتذكر، دون أية محاولة لمراعاة التسلسل الزمني.

وكل ما كتبته هنا هو ما توارد علي ذهني موصوفا بكل صراحة، بل كنت أحيانا مفرطا في الصراحة. وإذا ما تسبب ذلك في ضيق لأحد، فإنني التمس العذر منه ألف مرة. فغاية ما أردت هو أن لا أخفي شيئا، وأن أصدع بالحقيقة، ولا أنطق بسواها. وأسأل الله تعالي أن يعينني. وأعتذر عن أي زلل أو نسيان. فعقولنا تصير كالغربال مع التقدم في العمر، علي حد ما يحلو لأحد نظرائي الأفاضل في العمر ترديده علي مسامعنا.

ولقد استغرق تأليفي هذا الكتاب سبعة أشهر – من العاشر من أغسطس 1994 حتى العشرين من مارس 1996، ثم انتهيت من أول مراجعة له في يوم 27 مارس 1996. وكتبت هذه المذكرات الشخصية علي عجل دون أية محاولة لإضفاء مسحة أدبية أو

---

[1] يعرب المترجم عن خالص شكره للأساتذة يعقوب بن سعيد بن يحي البرواني وعمر مبارك العمراني ومحمود بن محمد الزدجالي ومحمد بن علي بن محسن البرواني على إسهامهم بالغ الأهمية في مراجعة مخطوطة الترجمة، وتخليصها من أخطاء عديدة شكلية وموضوعية – المترجم.

متعمقة عليها. وتدفق كل ما فيها مباشرة من عقلي إلي أنامل أصابعي العشر علي مفاتيح لوحة حاسوبي الشخصي.

ومرد ما قد يكون في هذا المؤلف من مقولات ساذجة أو منقطعة العلاقة بالموضوع أو غير متساوقة معه هو المنهاج الذي تعين علي الإلتزام به كي أسجل الفكرة قبل أن تتبخر. وكنت تواقا إلي أن تكون القصة الحقيقية لمن يسميه أبنائي وأحفادي وأصدقائي بكل الحب: **بابا علي**، معهم.

فلقد كتبت لمن يحبونني وأحبهم. ووجه كثيرون اتهامات ضدي وضد كل من كان لهم قصب السبق في النضال من أجل استقلال بلادنا. ولم أحاول الخروج علي النهج الذي حددته آنفا، متعمدا من أجل تفنيد تلك الاتهامات ومحاكمتها، بل اكتفيت بتقرير الحقائق وتركت الحقائق تفصح عن نفسها بنفسها.

وتكفي هذه الكلمات كمقدمة، بل هي الآن أطول مما كنت أريد. فأنا لست برنارد شو، ولا ابن خلدون. [2]

[2] لقد اشتهر كلّ من برناردشو وابن خلدون بالمقدمات الطويلة. فكثير من مقدمات مسرحيات برناردشو أطول من المسرحية ذاتها. أمّا مقدّمة ابن خلدون فقد اشتملت على قواعد وأسس العديد من العلوم الإجتماعية الحديثة

الفصل الأول

صورة ذاتية[1]

أولا: الميلاد والقيد بسجلات المواليد:

ولدت من زمن سحيق، في عصر ما قبل التاريخ. هذا ما يعتقده أحفادي. ولا أستطيع الجزم بصحة التاريخ الدقيق لميلادي، لأنني لست أنا من سجله. فقد ولدتني أمي وأنا لا أعلم شيئا، وأصابعي الصغيرة غائرة بشدة في كفي يداي في قبضة مخيفة علي الدوام، فيما يبدو استعدادا لمواجهة تحديات العالم الذي أقحمت فيه.

ولولا أنّ والدي دفع ثروة من المال، **البالغ عشرين روبية** (أي ما يعادل جنيها واحدا وعشر سنتات) للقابلة علي تعبها (الذي لايماثل في شئ آلام المخاض التي عانت منها والدتي)، لما كان لدي أي شاهد علي تاريخ ميلادي. فلقد أثبت والدي ذلك المبلغ في دفتر حساباته، إذ كان يحسب كل سنت ينفقه.

وما دام الأبناء يكلفونه مالا، فقد كان لزاما أن يسجلهم هم أيضا. إلا أن التسجيل كان وفق التقويم الهجري العربي، وهو يوم 24 ربيع الأول 1337 هجرية.

[1] لهذا الفصل محاور ثلاثة: ميلاد المؤلف وقيده بسجلات المواليد، وإطلالة على أسرته، وإشكالية الطائفية في المجتمع الزنجباري. – المترجم

ومعنى ذلك، أنني ولدت في ذات الشهر الذي ولد فيه النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وهو فأل طيب للغاية. أما يوم 13 يناير فلا فأل يذكر فيه. أما كيف توصلت إلي أن ذلك اليوم هو الموافق لتاريخ مولدي، فعبر البحث في السجلات المتاحة لدي مسجل الوثائق في دار الوثائق المعروفة بمامبومسيجي في شنجاني.

فلقد تعين علي استخراج **جواز سفر** عندما تقرر إلحاقي بالتعليم العالي في جامعة ماكيريري بأوغندا. واستلزم استخراج جواز السفر أن تكون لدي شهادة ميلاد تثبت: أنني ولدت ولم أسقط من السماء، بل لي والد ووالدة أنجباني، وأنني بفضل الله تعالي ولدت زنجباريا. وقام لي بمهمة البحث هذه صديقي **السيد سيف بن حمود بن محمد** صاحب المشية المختالة والطريقة المتفاخرة في الحديث، ونجحت بذلك في الحصول علي نسخة من شهادة ميلادي الأصلية، وأتصور كما لو أن ذلك قد تم بالأمس القريب.

ولأكون أكثر دقة أقول أنني ولدت يوم 13 يناير 1919. ففي ذلك اليوم، ولد غلام **لمحسن بن علي وزيانة بنت سالم.** والشخص الذي بلغ هذه المعلومة التاريخية الحيوية لحكومة صاحب الجلالة هو **(أحمد محمد)**، وهو الشيخ الراحل أحمد بن محمد ملومري الذي كان صديقا حميما لوالدي وزميل دراسة عند العالم الورع الشيخ **عبد الله بن محمد باكثير.**

ولا أعرف ما يعنيه رقم 13 للآخرين، ولكن هذا الرقم لاحقني فيما يبدو طيلة حياتي، ولم أحاول أبدا أن أتحاشاه. فلقد ولدت في 13 يناير. ومهما كان رأي الآخرين في هذا التاريخ، فإنني لا أجد مبررا للتشاؤم من يوم مولدي. وتزوجت في 13يونيو 1944.

وبصرف النظر عن كل المسرات والعثرات التي واجهتني، فإنني عشت خمسة وأربعين عاما من الحياة الزوجية السعيدة والمثمرة المفعمة بالحب. وفي يوم مولدي الخامس والأربعين، 13 يناير 1964 دخلت السجن، ومكثت فيه عشر سنين وخمسة أشهر. وحتى هذه الخبرة لا أعتبرها غير سارة. فلقد كان سجني مفيدا لي، ولغيري فيما أتعشم، ربما لأنني دخلت السجن في ذلك اليوم الميمون. وليس مرد قولي هذا أن السجن أتاح لي **فرصة لتوسيع أفقي الفكري** فحسب. بل الأهم من ذلك، أنه مكنني من **فهم الشخصية الإنسانية ومن إجلال القدر الإلهي والتوجيه الإلهي.** ومع أنني لم أكن أبدا متكبرا، فإنني تعلمت من سقوطي وسجني المزيد من التواضع والحب الحقيقي والعمل الخيري الحقيقي والتضحية بالنفس. وسمعت وعايشت أفعال الشجاعة والبسالة الحقة، التي لم تكن قصرا علي أي عرق أو أي مذهب بعينه.

وفي عام 1962 زرت المغرب بدعوة من حكومتها. كان ذلك بعد فشل مؤتمرنا الدستوري الأول في لندن. وهناك أديت صلاة الجمعة مع الراحل محمد سالم سيف المعمري بمسجد القيروان الذي يقول المراكشيون أنه أقدم من الأزهر بقرن كامل.

وفوجئت بإمام المسجد يعرج في خطبة الجمعة **علي مأساة زنجبار**، ويضع نضالنا في مصاف النضال الفلسطيني والجزائري النبيل. لم أتمالك نفسي. وانهمر الدمع من عيني، إذ لم أطق أن نوضع في مصاف أولئك المجاهدين العظام من أجل الحرية. وسألت نفسي: ما الذي فعلناه حتى ننال مثل هذا الشرف؟ في ذلك التاريخ كان الشهداء الذي ضحينا بهم قرابة **السبعين.** وكأن

تلك الخطبة بمثابة نذير بما سيأتي به المستقبل، بتلك المجازر التي حصدت ألوف الأرواح، وبالدمار التام الذي أصاب بلدنا العزيز تحت نير الغزاة.

وفي المؤتمر الدولي الإسلامي الذي عقد في لندن عام 1976 قال صديقي الحميم الدكتور **مصطفي مؤمن** ، في كلمة له أمام المؤتمر، أن المآسي التي عرفها التاريخ الإسلامي **ثلاثة: طرد المسلمين** من أسبانيا، **والقضاء علي** الخلافة العثمانية، **وما سمي ثورة زنجبار** عام 1964، التي ذبحت واغتصبت وسجنت الألوف، وصادرت الممتلكات بلا تمييز. تلك الكارثة أزالت زنجبار من خريطة العالم كدولة وكمركز للثقافة الإسلامية وللنفوذ الإسلامي في شرق ووسط وجنوب إفريقيا. وهنا غلبت عليه شجونه فلم يستطع مواصلة حديثه.

ثانيا: ذكريات تليدة

من الطبيعي أن تنصب ذكرياتي المبكرة علي افراد أسرتي: أمي ووالدي وأخواتي وأخي، وأبناء عمي. وحين كنت طفلا كان لي أخ هو محمد بلغ من السن ما يجعله بمثابة والد لي، وكنت أجله، وأعامله معاملة الولد لوالده. أما أخي الصغير **عبد الله** فولد حين كنت في العاشرة. وكان لي **ثمانية أخوات**، وولدت لي **أختان أخريان** فيما بعد ومن الله علي بأولاد عم كثر كانوا لدي بمثابة أخوتي وأخواتي. أما القابلة التي ساعدت والدتي لدي ولادتي، فهي **أم علي**، تلك العجوز الأوغندية التي لم أعرفها بغير هذا الإسم، الذي اشتهرت به بسببي. لقد أحببتها، بل أحببت كل تجعيدة في وجهها العجوز العطوف.

ثالثا: الطائفية

تعودت الذهاب مع أصدقاء طفولتي إلي ضواحي مدينتنا لنختلس من حدائق الآخرين بعض المانجو والجوافة واللوز، وكل الثمار التي قد نجدها فيها، وإن كانت تلك العادة الصبيانية لم ترق لي كثيرا. وفي طريق عودتنا كنا نمر علي **معبد بارسي**[2]، فيمرق رفاقي من أمامه بأقصى ما بوسعهم من سرعة، انطلاقا من **أسطورة صبيانية** تزعم أن البارسيين مغرمون بما يسمى: **مومياني**. ما تلك المومياني؟ لا أحد يعرف علي وجه الدقة. فالمزعوم به هنا أن البارسيين اعتادوا شرب دماء ضحاياهم الذين يغرونهم بدخول معبدهم. ولم أكن أؤمن بهذا الهراء علي الإطلاق، ولكنني كنت مضطرا لصحبة هؤلاء الرفاق، وكنت دائما أسير علي مهل وآتي في ذيل القافلة لدي هرولتهم قبالة المعبد.

وقصص المومياني تلك رائجة في كل أرجاء شرق إفريقيا. والمتهم بتلك الممارسة هم **فرق الموت**. وتلك الكلمة مشتقة من كلمة **مومياء** العربي، المتعلقة بالتحنيط. والحقيقة أن البارسيين أناس أبعد ما يكون عن مصاصي الدماء البشرية. بل هم طائفة في غاية اللطف وحسن السلوك والجدية في العمل. وذات يوم أم الحبيب عمر بن سميط كبير قضاة زنجبار سابقا، والعلامة

---

[2] **البارسيون** هي مجموعة عرقية يتركز تواجدها في شبه القارة الهندية. ويمثلون جزء من الزردشتيين الذين يعيشون في شبه القارة الهندية. المعروف أن البارسي وهم الزردشتيين الإيرانيين استوطنوا غرب الهند قبل الف عام مضت.

الـورع[3]، جماعـة منـا فـي الصـلاة علـي أرض المعبـد حـين حانـت صـلاة المغـرب بينمـا كنـا نشـارك فـي حفـل زفـاف أحـد أبنـاء عائلـة تـالاتي البارسـية. ومـن بـين جيرانـي وأصـدقائي مـن تلـك الطائفـة، الأخـوين برويـز وكيكـي. وكـان بارسـيي آخـر، هـو روتـي بالسـارا زمـيلا لنـا فـي الحـزب الـوطني الزنجبـاري، ورئيسـا لتحريـر صـحيفة مملوكـة لـه هـي صـحيفة: **العـدل والإنصـاف**، ومرشـح حزبنـا عـن مدينـة الحجـر القديمـة فـي الانتخابـات الأولـي التـي أجريـت عـام 1957.

ومـن قبلـي كـان شـيوخ عائلـة تـالاتي أصـدقاء لوالـدي. ومـن بـين أقـرب الأصـدقاء لوالـدي مـنهم رجـل اعتـدنا أن نناديـه ب(بيشـوري)كـان يزورنـا فـي بيتنـا يوميـا، وأتـذكره بعلبـة السـعوط، وبزعمـه أن استنشـاق السـعوط يقـوي النظـر، وهـو مـا لـم يقـم عليـه دليـل عنـدي، إذ كـل مـا كنـت أراه أنـه كـان يجعلـه يسـعل، وتنهمـر الدموع من عينيه.

ولـو أردنـا أن نستقصـي الأدلـة علـي سـماحة الزنجبـاريين وانفتـاح عقـولهم فسنسـود مجلـدات. ومـن هنـا فـإن تلـك المشـاعر المعاديـة لطائفـة تمثـل أقليـة مثـل البارسـيين كانـت قاصـرة علـي الأطفـال. أمـا حـين يشـب الزنجبـاري عـن الطـوق، فإنـه يسـتحيل، مـا لـم يكـن فـي عـداد الحمقـى، أن يـتهم أي إنسـان بأنـه مصـاص دمـاء. وكانـت كـل الطوائف تعيش في وئام، والعداوة بينهم تكاد لا تذكر.

---

[3] الحبيب عمر بن سميط عالم جليل تقيّ ورع. تلقّى علومه الدينية بتريم بالحضرموت ومن والده الحبيب أحمد بن سميط ومن الشيخ عبدالله باكثير. تقلّد منصب رئيس القضاة في زنجبار ورحل عنها بعد الإنقلاب الدموّي. توفي بجزر القمر.

لقـد أخطـأت الحكومـة الاسـتعمارية رغـم خبرتهـا الواسـعة فـي كـل أرجـاء العـالم إلا أن تقبـل رسـميا بـالفروق الطائفيـة إلـي حـد تمثـيلهم فـي المؤسسـات التشـريعية. وجلـب علـيهم صـنيعهم ذلـك الاتهـام باتبـاع المبـدأ الرومـاني "فـرق تسـد". ومـن أجـل التصـدي لهـذه الممارسـة الرسـمية مـن جانـب المسـتعمر تـم إنشـاء **الحـزب الـوطني الزنجباري** عام 1955.

وحتـى ذلـك الحـين، امـتلأ المشـهد الاجتمـاعي السياسـي بمنظمـات مـن قبيـل: الجمعيـة العربيـة، والجمعيـة الوطنيـة الهنديـة، والجمعيـة الإسـلامية (المقصـورة علـي أنصـار باكسـتان)، والجمعيـة الإفريقيـة، والجمعيـة الشـيرازية، والجمعيـة القمريـة، وجمعيـة حضـرموت، وغيرهـا كثير.

أمـا البـيض، وخاصـة المسـؤولين البريطـانيين فكـانوا يعلـون علـي كـل تلـك الجماعـات المتفارقـة، ويسـودون عليهـا. فـالبيض لهـم نـاد اجتمـاعي قاصـر علـيهم، وهـو النـادي الإنجليـزي المطـل علـي البحـر فـي شـنغاني ونـادي رياضـي فـي منازيموجـا، كـان هـو المحتكـر الوحيـد للعبـة الجولـف والتـنس فـي زنجبـار. وحـين اقتـرح جـورج مـورينج آخـر مقـيم بريطـاني فـي البـلاد (المسـؤول البريطـاني الأعلـي فـي البـلاد)، فـتح بـاب العضـوية بالنـادي للجميـع بصـرف النظـر عـن الجـنس، انسـحب الرجـل الثـاني فـي إدارتـه، باتريـك روبتسـون احتجاجـا علـي ذلـك الاقتـراح. حـدث ذلـك فـي وقـت مـا فـي عـام 1961 أو عام 1962.

ولـم يكـن الخـط الفاصـل بـين مـا هـو اجتمـاعي ومـا هـو سياسـي محـددا قبـل عـام 1955، بـل كـان الاجتمـاعي والسياسـي متمـازجين. ومـن ثـم لـم يتجـاوز السياسـي إثـراء المصـالح الطائفيـة فـي ظـل سـيادة

البيض الحصينة. وبذلك، أن **الحزب الوطني الزنجباري** فتح أرضية جديدة بكل معنى الكلمة. وحجته في ذلك أنه: **إذا انشغلت كل طائفة بمصالحها، فمن يرعى مصلحة زنجبار والزنجباريين؟** ولم تكن **زنجبار** مفهوما غامضا، بل كانت كيانا صلبا ملموسا وقانونيا. وعليه كان لزاما أن يتحد جميع أبناء زنجبار في أمة واحدة لا تتجزأ بصرف النظر عن الجنس واللون والمذهب العقيدي، ضمن ما يسمى (الوطنية) والتي هي منقطعة الصلة بالعقلية المنغلقة والشوفينية. وهي بالعكس نابعة من نية منفتحة الأفق لاحتضان الشعب بكل أعراقه ومذاهبه، على النقيض من تلك الجمعيات الطائفية الضيقة الأفق المشوهة بشبحها لما كان لولاها كلا متناغما. وبتعبير آخر، كانت دعوة الحزب الوطني إن كل الزنجباريين، أو بلغة القانون، كل رعايا سمو السلطان، يجب أن يتناسوا ما بينهم من فروق،، ويتكاتفوا معا في خدمة الصالح العام ورفاهية بلدهم.

فالمواطن الزنجباري أو رعية سمو السلطان هو شخص ينتمي لأي عرق، ولأي عقيدة، ولد في زنجبار (التي كانت تضم الشريط الساحلي الكيني حتى عام 1963)، أو كان من أصول زنجبارية، أو حصل على الجنسية الزنجبارية وفق القانون. وكانت رسالة **الحزب الوطني الزنجباري** من بداية عهده بالوجود هي **تحقيق الوحدة الوطنية**. ولم تكن الغاية منه أن يكون حزبا من بين أحزاب أخرى لمجرد ترف التعددية الحزبية، وإيجاد ما قد يكون حكومة أو معارضة.

فلقد كانت هناك في الحاضر والمستقبل المنظور حكومة قائمة ترسخت أقدامها بطريقة أو بأخرى، وهي **الحكومة الاستعمارية**

البيروقراطية المستبدة، يديرها ما يتراوح بين مائتين وثلاثمائة مسؤول مغترب، يمثل بقية الشعب، في الواقع، رعايا لهم، ومعارضة هزيلة بلا حول ولا قوة. وأراد **الحزب الوطني الزنجباري** أن يعطي لتلك المقاومة قواما وأسنانا. وليكون فعالا لزم أن يكون موحدا. فبالوحدة كان ذلك الحزب الصغير حديث العهد بالوجود قليل الخبرة، أصيلا ومتحمسا وصادقا.

وحين التقيت أنا وعبد الرحمن محمد بابو، بجورج بادمور ذلك الإفريقي من جزر الهند الغربية في بيت شرق إفريقيا بلندن عشية مغادرتي انجلترا عام 1955، قررنا بناء على نصيحته، إنشاء حزب من هذا القبيل، بمجرد عودتي.

وغمرني سرور بالغ حين وجدت أن جماعة من الأفارقة من أصول شيرازية وإفريقية من البر الأفريقي قد أنشأوا ذلك الحزب بالفعل، وهم بلا ريب زنجباريون بالعرق وبالمواطنة. وفي غضون ستة أشهر اكتسبت عضوية الحزب رسميا، وصرت عضوا نشطا فيه. وكان من أنشأوا تلك الحركة أناس شيمتهم البساطة، ومعظمهم من القرويين.

ولم أدخر وسعا في محاولة إقناع أصدقائي من المثقفين الإفريقيين حاملي المؤهلات العليا بمؤازرة تلك الحركة صراحة أو من وراء حجاب. إلا أن جهودي باءت بالفشل. فاتحت عثمان شريف، وعلي خميس، وعبود جومبي، والدكتور كنجوابا حسن، والمعلم قاسم عبد الحافظ، وهو أحد أساتذتي سابقا، وغيرهم. إلا أن كل واحد منهم تعلل بعذر أو بآخر. بل إن **أبا الليل مبوانا**، وهو مفتش صحة متقاعد، وافق على أن يسجل اسمه كمرشح عن الحزب عن دائرة بومبويني التي يقيم بها في أول انتخابات

أجريناها عام 1957، ولكنه حنث بوعده في آخر لحظة، بعدم التقدم بطلب الترشح.

وبدلا من مساندة **الحزب الوطني الزنجباري** الذي له برنامج محدد يرتكز علي تحقيق الوحدة الوطنية والتخلص من التمثيل علي أساس عرقي بهدف الإستقلال وإنهاء الحكم الاستعماري، فإن من يسمون المثقفون الإفريقيون فضلوا مساندة **حزب الأفروشيرازي** الذي هو حزب عميل أنشأه المستعمرون بمؤازرة قوية من نيريري. وعلة تأييدهم لذلك الحزب الألعوبة بيد المستعمر، هي أنه محل رضا الإدارة الاستعمارية، ومن شأن العضوية فيه أن تحبب رؤساؤهم في تلك الإدارة فيهم. لعل هؤلاء لم يتصوروا أن الحكم الإنجليزي لزنجبار سينتهي يوما ما. وكان الهدف الوحيد للحزب الإفروشيرازي هو التصدي آمال وأهداف **الحزب الوطني الزنجباري** .

وتضمن تقرير المشرف علي انتخابات عام 1957 بفخر النص علي مسؤولية مكتبه عن **إنشاء الحزب الإفروشيرازي**. وقال أن مكتبه والإدارة الإقليمية هي التي أوجدته، وأضاف قوله: "**ومن ثم أنقذت زنجبار من حكم الحزب الواحد من نوع خطير معروف**". أما نائب المشرف علي الانتخابات الذي قام بمعظم ذلك العمل القذر فهو مايهيوز وكان مفوض مقاطعة تانجا في تنجانيقا وقد أعير مؤقتا إلى زنجبار لهذه المهمة. أما المسؤول الرئيس عن الإنتخابات فكان جون سترينجر. وبتحريض ودعم من هذين المسؤولين ومن جوليوس نيريري، الذي جاء خصيصا من دارالسلام، تم إنشاء الحزب الإفرشيرازي بمنزل حاجي علي وحيجا

صالح في راحاليو. والأخيران مدرسان كانا من بين تلاميذي في مدرسة دولي.

وهذا الحدث المهم الذي حدث عام 1957، كان هو الأداة التي أعاقت عجلة التقدم والتي انتهت بالإنهيار المأسوي عام 1964. وكان هو السبب في تعطيل حصولنا علي الاستقلال لأمد طويل، إلي أن صرنا ونحن الجديرون أن نكون أصحاب السبق، في ذيل القائمة. نحن الذين كنا الأكثر تقدما بين بلدان شرق إفريقيا، والدولة التي كانت لها حكومتها الوطنية علي مدى قرون. وإذا بنا بسبب أفاعيل ذلك الحزب نغدو كالثمرة التي سقطت تنتظر من يلتقطها.

إن **الحزب الإفروشيرازي**[4] هو المسؤول عن مذبحة راح ضحيتها أرواح ثمانية وستين زنجباريا عام 1961. وهو المتسبب في كارثة يناير 1964، وفي فقدنا لعلمنا القومي، ومقعدنا في منظمة الأمم المتحدة، وإغلاق سفاراتنا بالدول الأخرى، وإنهاء المعونة التعليمية السخية التي كانت تحصل عليها زنجبار من مصر والعديد من الدول الأخرى. ثم إنه هو المسؤول عن محو الجامعة التي كان من المقررإنشاؤها في كوا ميتبورا في ضواحي مدينة زنجبار عام 1964.

بل هو السبب في كل التدهور الذي لحق بالتربية والتعليم والرعاية الصحية والاقتصاد وعن الهلاك المتفشي في البلاد علي مدى

---

[4] حزب الأفروشيرازي هو حزب مكون من اندماج الجمعية الأفريقية والجمعية الشيرازية بتحريض بريطاني وبإشراف جوليوس نيريري ويهدف إلى إقصاء العرب.

الثلاثين عاما السابقة [5] علي كتابة هذا المؤلف. وأخيرا وليس آخرا، فإن ذلك الحزب هو الذي صادر كل ممتلكات الزنجباريين تقريبا، بما فيها تلك الموقوفة علي المساجد، وأعطاها لأجانب لأنهم شاركوا في المذابح الجماعية للزنجباريين، أو أعانوا عليها.

ومن الظواهر الطبيعية بين البشر والحيوانات أن ينقضوا علي طائفة صغيرة ويضحوا بها، لمجرد كونها لاتنسجم تماما مع الأعراف السائدة. وسبق لليهود أن طوردوا في كل بلد أوربي بتهمة صلب المسيح. ولم يوافق البابا إلا من عهد قريب علي تبرئتهم من قتل المسيح عليه السلام. والآن حلت إدانة المسلمين محل تبرئة اليهود.

وأصبح المسلمون الآن محل كراهية الغرب. واتخذت اللاسامية صورة جديدة. إنها هي الآفة ذاتها، ولكن الضحية هذه المرة هي المسلمون، الذين ينظر إليهم في الغرب علي أنهم غرباء غير قادرين علي التكيف مع طبيعة الأمور، وعلي انهم هم وليس اليهود هم الإرهابيون، ولا علاقة لهم بالتراث اليهودي المسيحي. وهكذا تتردد ذات الصورة النمطية التي نسجت خيوطها لتغذية آلة الحرب المضادة للنازية فالمسلمون ضحية للفاشيين الجدد المنتشرين في أرجاء أوروبا وأمريكا.

ومنطق هذا العداء **أن المسلمين أقلية قابلة للبقاء وتنمو بشكل خطر، ويتعين بالتالي سحقها.** وبما أنه قد ثبت استحالة تحويلهم

---

[5] أرجو من القارئ الكريم ان يراعي في قراءة مثل هذه المادة أن المؤلف يقصد بها المدة من عام 1964 حتى كتابة هذا المؤلف بالإنجليزية عام 1997. - المترجم.

عن دينهم، فإن البديل هو **علمنتهم** لبث الشكوك في أذهانهم في قداسة دينهم وقرآنهم. وإذا فشل ذلك البديل كما حدث في البوسنة، وألبانيا، والشيشان، وكل البلدان التي كانت تحت نير القياصرة والشيوعيين لعقود عديدة، فلا يبقى حل إلا إبادتهم.



والد المؤلف – الشيخ محسن بن علي البرواني



جد المؤلف – الشيخ سالم بن عبدالله البرواني

الفصل الثاني

الدين في مقابل العلمانية [1]

شاركت في يونيو 1976 في حوار إسلامي مسيحي في جنيف برعاية وكالة الإرسالية العالمية، والبروتستانتية التابعة للمجلس العالمي للكنائس بجنيف، بالتشاور مع **مؤسسة ليسستر الإسلامية ومركز سيلي اوك كوليدج لدراسة الإسلام والعلاقات المسيحية ببرمنجهام**. ومثل كل طرف **ستة رجال**، وكنت أنا الوحيد من المسلمين الأفارقة. وقدمت دراسة بالمؤتمر بعنون: **"خبرة مسلم عن الإرساليات المسيحية في شرق إفريقيا"**.

وأثارت تلك الدراسة ونظيرتها المقدمة من الدكتور الأندونيسي راشد، تبادلا مثيرا وصريحا لوجهات النظر بين الجانبين. وكنتيجة لذلك اقترح أسقف نرويجي أن يعرب المسيحيون عن ندمهم عن الأخطاء التي ارتكبتها بعثات تبشيرية مسيحية بحق مسلمين. إلا أن الأسقف البريطاني كريج رد باقتراح أن يبدي الطرفين ندمهما، وهو ما اعترض عليه **اسماعيل الفاروقي** المقيم بالولايات المتحدة، الذي قال: " **لماذا يتأسف المسلمون علي خطايا لم يرتكبوها؟"**

---

[1] لباب هذا الفصل هو ما دار في لقاء مسيحي مسلم حول العلاقة بين المسيحيين والمسلمين، والبيان الصادر عنه، الذي يعتبره المؤلف أساسا ركينا لإصلاح ما أفسده الدهر بين الأمتين المسيحية والإسلامية ويستعرض فيه في محورين: مناقشة الورقة التي قدمها للمؤتمر، وبيان المؤتمر، ويؤكد أن الغرب يستغفلنال حين يدعونا إلى المفاصلة بين الدين والسياسة، في حين أنه هو غارق في الربط بينهما – المترجم

وانتهي الأمر بتسجيل نتيجة هذا النقاش في بيان يحمل توقيع المشاركين جميعا، ويعتبر وثيقة تاريخية بالغة الأهمية، لو أعار المعنيون –المسلمون والمسيحيون علي السواء – آذانهم لما احتوته من نصائح لجنبوا عالمنا الكثير من الويلات. **وسأذكر بمحتوى هذا البيان ثانية في نهاية هذا المبحث.**

أولا: مناقشة ورقتي

اعترض الأسقف **كينث كريج** بشدة علي إشارتي إلي نبوءة عيسى في إنجيل يوحنا التي يستشف منها البشارة ببعثة النبي محمد. وقال أن الجميع يعلمون أن البشارة كانت بمجئ الروح القدس، الشخص الثالث في الثالوث المقدس، وقال أنه ليس من حق المسلمين أن يفسروا تلك النبوءة علي أنها إشارة إلي محمد.

تركته يستشيط كما يحلو له. وفي النهاية ذكرته، بأنني " أعتقد أنه منذ القرن السادس عشر أرست حركة الإصلاح الديني[2] مبدأ حق كل إنسان، وليس القساوسة وحدهم، في قراءة الكتاب المقدس وتفسيره. وأيا كان الأمر فإن المسيح عيسى بن مريم مقدس لدي المسلمين تماما كما هو عند المسيحيين، ولا يحق لأحد أن يدعي احتكار الحق في فهم تعاليمه".

وإذا استثنينا مقولات كريج، إلا أن بقية المسيحيين المشاركين في الحوار تأثروا بشدة بما كشفت النقاب عنه أنا والدكتور راشد بخصوص بعض الأنشطة التبشيرية المسيحية في شرق إفريقيا

---

[2] بزعامة مارتن لوثر، مؤسس المذهب البروتستانتي.

وأندونيسيا. ومن ثم اقترح الأسقف النرويجي أنه " **في ضوء ما قيل عن الأنشطة التبشيرية في شرق إفريقيا وأندونيسيا، فإن علينا أن نسجل أسفنا، ونطلب العفو من الله تعالي علي تلك الأعمال المضادة تماما لروح المحبة المسيحية**". وانتهي النقاش إلي التوافق علي تبني ذلك الاقتراح النرويجي، وأعرب المشاركون المسيحيون عن تعاطفهم الكامل مع إخوانهم المسلمين، بخصوص الأخطاء الأخلاقية التي ارتكبت بحقهم.

وفي فترة استراحة بين جلسات الحوار، تجولت مع الأسقف النرويجي، والأسقف البريطاني، والدكتور جون ب. تايلور. وانتهي بنا المطاف في مقهي، جلسنا به لتناول فنجان شاي. وطرح أحد الرفاق السؤال حول الفصل بين **الكنيسة والدولة**. وأجمعوا جميعا علي أن الإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والدولة، وأن ذلك أعاق التقدم وتمخض عن صراعات لا مفر منها.

قلت لهم أنهم يتحدثون عن شئ لا وجود له في الغرب أيضا، لأن العلاقة بين الكنيسة والدولة جد وثيقة فيه، بل إن عراها أوثق من عرى العلاقة بين المسجد والدولة فيما يعرف بالدول الإسلامية. فردوا علي مقولتي بالرفض المطلق.

قلت لهم، أن **الأحزاب الديموقراطية المسيحية** في الغرب تحظى بنفوذ سياسي واسع. وليس بالأمر الغريب أن تكون هي الأحزاب الحاكمة، كما شهدت ألمانيا وإيطاليا.

رد رفاقي المسيحيون بأن كلمة "**مسيحي**"الكائنة في أسماء تلك الأحزاب لا تشير إلي الدين المسيحي، بل هي لمجرد التمييز بين تلك الأحزاب والأحزاب الأخرى كالحزب الاشتراكي الديموقراطي.

صممت علي أن الأسماء تتضمن مؤشرات علي جوهر تلك الأحزاب. ولو كان المجتمع الغربي والعمل السياسي الغربي علماني بحق كما يقال، لوجب تحاشي المضامين الدينية. ثم إن اللقب الرسمي للعاهل البريطاني هو "**حامي الدين**". فأي دين؟ إن كنيسة انجلترا بالطبع والعاهل البريطاني ينتميان دستوريا إلي الكنيسة الرسمية. وأساقفة تلك الكنيسة هم بحكم مناصبهم الرفيعة أعضاء في مجلس اللوردات الذي هو أحد مجلسي البرلمان البريطاني، بل هو المجلس التشريعي الأعلي. وحتى عام 1858م لم يكن من المسموح به لغير المسيحي المعمد أن يكون عضوا بالبرلمان. ومنع روتشلد ثلاث مرات من أن يتبوأ مقعدا في البرلمان لكونه يهوديا رغم فوزه بالمقعد في الانتخابات.

ويخضع الملك في المملكة المتحدة للكنيسة، كما تجلي في إجبار الكنيسة الملك إدوارد الثامن علي التخلي عن العرش. فلم تجز أسقفية كانتربري زواجه من سيدة مطلقة، رغم أن القوانين العلمانية تجيز الطلاق، ولا تمانع في زواج المطلقة. والكنيسة، في هذا المثال، نقضت السلطة العلمانية، بل والسلطة الملكية.

وفي حين تحظى الأحزاب المسيحية بالقبول وتمنح تراخيص غير مشروطة للعمل، والإمساك بمقاليد السلطة، فإن ضغوطا دولية مباشرة وغير مباشرة تمارس من أجل منع وصول أي حزب في أي بلد إسلامي له ميول إسلامية صريحة أو محتملة، إلي السلطة. ومثل هذه الأحزاب تطارد وتقمع في أي مكان تحاول فيه أن ترفع رأسها بأي شكل من الأشكال. فالمسألة في الغرب ليست مسألة المسيحية في مقابل الأديان الأخرى، بل هي هي مسألة الكنيسة الرسمية التي تهيمن علي كل ما عداها. ولقد شهدت

انجلترا قبيل اجتماعنا هذا في جنيف جدلا بشأن إمكانية تعيين **كاثوليكي نائبا لرئيس هيئة الإذاعة البريطانية**، خلفا لرئيس معين تابع لكنيسة انجلترا. واتخذت كل الإحتياطات لمنع حدوث مثل هذه السابقة.

وما دفع الآباء المهاجرون إلي الرحيل من ديارهم الإنجليزية، إلي هولندا، ثم إلي الولايات المتحدة، إلا رغبتهم في العيش في بلد يستطيعون فيها بوصفهم **بروتستنات مستقلين**، ممارسة شعائرهم الدينية دون القمع والاضطهاد الذي تعرضوا له من جانب كنيسة انجلترا الرسمية، بواسطة الحكومة. فصلوات الكنيسة كان يلزم إجازتها من البرلمان. ويهيمن الصليب علي علم كل من بريطانيا وأيسلندا والنرويج والدنمارك والسويد وسويسرا.

ويمثل الكرسي البابوي، بمجلس وزرائه وسفاراته، ونفوذه الواسع، واللامحدود علي الدول الكاثوليكية وغير الكاثوليكية حكومة أعلي من الحكومات يعلو نفوذها وسلطانها بشكل مباشر وغير مباشر، علي نفوذ القوى العظمى وسلطتها. **فهل تتصور علاقة بين الكنيسة والدولة أمتن من تلك التي بينهما في العالم الغربي الآن؟ وخلاصة القول أن الكنيسة تحكم بسفور بالغ.**

وخلاصة القول، أن **الآصرة بين الكنيسة والدولة في كل بلد أوربي وأمريكي ومن يحذو حذوهم، قوية ولا انفصام لها**. والبنات المسلمات في تلك الدول المسماة "**علمانية**"مثل فرنسا وبريطانيا تتعرضن للإكراه علي نزع حجابهن، بينما لا ينطق أحد بكلمة واحدة ضد لباس الراهبات المشابه له. وينعت **المسلم بالأصولي**، الذي يعني حاليا **الشخص المتعصب**، أو ما هو أسوأ: **الإرهابي**، لا لشئ إلا بسبب ملبسه أو بسبب ملبسها.

ولكن ذاك الحكم لا يطول الراهبات، أو أي رجل دين مسيحي، بلباسه الديني وبالصليب الكبير المتدلي من عنقه علي نحو لافت للنظر. وإن جاز التشكيك فيما حدث في الماضي، وإذا جاز لنا أن ننسى قرنين من الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش الأسبانية، وغزو الفلبين وأمريكا الجنوبية وتحويل سكانها الأصليين، عن دينهم بالقوة، والإحتلال البرتغالي القمعي لشرق إفريقيا وعمان علي مدى قرنين من الزمان، والمؤامرة ضد تركيا، التي أسموها "**رجل أوروبا المريض**"، وما تمخض عنه ذلك من إزالة الخلافة العثمانية، إذا قدر لنا بشكل ما أن ننسى هذا كله، أوَلا **نرى بأم أعيننا ما يجري في أفغانستان وزنجبار والشيشان، والبوسنة، وما يحاك من مؤامرات لألبانيا؟**

ومن بين ما جاء في هجوم روبرت موري الخبيث علي الإسلام في كتابه الموسوم" الغزو الإسلامي: مجابهة الديانة الأسرع نموا في العالم" نقرأ قوله "**حيثما يصير الإسلام هو الديانة الغالبة في أي بلد، فإنه يغير ثقافة ذلك البلد ويحولها إلي ثقافة الجزيرة العربية في القرن السابع. وهذا هو السبب في الصعوبة البالغة لتحول المسلمين إلي أي ديانة أخرى. فالإسلام ينظم كل جوانب الحياة. والمسلم يطبق تعاليم الإسلام كفريضة عليه بصرف النظر عن المكان الذي يوجد فيه وعن رأيه فيه**".

وهنا يكشف الرجل عن خبيئة نفسه. ويظهر أمامنا الباعث الذي يحركه عاريا. فالدعوة إلي تلك الديانة الجديدة الفتاكة "**العلمانية**" ليس مردها البحث عن أي فضيلة متجذرة فيها، وإنما من أجل زحزحة المسلم عن الولاء للإسلام، علي أمل أن يصير ضحية سهلة للتنصير. إنهم يريدون أن يجردوه من أساسه وميزانه، ليفقد

الدفة ويصير لين العريكة وسهل القياد. ومن المأمول به أن لا يكون الوقوع فريسة لهذا الهدف القصير النظر سائدا.

وتمخضت مداولاتنا الرسمية وغير الرسمية في جنيف عن البيان التالي البلغ الأهمية الذي أرى وجوب الالتزام به، هو والإعلان العالمي لحقوق الإنسان من جانب كل الأفراد والأحزاب التي تتنافس علي الزعامة السياسية في أي بلد يتعايش فيه أتباع الإسلام والمسيحية.

ثانيا: بيان المؤتمر عن "الإرسالية التبشيرية المسيحية والدعوة الإسلامية" الصادر في شامبسي بجنيف في يونيو 1976: خلص المؤتمر إلي بيان ختامي، محاوره الرئيسة هي:

1- اعترافا بكون التبشير والدعوة فريضتين دينيتين أساسيتين في كل من المسيحية والإسلام، نظمت اللجنة المعنية بالإرسالية العالمية والكاثوليكية التابعة للمجلس العالمي للكنائس بجنيف، بالتشاور مع مؤسسة ليسيستر الإسلامية ومركز دراسة الإسلام والعلاقات المسيحية الإسلامية سيلي أوك كوليدج ببرمنجهام، مؤتمرا خاصا بالتبشير والدعوة في الفترة من28 جمادى الآخرة حتى 4 رجب 1396 هجرية الموافق 26 يونيو حتى 30 يونيو 1976.

وإلي جانب البحث في طبيعة التبشير والدعوة، وخبرة كل من الطرفين بخصوص أنشطة الآخر التبشيرية والدعوية، استهدف المؤتمر تعزيز التفاهم المتبادل بين المسلمين والمسيحيين، واستشراف وسائل التوصل إلي طريقة للعيش المشترك تكفل الصالح الروحي للجميع.

2- توافق المؤتمرون علي أنه حينما تكون طائفة من أي الجانبين تمثل أقلية، فإنها يجب أن تتمتع بحق الوجود القانوني، وأن تمارس كل طائفة شعائرها الدينية، وأن تحيا وفق دينها بحرية كاملة.

ويتبنى المؤتمر **مبدأ الحرية الدينية** الذي يعترف بحق المسلمين والمسيحيين علي السواء في التمتع بحرية الإقناع والاقتناع، وحقهم في أن يمارسوا شعائرهم الدينية، وينظموا حياتهم وفق أحكام دينهم ومبادئه، وحق الفرد رجلا كان أم امرأة أن يحافظ علي استقامته الدينية وفق مبادئ دينه، وإخلاصه لهويته الدينية.

3- يتفق المؤتمر علي أن الأسرة مؤسسة ثمينة إلي أبعد حد وضرورية. ويعبر المؤتمر عن قلقه البالغ من مخاطر تفككها وعلمنتها. ويوصي المؤتمرأن لا يتدخل أتباع دين آخر في قانون الأحوال الشخصية ا لخاص بالمسلمين أو المسيحيين.

ويتفق المؤتمر علي أن **للمجتمع والأسرة** الحق في التعليم الديني لأطفالهم، بإقامة مدارس خاصة بهم، أو بإسناد مهمة تعليم أطفالهم أمور دينهم إلي مدرسين تابعين لمذهبهم الديني في المدارس، أو بأي وسيلة أخرى مناسبة. وينبغي أن تتاح لهم الفرصة في كل الأحوال لتنظيم حياتهم الروحية والثقافية دون تدخل خارجي، مع مراعاة حساسيات الموقف ومشاعر الآخرين في المجتمعات المتعددة الأ ديان.

4- **يعرب المؤتمر عن الأسف البالغ** تجاه تقارير أفادت أن بعض المسيحيين في بعض البلدان الإسلامية يشعرون أن ممارستهم لحريتهم الدينية مقيدة، وأنهم محرومون من حق بناء

الكنائس. ويعتبر المسلمون المشاركون في المؤتمر مثل تلك الممارسات مضادة للشريعة الإسلامية ولمبدأ الحرية الدينية السابق التنويه عنه.

5- **يعترف المؤتمر تماما بحق المسلمين والمسيحيين** في تنظيم حياتهم الاجتماعية وفق تعاليم دينهم وشرائعه ومبادئه، وأن يقيموا المؤسسات الضرورية ويحافظوا عليها بما يتمشى مع مبادئهم الدينية كمواطنين متساوين.

6- **يعرب المسيحيون المشاركون في المؤتمر لإخوانهم المسيحيين عن تعاطفهم الكامل معهم بخصوص الأخطاء الأخلاقية** التي عانى منها العالم الإسلامي على أيدي المستعمرين والاستعمار الجديد والمتواطئين معه. ويعي المؤتمر أن العلاقات المسيحية الإسلامية شابها عدم الثقة والريبة والخوف. . وبدل التعاون من أجل الصالح المشترك، تكرس الجفاء والنفور بين المسيحيين والمسلمين.

وبعد ما يربو على قرن من الإستعمار، خدمت خلاله الإرساليات التبشيرية مصالح القوى الاستعمارية عن عمد أو عن غير قصد، تردد المسلمون في التعاون مع المسيحيين الذين حاربوهم بوصفهم عملاء لمضطهديهم. ورغم أنه قد آن الأوان لفتح صفحة جديدة في العلاقة بين الجانبين، فإن المسلمين لا يزالون مترددين في اتخاذ تلك الخطوة لاستمرار شكهم في نوايا المسيحيين. والسبب هو تلك الحقيقة الدامغة الخاصة بأن كثير من الخدمات الإرسالية المسيحية الراهنة لاتزال تقدم بدوافع خفية.

فتلك الخدمات الإرسالية **تنتهز جهل المسلمين، وحاجتهم إلي الخدمات التعليمية والصحية والثقافية والاجتماعية**، والأزمات والكرب السياسية التي يعاني منها المسلمون، وتبعيتهم الاقتصادية وانقسامهم السياسي، وضعفهم العام وتدني حصانتهم، لخدمة أغراض أخرى غير الهداية إلي دين جديد، أي من أجل تكثير عدد المسيحيين لأسباب غير روحية. وتمخض الكشف مؤخرا عن علاقات بين بعض تلك الإرساليات وأجهزة مخابرات بعض القوى العظمى عن تأكيد وتكثيف سوء تفاهم متفاقم من قبل.

ويدين المؤتمر بكل قوة كل تلك الأشكال المسيئة لاستخدام الخدمة. ويتبرأ المسيحيون المشاركون في المؤتمر، باسم المسيحية من أي أرسالية انحطت بنفسها إلي درك أن يكون لها أي غرض سوى المحبة لله وللجار. ويعلنون أن أي خدمة قدمت لأغراض خفية هي مجرد أداة دعائية وليست تعبيرا عن المحبة. وهم متفقون علي ممارسة كل ما بوسعهم، واستخدام كل وسيلة ممكنة لإحاطة الكنائس المسيحية والمؤسسات الدينية المسيحية علما بهذا الوضع.

7- **انطلاقا من وعي المؤتمر المؤلم بأن موقف المسلمين** من الإرساليات المسيحية تأثر بالسلب بشدة من جراء إساءة الخدمة التبشيرية، فإنه يهيب بالكنائس المسيحية والمنظمات الدينية المسيحية، **أن يوقفوا أنشطتهم غير المرغوب فيها في العالم الإسلامي**. فمثل هذا الإجراء الجذري ضروري لتنقية أجواء العلاقات المسيحية الإسلامية وتوجيهها صوب الاعتراف المتبادل والتعاون اللائق بهذين الدينين العظيمين.

ويدعو المؤتمر بكل قوة إلي توزيع كل المعونات المادية الممنوحة من كنائس ومنظمات دينية أجنبية قدر الإمكان عبر، أو بالتعاون مع، الحكومات والمجتمع المحلي، لمن توجه إليهم، مع احترام كرامتهم واستقامتهم.

الفصل الثالث

إطلالة خاطفة في التاريخ [1]

تحرر شرق إفريقيا من استعمار برتغالي دام قرنين من الزمان علي يد عمانيين، جاءوا تلبية لنداء متكرر من إخوانهم المسلمين في كل أرجاء شرق إفريقيا والجزر. ولم تكن استجابة العمانيين لذلك النداء حيلة إمبريالية لحيازة إرض، بل كانت تلك الإستجابة، في المقام الأول، استكمالا طبيعيا لحرب تحرير عمان ذاتها، فعمان والهند عانيتا من الإحتلال البرتغالي قدر معاناة شرق إفريقيا منه. . أما السبب الثاني فهو أن العلاقات بين شرق أفريقيا والجزيرة العربية تعود إلي عصر ما قبل التاريخ. فمبجرد أن عرف الإنسان كيفية استخدام الرياح الموسمية التي تهب بانتظام بدأ الاتصال بين شرق إفريقيا والجزيرة العربية، وبدأ التضافر بينهما.

وعمر العرب شرق إفريقيا من ألوف السنين. ، وكان من طلبوا العون العماني من نفس الثقافة والدين، ومن نفس الأصل العرقي. والأمر الطبيعي الوحيد والحال كذلك، أن عمان المحررة المسلحة والقوية، تطارد اعدائها وتتبعهم في شرق إفريقيا، فيما لو كان المراد هو تحرير كل أولي أرحامهم، واستعادة المحيط الهندي حرا للتجارة.

---

[1] محاور هذا الفصل هي: تشكل الإمبراطورية العمانية الكبرى التي ضمت عمان وزنجبار، **والكيفية التي تفككت** بها، والعلاقة بين البراونة والسلاطين، وبالأخص **العلاقة بين عبد الله سالم البرواني** والسيد خالد بن برغش، **وعلاقة والد المؤلف بآل باكثير**، وأخيرا **الكيفية التي تعاملت بها أسرته مع كارثة الكساد العالمي الكبير** في أواخر العقد الثاني من القرن الماضي. – المترجم

وجاء العمانيون مرارا وتكرارا، وطردوا البرتغاليين من كل مدن سواحل شرق إفريقيا حتى موزمبيق. ومرة تلو الأخرى، عادت السفن الحربية والجنود العمانيون إلي بلادهم بعد إنجاز مهمتهم، وتركوا أبناء شرق إفريقيا يحكمون أنفسهم بأنفسهم. ومرارا وتكرارا عاد البرتغاليون بروح انتقامية، وأعادوا احتلال المدن، وأجهزوا علي كل من لم يستطع الفرار، وأبادوا المدن وأهلكوا الحرث والنسل، ثم فرضوا إتاوات جماعية باهظة علي أهل البلاد عقابا لهم علي التجرؤ علي تحرير أنفسهم من العبودية. وسويت مدينة ممباسا بالأرض خمس مرات.

وبعد كل مرة أعاد فيها البرتغاليون غزو شرق إفريقيا سارع أبناؤها بطلب حملة تحرير عمانية أخرى. وفي نهاية المطاف لم يجد الإمام اليعربي بدا من نشر قوة حماية دائمة في كل مدينة لمنع عودة البرتغاليين ثانية إلي الأبد. وبقى الحكام المحليون دون ان تمس سلطاتهم في مجالات نفوذهم، ولكن مع الإحتفاظ بالولاء العام للإمام، تماما كما هو الحال بالنسبة للقبائل في عمان.

وبعد حين من الدهر، تدهورت قوة حكام عمان اليعاربة[2]، ودعوا الإيرانيين لمساعدتهم في المشاجرات الداخلية الدائرة بينهم. وأصبح الإيرانيون أصحاب حول وطول بالقياس بأولئك الحكام.

[2] المفرد: يعربي والجمع: يعاربة



صاحب العظمة السيد خليفه بن حارب بن ثويني بن سعيد

أولا: الوالي عبد الله بن جاعد البوسعيدي

قام أحمد بن سعيد البوسعيدي والي صحار على الساحل العماني، بالتخلص من الحكام اليعاربة الذين تحالف بعضهم مع الإيرانيين، وحصل من ثم علي لقب الإمامة. وعين الإمام الجديد قريبا له يدعى عبد الله بن جاعد البوسعيدي واليا عاما علي شرق إفريقيا، وجعل مقر قيادته في لامو علي الساحل الكيني. [3]

ومنح الله تعالي **للسيد سعيد بن سلطان بن أحمد**، حفيد الإمام أحمد، عبقرية مكنته من إرساء **أركان امبراطورية عظيمة** تمتد من **عمان** لتغطي كل **منطقة شرق إفريقيا**، بما فيها الصومال وكينيا وتنجانيقا والقطاع الشرقي من الكونغو. ولم يكن حكمه ديموقراطيا بالمعنى المعروف اليوم، إلا إنه لم يكن في نفس الوقت حكما مفروضا بالقوة، بل كان حكما بالتوافق، لامبراطورية فضفاضة شبيهة **بالإمبراطورية الهندية** تحت الحكم المغولي أو تحت **الحكم البريطاني**، التي كان كل مهراجا فيها يحكم ولايته في

---

[3] تزوجت ابنة الوالي عبد الله بن جاعد البوسعيدي من برواني يدعى **عيسى بن سالم**، وأنجبت له **سالم بن عيسى البرواني** الذي جاء من نسله والدي ووالدتي. ومن محاسن الصدف أن زوجتي عزة هي الأخرى من نسل هذا الوالي، فهي من نسل حفيده العظيم **حمد بن سعيد بن حمد بن عبد الله بن جاعد**. ودفن حمد بن سعيد في مامبروي الواقعة علي مسافة تناهز العشرين كيلومترا شمال ماليندي. وأصبح أولاد حمد عشيرة كبيرة في شرق إفريقيا، وصار منهم ولاة لكل مدينة علي الساحل من مقديشيو إلي دارالسلام. ورفيعة المقام الراحلة **السيدة نونو** زوجة معالي **السيد خليفة بن حارب** من تلك العشيرة من جهة والدتها. فجدها هو **سليمان بن حمد** والي الصومال. – المؤلف

ظلها، مع قبول سيادة **الإمبراطور المغولي الأكبر**، أو لاحقا مع قبول **سيادة ملكة بريطانيا**.

ومن الممكن أيضا تشبيه تلك الإمبراطورية **بالإمبراطورية الإثيوبية المتزامنة معها**، التي كان الحكام المحليون يحكمون ممالكهم في ظلها، مع الاعتراف لواحد منهم بالسمو عليهم واعتباره إمبراطورا.

وبعد أن نشر السيد **سعيد بن سلطان** حفيد الإمام أحمد، السلام في ربوع عمان، انشغل بشرق إفريقيا. وكان علي رأس ما يؤرقه تقاعس **الحكام المزارع** [4] القائمين في ممباسا وبيمبا عن قبول اعتباره حاكما أعلي لهم. فجرد عليهم بعض الحملات، ولم يسلموا بالريادة لأسرته الحاكمة، إلا بعد وفاته، في عهد **ابنه السيد ماجد**. ويذكر أن **المزارع** شأنهم شأن **البوسعيديين** ينحدرون من أصل عماني. وكانوا طليقي اليد في حكم ممباسا، وفي حكم بيمبا وإن بشكل غير دائم، في ظل إمامة اليعاربة. ونشب النزاع معهم حينما أمسك البوسعيديون بمقاليد السلطة في عمان وشرق إفريقيا.

ثانيا: تمرد ماجد علي ثويني

كان **السيد ماجد** واحداً من صغار أبناء سعيد. وحين أدركت السيد **سعيد**، المنية في البحر، وهو في طريق عودته من عمان إلي شرق إفريقيا، كان السيد **ماجد نائبا عن أبيه في زنجبار**،

---

[4] المفرد مزروعي والجمع مزارع

بينما كان شقيقه الأكبر السيد **ثويني** حاكما لعمان. وشجعت **وفاة الوالد، ومؤازرة بريطانيا** ماجد علي إعلان استقلاله عن عمان.

وكانت النتيجة هي تقسيم **الإمبراطورية بانفصال الجزء الإفريقي منها عن الجزء العماني**. وليس ثمة مؤشر أيا كان علي أن السيد سعيد بن سلطان كان يريد للإمبراطورية التي كد وجد في ترسيخ أركانها، أن تتقسم بوفاته إلي شطرين، ولم يكن لابنه الحق الأخلاقي أو الديني أو السياسي، تحت أي ظرف كان أن يفعل ذلك.

فلقد أوضح السيد سعيد بنقله مقر حكومته من مسقط إلي زنجبار، أنه كان ينوي **تأبيد الإمبراطورية العمانية الزنجبارية**. وأصبحت زنجبار في عهده العاصمة التي يؤمها الدبلوماسيون الأجانب، والتي منها يرسل سعيد مبعوثيه إلي كل أرجاء العالم. وبذا لم تكن زنجبار أو شرق إفريقيا مستعمرة لعمان، بل جزءا لا يتجزأ منها.

ومن ثم نظر في شرق إفريقيا وفي عمان إلي صنيع ماجد بنبذه الولاء لأخيه الأكبر السيد ثويني، وما ترتب علي ذلك من تقسيم الإمبراطورية إلي شطرين منفصلين، علي **أنه عمل بغيض وشائن**. وتولدت بالتالي **انتفاضة في أرجاء الإمبراطورية** ترمي إلي الحفاظ علي وحدة عمان وشرق إفريقيا. وقاد تلك الانتفاضة في زنجبار **السيد برغش**، وهو ابن آخر لسعيد أصغر من ماجد، كان بجوار أبيه حين فاضت روحه إلي بارئها في البحر. ومن بين من آزروه في انتفاضته تلك جدي الكبير **عبد الله بن سالم، وصالح بن علي. وسالم بشير، وسليمان بن حبيب**. ولكون

هؤلاء جميعا ينتمون إلي قبيلة الحارثي[5] " نعت التمرد بـ" **تمرد الحرث**"[6]. وحقيقة الأمر بخلاف ذلك. فلقد كانت تلك الحركة **حركة وطنية زنجبارية عمانية**، زعيمها هو السيد برغش، غايتها إحباط مبدأ الاستعمار الدولي "**فرق تسد**"

ولعبت **السيدة سالمة بنت سعيد بن سلطان** دورا رائدا ومشرفا في تلك الحركة، حيث كانت أمينة السر لها، قبل أن تؤثر التوقف لاعتبارات أخلاقية معنوية. ومن بين كبار قيادات تلك الحركة أيضا: الشيخ **علي بن سيف بن علي الإسماعيلي** المنتمي إلي عشيرة الإسماعيلي واسعة النفوذ، وبسبب دوره في تلك الحركة سجن في **سانت هيلانه، ثم نفي إلي عمان**. ، ثم سمح له لاحقا بالعودة إلي **مسقط رأسه زنجبار** حيث وافته المنية بها. وعيسى ناصر حفيده هو زميلي، ومن أعز أصدقائي. وبالطبع فإن السيد ثويني الوريث الشرعي لوالده منح تلك الحركة كل تأييده ورعايته الملكية. بل أنه أرسل حملة عسكرية بحرية قوامها خمسة عشر ألف مقاتل لخلع السيد ماجد من العرش الذي استولي عليه بالمخالفة للأعراف الخاصة لتداول السلطة.

إلا أن **القوات البحرية البريطانية** المهيمنة علي المياه من الهند حتى شرق إفريقيا تدخلت ومنعت وصول تلك القوة البحرية العمانية إلي زنجبار. ومن جهة أخرى، نشر البريطانيون قوات مشاة ووحدات مدفعية لمؤازرة ماجد الذي كان علي شفا أن تلحق

---

[5] البراونة فخذ من فخائذ عديدة تنتمي لبني الحارث بن كعب.

[6] المفرد: حارثي والجمع: حرث

بـه الهزيمـة فـي معركـة ماتشـوي. وهكـذا وضـع ماجـد دون أن يـدري نفسـه ومـن يخلفونـه فـي وضـع لا يحسـدون عليـه بـأن بـات كالعجينـة فـي يـد اصـحاب الفضـل عليـه مـن البريطـانيين. ومـن الجـدير بالـذكر، أن الانفصـال بـين عمـان وشـرق إفريقيـا الـذي فرضـه البريطـانيون كـان موضـع معارضـة مـن شـقيق آخـر للسـيد ثـويني هـو السيد **تركي بن سعيد**، والذي هو الجد الأعلي للسلطان قابوس. [7]

وفـي "معجـم أسـماء العـرب" الصـادر عـن **موسـوعة السـلطان قـابوس لأسـماء العـرب**، نقـرأ تحـت مـادة **(البروانـي)**": ومـن بـين مـن حملـوا هـذا الإسـم: ماجـد بـن سـعيد البروانـي، وهـو شـيخ عمـاني عـاش فـي أوائـل القـرن الحـادي عشـر الهجـري. وهـو مـن أهـل الشـورى الـذين سـعى **سـلطان ابـن الإمـام أحمـد** إلـي الاسـتعانة بـرأيهم بعـد المذبحـة التـي منـي بهـا رفاقـه فـي الحـرب ضـد الوهابيـة. ومـن البراونـة[8] ايضـا: **عبـد الله بـن جمعـة بـن عـامر البروانـي**، والـذي كـان واليـا وقاضـيا عمانيـا فـي أواخـر القـرن الحـادي عشـر الهجـري، ولـي زنجبـار فـي عهـد السـيد سـعيد بـن سـلطان بعـد وفـاة الشـيخ عمبـر الحبشـي. وأخضـع عبـد الله بـن جمعـة كـل مـواني شـرق إفريقيـا للإمـام. ولمـا زاد صـيته وتعاظمـت شـعبيته، أقالـه السـيد سـعيد بـن سـلطان مـن منصـبه. ومـن مشـاهير البراونـة أيضـا الـذين وردت أسـماؤهم فـي ذلـك المعجـم جـدي الأعلـي المباشـر **عيسـى بـن سـالم** بـن عيسـى البروانـي، الـذي وصـف بهـا بأنـه **شـيخ عمـاني** عـاش فـي

---

[7] انظر: د. حسين عبيد غباش "عمان- الديموقراطية الإسلامية". ويصف مؤلفه فيه صالح بن علي الحارثي بأنه حليف قوي لثويني.

[8] المفرد بروانى والجمع براونة

زنجبـار فـي القـرن الثالـث عشـر الهجـري فـي عهـدي السـيد سـعيد بـن سلطان وابنه ماجد.

وضـاع كـل مـا تحقـق مـن التحـرر مـن الحكـم البرتغـالي البغـيض، بجهـد الحكـام اليعاربـة، ومـا بـذل مـن جهـد مـن أجـل إرسـاء دعـائم الوحـدة بـين عمـان وشـرق إفريقيـا بفضـل عبقريـة السـيد سـعيد بـن سـلطان، حينمـا سـمح السـيد ماجـد لنفسـه بـأن يكـون أداة لمخططـات اسـتعمارية. وكـان ذلـك نـذيرا لـيس فقـط بنهايـة الملـك، بـل **بـزوال اسـتقلال زنجبـار، وانحسـاروحدة شـرق إفريقيـا**. فلـم تشـهد منطقتـي شـرق ووسـط إفريقيـا أبـدا درجـة مـن الوحـدة كـالتي عرفتهـا فـي عهـد السيد **سعيد بن سلطان**.

وانتهـي التمـرد بترحيـل السـيد بـرغش إلـي الهنـد، وهـروب صـالح بـن علـي الحـارثي إلـي مقديشـيو، وسـجن علـي بـن سـيف الإسـماعيلي فـي سـانت هيلانـه، واعتقـال عبـد الله بـن سـالم، وسـالم بـن بشـير فـي 7 يوليـو 1859 (ذي الحجـة 1275 هـ). وعلـي إثـر اعتقالهمـا اسـتل محمـد بـن ناصـر بـن عيسـى وهـو أحـد صـغار أبنـاء عـم عبـد الله، مسدسـه بنيـة قتـل السـيد ماجـد. إلا أنـه لـم يحسـن الإعـداد لمهمتـه، وقـبض عليـه هـو الآخـر، وأودع السـجن فـي لامـو، ثـم أفـرج عنـه لاحقـا مـع تحديـد إقامتـه فـي جزيـرة زنجبـار بضـمانة شخصـية من ستة من كبار شيوخ الحرث.

ووافـت المنيـة جـدي الأكبـر فـي سـجن لامـو بعـد قرابـة عـام. ويقـال أنـه مـات مسـموما[9]. وصـودرت سـفينتيه **الصـالحية والحارثيـة** اللتـان

---

[9] أنظر "جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار" للشيخ سعيد بن علي المغيري، من إصدارات وزارة التراث والثقافة العمانية صفحة 300

كانتا تخوضان عباب مياه المحيط بالتجارة.[10] كما صودر **قصر سالم بن بشير البرواني**. ومن المؤشرات الدالة علي نوعية تفكير ماجد وخطله أنه أعطى ذلك **القصر لزعيمي أولي الإرساليات التبشيرية المسيحية،، الأسقف توزير وأدوارد ستيري عام 1864 لاستخدامه كمركز للتبشير إلي أن يقيموا مبنى خاصا بها.**

وفي عام 1866 لقي السيد **ثويني بن سعيد** حتفه بمؤامرة داخلية، وهو نائم، ضمن مؤامرة مع الوهابيين الذين كانوا يتطلعون لغزو عمان.

وتمخض هذا الاغتيال عن تمرد بإمامة **عزان بن قيس** المنتمي إلي فرع آخر من البوسعيديين، **وصالح بن علي الحارثي** الذي عاد من زنجبار، والعالم **سعيد بن خلفان الخليلي**، والعالم **محمد بن سليّم** الغاربي. وتحت قيادة هؤلاء الأعلام الأربعة، خلع القاتل سالم من السلطة، وإن كان البريطانيون قد ساعدوه علي الهرب إلي **بندرعباس** ببلاد فارس. وتبنى عزان بن قيس ورفاقه في إمامتهم سياسة قوامها إلغاء المعاهدات الجائرة المفروضة علي عمان، وفي مقدمتها تلك التي تفصل بين عمان وزنجبار. ومن هنا كانت الحركة الإمامية محلا للسخط البريطاني. وبالمثل، لم ينظر البريطانيون بعين الرضا للسيد تركي كبديل لسالم قاتل أبيه،

---

[10] ومن حسن الطالع، أنني اكتشفت في زيارة قمت بها إلي لامو برفقة زوجتي عام 1947 أن الوالي **سيف بن سالم البوسعيدي** جد زوجتي بنى مسجدا بجوار قبر جدي الكبير **عبد الله بن سالم** الذي قضى نحبه شهيدا في السجن. وحافظت الإدارة الاستعمارية علي القبر بوصفه أثرا تاريخيا، ولكنني لا أعرف مصيره بالضبط الآن بعد استقلال كينيا.

بسبب معارضته المطلقة للفصل بين عمان وزنجبار، بل نفوه إلي الهند[11].

وشرعت القوى الأوربية الاستعمارية بعد الفصل بين عمان وشرق إفريقيا، في تقسيم إفريقيا إلي "**مناطق نفوذ**" مقصورة عليهم. ومن الأمور البالغة الدلالة أنهم فعلوا ذلك **بإفريقيا** كلها، **باستثناء إثيوبيا** وليبريا، لأنهما كانتا **تحت حكم مسيحي بالفعل.**

ونظرت تلك القوى إلي **شرق إفريقيا، وعاصمتها زنجبار**، علي أنها ستكون حجر عثرة في طريق تلك المخططات، لكونها **جزءا لا يتجزأ من دولة خارج إفريقيا**، وأي إجراء تتخذه بخصوص زنجبار سيشكل اعتداء علي سيادة عمان وعلي سلامتها الإقليمية أيضا. وربما يفضي ذلك أيضا إلي تعقيد العلاقات مع مسلمي تركيا، التي هي قوة لها وزنها، وكذا مع رعايا بريطانيا من المسلمين بالهند، الذين لا يمكن تجاهلهم بحكم عددهم، وبحكم علو صوتهم.

وجاء حل هذه المعضلة علي طبق من ذهب مع **موت السيد سعيد بن سلطان عام 1856، والطموحات الشخصية لابنه ماجد**. وبكل الجدية عملت الدبلوماسية البريطانية بين لندن وبومباي وزنجبار. وحققت الانفصال بين التوأمين المتلاحمين. **ولم يتم الفصل بمشرط جراح بارع، بل بشفرة وحشية لحلاق يجلس علي قارعة الطريق**. والنتيجة أن كلا التوأمين عمان وشرق أفريقيا ترك يلهث من أجل التقاط انفاسه، ولا يستطيع أن

---

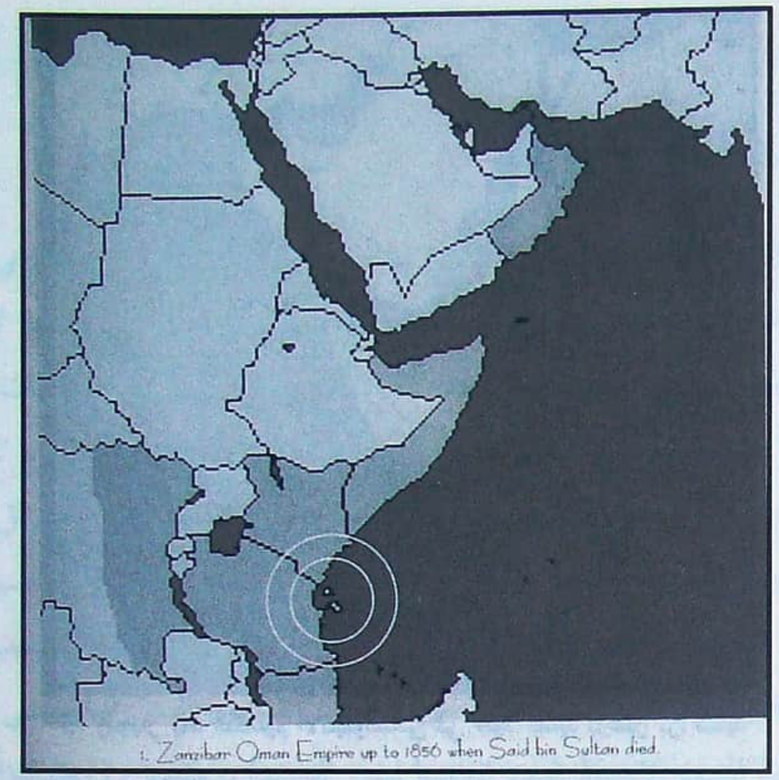
[11] د. حسين عبيد غباش "عمان- الديموقراطية الإسلامية" ص215.

يحيا إلا في حضانة المستعمر. وبات الزوال محكوم به علي كل منهما إن هي اعتمدت علي نفسها.

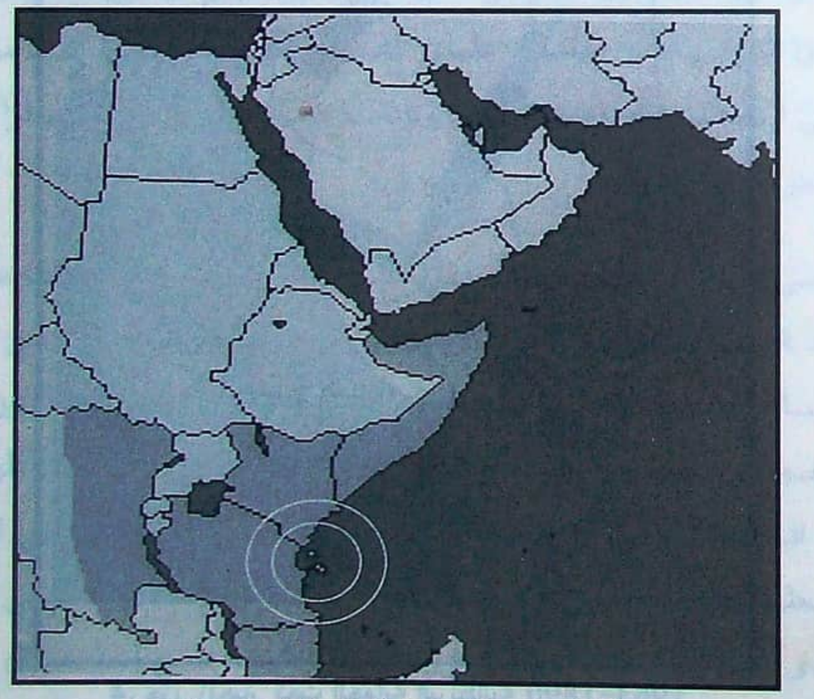
وتنتمي جدتي **موزة بنت خلفان** مثلها مثل أبي، إلي عشيرة البرواني. وتنحدر جدتي **موزة** وشقيقتها **شيخة** وأخويها **محمد** (روماليزا)، و**ناصر** أيضا من جدود من قبيلة مطافي، التي هي قبيلة سواحيلية وافدة من متوابا الكائنة علي ساحل كينيا، ومن جدود الماكوندي بليندي علي ساحل تنجانيقا.

وأشهر أبناء القبيلة الأولي هو **فاعل الخير خميس محمد مطافي** الذي تبرع بثلاثين فدان من أجود الأراضي في جزيرة ممباسا ليتأسس عليها **معهد ممباسا لتعليم المسلمين**. الذي كان يخدم مسلمي شرق إفريقيا ككل. وتخرج فيه ثلة من أحسن البحارين والفنيين وفنيو الكهرباء والمكانيكا، والنجارين، وغيرهم. إلا أن الحكومة الكينية صادرته، وبات الدارسون المسلمون به مجرد أقلية صغيرة. ولم يبقى من شخصيته الإسلامية الآن غير معمار مبانيه. **وفقدان هذا المعهد واحد من الخسائر التي تكبدها مسلمو شرق إفريقيا نتيجة الإطاحة بحكومة زنجبار التي كانت قائمة قبل عام 1964.**

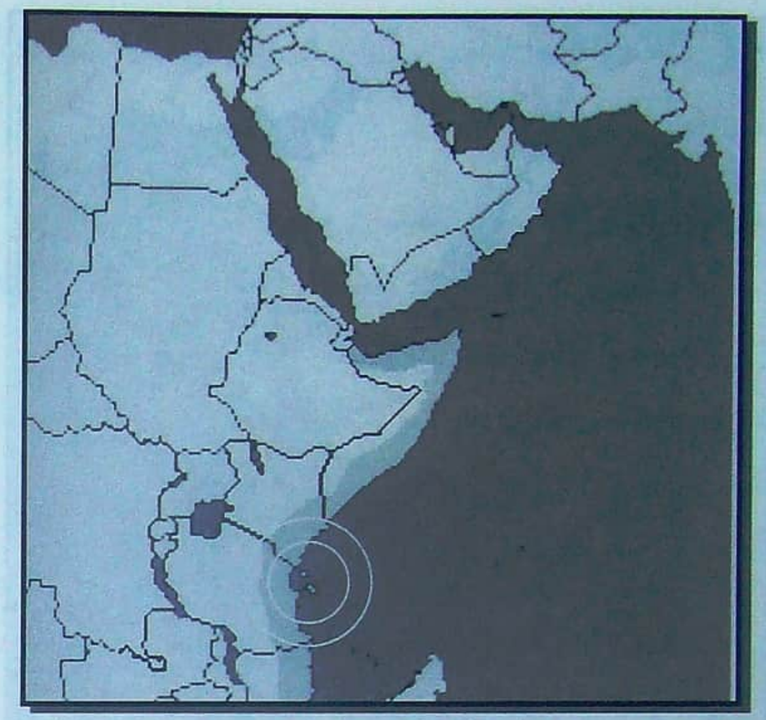
وناصر بن عيسى البرواني جد أمي من جهة أمها، وشقيقه **محمد** هما اللذان أسسا مدينة **ليندي**. وتولي ناصر منصب والي تلك المدينة ممثلا للسلطان سعيد بن سلطان. أما الأرض التي بنيت عليها المدينة فهي هبة من جدهما من جهة الأم، الزعيم **موانيا الماكوندي** في مجاو موانيا.



إمبراطورية عمان وزنجبار حتى عام 1856 عند وفاة السيد سعيد بن سلطان



2. زنجبار خلال عهد السيد ماجد بن سعيد



3. زنجبار بعد التقسيم الأنجلوألماني في عهد السيد برغش بن سعيد



4. جزر زنجبار تحت الحماية البريطانية 1890-1963

ثالثا: روماليزا المقدام

روماليزا هو اسم الشهرة الذي أطلقه أبناء قبائل النياموزي علي خال أمي **محمد بن خلفان البرواني**. وتعني الكلمة "**مبيد أعدائه**"، وهو لقب استحقه بانتصاراته. ووفق المعلومات التي أوردها الشيخ سعيد بن علي المغيري في كتابه الموسوم "جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار"، فإن محمد بن خلفان حاز لقب "روماليزا" في معركة مورجراسي، حين ذهب لنجدة حميد بن محمد المرجبي (تيبوتيب) الذي كان في موقف عصيب في مواجهة زعيم معاد له في طريقه من تابورا إلي أوجيجي. ولما أصبحت لقوة الإنقاذ اليد العليا في الميدان، صاح روماليزا قائلا بالسواحيلية "**ماليزا**"، وهي مرادف **روماليزا** بالنياموزية، ومعناها: **انهوا المهمة**، أو **اقضوا علي العدو**. وكان روماليزا آنئذ مسيطرا علي أوجيجي غرب تنجانيقا، بينما كان تيبوتيب مسيطرا علي كازونجو شرقي الكونغو.

وقضى روماليزا جل حياته في مناطق برية في صراعات مسلحة ضد المستعمرين الساعين لأن يكون لهم موطئ قدم في شرق إفريقيا. وحارب إلي جانب قبائل المانييما ضد البلجيكيين في الكونغو كما حارب الألمان، إلي جانب مكواوا زعيم قبائل الهيهي، جد الزعيم آدم سابا رئيس البرلمان التنزاني السابق، في ايرنجا بوسط تنجانيقا. وفي تلك الموقعة تمترس جندي ألماني علي إحدى التلال العالية، وشرع ببندقيته الآلية في استئصال شأفة ابناء قبيلة الهيهي المسلحين ببنادق قديمة ورماح وسهام. وكان ذلك الجندي الألماني محصنا بدرع فولاذي.

واستطاع روماليزا أن يكتشف ثقبا كان ذلك المقاتل الألماني يسدد منها ضرباته، فسدد إليه طلقة من ذات الثقب فأرداه قتيلا. ورغم أن ذلك خفف الهجوم الألماني علي المقاتلين الأفارقة، إلا أن التفوق السافر للقوة الألمانية، أسفر في النهاية عن القضاء علي المقاومة. ولما رأي الزعيم مكواوا أن الوضع ميئوس منه، قال لروماليزا" **لاجدوى من مواصلة القتال فانجو بنفسك من هذه الورطة، واتركنا ندبر أمرنا**".

رد عليه روماليزا: لا. لا أستطيع أن أتركك. أنتم المضيفون، وأنا ضيفكم. ولقد أحسنتم ضيافتي. ومن واجبي أن أقاتل، وأموت معكم.

إلا أن الزعيم صمم علي رأيه، ولم يجد روماليزا مناصا من المغادرة. وجمع الزعيم إخوانه المقربين في الكوخ الذي كانوا يخزنون فيه الذخيرة، وأوقد فيه النار ونسف كل شئ: **نفسه والسلاح ورفاقه**. وأرسى بذلك التقليد الهيهي **بتفضيل الإنتحار علي الإستسلام**.

وسنحت لي الفرصة بالعيش مع مجموعة من الهيهي كانوا معتقلين معي في سجن دودوما، وعلمت أنهم رجال أهل لكل الإحترام.

وحينما استقر الأمر للألمان في تنجانيقا، أرسلوا إلي سلطان زنجبار يطلبون **تسليم روماليزا** إلي تنجانيقا. واستدعى السلطان **السيد خليفة بن سعيد**، روماليزا، وأبلغه بالطلب الألماني، وقال له: "إنني لا أجبرك علي الذهاب إليهم، فأنت تعلم أنهم قد يقتلونك. وأنا أعلم أنني إن لم أسلمك إليهم، فإنهم سيقصفون هذه

المدينة من سفنهم الحربية. ومع ذلك، فإنني لن أجبرك علي تسليم نفسك إليهم إن لم تفعل ذلك بإرادتك.

لم يكن روماليزا بالرجل الذي يتردد حين يكون الخيار بين **حماية نفسه، وحماية شعبه، أو بين حفظ نفسه وحفظ كرامته**. فاختار الذهاب إليهم، وسلم نفسه إليهم مختارا بلا حرس. فاستقبلوه بدورهم، وهم **جنس مقدام بالحفاوة والاحترام**. وقال له قائدهم: "**نريد أن نرى بأعيننا الرجل الذي بلغت به المهارة في القنص، حد القضاء علي جندينا من ذلك الثقب الصغير في الدرع الواقي لبندقيته الآلية.** "

وأهدى الألمان إليه **مسدسا موشى بالزخارف** كوسام، قائلين له أنه هدية من قيصر ألمانيا، وتركوه يعود إلي بلاده حرا. ويحضرني هنا قول سيدنا عمر رضي الله عنه: "**احرص علي الموت توهب لك الحياة**".

وإنني أتذكر جيدا جدتي **موزة بنت خلفان** شقيقة روماليزا، تلك العجوز الطيبة الورعة. ففي سالف الزمان كانت توجد **عربات تتسع لشخص واحد ويجرها آدمي آخر**، جيئ بها من الشرق الأقصى إلي زنجبار. وكان الأوربيون هم في الغالب من يستخدمها في التنقل داخل المدن. أما غيرهم فكان يستخدمها أحيانا إن كان مريضا أو مسن. . ورفضت جدتي بالمطلق أن تركب تلك العربة، محتجة باستحالة تحويل آدمي إلي حيوان يحمل إنسانا مثله. واتخذت من والدي زوجا لابنتها من منطلق الثقة الكاملة فيه وفي ورعه وتدينه، بوصفه رجل دين وتلميذاً للعالم الورع الشيخ عبدالله باكثير.



محمد بن خلفان البرواني (روماليزا)



حمد بن محمد بن جمعه المرجبي – تيبوتيب

رابعا: عبدالله بن سالم

ارتبط جانب كبير من تاريخ زنجبار في القرن التاسع عشر باسم جدي الكبير عبد الله بن سالم. وسجن السيد خالد بن سعيد بينما كان قائما مقام أبيه لوجوده في مهمة بالخارج، وهو في التاسعة عشرة من العمر، [12]، **عبد الله، وثلاثة من عشيرته هم: محمد بن ناصر، وعبد الله بن عامر، وعلي بن مسعود.**

أما عن ملابسات ذلك الحادث، فهي انه بينما كان موظفون حكوميون يجرون قطعة خشب ضخمة يعتزمون اتخاذها سارية لإحدى سفن السلطان عبر حقول ضيعة عائلة البروانى في كيتوندو، **منع المزارعون وأربعة من الشبان البراونة عمال الحكومة من جر الخشبة في وسط مزروعاتهم.** . فاستدعوا الجنود، وأسفرت المواجهة **عن سقوط بعض القتلى.** وتجاهل خالد مناشدات وزراء السلطان، وسجن الشبان الأربعة، وأبقاهم مقيدين بالسلاسل. وأحس تانجي قائد السجن، صاحب المكانة السامية لدى السلطان بالشفقة علي المسجونين الشبان، ففك الأغلال من أقدامهم. وحين علم خالد بذلك اشتاط غضبا، وأقال القائد من منصبه.

ولما عاد السلطان من الخارج، ذهب القائد كعادته لمقابلته والإعراب له عن بالغ احترامه، فوجده علي وشك أن يتناول الغداء. سأله السلطان عن مجريات الأمور في البلاد، فأجابه بأن: "**تناول الغداء أولا ياسمو السلطان ثم نتكلم**". رد عليه

---

[12] أرجو عدم الخلط بينه وبين ابن أخيه خالد بن برغش. – المؤلف.

السلطان: " **لن أذوق الطعام قبل أن تبلغني بكل شئ. إن قسمات وجهك تنبئ بوقوع أمر جلل**"

حكى القائد القصة بحذافيرها. غلي الغضب في عروق السلطان، واستدعى ابنه خالد، ووبخه قائلا: "هل تعتقد أننا حزنا كل هذه الإمبراطورية ونحافظ عليها بقوتنا وحدنا؟ إننا نعتمد علي أولئك الرجال في حيازتها، وفي المحافظة عليها. ومن واجبنا ومن مصلحتنا أن نعامل البشر بالاحترام والتقدير الذي يستحقونه"

وأصدر السلطان أمره بالإفراج الفوري عن **الشبان الأربعة المعتقلين**، ودعاهم لتناول الغذاء معه بالقصر، وقضاء ليلة معه. تحدث إليهم برقة وحثهم علي حفظ السلم، وعدم أخذ حقهم بأيديهم بالقوة وبالمخالفة للقانون. وفي صبيحة اليوم التالي، أصدر امره إلي قائد السجن بإعادة أولئك الشبان إلي أهلهم، وبأن يأخذ ابنه خالد معه إلي الباغ، ويجعله يقدم اعتذاره واعتذار السلطان عن سوء تصرف ابنه إلي شيوخ البراونة.

وصدع القائد بما أمره السلطان به، وذهب إلي الباغ. وبعد تبادل التحيات، لزم خالد الصمت. فلقد كان مختالا بنفسه إلي حد العجز عن الاعتذار. وهنا تحدث القائد تانجي قائلا: "**الشيوخ الكرام، أمرني جلالة السلطان أن آتي بسيدي هذا، وأولادكم لأنقل إليكم الأسف القلبي علي حماقة سجن أبنائكم. وسمو السلطان نفسه يأسف علي ذلك بشدة ويأسف من حدوث سوء تفاهم من هذا القبيل بين عائلتكم وبينه. ونسأل الله أن لا يتكرر ذلك أبدا**"

وفي اليوم التالي، ذهب **أعيان البراونة** إلي السلطان ليعربوا له شخصيا عن خالص وفائهم. وخطب السلطان فيهم قائلا: **"لقد ضايقتي تصرف خالد بشدة. وأقسمت بالله لأعاقبنه"**. ورد عليه سالم بن عيسى: **"وأقسم انا بالله لنعاقبن أولادنا كذلك، لأن كلا الجانبين مسؤول عما حدث"**. ولما كان كل من السلطان وسالم مصممان علي الوفاء بقسمهما، فإن مستشار السلطان الشيخ **محي الدين القحطاني** حسم المسألة. قال الشيخ طالما ان كلا الطرفين حلف أن يعاقب، دون أن يحدد أي منهما نوع العقوبة، فإنني أقترح أن تكون العقوبة هي **إبعادهم من البلاد. ورحلة إلي إحدى الجزر المقابلة يرقى إلي أن يكون وفاء بذاك القسم**. وفي اليوم التالي، ذهب كل أولئك الشبان في قارب مملوك للحكومة في نزهة خلوية بتلك الجزيرة، وانتهت المشكلة برمتها نهاية سعيدة.

ولا صحة بالمرة لفرية أن **عبد الله بن سالم** تمرد علي السيد **سعيد بن سلطان**. فكل صراعه كان مع أولاد سعيد، وليس مع سعيد نفسه. ومشاحناته مع خالد نابعة من تجاهله بشكل اعتباطي لحقوق ملكية المواطنين. أما تمرده ضد ماجد بن سعيد، فكان الهدف منه هو حماية وحدة وسيادة الإمبراطورية التي أسسها السيد سعيد العظيم.

خامسا: الجد سالم والسيد خالد بن برغش

توفي والدي أبي قبل مولدي بزمن طويل. أما والدي أمي فأتذكرهما جيدا. نعم أتذكر أني تمشيت مع جدي العجوز سالم بن عبد الله، ممسكا بيده، ونحن نتمشى من بيتنا لنتنسم عبير البحر في شنجاني، علي بعد خطوات من النادي الإنجليزي، المسمى

الآن: **بيت إفريقيا**. وحينما كنا نقترب من حافة الشاطئ كنت أنبه جدي، ونتقهقر معا إلي الوراء. ورغم أن جدي سالم بن عبد الله ولد في زنجبار، فإنه أمضى ردحا طويلا من شبابه في عمان، كان كافيا لبناء قصر بها، واكتساب شهرة كفارس بارع. . ولم يعد البيت الكبير الذي بناه في المنزفه، بإبرا بالمنطقة الشرقية، والذي كان بيتا واسعا من طابقين، سوى أطلال، شأنه شأن منازل كثيرة خاصة بعائلتي البراونة و المعامرة[13]، كانت قائمة في تلك الضاحية. وفي عام 1896 **ذاق سالم السجن ثلاثة أيام في** زنجبار، قبل أن يدفع ضريبة باهظة لمساندته **للسيد خالد بن برغش** علي الوصول إلي سدة العرش.

فلم تكن الحكومة البريطانية راضية عن اعتلاء **السيد خالد بن برغش** العرش. ومن ثم قصفت السفن الحربية البريطانية القصر والمباني المجاورة له، ولجأ السيد خالد إلي القنصلية الألمانية في شنغاني التي كانت بمبنى مقابل لمبنى البنك الوطني (البنك الوطني التجاري الآن). وكان مبنى **القنصلية مملوكا لوالدي في الأصل**، ثم أصبح لاحقا من ممتلكات حكومة زنجبار. وآخر من قطنه قبل ثورة 1964 هو الدكتور بارتون كبير أمناء وزارة الصحة.

ومن ذلك المبنى عبر السيد خالد بن برغش البحر إلي تنجانيقا، واستقر به المقام فيها. وانحاز إبان الحرب العالمية الأولي إلي الألمان ضد الإنجليز. ومع هزيمة الألمان ألقي القبض عليه،

---

[13] المفرد: معمري والجمع: معامرة

وسجن مثله مثل نابليون في جزيرة سانت هيلانه. ومنها نقل هو وأسرته إلي جزيرة **سيشل**. وأخيرا سمح له وهو مريض مسن بالإقامة في ممباسا حيث وافته المنية، ودفن في مقبرة عائلة زوجتي في مسجد الشيخ جنداني. وأقام السيد خالد فترة إقامته في ممباسا في منزل مبني بالطوب الأحمر مقابل لمسجد البلوش.[14]

سادسا: آل باكثير

ولد الشيخ عبد الله بن محمد باكثير، معلم والدي، في لامو، الواقعة علي ساحل كينيا، والتي كانت جزءا من زنجبار حتى عام 1963. . ودرس في تلك الجزيرة وفي حضرموت ومكة. وآل باكثير عشيرة تنتمي إلي **قبيلة الكندي** المعروفة في كل أرجاء الجزيرة العربية، ومن مشاهيرها المعاصرين: الشاعر والأديب المشهور **علي باكثير، المتوفي في مصر.**

وبينما كنت أحتسي فنجانا من القهوة، وأتسامر مع صديقي المصري الدكتور **عبد العزيز اسحاق**، في رواق منزله بحي الزمالك بالقاهرة، تصادف ان ذكرت أقاربنا من الباكثير السواحليين، فأبلغني مضيفي أن له صديقا، وزميل دراسة سابق من تلك العشيرة، جاء إلي القاهرة شابا من حضرموت، وأراد الإلتحاق بجامعة القاهرة.

---

[14] اشترى ذلك المنزل فيما بعد، أولاد المرحوم **محمد عبيد الحاج**، أول زنجباري يشغل منصب المفوض الأعلى في الإدارة الزنجبارية المؤقتة قبل الاستقلال.

قابل رئيسها الدكتور **طه حسين**، ذلك العبقري المصري الكفيف، عميد الأدب العربي. وحين طلب منه تقديم شهادة دراسية تؤهله لدخول الجامعة، أجاب باكثير ببساطة "**لم يسبق لي أن انتظمت في مدرسة. أنا شاعر**" رد عليه طه حسين "**انشدني قصيدة او قصيدتين من شعرك**". وأعجب الأستاذ بالطالب. قال له طه حسين"" **بوسعي أن أكسر كل قاعدة وكل سابقة، وألحقك بالجامعة. إلا أن لدي شرط قد لا أستطيع التغاضي عنه: لا بد أن تعرف لغة أجنبية لتدخل الجامعة**".

رد ابن البادية بقوله "**علمني ووفرلي التسهيلات وسأتعلم**". ونظم الأستاذ لذلك الطالب النابه دروسا خصوصية في الإنجليزية. ووفق ما قاله لي صديقي الدكتور عبد العزيز إسحاق: "فإنه في غضون بضع شهور رأيت علي رفوف مكتبة بالقاهرة كتابا بعنوان: **رؤيا ليلة مولد يحيى المعمدان**"، لشاكسبير، مترجمه إلي العربية بقلم الشاعر الحضرمي علي باكثير.

وكتب باكثير وهو طالب بالجامعة قصة بعنوان" **سلامة**"، باعها بثمن بخس لأم كلثوم، سيدة الغناء العربي، لتحويلها إلي فيلم. واستاء أصدقاء باكثير من ذلك بشدة. وكانت لهم جمعية أدبية. واستشاروا محاميا لرفع الأمر إلي القضاء. سألهم المحامي: "**ما هي التهمة التي سنوجهها إليها**؟ وبعد التردد لبرهة أجاب الطلبة: " **القتل الأدبي. فهذه عملية احتيال لسلب قطعة أدبية راقية من تلميذ معدم صاحب عبقرية. وأم كلثوم ستجني أطنانا من المال من الفيلم**"

وتحاشيا للفضيحة أعطته أم كلثوم مبلغا آخر من المال، لا يقترب بأي حال مما طلبته تلك الجمعية الطلابية، ولكن باكثير

رضي كل الرضا به، وناشد خلانه بكل قوة أن لا يصعدوا الأمر أكثر من هذا الحد. وأصر علي أن ما حصل عليه يغطي احتياجاته، ويزيد، ويساوي أكثر من الجهد الذي بذله في كتابة تلك الرواية. تلك كانت درجة بساطته وشفافيته.

وحين ذهب **علي باكثير** للدراسة بمصر، كانت **له زوجة في حضرموت**. وفي مصر ألقى علي كاهل نفسه بعبء إضافي، حيث **تزوج بسيدة تكبره في السن**، ولها أطفال من زوج سابق. ومن ثم صار مطالبا بالإنفاق علي أسرة كبيرة، ليست أسرته الأصلية، بل أسرة زوجته المصرية.

وحكى لنا الدكتور **عبد العزيز اسحاق** كل هذه الحكاية عن الأديب باكثير، بعد أن كان قد اتصل به هاتفيا، وأبلغه أنني معه. إلا أن علي رد بأنه يسعده رؤية أقاربه، ولكنه مرتبط بموعد مهم.

وثمة شعور أخوي قوي يربط بين أبناء شرق إفريقيا وجنوب جزيرة العرب، والخليج. **فالرياح الموسمية الشمالية والجنوبية أقامت أواصر عرقية وثقافية وتجارية متينة بيننا علي مدى ألوف السنين**. ومن هنا فإنه لا غرابة في أن تجد باليمن وساحل شرق إفريقيا زنجباري، وتجد شيرازي في إيران وفي كينيا، وتجد برا (ابرا) في عمان وفي براوا بالصومال، وسفالا في اليمن، وسوفالا في موزمبيق، وباكثير، أو الكندي (الذين انحدر الباكثير منهم) في اليمن وعمان وشرق إفريقيا، بل في أماكن تصل إلي ماليزيا وأندونيسيا.

وعلي باكثير، علي سبيل المثال، حضرمي الأصل، ولد في أندونيسيا، وأرسله أبواه شابا إلي اليمن ليتشرب عبق جدوده. ومن

هنا نقرأ علي شاهد قبره "**هنا في القاهرة رفات علي أحمد باكثير. ولد في أندونيسيا. وشب وترعرع في حضرموت. وتعلم ومات في مصر**". وربما كان عالمنا الباكثيري الشيخ عبد الله أكثر علماء شرق لإفريقيا بركة، بالنظر إلي عدد العلماء المتبحرين في العلم الذين تتلمذوا علي يديه، وكانوا من حواريه.

وكما يلقب الإمام الشافعي بـ"إمام الأئمة"، يمكننا أن نسمي عبدالله باكثير "عالم العلماء". فهو مؤسس مدرسة باكثير، التي لم تكن مبنى معماري، بل مدرسة معرفية ذات صبغة خاصة بها في بناء العلم، والاتجاه، والشخصية، والسلوك والمنهج.

فعلي يديه تربى علماء نشروا العلم الإسلامي في كل أرجاء شرق ووسط أفريقيا. وعلي أيديهم بدورهم تربى جيل آخر من العلماء، وهكذا دواليك. . وهو نفسه كان ثمرة تقاليد الرياضة الدينية الصوفية في لامو، منبع الثقافة الإسلامية في المنطقة. وسادت تلك التقاليد في أوكوتاني في زنجبار بالمسجدين التوأم البرزة و جوفو. وكان الشيخ عبدالله نفسه تجسيدا حيا للتصوف الحق والاستنارة الروحية والأخلاقية، المستمدة من منبعين لا ثالث لهما: القرآن الكريم والسنة النبوية، مع التجنب التام علي الدوام للتأمل الصوفي الفلسفي المجرد، وتحاشى الإنخراط في التجاوزات البدعية الشائعة.

وتخصص **مسجد البرزه** في تقديم الدروس الأولية للمبتدئين. أما مسجد **جوفو** فيقدم التعليم العالي. أما **أكوتوتاني** نفسه، منزل الشيخ المتواضع المكون من طابق واحد فكان مخصصا للدراسات العليا والبحوث. وفي ذلك البيت احتفظت بذكريات عن شخصية الشيخ عبدالله المرحة والمتألقة، بينما كنت طفلا بالغ الصغر. لم

يكن عمري يتجاوز الرابعة، وكان ابنه الشيخ أبوبكر يحملني علي كتفه.

وأحببت الشيخ أبابكر من كل قلبي، ليس لأنه كان يطعمني الكاجو الحلو القادم من لامو، الذي كنت أحبه فحسب، ولكن لأن جميع أفراد أسرتنا كانوا يعتبرونه أخا لأبينا. وهذه حقيقة لا مراء فيها. فلقد قال والدي ذات مرة **أنه حزن علي موت شيخه أكثر مما حزن علي موت والده.** فكان الشيخ أبوبكر عما، لي ولأخوتي وأخواتي. وكان من العادات التي اتسم بها الشيخ أبوبكر أن يعطر يديه ولحيته بأغلي الطيب الشرقي. وكنت أستمتع بحمله لي، حيث أشم رائحة لحيته. ولما كبرت كنت شغوفا بتقبيل يده، والتطيب ببعض ذلك العطر الفواح.

وحينما مات الشيخ عبد الله، خلفه والدي في نظارة المدرسة وأصبح زملاؤه من الطلبة بشكل آلي تلاميذ له. بل إن الشيخ عبد الله عهد قبل وفاته لوالدي بتدريس الدروس الأكثر تقدما. وذات مرة ترك الشيخ عبدالله كل التزاماته في المدينة لعدة أشهر، وذهب إلي منزل والدي الريفي في كيتندو، ليركز علي تعليمه علي مدار الليل والنهار ليؤهله ليكون خليفته الروحي والأكاديمي.

واعتاد والدي أن يحكي لنا كيف بدأت الصلة بينه وبين الشيخ عبد الله باكثير. فعند بلوغه **سن العشرين** كان متعطشا للمعرفة، وبحث عنها عند كل من قد يجد عنده بغيته. سأل إمام المسجد المقابل لبيتنا في الباغ، الذي بناه بالمناسبة **محمد بن عدي البرواني** شقيق جد الشيخ عبد الله باكثير من جهة أمه. ولكن ذلك الإمام قال له: "**أنا لا أعلم جاهل**". لم يرد والدي، ولكنه قال لنا: "**لو لم أكن جاهلا، ماذا كان يجعلني أذهب إليه؟ إن الجاهل هو**

الذي يبحث عن المعرفة" وكان لوالدي ابن عم آخر هو عبد الله بن سالم، أصبح فيما بعد صهره، كان أكثر أضرابه الشباب ثقافة، دله علي شيخ علامة جاء مؤخرا من لامو. واصطحب والدي إلي مسجد جوفو، وقدمه إلي الشيخ **عبد الله**، علي أنه أخوه. ومن يومها بدأ والدي حياته الجديدة كحواري لذلك العالم الورع.

وبعد وفاة الشيخ الكبير، عين **السيد أحمد بن سميط** والد السيد عمر، **والدي والشيخ أبا بكر** رسميا، لرئاسة مدرسة باكثير.

وكان لوالدي **نظام راتب**. يذهب في الصباح الباكر بعد صلاة الفجر إلي أوكوتاني بالمدرسة، ليترأس حلقة علمية تضم مجموعة صغيرة من العلماء. وكان نهجه في تعليم هذه الحلقة ممن يمكن وصفهم **بطلبة الدراسات العليا والرفاق المريدين** هو: **البحث والمداولة**، حيث تطرح قضايا موضوع البحث، الواحدة تلو الأخرى. ويتم البحث في أدق تفصيلاتها وتعقيداتها، من كل جوانبها، اللغوية والشرعية والدينية والروحية.

ويتحلقون جميعا حول مائدة مستديرة مكتظة بمراجع ضخمة، وكانت من بين المصادر المتاحة بتلك الحلقة الدراسية مؤلفات المدارس الفكرية الإسلامية المختلفة كالمعتزلة والأباضية والسلفية والصوفية. وأعلم أن والدي كان يستشهد عند اللزوم بتفسير الزمخشري للقرآن الكريم المعروف بالكشاف، وبالموسوعة الفقهية لمحمد بن أطفيش في الفقه الأباضي الموسومة بـ: **شرح النيل.** ومن بين الطلبة، أو زملاء والدي من طلاب العلم الذين كانوا يعلمون أنفسهم حول تلك المائدة في أوكوتاني، تحت رئاسة والدي: **الشيخ أبو بكر**، والشيخ **أحمد مولومري** والشيخ **محمد بن**

عمر والشيخ **المخزومي**، والشيخ **سليمان العلوي**، والشيخ **سعيد ليندي**، و**السيد حامد منصب**، وغيرهم.

ثم يعود والدي إلي **البيت ظهرا**، فيواصل دروسه لكل من يطلب منه التوجيه والإرشاد، إلي أن يحين موعد **صلاة العشاء**. وعدا راحة القيلولة، والسير إلي الشاطئ، أو الي المنتزه عصرا، كان وقته كله مشغولا بتدريس **مواد إسلامية مختلفة**، مثل: النحو والصرف، والبلاغة والمنطق، والتوحيد والفقه والتصوف والحديث والتفسير، وما شاكل ذلك. وكان طلاب العلم يأتون إلي بيتنا: أفرادا، أو في مجموعات صغيرة.

وكان والدي علي استعداد لتقديم التعليم الخصوصي لكل من يطلبه، دون أن يتقاضى مليما واحدا مقابل ذلك طوال حياته. ولم ينفرد والدي بذاك الصنيع، بل كان ذلك هو العرف السائد بين العلماء، وتقليدا إسلاميا عاما. **فالتعليم من أجل الإسترزاق فكرة غريبة**. ومن بين من أتوا **فرادى** لتلقي العلم علي يد والدي: **السيد مصطفي جمل الليل**، والشيخ **سليمان العلوي**، والشيخ محمد قاموس، والسيد عمر **عبد الله**، والشيخ **حسين لمبا** (والد حاجي حسين)، والشيخ **سعيد ليندي** (ماكوندي)، والشيخ **عبدالله صالح الفارسي**.

وظل الشيخ سعيد ليندي يأتي يوميا إلي بيتنا، **حتى حين كان والدي علي فراش الموت**، مع أنه كان قد أصبح هو نفسه مدرسا يعطي دروسا لمجموعة من الشبان المثقفين، من بينهم: **سعيد وحميد مباي، وعامر زاهر، وعلي عيسى البرواني، وعلي فوم، وسالم حافظ، ومجيني علي، ومزي مويتا بن معلم، وكاتب هذه**

السطور. أما مجموعته الدراسية فكانت تتلقى العلم عادة في المسجد في فوجا.

وتربى في بيتنا **حارث خلف**، الذي شغل منصب مفتي زنجبار، كواحد من أبناء عائلتنا. أتى به والده من قرية مويوني الشهيرة بالمانجو. وبعد أن أنهي تعليمه الإبتدائي في قريته، جاء حارث وجد واجتهد في التعلم علي يد والدي. ثم التحق فيما بعد **بالمعهد الإسلامي**،، ومنها التحق **بجامعة الأزهر بالقاهرة**. وبعد تخرجه في الأزهر، كان علي وشك أن يعين مدرسا **بالمعهد الإسلامي** حين أطيح بحكومتنا، ففضل مغادرة البلاد. ورحل إلي ايرنجا الواقعة في وسط تنجانيقا، حيث نجح في **تأسيس حلقة دراسية زاهرة خاصة به**. واعترف به كشيخ لمنطقتي ايرنجا ومبيا في تنزانيا. ومن هناك دعي ليصبح مفتي زنجبار، ذلك المنصب الجديد الذي أنشأته الحكومة الزنجبارية في عهد الرئيس سالمين عامر.

وكان الشيخ **سالم حافظ** من مسوفيني بزنجبار واحدا من بين طلبة والدي المنتظمين والجادين في طلب العلم، وواحدا من كبار تلاميذ الشيخ سعيد ليندي. وكان هو نفسه في ذات الوقت عالما شهيرا له أتباعه. وأسندت إليه قبل وفاته إمامة المصلين في مسجد جوفو. كما كان يلقي دروسا بذلك المسجد. وكان ابنه علي سالم حافظ من نفس سن ابني الأكبر محمد. ولم يكن **هو وشقيقه الأصغر أحمد يفارقان إبني محمد** كلما جاء من القاهرة لقضاء أجازة في زنجبار، إلي حد أن علي كان يقيم في بيتنا حتى بعد أن يغادر محمد زنجبار ويعود إلي مصر.

ذلك أنه كان طالبا بالمدرسة الثانوية. وكان يرى أن الهدوء في بيتنا، وكثرة المراجع المتاحة فيه، مناسبين لدراسته. وفي الوقت نفسه، كان يعتبرني أنا وزوجتي عزة في مقام أمه وأبيه، بوصفه عضوا في اتحاد الشباب، الجناح الشبابي من **الحزب الوطني** . وحينما حصل الحزب علي منح دراسية من روسيا، أراد علي سالم الحصول علي منحة منها، وطلب مشورتي بهذا الصدد. نصحته بأن يستشير أبيه. وإذا بأبيه يرد الأمر إلي ويقول له: "**علي محسن هو والدك الآن. فلقد أوكلت إليه أمر تنشئتك. وأتوقع أن يعاملك معاملته لأبنائه سواء بسواء**".

وجدت نفسي أمام اختيار صعب. قلت لعلي سالم: "هذه هي أول مرة تقدم روسيا منحا دراسية إلينا. وبوصفي زعيما للحزب، أود أن أبعث إليها بأفضل مبتعثين، وأنت واحد من خيارهم. إلا أنني كوالد أفضل أن أرسل أبنائي إلي بلدان غربية أو إسلامية لا يتعرضون فيها لتعقيدات ثقافية ولغوية عنيفة كتلك التي تصادفهم في الدول الشيوعية. ومن الممكن أن تحصل علي بعثة حكومية لاستكمال تعليمك العالي في الغرب، بعد إتمام تعليمك الثانوي ".

أخذ علي سالم بنصيحتي، ورفض العرض الروسي، ودرس العاميين الإضافيين المطلوبين للحصول علي البعثة الحكومية في زنجبار، وحصل في نهاية المطاف علي منحة دراسية لدراسة الصحافة بالولايات المتحدة.

وفي ديسمبر 1963 جاء لمقابلتي حينما كنت في نيويورك بمناسبة **انضمام زنجبار إلي عضوية منظمة الأمم المتحدة.** وكان وجهه يشع بالسعادة والإمتنان. وقال لي بحماسة وصراحة، أنه ليس نادما علي رفض المنحة الدراسية الروسية. إلا أنه بعد

عودته إلي زنجبار بعد اغتيال كرومي، كان واحدا من بين المتهمين بسبب علاقته الوثيقة مع **الرفاق، أشياع بابو**، التي هي رابطة سبق لي تحذيره منها، وقلت له: " **الطيور علي أشكالها تحط، والمرء يعرف بخلانه**".

ومن حسن الحظ أنه أطلق سراحه بطريق الخطأ. وقبل اكتشاف أن الإفراج عنه لم يكن عن استحقاق، كان قد غادر زنجبار وذهب إلي كينيا. وانتهي المقام به في نيروبي بشغل منصب رئيس تحرير صحيفة استندارد الشهيرة. وتزوج من فتاة من قبائل الكيكويو رزقه الله منها بنتا سماها **منى**، علي اسم ابنتي الكبرى رحمها الله. وعند كتابة هذا الكتاب كان الرجل قد تقاعد، وافتتح مكتب استشارات صحفية خاص يتولي إدارته.

ومن الغريب، أن والدي استطاع رغم انشغاله بالتعليم والتدريس علي هذا النحو، أن يجد وقتا لممارسة **مهنة آبائه كمزارع،** بالتعاون مع **ثلاثة من أخوانه: سيف وسليمان ومسعود** بالعناية بالعديد من مزارع جوز الهند والقرنفل. بل إنه انخرط في تصدير المنتجات الزراعية. وكان هو أول من أدخل الزوارق البخارية لنقل البضائع والأشخاص من الجزيرة إلي البر الإفريقي والعكس. وكانت إحدى تلك السفن تسمى: **الزمرد**، والأخرى تسمى: **الباغ**. وكان أخي الأكبر محمد هو المشرف الفني المسؤول عن إبقاء تلك الموتورات صالحة للعمل. وبجانب ذلك فإنه لارتباطه الوثيق بوالدي استخدم وقت فراغه في تحصيل قدر من العلم العربي والإسلامي منه، مكنه من أن يصير عالما يتتلمذ عليه العديد من طلاب العلم. إلا أن قلة عرفوا وزنه كعالم إسلامي **من جراء تجنبه الشهرة،، وغطت عليه شهرة أبيه.**

سابعا: كارثة اقتصادية

شهد العالم، وأنا بالسادسة من العمر، انهيارا اقتصاديا، بدأ **بانهيار سوق المال، وول ستريت بالولايات المتحدة الأمريكية.** وفقدنا كل شئ. وسقطت كل ممتلكات والدي وإخوته الثلاثة تحت مطرقة البيع بالمزاد العلني. ولحسن الحظ أن منزلنا بالمدينة آل إلينا بوصية من **جدي بصفة وقف، غير قابل للبيع ولا التصرف فيه.** وفي هذا البيت القديم الرحب، عاش والدي وأبناء إخوته وأحفاده في ناحية منه، وعاش أخوه الأكبر مع أولاده وأحفاده في جزء آخر منه.

ومن حسن حظنا في هذا الظرف العصيب أن خالي **خلفان بن سالم** كشف لوالدتي عن أنه احتفظ لها بجزء من ميراثها من والدها لحالة الضرورة. وها هي قد حانت لحظة الحاجة تلك. وبذلك المبلغ المدخر لوالدتي، اشترى خالي لها جزءا من مزرعة كيتوندو التي احتوت على منزل ريفي. والجزء المشترى متاخم للمزرعة التي ورثتها أمي عن والدها من قبل. . وبذا توفرت لدينا مزرعة مناسبة. ورغم الفاقة التي حلت بنا بسبب إفلاس والدي، فإننا لم نتحول إلي **معدمين بفضل بقاء ممتلكات والدتي دون أن تمس.**

ومر علينا حين من الدهر، قبل أن تتكشف تلك الغمة، كنا فيه في وضع اقتصادي عصيب. وقمت للحصول على ما يسد الرمق، مع والدي **بزراعة الخضروات في الأراضي المتاخمة** لمقبرة البراونة في ضواحي المدينة. وساعدنا **المعلم حسين** الذي حفظت القرآن الكريم على يديه والذي كان خبيرا في البساتين في تلك المهمة الشاقة.

واعتدت على **التجول من منزل إلي منزل** لبيع ما نزرعه من الكرنب، والبطيخ، والخس، لنحصل مالا نأكل منه ونشرب. وكان جدنا قد ترك لأولاده أيضا بيتا ريفيا واسعا وأراض محيطة به، يقع على الشاطئ، ويطل الطابقين الأرضي والأول منه على البحر، ومنه يمكن رؤية الميناء ومدينة زنجبار على مد البصر. وعاش والدي واثنان من إخوته، ناصر وسالم، مع أسرهم، في هذا البيت الفسيح. وكان ذلك البيت يقع على بعد أحد عشرة كيلومتر من المدينة، في قرية تدعى بوبوبو، التي كانت ولا تزال تمد المدينة بحاجتها من المياه العذبة، من نبع طبيعي بها.

وبهذا البيت والحقول الملحقة به ضمنا جزءا من احتياجاتنا الغذائية على الأقل. وكنت أنا وإخواتي مغرمون بالذهاب إلي الشط والتقاط المحار والصدف، والأخطبوطات. ورغم أن والدي كان يرفض أن يأكل شيئا مما نلتقطه من سقط المتاع، فإنه لم يكن يمانع في أن نأكل نحن كل ما هو صالح للأكل منه. وكنا نجني كميات كافية من الفواكه وبالأخص من المانجو والبرتقال والموز. كما كانت الخضروات متوفرة.

وكانت قناة تمر عبر المنزل والمسجد الصغير ثم تصب في صهريج أسمنتي كبير ثم تصرف في البحر، بعد تشغيلها معصرة قصب سكر تعود إلي عهد جدي علي بن عيسى. وفي وسط البيت خزان أسمنتي صغير به متسع للسباحة. وكنا كأطفال نحب الاستحمام في مياهه الفاترة. وعلي طوال ضفاف هذا الجدول المائي إلي أن يمر داخل مبنى بيتنا، تنمو بكثرة القلقاس، ذات الأوراق والدرنات اللذيذة، التي تمثل وجبة غذائية بكل معنى

الكلمة، حينما تطهي مع لبن جوزة الهند والسمك. كما كانت لدينا إلي جانب ذلك أعداد وفيرة من الدجاج.

وإنني لأتذكر الارتياح الذي كان يبدو علي وجه أبي وهو يطعم الدجاج بكرة وعشيا. ولما بلغت مبلغ الشباب، ونقبت في الأدب الإنجليزي، جذبت انتباهي قصة **ديفيد كوبرفيلد** لتشارلز ديكنز، حيث لمست فيها تشخيصا لحالة **شبيهة بنمط حياتي أنا ووالدي**. وحتى في هذا المكان المنعزل في بوبوبو، كان أربعة رجال يأتون في المساء بانتظام لتلقي دروس في الفقه الإسلامي علي يد أبي.

وكان هؤلاء الرجال **ريفيون بسطاء** ولكنهم تواقون لتحصيل المعرفة، مفعمون بالحماس الديني. وأولهم هو والد **حاجي حسين**، أحد مؤسسي الحزب الوطني الزنجباري الذي هو المنظمة الطليعية الرائدة التي ناضلت من أجل استقلال زنجبار وتخليصها من الحكم الاستعماري.

أما **الثاني** فهو: **جمعه**، وهو خبير في تسلق أشجار جوز الهند، ويكتسب قوته من جني ثمارها. أما الثالث، فهو: **راشد**، وهو صياد سمك. وآخرهم: **عوض**، وهو ترزي محلي يحيك ويطرز الدشداشة السواحيلية البيضاء الطويلة التي نرتديها. كل هؤلاء الرجال البسطاء كانوا متعطشين لتعلم العربية والإسلام. وكان والدي يصر علي حضوري حلقة تدريسه لهؤلاء الرجال الكبار، رغم أن عمري كان يتراوح بين السادسة والسابعة، وكنت لا أفهم ما يتعلمونه إلا بشق الأنفس.

وبالإضافة إلي حضوري الإجباري دروس هؤلاء الكبار، كنت أتلقى دروسا دينية أولية خاصة مع اثنين من أولاد أختي **حارب**

وسعيد بدر، اللذين كانا يقيمان في بوبوبو أيضا بمنزل يبعد دقائق معدودة سيرا علي الأقدام عن منزلنا. ومعهم ومع ابني خالي **عبد الله بن سالم** الذي كان يحضر تلك الدروس هو الآخر، كنا ندرس في **مدرسة الفصل الواحد**، التي هي مجرد كوخ طيني مسقوف بالأخشاب والقش، دراسة خاصة بموضوعات علمانية، علي يد مدرس إفريقي مسيحي مسن يدعى: المعلم **هنري**، حيث كنا نتعلم قراءة السواحيلية وكتابتها بوصفها لغتنا الأم، ولكن بحروف لاتينية. كما كان يعلمنا مبادئ الحساب.

الفصل الرابع

اللغة السواحيلية والشعب السواحيلي [1]

أولا: العبث باللغة السواحيلية، وارتباطه بمناهضة اللغة العربية والإسلام

السواحيلية هي لغة **أبناء ساحل شرق إفريقيا** من جنوب **الصومال إلي موزمبيق، وجزر القمر**. وكلمة **السواحيلية** ذاتها كلمة عربية الأصل منسوبة إلي: **الساحل**. وهذه اللغة من حيث قواعدها وصرفها إحدى لغات البانتو، وتنتمي إلي تلك المجموعة اللغوية العظيمة التي تمتد من الزولو بجنوب إفريقيا إلي الكيكويو في كينيا. **أما من حيث مفرداتها، فإن نصف كلماتها من اللغة العربية**، والنصف الآخر من لغات البانتو. وتتراوح الكلمات ذات الأصل العربي في اللغة السواحيلية، حسب الخلفية الثقافية للناطق بها، والموضوع الذي يتحدث فيه، بين 45% و55%. بل إن البعض يرى أن **نسبة الكلمات ذات الأصل العربي في تلك اللغة أعلي من ذلك.**

---

[1] يبلور هذا الفصل مسألة بالغة الأهمية بالنسبة لأمتنا الإسلامية، تتعلق بخبرة مماثلة لعبث المستعمر الغربي باللغة التركية، من أجل فض عرى الصلة الوثيقة بينها وبين اللغة العربية، بوصفها لغة القرآن الكريم. ويبدو أن أمتنا لا تتعلم من دروس الماضي. فلقد عبث المستعمر باللغة السواحيلية، وحولها إلى الأبجدية اللاتينية، وطمس القواسم المشتركة بينها وبين اللغة العربية، وهذا الفصل يعري آليات، ووسائل تحقيق تلك المؤامرة على اللغة السواحيلية وعلى السواحيليين أنفسهم، وصلتها العميقة بحرب الإرساليات ضد اللغة العربية والإسلام. ثم ينتقل المؤلف من ذلك إلى الحديث عن أصول التسامح الديني كما علمها لنا الإسلام. – المترجم

وكلما أمعن المرء النظر، فإنه يكتشف أن كلمات تبدو منتمية إلي لغة البانتو هي في الحقيقة **عربية** الأصل. وأثناء قيامي بترجمة **المنتخب في تفسير القرآن الكريم** من العربية إلي السواحيلية، ادهشني اكتشافي المزيد والمزيد من الكلمات السواحيلية ذات الأصل العربي، **مثل: الأنعام**، والفوضى، والسواقة، ناهيك عن كلمات أخرى تشي بأصلها العربي بوضوح، من قبيل: طريقي، معالي، وزير، فضة، ذهب، تاريخ، كتاب، علم، إحسان، سلام، كوفيه، سروال، رئيس، وغيرها.

وعلي الرغم من أن اللغة السواحيلية، ولدت علي الساحل، من رحم اللغتين العربية والبانتو، فإنها انتشرت لتغطي كل منطقة شرق إفريقيا، ووصلت إلي ملاوي والكونغو ورواندا وبوروندي وجنوب السودان والصومال. وأصبحت بمثابة لغة مشتركة في بقية المنطقة. وخلص باحث فرنسي في دراسة له في السبعينات من القرن العشرين إلي أن كل من يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين في المنطقة الشرقية من عمان يعرف اللغة السواحيلية.

وهي لغة **مرنة وثرية وولادة**. وعلاوة علي جذورها في اللغتين العربية والبانتوية، فإن بها كلمات من اللغات **البرتغالية والفارسية والهندية والأردية والإنجليزية**. فهي وسيط اتصالي حي وقادر علي النمو علي نحو يضارع اللغتين العربية والإنجليزية. وهي **وسيلة الاتصال بين القبائل المتعددة التي يتشكل منها سكان شرق ووسط إفريقيا**. وورثت هذه اللغة من جذرها العربي **فن الشعر**. وتماما كما يقال بأن العربية أنجبت **من الشعراء أكثر مما أنجبته بقية اللغات في أرجاء العالم مجتمعة**، فإن اللغة السواحيلية **فريدة بين اللغات الإفريقية في ثروتها الشعرية.**

والسواحيلية لغة مقروءة ومكتوبة، كانت تكتب عادة في الماضي **بحروف عربية**. ومع مجئ الاستعمار باتت تكتب رسميا **بحروف لاتينية**. وترتبت على ذلك التحول من الأبجدية العربية إلي اللاتينية **مزايا وعيوب**.

فمن جهة انتشرت تلك اللغة بدعم من المستعمر بسرعة أكبر، وبدرجة أعلي من الانتظام والكثافة بالقياس بما كانت عليه من قبل. وازداد عدد من يقرأون ويكتبون بها.

إلا أن ذلك تم علي حساب جزالة اللغة وجمالها. فلقد حافظت الأبجدية العربية علي النطق الصحيح الأصيل للغة السواحيلية. أما الحروف اللاتينية فجردت تلك اللغة من أساسها، وأصابتها بالعقم. وجعلتها بنطقها وفق مقتضيات تلك الأبجدية لغة مسطحة بلا عمق. ويشعر المرء بذلك علي وجه الخصوص حين يستمع إلي المطربين المعاصرين والموسيقى المعاصرة، ويقارنهم بمطربي الماضي.

والقلة المحظوظة التي لاتزال **تنطق اللغة السواحيلية** علي أصولها الصحيحة هم من لم يدرسوا في **مدارس علمانية**، مسخت فيها لتتمشى مع قيود الحرف اللاتيني. وحتى تلك القلة باتت اليوم **مضطرة للانصياع لتأثير الأغلبية ولوسائل الإعلام الجماهيرية السائدة من صحافة وإذاعة وتلفاز.**

ومنبع هذه **المأساة** هو حقيقة أن من فرضوا طريقة النطق والتهجي وبنية الجملة المتلاعب بها، كان معظمهم في المقام الأول من رجالات الإرساليات التبشيرية أو الاستعمار. وعاون **الأفارقة** الذين كانت اللغة السواحيلية هي لغتهم الثانية بدورهم

هؤلاء الأوربيون العابثون بتلك اللغة. وأصبح الإفريقي المدرب علي يد البعثة التبشيرية المدعوم من أوروبا هو **المرجعية** في شؤون تلك اللغة، **والنموذج** الذي يقاس عليه.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا تم إخضاع اللغة السواحيلية دون بقية اللغات لهذا النوع من الشد والجذب علي يد أناس ليست هي لغتهم الأم؟ ثمة مبررات محددة وواضحة سأحاول تحليلها.

فحين وصل **المبشر** /المستعمر، وجد في شرق إفريقيا علي النقيض مما كان يتوقع بالمقارنة بما رآه في أجزاء أخرى من إفريقيا جنوب الصحراء، أن للسواحيلي **دين توحيدي منزل، له قيمه وأعرافه وشريعته**. ووجد أن للمنطقة الساحلية **مؤسساتها ولغتها المكتوبة**، ولها **حكوماتها وإداراتها** الراسخة الأقدام. ووجد أن نفوذ الساحل وتاثيره ضارب في عمق الداخل حتى البحيرات العظمى، بل لما هو أبعد منها.

وتبين له أن لأبناء الساحل **أرضهم وخطوطهم التجارية البرية والبحرية، بل لهم علاقات تجارية مع بقية العالم.** فعلي مدى ألوف السنين كان لمنطقة الساحل علاقات تجارية مع مهد الحضارة في **مصر والعراق والهند**، بل وصلت آفاق علاقاتهم تلك إلي **الصين وأندونيسيا**. ولم يكن السواحيليون **برابرة عراة**، بل **أمة متحضرة تعرف الملبس الساتر لأجسادها، ولديها إحساس بهويتها مستقى من لغتها وثقافتها، التي لم ترق للمستعمر والمبشر المسيحي لكونها نابعة من الدين الإسلامي.** فلقد كانت اللغة السواحيلية مثلها مثل الأردية في شبه القارة الهندية والهوسا في غرب إفريقيا ذات مضامين إسلامية لثرائها بالكلمات والتعبيرات العربية.

ومن المقطوع به أنه ليس بالأمر السهل **إزالة لغة راسخة** من علي قيد الحياة. إلا أنه من الممكن **تحويلها وتوظيفها** في اتجاه نقيض لغايتها ورسالتها. وكان **أول الخيط** في تحقيق ذلك هو **ترويج أن السواحيلية ليست أمة، ولا قبيلة**. إنهم ببساطة **(لا وجود لهم)**. وروج دعاة تلك المغالطة، أنه في حين يمكن تحديد النياموزي، والكامبا بدقة، فإنه لا يمكن تحديد: **من هم السواحيلون؟** فهم – بزعم هؤلاء – مجرد **خليط هجين بلا هوية قبلية ولا عرقية، ولا إقليم يمكنهم ادعاء أنه خاص بهم.**

كانت تلك المقولة هي حجر الأساس الأول لمؤامرة المستعمر المبشر علي اللغة السواحيلية. ومع إرسائها بات من السهل القول بأن بوسع كل من هب ودب أن يعامل اللغة السواحيلية علي هواه، ويوضع في مصاف خبرائها ويغير بنيتها وقواعدها ومعجمها، ويفعل بها ما يشاء من الأفاعيل دون إذن من أحد. فمن يمنح الإذن في غياب إنسان اسمه السواحيلي من الأساس؟

ومن النوادر الدالة علي استياء السواحيليين العميق من تلك الفرية، ما حدث خلال مناظرة كانت تبثها **إذاعة صوت تنزانيا** عن **خصائص اللغة السواحيلية**. وكان من بين ضيوف البرنامج **أبويكر دياواني** وهو سواحيلي متمكن، شديد التمسك باللغة السواحيلية كما تعلمها من أمه وأبيه، والغيرة عليها، لا يحيد عنها قدر أنملة، ويعتبر نفسه من حراسها القدامى الذين لا يوجد **مصطلح التبديل فيها في قاموسهم**. فهو يتحدث بها كما شب عليها، وليس كما يطلب منه أن ينطقها وفق كتابتها بالحرف اللاتيني.

وكان محل الجدل كلمة لا أتذكرها، والشاهد ليس فيها، بل فيما ترتب عليها. قال أبوبكر: **"أنا بصفتي سواحيلي لم أسمعها تستخدم في مثل هذا السياق"**. رد عليه محاور آخر يدعى ستيفانوماتولا، ينظر إليه علي أنه من خبراء تلك اللغة، مع أنه في حقيقة أمره من قبيلة الجوجو، ممن تعلموها بالمدرسة، استاء فيما يبدو من فحوى ما قاله أبوبكر، قائلا: **ما هذا ياأبابكر: من هو السواحيلي ؟**

أفحمه أبوبكر دياواني بقوله: " ما دمت قد سألتني، فسأخبرك. السواحيلي هو من إذا ذهب إلي الحمام يستنجي بالماء".

لم تعجب تلك الإجابة ، فضحك ستيفانو من الإجابة بسخرية. إلا أن أبابكر المعروف بإسلوبه اللاذع، واصل حديثه قائلا:" **أسبك فتضحك؟ من الواضح أنك لست سواحيليا، بدليل أنك لم تفهم ما حاولت أن أبينه لك**". وكان معنى إجابته أن السواحيلي مسلم.

ومع التبني الرسمي لكتابة السواحيلية بالأبجدية اللاتينية، بات كل من كانوا يقرؤنها ويكتبونها بالأبجدية العربية أميين، بين عشية وضحاها. وترتبت علي ذلك ضرورة إخلاء كل من الإداريين والكتبة والقضاة والموظفين الحكوميين المدنيين السواحيليين المسلمين الذين شغلوا تلك المناصب علي الدوام، أماكنهم لجيل جديد ممن تربوا في الغالب الأعم في مدارس الإرساليات التبشيرية المسيحية. ولا يزال هذا هو الوضع السائد في البر الإفريقي من شرق إفريقيا حتى اليوم.

وعلاوة علي ذلك، فإن الإدارة الاستعمارية في شرق إفريقيا، تركت التعليم والرعاية الصحية لأمد طويل بالكلية في يد الإرساليات

المسيحية. وربما كان الدافع وراء ذلك هو الملاءمة الإدارية، ولم يكن لاعتبارات خفية. إلا أن النتيجة الأخيرة التي ترتبت علي ذلك هي أن أي تقدم تعليمي أو اجتماعي أو اقتصادي بات لا يتم إلا عبر الكنيسة. وبذا ضمن المسيحيون الهيمنة من البداية.

ولاتزال نسبة الطلبة المسلمين بالجامعات التنزانية، بعد سبعة عقود في ظل الاستعمار، وما يزيد علي ثلاثة عقود في ظل الاستقلال، حتى كتابة هذه الدراسة في العقد الأخير من القرن العشرين، لا تتعدى 18% مقابل 82 % من الطلبة المسيحيين، في بلد لا تقل نسبة المسلمين فيه عن 60 %، وهو وضع لا يستسيغه أي مسلم مهما كانت درجة تسامحه.

إلا أن الوضع لم يكن **بمثل ذلك السفور والجسامة في زنجبار**، التي أرسى السلطان السابق السيد علي بن حمود[2] فيها **تعليما علمانيا مجانيا وطنيا**. وفي فترة وجيزة صارت المدارس الحكومية ندا لمدارس الإرساليات القليلة، **بل حلت محلها بالكلية**. وفي فترة معقولة أعدت كوادر جديدة من العاملين بالأجهزة الحكومية والمدرسين والممرضات والأطباء والمهندسين من بين الزنجباريين دون اعتبار للدين أو الجنس أو الطبقة أو اللون.

وكانت سياسة حكومة جلالة السلطان الرسمية المعلنة أن **الفقر لا ينبغي أن يكون عائقا للراغب في التعليم**. وأنقذت سياسة ذلك السلطان الحكيمة زنجبار من تغرير المدارس الإرسالية بها.

---

[2] حكم السيّد علي بن حمود زنجبار في الفترة 1902-1911. وقد أجبره الإنجليز على التّنحي عن العرش لعدائه لهم ولميوله الإصلاحية

وحظيت المواد العلمانية في المدارس الحكومية بما فيها اللغة الإنجليزية ببالغ العناية، كما حظي الإسلام واللغة العربية بالرعاية، وإن كان للأسف ليس بذات الدرجة، ولا الفعالية.

وعرفت البلاد في أواخر **ثلاثينيات وأوائل أربعينيات** القرن العشرين نوعا من **العزوف**، خاصة في **المناطق الريفية** عن الدراسة بالمدارس العلمانية. وفي تلك الآونة، عين ر. **س. فوستر** نائب مدير التعليم في أوغندا وكينيا، وناظر مدرسة بتنجانيقا من قبل، **مديرا للتعليم في زنجبار**. وكان صاحب رؤية وبصيرة. وجد الرجل أن المدارس أغلقت في المناطق الريفية للعزوف عن الانتظام في صفوفها. وتبين له بمحاورة أولياء أمور الطلبة، أن شكواهم الرئيسة أن تلك المدارس لا تولي اهتماما يذكر **لتعليم القرآن والدراسات الإسلامية**. من ثم اختار كثير من الآباء إرسال أبنائهم إلي كتاتيب خاصة لتعليم القرآن. وكان مدرسو القرآن بتلك الكتاتيب هم الأكثر انتقاصا من شأن المدارس الحكومية.

وما كان من فوستر إلا أن دمج مدارس القرآن المحلية الخاصة تلك التي تقدم **تعليما أوليا في المنظومة التعليمية**، وسماها: **فصول القرآن**. وبذا أصبح مدرسو القرآن **عاملين** لدي الحكومة يتقاضون رواتب دورية ويحصلون علي امتيازات في السفر والعلاج بالمستشفيات بوصفهم مستخدمين بالإدارة المدنية.

وبالإضافة لذلك، لاحظ فوستر أن الكثير من التلاميذ، خاصة في المناطق الريفية، يعانون من **سوء التغذية**، فقدم وجبة فطور بكل المدارس من اللوبيا والثريد. وبات تعليم المواد الإسلامية أكثر انتظاما ومنهجية. وعمم تعليم **اللغة العربية** في كل المدارس، بعد أن كان قاصرا علي مدارس المدن. وعلي الفور زادت نسبة

حضور الطلبة بشدة، وتعين فتح المزيد من المدارس لتلبية الطلب المتزايد علي الإنتظام في الدراسة. وأعيد فتح **مدرسة إعداد المعلمين** التي كانت قد أغلقت بسبب قلة المدارس العاملة، كما افتتحت مدرسة **لإعداد المعلمات.**

وبطلب شخصي من فوستر الذي كانت تربطني به علاقة حميمة، عملت مدرسا **للزراعة والفنون** (وهي توليفة غريبة)، بمدرسة إعداد المعلمين في دولي، **ومشرفا علي حدائق كل المدارس الريفية.** ولكل هذا فإن اسم ر. س. فوستر لا ينسى بين مسؤولي التربية والتعليم المغتربين، الذين أذكر منهم أيضا: ل. و. هولنجزويرث، الذي كان ناظر أول مدرسة لإعداد المعلمين، التي تخرج فيها **جهابذة المدرسين وفحولهم في زنجبار**، ثم تولي **نظارة أول مدرسة ثانوية حكومية**، وكنت واحدا من أول من درس لهم بها.

ولست بقادر علي الوفاء بما لهذا الرجل من **دين في عنقي.** فهو لم يكن مدرسا رائعا في **التدريس** فقط، بل كان **بانيا لشخصية طلابه** في كل المجالات، وبالأخص في مجال **الرياضة البدنية.** وكان يهتم بكل جوانب حياة طلابه. أما **ثالث** هؤلاء فهي التربوية صاحبة العطاء الخالد لزنجبار **زوجة المفتش جونسون، واضعة حجر الأساس لأول مدرسة بنات في زنجبار، وحاملة راية الريادة في التعليم النسوي فيها بالتعاون مع مساعداتها، السيدات آسيه محمد، آسيه تركي، وشيخة بنت عبود، فاطمة شريف.** أما في جزيرة بيمبا، فأصحاب السبق والفضل في التعليم النسوي في مراحله الأولي هن: الفاضلة **زمزم المعولية** من مكانجوني، وأخوات غريب الثلاث بيأوبوا، وزليخة، وزهيرة.

أما في مجال الرعاية الصحية بزنجبار فإن حكومة جلالة السلطان حرصت علي إتاحتها في **المستشفيات والمستوصفات للجميع مجانا ودون تمييز.** وعلي العكس من مناطق البر من شرق إفريقيا **لم يكن للإرساليات دور يذكر في تقديم الرعاية الصحية**، باستثناء مستوصف في **كاتدرائية إرساليات الجامعات لوسط وشرق إفريقيا**، وخدمة التمريض التي كانت الراهبات الكاثوليك يقدمنها في ملجأ ويليزو. كما حصلت الرعاية الصحية بزنجبار علي مساهمة خاصة من سيوا حاجي وعائلة كريمجي، ثم حصلت علي دعم مؤخرا من عمان والإمارات العربية المتحدة لبناء وتجديد المستشفيات الحكومية، وإنشاء مركز لتدريب الطواقم الطبية.

ثانيا: التسامح الديني

نجت زنجبار لكون **نسبة المسلمين من بين أبنائها تربو علي 90% من الصراع الديني**، الذي ابتليت به مناطق البر الإفريقي بشرق إفريقيا. فلم يشعر المسلمون بتمييز ضدهم لأسباب دينية. فالمدارس العلمانية قدمت تعليما إسلاميا، ودرست اللغة العربية. نعم كانت هناك بعض مشكلات فنية يسيرة، ولكنه لم يكن هناك أي مبرر جاد للخلاف، ولا للشكوى لدى المسيحيين والهندوس والبوذيين والصينيين والبارسيين، لأن الجميع عاشوا معا، وجمعتهم الجيرة والاحترام المتبادل من منطلق كونهم جميعا من نسل آدم وحواء، وليس علي أساس أن كل منهم ينتمي إلي هذه الطائفة، أو إلي طائفة أخرى.

وتربيت وأنا أشاهد أن **الصداقة والتفاهم يرفرفان علي العلاقة بين أبي وأعمامي وجيرانهم ورفاقهم في العمل من كل الطوائف.**

فجارنا المباشر **ماندیز** وهو **كاثوليكي**، بلغت متانة الصداقة بينه وبين والدي حد اعتبارنا أنه أحد أعمامنا. ومن بين جيراننا وأصدقائنا أيضا المصورين: **دي لوردس وجوميز**، وجيراننا وأطباء عائلتنا: **تايلور وكويلاند** الإنجليزيان، و**البوكيرك الجواني**، والأطباء الهنود: **جورادیا ومهتا ودینا ونات**. ومنهم أيضا السمسار الهندوسي: **كرسان**، وآخرون من البيشوري والتلاتي والبارسيين و السيلانيين، ممن نحتوا لنا من خشب الأبنوس والعاج روائع من كل أنواع الحلي. وعاش معنا مسيحيون أفارقة، لم يفترقوا عنا في زي ولا في سلوك.

وما كان من الممكن التمييز بالمظهر الخارجي بين مسلمنا ومسيحينا. فلم يكن ثمة فرق يذكر بين والد **رفائيل ومتى** وبين **والدي ووالد عبود جومبي**. وكان **متى** أحد أبناء الأب **أجوستينو** من بين أصدقائي المقربين وزميل دراستي. وتوفي **متى** في حادث تحطم قطار أنفاق في لندن. ورغم كونه من مواليد زنجبار فإنه ذهب إلي ماكيريري بمنحة دراسية من تنجانيقا، وعمل بعدها فيها. وكانت لديه الرغبة في العودة إلي زنجبار والتدريس بها. وبذلت غاية جهدي لإقناع السلطات الإدارية في زنجبار بتعيينه مدرسا بمدرسة ثانوية حكومية. وقبل أن أنجح في تحصيل تلك الموافقة وافته المنية في لندن.

ومن بين ما كان متعارف عليه في زنجبار أن الجميع بصرف النظر عن عقيدتهم الشخصية يحتفلون بمولد النبي، أو بميلاد المسيح، أو بميلاد **بوذا**. وأتذكر ما اعتدت عليه في طفولتي من صحبة والدي وعمي الشيخ **عامر بن علي** لزيارة أصدقائنا الهندوس أثناء احتفالهم بمولد بوذا. وكم كنت أحب الهدايا التي

كنت أحصل عليها في تلك المناسبة من مناديل جيب صغيرة، ومن الحلوى الهندية.

خلاصة القول، أن التسامح الديني عرف راسخ في زنجبار. ومنذ أكثر من قرن من الزمان، منع السيد سعيد بن سلطان رعاياه المسلمين من ذبح البقر في المناطق التي يقطنها هندوس، رغم قلة عددهم، احتراما لمشاعرهم الدينية.

وتمتع أتباع كافة الملل الدينية بالحرية في اتباع شرائعهم في الزواج والطلاق والميراث. ولم تتدخل الحكومة أبدا حتى في **شؤون القبائل الوثنية القادمة من البر الإفريقي**، بل تركت لها الحرية في اتباع عاداتها القبلية في كل شؤونها الشخصية. وعينت الحكومة لكل قبيلة من تلك القبائل ذات عدد يعتد به **عريف اتصال** بينها وبين الحكومة للعناية بشؤنها الاجتماعية. كان هذا هو الوضع **قبل مجئ المستعمر، ولم يتغير الحال طيلة سبعين سنة من الحكم الاستعماري.**

ومن المفارقات الغريبة أن أنظمة الحكم الإفريقية الجديدة الراهنة التي اغتصبت السلطة، لا تعير بالا لتلك الحرية الأساسية، وتسعى إلي فرض إرادتها علي المعتقدات والممارسات الدينية المنوعة التي حظيت بالقداسة علي مدى قرون طويلة. فالمغتصبون يريدون أن يخضع الجميع لإملاءاتهم.

فقبل الاستعمار وفي عهده كان التقليد السائد **هو تعلية ومراعاة القوانين الشخصية في كل أرجاء شرق إفريقيا وليس في زنجبار وحدها.** ولم يحدث أبدا أن تدخل الألمان والبريطانيون في شؤون رعاياهم في أمور **الزواج وحضانة الطفل والميراث.** بل جعلوا

القانون في هذا الصدد موافقا لعادات وتقاليد دين كل فرد أو قبيلته.

وأود أن أذكر بهذا الخصوص إلي وجوب إلزام كل حكومات شرق إفريقيا وكل الأحزاب السياسية المتطلعة إلي الإمساك بمقاليد السلطة فيها بالمبادئ الواردة في بيان مؤتمر **التبشير المسيحي والدعوة الإسلامية** الذي عقد في شامبسي بجنيف في يونيو 1976، السالف الإشارة إليه. وينبغي عليهم علي وجه الخصوص أن يتعهدوا بالإلتزام بالمبدئين الثالث والخامس من ذلك البيان. وقد يكون من المفيد أن نعيد التذكير بنصهما.

ينص **المبدأ الثالث** علي: **"يتفق المؤتمر علي أن الأسرة مؤسسة ثمينة إلي أبعد حد وضرورية. ويعبر المؤتمر عن قلقه البالغ من مخاطر تفككها وعلمنتها. ويوصي المؤتمر أن لا يتدخل أتباع دين آخر في قانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين أو المسيحيين.**

ويتفق المؤتمر علي أن للمجتمع والأسرة الحق في التعليم الديني لأطفالهم، بإقامة مدارس خاصة بهم، أو بإسناد مهمة تعليم أطفالهم أمور دينهم إلي مدرسين تابعين لمذهبهم الديني في المدارس، أو بأي وسيلة أخرى مناسبة وينبغي أن تتاح لهم الفرصة في كل الأحوال لتنظيم حياتهم الروحية والثقافية دون تدخل خارجي، مع مراعاة حساسيات الموقف ومشاعر الآخرين في المجتمعات المتعددة الأديان".

أما **المبدأ الخامس** فيقضي بأن: **"المؤتمر يعترف تماما بحق المسلمين والمسيحيين في تنظيم حياتهم الاجتماعية وفق تعاليم**

دينهم وشرائعه ومبادئه. وأن يقيموا المؤسسات الضرورية ويحافظوا عليها بما يتمشى مع مبادئهم الدينية كمواطنين متساوين".

الفصل الخامس

القومية والعرقية الزنجبارية[1]

وقد يكون من المفيد هنا التذكير بمضمون دراسة أعددتها عام 1992 حول مسألة العرقية والقومية الزنجبارية. فهي جديرة بأن تشكل فصلا منفردا وكاملا من هذه الذكريات.

أولا: التناسج العربي الإفريقي بالمصاهرة الودية

كلمة زنجبار عربية أو فارسية الأصل. واشتق الفرس تلك الكلمة من كلمتين فارسيتين تعنيان (**بر الزنج**). أما العرب فنحتوا لها إسما يعني (**زين ذا البر**). وهو لقب يشير إلي جمال هذه البلاد الأخاذ. وكتب **نورمان بنيت** في الصفحة الأولي من كتابه المسمى: "**تاريخ دولة زنجبار العربية**" يقول: "انبهر زائر زنجبار في مطلع القرن العشرين من أول نظرة عليها، فقال: "**من اليقين أنه لا شئ أجمل منها علي وجه البسيطة، مشاركا بذلك**

---

[1] كان من المزمع تقديم هذه الدراسة إلى المؤتمر الدولي لتاريخ وثقافة زنجبار في ديسمبر 1992. ولكنها وصلت إلى منظمي المؤتمر في وقت متأخر بحيث استحال تضمينها في أعمال المؤتمر. والمعلومات الواردة في هذه الدراسة تنطبق مع تعديلات ضرورية معينة على كل المناطق السواحيلية من جزر القمر إلى مقدشيو –ا لمؤلف

ولب هذا الفصل هو إثبات أن الدعوى العرقية خالية من أي مضمون، وأن سكان زنجبار تجري في عروقهم دماء من شتى أرجاء العالم، وأن مقولة أن العرب غرباء، وكانوا يمثلون حكما أجنبيا للأفارقة فيها، أكذوبة عارية تماما عن الصحة. فالعرب موجودون فيها من ألوف السنين. بل إن أصل الشيرازيين عربي. والوجود العربي بالجزيرة وبشرق إفريقيا عامة سابق على الوجود الشيرازي – المترجم

الانطباع المشترك الذي خرج به معظم من زاروا تلك الجزيرة الواقعة بالمحيط الهندي ".

وجاء حين من الدهر كان اسم زنجبار ينطبق فيه علي كل ساحل شرق إفريقيا من **الصومال إلي موزمبيق**، ويمتد برا إلي داخل الكونغو. وقبل ذلك كان الساحل يسمى بساحل أوسان وهو اسم أول مملكة في جزيرة العرب.

وحفلت المنطقة كلها **بمدن** في مراحل نمو مختلفة، كانت كل منها تمثل من الناحية العملية **دولة قائمة** بذاتها، وكانت العلاقات بينها تعاونية تارة وصراعية تارة أخرى. وكانت تلك **الدول المدن** تعترف أحيانا بسيادة رئيس إحداها لها كرئيس بين أنداد متكافئين، كما حدث بالنسبة لسلطان زنجبار. بل إن تلك الدول المدن أقرت بالولاء أحيانا لسيادة سلطة خارجية، كما فعلوا مع حكام اليمن القدامى، وإمام عمان، ودار الخلافة الإسلامية، والحكام البرتغاليين، والتاج البريطاني. ولم يكن غريبا أيضا أن تكون هناك أواصر قربى بين حكام دول مدن مختلفة، كما حدث في حالة حسن بن علي وأبناءه الستة القادمين من شيراز الذين كونوا معا نوعا فضفاضا من الإمبراطورية عرفت **بدولة الزنج**، أو إمبراطورية الزنج.

ومثل هذا النمط وجد، ولا يزال إلي حد ما موجودا بين الأسر الحاكمة في شتى الدول الأوربية. وعلي ذات الشاكلة، كان لأسرة البوسعيديين في زنجبار، والنبهانيين في باتي، وبني هاشم[2] في

---

[2] حكم الهاشميون أجزاء متفرقة من شرق أفريقيا كما حكموا في البلاد العربية وحتى أقاصي آسيا.

بنجاني وزنجبار وجزرالقمر، أقارب في حضرموت وعمان. وما **حدث بالنسبة للطبقات الحاكمة حدث أيضا لبقية السكان. فالتصاهر والتمازج بين البشر هما فطرة الحياة واستمرارهما ضرورة تاريخية.**

وتوقف مدى تأثير تلك الدول الساحلية علي البر الإفريقي علي عوامل عديدة، مثل: قوة الحكام وكياستهم، أو حب المغامرة وجسارة التجار والرواد المتمتعين بحماية أولئك الحكام. ومن هنا أصبح من المعتاد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر القول بأنه: **"علي صوت مزمار من زنجبار يرقص أهالي البحيرات".** وحين اتخذ السيد سعيد بن سلطان من زنجبار مقرا لحكمه وعاصمة لدولته، امتد سلطانه ليشمل الساحل والجزر، وكل أراضي تنجانيقا وملاوي والكونغو حتى حدود السودان. واتصل مجال نفوذه بمجال نفوذ حكام مصر والسودان.

وحين زار الرحالة العربي الشهير **ابن بطوطة** منطقة شرق إفريقيا في القرن الرابع عشر الميلادي، أذهله أن **وجد الشعب السواحيلي ندا لأوربيي زمانه في المسكن والملبس والمطعم.** ويصف الدكتور وليام هتشن تلك الحضارة في كتابه "الإسلام اليوم" قائلا: **"مع مطلع القرن الرابع عشر، كانت القلاع الإسلامية تنتشر كحبات عقد من اللؤلؤ اللامع علي طول الساحل الأخضر".**

ويضيف فيما يتعلق بالمستوى الثقافي والفكري: "قد يحكم للمرء بالثراء بحجم الثروة التي في خزائنه. إلا أن نصيب المرء من الثروة العقلية كشاعر أو فقيه أو رجل دين هو الذي به يكتسب الشهرة والاحترام والتقدير، أو ما يسمى في هذه البلاد: الخصال الهاشمية. فلقد جاء المستوطنون العرب الأوائل معهم بفن الخط

العربي، الذي هو أعجوبة لا نظير لها في إفريقيا البانتوية. وأتوا معهم بحبهم التقليدي لأدب الشعر والملاحم"

والسؤال: **ما الطريقة التي حدث بها هذا التواصل؟** يسلم الأستاذ كوبلاند في كتابه " **شرق إفريقيا وغزاتها**" بأن **شرق إفريقيا لم تشهد أبدا عصر غزو مظلم من جانب العرب.** فلقد كانت التغلغل العربي في شرق إفريقيا **سلميا بالمطلق".**

ويشرح نيافة **ليندن هاريس** في كتابه "**الإسلام في شرق إفريقيا**" هذه المسألة قائلا: "يعتمد الإسلام بشكل شبه كامل في نشر الدين علي نفوذ الأمة الإسلامية. وحين يتم التغلب علي الفروق الاجتماعية، تتسارع وتيرة اعتناقه. وهذا هو **السبب في أن الهجرة من جنوب الجزيرة العربية ومنطقة الخليج، المصحوبة بالمصاهرة، تمخضت عن تحول الأغلبية من الوثنية إلي اعتناق الدين الإسلامي. وبالزواج بنسوة بانتويات أفريقيات أوجد التجار العرب وطنا لأنفسهم ولدينهم في شرق إفريقيا.** فالسواحيلي الحقيقي بانتوي. **وبالمصاهرة جسرت الفجوة بين العرب والبانتو.** وأقبل أفارقة قبليون كثر علي عبور تلك الفجوة. فعبورها لا يفتح الطريق أمامهم إلي مكة فحسب، بل إلي الأخوة مع إخوانهم الذين تجمعهم بهم آصرة العقيدة، وبعض الدم المشترك علي الأقل".

ومع ذلك ظل أخذ الحذر واجب من مؤامرات أولئك الحاقدين الذين رغم دخولهم في دين الله، **لم يجسر إيمانهم الفجوة بينهم وبين غيرهم من البشر، بسبب استحكام الحاجز العرقي في نفوسهم،** مم أعاق تمازجهم بالمصاهرة مع الأعراق الأخرى. ولعلنا نذكر هنا بأن إسماعيل جد النبي محمد عليهما الصلاة والسلام، هو من منبته ثمرة زيجة **سامي أسيوي بحامية إفريقية.**

وهو بلغة أخرى: مولد. وهذه الكلمة الازدرائية في قاموس الغرب، لا نظير لها في اللغتين العربية والسواحيلية.

ثانيا: السجلات القديمة

حينما زار رحالة وكاتب إغريقي من مصر، شرق إفريقيا في منتصف القرن الميلادي الأول، **وجدها مأهولة بالفعل بعرب يعترفون بملك اليمن سلطانا عليهم.** ووفق ما ذكره هذا الكاتب الراحلة في كتابه: **"الدليل الملاحي للبحر الإريتري "** فإن **أولئك العرب أنشأوا نجوعهم في تلك المنطقة قبل زيارته لها بعدة قرون، واختلطت دماؤهم بدماء السكان المحليين.**

وبهذا الدليل الوثائقي يغدو من الواضح **أن العرب استوطنوا شرق إفريقيا منذ ما يزيد على ألفي عام.** [3] وفي كتابه الموسوم **"زنجبار: الشعب والتاريخ"** ينقل و. هـ. انجرامز عن نيافة و. أ. كرابتري، أن عربا جاءوا إلي شرق إفريقيا **منذ أربعة آلاف سنة** عرفوا عند المصريين القدامى بـ (عرابين) و(آمو).

ويضيف أنجرامز: " تجول بعض هؤلاء في البر في المناطق الداخلية، ولازم البعض الساحل. وذاب من دخلوا البر في سكانه وفقدوا قوميتهم، وأصبحوا - بزعم كرابتري - أصل الحاميين. أما الباقون فسموا عربا".

وتعني كلمة "عرابين"المصرية بوضوح (العرب). ولكن ألا يمكن القول بوجود علاقة بين استخدام المصريين القدامى كلمة "آمو"

---

[3] انظر: جون جري، تاريخ زنجبار، ص 10-11.

في الإشارة إلي العرب، وبين اسم جزيرة "آمو" كما يسميها سكانها" وأن **(لامو)** هي مجرد تحوير للكلمة العربية آمو مضافا إليها أل التعريف (الآمو) ؟

وجرد فرعون مصر **رمسيس الثاني** حملة علي شرق إفريقيا قرابة عام 1400 قبل الميلاد. ومن المفترض أن تلك الحملة، التي كانت معززة بالفينيقيين، قد وصلت إلي مدغشقر. ثم أرسل الملك **نيكا الثاني** (رحم ايب رع من الأسرة السادسة والعشرين (630-527 قبل الميلاد) تجريدة أخرى، دارت حول **رأس الرجاء الصالح**، ثم أبحرت شمالا علي طول ساحل غرب إفريقيا، ثم دخلت البحر المتوسط من مضيق جبل طارق، **وعادت إلي مصر بعد رحلة بحرية دامت ثلاث سنوات.**

وفي كل مكان حلت فيه تلك الحملة، مكث أولئك الرجال القدامى مدة تكفي لزراعة القمح وحصده. ولم ترد بتلك السجلات صراحة، وإن كان من الممكن استنتاج، أنهم تزوجوا بنسائها وأنجبوا أطفالا، تماما كما بذروا وجنوا زروعا في الموانئ التي عرجوا عليها، شأنهم شأن ذرياتهم من أبناء قبيلة صور العمانية، الشهيرة بكونها سليلة الفينيقيين الذين انحدر من أصلابهم بنين وحفدة، بطول الساحل وعرضه من لامو إلي زنجبار وجزر القمر.

واعتاد الفينيقيون علي تسمية أنفسهم: "كنعان" أو كنعانيين". التي هي قبيلة عربية معروفة. **ومنهم تعلم الباجونيون والوتومباتو، بحارة شرق إفريقيا المغاوير، فنون الملاحة البحرية.** ويقول كيبلي شاترون في كتابه **(البواخر وقصتها)**: " في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، طاف **فاسكوداجاما** حول رأس الرجاء الصالح، وانعطف باتجاه موانى شرق إفريقيا، فوجد أن **بحارة**

المشرق، يجيدون فنون الملاحة البحرية مثله سواء بسواء. ويستفاد من ذلك ضمنا أن أولئك البحارة الأفارقة، كانوا قد حققوا من سنوات درجة من التقدم في الإرشاد الملاحي للسفن تضارع ما حققته أرقى الأمم المتحضرة الأخرى المعاصرة لهم".

وبينما أبحر فينيقيوا البحر المتوسط حتى كورنوول من أجل القصدير، أبحر نظراؤهم العمانيون حتى جزر القمر والصين من أجل سلع أخرى متعددة. وجاب نظراؤهم من تومباتو ولامو، بيسر معهود القطاع الغربي من المحيط الهندي بشكل موسمي فيما بين شرق إفريقيا والهند والخليج وإيران، وتبادلوا السلع والثقافة واللغة والدم. وكان ميناء زنجبار قبل جائحة 1964 يستقبل ما يزيد علي ألفي مركب شراعي من الخليج وجنوب الجزيرة العربية والهند في كل موسم.

والأدلة مستفيضة من اللغة والتقاليد علي وجود **علاقة وثيقة بين أهالي ساحل شرق إفريقيا والأشوريين** يتراوح عمرها بين أربعة آلاف سنة، وخمسة آلاف سنة، **وعلاقة مع السومريين** تعود إلي ما يتراوح بين خمسة آلاف سنة، وثمانية آلاف سنة. وكان أولئك العراقيون القدامى أنفسهم، في قمة التحضر. ومن المعروف، أن بلاد الرافدين دجلة والفرات هي مهد الحضارة. وبها، فيما هو معتقد، ولد فن الكتابة. ويقتبس إنجرامز **عدد من أوجه التماثل الجلي في النطق والمعنى بين اللغتين السومرية والسواحيلية،** ويضرب أمثلة بكلمات من **قبيل:** الروح، والماعز، والرجل. بل إن العامية الخليجية الفارسية والعربية لا تزال تتضمن كلمات تعكس تلك الجذور المشتركة بين تلك اللغات، من قبيل كلمة (الغوزي)، التي تشير إلي الماعز المحشو بالأرز.

وبوسعنا أن نسترسل، بما يسود مجلدات، في التدليل علي الأواصر التاريخية واللغوية والثقافية والعرقية بين شرق إفريقيا والشرق الأوسط من العصور القديمة حتى الآن، تثبت بما لا محل معه لأدنى شك أن كل من يسمون أنفسهم سواحليين أو زنجباريين هم أهالي أصليون برسوخ لا يتحول ولا يتبدل.

ومن المعروف بالنسبة لماضي **علاقة زنجبار بالهند،** أن أناسا معينين مسلمين، يسمون **الديبوليون،** أتوا **من الساحل الغربي للهند، واستوطنوا زنجبار فيما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر.** ويجب عدم الخلط بينهم وبين مجموعة أخرى حكمت جزيرة بيمبا، أو بالأحرى بوجيني، وكانوا يسمون: **دباويون،** ومن أشهر حكامهم محمد بن عبد الرحمن الدياوي، الشهير باسم "مقام ندومي ". ولكن كلمة "مقام ندومي " لا تبدو كلمة سواحيلية صحيحة. فمن الممكن أن تكون مشتقة من كلمة "مقامو وامادومي" التي تعني **حاكم الرجال،** المناظرة بدرجة أو بأخرى، لكلمة (سيباسجا) بالنسبة للكاباكا، التي تعني (فوق الرجال) وهي كلمة قريبة من لقب: **صاحب السمو،** أو معالي، أو جلالة. وكلمة مكامو السواحيلية، والإسم منها "**مقام**" مشتقان من كلمة: مقام العربية، التي تشير إلي المكانة والوضعية. وهي كلمة تستعمل علي سبيل المثال في تعبير من قبيل: " **صاحب المقام الرفيع**".

وتفيد الأدلة المستقاة من الآثار أن الديبوليين قدموا من داهول، وهو ميناء علي الساحل الغربي للهند يقع علي مسافة مائة وستون كيلومتر إلي الجنوب من بمباي. وكان ذلك الميناء في القرنين الرابع عشر والخامس عشر يخضع لحكم الأسرة الباهمانية. وفي

ذلك الزمان، كانت نسبة يعتد بها من سكان تلك المنطقة الهندية، أفارقة من شرق إفريقيا. . وكان أولئك الأفارقة معروفين محليا بلقب "السيد"، وهي كلمة عربية تشير إلي الإعجاب بالذات الذي لم يندثر تماما في أوساط السواحليين المقيمين في بلد أجنبي.

ويقول **سير جون جرأي** أن أولئك الأفارقة لعبوا: "**دورا بارزا في الشقاق السياسي الذي أدى في نهاية المطاف إلي سقوط الأسرة البهمانية، وتمزيق مملكتها**". أما بالنسبة للدباويين، فإن سير جون جرأي يفترض أنهم جاءوا من جزر المالديف، التي يدعي أنها كانت معروفة عند العرب بدبا. ولم أتمكن من التثبت من صحة هذه المقولة. ولكن ما نعرفه باليقين، هو وجود مدينة **دبا** في الخليج، التي تتقاسمها عمان وإمارة الشارقة التابعة للإمارات العربية المتحدة. وهذه مدينة ساحلية قريبة من رأس مسندم المطل علي مدخل الخليج، والذي زرته. ومن المنطقي بدرجة أكبر الاعتقاد بأن دباويو بوجيني الذين بنوا عدة مساجد تنسب إليهم، قد جاءوا من **دبا الأصلية هذه الواقعة علي الشاطئ العربي من الخليج**. ويقال أنهم كانوا في غاية المحافظة علي الشعائر الإسلامية.

ثالثا: الآصرة الفارسية

مما لا شك فيه أن زنجبار، وكل **ساحل شرق إفريقيا تأثرت عرقيا وثقافيا بأناس من بلاد فارس أو ما يسمى الآن إيران.** فعيد النيروز الخاص برأس السنة الفارسية يحتفي به علي نطاق واسع وبحماس في زنجبار، وفي مناطق عديدة من الساحل. وتتشكل أغلبية السكان من الهاديمو، والتمباتو، والبمباويون، الذين

يشار إليهم في مجموعهم بلفظ: **الشيرازي**، ويدعون أنهم منحدورون من مهاجرين أوائل قادمين من شيراز بإيران.

وكتب سير جون جرأي كبير قضاة زنجبار السابق، في عام 1955، في تقرير له بخصوص نتائج التحقيق في دعاوى خاصة بأراض معينة في جزيرة بيمبا، يقول:

" تطلعا لمسمى أنسب، بات من المتعارف عليه تسمية الحقبة السابقة علي مجئ البرتغاليين: **العصر الشيرازي**، وتسمية سكان بيمبا الذين يدعون الانحدار من أصلاب أولئك المستوطنين الأوائل: **الشيرازيين**".

بيد أن الصورة الصحيحة ليست بهذه البساطة. فلندقق فيها برؤية تحليلية أعمق مما فعله من تناولها من الكتّاب من قبل.

تروي الحكاية الأكثر رواجا، أن أميرا من شيراز اسمه **حسن بن علي** وصل هو **وستة من أولاده** إلي شرق إفريقيا قرابة عام **985** الميلادي، أي منذ ألف عام، وأرسوا سلطانهم في العديد من النقاط علي الساحل وفي الجزر، وفق **سجل تاريخي عربي عثر** عليه في كيلوا.

إلا أن **سجلا تاريخيا آخر عثر عليه في بيمبا** يتضمن حكاية أخرى تقول أن سلطانا من شيراز اسمه **درهاش بن شاه** هو الذي هاجر من وطنه إلي زنجبار للفرار من المجاعة، **برفقة شقيقين، وأخت، وأبناء عمة ثلاثة، وعدد من الجيران والعبيد.** واستقر شامي بن علي أحد أبناء العمة في بيمبا بينما استقر ابن عمة آخر يدعى داوود بن علي، وشقيقة درهاش، كازيجي بنت شاه في

زنجبار وكيلوا والبر التنجانيقي. واستقر ابن كازيجي الصغير، وأمة صغيرة تدعى تانو بنت شاه في تومباتو.

ومن الصعب القول بأن هذين التأريخين يتحدثان عن واقعة واحدة، أو يحكيان حدثين مختلفين وقعا في وقت واحد. أما ما نستطيع الجزم به فهو أن بعض الأفراد جاءوا من شيراز **إلي شرق إفريقيا بهدف الإقامة الدائمة منذ حوالي ألف سنة.**

رابعا: التومباتيون

استنبط الميجور **ف. ب. بيرس**، المقيم البريطاني السابق في زنجبار، في كتابه "**جزيرة زنجبار: حاضرة شرق إفريقيا**" من معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي، أن: "من الراجح أن المدينة التي كانت بتومباتو هي أول مدينة أسست في زنجبار. واستشف ذلك من أنه حيث ورد ذكر زنجبار في السجلات التاريخية لكيلوا وسلطانها، وردت إشارة إلي مدينة بجزيرة تومباتو، وإن كان اسمها قد نسي الآن".

ونقل بيرسي عن ياقوت تأكيده: " أن سكان جزيرة تومباتو كانوا مسلمين منذ أوائل القرن الثالث عشر، وأن سكان الأنجوجا المجاورة (وهو اسم زنجبار بالسواحيلية) كانوا يميلون إلي النزوح إلي تومباتو بحثا عن السلامة من الأعداء. فعلي جزيرة تومباتو توجد أطلال مدينة حجرية كبيرة".

ونود الإشارة هنا إلي النقاط التالية:

1- **ثمة قدر من الوجاهة في دعوى** التومباتيون أنهم وجدوا منذ العصور القديمة في زنجبار، وحقهم في تقرير المصير والمشاركة

في تسيير شؤون البلاد. وتلزم الإشارة بهذه المناسبة، علي سبيل المثال، إلي الغضب العارم الذي قابل به التومباتيون حديثا هداما لجماعات معينة في الخمسينيات من القرن العشرين يدعو إلي طرد السلطان وإنهاء النظام الملكي. ودفع التومباتيون بأن البلد بلدهم، ولما كانوا هم الذين طلبوا من أسلاف السلطان المجئ إليها **وتخليصها من الإضطهاد البرتغالي، فإنهم وليس أي أحد غيرهم هم أصحاب الحق في أن يطلبوا من السلطان الرحيل.** وهم يعتبرون الأسرة المالكة تومباتوية في الواقع. وتعزز هذا التوجه في السنوات التالية بزواج السيد سعود ابن السلطان السيد علي بن حمود (1902-1911) وعم السلطان السيد جمشيد من فتاة تومبتوية، وتعريفه نفسه بأنه ينتمي إلي قبيلة التومباتو.

2- **النقطة الثانية الجديرة بالتنويه** أن التومباتيين، علي العكس من التهم التي يروجها أجانب مغرضون، ومهيجون غوغائيون حاقدون، لم يحدث أبدا أن طردوا من أونجوجا. وعلي العكس، توجد دلائل علي أن جزيرة تومباتو الصغيرة هي أول ما تم تعميره وتطويره. وكانت تومباتو هي أول عاصمة لزنجبار تليها أونجوجاأكو. وكانت الأخيرة هي مقر ملك زنجبار الذي أتت إليه السفينة البرتغالية الثانية عام 1503. وحسب السجلات التاريخية البرتغالية، **فإن سكان زنجبار عرب مسلمون.** وكان قائد تلك السفينة هو لورانكو رافاسكو. ولم تنشأ العاصمة الحالية مجيني إلا مع انتهاء الاحتال البرتغالي عامة، وبالأخص بعد طردهم علي يد العمانيين. أما قبل ذلك فكانت مجرد قرية صيد.

3- **النقطة الثالثة الجديرة بالذكر أنه** ليس ثمة ذكر **لأفارقة** علي أنهم قوام سكان تومباتو وبيمبا أو أونجوجا، وفق التعريف الذي يطرحه العنصريون المتعصبون.

ويقول الميجور بيرسي عن التومباتيين: " لايبدو أن ثمة فروق تذكر بين سكان جزيرة تومباتو المعاصرين، شأنهم شأن أقاربهم الهاديمو، عن النموذج السواحيلي العادي. ومع ذلك فإنهم يؤكدون بقوة أنهم متمايزون عن السواحيلي الزنجي، وأنهم منحدرون من سلالة ملوك شيراز مباشرة".

ويقرر بيرسي أن:

"الخاصية التي أذهلتني في تعاملي معهم هي الاهتمام الحقيقي الذي يولونه لأصولهم العرقية القديمة، وبالأثار والأطلال الموجودة بالجزيرة. فهذه الخاصية ليست معتادة في الزنوج الذين يشيرون إلي الأطلال بالأسوار، ويعتقدون علي ما يبدو أنه لا حاجة إلي الحديث عنها.

وفي المقابل نجد أن أكابر تومباتو يبدون حماسة متزايدة للعناية بآثارهم، ولم يسلطوا الضوء علي أهمها فحسب، بل امتلأت عقولهم بقصص حول ما تمثله تلك المباني المختلفة، ومن بنوها. ومن بين الرواة الذين التقيت بهم **راوٍ أعد شجرة نسبه المتضمنة لقائمة لاتقل عن خمسين جيلا"**

ووفق المعلومات التي استقاها بيرسي من ذاك الشخص الذي أحصى سبعة وخمسين جدا من جدوده، فإن أول من استوطن في تومباتو هو أمير **شيرازي جاء من بوشهر**، يدعى **يوسف بن**

سلطان بن إبراهيم العلوي. وفي طريق نزوحه من فارس استقر أولا في مرقا بالصومال مدة كافية لبناء مسجد.

وهنا ترد نقطتان تستحقان التوقف عندهما: الأولي نستنتج أن **اسم الأمير** القادم من شيراز يوضح أنه **ينتمي إلي عشيرة عربية**، إن لم يكن ينحدر علاوة علي ذلك، من **أصل هاشمي** علي الأرجح. ويؤكد ذلك، دعوى أن الشيرازيين الذين نزحوا إلي إفريقيا الشرقية في الواقع عرب من الأحساء الواقعة فيما يعرف الآن بالمملكة العربية السعودية. وحتى اليوم تعرف المنطقة المطلة علي الخليج من إيران **بعربستان**، لكون أغلب سكانها من جزيرة العرب.

أما **النقطة الثانية** فهي أن **الحرث العمانيين استوطنوا الساحل والجزر قبل أن تطأ أقدام الشيرازيين شرق إفريقيا بأكثر من نصف قرن**، وأنشأوا مدنا من بينها مقدشيو وبراوا قبل استقرارهم في زنجبار منذ عام 924 ميلادية. ومن المهم الإشارة إلي أن الصوماليين ينطقون(براوا) بلفظ مختصر وجازم بلفظ (براو) تماما كما ينطق الحرث مدينة منبتهم في عمان (برا)، وليس (إبراء) كما هي معروفة للأجانب.

وقبل أن يصل الحرث إلي تلك البلاد، وصل إليها **الأزد**، الذين انحدرت منهم عشيرة **البوسعيديين** التي صارت لها السيادة السياسية في القرن الثامن عشر. والأزد مجموعة من قبائل كثيرة في عمان. وهم مثل غيرهم من العرب وفدوا **في الأصل من اليمن**. وهجرتهم إلي **إفريقيا الشرقية كانت سابقة علي قدومهم إلي عمان ودول الخليج الأخرى بأمد طويل.**

وتقول رواية أخرى لتاريخ تومباتو، أنه قد رحل إليها في عام ستمائة هجرية (حوالي 1204 ميلادية) سلطان معين هو **يوسف بن علوي** من عشيرة الأهدلي أو قبيلة العلوي قادما من البصرة، وهو الذي بنى مدينة ماكوتاني (الأسوار) التي لم تندثر أطلالها حتى الآن. وفي ذات التوقيت تقريبا نزح إليها إفريقي من البر الإفريقي اسمه **شونغو** استقر في شونغووي المعروفة الآن بجونجوي، الواقعة جنوبي زنجبار. ودب **الصراع بين الطائفتين، إلا أن الأمر انتهي بالمصاهرة بين ذراريهما، ومنهما معا نشأ سكان تومباتو الحاليين.**

ونود القول، بأن كل تلك الحكايات أو الأساطير التي تتناقلها الأجيال بالمشافهة أو من التأريخات المكتوبة، تعد بمثابة تبسيطات لأنماط من الوقائع، أكثر تعقيدا جرت من أمد طويل، وتمازجت فيها الكثير من العشائر والأسر والجماعات القبلية.

وليس الأمر المهم هنا هو الاسم الحقيقي لمؤسس **أول مستوطنة دائمة** في تومباتو، وما إذا كان ينتمي إلي عشيرة العلوي، أم إلي عشيرة الأهدلي، ولا ما إذا كان قد جاء من البصرة أم من شيراز الإيرانية. **فالنقطة المحورية** هي أنه حتى لو كان **قد جاء من شيراز، فإنه عربي الأصل، لأن كلتا تلكما العشيرتين عربية معروفة.** وباستثناء الاختلاط بالمصاهرة بين المهاجرين العرب أو الشيرازيين ذوي الأصل العربي والأفارقة المهاجرون من البر الإفريقي الأوائل، فإنه لا يبدو أن ثمة تصاهر واسع النطاق تم بين التومباتيين وأفارقة البر الإفريقي فيما بعد.

ويؤكد بيرسي علي هذه النقطة فيكتب:

" يبدو بالنسبة لسكان جزيرة تومباتو، أنهم الممثلون الثابتون لسكان الجزيرة الأصليين، لأنه ليس ثمة دليل علي أنهم تصاهروا مع أية أعراق محلية من البر الإفريقي منذ مجئ البرتغاليين إلي شرق إفريقيا علي أقل تقدير. وتشير حقيقة أنهم يعيشون في جزيرة، ويتسمون بنزعة الشك والانطوائية، إلي إمكانية محافظتهم علي تفردهم العرقي بدرجة أكبر بكثير مما هو الحال بالنسبة للهاديمو".

خامسا: الهاديمو

تدّعي قبيلة الهاديمو هي الأخرى أنها **شيرازية الأصل.** وموطن تلك القبيلة التقليدي في جنوب وشرق جزيرة أنجوجا. ويعتبر سكان دونجي، رغم وقوعها جغرافيا في شمال الجزيرة، أنفسهم منتمون إلي جماعة الهاديمو، وليس إلي جماعة التومباتو. وكما هو الحال بالنسبة للتومباتيين، فإنه من قبيل التبسيط المخل، **القول بأن الهاديمو في مجموعهم منحدرون من سلالة أسرة واحدة من المهاجرين من شيراز.** فعبر القرون أتت جماعات كثيرة من المستوطنين، وامتزجت دماؤهم وثقافتهم مكونين قبيلة. والحق أن جماعة الهاديمو ليست أكثر تجانسا من أية جماعة أخرى.

ومن المقطوع به، أن نطف وأرحام جماعات بشرية متعددة من القارة الأسيوية ومن البر الإفريقي، ساهمت في تشكل الهاديميين المعاصرين. وتشير السجلات التاريخية القديمة إلي أن الهاديمو كانت تغلب عليهم في الماضي السحنة الآسيوية. وفي العصور التالية، جرت دماء من البر الإفريقي، بدرجة أكبر، في عروقهم.

ووجد البرتغاليون لدى وصولهم إلي زنجبار لأول مرة في أوائل القرن السادس عشر، أن سكان أونجوجاأكو التي كانت عاصمة لزنجبار آنئذ، عرب حسب ملامحهم.

إلا ان **سير جون جرأي** كتب فيما يتعلق بالسنوات التالية يقول: "من المهم الإشارة إلي أنه في غضون عصور طويلة تواصل مجئ وافدين جدد بدرجة أو بأخرى من البر الإفريقي عن طريق أنجوجاأكو، التي يمكن وصفها بأنها كانت بمثابة **مخيم ترانزيت للمهاجرين**. ويسلم سكان قرى الساحل الشرقي: تشواكا، ومابوبوي، وشاروي، وأكونجوروني، وميتشامفي، **أن جدودهم دخلوا الجزيرة قادمين من البر الإفريقي عن طريق أونجوجاأكو.**

إلا أنه من المؤكد، من جهة أخرى، أن الهاديمو ظلوا **حتى عهد قريب محتفظين بنسبهم العربي**، بدليل أن موينى مكو (المولود عام 1785 والمتوفي عام 1865) آخر حكامهم، والذي كان يتخذ من دونجا مقرا لحكومته، اسمه: أحمد بن محمد بن حسن العلوي.

ويتدمير أونجوجاأكو علي يد البرتغاليين رحل السكان إلي كيزيمكازي، وأحيوا **مستوطنة عربية أو فارسية**. ولا تزال هناك آثار قلعة وبعض المقابر قرب الشاطئ، ومسجدا أعيد ترميمه عمره قرابة تسعمائة سنة. وعلي جدران محرابه نقوش بالخط الكوفي تقول: "**بني بأمر من الشيخ الجليل السيد أبو عمران موسى بن الحسن بن محمد، أطال الله عمره، ويدد شمل أعدائه، في يوم الأحد من شهر ذي الحجة في العام خمسمائة الهجري**" - **(الموافق أغسطس 1107)**".



مونيي مكوو – أحمد بن محمد بن حسن العلوي

آخر سلاطين زنجبار قبل حكم البوسعيديين

سادسا: البمباويون

يقول ياقوت بن عبد الله الحموي في معجمه الجغرافي المسمى "معجم البلدان"، في وصف جزيرة بيمبا في القرن الثالث عشر:

" والجزيرة الخضراء هي أيضا جزيرة كبيرة، في بلاد الزنج بالمحيط الهندي. وهي مترامية طولا وعرضا وتحيط بها المياه المالحة من كل جانب. وتوجد بها مدينتان، الأولى تسمى: ماتومبيني، والأخرى تسمى مكمبو. وفي كل مدينة سلطان قائم بذاته. وكل من المدينتين مستقلة. وبها أيضا قرى أخرى وأسواق. ويقول سلطانها أنه عربي، وأنه أتى من الكوفة (العراقية) للإقامة حيث هو. قال لي ذلك الشيخ سالم عبد الملك الحلوي الوافد هو الآخر من البصرة، والذي رأي ذلك بأم عينه، ووعاه. وهو رجل ثقة".

وتجدر الإشارة إلي أن ماتومبيني جزيرة جنوب ميناء مكواني. أما راس مكومبو فتقع في نهاية برزخ طويل وضيق علي الساحل الغربي لبيمبا عند مدخل تشاكيشاكي. وفي مكوم، وبالأحرى في نداجوني، توجد آثار لمسجد، يرى عالم الآثار ج. س. **كيركمان**، أنه يعتبر: "**ثاني أجمل جامع في أراضي تنجانيقا وكينيا وزنجبار**". كما توجد آثار لعدد من المقابر ذات الأعمدة، وبعض المساكن.

وتوجد آثار في بوجيني، علي الساحل الشرقي من بيمبا، خلفها الديباويون عامة، وما يسمى مقام ندومي محمد بن عبدالرحمن الديباوي، بوجه خاص، الذي حكمت أسرته القطاع الشرقي من بيمبا من نهاية القرن الخامس عشر حتى بداية القرن السابع

عشر. ويرجع الفضل إلي الديباويين في إدخال **زراعة شجر جوز الهند إلي بيمبا، وفي صناعة القوارب بربط ألواح الخشب بالحبال، بدل من تجميعها بالمسامير**. ولا يزال الباجوني يصنعونها بهذه الطريقة حتى الآن. وكانت تلك الطريقة تسمى في العصور القديمة في دارالسلام: **رابطة**، وهي كلمة عربية تعني: **تجميع أشياء معا برباط**. ومنها جاءت كلمة **روبوطه** السواحيلية التي تعني: **الحزمة المحكمة الرباط**.

سابعا: من أين جاء الديباويون

من أين جاء أولئك الديباويون الذين حكموا جزيرة بيمبا قرنين من الزمان، وتركوا بصماتهم علي أجسام وجينات سكانها؟ يفترض **سير جون جرأي** أنهم قدموا من **جزر المالديف** الواقعة بالمحيط الهندي بين الهند وجزيرة العرب وإفريقيا. وحجته في ذلك هي قوله أن جزر المالديف كانت معروفة للعرب باسم (دبا).

وحتى لو صح ذلك، وهو ما لم استطع التثبت منه من مصادر عربية، **فلم لا تكون هي دبا الأصلية الكائنة بجزيرة العرب المتقاسمة بين عمان وإمارة الشارقة؟** تلك هي دبا المعروفة منذ القدم حتى اليوم. فحتى لو كانت المالديف معروفة عند العرب بمسمى دبا، فإن ذلك سيكون بمجرد الاستعارة، علي غرار "شيراز" في كينيا، و"الطائف" في بيمبا. و"مارسيليا" في أونجوجا.

وتتمازج في عروق أبناء بيمبا، شأن أبناء أونجوجا وتومباتو، **دماء جماعات عرقية عديدة، وفدت واستقرت وتزاوجت وأنجبت الشعب الزنجباري**. فلقد تمازج السومريون والأشوريون القادمون من العراق، والمصريون الفراعنة، والفينيقيون، والعرب،

والشـــيرازيون، والبـــانتو، والأحبـــاش، والصـــوماليون، والقمريـــون والهنـــود، والـــدباويون، والـــديبوليون، والبرتغـــاليون، والبلـــوش، والأكـــراد، والجورجيـــون، والقوقـــازيون، والصـــينيون، والســـريلانكيون، وكافـــة العرقيـــات التـــي شـــقت طريقهـــا إلـــي زنجبـــار عبـــر المحـــيط مـــن كـــل صوب وحدب، **وأنجبوا معا الزنجباريين** كما هم الآن.

ويكفـــي العـــيش جيلـــين فـــي زنجبـــار ليصـــير المـــرء خلـــيط أجنـــاس يســـتحيل تصـــنيفه ضـــمن عـــرق بعينـــه. ومـــن ثـــم يغـــدو التصـــنيف العرقـــي إجـــراء تعســـفيا بالكليـــة. لا يلجـــأ إليـــه إلا الفاشـــيون المتعصـــبون، الـــذين هـــم مثـــل النبتـــة الضـــعيفة، لا يجـــدون مـــا يستندون عليه غير سراب العرق.

ثامنا: البانتوية: قطب الرحى للقومية

يـــرى الكثيـــر مـــن الزنجبـــاريين أن **عنصـــر البـــانتو** هـــو نـــواة **المركـــب الإنســـاني الزنجبـــاري**. فاللغـــة والـــدم البانتويـــان متغلغـــان فـــي **جـــل**، أن لـــم يكـــن **كـــل ثنايـــا كيـــان المجتمـــع الزنجبـــاري**. وهـــذا هـــو العنصـــر المهـــيمن بـــين كافـــة العناصـــر بحـــق. **ومـــع ذلـــك، فـــإن البـــانتو، مـــثلهم مثـــل البـــيض فـــي أمريكـــا أو اســـتراليا، ليســـوا هـــم الأحـــق بادعـــاء أنهـــم هم السكان الأصليون.**

وفـــي هـــذا الصـــدد نقـــرأ فـــي الصـــفحتين الحاديـــة عشـــرة والثانيـــة عشـــرة من كتاب **(تاريخ زنجبار)** لمؤلفه **سير جون جرأي، قوله:**

" تكـــاد أســـاطير وعـــادات معظـــم البـــانتو تشـــير بشـــكل ثابـــت إلـــي أن منبـــتهم شـــمالي، وإلـــي أنهـــم شـــقوا طـــريقهم مـــن مـــوطنهم الأول صـــوب البحيـــرات الإفريقيـــة الوســـطى، ثـــم تحركـــوا جنوبـــا وشـــرقا إلـــي شـــواطئ المحـــيط الهنـــدي. وتـــومئ

الأعـــراف والحكايـــات القبليـــة إلـــي أن وصـــولهم إلـــي البحيـــرات العظمى تم في تاريخ لم يندثر تماما من ذاكرتهم العرقية.

ومـــن غيـــر الممكـــن الجـــزم بعـــدد القـــرون التـــي مـــرت منـــذ وصـــول النـــاطقين بلغـــة البـــانتو لأول مـــرة إلـــي شـــاطئ شـــرق إفريقيـــا، ثـــم العبـــور منـــه إلـــي زنجبـــار وبيمبـــا. **فربمـــا وصـــلوا إليهـــا بعـــد الاكتشـــاف الأول لتلـــك الجـــزر وذاك الســـاحل علـــي يـــد أنـــاس مـــن أصـــل غيـــر إفريقـــي، بقـــرون عديـــدة.** فمـــن المقطـــوع بـــه أن ســـاحل إفريقيـــا الشـــرقية كـــان **معروفـــا للعـــرب منـــذ القـــرن الثـــامن قبـــل مـــيلاد المســـيح** عليـــه الســـلام. **وتـــاجرت مملكـــة الأوســـان العربيـــة التـــي زال ملكهـــا قرابـــة عـــام 700 قبل الميلاد مع الساحل، وربما سيطرت علي أجزاء منه".**

وحـــول وصـــول البـــانتو إلـــي ســـاحل إفريقيـــا الشـــرقية، يقـــول **و. هـــ. انجرامز:** "

قبـــل مولـــد المســـيح بمائـــة ســـنة تقريبـــا، تحـــرك البـــانتو الـــذين كـــانوا قـــد تشـــكلوا عرقيـــا علـــي مـــدى ألـــف ســـنة خلـــت، فـــي عكـــس اتجـــاه النيـــل فـــي عمليـــة غـــزو كبيـــرة. وكـــان الأهـــالي الأصـــليون لا يزالـــون يعيشـــون فـــي العصـــر الحجـــري، فـــي حـــين كـــان البـــانتو مســـلحون بأســـلحة مصـــنوعة مـــن الحديـــد والنحـــاس، ممـــا يســـر تقـــدمهم بدرجـــة كبيـــرة بـــلا ريـــب. وربمـــا كـــان دافعهـــم إلـــي هـــذا الغـــزو هـــو الضـــغط القبلـــي، والرغبـــة فـــي الحصـــول علـــي الملـــح. ومـــن ثـــم، تحركـــت حشـــودهم صـــوب الجنوب، وشقت طريقها الي الساحل" [4].

---

[4] و. هـ. انجرامز، زنجبار: تاريخها وشعبها، ص70.

ويقول رونالد أوليفر، وج. د. فاجي:

"لم ترد أية إشارة إلي رجال سود في الدليل الملاحي للبحر الإريتري الذي يصف ساحل شرق إفريقيا جنوبا حتى زنجبار علي وجه التقريب. ووردت إشارة إليهم في كتاب الجغرافيا لبطليموس، ولكن في أقاصي جنوب المنطقة التي كانت معروفة آنذاك، والتي تضاهي في بعدها جنوبا: جنوب موزمبيق المعاصرة علي الأقل. أما حين نتحرك شمالا، فإننا نجد أن السكان كانوا، بدلالة ضمنية علي الأقل، من أجناس صومالية أو إثيوبية"[5].

ولاجدوى من هذا كله في قليل أو كثير. فالمحدد الحاسم للإنسان المتحضر **ليس العرق**، وإلي أي عرق ينتمي، وإنما هو **جنسيته القومية**، المعبرة عن مسقط رأسه، أو عن اختياره لبلد ينتمي إليها، ويضحي بروحه في سبيلها عند الضرورة. وبالمثل **فالمحدد الحاسم ليس هو من جاء إلي زنجبار أولا.**

فالأمريكي أمريكي سواء كان منحدرا من أصلاب وأرحام **الهنود الحمر** الذين نزحوا سيرا علي الأقدام من سيبيريا، إلي ألاسكا عبر مضيق بيرنج قبل الميلاد بما يتراوح بين **عشرين وأربعين ألف** عام. أو كان ممن **اقتلعوا** من أرضهم الإفريقية، وقيدوا بالسلاسل، وأجبروا علي الإقامة علي شواطئ العالم الجديدة غير المضيافة من فترة وجيزة لا تتجاوز **ثلاثة قرون**. أو كان ممن **ذهب ألي**

---

[5] رونالد أوليفر، وج. د. فاجي، مختصر تاريخ إفريقيا، ص98.

أمريكا بإرادته بحثا عن ملاذ أكثر راحة، بالمقارنة بموطنه الأصلي، والحصول في الوقت المناسب علي جنسية الدولة الأقوي والأكثر تقدما في عالم اليوم. وسواء كان هذا الشخص أبيض أو أسود، أسمر أو أصفر، شعره مجعد أو منساب كالحرير، أسود أم ذهبي، عيناه لوزيتان أم جاحظتان، أنفه مفرطح، أم معقوف، فهذه كلها أمور لامعنى لها، اللهم في **نظر الحمقى**. فهياكل أجساد بني الإنسان متماثلة إلي حد بعيد.

وكل ما قلته عن **القوام المجتمعي للزنجباريين، ينطبق بذات الدرجة علي كل شعوب شرق إفريقيا**. من جنوب الصومال وسواحل كينيا وتنجانيقا حتى جزر القمر، حيثما تعتبر اللغة السواحيلية بكل لهجاتها هي اللغة الأم. فكلهم **نتاج أمشاج متمازجة، يغلب علي الدم الذي يجري في عروقهم دم البانتو والدم العربي، ولكن بالقطع مع جرعات من مختلف الأعراق، والخلائط العرقية التي صبت في بوتقة سكان هذه الأراضي المطهرة بمياه الجزء الغربي من المحيط الهندي**. إن خاصية القدرة علي تشرب الثقافات والجينات، دون إرباك للهوية الأساسية هي التي تعطينا الثقة في الخصوبة الدائمة للقومية الزنجبارية التي استوعبت بسلاسة مثل تلك التعددية العرقية.

ولنتذكر في هذا المقام ما قاله **عبد الرحمن عزام** أمين عام جامعة الدول العربية، منذ عدة عقود من علي منصة الأمم المتحدة من أن **العرب** " **ليسوا عرقا واحدا. فكل من يعيش معنا، وينطق بلغتنا، ويتبع ثقافتنا، فهو عربي** ". وينطبق هذا القول علي كل الشعوب. فليس هناك انجليزي بالعرق ولا هندي بالعرق، ولا مصري بالعرق، ولا امريكي، ولا إفريقي بالعرق.

وكتب الصحفي الأمريكي العظيم الكسندر وولكوت، عن المطرب الأمريكي الشهير، بل الأشهر، بول روبسون: " إنه أعظم قيثارة من بها الله علينا في هذا العصر وإنني فخور بأنني من ذات عرقه. **ألسنا كلنا أبناء آدم، ننتمي لعرق واحد؟**". وولكوت أبيض. وروبسون أسود. والاثنان آدميان.

فلنختم هذا الطرح ببيتين من الشعر لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه:

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم من أصلهم شرف يفاخرون به، فالطين والماء

الفصل السادس

مصادرة الممتلكات[1]

كنت **بسجن دودوما**، مع زميلي **سالم كومبو** وزير الشؤون الداخلية السابق، حينما استمعنا لإذاعة تنزانيا التي كان صخبها العالي يدوي علي الدوام، تعلن أن: " **قد تم تأميم منزل علي محسن وعزة محمد**". قلت لرفيقي: " **فليأخذوا ما يأخذون، وليكونوا ما يكونون. لأنهم في النهاية في التراب سيدفنون**".

إن ذلك البيت الذي بنيته أنا وزوجتي **بالعرق وبالحب** لأنفسنا ولأبنائنا ولأحفادنا من بعدهم، **صادرته حكومة غاصبة، واحتلته بالتالي زمرة من المغتصبين**. أعرف بعضهم. ولا أعرف البعض الآخر، ولا يهمني أن أعرفهم. ولكن الأمر الذي أعرفه بيقين، أن كل من **يستخدم هذا البيت المصادر، وكل الممتلكات الأخرى المصادرة ملعون من الله تعالي**. ومصيرهم جميعا هو **دار البوار جهنم وبئس القرار**. ونصوص الوحي المنزل شاهدة علي صدق

---

[1] يستعرض هذا الفصل إشكالية بالغة الخطورة، كانت لها آثار مدمرة على بلدان عالمنا الإسلامي في عصر ما بعد الاستعمار التقليدي، ألا وهي: **العبث بنظام الملكية**، والتحول عن تنظيمه بشرع الله تعالى، إلى تنظيمه بمقولات من يسمون:**المفكرون الإشتراكيون**. وأفضى ذلك إلى **مصادرة الممتلكات، وغرس الأحقاد، وتبديد فرصة التنمية الحقيقة، وتعميم أكل أموال الناس بالباطل**. والمؤلف يقدم قراءة لهذه الإشكالية بالغة العمق، وجديرة بأن تلتفت إليها كل حكومات عالمنا الإسلامي، ويراجعون في ضوئها، آثار انتكاسة نبه إليها المؤلف بقوة، تتمثل في مفارقة، أن المستعمر لم يتدخل في قوانين الملكية والميراث والزواج، بينما عبثت حكومات ما يسمى عهد الاستقلال بها. – المترجم.

ما أقول[2]. وهذه ليست مجرد نزعة مثالية كما يتخيل الماديون. بل هي **حقيقة علمية**. ذلك أن **لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الإتجاه.**

والقرآن ينطق بالحقيقة الأزلية المطلقة حين يقول: " لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ{196} مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ{197} (آل عمران: 196-197)، وحين يقول: "لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{123} وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً{124} (النساء: 123-124).

ولقد شاهدت **شريط فيديو** لمسؤول كبير بحكومة **الغاصبين** يتحدث في غرفة الجلوس في **بيت مصادر**، يقطنه ذلك الرجل دون وجه حق. وفي الشريط يعلن الرجل بصلف وبلا تحفظ، أن كل "**الممتلكات المؤممة بشكل مشروع وحلال، لن تعاد أبدا إلي أصحابها**". يالله من مسكين يقول هذا بفم مفتوح فاغر، وقلبه وعقله عليهما أقفالها. فلا تثريب عليه أن ينطق بهذا الهراء الآن وهو محمي بمنصبه. ولكنه لم يدرك أنه **ناقض نفسه ثلاث مرات في جملة واحدة نطق بها.**

---

[2] لعل المؤلف يشير هنا إلى قوله تعالى: وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} البقرة 188 وقوله تعالى:" {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً} النساء29.

أما المغالطة الأولي في جملته تلك فهي استعماله كلمة: "أممت". وأي معجم لغوي سيقول له أن "التأميم "يعني: نقل الصناعات وخطوط السكك الحديدية، ومناجم الفحم، وما شاكل ذلك من وسائل الإنتاج، من الملكية الخاصة إلي ملكية الدولة، من أجل الصالح العام. أما سرقة زيد لإطعام عمرو فليست من التأميم في شئ. وهذا هو ما حدث في زنجبار. أخذوا بيت علي وأعطوه لجمعه، وأخذوا مزرعة بلال وأعطوها لبطرس. وإن كان ثمة مصطلح معبر عن المضامين الصحيحة لذلك، فهو: الغصب.

وأما **المغالطة الثانية**، فهي استعماله لفظ "**مشروع**"، ذلك أن الأخذ تم بواسطة **نظام حكم غير شرعي**. ولا محل بالتالي لوصف أي من تصرفاته **بالشرعي**، لأنه تم ببساطة **بالقوة والإكراه.** وأسفرت القوة التي تم اللجوء إليها عن **مذابح** راح ضحيتها 13 الف روح آدمية **(قرابة 4% من السكان)** وسجن 26 ألف شخص **(حوالي 9 % من السكان)**، ونفي مائة ألف **(قرابة 30 % من السكان)**، وعدد يستعصي علي الحصر من حالات **الاغتصاب والإصابة بعاهات مقعدة. فأي قانونية، أو مشروعية، أو أي مبرر أخلاقي لكل هذا؟**

وأما **المغالطة الثالثة**، فإن ذاك المسؤول الكبير لم يملك في خطابه المتبجح، إلا أن يشير إلي من سرقت منهم ممتلكاتهم، بأنهم "**ملاكها**". وهكذا ناقض نفسه للمرة الثالثة. **فما هو مبرر عدم إعادة الممتلكات إلي أصحابها؟** لاشئ عدا **التحدي السافر للأمانة** التي يأمر الله تعالي بالوفاء بها في قوله: " **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن**

تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً". (النساء 58)

ويحكى أن الشيخ الراحل حسن بن عمير الزنجباري قال في موعظة عامة له في زنجبار كل من هو قادر علي مغادرة هذا البلد ويبقى فيها يموت علي غير الإيمان" فسأله أحد الحضور: "لم ياشيخ؟". فأجابه الشيخ بقوله: " لأن كل أسباب الرزق هنا حرام. فما يباع بالسوق جله إن لم يكن كله، مسروق، لكونه نمى في أرض مغصوبة. ومن الحرام حتى أن تصلي في أرض مغصوبة".

هذه هي فتوى العالم. وهي تنطق بالحقيقة بلا مواربة. فأي بلاء يحل بالمرء إن هو بالإضافة إلي **استحقاقه اللعنة، أشرك أبناءه أو والديه في ظلمه؟** والأدهي من ذلك، **هم من يستخدمون أراض موقوفة لمسجد أو مدرسة، أو لغرض خيري آخر**. وعلي رأس المفارقات يأتي ذلك التكاثر الشبيه بالفطريات للكنائس الصغيرة العديدة التي شيدت جميعا في كل أرجاء زنجبار علي أراض مغصوبة. فكيف يمكن لإنسان أن يبني **بيتا مكرسا لعبادة الله علي أراض سرقت من مالكيها الحقيقيين؟** فهل يتصور أولئك المسمون: مسيحيون أن المسيح بن مريم راض عن صنيعهم، أو أن ربه سيقبل صلاتهم؟ بل حتى ما هي **المزايا الدنيوية** التي تحققت من ذلك **الاندفاع المجنون صوب الغصب؟**

في صدر الإسلام أراد **عمرو بن العاص** حاكم مصر، أن يوسع **أول مسجد** بني بمصر، لزيادة عدد من دخلوا في الإسلام، وعدم اتساع المسجد لهم. . ولم يكن بوسعه تحقيق ذلك إلا **بحيازة بيت**

مملوك لسيدة مسيحية، وإزالته. عرض عليها **شراء** البيت، ولكنها **رفضت** أن تبيع ملكها، **فأممه ووسع المسجد.**

امتطت المسيحية بعيرها، وقطعت الطريق من مصر إلي مكة لتقدم شكواها إلي **أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**. استدعى الخليفة أمير مصر فاحتج أمامه بأنه **أستولي علي البيت من أجل الصالح العام، والتعويض النقدي** جاهز رهن أمر المالكة متى تشاء. رفضت تلك السيدة،، وصممت علي بقاء بيتها حيث هو، **ورفضت أي تعويض**. فأمر عمر بن الخطاب **بهدم الجزء من المسجد المقام مكان بيتها، وإعادة بنائه كما كان بالكمال والتمام إرضاء لتلك السيدة المسيحية**. كانت هذه هي نوعية **العدالة** التي أرسيت عليها الدولة الإسلامية منذ ما يربو علي ألف عام.

ومن جهة أخرى، فإن بعض المتطلعين إلي الزعامة السياسية في زنجبار الآن كانوا يزعمون أنهم **سيقيمون الحق فيما لو وصلوا إلي سدة الحكم**. أما شكل عدالتهم، الذي يطرحونه فهو **إضفاء القانونية علي اغتصاب الممتلكات بإعطاء سندات ملكية لمن حصلوا علي حق الانتفاع بأراضي غيرهم بعد الغزو الذي تعرضت له زنجبار عام 1964**. وهم يسمون ذلك "**عدالة**" لمجرد إقرانه بالتعهد **بدفع تعويض للملاك الأصليين.**

ويثير تصورهم هذا أسئلة مشروعة عديدة، من أهمها: **أي مبلغ من المال يكافئ طرد إنسان بالقوة من بيته وأرضه وتجريده من كل شئ** وحرمانه من ريع أرضه ومن استعمالها علي مدى ما يزيد عن ثلاثين سنة؟ ومن أين ستأتي أية حكومة **بتمويل لتعويض البلد كله الذي نهب وعن الأخطاء الإقتصادية**

والأخلاقية الجسيمة التي ارتكبت بحق ألوف الأبرياء؟ وكيف يمكن التعويض عن **الخطأ الأخلاقي والنفسي** الخاص بالطرد بالقوة، ليس من أجل أي مصلحة عامة، وإنما من أجل إضفاء المشروعية علي مصادرة الملكية علي يد من شاركوا في المذابح، وفي أعمال السلب، والاغتصاب عام 1964، من أجل إقامة نظام حكم غير شرعي، وتثبيت مرتكزاته؟ **وعلي فرض أن تلك المبالغ ستدبر بصفة منحة أو قرض، أو عبر الضرائب، فبأي حق تأخذ أي حكومة مالا عاما وتبدده فيما يسمى تعويضات من أجل شرعنة مصادرة ممتلكات أناس آخرين؟**

إن الهدف من تلك العملية برمتها هو استفادة حفنة من الأفراد، معظمهم من **أنصار نظام حكم دموي، استعمل ممتلكات غيره ثلاثة عقود بلا مقابل، وذاك ظلم مركب.** فلقد حرم كارومي[3] الزنجباريين من **ممتلكاتهم**، وتلك جريمة بشعة. وهاهو يقترح إضفاء المشروعية علي تلك الجريمة باستخدام الأموال العامة فيما يسمى: **التعويض**، وتلك جريمة أشنع.

ولقد جاءت فترة بعد رابع الخلفاء الراشدين الإمام **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه، تحول الحكام فيها إلي طغاة، شرعوا علي شاكلة نظام الحكم الأفروشيرازي، في **إثراء أنفسهم علي حساب رعاياهم.** وبعد **أربعين عاما** أخرى ظهر **عمر جديد** هو الخليفة

---

[3] عبيد كارومي هو رئيس حزب الأفروشيرازي والذي تزعم الإنقلاب الدموي الذي أطاح بالنظام الديمقراطي المنتخب. أصبح أول رئيس لجمهورية زنجبار ثم باع زنجبار لسيده جوليوس نيريري ليشكل جمهورية تنزانيا المتحدة بين زنجبار وتنجانيقا. قتله أفراد من جيشه بعد حكم دكتاتوري دموي دام أكثر من ثمان سنوات.

الأموي الراشد **عمر بن عبد العزيز**، الذي لم يغمض له جفن بعد أن بويع بالخلافة، إلا بعد أن تأكد بأم عينيه أن كل **الممتلكات التي صادرها أسلافه من خلفاء بني أمية قد عادت كلها بلا أي نقص إلي مالكيها الحقيقيين.**

وشهدت زنجبار قيام وسقوط أربعة حكومات منذ اغتيال كرومي غير المأسوف عليه. ولم يقم أي منها حتى **بمجرد محاولة تصحيح أخطاء من سبقوه.** ولم يتظاهر أي منهم **بالندم وتأنيب الضمير**، إلا بعد طرده من منصبه. فأي توبة تلك، ما داموا لا يزالون يعيشون علي مزايا وأوحال انخراطهم في مظالم الثلاثين سنة الماضية، ويقسمون علي العمل علي "**إضفاء المشروعية علي السرقة الجماعية للممتلكات**"؟

ولقد استمعت بعد قرابة ثلاث سنوات علي ما يسمى "**تأميم مزارع القتب في تنجانيقا**"، وأنا نزيل سجن دودوما، إلي **جوليوس** *نيريري* يقول في الراديو " **مر عامان بعد إعلان أروشا وتأميم مزارع القتب، وتم تسريح خمسين ألف عامل**" ثم تساءل: "**هل هذا تقدم؟**" كما لو كان شخصا آخر هو الذي قام بذلك العمل الشرير الأحمق. إنه هو الوحيد المتحمل لوزر جريمة السرقة الجماعية علي مستوى بالغ الضخامة. أما غيره من حاشيته، فهم مذنبون بمدهم يد العون له والعمل بالنيابة عنه. ويكفي هذا السبب وحده للقول بأن السرقة غدت أمرا عاديا ومتعارفا عليه، ولا يتحرك له ضمير كل المواطنين في الواقع الفعلي، فكما يقول المثل: "**الناس علي دين ملوكهم**". وهو مثل ينطبق علي هذه الحالة علي نحو لا نظير له. **فالقلة** التي علي رأس السلطة في تنزانيا نيريري و**المتطفلون** عليها أخذوا **نصيب الأسد** من الغنيمة، والبقية

يتشاحنون علي **الفتات المتساقط** من مائدة أسيادهم. ولا نعرف **شعبا تم إفساد أخلاقه كله علي هذا النحو.**

الفصل السابع

إزالة بعض الأوهام[1]

من المناسب عند هذا المنعطف ذكر عدة حقائق دامغة لتبديد بعض **خيوط العنكبوت**، بالرد علي اتهامات كلايد سانجر، الصحفي البريطاني الشهير، والكاتب المتخصص في الشؤون الإفريقية، الذي لم يشعر بأي وخز في الضمير حينما كتب مقدمة ذيلها باسمه، لكتاب جون أوكيلو، القمئ الموسوم **(ثورة في زنجبار)**، وتصحيح **مزاعم بابو** الواردة في مقالة له نشرت في كتاب: " **زنجبار تحت الحكم الإستعماري** ". ففي هذه المصادر وغيرها ممن هو علي شاكلتها وردت مزاعم ضد حكومة **الحزب الوطني الزنجباري** لا أساس لها من الصحة.

ففور تشكيل أول **حكومة مسؤولة منتخبة**، أي قبل عهد حكومة الحكم الذاتي الداخلي، قررنا معالجة **مسألة الأراضي الجوهرية**،

---

[1] يجلي المؤلف في هذا الفصل بالغ الأهمية **عدة حقائق**، أهمها: **أن الأقدر على إيجاد** تصورات للإصلاح الزراعي، وللتنمية بوجه عام هو أبناء البلد أنفسهم، وأن **الأجانب** سواء كانوا حكومات أو منظمات دولية مسيسون، ولهم أجندات تجعل اتباع نصائحهم مدخلا للبوار. ويفند المؤلف **دعاوى مزيفة** تتهم العرب بالتعالي على إخوانهم الأفارقة، والسعي إلى التميز عليهم في نوعية المهن. **ويستعرض خريطة المهن في زنجبار حتى الاستقلال**، مبينا أن العرب كانوا في مجملهم يعملون بكل مهنة شريفة متاحة، وينشدون العدل، والوحدة مع إخوانهم، ويعون أن عروقهم تجري فيها دماء إفريقية من القدم. **ويفند المؤلف مقولات فريق من بني جلدتنا استبدلوا اشتراكية مزعومة بالذي هو خير وهو عرويتهم ودينهم**، وخاضوا في تشويه صورة إخوانهم العرب، ونسجوا مع كتاب غربيين أكاذيب هي أوهن من نسيج العنكبوت – المترجم

لأن البنية الاقتصادية للدولة بكاملها تعتمد عليها. وأدركنا أن العائق الأهم للتنمية الزراعية هو **التجزئة عديمة المنطق للأراضي** إلي حد أن 80% من المزارع في جزيرة بيمبا، علي سبيل المثال، كانت لا تزيد مساحة كل حيازة منها عن فدان ونصف الفدان. [2]

وسعينا كحكومة في بداية الأمر إلي الحصول علي استشارة فنية من **مكتب الكومنويلث** في لندن. ورفض مجلس الوزراء النصيحة التي جاءتنا منها، لكونها **لا تسفر عن أكثر من تغيير نمط الملكية مع تحميل البلاد بدين لا قبل لها بتحمله**. فمقتضى تلك المشورة هو: **أن تقرض الحكومة البريطانية حكومة زنجبار مالا يكفي للتغرير بملاك الأراضي الحاليين، وتحويلها إلي ملاك بوضع اليد**. قلنا لهم أن مصير مثل هذه العملية ذات الدوافع السياسية هو **الفشل** علي غرار ما حدث لنظيرتها في اليابان حين أراد دوجلاس ماك آرثر تجربتها.

وعلاوة علي ذلك، فإن إغراق البلاد بسيولة نقدية تقدم كتعويضات سيتمخض عنه **تضخم مصطنع**. وستغدو حكومة زنجبار مدينة **بدين ثقيل لبريطانيا العظمى**، أو لأي جهة أخرى يتم الحصول منها علي تلك القروض. ولن يتقدم اقتصاد البلاد العام قيد أنملة. بل علي العكس سيصاب بانتكاسة خطيرة.

وحينئذ ولينا وجهنا شطر **منظمة الأغذية والزراعة**، متوقعين أن لا يكون لدى تلك المنظمة الدولية تحيزا سياسيا. وأرسلت إلينا تلك

---

[2] انظر مقتطفات من تقرير سيلواين وواطسن واردة بمذكرة التنمية الريفية.

المنظمة **خبيرا من استراليا**، طرح علينا خطة بموجبها تشتري **الحكومة كل الأراضي، وتدار أراضي الدولة كلها كضيعة واحدة**. بتعبير آخر، دعا ذلك الخبير إلي **رأسمالية الدولة الكاملة**. فكل من سيعملون في تلك الأراضي سيكونون موظفين حكوميين.

ولم يكن بوسعنا أن نقبل تلك الخطة أيضا. لأننا كنا حكومة ديموقراطية منتخبة، ومن شأن الأخذ بذلك الاقتراح أن يصيب **المزارعين بالاغتراب، ويحول المزارعين المستقلين الغيورين إلي موظفين مدنيين**، ويركز كل القوة السياسية والاقتصادية في يد الجهاز البيروقراطي، الذي سيدفع بطبيعته إلي فرض إرادته علي كل نواحي الحياة. والإقدام علي مثل هذا التصرف **سيكون عملا غير ديموقراطي**، وسيكون بمثابة **انتحار لحكومة منتخبة بشكل ديموقراطي، إذ ستتولد عنه ديكتاتورية طليقة العنان**.

وبعد اليأس من الحصول علي أية مشورة ذات جدوى من مكتب الكومنويلث، أو من منظمة الأغذية والزراعة، **قدمت لمجلس الوزراء ورقة حول الإصلاح الزراعي حظيت بموافقته بالإجماع**.

فلقد درست خمس سنوات بالجامعة في تخصص الزراعة، وكان لدي خبرة عملية مدتها خمس سنوات عملت خلالها مديرا مساعدا للزراعة، علاوة علي كوني سليل أجيال متعاقبة من المزارعين، وجذوري ضاربة في الريف. وقبل خوضي الانتخابات عملت لفترة عضوا معينا في المجلس التنفيذي متابعا لإدارة الزراعة، فيما جرت العادة علي تسميته "**عضو الزراعة**". وبصفتي هذه قدمت تلك الورقة ذاتها إلي الحكومة الاستعمارية. وحظيت بثناء بالغ من **ج. أي. تيدبري** حين كان مديرا للزراعة بالإنابة، ولكنها رفضت من مدير الزراعة **أ. ك. برانيت** بعد عودته من الأجازة.

وبموجب المقترحات التي قدمتها ووافق عليها مجلس الوزراء بعد إنعام النظر فيها، جرى الاتفاق علي أن يتم تأسيس **ثلاثة مشروعات علي أساس تجريبي:**

أ- **الانتفاع بالمزارع المملوكة للدولة** البالغ مساحتها ستة آلاف فدان كمزارع حكومية عامة تدار علي أساس اقتصادي ربحي صارم. ويكون العاملون بها **موظفين حكوميين**، وينـاط بتلك المزارع تغطية احتياجات الخدمات الاجتماعية الأساسية، مثل: **التعليم الإبتدائي والرعاية الصحية للعمال.**

ب- **المزارع المملوكة لأفراد تشتريها بموافقة مالكيها جمعيات تعاونية**، ويسدد ثمنها علي **عشرة أقساط سنوية**. ويكون مالكوها السابقون والمالكون بوضع اليد معا أعضاء في تلك التعاونيات، ويكافأون وفق مساهمتهم في العمل في تلك التعاونيات. وتقسم الأراضي الزراعية المجمعة إلي قطع مناسبة الحجم تتراوح، علي سبيل المثال، بين خمسمائة فدان وألف فدان، بما يتمشى مع متطلبات الزراعة الحديثة المميكنة.

ج- تتكون الشريحة الثالثة من الأراضي من مجموعة من المزارع المتجاورة، تدار كتعاونيات ديموقراطية في الإنتاج والمعالجة والتسويق. وفي حين يبقى الأفراد مالكون للأرض، ويكتسبون عوائد من ريع ممتلكاتهم ومن عملهم بها، تكون عملية شراء وملكية الآلات الزراعية والأسمدة والمبيدات، ومعالجة المنتجات وتسويقها عملا جماعيا. وهنا أيضا يعتبر من يسمون المالكون بوضع اليد أعضاء في تلك التعاونيات.

وهذه المشاريع الثلاثة - **رأسمالية الدولة** كما في المقترح الأول، **والجمعيات الاشتراكية**، كما في المقترح الثاني، **والتعاونيات الديموقراطية** التي تظل الملكية الفردية قائمة في ظلها - تنفذ بصفة **تجريبية**. وبعد فترة مناسبة يتبين أيها هو الأكثر جدوى والأكثر إنتاجية. ولما كنا لا نريد أن نكون حاطبي ليل، قررنا أن تمر تلك المشروعات بمرحلة تجريبية، تكشف لنا خلالها في أي الاتجاهات نسير.

وكان أباذر جمعه **وزير الزراعة** قد بدأ بالفعل في تطبيق عملية رأسمالية الدولة علي المزارع الحكومية البالغ مساحتها ستة آلاف فدان، وشرع في عقد اجتماعات مع المزارعين لمناقشة إقامة التعاونيات المقترحة بعد صدور توصيات بهذا الشأن. وفجأة أطيح بحكومتنا المنتخبة الوطنية، وضاع كل شئ.

ومن أجل **اجتثاث البطالة** من جذورها، أو **تقليصها**، تبنت حكومة **الحزب الوطني الزنجباري**، نصيحة من منظمة العمل الدولية، بإنشاء عدد من **الصناعات الريفية المنزلية** تستخدم فيها المواد الأولية المتوفرة محليا. وكان من المعتقد أن تلك الصناعات ستدر عوائد تحقق ما هو أكثر من الكفاية للشباب من الجنسين وللمسنين أيضا في كل أسرة. وقبلت الحكومة توصيات منظمة العمل الدولية بهذا الخصوص، وكان من المقرر وضعها قيد التنفيذ في القريب العاجل، حين وقعت كارثة 1964 ودمرت كل شئ.

ورغم قصر عمر حكومة **الحزب الوطني الزنجباري**، فإنها استطاعت، أن **تصدر توجيهات سرية للجنة الخدمة المدنية**، مفادها أنه رغم أن الحكومة ملتزمة بسياسة عدم محاباة أي طائفة

في التعيينات في الوظائف الحكومية المدنية، فإنه يجب مراعاة تمثيلها للتشكيلة العرقية الكائنة بالبلاد بكاملها، للتغلب **علي عدم التوازن الراهن حيث أن معظم شاغلي المناصب الرفيعة، في دوائر حكومية معينة من طوائف بعينها، بينما يندر تقلد أبناء طوائف أخرى لتلك المناصب.** وسيصب ذلك في صالح الأغلبية الإفريقية، وبه يتحقق العدل.

واتخذت حكومة **الحزب الوطني الزنجباري** في سياق سياستها **اللاعنصرية هذه خطوات فورية لإلغاء اتفاقية الإدارة الاستعمارية**، مع الجمعية الوطنية الهندية، والتي بموجبها منعت جمعية **منتجي القرنفل** من تصديره لصالح حفنة من المصدرين الهنود. ومن الغريب أن الحزب الإفروشيرازي، وحزب الأمة عقدا معا مؤتمرا شعبيا لإدانة هذه الخطوة الجديرة بالثناء، مع أن كلاهما يدعي **الاشتراكية والنضال** من أجل **المضطهدين**. وإذا بهما يصيران مناصرين علانية لاتفاقية ذات أساس عنصري، للحفاظ علي هيمنة الرأسمالية العرقية.

وفي مجال **التعليم**، وإلي جانب ابتكار نظام تخصيص حصص في التعليم الثانوي لتمكين التلاميذ القادمين من **مدارس بيمبا والمدارس الريفية** من ضمان التقدم بلا أية عوائق في التعليم، تم إدخال **نظام التدريب ضمن المقررات الدراسية** لتمكين المدرسين والعاملين بالجهاز الحكومي من تنمية مهاراتهم المهنية بالحصول علي تدريب بالخارج لمدة عامين أو أكثر. وكان معظم المستفيدين من تلك البرامج من المناطق الريفية ومن بيمبا. **وإذا كان للهوية العرقية من اعتبار في هذا المقام، فإن معظم هؤلاء كانوا من الأفارقة.**

وشاهدنا خلال مدة حكمنا القصيرة، الإنجاز المظفر للعمل المشترك بين منظمة الصحة العالمية والحكومة الزنجبارية في الاستئصال المبرم لمرض الملاريا، التي كانت هي البلاء الأكبر، والسل، وداء الفيل وما يصاحبه من أورام مشوهة. . وشعرت بارتياح شخصي لهذا النجاح لأنه جاء تتويجا لمبادرة شرعت فيها في عام 1955، حين أثرت هذا الموضوع مع ديفيد أوين في جنيف حين كان يشغل منصب رئيس مجلس المعونة الفنية التابع للأمم المتحدة.

ورغم كل هذه الإنجازات الجديرة بالثناء، وغيرها، فإن **كلايد سانجر** يقول في تقديمه لكتاب أوكيلو[3]:" **إن علي محسن زعيم الحزب الوطني الزنجباري طرق مشكلات زنجبار بالتدريج. وعلي سبيل المثال، فإنه بصفته وزيرا للتربية والتعليم منح لتلاميذ المدارس الريفية فرصة أكبر للإلتحاق بالمدارس الثانوية. ووضع في حسبانه علي الدوام الفوز بأصوات غير العرب في الانتخابات الثلاثة. ويثني أوكيلو في هذا الكتاب علي بعض أفكاره التقدمية. ولكن علي محسن لم يكن ليستطيع أبدا ترويج الإصلاحات الجذرية الضرورية، طالما أن تمويل الحزب الوطني الزنجباري كان يأتي من أثرياء عرب محافظين.** "

---

[3] جون أوكيلو مرتزق مسيحي من أوغندا قدم لزنجبار ليعمل كعامل يدوي. تزعم الإنقلاب الدموي ولقب نفسه فيلدمارشال. قام بتعيين عبيد كارومي رئيسا لزنجبار وعبدالحمن بابو (زعيم حزب الأمة الشيوعي) وزيرا للخارجية. نشر الرعب والنهب والتقتيل والدمار في زنجبار حتى تخلص منه عبيد كارومي بعد شهرين من الإنقلاب الدموي.

ولا جدوى من أن نقول **لكلايد سانجر**، ومن يفكر علي منواله، أن الحزب الوطني **الزنجباري لم يعتمد في تمويله علي أثرياء عرب محافظين أو تقدميين**، بل اعتمد علي **أعضائه** الذين كانت الأغلبية العظمى منهم مزارعين، من المناطق الريفية ومن بيمبا.

فمن عادة كتاب مثل كلايد سانجر أن يفسروا أي عمل طيب فعلناه علي غير وجهه زاعمين بأنه إما تم تحت **ضغط**، أو كانت **له مآرب خفية** كالحصول علي أصوات الناخبين، أو الهيمنة العرقية. ولم يتوقف هذا الكاتب قليلا ليتدبر حقيقة أن حكومة الحزب الوطني الزنجباري وحزبها كانت **أغلبية أعضائهما أفارقة**، وأنه حتى تلك **الأقلية المسماة: العربية، منحدرة في الحقيقة من أصول إفريقية**، وأن **العرب بوجه عام موجودون في شرق إفريقيا من ألوف السنين**. وما كان الحزب يجري وراء كسب أصوات غير العرب. فأعضاء الحزب كانوا في معظمهم من غير العرب، وكل ما كانوا يفعلونه إنما كان لصالحهم ولصالح بلادهم.

فمن بين **عشرة وزراء** في حكومتنا الوطنية المنتخبة، كان **ثلاثة فقط منحدرون جزئيا من أصول عربية**، وأنا واحد منهم. وأيا كان الأمر ألا يشعر ذلك الكاتب بالحرج من أن يكتب أن تلك الحكومة شرعت "طرق مشكلات زنجبار بالتدريج"؟ **ألا يكفيها فخرا أن تكون قد استطاعت خلال شهر واحد من وجودها كحكومة مستقلة أن تشرع فيما عجزت الإدارة البريطانية عن معالجته خلال سبعين سنة من حكمها المطلق؟** ولعلنا نسأل بابو وسانجر وأضرابهم: **ماذا فعل من يمتدحونهم ويؤيدونهم وهم في مقاعد السلطة منذ عام 1964 لإثراء صالح زنجبار العام؟**

وكتب بابو في مقالة له بعنوان: "**ثورة 1964 منبوذة أم طليعية؟**" نشر بكتاب: "**زنجبار تحت الحكم الاستعماري**"، يقول: "تشكلت علي الفور **الحكومة الثورية الجديدة**. وضمت أعضاء من الحزب الإفروشيرازي ومن حزب الأمة. وبات المجلس الثوري هو الجهاز الرائد في الدولة. ولما كان **الحزب الإفروشيرازي** بلا **برنامج اقتصادي** أو **سياسي خاص به**، فإن المجلس تبنى بالإجماع **برنامج الحد الأدنى الخاص بحزب الأمة**. وعلي الفور طبقت سياسة الحزب فيما يتعلق بالصحة والتربية والتعليم، والإصلاح الزراعي والضمان الاجتماعي وغيرها. ولا تزال هذه أهم الجوانب الشعبية المضيئة في سياسات الحكومة".

وفي هذا المثال، لا يملك المرء إلا أن يثني علي بابو لأمانته في تحديد **المسؤول عن الورطة التي وجدت زنجبار نفسها فيها** الآن. فمن يشكون ويندبون حظ بلادهم يستطيعون الآن أن يحددوا محل شكواهم. فالمذنب هو **حزب الأمة** الذي يتزعمه بابو، وليس حزب الإفروشيرازي.

وأيا كان الأمر، فإن ذلك صار **ماضيا تاريخيا**. أما الأمر المفزع فهو **الفوضوية الأصولية** التي بدت في كلمات بابو الختامية. فلقد أصيب بحماس هستيري في مدحه للإشتراكية وللثورة، وقال **بلغة شبيهة بلغة الأساقفة**: "ومن المنظور طويل المدى، من جهة أخرى، فإن الثورة تمتلك إمكانية كامنة "**لعودة كبرى**" **للتنمية الثورية المستقبلية** في المنطقة. ولا طريق أمام إفريقيا للتخلص من أغلال الاستعمار الجديد والهيمنة الاستعمارية، وموروثها من الفقر والمجاعة والمرض، غير **الاشتراكية**، التي رسمت الثورة الزنجبارية اتجاهها. إن **الاشتراكية وحدها هي القادرة علي وضع**

إفريقيا من جديد علي طريق التجديد، وإيقاد جذوة هذا الحماس الجماهيري في عهد ما بعد الاستقلال، الذي حلت محله الآن نزعة متشائمة في كل مكان. وحدها الاشتراكية تستطيع أن تفتح الطريق صوب تحويل القارة **برمتها إلي إفريقيا موحدة وتقدمية**، تستغل مواردها الطبيعية والبشرية غير المحدودة لصالح شعوبها. وحدها الاشتراكية هي القادرة علي تحويل إفريقيا إلي **عملاق بين العمالقة المعاصرين. هذا هو معنى وتراث ثورة زنجبار**".

كل ما نأمل فيه أن يكون بابو كالعادة، لا يعني ما يقول. فهو ومعظم أنصاره السابقون اختاروا عدم العيش في أي بلد يسمى "**اشتراكي**". وهناك بلد أو بلدان لا يزالان متمسكين بالاشتراكية ويعضان عليها بالنواجذ. ولكنهم عاشوا **في سلام وراحة وأمان في بلدان رأسمالية وإمبريالية، وحتى ذات نظام حكم ملكي**. وهم دائما حفنة مبعثرة في دول سكاندينافيا وبريطانيا ومنطقة الخليج. وليس بوسع أحد أن يخمن مدى مشاركتهم لزعيمهم في أحاسيسه وتطلعاته هذه.

وثمة توجه في كتابات البعض إلي اتهام إئتلاف الحزب الوطني الزنجباري، وحزب أبناء بمبا وزنجبار بالعزوف عن وضع يدهم في يد المعارضة وخلق وحدة وطنية. وهذه التهمة أبعد ما تكون عن الحقيقة.

فمن البداية حاول الحزب الوطني الزنجباري أن يكون مظلة جامعة، **ومنظمة لكل أبناء زنجبار بصرف النظر عن العرق أو العقيدة أو الطبقة**. وما ذلك الحزب في جوهره إلا تعبئة لكل القوى في النضال من أجل بناء الوحدة الوطنية والحصول علي الإستقلال عبر العمل الديموقراطي. ولكن نيريري الغريب عن

زنجبار، والإدارة الاستعمارية، اختلقا المعارضة ممثلة في الحزب الإفروشيرازي، لتقف في وجه الحزب الوطني الموجود بالفعل. وما الزعم بأن الحزب الوطني الزنجباري كان يروج سرا أو جهرا أنه لن يسمح لأحد بالتصويت في أول انتخابات عامة لكل من ليس عضوا فيه إلا أكذوبة سافرة ومضحكة.

فلقد ذكر المشرف علي الانتخابات بفخر في تقريره الصادر عام 1957 أن **مكتبه والإدارة المحلية** هما اللذان تبنيا توحيد تلكما المنظمتين العرقيتين: الجمعية الإفريقية، والجمعية الشيرازية لمعارضة الحزب الوطني الزنجباري، بغية "**إنقاذ زنجبار من حكم حزب واحد من نوع مألوف بالغ الخطورة**".

وواقع الأمر أن الإدارة البريطانية نجحت بتلك الحيلة في الجمع بين تلك المنظمتين العرقيتين المتنابذتين في الأساس، وتعزيز قدرتهما لتكونا **درعا منيعا ضد الوحدة الوطنية وضد النضال من أجل الاستقلال**.

وما دام الحزب الإفروشيرازي هو **صنيعة الإدارة البريطانية**، فإنه كان بوسعها أن تتلاعب به علي الدوام بوصفه عميلهم الخاص الذي لا يعصي لهم أمرا. وهكذا تعرضت جهود الزنجباريين الأفارقة والشيرازيين الذين أسسوا الحزب الوطني الزنجباري ليكون أداة للتعبئة الوطنية ومعاداة الاستعمار، للإجهاض من البداية، بمؤامرة فحواها أن أعضاء الجمعية الشيرازية، **الوطنيون** بلا ريب، سيساعدون أعضاء الجمعية الإفريقية، وسيشهدون لصالحهم، وهم في معظمهم أجانب، ليتم إدراج أسماؤهم في قوائم الناخبين، تأسيسا علي الاعتقاد بأن مسؤولي التسجيل لن يطلبوا من أحد

دليلا علي جنسيته. وألقى ذلك المسعى بالعبء علي كاهل ممثلي الحزب الوطني الزنجباري.

وأرادت الإدارة الإستعمارية البريطانية أن تصيب بهذا المسعى **عصفورين** بسهم واحد: **إدراج أسماء عدد** كبير من غير الزنجباريين علي قوائم الناخبين، **وتكثيف الصراع** بين الأحزاب **وإنكائه ليتحول إلي تنافس بين الأعراق.**

لم يكترث الحزب الوطني الزنجباري بهزيمته الكاملة في انتخابات 1957 ولم تفت في عضده، وقام بمساع حميدة من (حركة حرية عموم إفريقيا لشرق ووسط إفريقيا)، وكوامي نكروما، بمحاولة لإقناع الحزب الإفروشيرازي بالعمل معا من أجل الوحدة الوطنية بهدف تحقيق هدف تحرير البلاد من الحكم الاستعماري.

ونجح ذلك المسعى لفترة امتدت من عام 1957 حتى 1959، حين خلق ذلك الحزب مشكلات تخصه بالإقالة والنبذ التعسفي للأعمدة الشيرازية داخل قيادته. فأقدمت تلك العناصر الرائدة المبعدة علي تشكيل حزب منشق هو: **حزب أبناء بيمبا وزنجبار.** وبمؤازرة جاءت في حينها من جيمس جونسون وهو برلماني يميني بحزب العمال البريطاني، ومن قادة رجعيين بالجمعية **الوطنية الهندية"**، ممن كانوا معارضين بكل شدة لأي تغيير للوضع الراهن، نكص حزب الإفروشيرازي علي عقبيه، وعاد إلي قوقعته الأصلية المضادة لأي تقدم سياسي، بذريعة العرق.

وحينما وصل **المؤتمر الدستوري الأول** في لندن، إلي طريق مسدود، في ربيع عام 1962 عرض **ائتلاف الحزب الوطني الزنجباري وحزب أبناء بيمبا وزنجبار** علي المعارضة شغل كافة

الحقائب الوزارية الجديدة الأربع، التي تقرر إضافتها للخمس الموجودة من قبل، من أجل **الدخول إلي مرحلة الحكم الذاتي الداخلي، بائتلاف موسع**،. وبالإضافة إلي ذلك، أعطى الائتلاف للحزب الإفروشيرازي **حق النقض** باشتراط صدور كافة قرارات مجلس الوزراء بالإجماع.

ومعنى ذلك أن سلطة حزب الإفروشيرازي ستكون مكافئة لسلطة الحزب الحزب الوطني الزنجباري وحزب أبناء بيمبا وزنجبار في الحكومة. وبعد مداولات استمرت **ليلة كاملة** رفض الحزب الإفروشيرازي هذا العرض السخي بالمطلق، وإن كان كرومي قد صدر رفضه له بالتسليم بأنه عرض "**معقول**" والسبب الوحيد الذي رفض لأجله تشكيل حكومة وحدة وطنية، هو بنص كلماته: "**لانريد أن نربط أنفسنا بكم**".

وبينما كانت مثل تلك الجهود الرامية إلي تأسيس الوحدة الوطنية تبذل، كان **بابو** آنئذ، أمينا عاما للحزب الوطني الزنجباري، ومراقبا رسميا في المؤتمر، ويشارك في كل المداولات مع الوزراء إلا أنه كان **يعمل في الخفاء** ضد كافة **محاولات المصالحة**. وكما تبين لنا فيما بعد، فإنه جمع بعض من كان بلندن من أبناء زنجبار في هايد بارك، وعرض عليهم صورا لجثث ممثل بها لأناس قتلهم متظاهرون ينتمون إلي حزب الإفروشيرازي خلال اضطرابات يونيو 1961، وعلق عليها علي نحو درامي، قائلا: "**هؤلاء هم ضحايا حزب الإفروشيرازي. والآن يريد علي محسن منا أن نضع أيدينا في يد أولئك السفاحين قتلة إخوتنا وأخواتنا في الأمس القريب**".

وتم الكشف أيضا، والتأكيد علانية مرارا في مؤتمرات شعبية، علي لسان كارومي، وثابت كومبو، أنه بينما عرض ممثلي حزب الإفروشيرازي التداول بشأن مقترحاتنا حتى صباح اليوم التالي، فإنهم اتصلوا هاتفيا **بنيريري**، وهو الذي أصدر إليهم تعليمات **بعدم الموافقة علي تشكيل حكومة ائتلافية** معنا. وبعد الثورة أعرب قادة حزب الإفروشيرازي مرارا عن امتنانهم لنيريري علي ما أسموه " **إنقاذه لهم من أخطار المشاركة في حكومة وحدة وطنية**"

هذه هي **الحقائق، وهي قابلة للبرهنة عليها**. ومع ذلك فإن، شخصا مثل: **س. ج. آياني** يكتب مجرد ترهات شخصية، ثم يسميها" **تاريخ زنجبار**"، مدعيا عكس تلك الحقائق. فهو يقول في كتابه المذكور:" **بعد فشل مؤتمر 1962، عرض حزب الإفروشيرازي المشاركة في حكومة ائتلافية مع الحزب الوطني الزنجباري وحزب أبناء بيمبا وزنجبار. ولكن شامتي رفض العرض وطلب أن يحل الحزب نفسه كشرط مسبق**".

ولا أعرف من أين يأتي مثل هؤلاء الكتاب، بمثل تلك المعلومات، ولا أعتقد أن حزب الإفروشيرازي نفسه يمكن أن ينسج مثل تلك الأوهام.

ومن **التهم التي تتردد وتحتاج إلي دحض**، الزعم بأن حكومة الحزب الوطني الزنجباري، وحزب أبناء بيمبا وزنجبار الجديدة التي تشكلت بعد الاستقلال" وافقت علي **قانونين قمعيين** لتمنح نفسها سلطة **حظر أي حزب سياسي**، ولتحظر **أية صحيفة** ترى أنها قد تكون خطرة أو مسببة للمتاعب".

وتشير تلك المقولة علي ما يبدو إلي **قانوني تسجيل الجمعيات والباعة المتجولين**، الذين عارضتهما المعارضة بقوة. والحقيقة أن تلك الحكومة لم تصدر أي قانون يتضمن أدنى انتهاك لميثاق حقوق الإنسان المترسخ في دستورنا، وكل ما صدر من قوانين في عهدها يتمشى مع التشريعات المماثلة في بقية أرجاء مجموعة الكومنولث عامة، وفي بلدان شرق إفريقيا: كينيا وأوغندا وتنجانيقا، بوجه خاص.

ويقول بابو: " أثبتت الحكومة كذلك أنها لاتنوي استعادة العدالة وإقامة نظام حكم ديموقراطي، رغم أن هذين الهدفين يتصدران الأهداف الرئيسة لنضال الشعب ضد الاستعمار. وبدل أن تحرر الحكومة الجديدة الشعب من أسر العبودية الاستعمارية، فرضت عبوديتها علي الشعب ووسعت نطاقها".

ومن العجب، أن الكلمات سالفة الذكر ليست إشارة إلي "**الحكومة االثورية**"الذي كان هو واحدا من كبار قادتها، وإنما هي إشارة إلي **الحكومة المشكلة بانتخابات ديموقراطية**، والتي مارست مهامها مدة شهر واحد، وكان هو من ساهم في الإطاحة بها، **بقتل جماعي وبأعمال اغتصاب وسلب ونهب غير مسبوقة في تاريخ زنجبار**.

ويحق لنا أن نطرق **ثلة من الأسئلة الوثيقة** الصلة بهذا الأمر في هذا المقام. **ما هو شكل العدالة** المستعادة التي أقامتها حكومة بابو وكارومي ؟ **وأي حكم ديموقراطي** أسسته تلك الحكومة؟ **وما هو التحسن** الاجتماعي والتربوي والصحي والاقتصادي الذي تم إنجازه في زنجبار ما بعد الثورة، حيث تبنى المجلس الثوري "برنامج الحد الأدنى الخاص بحزب الأمة بحذافيره"؟

ومن الجدير بالذكر أن **لجنة خاصة معينة شكلت من عشرة من تنجانيقا وعشرة من زنجبار برئاسة قاضي القضاة التنزاني**، تعرف بلجنة **نيالالي**، لم تشر إلي أي من القانونين اللذين يلمح بابو إلي صدورهما في عهد حكومتنا، وينعتهما بابو بالقمعيين، ضمن قائمة سوداء **ضمت أربعين قانونا قمعيا تنزانيا**" وردت بتقريرها.

ومن الواضح أن تلك اللجنة لم تصنف أيا من القوانين التي سنت في عهد حكومتنا، ضمن القوانين القمعية أو الجائرة. فكافة القوانين الأربعين الواردة بالقائمة السوداء صدرت في عهد حكومات **حزب الاتحاد الوطني الأفريقي التنجانيقي (تانو) وحزب الإفروشيرازي، وحزب الأمة**[4]، **التي لعب بابو نفسه فيها دورا بارزا.**

وتختتم هذه المجموعة من التصويبات لاتهامات لا أساس لها بالإشارة إلي اعتقاد شعبي خاطئ مفاده أن **الأفارقة فقط** في زنجبار هم الذين " **يسحبون الماء ويقطعون الحطب**" وأن **العرب يتسودون علي بقية الشعب**. وهذا تعميم عار عن الصحة ولا قيمة له. فلقد كان العرب من عمان ومن اليمن يقومون بمختلف الأعمال اليدوية الشاقة.

فعملية **تجفيف لب جوز الهند** التي هي مهمة مضنية ومقترنة بالكثير من **الكد كانت شبه قاصرة علي العرب**. والحوانيت

---

[4] حزب الأمة هو الحزب الذي أسسه بابو بعد انشقاقه من الحزب الوطني واتخذ من الماركسية خطا له. وعرف أتباعه بـ"الرفاق".

الصغيرة في القرى كان يديرها العربي تساعده زوجته في تشغيله. وتبيع تلك الحوانيت المواد الأساسية من أرز وسكر وملح وثقاب وكيروسين، بوصفها من الأساسيات بالنسبة للقرويين. وكان العرب يبيعون القهوة في الشوارع.

والحق أنه حتى أوائل ثلاثينيات القرن العشرين كانت مثل تلك الأعمال اليدوية الشاقة، وكذا حمل المياه إلي المنازل في صفائح بسعة أربعة جالونات، قبل توصيل أنابيب المياه إلي البيوت، وقطع الحطب مهاما يقوم بها **العرب، ولا أحد غيرهم**. ولم يحتقر العربي أي عمل، إلي أن بدأ تدفق الأفارقة من البر الإفريقي إلي مدينة زنجبار مع إنشاء ميناء ماليندي في الثلاثينيات.

وكان من عادة الإفريقي الزنجباري المقيم بالمناطق الريفية أن **يحتقر كافة الوظائف اليدوية المتوفرة في المدينة**. كانوا يرعون مزارعهم. وفي موسم جني القرنفل يعملون بالأجر في مزارع غيرهم. وحل المهاجر الإفريقي الذي استقدمته شركة "الشحن البحري" البريطانية في الثلاثينات من الداخل الإفريقي، محل العامل العربي بالمدينة.

ومن جهة أخرى، فإن من اكتسبوا الهوية الزنجبارية من المنحدرين من أصلاب هؤلاء المهاجرين النازحين من البر الإفريقي، ممن جلبتهم الإدارة الاستعمارية بعد عام 1897 حين آلت **مزارع الأسرة المالكة إلي الإدارة الزراعية، كانوا لا يستسيغون العمل كعمال بالمدينة**. وفي الريف، كان العرب والأفارقة **صنوان** في كل الأنشطة الزراعية. أما فيما بعد، اعتبارا من خمسينيات القرن العشرين فصاعدا، ومع اليقظة السياسية، فقد بدأ أبناء الريف عامة والشيرازيون خاصة يطالبون بنصيبهم من

عملهم المربح كحمالين بالأسواق، وأرصفة الشحن البحري. ولكنهم وجدوا تلك الساحة موصدة أمامهم، بسبب هيمنة المهاجرين من البر الإفريقي على نقابة العمال بالمدينة. وأدى ذلك إلي تعميق النزعة الوطنية في قلوب الزنجباريين.

أما **وظائف الكتبة** فكانت بيد الهنود. وكان المتاح للعرب والأفارقة هو **التدريس والعمل بالإدارة المحلية** التي لايصلح لها الهنود عادة لأسباب لغوية وثقافية.

وحتى الخمسينيات لم يكن بين **موظفي إدارة الجمارك** غير **اثنين** من غير الهنود، أحدهم ابن عمي **علي عبد الله**، والثاني صديقي **عبدالله عامر سليمان**. والأخير إفريقي انتهي به المطاف إلي العمل رئيسا لتحرير صحيفة سواحيلية تسمى: "موانجازا" أي: "**النور**". وشغل **زنجباري جواني** يدعى: **وولفجانج دورادو**، منصب وكيل أول، في وزارتي. كما كانت سكرتيرتي الخاصة سيدة **زنجبارية من جوا** تدعى **كلارا ديسوزا**.

وأتذكر وانا ابن عشر سنين أن ابن عمي **محمد عيسى البرواني** ربما كان هو **الكاتب الوحيد غير الهندي في جهاز الخدمة المدنية كله**. إلا أن الأمور كانت تتغير **بسرعة وبشكل سلمي ومتحضر**، مع التوسع في التعليم، والتزام الحزب الوطني الزنجباري وحزب أبناء بيمبا وزنجبار بإزالة كافة أسباب الصراع العرقي. وتشكلت تحالفاتنا الحزبية وحكومتنا من كل الطوائف، مع غلبة الأفارقة. وكان **رئيس وزرائنا** أفريقيا، كما كان **رئيسا حزبينا** المتحالفين إفريقيين. وكانت حقيقة أن معظم الزنجباريين مختلطو الأعراق تنبئ بمستقبل زاهر. وكان النشاز الوحيد هو **الغرس المتعمد لأفكار غريبة يراد بها التشويش وزرع الكراهية**.

الفصل الثامن

التعليم[1]

أولا: الانفتاح والمنهجية روح التعليم والتعلم

في ضاحية الباغ التي تربيت بها، كانت لدينا **مدرسة قرآنية صغيرة**، يتحلق فيها قرابة **عشرين طفل وطفلة** علي حصير أمام المعلم **حسين** يعلمنا القراءة والكتابة باللغة العربية استنادا إلي **كتيب أولي صغير** يستخدم في الكتاتيب في كثير من مناطق العالم الإسلامي، يسمى: **القاعدة البغدادية**. وقد يحتاج الطفل، حسب درجة ذكائه، إلي **عام أو أكثر** لمعرفة القراءة والكتابة بتلك اللغة العربية، التي ستمكنه من قراءة القرآن من أول سوره فيه **(الفاتحة)** إلي آخر سورة فيه **(الناس)**. وحين يقرأ الطفل القرآن كله، يقال أنه ختم القرآن الكريم.

ولا يتوقع من مثل ذلك **التلميذ** أن يفهم معنى ما يقرأ. بل حتى **المعلم نفسه قد لا يعرف في معظم الأحيان معاني ما يقرأ من**

---

[1] يقدم هذ الفصل تجربة مليئة بالدروس المستفادة في عملية التعليم والتعلم. ونحن فيه أمام تلميذ يعرف كل من درسوا له من بداية مشواره العلمي، إلى نهايته، (وهي مسألة باتت نادرة في زماننا)، ويزن أساتذته بمدى موسوعيتهم، وانفتاحهم. ويبين أن **المنهجية** هي روح الإنجاز التدريسي، وبها كان تحصيله اللغة الإنجليزية، أيسر منالا من تحصيله اللغة العربية. كما يبين أن **التعليم والتعلم ممكنان** في كل مكان حتى في غياهب السجن، وأن الطريق لنشر الإسلام هو الاستنارة المنفتحة على ما لدي الغير، والقادرة على الفرز والتميز، والتمييز بين جوهر الأصل المسيحي والتلاعب الكنسي به. ويوضح هذا الفصل بجلاء أن بناء الأمة هو المطلوب الأول لاستئصال الاستبداد والاستعمار، وأن الاستعمار والاستبداد معا يراهنان على تجذير الطائفية واستدامتها بكل السبل. المترجم

القرآن. إلا أنه مع توفر ترجمات لمعاني القرآن باللغة السواحيلية، بات بإمكان معلم القرآن أن يفهم ما يقرأ، وبإمكان التلميذ لما يكبر ويعرف الأبجدية اللاتينية التي تكتب بها الترجمة السواحيلية الآن، أن يلم بمعاني القرآن.

و كان من حسن حظي في الفترة التي أمضيتها **كسجين لنيريري في تنجانيقا** عامة، وفي سجن بوكوبا، علي بحيرة فيكتوريا، بصحبة **مولد مشنجاما** وزير التربية السابق، بوجه خاص، أننا كنا معتقلين في مجمع مع ما يزيد عن **مائة آدمي آخر محبوسين احتياطيا بانتظار محاكمتهم**. وأمضيت هناك قرابة **ثلاثة أعوام**. فعبر التواصل معهم، اعتنق **أربعة وثمانون** منهم الإسلام بإرادتهم الحرة، من بينهم أربعة كانوا وثنيين أي لادين محدد لهم و**أربعين كاثوليكيا، وأربعين بروتستانتيا**، ولا يرجع قرارهم التحول إلي الإسلام إلي مواعظ مني أو من مولد، **بل إلي معايشتهم لنا في الأسر**. حقيقة أنهم كانوا يثيرون أسئلة بعد تلقي مواعظ من رجال الدين المسيحيين. عندها تسنح الفرصة لنا لبيان الحقيقة من **الإنجيل ومن القرآن**.

وعبر مناقشة تلك النقاط والأدلة الواردة بالوحي المنزل، يصلون إلي إجابة علي تساؤلاتهم، وتزول أسباب حيرتهم. وليتمكن إخواني الجدد من قراءة القرآن الكريم كما أنزل، كان لزاما علي أن أفكر في طريقة سريعة لتعليمهم القراءة باللغة العربية، لكونهم محبوسين بشكل احتياطي. وقد يطلق سراحهم بعد فترة وجيزة.

ويسعدني القول بأنني استطعت بالطريقة التي ابتكرتها أن أعلم واحدا أو اثنين من أكثرهم ذكاء **قراءة القرآن** في غضون **أربعة أو خمسة أيام**. أما أدناهم ذكاء فاستطاعوا قراءة القرآن في مدة لم

تتجاوز **ثلاثة أسابيع**. ونشرت **كتيبا** حول تلك الطريقة بالسواحيلية بعنوان " **علم نفسك العربية في ثلاثة أسابيع**"

وتحضرني هنا حكاية شخص يسمى **براروجا**، كان يرقد مريضا في أحد عنابر السجن، حين أنصت من سرير مرضه، لموعظة كنت ألقيها علي إخواني المسلمين بعد الصلاة. اهتم الرجل بما سمعه، وقال لإخوانه أنه يغبطهم علي سماع مثل هذا الحديث مني. وأضاف: **إنها نصيحة جيدة**". ثم جائني طالبا الاطلاع علي مذكرتي الموسومة " **علم نفسك اللغة العربية**"، فأعطيتها له. ومن حين لآخر كان يأتي ويسأل عن النطق الصحيح لبعض الحروف. ثم أطلق سراحه، ثم رأيته بعد عدة أشهر في السجن مرة أخرى. أعادوا اعتقاله. وكان هذا أمرا معتادا لأتفه الأسباب. ففي تنزانيا تدخل نسبة كبيرة من السكان السجن لفترة تطول أو تقصر. وحينما كنا كمسلمين في السجن نحتفل بالمولد النبوي، جاء الدور علي براروجا للقراءة من كتاب عن السيرة النبوية باللغة العربية. وأدهشني سماع ذلك الشاب المنتمي لقبيلة الهايا، وهو **يرتل بالعربية بالتزام كامل بأحكامها** كما لو كان مسلما، منذ أن ولد، وتدرب علي القراءة والإلقاء بها.

ولما كان **طلابي يستطيعون كتابة السواحيلية بالحروف العربية**، فإن التواصل بيننا استمر بعد مغادرة سجن بوكوبا بالإفراج، أو بالنقل إلي سجن آخر. وكان مسؤولو السجن الذين لا يعرفون العربية يسمحون بمرور رسائلنا، معلنين فحسب، أنها "**قرآن**"اعتقادا منهم أنها ليست إلا نوعا من الأدعية الإسلامية.

وفي أيام **الآحاد** كانت السجون في كل أرجاء تنزانيا بما فيها زنجبار تستقبل فيضا من **المبشرين المسيحيين**، من الأساقفة،

ومن غير رجال الدين، وبصحبة الأكورديون والجيتار، وغيرهما من الأدوات الموسيقية، يعظ هؤلاء السجناء، ويدعونهم إلي التوبة. واعتدت حضور الكثير من اللقاءات المسيحية. ويؤسفني القول بأنني وجدت أنه **ليس لديهم غير موضوع واحد: "آمنوا بأن المسيح مات من أجلكم، وستخلصون".**

وحينما كنت في سجن دودوما، طلبت من حارس مسيحي شديد التمسك بدينه، أن يطلب من **مبشر بروتستانتي استرالي**، أن يتفضل ويعلمني **الكتاب المقدس**. وكنت تواقا للحصول علي نسخة من الكتاب المقدس وإحياء اهتمامي به.

فلقد درست **الأديان المقارنة**، وأنا طالب بالجامعة. واعتدت علي حضور **مواعظ بالكنيسة**. ولم أغب أبدا عن أية موعظة ألقاها مبشر أجنبي زار كليتنا. ومن هنا فإنني فكرت في سجن دودوما **في إحياء دراستي للكتاب المقدس والتوسع فيها.**

هذه هي الكيفية التي جاء بها *كنجسلي جرين* وهو **أستاذ أحياء** استرالي بمدرسة **مازنجو الثانوية**، إلي السجن ليعلمني الكتاب المقدس. وتوطدت الصداقة بيننا. فكل منا **صاحب دين، ويسعى لمعرفة رؤى الآخر وفهمها.**

وأدركت عبر ما درسه لي أن الكتاب المقدس ينبع من ذات المشكاة التي جاء منها القرآن، وأن الصلة جد وثيقة بينهما، فيما لو أزيلت الخيالات والإضافات الواضحة الدخيلة علي فهم الكتاب المقدس. وقلت له أن القاسم المشترك كبير بين المسيحية والإسلام، فيما لو استبعدنا فحسب **أسطورة أن المسيح ابن الله، وقصة قتله علي الصليب.** فسألني بتواضع يرثى له: **"ماذا يتبقى**

في المسيحية إن حذفنا منها صلب المسيح؟ إن صلب المسيح هو لب المسيحية. والصلب هو أصل الصليب الذي نحمله. ولو أنك حذفت الصليب، ماذا يتبقى؟ مواعظ قليلة علي الجبل، وبضع معجزات؟"

انتابني إحساس بالأسى العميق علي صديقي، لأنني أحببته بحق. فلقد كان شخصا رائعا، وفي غاية الأمانة والإخلاص. وأحسست أنه أحبني ورق لحالي وحال إخواني من المسجونين. قلت لرفيقي **سالم كومبو** بعد أن غادر الرجل السجن: **"أحس بأسى بالغ علي صديقي. هل إيمانه كله مختزل في قطعة خشب؟ هل لا تعني حياة المسيح شيئا بالنسبة له؟ هل كل تعاليمه عن الحب والعمل الخيري والأخوة والسلام يستهان بها وتوصف بأنها "قليل من المواعظ علي الجبل"، وأنه لزام علي من يتبعه أن يؤمن بأنه مات علي الصليب إرضاء لرب غضبان تكفيرا عن خطيئة إسطورية ارتكبها بعض الأسلاف في الماضي السحيق؟"**

وأيا كان الأمر، فإن كنجسلي جرين استمتع بمناقشاتنا معه، واستمتعنا بزياراته واستفدنا منها. كنا آنذاك ثلاثة في سجن دودوما، **اثنان** زنجباريان، و**الثالث** هو جيمس ماكوني، وهو مناضل من أجل الحرية من زمبابوي ، أصابه الملل من وجوده بلا أي جدوى في أحد المعسكرات التنزانية، فحاول الهرب والعودة إلي بلاده، فألقى القبض عليه، وجيئ به إلي السجن ليمكث معنا فيه إلي أجل غير مسمى. وكان ذلك الرجل كاثوليكيا، ولكن تحمسه لدينه غير شديد، ومعرفته بالمسيحية سطحية.

وفي فترة وجيزة أصبح **كنجسلي جرين** أكثر اهتماما بالكلام في السياسة معنا، عن تزويدنا بعظات إنجيلية. وكان يبقي الكتاب المقدس مفتوحا لاحتمال مرور أحد حراس السجن. أما الموضوع الذي كنا نناقشه معا معظم الوقت فهو: **الطريقة الممقوتة التي يدير نيريري بها البلاد.**

وذات يوم جاء كنجسلي جرين وبصحبته قسيس بروتستانتي مسن هو والد **جوب لوسيندي** الذي كان آنذاك **وزيرا للداخلية**. حثنا ذلك القس العجوز علي أن نحمل "*صليبنا*" و"**تصبر**". وقال أننا " **قد لا نعي ذنوبنا، ولكننا بالقطع لا نعاني بلا جريرة. فمن المؤكد أننا ارتكبنا ذنبا نعاقب عليه**". كان من شيمتي الصبر علي كل شئ، وتحملت السجن سنوات دون شكوى. ولكنني لم أستطع أن أتحمل أن يعظني علي هذا النحو، من بوسعه أن يعظ الطاغية بإنجيله. فاشتطت غضبا.

قلت له: "أيها القس: أولي بك أن تعظ الطاغية بالرحمة والعدل، عن أن تعظ ضحاياه بالصبر. إن حمل الصليب سهل بالنسبة لمن لا خيار آخر أمامه إلا حمله. ولكن الطاغية أمامه خيار آخر. وأعتقد أن من واجب رجال الدين أن يعظوا المستبدين، وليس ضحايا الاستبداد"

التزم كنجسلي جرين الصمت. وقال حين زارني في المرة التالية علي هذا الموقف: " لقد عاملت صاحبي العجوز بقسوة. وكنت قد جئت به إلي هنا خصيصا ليرى حالتك بنفسه، علي أمل أن يناقش قضيتك مع ابنه".

وأعتقد، وإن كنت علي غير يقين كامل، أن كنجسلي جرين، **نقل قضيتنا إلي مسؤولين في بلاده.** فبعد عدة أشهر نما إلي علمنا أن حزب **المعارضة الاسترالي** رفض حضور فعالية أقيمت تكريما **لنيريري** أثناء زيارة قام بها لاستراليا، مبررين ذلك حسب قولهم بأن حضورهم " **يرقى إلي مصاف التسامح مع ما كان يجري في جنوب إفريقيا. فسجل نيريري فيما يتعلق بالتنكر لحقوق الإنسان ليس أفضل من سجل نظام الحكم القائم في جنوب إفريقيا**".

وبعد ذلك بفترة وجيزة زارنا طبيب ألماني، وانتهز تلك الفرصة ليهمس في أذني بقوله: " سيتم إطلاق سراحك في القريب العاجل. ألم تسمع بالمعاملة المهينة التي قوبل بها نيريري في استراليا؟".

وحينما اختارتني منظمة العفو الدولية "**سجين العام**" وتلقيت فيضا من بطاقات التضامن بمناسبة عيد الميلاد من كل أرجاء العالم، كان العدد الأكبر من تلك **البطاقات من استراليا**. وهو مؤشر آخر علي أن **لكنجسلي جرين** يد في هذه التطورات. ومن حسن الحظ أن تزامن ذلك مع هجمات وجهتها إذاعة **زنجبار الحرة السرية، ضد نيريري**. وكان لها تأثير درامي من البداية. كان لدي راديو ترانزستور بالسجن أرسله إلي صديق عزيز من دارالسلام، هو **ماجد يحيى الكندي**. وقال لي أحد حراس السجن أن هناك إذاعة سرية تهاجم **المعلم** (اللقب الشعبي لنيريري) بضراوة، تبث إرسالها عقب نشرة المساء من دارالسلام علي نفس الموجة. وأضاف الحارس أنهم سمعوها علي مقهي في مدينة دودوما، ولكن مالكها العربي خاف، فأوصد المذياع.

كانت هذه هي الطريقة التي عرفنا بها كيف نحدد موجة إرسال تلك المحطة. واعتاد **حراس السجن** بعد ذلك علي التجمع بجوار نافذة زنزانتي ليستمعوا بنهم للهجمات التي تبثها "**إذاعة زنجبار الحرة**" بصوت شاب وشابة يفضحان سياسة نيريري وأفاعيله، بدءا بالغزو غير المشروع لزنجبار، والمذبحة التي راح ضحيتها ألوف المواطنين الأبرياء، وصولا إلي الملاحقات المستمرة لقادتها وسجنهم، مع ذكرنا بالإسم.

وكان إرسالها بمثابة البلسم الشافي لقلوبنا المكلومة. وبعد تلك التطورات بشهور معدودات، تم إطلاق سراحنا. وتوقفت تلك الإذاعة عن البث لسبب غير معروف. وعلي كل فلقد أدت مهمتها الآنية، وأعطت درسا في **السياسة لشعب تنزانيا**. وسيأتي اليوم، فيما اتعشم، الذي يمكننا فيه الكشف بكل الفخر عن أسماء رجال ونساء شجعان، شاركوا بسرية كاملة وبتعريض أنفسهم لخطر كبير في أعمال "إذاعة زنجبار الحرة".

وبالعودة إلي **طفولتي**، أذكر أن **فصل تحفيظ القرآن في الباغ** كان **يتوقف فجأة**، شأنه شأن كثير من الأنشطة الأخرى، حينما يحين موسم جني **القرنفل**. فمعلمنا كان يرى أن الذهاب إلي بيمبا لجني القرنفل أربح له من تعليم أطفال صغار **تلاوة القرآن، مقابل روبية عن كل طفل كل شهر**. ويؤدي ذلك إلي تفرق جمعنا. وتتولي خالتي الفاضلة **شنونة بنت راشد**، أو سيدة ماهوندا[2] كما كنا نناديها من باب الإجلال، تلك المهمة الشاقة الخاصة

---

[2] لقد جرى العرف في زنجبار من باب الإحترام بكنية الرجل أو المرأة باسم منطقة الإقامة أو أشهر ملكيات الشخص تلافيا لذكر اسم الشخص المباشر.

بمواصلة تعليمي **أنا** وأختي الكبرى **علياء**، وحفيدها **عامر** رفيقي في اللعب. وبإشرافها الرائع استطعت في فترة وجيزة أن **أختم القرآن**. وعندها صرت مؤهلا لدخول **المدرسة العلمانية**.

وكان أول يوم بتلك المدرسة مشهودا، لأنني **اختلطت بأطفال من أحياء المدينة الأخرى**. فحتى ذلك الحين كانت دائرة معارفي قاصرة علي أقاربي وجيراني، الذين هم مهما كان انفتاحهم، من نفس المحلة. أما الآن فقد صرت علي وصال حميم مع رفاق من ذات سني من ماليندي، ومكونازيني، وفيكوكوتوني، وكيكواجوني، وميشنزاني، علي سبيل المثال لا الحصر. وعندها عرفت أن **اللهجة السواحيلية الزنجبارية أكثر تنوعا مما كنت أعتقد من قبل**.

وأدركت أن للهجة الباغ مسحة من لهجة لامو بتأثير الشيخ **عبد الله باكثير** معلم والدي. وعرفت مكانة والدي كعالم مرموق، عقدت له الريادة في حينا.

و ألمت بعائلتنا كارثة مالية، حينما كنت في المستوى الأول، أو **الروضة** كما كانو يسمونها آنذاك، حتمت علينا الرحيل فترة من الزمن إلي قرية بوبوبو التي تبعد أحد عشرة كيلومتر عن المدينة، فوالدي كان بحاجة إلي الهدوء والراحة.

وهناك واصلت **تعليمي الأولي** في مدرسة المعلم **هنري** الأفريقي المسيحي المحتوية علي فصل واحد، والمبنية من الطين والمعروشة بالخشب والسعف. وعند عودتنا إلي المدينة بعد عام، وجدت زملائي قد انتقلوا إلي صف أعلي. ولم يكن لدى أي فكرة عن **الامتحانات والنجاح أو الرسوب**. وكنت أعتقد أن الانتقال من

صف إلي صف أعلي يتقرر **بعامل واحد هو السن**. وأحسست بشئ من المرارة من الانتظام في فصلي مع زملاء جدد يصغرونني بعام. إلا أن أستاذي المعلم **محمد أبو بكر** جاء ذات يوم بصحبة ناظر المدرسة، وأوصى بنقلي إلي الصف الثاني، أو ما كان يسمى حينئذ: **الكتاب الأول**. وشعرت بالراحة وسط زملائي القدامى.

والحق أنني لم يكن لدي، حتى وصولي للصف الرابع أدنى فكرة عن الامتحانات، والعوامل التي بها يتقرر النقل من صف إلي آخر. رأيت إسمي في **قوائم الناجحين**. وقال لي زملائي أنني حصلت علي **الترتيب الثالث** أو نحو ذلك. وحينما دخلت الحصة التالية، سألني المدرس عن ترتيبي بين الناجحين. قلت: لا أعرف. رد زملائي: **الثالث**. عندها فقط استطعت أن أفهم معنى مراتب النجاح. ومع ذلك، لم أجتهد للحصول علي المركز الأول إلا في الصف الخامس. ومن ذلك الحين حتى نهاية تعليمي تبوأت المركز الأول علي الفصل، وفي كل المواد. ومن حينها بدأت أتعلم اللغة الإنجليزية. وأول من علمها لي هو الأستاذ **يحيى علوي** وهو واحد من أفضل تلاميذ هولنجزويرث.

وكان مقرر الإنجليزي، في ذالك الوقت، في أوائل الثلاثينيات مؤسس علي سلسلة كتاب **(نيو ميثود ريدرز)** لمايكل وست، وهي سلسلة تم تكييفها جيدا لتعليم الإنجليزية للدارسين الأجانب، وحظيت بالقبول في زنجبار ومصر والهند. وتدعمت تلك السلسلة بكل معنى الكلمة، بمنظومة كتب وموضوعات تعبير وقواميس. وتضمنت تلك المنظومة **روائع أدبية** من الطراز الأول، تم تكييفها لتتلائم مع المعايير المطلوبة. ومن ثم تعرفنا من سن مبكر علي

جواهر مثل: **آيفنهو** لوالتر اسكوت، و**كاهن ويكفيلد** لأوليفر جولدسميث، **وبلد الكفيف** لـ: هـ. ج. ويلز، و**أشعار** ميلتون ووردسويرث.

وفي مدرستنا كان **التعليم الأولي يستمر أربعة أعوام**، نتعلم فيها اللغة العربية، ولغة التدريس هي السواحيلية، ثم **أربع سنوات تعليم ابتدائي** ندرس فيها اللغة الإنجليزية كلغة ثانية أيضا. ورغم تحقيقنا تقدما مناسبا في اللغة الإنجليزية، فإن تحصيلنا للعربية لم يكن علي **مايرام رغم ألمعية من يدرسونها لنا**.

وسر ذلك هو أنه لم تكن هناك **سلسلة منهجية منظومة لتعليم العربية**، ولا استمرارية منهجية لتلك العملية، بعكس الحال بالنسبة للغة الإنجليزية. فكان التقدم والمنهج يعتمدان كليا علي اجتهاد مدرسين أفراد. وفي البداية درس لنا مدرسان متمكنان وملتزمان هما: الشيخ **برهان محمد المكلا** وهو كاتب وشاعر ضليع، والشيخ **عبد الرحمن محمد الكندي**، وهو أيضا شاعر من الطراز الأول. إلا انهما وغيرهما من أمثال الشيخ **عبد الله الحضرمي** ، والشيخ **عبد الله صالح الفارسي** ، والشيخ **أحمد زهران اليرامي** لم يستطيعوا إنجاز تقدم يذكر لعدم وجود منهج معين أو توصيف لموضوعات المقرر، أو سلسلة كتب مدرسية محددة.

وفي السنوات الأولي من تعليمي أتيحت لي فرصة الدراسة لفترة وجيزة علي يد الشيخ المصري **عبد الباري العجيزي**، في العام السابق علي وصوله سن التقاعد، وإليه يرجع الفضل **في إدخال علم تجويد القرآن وفن الخط العربي إلي زنجبار**، واستفاد منه بالقطع من حالفهم الحظ ودرسوا علي يديه في شبابه. أما نحن فتتلمذنا عليه في نهاية مشواره بعد أن وهن نشاطه، وضمرت

حيويته. إلا أن من مزاياه هو والشيخ **عبد الرحمن الكندي** أن طلبتهما كانوا يتدربون طول الوقت علي السماع والتحدث بالعربية **لضحالة حظ هذين الشيخين من اللغة السواحيلية.**

كان الشيخ **يحيى علوي** شابا يافعا حينما شرع في تدريسي أول كتاب في اللغة الإنجليزية، إذ أنني بدأت مشوار دراسة تلك اللغة التي فتحت لي آفاق المعرفة الإنسانية في الصف الخامس، وأسعدني الحظ أن أتتلمذ علي يد مدرس بوزن يحيى علوي، الذي كان ينطق الإنجليزية وكأنها لغته الأم. وكان هو أيضا رائد فرقة الكشافة الثالثة. درس فيما بعد عدة سنوات في انجلترا بالتعليم العالي مع صديقه **توماس ماريالي** زعيم قبائل التشاجا ذلك المثقف المهذب منقطع النظير.

وأنهي الشيخ يحيى حياته الوظيفية وهو يشغل منصب السكرتير الأول لوزارة الأشغال مع المحرقة الجماعية التي نكبت بها زنجبار عام 1964. وزج به في السجن، رغم أنه لم **يهتم أبدا طوال حياته بالعمل السياسي الحزبي**، ولم يحابي أحدا، وأعطى كل ذي حق حقه. وبعد إطلاق سراحه ذهب إلي عدن ومكث فيها حينا من الزمن، ثم رحل إلي انجلترا واستقر به المقام من حينها في **بورتسماوث**. ولتلك المدينة ذاتها لجأ عدد من الزنجباريين، من بينهم **السيد جمشيد** سلطان زنجبار حيث عاشوا بها بسلام وربوا أطفالهم وأحفادهم في بيئة متحضرة آمنة وهادئة، وحصلوا جميعا بعد مرور **خمس سنوات علي الجنسية البريطانية والمواطنة البريطانية** الكاملة. والحق أن هذا هو التقليد المعتاد لكل اللاجئين الزنجباريين في كافة الدول الغربية، مثل ألمانيا والدول الإسكندنافية.

وفي الصف الدراسي السادس (**الثاني ابتدائي**)، درسنا الإنجليزية علي يد معلم دؤوب هو الشيخ **هلال بن محمد البرواني**[3]. في عام 1931 كان مدرسي. وبعد عشر سنوات أصبحت زميلا له في التدريس في مدرسة دول. أكبرت فيه شيئا واحدا هو أنه كان **يحضر لكل درس تحضيرا مكتوبا مفصلا**، ولا يعتبر أنه ليس بحاجة إلي إعداد بما أنه يدرس نفس المادة مرارا أعواما متطاولة. والتزم الرجل بهذا التقليد حين عمل لاحقا بالسياسة، فكان يحضر **الخطاب السياسي** الذي يلقيه حول البرنامج السياسي **للحزب الوطني الزنجباري**.

كان بحق معلما منهجيا، لا موضع للغوغائية لديه. كانت مذكراته معه ويحيل عليها علي الدوام. وحين ينهض للتحدث، ينصت الجمع، ويجلس منه مجلس المتعلم من الأستاذ. لا يهيج العواطف، بل يتعلم منه كل من يستمع إليه شيئا مفيدا ملموسا. أعجبت أيضا بأناقته ودقته. وكان لاعب كرة قدم عالم بقواعد اللعبة، ديدنه البساطة وعدم التكلف. ومع أن الرصانة الجادة كانت هي علامته في كل شئ يفعله، فإنه كان صاحب فكاهة لاذعة.

وفي الفصل كان المعلم **هلال** شديد التدقيق في التفاصيل. وكان يعطينا **إملاء بالإنجليزية** مرة كل أسبوع. والقاعدة في التصويب لديه، أن كل خطأ يزيد عن ثلاثة، يتعاطى **فاعله ضربة بالعصا**. كان ذاك عهد **عصا المعلم**. وكان شعار "**دع العصا وافسد**

---

[3] هو هلال بن محمد بن هلال بن عامر البرواني

التلميذ" مطروحا حينها. ولم أتجاوز أبدا حد الأخطاء الثلاثة طيلة تتلمذي علي يدي معلمي هلال.

والحق أنني لم أعاقب في المدرسة لأي سبب باستثناء **التأخير**. فكان من عادتي في البداية أن أحضر متأخرا، واستطعت أن أتخلص من تلك العادة مع تقدم سني. وأحيانا كان **بابا** عوضي العجوز الطيب والعطوف المكلف بدق جرس المدرسة يؤخر دقه بضع ثوان، وينادي علي بصوت عال لأسرع الخطى قائلا: "**اجري ياعلي** "، فأهرول لأدخل المدرسة مع دقات الجرس.

وكنت أقتسم معه مصروفي المدرسي البالغ بيستين (ما يعادل **خمس سنتات**) الذي اعتدت الحصول عليه من أمي كل صباح، وأشتري بالنصف المتبقي برتقالة وبعض الفول السوداني. وكانت تلك العملة نحاسية سكها السلطان **برغش بن سعيد من مدفع استولي عليه من البرتغاليين**. وعلي أحد وجهي تلك العملة نقش **ميزان بكفتين** يرمز للعدالة، وعلي وجهها الثاني كتبت بالعربية، إما كلمة: **زنجبار**، أو عبارة: **برغش بن سعيد حفظه الله**. وكانت تلك التي علي وجهها اسم زنجبار تسمى **بيس** بالمذكر، وتلك التي تحمل العبارة الأخرى تسمى **بايسه** بالمؤنث[4].

وكانت للبيسا الواحدة قيمة **شرائية حقيقية**. فبها يستطيع المرء أن يشتري عدة أصناف من المطعومات، حتى لو زادت عن أربعة، بمجرد الإشارة إلي البقال بأنه يريد بأرباعها قدرا من: البصل،

---

[4] ربما في إشارة لكون الكلمة والعبارة زوجان مترابطان. فزنجبار والسلطان والعدل هما جوهر القيمة – المترجم.

والثوم، والبهارات الهندية، والملح، وأي شئ آخر. ويجيبك البقال بكل أريحية، إلي ما طلبت.

وتضم الروبية **أربعة وستين** بيسة. وتوجد **عملات: نصف** روبية، و**ربع** روبية، و**ثمن** روبية. أما **الثمن** فهو عملة فضية صغيرة لم أرها أبدا إلا مع عمي الشيخ **عيسى بن علي**. كان لديه الكثير منها في خزانته، وكان يعطي واحدة منها إلي كل طفل يزوره لتهنئته في الأعياد. أما بقية أعمامنا، فكانو يعطوننا **روبية كاملة**، فيما لو أرادوا. أما هو فيعطينا ثمن روبية. ومع ذلك كنا نذهب إليه في الأعياد ونهنئه. ولا أعرف من أين أتى بهذه الكمية من تلك العملة النادرة.

ثانيا: مواصلة التعليم

أسعدنا الحظ، في الصف **الثالث الإبتدائي**، العام الثالث من بداية تعلمي اللغة الإنجليزية، بمدرس رائع آخر من ثمار هولنجزويرث، هو الأستاذ **محمد تقي**. وبرعايته واصلت تقدمي الطيب في المعرفة بتلك اللغة. فمن أهم خصال أساتذتنا آنذاك، أنهم كانوا يولوننا **اهتمامهم الشخصي، ويحرصون علي أن نقوم بواجبنا كطلبة علي أحسن وجه ممكن.**

وحرص أساتذتنا **تقي، وهلال، ودارسي** ، علي تجشم متاعب إعطائنا دروسا خصوصية إضافية بعد تلك التي يقدمونها لنا في الحصة المدرسية. وكان أستاذنا في **الصف الرابع الإبتدائي**، الذي بات يعرف لاحقا بالمستوى الثامن، أو الصف الأخير في المرحلة الابتدائية، هو الأستاذ **عبد الله صالح الفارسي والي دارسي** . ولم يكن هذا الأستاذ قد تعلم علي يد هولنجزويرث، ومع ذلك كان

أستاذا بالغ الجودة بكده واجتهاده. فلقد كان يتلقى دروسا خصوصية علي يد أستاذ انجليزي **بإرسالية الجامعة لوسط إفريقيا**، ثم اجتاز مقررا بالمراسلة **من كلية المعلمين بانجلترا**. وصار نتيجة ذلك، مدرسا يشار إليه بالبنان، يوحي نطقه للغة بأنه لم يتعلمها من غير من هي لغتهم الأم إلا لفترة وجيزة. وكان قاموس مفرداته ثريا. ولا يشير مع كل كلمة إلي معناها فحسب، بل إلي أصلها اللاتيني أو الفرنسي أو اليوناني. وبتشجيعه وتحت إشرافه أسسنا، نحن تلاميذه، **مكتبة فصل صغيرة** ضمت نخبة من خيرة الكتب الأدبية الكلاسيكية. وهكذا صرت في العام الثالث لتعلمي الإنجليزي علي معرفة بفحولها من أمثال: **تشارلز ديكنز، وروبرت لويس استيفن، ووالتر سكوت، وشارلز وماري لامب، هـ. ج. ويلز، وريدر هاجرد، ورودياردكبلنج، ونظراؤهم.**

وحينما كنت تلميذه، **عرض إعطاء فصلي كله درسا خصوصيا بمنزله بعد الدوام المدرسي مجانا**. والشرط الوحيد الذي وضعه، أن من يغيب ليوم واحد مهما كان السبب فإنه يطرد بلا رجعة. وكل يوم كان يكلفنا بكتابة **مقالة** في الساعة الأولي، ويصححها في الساعة الثانية. وفي النهاية يعطي الحاصل علي أعلي درجة **كتابا** بصفة جائزة.

ولم يمر وقت طويل قبل أن أصير **أنا التلميذ الوحيد المثابر علي الحضور**. فكل رفاقي حرموا من الحضور لعجزهم لسبب أو لآخر عن الانتظام. وهكذا انفردت بكل اهتمام أستاذي الذي كنت أكتب له مقالا كل يوم. وحتى لو كنت غبيا، فإن المكافأة باتت مضمونة، لكوني الطالب الوحيد المتبقي.

وكانت الجائزة ذات مرة هي كتاب: "**التعويذة**" لسير والتر سكوت، تلك الرواية التاريخية المتعلقة بالمآثر البطولية لصلاح الدين، وريتشارد قلب الأسد إبان الحروب الصليبية. ومما لفت نظري لأهمية هذا الكتاب أنني كنت قد قرأت في تلك الآونة في كتاب آخر أعطاه لي عمي الشيخ **مسعود بن علي**، عنوانه فيما أظن (**الحياة المتفائلة**) وصية تقول: " **انظر لو أصابك الغم، إلي لوحة فنية جميلة، أو اقرأ إحدى روايات سير والتر سكوت**". واستفدت من المران علي يد أستاذي دارسي حين جاءت الحاجة إليه، وأنيط بي إعداد افتتاحية أسبوعية لصحيفة المرشد.

ثالثا: مجموعات العم عيسى بن علي الأثرية

غريب عمي هذا الذي كان يعطي **ثمن بيسة لأولاد أخواته**، والذي صار بموت جدي عميدا لآل البرواني. وهو الذي حمل علي عاتقه جمع أسماء كل من يقتفي له أثر يدل علي انحداره من نسل الجد المشترك للبراونة[5]: **سنان بن عبد الله**. وأثمر جهده هذا عن **شجرة عائلة رائعة**، هي الوحيدة المتاحة في عمان وزنجبار.

وكانت بمتحف زنجبار نسخة من شجرة العائلة تلك. وأول من رسمها هو: **الشيخ عبد الله فرحان**، المعروف بأبي الفن، والذي كان ماهرا في استخدام الألوان المائية. أما **ثاني** من رسمها فهو ابن عمي **محمد بن سليمان**، الذي كان تلميذا وصديقا للأب الفنان. أما **الطبعة الثالثة** من تلك الشجرة فأنتجتها ريشة **حمود**

---

[5] المفرد برواني والجمع براونة

بن علي الحارثي. أما **أحدث طبعاتها** فأنتجها **أحمد بن محمد بن خالد البرواني في عمان.**

ومن الواضح أن **شجرة العائلة البروانية هذه لا تحتوي علي كل أسماء أبناء هذه العشيرة.** فالمدرجة اسماؤهم فيها هم جل من جاءوا في الأصل من **ابرا والقرى المجاورة لها بالمنطقة الشرقية** من عمان. وثمة براونة آخرون في عمان وفي خارج عمان لم يدرجوا بها. فهناك براونة في اليمن التي أتوا منها في أول الأمر، كما يوجد بعضهم في شمال إفريقيا.

وكان لدي عمي الشيخ عيسى مجموعات نادرة من الوثائق والصور والعملات التاريخية، من بينها عملة تعود إلي عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (26-86 هـ - 646-705م) وجدت في زنجبار. ومن المعلومات الثابتة أن هذا الخليفة الأموي، بنى مدينة في زنجبار. ومن المعتقد أن تلك المدينة القديمة بنيت في تومباتو وآثارها باقية حتى اليوم في مكان يسمى ماكوتاني (بمعنى: الجدران) وعبد الملك بن مروان هو أول خليفة مسلم يسك العملة، وينقش عليها بلغة الضاد.

رابعا: السيدة سالمة بنت سعيد

لدي العم عيسى صورة زيتية كبيرة للسيد **ماجد بن سعيد**، وصورة فوتوغرافية صغيرة للسيدة **سالمة بنت سعيد** في زيها العماني. وسالمة هي ابنة السيد سعيد بن سلطان، هربت مع تاجر ألماني، يدعى **رودولف روتي**، وارتدت عن دينها إلي المسيحية، وماتت في أوروبا. وتبين لاحقا من كتاباتها أنها ندمت علي الحماقة التي ارتكبتها. فلم تجد في أوروبا أبدا ما يعوضها عما فقدته في

المجتمع الإسلامي. علي العكس وجدت المرأة تعامل في أوروبا المسيحية معاملة أدنى من تلك التي تحظى بها المرأة في الشرق.

أما عن دينها فقد كتبت لصديقة لها في زنجبار تقول:

" من حيث الظاهر اصبح لي اسما مسيحيا (عمدوها وسموها: إيميلي). أما في قرارة قلبي فإنني مسلمة تقية مثلك. وأشعر بيني وبين نفسي بالحقارة لكون ظاهري مغاير لباطني. وأقول لك بكل صراحة: احذري من تبديل دينك دون إيمان حقيقي. فمن من، ومن أين استمد إيماني ؟ لا أحد يعرف حقيقة إيماني. فلقد اكتفي القسيس بأن يسمعني أنطق بـ: نعم، لكل ما قاله لي عند تعميدي، وفي إكليل الزواج التالي لذلك، بلغة غير مفهومة علي الإطلاق بالنسبة لي. وكان هذا هو كل المطلوب.

ومن تلك اللحظة أصبحت محسوبة علي المسيحية. وكل ما تبقى صار أمرا علي أن أدبره لنفسي بنفسي. وفي ذلك الوقت، كنت مثلك لا أعرف عن المسيحية شيئا. وترتبت علي ذلك نتائجه المنطقية. عشت فترة لا يمكن وصفها بالكلمات مع نزعي عن ديني السابق، وعدم معرفتي بأكثر من ديني الجديد غير اسمه.

ولم أشعر في حياتي كلها - من قبل أو من بعد - بالبؤس والحرمان من كل عون، مثلما شعرت فور تعميدي. ولو اطلعتم علي الصراع الداخلي الذي دار في قلبي لكان كافيا لتهدئة موقفكم ضدي. ويؤسفني القول، بأنني وجدت نفسي، وقد خاب أملي في الاعتقاد بأنه فيما

يتعلق بأمور الدين، فإن كل مسيحي سيتباني ويرشدني ويعلمني، ويدخلني في طقوسه، ويطلعني علي دخائلها باعتباري منهم.

وسرعان ما أدركت أنه لا شئ له سلطان علي ضمائرنا وآرائنا أكثر من الدين. ونظرت لنفسي علي أنني حقيرة ومزيفة بتسميتي مسيحية، دون أن أعرف شيئا عما تعنيه المسيحية في الحقيقة. فلم أعرف عن المسيحية شيئا أكثر مما عرفته عنها من القرآن الكريم، ولا أكثر من ذلك. ولو أنني بقيت وفية لإسلامي لكان ذلك أفضل لسلامي الداخلي، علي الأقل في البداية. وفي رأيي لا توجد تضحية توازي تبديل المرء دينه. فكل شئ قابل للتبديل، من مكانة وثروة، ومناصب دنيوية رفيعة، إلا ديننا المقدس". [6]

وحول **مسألة وضعية المرأة في الشرق**، كتبت السيدة سالمة في كتابها الجامع سالف الذكر تقول:

"حينما رأيت **الوجوه البهية** في المجتمع هنا (**ألمانيا**) في أول الأمر، اعتقدت بالطبع، أن العلاقة بين المرأة والرجل في أوروبا منظمة بدرجة أكبر. وستكون **الحياة الزوجية**، بالتالي، **أسعد مما هي عليه في الشرق الإسلامي**. بيد أنني فيما بعد، حينما كبر أطفالي ولم يعودوا بحاجة إلي

---

[6] جاء ذلك في مذكراتها الصادرة بعنوان: مذكرات ورسائل سيدة سالمة، تحرير :ا. فان دونذل، ص411-412.

رعايتي واهتمامي المتواصل، صرت أكثر اتصالا بالواقع، **واكتشفت بشكل مطرد أنني أسأت الحكم علي البشر وعلي المواقف، وأفرطت في الاغترار ببريق الظاهر.**

لاحظت علاقات كثيرة تسمى: **زوجية**، ولكنها في حقيقتها علاقة هدفها الوحيد هو: **العذاب اللعين لمن تجمعهم رابطتها**. وشاهدت زيجات كثيرة تعيسة جعلتني لا أعتقد إن الزواج المسيحي أسمى من الزواج الإسلامي، ولا هو مفتاح للسعادة أكثر منه. وأنا علي قناعة أن سر **السعادة الزوجية أو التعاسة الزوجية** ليس الدين ولا الأعراف والرؤى السائدة، بل هو: **التفاهم الحقيقي بين الزوجين.** فإذا وجد ذلك التفاهم سادت السعادة والسلام، وترعرع انسجام داخلي يحول العلاقة إلي **زواج حقيقي.**

ولا صحة لأسطورة أن **العربي يعامل زوجه باحترام أقل مما تعامل به المرأة هنا في ألمانيا**. . فالمرأة في الشرق الإسلامي محل **لرعاية الدين** الذي يضعها في حماية الرجل المؤمن التقي الذي يحترم المشاعر الإنسانية، بدرجة لا تقل عن أي أوربي متحضر وعلي خلق بل إن المسلم يلزم نفسه بصرامة بمعايير أسمى وأعلى، لاستحضاره **معية الله** تعالي الذي جاء هذا الشرع من عنده، ولا تغيب تلك المعايير عن ذهنه أبدا، لكونه يتعلق حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة **بالثواب العادل، أو العقاب** علي ما قدم من الحسنات، وما اقترف من السيئات.

وإلي جانب الأخيار، يوجد الطغاة، هنا وفي زنجبار علي السواء، الذين لا يرون أن المرأة أهل للمحبة والاحترام.

ولكن ضميري يدعوني إلى القول بأنني رأيت أزواجا خسيسين يسيئون معاملة أزواجهن في ألمانيا أكثر مما هو الحال في بلادي"[7]

[7] المرجع السابق، ص 269- 272.



الأميرة العربية السيدة سالمة بنت سعيد بن سلطان

خامسا: الابتزاز الألماني بسالمة

أراد الألمان استخدام سالمة كألعوبة لتحقيق مآربهم الاستعمارية، حينما كان السيد برغش سلطانا، باستغلال دعواها فيما أسموه **"تصييبها العادل"** في **أملاك والدها السيد سعيد بن سلطان.** أحضروها في سفينة ألمانية ترافقها خمس سفن حربية، وسفينة إمداد رابطت في الميناء المواجه للقصر في أغسطس 1885.

وفي مقدمة الكتاب الذي أوردنا منه المقتبسات سالفة الذكر، قال محرره دونزل:

"قرر بسمارك أن تجري المفاوضات مع السلطان بواسطة القنصل الألماني، أو بواسطة **قائد تلك البوارج** التي تقرر أن ترابط قبالة زنجبار. وكلف **القائد وفوضه** باتخاذ إجراءات انتقامية فيما لو تعرضت فراو روتي **(السيدة سالمة)** للقتل أو لسوء المعاملة. كما خوله التهديد باللجوء للعنف فيما لو رفض السلطان السماح لشقيقته بالدخول. ومعنى ذلك ببساطة، أن الألمان أرادوا استخدام **السيدة سالمة كألعوبة لإثارة موقف يبرر الغزو الألماني لزنجبار وكل منطقة شرق إفريقيا.**

ووجه المستشار الألماني بسمارك تعليمات مكتوبة لقائد حملة غرب إفريقيا الألمانية، مفادها أنه:

"إذا دفعنا السلطان بسلوكه إلي اللجوء للقوة، فإن المواطنة الألمانية روتي وحقوقها تمثل حجة مفيدة لتبرير لجوئنا إلي القوة. وإذا لم نضطر إلي ذلك، فإن فراو روتي تعود علي متن سفننا".

أراد الألمان بعدم خبرتهم النسبية في التوسع الاستعماري التلويح بالقوة للإستيلاء علي كل منطقة شرق إفريقيا بتنصيب **ألماني علي عرش زنجبار. وكتب أي. فان دونزل يقول:**

"وفي نفس الوقت، أثارت القلق في القنصلية البريطانية فكرة تأسيس أسرة مالكة ألمانية زنجبارية، تتحقق عبر سعيد ابن فراو روتي، والتي يقترحها كيرسن،. وكتب القنصل فريدرك هولمود في إحدى مذكراته يقول: "هذا الولد **(سعيد روتي)** تربى في ألمانيا، ولم تكف أمه عن التآمر من أجل الاعتراف به. ولكن السلطان رفض ذلك جملة وتفصيلا. ولم يرق هذا الأمر له خاصة، وللعرب عامة، إلي حد أنه رفض علي الدوام مجرد بحث هذا الأمر، علي الرغم من الضغط المتواصل عليه، برعاية الحكومة الألمانية"

وخلص القنصل البريطاني إلي أن قيام بريطانيا: **"بعمل فوري وحازم"** قد يكون هو الوسيلة الوحيدة لمنع تحول زنجبار إلي **محمية ألمانية**، مما يقود بالحتم إلي تحولها إلي **مستعمرة ألمانية.**

وأظهر البريطانيون استعدادهم لاتخاذ إجراء فوري وحازم بإحضار سفينتين حربيتين بريطانيتين، وممارسة نفوذهم علي السلطان في تحصيل إذعانه للمطالب الألمانية في ممتلكاته في البر الإفريقي.

وأبرم كارل بيترز، وهو مغتصب أراضي شهير، اثنتي عشرة، مما يسمى: **"معاهدة"** مع **زعماء محليين** في أوساجارا وأوسنجي

وأوكامـا ونجـورو فـي تنجانيقـا وفـي ويتـو بكينيـا، تقضـي بـالإقرار بوضع تلك المناطق تحت الحماية الألمانية.

وحينمـا علـم **بـرغش** بـذلك، أرسـل علـي الفـور برقيـة احتجـاج إلـي الإمبراطـور **الألمـاني وليـام**، مـدعيا أنـه مـا بـات يعـد فـي ألمانيـا محميـة ألمانيـة، **هـو مـن أراضـيه**، وقـال: " **إن أولئـك الزعمـاء المحلـين الـذي تعهـدوا بـالتخلي عـن حقـوق السـيادة لـوكلاء جمعيـة بيتـرز، ليسـوا مخـولين بتقـديم مثـل تلـك العهـود**". وبـذا أصـبح لـدى بسـمارك مبـرر للضـغط العسـكري. وتـم إعـداد خطـط تفصـيلية لأسـر السلطان واحتلال جزيرة زنجبار"

" وفـي 11 أغسـطس قـدم باشـن قائـد المجموعـة البحريـة الألمانيـة المطالـب الألمانيـة إلـي السـلطان بـرغش فـي وثيقـة رسـمية، جـاء بهـا أن: **الإمبراطـور يرغـب فـي إقامـة علاقـات وديـة مـع السـلطان، ولتحقيـق ذلـك فإنـه يقتـرح التفـاوض بشـأن إبـرام معاهـدات معينـة دون تـأخير**. إلا أن ثمـة شـرط فـوري، دونـه لـن يشـرع جلالتـه فـي التفـاوض، وهـو **مطالبـة معـاليكم بـإعلان واضـح لالـبس فيـه سـحب احتجاجـك علـي المعاهـدات التـي أبرمـت مـع السـلاطين الشـرعيين والأحـرار لأراضـي أوسـاجارا ونوجـورو وأوزيجـوا وأوكـامي، وكـذا مـع سلطان إقليم ويتو، وأن تسحب قواتك من تلك المناطق**".

ونـود الإشـارة هنـا إلـي أن كـل تلـك المنـاطق التـي زعـم الألمـان أنهـا قـد باتـت تابعـة لهـم، هـي أراض تخضـع **لسـيادة السـلطان بـدليل أن علمـه مرفـوع فيهـا، وقواتـه مرابطـة فيهـا، وإدارتـه كائنـة بهـا**. وهـاهم الآن يطالبونـه بإزالـة كـل أدلـة حقوقـه السـيادية والقانونيـة الملموسـة هـذه، ويقـدمون إليـه إنـذارا مدتـه أربعـا وعشـرين سـاعة للإستسـلام لمطالبهم.

ورابطـت خمـس سـفن حربيـة ألمانيـة قبالـة مركـز المدينـة، ومـدافعها فـي وضـع الاسـتعداد للقتـال. **وحـث جـون إريـك القنصـل البريطـاني العـام، السـلطان بالإذعـان للمطالـب الألمانيـة بكاملهـا**. وهكـذا اتضـحت وجهـة "**العمـل البريطـاني الحـازم والفـوري**" فمـا كـان يريـده البريطـانيون كـان صـورة طبـق الأصـل ممـا أراده الألمـان، ولكـن فـي منـاطق أخـرى. كانـت أنظـار بريطانيـا تتجـه إلـى الإسـتيلاء علـى أراضي السلطان في كينيا ثم تليها الجزر.

وأعـد **اللـورد سالسـبري، وبيرسـي أندرسـون** خبيـره فـي الشـؤون الإفريقيـة بـوزارة الخارجيـة البريطانيـة، خطـة مـاكرة. ووفـق مـا يقولـه توماس باكنهـام فـي كتابـه (**التكالـب علـي إفريقيـا**)، فـإن سالسـبوري وأندرسـون" اتفقـا آنئـذ علـي خطـة لقطـع الطريـق علـي تصـرفات الإمبراطـور الألمـاني الغريبـة، بحـل يتمثـل فـي تقسـيم البـر الإفريقـي بـين ألمانيـا وبريطانيـا. ويـتم تحديـد حـدود منـاطق النفـوذ، كـإجراء ممهـد لإنشـاء محميـات رسـمية بواسـطة لجنـة حـدود مشـتركة سـبق أن اقترحتهـا ألمانيـا. كانـت هـذه هـي الطريقـة البريطانيـة فـي معالجـة المعضـلة السياسـية الخاصـة بتحديـد الألويـات وتقريـر مـا يمكـن التضـحية بـه. وقـرر صـانع السياسـة البريطـاني أن السـلطان هـو مـن يمكـن التضـحية بـه. والسـلطان الـذي اعتبـره البريطـانيون هـو الـرقم الذي يمكن التضحية به، يمثل كل منطقة شرق إفريقيا وسكانها.

وبالتوصـل إلـي وفـاق تـام بـين بريطانيـا وألمانيـا حـول تمزيـق **امبراطوريـة زنجبـار**، تـم **نسـيان السـيدة سـالمة (فـراو روت) بـالمطلق**. فهـي ورقـة تـم توظيفهـا ثـم نبـذها. وبـذا انتهـي سـيناريو افتتانهـا بمغـامر ألمـاني الـذي تـوج بتحولهـا فـي ظاهرهـا إلـي

المسيحية، وجعلها مجرد ورقة تستغل لفترة وجيزة في التدمير الكامل للإمبراطورية، التي بذل أسلافها جهودا ضخمة لتأسيسها.

ووصل الهوان بتلك الأميرة العربية، حد تقديم التماس إلي الإمبراطور الألماني كتبته في الثاني من يوليو 1888، ينضح بالمرارة تقول فيه:

" أنا، مسيحية، متزوجة بألماني علي مدى واحد وعشرين عاما. وعشت علي الدوام طيلة هذه الفترة في ألمانيا. وأنا بالتالي **مواطنة ألمانية**. ولي الحق بهذه الصفة أن أطلب العون عبر الممثل الألماني. فهل لي أن أرى الآن أن نبوءة أقاربي من سنوات طويلة **بأن إخواني في الديانة المسيحية سيتخلون عني، قد تحققت؟**".

وكتبت سالمة المرهقة الحزينة المملوء قلبها بالمرارة، في واحدة من رسائلها الكثيرة تقول:

"بالنسبة لي شخصيا، فإن أي مكان سيكون مناسبا، لأنني لا أنشد إلا السكينة والسلام. ولم يعد لي شخصيا أي وطن علي ظهر الأرض".

فماذا كانت تنتظر تلك السيدة بعد أن هجرت عائلتها ووطنها، وقبل كل شئ دينها، لمجرد علاقة حب عاطفية؟ دامت علاقة السراب بينها وبين محبوبها رودولف روتي ثلاث سنوات فحسب، لقي بعدها منيته في حادث تحطم ترام في هامبورج. ولم يبقى لها غير شبح ذكرى حبيبها، التي اضطرت بسببها للتظاهر بالتمسك بمسيحيتها دون قناعة داخلية بها، والرغبة في أن تربي أطفالها كما تعتقد أن زوجها كان يتمنى، أي علي أن يكونوا **ألمان**

ومسيحيين. وبينت رسائلها بجلاء أنها لا تؤمن **بالديانة التي تبنتها في الظاهر**. فلنقرأ ما جاء في واحدة من رسائلها:

"لم تسفر الهواجس التي تملكتني عن شئ يذكر عدا العذاب لروحي المسكينة. ولم أجد بين **كثير من المسيحيين إلا قلة يسيرة تترفع عن الدنايا وتنشغل بالباطن لا بالظاهر**. فرقوا بيني وبين ديني السابق. ولا زلت لا أجد بديلا يحل مكانه. **فأنى لي، كمسلمة، أن أنجذب إلي الديانة الجديدة، إذا كان من ولدوا مسيحيين وتربوا مسيحيين، هم أنفسهم يتعاملون بازدراء مع دينهم؟**

وفي معرض حكاية خبرتها في كنيسة ذهبت للصلاة بها تقول سالمة:

"لم أسترح للصور الموجودة بالكنيسة، لأننا **أولا**، معشر المسلمين محرم علينا الصلاة في مكان به صور. ولأنني **ثانيا**، وجدت أن الصور تنال من خشوعي، واعتبرت ذلك خطيئة. وملأني إحساس بالمقت تجاه حقيقة أن المصلي الورع منهم لا يبدي تواضعا ملموسا أمام ربه، أعني أنهم لا **يسجدون لله**. واعتبر عقلي، الذي لم ينشأ وفق الرؤى الغربية، أن طلب الدنيا في وسط الصلاة امتهان فاضح لحرمتها.

وأقول بصراحة أنني رأيت أن من **الدنيوية بمكان أن أطلب المال في بيت الله تعالي، أثناء قداس الصلاة**. وقد يحق لي أن أتصور أن الفكرة التي يجب أن تسود عندما يدخل المرء بيت الله، أن تخشع روحه ويعبد ربه، لا أن

يذكره أحد بشهوة عبادة الدنيا في هذا المقام". وهي تشير بذلك إلي عادة جمع المال بالكنيسة، وهو ما يعتبر في المساجد أمرا مدنسا.

وفي معرض حديثها عن خبرتها في عيد ميلاد المسيح، تقول سالمة:

"لم أشأ أن أسأل زوجي عن المعنى الحقيقي، وعن الهدف من تلك الصور التي رأيتها في الكنيسة، من جهة لأنني من باب الاحترام له، لم أرغب في الخوض في أمر إحساسه الجواني تجاه دينه (خاصة وأنني لم أكن آنئذ أعرف شيئا يذكر عن الطوائف المسيحية التي تستعصي علي الحصر). ومن جهة أخرى، وهذا هو الأهم، **لكي لا أتثبت من أن المسيحية، وثنية في صميمها، كما هو الاعتقاد السائد بيننا.**

وهكذا رأت أن **الجهل نعمة**، وأن بلاهة **المتغابي هي عين العقل.** فهذه السيدة لم ترد ببساطة أن تعرف. ولو أنها كانت صاحبة عقل ناقد لتبين لها ما يزلزل فؤادها، من حقيقة أن كل من **أعياد الميلاد المسيحية، وعيد الفصح هي في حقيقتها أعياد وثنية موجودة قبل ميلاد المسيح وموته.** وكان يكفيها من السوء، أن وجدت أن عيد الميلاد ليس مناسبة دينية، بقدر ما هو مناسبة لتبادل الهبات وشرب الخمر وتناول الطعام والمرح.

وكتبت في هذا الصدد لصديقة لها بزنجبار تقول:

"انتابني، كما سبق لي القول، إحساس بالغ بخيبة الأمل. وتاقت نفسي لأن يكون نصيبي من الهبات يسيرا، وأن

يكون القداس الديني قصيرا. ومن المؤكد أنني حينها لم أكن أفهم شيئا بالمرة، ولكن كان يكفيني مشهد قداس ديني لأضع نفسي بطريقتي الخاصة، علي طريق التقوى. ومن تلك اللحظة فصاعدا بات جليا لي مدى سطحية مفهوم كون المرء مسيحيا. وصار الصراع، بالتالي، يتأجج داخلي ويقض مضجعي يوما بعد يوم. فكرت في أعيادنا نحن المسلمين، وتركت أفكاري تمرق إليكم كالسهام، كما لو كنت أتطلع بينكم إلي ما أفتقده".

سادسا: الرق في مقابل الظروف الاجتماعية في أوروبا

تتساءل السيدة سالمة بخصوص الحملة ضد **شرور الرق**، التي كثيرا ما يحلو للغرب أن يعتبرها من مفاخره **قائلة:**

"لماذا دقوا **أجراس الخطر حينما كان لدينا عبيد**، كانوا يعيشون في سعة، هي **أسمى بما بين السماء والأرض بالمقارنة بالأوضاع المعيشية لكثيرين من الناس هنا؟** إن التناقض بين الأثرياء والفقراء لا يكشف عن نفسه في أي مكان قدر حالته في عالم الشمال البارد، الذي يجمع بسفور بين غاية **الوفرة والترف** للبعض من جهة، وبين **الفقر المدقع** الذي تنفطر له القلوب، لغيرهم من جهة أخرى.

رأيت ذلك **الفقر بأم عيني** ذات مرة في **أسرة سائق عاطل عن العمل**، ليس لديه غير أطفال يتضورون من الجوع، ويرتعشون من شدة البرد. . وبرؤيتي لهذه الحالة المزرية، التي لسوء الحظ لم يكن بوسعي أن أقدم لها علاجا يجتثها

من جذورها، بل مجرد شئ يخفف وطأتها إلي حين، جاشت عواطفي، فلم أستطع أن أذوق أي طعام طيلة ذلك اليوم.

ولم أستطع في تلك المناسبة أن أدفع عن ذهني حقيقة أنه، لو خير عبيدنا بين حالتهم التي هم عليها في الشرق، ومثل هذه الحالة في الغرب، فلن يقبل **اثنان** من كل **مائة عبد من عبيدنا**، مقايضة **أمنهم** بمثل هذه **الحرية**. ثم أليست **الخدمة العسكرية** نوعا من الرق؟[8] إن من يتحررون من التحيز كله، ومن ينظرون للمسيحية من خارجها، ومن لا يعرفون عنها غير دعوة عيسى بن مريم للسلام والمحبة من خلال الكتب والروايات، سيجدون من العسير تفهم سعي **أتباع تلك الديانة للتنافس فيما بينهم، علي اختراع أبشع الأسلحة فتكا وإزهاقا لأرواح البشر.** وهم هنا يسمون ذلك: **تقدما**، ولكن المرء لو نظر إلي ذلك بفطرته البسيطة، فإنه سيرى أن كل ما **يسمى تقدما، وكل ما يترتب عليه، هو عمل من عمل الشيطان. وأنا علي يقين كامل من صحة ما أقول.** "

هذه هي آراء سيدة عربية زنجبارية ولدت في الإسلام، ولكنها ارتدت إلي المسيحية، وعاشت في أوروبا وبات بوسعها، **أن**

---

[8] هي بالقطع تتحدث، لا عن خدمة عسكرية تنشئ قوة رائدها إقامة العدل في الأرض، بل عن **خدمة عسكرية**، توظفها القوى الاستعمارية في قهر الأمم الأخرى وسلب ثرواتها، وتقترن بالإنفاق على أسلحة تهدد فرصة بقاء الحياة على الأرض، وتفرض بها الجوع على معظم بني الإنسان لصالح التخمة لعالم الشمال – المترجم

تقارن، وأن تقابل بين ما **بأوطاننا** وما **بالغرب المسيحي**. والحكم الذي أصدرته واضح وقاطع. والبقية تأتي. **ففي خطاب أرسلته إلي صديقة حميمة لها، نقرأ قولها:**

"مات زوجي دون أن يترك **وصية**. بل دون أن ينطق بكلمة واحدة بخصوص مستقبلي أنا وأطفالي، ناهيك عن تعليمهم. ومعنى ذلك لأول وهلة، أنني كنت **حرة** في الذهاب إلي حيث أشاء طالما أن أطفالي صغارا، ليسوا بحكم العرف والقانون مطلوبين لا للمدرسة، ولا للخدمة العسكرية.

دخلت في صراع مرير مع نفسي دام سنوات لأصل إلي قرار بأن معنى **وجودي كله والنعيم الدنيوي** هو في **الوطن**. ولكن الوفاء لذكرى زوجي وقفت دون تحقيقي هذين المطلبين. وبقلب ينفطر حرمت نفسي من لم الشمل معكم. وقررت وفاء لزوجي أن أدع أبناءه يتربون في هذا البلد، كما كان يريد. لأنني، لو كنت مكانه لرغبت، بالقطع، في أن يتربي أطفالي علي طريقة العرب".

وهكذا ضحت السيدة سالمة، أو إيميلي روتي، علي عكس عقيدتها الراسخة التي تربت عليها، **بمصيرها الدنيوي والأخروي**، وسمحت لنفسها بأن تكون مجرد أداة بيد المستعمرين، وضحت في سبيل ما تسميه الوفاء لذكرى دخيل أجنبي انتهك حرمة أسرة السيد سعيد بن سلطان، وجعلها تخرج علي طوع أسرتها الحاكمة، وتضحي بمصلحة من حملتهم في رحمها، وبلدها وشعبها، ودينها.

ومن معين العجز، غرر بعض ورثة عرش زنجبار بأنفسهم، بالاعتقاد بأن بوسعهم أن يؤلبوا القوى الإستعمارية علي بعضها البعض. وارتكب السيد **ماجد** بسبب طموحاته الشخصية أول خطيئة قاتلة بالخضوع للتدخل البريطاني ليؤازروه في تنكره لشقيقه الأكبر السيد ثويني الوريث الشرعي لسعيد.

ولا تزال هذه اللعبة الديبلوماسية القديمة تستعمل حتى اليوم. فلا يزال الزعماء السياسيون المعاصرون الجاهلون بمؤامرات وسياسات المستعمرين يخدعون وتتشوش أفكارهم علي يد **دبلوماسيين محترفين متمرسين** في فنون الخداع من أجل مصالح بلادهم، يواصلون إسداء المشورة لهم في إشكاليات **التعددية الحزبية، والديموقراطية والإصلاح الليبرالي**. ولا تختلف مصالح الاستعمار الجديد عن مصالح الاستعمار القديم. فحافز أنصار الاستعمار القديم والجديد هو **الانتهازية السياسية**، وليس أي هدف أخلاقي أساسي. وهذا هو ذات الدافع بالنسبة لعملائهم، وعوا ذلك أم جهلوه.

سابعا: بشير والمغاوير الآخرون

من بين الصور التي كانت تزين جدران حجرة الجلوس في بيت **العم عيسى** صورة **بشير بن سالم الحارثي** الذي قاد التمرد ضد **الاحتلال الألماني** في البر التنجانيقي. كان هذا في عهد السيد **خليفة بن سعيد**، أو خليفة الأول. وفي الصورة نرى بشير واقفا ويده مسدسا، وحول وسطه حزاما مملوءا بالطلقات. وبعض الأسرى الألمان يجلسون القرفصاء، مصفدين عند قدميه. وناشدت الحكومة الألمانية السلطان طالبة منه العون في قمع تمرد بشير، فرد السيد خليفة بن سعيد بهذا الرد الخالد:

"إننا نحكم شعبنا بالمودة وليس بالقوة. وهم بفضل الله تعالي يطيعوننا. فهم ليسوا عبيدا لي. ولقد أعطيتكم سلطة جباية رسوم جمركية. وما كنت لأبيع لكم أرضا لم تكن أبدا من ممتلكاتي. فالأرض ملك للشعب"

وعن بشير نفسه كتب توماس باكانهام في كتابه " التكالب علي إفريقيا":

"زعيم أول انتفاضة ضد الاستعمار الألماني في إفريقيا هو سواحيلي صاحب مزرعة قصب سكر حاد الطبع يدعى: "بشير بن سالم الحارثي، وهو رجل قصير القامة مفتول العضلات، عيناه شديدتا السواد لكون أمه من الجالا، وسيماه (هكذا يقول ألماني) **شبيهة بنمر وثاب**. وعلي مدى قرن كامل تحدت عشيرته- الحرث - بمكائدها، سلاطين زنجبار، وكان يعلم أنه سيغامر بحياته لو جاء إلي زنجبار".

حشد الألمان تعزيزات من ألمانيا ومن المرتزقة الأفارقة، وبهم هزموا بشير، وشنقوه علانية فيما بعد. وبشير هذا ابن سالم بشير الذي تحالف قبل ذلك بثلاثين عاما، وبالأحرى عام 1859 مع جدي **عبد الله بن سالم والسيد برغش** للتصدي لفصل شرق إفريقيا عن عمان، من جراء تمرد السيد ماجد ضد شقيقه الأكبر السيد ثويني الوريث الشرعي لسعيد بن سلطان. وسالم بشير هو الذي بنى البيت الكائن في راس شنجاني المسمى (مامبومسيجي)، التي تعني: **البيت الفريد**، غير القابل للتقليد. وجاء السيد ماجد فجعل ذلك البيت من ممتلكات الحكومة.

أما الرجل الثاني في قيادة التمرد بعد بشير فهو بطل من جزر القمر يدعى **موينى هازي**، عرف بشجاعته النادرة. وكان السواحليون يسمونه، ببساطة: **جهازي**. أما الرفيق الآخر لبشير فهو **بوانا خيري** حاكم بانجاني.

وألف حميد بن عبد الله البهري من تانجا ملحمة شعرية رائعة بالسواحيلية حول تلك الحرب ضد الألمان، سماها: **الحرب الألمانية**. أما السبب المباشر لتلك الحرب فهو الطغيان البالغ لوكيل ألماني شاب يدعى **ايميل فون زاليوسكي**، الملقب بـ: **المطرقة**، فلقد أجبر ذلك المندوب الألماني سليمان بن ناصر اللمكي الوالي الحاكم باسم السلطان، أن يأخذ منه أوامر وتعليمات أربع مرات يوميا. وأزاح علم السلطان، واستبدله بالعلم الألماني. وفرض ضريبة علي الرؤوس، وضريبة علي المدافن، وضريبة علي التركات.

وعم الغضب الشعبي في تانجا نتيجة دخول بعض الألمان المساجد في رمضان بصحبة كلابهم. وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير. فاندلعت **انتفاضة**، شارك فيها كل سكان البر والساحل بزعامة بشير. وساهم **سلطان أوسامبارا** بستة آلاف مسلح، معلنا أنهم سيقاتلون حتى آخر رمق، ولن **يقبلوا أن يكونوا عبيدا للألمان**. واستطاعت قوة الانتفاضة التي بلغ قوامها اثنين وعشرين ألف مقاتل أن تطرد الألمان من كل المناطق، عدا دارالسلام وباجامويو. إلا أن الألمان **أتوا** بتعزيزات عسكرية من الضباط الألمان والمرتزقة الأفارقة، استطاعت في النهاية قمع الانتفاضة.

واتفق الزعيمان البريطاني سالسبوري، والألماني بسمارك، علي فرض **حصار بحري مشترك** علي الساحل لمنع وصول إمدادات الأسلحة والذخيرة إلي مقاتلي بشير. وكما يقول توماس باكنهام في كتابه المشار سالف الذكر، فإن الحصار "**روج علي أن هدفه إنساني**، وهو منع تجارة الرق العربية، بينما كان هدفه الحقيقي القضاء علي بشير". وتخفت القوى الغربية، بذات الطريقة إلي حد بعيد، وراء ذرائع إنسانية في تعاملها **مع الحالة البوسنوية**، زاعمة أن هدفها هو منع تصعيد الصراع. أما الهدف الحقيقي فكان يتمثل في **خنق البوسنة، واستئصال المسلمين من أوروبا**.

ونشاهد علي جدران حجرة الجلوس في بيت العم عيسى أيضا صورا لمغاوير أفذاذ آخرين، من أمثال: العالم والمفكر المصري **محمد عبده**، ومعلمه **جمال الدين الأفغاني**، والزعيم المصري **مصطفي كامل**[9].

واعتاد عمي أن يحكي لنا مآثر هؤلاء الأبطال، وما أنجزوه، وما كانوا يتطلعون إلي تحقيقه. وتعرفت من طفولتي علي شخصية مصطفي كامل مؤسس الحزب الوطني، وأبي النضال المصري ضد الاستعمار. ولم تكن مصادفة، بالتالي، أن جاء اسم الحزب الطليعي الذي توليت ريادته فيما بعد، (**الحزب الوطني الزنجباري**)، مطابقا للإسم الذي أطلقه مصطفي كامل علي الحزب الذي أسسه في مصر. وحينما زرت مصر في أواخر الخمسينيات وقفت طويلا أمام تمثال مصطفي كامل أتأمل في

---

[9] أود التنبيه إلى وجوب عدم الخلط بين هذا البطل وبين مصطفي كمال أتاتورك التركي الذي أطاح بالخلافة الإسلامية. -المؤلف

كلماته الخالدة المنقوشة علي قاعدته: "**لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس**".

و نشاهد علي جدران تلك الحجرة أيضا صورة **سعد زغلول**، الذي عانى الكثير من السجن والنفي علي يد البريطانيين لنضاله من أجل قضية استقلال مصر. وكلل مسعاه في النهاية بالنجاح. وحقق ذلك الاستقلال. ويزين تمثاله واحدا من أهم ميادين القاهرة.

واعتاد عمي علي الاشتراك في مجلة ثقافية وأكاديمية مصرية تسمى: **الهلال**، بينما اعتاد والدي علي الاشتراك في مجلة الأزهر، التي كانت تسمى في فترة من الفترات: **نور الإسلام**، ثم غير إسمها فيما بعد إلي: **مجلة الأزهر**. وكنت أقرأ بنهم ما يتيسر لي فهمه من موضوعات هاتين المجلتين.

كان والدي رجل دين، بينما اهتم عمي عيسى بالتعليم العلماني. وجاءت معظم الأدبيات التي قرأها عمي من ناشري دار الهلال، وتيسر لي الاطلاع علي بعضها. فلقد كنا نعيش في منزل واحد. والدي وأسرته في أحد أجنحته. وعمي وأسرته في الجناح الثاني من بيتنا الكبير. وفي الدور الأرضي منه: المجلس، الذي هو بمثابة غرفة جلوس. وبالحائط كوة اعتاد عمي أن يضع بها بعض الكتب المختارة المتاحة لكل من يريد تصفحها. وتثقفت في طفولتي بكتب المفكر المصري القبطي **جورجي زيدان**.

فلقد كان أسلوبه في الكتابة بسيطا ومباشرا. وانكببت علي قراءة رواياته التاريخية مثل (**ا لسابع عشر من رمضان**)، المتعلقة باغتيال الإمام علي رضي الله عنه، و(**تاريخ الأدب العربي**) الذي

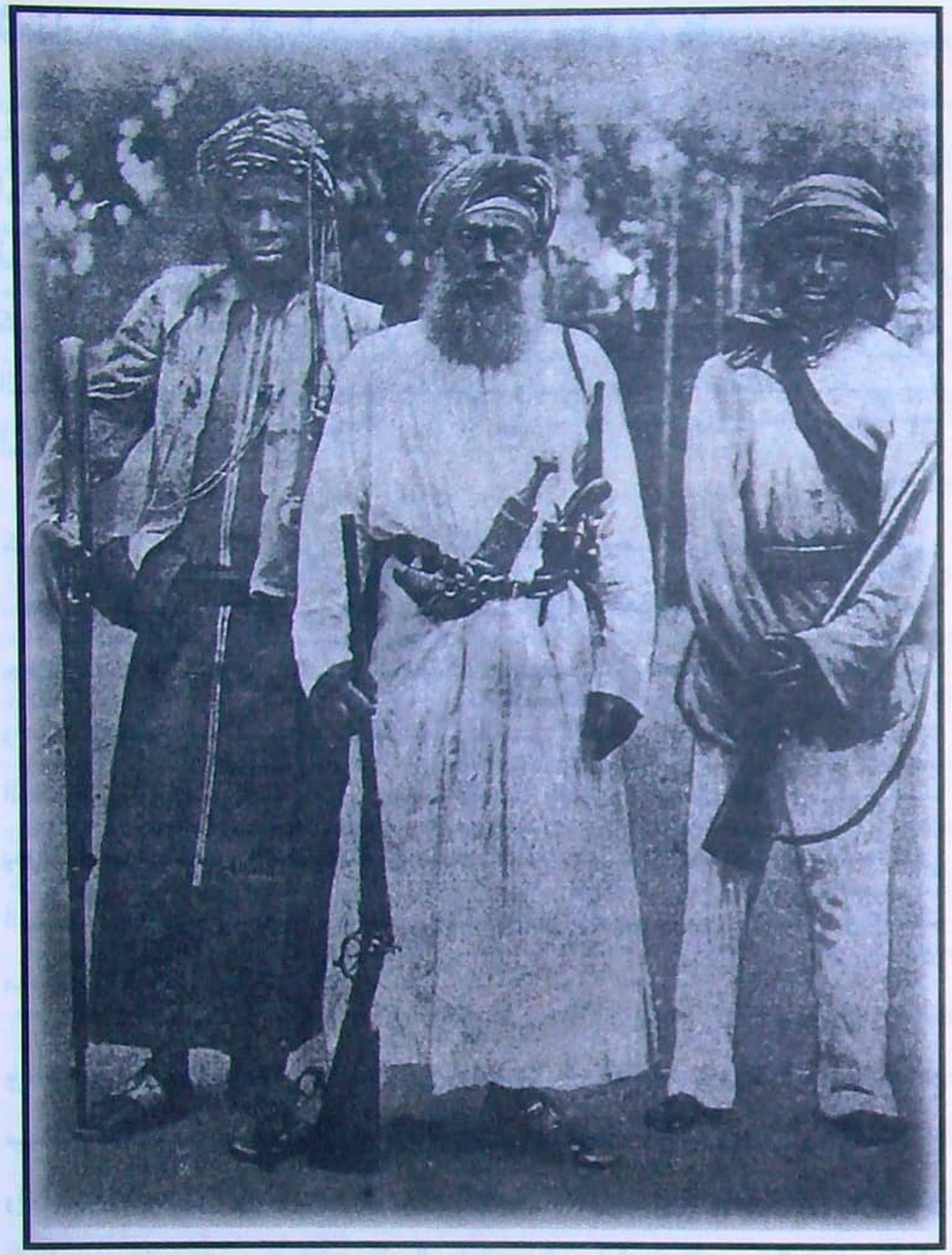
أفادني وتعلمت منه الكثير. ولم تعد كتبه تتمتع الآن بما كان لها من شهرة من قبل، بسبب **التحيزات الدينية** التي تنامت.

أما بالنسبة لي، فإنها كانت موئل ثقافة بالغ الأهمية. ولم اكترث البتة بكونه غير مسلم. وكنت أتذكر علي الدوام قول النبي صلي الله عليه وسلم: " **الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها**" وكنت أعي أن تاريخ جورجي زيدان لم يخلو من تحيزات، وأن صاحبه سعى إلي تضمينه ما يؤكد مساهمة غير المسلمين في الحضارة العربية والإسلامية. إلا أن كتبه لم تكن متحيزة ضد الإسلام والمسلمين بالدرجة التي كانت عليها كل الكتب الدراسية الأخرى التي كتبها **مبشرون واستعماريون** والتي تفيض بها المدارس والمكتبات الخاصة والعامة.

وكانت توجد في مدينة زنجبار بعض **المكتبات العامة**، وبعض **صالونات القراءة**. وجميعها عدا واحدة ملك لطوائف مختلفة، نذكر منها: المكتبة العربية ومكتبة الإثناعشرية، ومكتبة أغاخان، ومكتبة تيلاك الهندوسية، والمكتبة السنية، والمكتبة القمرية. أما المكتبة الوحيدة التي لا يشير اسمها إلي أية طائفة بعينها فهي: **نادي الكتاب**، وهي الأكثر تنظيما، والأكثر احتراما، ولكنها كانت قاصرة علي المشتركين فيها.

ورغم أن كل المكتبات الأخرى توجد علي موائدها لافتات مكتوب عليها: **للمشاركين فقط**، فإننا كأطفال نريد القراءة وليس معنا نقود لدفع الاشتراك، ولا ننتمي لتلك الطائفة التي تتبعها المكتبة، كنا، ببساطة، نتجاهل تلك اللافتات. وما كان قلب أحد يطاوعه علي طردنا، طالما التزمنا بحسن السلوك. وكنت أحب القراءة بنهم

شـــديد. وشـــقت طريقـــي خلســـة إلـــي كتـــب **البوذيـــة والســـيخية والهندوسية** لمجرد أن تكون لدي فكرة عن الأديان المختلفة.



بشير بن سالم الحارثي مع رفاقه الشجعان ماكندا وجهازي (موينى هازي)
خلال محاولتهم الفاشلة لإخراج المحتل الألماني من تنجانيقا.
وقد شنقه الألمان في 15 ديسمبر 1880 (الصورة من سعيد باحميد)

ثامنا: الشيخ عبد الله الحضرمي والسيد سعيد بن علي

غرس عمي عيسى في نفسي **الاهتمام بحياة العظماء** من بين أهلنا، ومن الشخصيات العالمية، وعمق ذلك الاهتمام في وجداني أستاذي الشيخ **عبد الله محمد الحضرمي**، المتعدد المواهب الذي كان ضمن الدفعة الأولى المتخرجة في المدرسة التي أسسها السلطان **السيد علي بن حمود**، والذي أسعدنا بالتتلمذ علي يد أمثاله.

كان هذا الأستاذ من النوع الذي يمكن وصفه بأنه: **عصامي**. تغطي المعرفة التي حصلها **بالقراءة الموسوعية المكثفة**: جغرافية وتاريخ كل البلاد، ويتحدث العربية والإنجليزية والسواحيلية بطلاقة. ولا يكتفي في الفصل بالمقرر المحدد المفترض أن يلتزم به. بل يسمح لنفسه بتقديم **تحليل نقدي لكل ما يعرفه في كل المجالات**. ومنه تعرفت علي الحركات الوطنية في الهند وتركيا وسوريا ومصر والسودان وفي كل مكان. وكانت معرفته بالتاريخ البريطاني رائعة.

و أحطت منه بتفاصيل تاريخ غاندي وحركته، وحركات ما قبل محمد علي جناح وغاندي، والمعلم موتيلال والد نهرو، والتيلاك، والسيدة نيدو، ومحمد إقبال العقل المؤسس لباكستان، وأكبر العظيم، وغيرهم من الأعلام البارزين، فيما قبل تقسيم الهند. وكان يسحر عقولنا وقلوبنا، حينما كان يتحدث في التاريخ الإسلامي: تاريخ الأمويين، والعباسيين، والفاطميين، وتاريخ صلاح الدين، وتاريخ الدولة العثمانية، وعن الصراعات الأولي بخصوص الخلافة.

ومرد جمال معرفته الواسعة، أنه كان يعرف كيف يربطها بقضايا عصرنا الحاضر. وأتذكر أنه حذرني في بداية انخراطي في العمل السياسي من الذهاب إلي المقيم البريطاني بمفردي، وقال لي: "**لقد سمموا مصطفي كامل، بينما كان يحتسي الشأي مع المندوب البريطاني في مصر** "إلا انني لم أستطع التثبت من صحة هذه الواقعة. أحبني، واحترمته وأحببته حبا جما. وكنت أعلم أنه وكل أساتذتي، فخورون بما جعلوني قادرا علي فعله وتحقيقه لبلدي ولشعبي.

و كان السيد **سعيد بن علي**، ابن السلطان السابق السيد علي بن سعيد وحفيد السيد سعيد الأكبر، زميل دراسة للشيخ **عبد الله الحضرمي**. وفرض هذا المثقف علي نفسه عزلة تامة دامت عدة سنوات في منزله الكائن خلف القصر. وأرسل ابنه الأكبر السيد محمد، في شيخوخته، يدعوني لمسامرة ودية قاصرة علينا. وكان في ذلك تشريف لي بالنظر للفرق بيننا في السن والمكانة. ووجدته مهتما ومتمكنا بدرجة عالية في الشؤون الداخلية والخارجية. وياحسرة بل ألف حسرة علي أن يتجرع أمثاله مرارة رؤية بلادهم يحكمها سفاحون من أمثال كارومي. وأذكر من بين أبناء هذا السيد الكثر، اثنين مناظرين لي في العمر، ومن بين أصدقائي في شبابي هما: **خليفة وماجد**.

تاسعا: "النمل" جمعية المعونة المتبادلة

قال لي محمد سالم البرواني (الشهير بجينجا)، في العام الأخير من دراستي بالمرحلة الإبتدائية: "**لدينا جمعية مساعدة متبادلة**، نسميها "**النمل**". فاجتهد في الدراسة. وإذا تفوقت في الامتحان النهائي، فإننا علي استعداد للإنفاق علي تعليمك في مدرسة

سانت جوزيف الثانوية، ثم سنبعثك إلي **جامعة الأزهر** بالقاهرة. وهناك سترتوي **بروح الوطنية والنضال ضد الاستعمار**. وما نريده منك، في المقابل، أن **تعود بعد أن تتأهل إلي الوطن**، وتساهم في **نشر الشعور الوطني بين المواطنين**".

امتلأت جوانب نفسي بالسرور. فلطالما كانت أمنية أبي أن ينتقل بأسرتنا إلي القاهرة، ليدخلني **جامعة الأزهر كي أدرس العلوم الإسلامية**، بينما يمضي هو ما **تبقي من عمره بصحبة أساتذتها**. وزار زنجبار، في ذلك التوقيت اثنان من الشخصيات الدولية الشهيرة المتخصصة في الشؤون الإسلامية. **أولهما** هو: **الدكتور خالد شيلدريك**، وهو مسيحي بريطاني اعتنق الإسلام، وأخذ يطوف بالعالم يدعو لدينه الجديد، **أما الثاني** فهو عالم شهير من الهند هو مولانا **عبد العليم صديقي**، يتحدث **الأردية والعربية والإنجليزية** بطلاقة. وخرجت مناظرته الشهيرة مع جورج برنارد شو في كتاب جدير بالقراءة.

وتاقت نفسي لأن **أسير علي درب هذين العالمين**. ولم يكن ما اقترحه محمد سالم جينجا يتعارض مع ما يعتزم والدي عمله. ولكنني لم **أخبر والدي** بما اقترحه جينجا. ولا كشفت **لجينجا عما يعتزمه والدي**. وكنت فيما يخصني أعلم أن **الوطنية والدين** لا يتعارضان، ولكنني لم اكن أعرف موقف الآخرين من هذه المسألة. ولما كان هدفي الآني هو الإلتحاق بالأزهر , فقد تصدرت مسألة تحصيل المزيد والمزيد من المعرفة سلم أولوياتي. ولم يكن شئ في الإسلام يملك علي فؤادي آنذاك أكثر من قول النبي صلي الله عليه وسلم: "**طلب العلم فريضة علي كل مسلم ومسلمة**" والحكمة القائلة: "**أطلبوا العلم ولو في الصين**".

ولم يكن في زنجبار، في ذلك الحين – عام 1932 – إلا مدرسة ثانوية واحدة، هي مدرسة **سانت جوزيف** تديرها إرسالية كاثوليكية، ولا تدرس بها العلوم الطبيعية البحتة. حصلت علي شهادة **إتمام المرحلة الابتدائية بامتياز**. ومنحت وثيقة مزركشة، مكتوب فيها بخط منمق "**شهادة إتمام المدرسة المتوسطة العليا**" وقدكانت بمثابة ما يعتبره أبناؤنا وأحفادنا الآن **درجة جامعية**.

وفي ذلك العام أعلنت حكومة زنجبار قرارها بفتح **مدرسة ثانوية حكومية** في العام التالي. ولما كانت المدرسة المقرر فتحها حكومية، وستدرس فيها العلوم البحتة، فإن والدي ووالدتي فضلا انتظاري حتى تبدأ الدراسة بها. أما عن كيفية الاستفادة من عام الانتظار، فتمثلت في " إلتحاقي **بمدرسة التجارة في عامها الأخير قبل إغلاقها**".

ولم أندم علي ذلك العام الذي أمضيته في تلك المدرسة، متتلمذا علي الناظر الشيخ **سلطان خميس المغيري** الذي علمنا **مسك دفاتر الحسابات، ومشاريع الأعمال، والحسابات المالية، والكتابة علي الآلة الكاتبة، والمراسلات التجارية**. وواصل أستاذي القديم **عبد الله صالح الفارسي والي دارسي** تعليمنا اللغة الإنجليزية. وكعادتي اجتزت امتحان المدرسة التجارية بدرجات عالية. ورغم انني لم أدخل مجال الأعمال التجارية، ولم أشتغل بأعمال كتابية، فإنني استفدت من ذلك العام، في تعلم الكتابة باللمس علي الآلة الكاتبة، وهو ما كان عظيم النفع فيما بعد، إذ جعل كتابتي لمقالاتي حينما عملت بالصحافة أمرا سهلا. وصرت أكتب بأصابعي العشر علي نحو أفضل من الكتابة بخط اليد، التي يصعب فك رموزها. ومع مجئ الحاسب الآلي باتت الكتابة أكثر

يسرا. والفضل في استفادتي من الآلة الكاتبة، ومن بعدها الحاسوب، يعود إلي أستاذي الشيخ **سلطان خميس المغيري**، رحمه الله. فمع أن الحاسوب جاء معه بشهادة وفاة للآلة الكاتبة، فإنه لم يظهر شئ نجح في الحلول محل الكتابة باللمس التي تعلمتها منذ ستين عاما.

وانتهي الأمر بإعفاء" جمعية المعونة المتبادلة "النمل" من تحمل تكلفة تعليمي لأن خالي خلفان بن سالم آل علي نفسه تحمل تكلفة دراستي في المدرسة التجارية، وفي المدرسة الثانوية.

وكان **التعليم الابتدائي** في المدارس الحكومية، **مجانيا** منذ أن فتح **السيد علي بن حمود** أولي تلك المدارس. أما بالنسبة للتعليم الثانوي فإن الحكومة **فرضت رسوما علي القادرين**، مع **إعفاء غير القادرين**. إذ كانت سياسة الحكومة تقوم علي الدوام علي مبدأ أن لا يكون **الفقر سببا يحول بين المرء وبين فرصة التعليم**.

ومع أن والدي كان في تلك الآونة في عداد غير القادرين علي تحمل الرسوم، فإن **خالي قرر أن يتحملها هو**، بدل أن أتقدم أنا أو والدي بالتماس بطلب الإعفاء منها. ومع أن الله تعالي لم يرزق خالي خلفان أبناء من صلبه، فإنه صار **أبا لكل أبناء وبنات إخوانه وأخواته الكثر**. ولم يكن حبه يعرف الحدود. كان عطوفا علي الجميع. وأوصى حين حضره الموت بواحد من ممتلكاته الثمينة، ذاك البيت الجميل المواجه للنادي البريطاني في شنجاني، لصالح المحتاجين من أقاربه. عم كرمه وحنانه الجميع. ما يمرض أحد إلا ويكون هو أول من يعوده، يخفف عنه، ويقدم له غاية ما بوسعه من عون معنوي ومادي. ومع كل هذا فإن

الجميل الأعظم الذي أسداه إلي عمي خلفان هو تزويجي بربيبته عزة.

عاشرا: جينجا وهولنجزويرث

حالفني الحظ بالمدرسة الثانوية الحكومية مرتين، **أولهما**: تتلمذي علي يد **اثنين** ممن لهم الفضل الأكبر في تطوير التعليم في زنجبار: **لورانس وليام هولنجزويرث، ومحمد سالم البرواني (جينجا)**[10]. فعلي مدى ثلاث عشرة سنة درس هولنجزويرث في زنجبار رافضا كل ما قدم له من عروض للنقل أو للترقية، وهي مأثرة فريدة من نوعها، بين كافة موظفي الإدارة الاستعمارية. وعلي يديه تخرج **المئات من خيرة المعلمين** في زنجبار، وربما في منطقة شرق إفريقيا كلها في مدرسة تأهيل المعلمين.

وكانت الميزة الفريدة لمن تربوا علي يديه أنهم لم يكونوا في أنفسهم **نماذج تمثل الكمال عند التخرج**، بل في **قدرتهم علي تحقيق المزيد** من الارتقاء بعد تخرجهم. وتلك الخاصية التي كان جورج تيرنر رئيس جامعة ماكيري لا يكف عن تذكيرنا بها، هي جوهر ما ينبغي أن تنشده أية مؤسسة، ألا وهي: **القدرة علي تخريج طلاب قادرين علي تنمية قدراتهم بعد تخرجهم.**

---

[10] محمد بن سالم بن هلال البرواني (جينجا) هو أول من تخرج من جامعة أوكسفورد من زنجبار. ومن أعمدة نظام التعليم في زنجبار. وهو الذي زرع النزعة الوطنية القائمة على نبذ العنصرية والكفاح لتحرير زنجبار من الإنجليز عند علي بن محسن وأقرانه. شارك في النشاط الوطني لتحرير زنجبار وكان عضوا في اللجنة المركزية للحزب الوطني. مات شهيدا على يد الطغمة الباغية بدون محاكمة بعد سنوات من انقلاب 1964.

وأنجب من تربوا علي يد هولنجزويرث هو: **محمد سالمز جينجا**، الذي عين مساعدا لهولنجزويرث، برضا الجميع فور تخرجه في تلك المدرسة. ظل وبعد افتتاح المدرسة الثانوية مساعدا له في المدرسة، وفي حركة الكشافة، وفي المجالات الرياضية.

واقتدى بعضنا بجينجا في كثير من الأمور. وأتذكر أنني كنت أقرأ في العشرينات من عمري، صحيفة كان يعدها لإرشادنا، ويحثنا فيها علي غرس خاصية ما أسماه "**المثابرة، وثبات العزيمة**" في نفوسنا، وينبهنا إلي أنها مفتقدة إلي حد بعيد في أوساط الشباب الزنجباري. وانطبع **هذا التشخيص لنقطة ضعفنا في ذهني بقوة**. وقررت أن أتشبث بأي برنامج عمل بمجرد أن أقرر السير فيه. فالتغيير وفق **الأهواء وبمنطق الغاية تبرر الوسيله خطأ قاتل**. ولم أره أبدا يحيد عن موقفه مهما كانت الظروف. تلك كانت هي الكيفية التي تقبل بها بصمود وثبات، نيران قاتليه. فلم يكن من خلقه أن يساوم علي مبادئه لأغراض نفعية، حتى لو كلفه ذلك حياته.

وكان محمد سالم جينجا يتمتع بتلك الموهبة النادرة المتمثلة في القدرة علي التعبير عن أفكاره بأنسب تعبير. قال لي صحفي أمريكي صديق لي، بعد أن عرفه: " لم أقابل أحد من قبل ينتقي كلماته بمثل هذا الحرص. فأي كلمة يستخدمها هي أنسب ما يمكن أن يدور بخلد أي إنسان". واعتاد ذلك الصحفي علي تسميته: " سيد أكسفورد". ووصف جينجا ذات مرة عالما لا شاغل له إلا الفقه بأنه: " مجرد شخص همه الوحيد هو مظاهر الإسلام"، وهذا بحق هو النعت الملائم لمن ينشغل بغير القيم الروحية والأخلاقية الأهم والأكثر جوهرية.

وأتيحت لي الفرصة الأولي، بتتلمذي علي يد هولنجزويرث، لتعلم الإنجليزية علي يد مدرس منقطع النظير، الإنجليزية هي لغته الأم، ويمثل الطالب البليد تحديا له يصمم علي تفهيمه. وكان كثيرا ما يقول: " **لن يهزمني أحمق مثلك لابد أن تفهم**". ثم يحاول بكل الطرق توصيل المعلومة إلي أن يستوعبها أغبى تلميذ بالفصل. وكان الإنصات إليه وهو يدرس خبرة بحد ذاته.

التحقت **بماكريري دون امتحان بالمرة**. فقط، كانت مكالمة تليفونية شخصية من هولنجزويرث كافية لقبولي. أتذكر تلك الواقعة كما لو كانت قد حدثت اليوم. كنت منتظرا خارج مكتبه، وهو يقول في اتصال هاتفي مع مدير التربية والتعليم: "**علي محسن أفضل طالب رأيته في حياتي** ". خامرني إحساس بأنه كان مبالغا في قوله هذا، علي الرغم من أنني لم أجرب عليه المبالغة في الثناء علي أحد. فربما كان يشير إلي تلاميذه في المدرسة الثانوية، لأن تلاميذه بالمدرسة الابتدائية كان من بينهم **طلاب لامعين، قد لا أرقى إلي مصافهم.**

و زرته في مدرسته بعد مرور عام علي بالجامعة. كان أول سؤال طرحه علي: "**هل حافظت علي سمعتنا في اللغة الإنجليزية؟**". وبلغ بي الخجل حد التزام الصمت التام. سألني ثانية: "**هل تحافظ علي سمعة زنجبار في اللغة الإنجليزية، أم لا؟**" قلت بصوت هامس: " **نعم سيدي** ". رد بكلمة واحدة: " **حسنا**".

كان هذا هو هولنجزويرث، ومدى اهتمامه بطلابه، وحبه لزنجبار. وتمسك بهذا الاهتمام حتى آخر حياته في انجلترا. فسمى بيته الإنجليزي "**كليماني**: " بمعنى "**علي التل**" علي اسم موقع بزنجبار. وبعد تقاعده وانتهاء خدمته بزنجبار تولي تدريس

السواحيلية في جامعة لندن. وألف هناك كتابه: **زنجبار في ظل وزارة الخارجية**". قابلته عام 1952 أثناء مشاركتي في مؤتمر حول "**التعليم في إفريقيا البريطانية**" عقد في كامبريدج، حيث حدثني عن أطروحته للدكتوراه التي كانت حجر الأساس لكتابه المشار إليه. وقال أنها تعالج نفس الفترة التي غطيناها في جريدتنا الأسبوعية الوطنية الراديكالية، المسماة: "المرشد".

ولقد كنت أكتب سرا افتتاحيات لتلك الجريدة، وأنا لا أزال موظفا حكوميا، بوظيفة اخصائي زراعة مساعد. وجاءني **شاب وطني** يعمل كاتبا بمكتب سكرتير المالية يدعى محمد جساري، ومعه **ملف "سري** " ضخم، يتعلق بتحايل الحكومتين البريطانية والألمانية لاغتصاب أجزاء من الشريط الساحلي الزنجباري لصالح كينيا وتنجانيقا. وحين رأيت ذلك الملف أدركت أنه كنز ثمين. وقررنا أن يأخذ محمد جساري الملف معه **ويحضره لي في المكان الذي كنت أقيم فيه قرب الكاتيدرائية الكاثوليكية.**

وكتبت بدأب ما تيسر لي كتابته حتى منتصف الليل، على الآلة الكاتبة المحمولة. ثم ركبت دراجتي وذهبت إلي بيته في مشانجاني لأعطيه الملف ليضعه في موضعه في صباح اليوم التالي. وكررنا **صنيعنا هذا الليلة تلو الأخرى** حتى **أتممت نسخ الملف كله.** ثم التزمنا الصمت فترة. ثم فجرنا الموضوع بسلسلة مقالات بعنولن: "**الدليل الوثائقي** " فاضحين الطريقة المشينة التي يسلب بها الألمان والإنجليز أراض زنجبارية بالخديعة والاحتيال. وعلمنا من الملف أن كل هذا التآمر حدث علي الرغم من المعارضة الشديدة من جانب **السير آرثرهاردنج** القنصل البريطاني العام، والسير **لويد ماثيوس** اللذين لم يطاوعهما

ضميرهما لقبول الظلم المتجذر في تلك الأعمال المخادعة، رغم كونهما مسؤولين بريطانيين،. إلا أن اللورد سالسبوري أخرسهما بحكمه القاطع قائلا: "**هذه هي إحدى التضحيات التي يتعين علي زنجبار تقديمها من أجل المصالح الإمبريالية**".

هاجت السكرتارية (مركز الإدارة الاستعمارية) وماجت، مع فضح هذا المستور، خاصة مع فشلها في معرفة الكيفية التي وصلت بها تلك المعلومات الحساسة إلينا. وترددت شائعات بأن الشرطة ستغير علي مكاتب الجريدة. ولابد أن أعترف بأنني كنت منزعجا، لأنني لم أكن أريد أن يتحمل زميلي الصحفيين **أحمد سيف الخروصي ومسعود الريامي** وطأة ذلك الهجوم الرسمي، بينما أنا المسؤول الحقيقي عما حدث. ولكنني لم أرد أن أقدم علي أي إجراء طائش أو متهور. التزمت الهدوء إلي أن عالج الزمن بمروره الوضع بنفسه. وبعد **فضح تلك المراسلات السرية بات بإمكان هولنجزويرث، بلا ريب، استخدامها في أطروحته للدكتوراه، ونشر جزء منها في هيئة كتاب.**

وكان أستاذنا القديم هولنجزويرث قارئا مداوما لمطوية: **صوت زنجبار**، التي كانت تصدرها منظمة زنجبار بإشراف **أحمد سيف الخروصي** في بورتماوث بعد الكارثة التي دفعت بكثير من الوطنيين الزنجباريين إلي المنفي. وكان يرسل شيكا صغيرا إلي تلك المنظمة كلما اطلع في تلك المطوية علي مقال يرى أنه حرر بشكل جيد، كما حدث لدى نشر كتيبي الموسوم: "**كنت سجين نيريري** ". ، الذي وصفه في خطاب أرسله إلي وأنا بالقاهرة بأنه: "**رائع**". واقترح علي كتابة كتاب مطول بذات العنوان. والآن وأنا بصدد تأليف ذلك الكتاب، ولكنني لا أعتقد أنني سأحتفظ له بهذا

العنوان. ولبالغ أسفي، أنني تأخرت في تلبية طلبه، وأن هذا الكتاب سيصدر بعد وفاته بأمد طويل.

ومن أصحاب الفضل علي من مدرسي الثانوي السيد **قريش**، والسيد **ديسأي** الذين تعلمت علي يديهما **الفيزياء والكمياء والرياضيات**، وهي مواد أتيا من الهند خصيصا لتدريسها، وأحسنا تأسيسنا فيها، إلي حد أنني حينما التحقت بالجامعة **أنا وأحمد راشد**، لم نصادف صعوبة تذكر في مقررات العام الجامعي الأول. وكانت ماكريري عام 1937 جامعة حديثة عهد بالوجود، تتطلع لأن تصبح في نهاية المطاف الجامعة الأولي في شرق إفريقيا. وكان العامان الأولان في الواقع بمثابة تتمة لتعليمنا الثانوي. ويدرس الراغبون في الإلتحاق بكليات الطب والزراعة والطب البيطري معا في العامين الأولين مع التركيز علي الفيزياء والكيمياء والأحياء. أما السنوات الثلاث أو الأربع التالية فتخصص للمهن المختلفة.

و ساعدتني علاقتي مع أطفال من ضواحي أخرى حين دخلت المدرسة في طفولتي علي توسيع مداركي. ومن بين من توطدت عرى الصداقة بيني وبينهم من زملاء الدراسة: **حسين قحطان**، الذي كنا جميعا نغبطه علي شخصيته المثالية، و**عبد الله عجمي** الذي كان صاحب نكتة، بوسعه أن يجعل أبا الهول يضحك، و**رجب زايد** لاعب كرة القدم المدهش، وابن أخت **مزي مسقطي**، وهو شخصية شهيرة بين العاملين بأرصفة الموانى. وفضل رجب قضاء بقية عمره خارج زنجبار، لأنه وجد نفسه غير قادر علي العودة إلي وطنه بينما تعصف الصراعات العرقية به. وتزوج بفتاة بحرينية. ومات بالبحرين.

ومن بين الزملاء الذين **جمعتني بهم الدراسة في وقت ما**: إبراهيم خالد، وأحمد عبد الحميد الجداوي، وعلي محمد باعبدي، وأحمد رشاد، ومحمد أحمد الجهضمي، وعلي موينى حلوه (تامبوي)، وتوكل خميس، وصالح شوهيز، وصالح عوض، ويوسف علي باتوا، وفاضل عباس، ود. ن. شاه.

حادي عشر: أيام الجامعة

اتسع أفقي ليحتضن منطقة شرق إفريقيا كلها، وأنا في الثامنة عشرة من العمر، مع دخولي جامعة ماكيريري. فلقد كان بالجامعة **طلاب من كل القبائل، ومن كل أصقاع شرق إفريقيا**. وبالإضافة إلي ذلك، فإننا انتقلنا من مجرد التعلم علي يد أستاذ انجليزي واحد بالمدرسة الثانوية في زنجبار، إلي جامعة كل أعضاء التدريس بها بريطانيون، عدا أستاذين إفريقيين.

في البداية كان بالجامعة أربعة طلاب من زنجبار: أنا وعثمان شريف، وعلي خميس، وأحمد راشد. وبعد عامين انضم إلينا: محمد ناصر الحبسي، وعمر عبد الله، وسليمان سعيد الخروصي، وعبد الرازق عبد الودود، وزبير رجال، وكنجوابا حسن، وعبد الرسول خاكو، ومحمد الغساني، ومحمد علي عوض. وبعد أن تخرجت في تلك الجامعة التحق بها عبود جومبي، وأحمد عيدروس باعلوي، وغيرهم. ومع المجموعة الأخيرة، جاء نيريري.

وجمعتني مقاعد الدراسة مع: **عبد الله فونديكيرا، وهارون لوجوشا**، و**أرستو مانجينيا** (الذي اعتدنا في الجامعة علي تسميته: **مبوانا**)، و**بيم إبريك**، **جانداسكوي ماروما** من أوشاجا، و**جوديفري بنيسا**، الذي تولي منصب المدعي العام بأوغندا،

وتولي رياستها لفترة وجيزة. وكان **اوجينجا اودينجا** بالجامعة قبل أن أدخلها. ومن رفاق الدراسة أيضا: **لويمبازي** الذي شغل منصب وزير التربية والتعليم بأوغندا، و**مانجينيا** وهو من قبيلة البوندي من تانجا، وكان سفيرا لتنجانيقا بالأمم المتحدة حينما قبلت بلادنا عضوا بها. ونظم حفلا علي شرفنا ليلة وصولنا إلي نيويورك.

ومن أصدقائي المقربين بالجامعة أيضا **حارب سعيد**، الذي أمضى طفولته كلها بمدارس علمانية، ولم تتح له الفرصة لمعرفة أي شئ عن الإسلام، عدا ما تربى عليه، رغم أن والده كان معلم قرآن. وفشلت كل محاولات تنصيره. فلقد كان عنيدا. ولم يكن بالإمكان أن يرتد عن دينه.

ولما وصله **نبأ وفاة والده أصيب بصدمة عنيفة**. انهارت معنوياته، ولم يجد ما يواسي به نفسه. وأحس بعجز مطبق، لأنه لم يكن يعرف أي دعاء يدعو به لروح والده التي فاضت إلي بارئها. وتصادف أن كان معي نسخة من ترجمة **معاني القرآن الكريم بالإنجليزية**، أهداها إلي الشيخ **عبد الله صالح**، لدى مغادرتي زنجبار للإلتحاق بالجامعة. وكان صاحب تلك الترجمة **قسيس مسيحي**. وبالطبع كانت الترجمة متحيزة، والشروح الملحقة بها أبشع تحيزا. ولكننا لم يكن لدينا بديلا آخر في منتصف الثلاثينيات.

أعطيته تلك النسخة، وأرشدته إلي مواضع نصحته بقرائتها في فترة إحساسه بلوعة مصابه بفقد والده. وكان ذلك سببا في **تغيير مسار حياته**، إذ أنني بذلك فتحت عينيه علي رؤى جديدة تماما. وقذف الله تعالي في قلبه **حب القرآن** رغم أنه لم ينفتح عليه إلا

من خلال نسخة مترجمة محرفة ببنان نيافة القسيس المسيحي **رودويل**.

وأعلن صاحبي أن القرآن كشف له عن معرفة عجزت كل العلوم والمواد العلمانية أن تقدمها إليه. وقال أنه ليس بحاجة لأي كتاب مع القرآن، فهو يكفيه. وطلب مني أن أهدي إليه تلك النسخة، وكان له ما أراد.

وعندها طلب مني أن أعلمه **تلاوة القرآن باللغة العربية**. اشترينا كتاب تعلم الأبجدية العربية من كمبالا. وفي غضون بضع أسابيع، كان صاحبي قد تعلم النطق بلغة الضاد. طلب مني أن أعلمه **كيفية الصلاة**. وأصبح من أكثر المواظبين عليها والخاشعين فيها.

ومن أصدقائي بالجامعة أيضا: **كينيا، ومبوثيا** وكلاهما من قبيلة الكيكويو، تخرجا طبيبين. ومن أصدقائي المقربين **ماجوجو**، ابن عم حاكم مملكة **بونيورو بأوغندا**، والذي تخرج في الجامعة طبيبا، وذاع صيته في الخدمة العامة في منطقة شرق إفريقيا.

وتولي رئاسة الجامعة في **العام الثاني** لي بها، **جورج شارلوود تارنر** الذي كان عميدا لكلية مارلبورو بانجلترا، التي هي واحدة من أعظم المدارس الإنجليزية، وتدرج في مصاف مدارس ايتون وهارو البريطانية الشهيرة. وأثار تعيينه في وظيفته الجديدة جدلا كبيرا في الأوساط الأكاديمية في بريطانيا. فلقد كان تربويا رفيع المقام. ودفع معارضو شغله للوظيفة الجديدة بأن خروجه من بريطانيا **بمثابة نزيف للأدمغة**. فالحاجة ماسة لأمثاله في وطنه. أما أصحاب وجهة النظر الأخرى، من **أمثال جريدة التايمز**

اللندنية، فرأوا أن اختياره لتلك الوظيفة بالخارج، يلفت أنظار الجبابرة من أمثال هتلر وموسوليني، إلي أن بريطانيا لا **تبخل علي مستعمراتها بأفضل علمائها.**

وجاء هذا التعيين بعد أن كان **دوق جلوسستر**، شقيق **الملك جورج السادس**، قد دشن أول مراسم قطع أول عشبة علي تل ماكيريري، إيذانا ببدء **بناء المبنى الإداري لماكيريري الجديدة.** ولم يكن الكابتن **تومبلنج** رئيس الجامعة السابق مثقفا بمعنى الكلمة، بل كان **نقيبا متقاعدا** من قوات الرماة الإفريقية الملكية. وأدار الجامعة، علي شاكلة **إدارته للثكنات العسكرية**، حيث كان شاغله الأكبر هو **الانضباط**، مع **معرفة لاتكاد تذكر بكيفية إدارة مؤسسة أكاديمية.** إلا أنه كان صاحب **نكتة** خففت بعض الشئ من صرامته.

كان ممازحا، ومن السهل التعامل معه لمن يحترم أساليبه الصارمة. قال ذات يوم وهو يتسامر مع بعض الطلبة: " بعضكم يأتي إلي هنا ويخرج، كالغنم، دون أن يترك أثرا. أنت يامحسن، علي سبيل المثال، لم ترد إلي أي شكوى من ارتكابك أي مخالفة. فأنت لا تتعاطى الخمور. ولا تقفز من فوق السور بالليل. أنت مثل الخروف تماما".

وفي عهده كان لزاما علينا تأدية **التمارين الرياضية** في السادسة صباحا، تحت إشراف **موجيري** الذي كان رقيبا تحت قيادته إبان الحرب العالمية الأولي. وكانت تلك التدريبات صعبة. ولكنها أفادتنا بدنيا للغاية. وفي غضون ثلاثة أشهر تحولت من شاب ضعيف لا طاقة لي بالمجهود البدني إلي شاب مفتول العضلات.

وبجانب التمارين البدنية كنا نلعب كرة القدم والتنس وسباق اختراق الضاحية الذي كان تمرينا صعبا بحق.

بدأنا بخمسة كيلومترات. وانتهينا بأحدعشرة كيلومتر. نصعد التلال المحيطة وننزل إلي الوديان بماكيريري. أما **النخبة** فكانت تنفذ سباق الماراثون الطويل لمسافة **خمسة وثلاثين** كيلومترا من عنتيبي إلي كمبالا. ولم أكن من بين أفراد تلك النخبة. ولم يكن **تومبلنج** يقبل أية أعذار للإعفاء من تمرين اختراق الضاحية. وكان يقول لنا، عندما نصاب بالحمى: لا مفر من أن "**تجري وتعرق**". واحتفظت ماكيريري بالصدارة في كرة القدم وفي المنافسات الرياضية طيلة رئاسته لها. بل إنه كان يضم بعض طلاب الثانوي في فريقها الرياضي، في بعض الأحيان لتفوقهم في المجالات الرياضية، وليس لتفوقهم الدراسي. أما **جورج تينر فهو من نوعية أخرى. كان مثقفا لامعا بليغا من الطراز الأول.**

وتضمن برنامج تدريبنا كطلاب زراعة إمضاء عام في **مركز بحوث شمال أوغندا، بمنطقة** سيريري، التي هي الأكثر جفافا، فضلا عن كونها، علي النقيض من منطقة، ماكيريري حارة وسهلية وبدائية، ويندر وجود شئ فيها يخفف من رتابة المشهد. إلا انني لم أتمتع بجمال السماء مثلما تمتعت به في هذه المنطقة. لم يكن علي الأرض ما يسر الناظر. ومن ثم كانت جاذبية تقليب الوجه في السماء.

وفي ضواحي مركز البحوث، كان يوجد تجمع عمراني صغير، مكون من بعض المحلات المصنوعة من صفائح الحديد المموجة. أما البشر سكان تلك المحلة فهم: **عجوز عربي يمني** وابنه الشاب (يشتريان الماعز بسعر منخفض نسبيا، ثم ينقلانها

إلي كمبالا أو إلي الساحل حيث السعر الأعلي بكثير)، **وسواحيلي** (من باجامويو يكسب قوام حياته من ماكينة خياطة)، **ورجل عجوز** (اثناعشري من زنجبار، رحل إلي ذلك المكان النائي، بعدما فقد كل أمواله. وافتتح بقالة صغيرة بالغة التواضع، لا يوجد بها حتى كرسي يجلس عليه. وكان يقدم لنا أفضل ما لديه من كراتين الصابون، لنجلس عليها، لأنه كان يعتبرنا ضيوفا من نوع خاص).

وكنت أنا وعلي خميس محل حفاوة **علي الدوام من هؤلاء الإخوة بسبب تديننا**. بل إن هذين العربيين أعربا لنا عن رغبتهما في تناولنا طعام الإفطار معهما طيلة شهر رمضان، فاعتذرنا لهما بأدب. ولكننا كنا نقضي عيد الفطر، والمناسبات الأخرى معهما، لإحساسنا بأن ذلك يسعدهما إلي أبعد حد. وكان بمركز البحوث **عاملان نوبيان سودانيان هما: العجيب، وخادم الله**، خدما في قوات الرماية الإفريقية الملكية في الحرب العالمية الأولي، واستدعيا للخدمة العسكرية ثانية حين نشبت الحرب العالمية الثانية عام 1939.

أمضينا العام مع هؤلاء الأصدقاء في سيريري علي خير وجه، إلي حد أن الغيرة منا كانت تدب في نفوس زملائنا الأوغنديين والمسيحيين، فيقولون: " **إنكما تشعران أنكما في وطنكما أكثر منا، بسبب إخوانكم المسلمين**". واعتقد أنا شخصيا، أنه لو أن نبينا صلي الله عليه وسلم لم يفعل **أكثر من إيجاد الحب والأخوة بين المسلمين، مما جعل أفرادا مثلي أنا وعلي خميس نشعر وكأننا في وطننا أينما ذهبنا، لكان ذلك يعد بحد ذاته اسهاما لا يضاهيه أي اسهام آخر.**

كنا ذات مرة علي متن إحدى السفن الأخوات الثلاث – انشانجا، اسبينجو، انكوماتي – التابعة لخطوط الملاحة البحرية الهولندية، فيما لو لم تخني الذاكرة، اللاتي تجبن مياه المحيط الهندي جيئة وذهابا، ما بين الشرق الأقصى وشرق إفريقيا. تلك السفن البيض الجميلات، التي أبحرنا علي متن إحداها من زنجبار إلي ممباسا في طريقنا إلي أوغندا، برفقة الشيخ علي أحمد الريامي، ومحمد سعيد الريامي، وإخويه أحمد وناصر، الذين كانو في طريقهم إلي لامو. وكنا كلنا مسافرين علي السطح.

وحينما غادرت السفينة ميناء زنجبار عند الظهر، سمعنا مناديا يؤذن للصلاة. تعجبنا. فمن المستحيل أن يكون صوت المؤذن آت من مسجد، لأننا كنا قد صرنا في عرض البحر ولم تكن المساجد آنئذ مزودة بمكبرات صوت. لا. الصوت قادم من علي متن السفينة ذاتها. تحركنا باتجاه الصوت، فوجدنا **صلاة جماعة** بكل معنى الكلمة، والمصلون مصطفون وراء إمام، فلحقنا بهم علي الفور. وتبين لنا لاحقا أن كل طاقم السفينة **مسلمون من البنغال** – بنجلاديش الآن. غمرتهم السعادة لما علموا أننا مسلمون مثلهم. إلا أننا لسوء الحظ، عجزنا عن التواصل معهم بالكلام، بسبب حاجز اللغة. فقط تواصلنا بتعبيرات إسلامية مثل: **الله أكبر، ماشاء الله**، وما شاكل ذلك. وفي المساء أمدونا بعشاء دسم، وكلما قلنا: ما شاء الله، والحمد لله، أمدونا بالمزيد والمزيد، إلي أن كففنا عن الكلام.

و كنا طيلة سنوات إقامتنا في كامبالا، ضيوفا محتفي بهم، في كيبولي بمنزل الأمير بدر ككونجولو، ابن عم كباكا ملك أوغندا، وفي منزل **سليمان مزي** الذي غادر والده مزي مانوتي زنجبار من

زمن طويل، واستقر به المقام في أوغندا، وفي منزل **محمد ناشر** المقيم في كاومبي، غير البعيدة عن ماكيريري. وكانت كل تلك البيوت على الدوام كأنها بيوتنا. . وكان صديقنا الكبير **إيميل ابريك** وهو ابن لأب ألماني ولأم من التشاجا، بمثابة أخ لنا. وكان يعمل كاتبا خصوصيا لمدير التربية والتعليم، بينما كان شقيقه **بيم** يؤدي تدريبه العملي الطبي في ماكيريري وفي مستشفي مولاجو.

وفي كل محطة قطار، في طريقنا إلي كمبالا أو في طريق عودتنا منها، كان إخواننا من **جزر القمر أو من الساحل** يحرصون علي أن يكونوا في استقبال القطار، باحثين عن من يبدو من سيماهم وملبسهم أنهم مسلمون، ليساعدوهم بكل الطرق الممكنة، وليقدموا لهم الفواكه وبعض الطعام المعد في بيوتهم. كانوا يصطحبوننا للتسوق، أو لتناول الغذاء في مطعم في نيروبي حيث يتوقف القطار فيها لاستراحة طويلة. وكانوا يفعلون ذلك بصرف النظر عما إذا كنا نعرف بعضنا أم لا نعرف.

ثاني عشر: علي أحمد الجهضمي

كان يتعين علينا الانتظار في ممباسا، لدي مغادرتنا ماكيريري، أو لدى العودة إليها، فترة تطول أو تقصر، حيث نحل ضيوفا علي **علي أحمد الجهضمي**، صديقي الحميم القديم، المقيم في زنجبار بالقرب من بيتنا، ويكبرني بعامين أوثلاثة أعوام، والذي كنا نلعب معا في فريق كرة قدم واحد، ونمارس السباحة معا. وكان يجيد لعبة الكريكيت التي لم أفلح في تعلمها. وأقام حين كان في زنجبار مع بعض إخوته وأخواته، في بيت خاله الفاضل

محمد بن سيف والفاضلة رايه ماجد (الشهيرة ببنيومو). وأصبح هؤلاء أقاربي بحكم النسب فيما بعد، لأنني تزوجت ابنتهم عزة.[11]

ولم يكن يفصل بين بيتنا وبيتهم في الباغ غير الكنيسة الكاثوليكية. وكان أقرب طريق بين البيتين هو العبور من فناء الكنيسة. وتم استبدال الباب الرئيس القديم لمنزل أصهاري بباب جديد مصنوع علي الطريقة الزنجبارية، في ورشتي.

وقال لي النجار **سليمان بكري** أن الذي علمه تلك الصنعة هو **ناصر بن خلفان البروانـي** خال أمي وشقيق روماليزا. وفي مواجهة هذا المنزل كان يوجد بيت مرتفع، ملكه في حين من الدهر الثري **سيف الصباحي** الذي تزوجت إحدى بناته، الفاضل **علي عيسى** أحد أقاربي الذي تولي أمانة صندوق حزبنا فيما بعد، بينما تزوج عم زوجتي الفاضل **سعود ماجد** ابنته الأخرى الفاضلة **جوخه**. وقال لي والدي رحمه الله أنه هو الذي خطب لهما تلكما البنتين.

وكنت أرتب مع علي الجهضمي لنلتقي في الطريق إلي المدرسة صباح كل يوم. وتجدر الإشارة إلي أنه من **مواليد لامو**. وهو بهذا

---

[11] في يوم الجمعة، الفاتح من سبتمبر 1995 (السادس من ربيع 1416 هـ) توفي صديق عمري علي أحمد الجهضمي، بأزمة قلبية، في ممباسا عن عمر يناهز الثمانين عاما. وداهمته تلك الأزمة وهو يسبح، وفسح الله في عمره قدر وصوله إلى بيته لتفارق روحه جسده فيه.

وتماما كما صمم ليو تلستوي على ان يلفظ أنفاسه الأخيرة في حديقته التي أحبها، أصر علي أحمد الجهضمي على الذهاب للسباحة، رغم أنه لم يعد أهلا لها. فلقد كان للبحر سحره بالنسبة له. أسأل الله الرحمة له هو وكل عائلته. – المؤلف.

الاعتبار **زنجباري بالمولد**، لأن ساحل كينيا كله من لامو إلي فانجا كانت جزءا لا يتجزأ من ممتلكات السلطان حتى نهاية عام 1963، حين آلت السيادة عليه إلي الجمهورية الكينية حديثة العهد بالوجود. وبمقتضى القانون الزنجباري، ووفق الأعراف الدولية المستقرة، فإن كل من ولدوا علي أراض خاضعة لسيادة السلطان هم زنجباريون بالمولد، وذراريهم أينما ولدوا، **زنجباريون بحكم النسب**، ما لم يختاروا **تغيير جنسيتهم بجنسية أخرى**.

كان من المفترض أن يلتحق صديقي علي بجامعة ماكيريري قبلي بعام. ولكن طبيبا بمستشفي حكومي كان ينتظر الحصول منه علي رشوة، أعاده بدعوى عدم اللياقة الطبية. ظن ذلك الطبيب أن علي ثري، وبوسعه أن يقدم له هدية جميلة. بينما كان ذلك مجانبا للصواب. فلم يكن علي ثريا. ولم يكن يدور بخلده أبدا التفكير في إفساد مسؤول برشوة، حتى لو كانت حالته المادية تسمح له.

وكان علي هو أفضل طالب في مجموعته من الناحية الأكاديمية. ولكنه، لم يلتحق بكلية ماكيريري بسبب ذلك التقرير الطبي، وصار مدرسا بمدرسة ابتدائية في ممباسا براتب يسير. وبإيثار جميل استقبلنا في بيته المتواضع في كيبوكوني بممباسا. وكان يفترش هو وإخوته الأرض ويتركوا الأسرة لنا، وتجهز أمه العجوز بيشنجازي، وأخته **شريفة** الطعام للضيوف والزوار الذين لا ينقطع حلول ركبهم عن بيتهم المتواضع.

ومن المفارقات أن صديقي علي الذي صار فيما بعد **محافظا** إلي حد بعيد، هو الذي فتح عقلي علي كتابات هارولد لاسكي وبرنارد شو، وسيدني وباتريس ويب، ومايكل فوت، يساريي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، والذين قد لا يعتبرون بمعايير

اليوم راديكاليين. ولكن الإطلاع علي جرائد النيوستاتسمان والناشيون، كان يكفي في تلك الحقبة المبكرة لدمغ فاعله بالتخريب، في نظر السلطات الاستعمارية. وشاء الله تعالي أن يصير صديقي القديم علي نسيبا لي، حينما تزوجت عزة قريبته عام 1944. وأعطاني حين زرت لندن للمرة الأولي البدلة الصوف التي استمددت منها الدفء في خريف شديد البرودة. فلقد كنا نلبس نفس المقاس، رغم أني كنت فيما أعتقد أطول منه وأسمن بعض الشئ.

وساعدني علي في صياغة **مسودة القانون الأساسي الحزب الوطني الزنجباري** في فترة تأسيسه. ، ولكنه تحول فيما بعد مع ارتقائه في سلم الخدمة الحكومية، إلي العزوف عن العمل السياسي. واستاء علي وجه الخصوص من علاقتي بمصر، التي كان التوجه المعادي للغرب يتجذر بها باطراد.

فلم يكن علي يطيق علي وجه الخصوص أن يرى تمثالا نصفيا صغيرا لجمال عبد الناصر بحجرة الجلوس في بيتنا. وامتنع عن زيارة بيتنا فترة لهذا السبب. وبعد الإطاحة بحكومتنا، وتعرضه هو نفسه لنفثة السجن دون محاكمة التي أصابت الكثيرين في ظل نظام حكم كارومي، رق قلبه. واعتاد طيلة سنوات اعتقالي علي إهداء ذبيحتين لأمي، في عيد الفطر، إلي أن وافاها الأجل.

واستعدنا أواصر العلاقة الحميمة القديمة مع علي، حينما عشت مع زوجتي بضع سنين في ممباسا بعد مغادرة القاهرة. وكان يقضي أيام الآحاد معنا في منزلنا الجميل علي شاطئ موتنجوي.

وبذلنا معا غاية ما في وسعنا لمجابهة الصراعات الطائفية السائدة في منطقة الساحل. وحاولنا تشجيع تشكيل جبهة مشتركة بين العرب والأفارقة. ولم ندخر وسعا خلال الزيارات الدورية السابقة التي كنت أقوم بها لممباسا قبل تأسيس الحزب الوطني الزنجباري، حينما كان علي يعمل هناك مدرسا، في استئصال شأفة دواعي الخلاف بين العرب والأفارقة.

وكان العرف السائد آنذاك في كينيا هو النظر إلي كل شئ بمنظور تصنيفه في خانة من ثلاث: أوربي، أو أسيوي، أو إفريقي. ووجد العرب والسواحيليين أنفسهم أمام خيار صعب، محوره إشكالية: هل هم **أفارقة** أم **آسيويون**؟ في نظري أنا وعلي كانت الإجابة علي السؤال واضحة ومحددة، **بأن العرب والسواحيليين هم من أهالي شرق إفريقيا الأصليين، ومصيرهم مرتبط بإفريقيا.**

وكان الأفارقة في تلك الآونة، هم **الفئة المستضعفة**، ويتعرضون للتمييز ضدهم بكل الطرق المتصورة. ونجحنا في تحصيل تعاطف بعض الشبان التقدميين مع مسعانا، **أذكر منهم:** عبد الله سراج الدين، وسالم مهشم، ومحمد علي سعيد، والتمامي، وحيدر متانو.

وتصادف أن وصل في ذاك الوقت، شاب مولد، أحد أبويه من الكيكويو، والآخر من الجوا بالهند التي كان يدرس بها، اسمه: **جوسيف موورومبي**. ألقى ذلك الشاب كلمة، بصالة اتحاد الشبان العرب في ممباسا الكائنة قبالة سينما ماجستيك، أمام حشد معظم أفراده يماثلونه في ملامحه ولون بشرته وهيئته، ناشدهم فيها الوقوف صفا واحدا مع الأفارقة في نضالهم من أجل القضاء علي

التفرقة العنصرية. وانتهي المطاف بهذا الشاب إلي شغل منصب نائب رئيس كينيا. ولو تم القيام آنئذ، منذ نصف قرن، بإجراء حاسم في هذا الاتجاه، وتحققت وحدة الصف لتجنبنا الكثير من سوءات الطائفية البغيضة التي ابتلي بها العمل السياسي في شرق إفريقيا. **فالوحدة بين أفراد الشعب هي علي الدوام التهديد الأعظم للإستبداد.**

ولم يرق للمستعمرين محاولتي بث روح الوحدة تلك بين أبناء الساحل فبعد ذلك بعقد من الزمان، صنفت مرتين في كينيا البريطانية بأنني "**شخص غير مرغوب فيه**. وكانت جريمتي في كينيا كما كانت في زنجبار هي الدعوة إلي **الوحدة، ومعاداة العنصرية**. فالاستعماريون وأذنابهم، أيا كان المسمى الذي يطلقونه علي أنفسهم، لا يستطيعون قبول أية محاولة لإزالة تلك الأعمدة التي بنوا عليها بنيانهم.

الفصل التاسع

الحرب والزراعة[1]

بينما كنت أدرس بماكيريري، اندلعت الحرب العالمية الثانية. وكنا ساعة الإعلان عنها في أجازة قصيرة. ، ولم نكن نحن الطلبة الوافدون من زنجبار نعود إلي الوطن في مثل تلك العطلات القصيرة، لأن الرحلات البحرية بين ممباسا وزنجبار لم تكن منتظمة علي نحو يعول عليه، والفترة المتاحة محدودة. وفجأة استدعاني أمين خزانة الكلية إلي مكتبه، وأخبرني أن إحدى صالات الإقامة ستسحب منا، لأن أشخاصا ألمان سيقيمون بها حتى حين. وكان أولئك الألمان مدنيين ارتأت السلطات احتجازهم فترة الحرب لأسباب أمنية.

وأتوا إلينا بمذياع مهيب، كنا نتحلق حوله كل مساء لنستمع من **هيئة الإذاعة البريطانية إلي أخر الأنباء**. . كان ذلك قبل اختراع أجهزة الراديو الترانزستور الأكثر ملائمة، وإن كانت أقل بهاء. ولو

---

[1] يستعرض المؤلف موضوعين بالغي الأهمية في هذا الفصل، **أولهما**: المقارنة بين شموخ قادة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، خاصة تشرشل، في تعاملهم مع بلدان المحور المهزومة، وبين حماقة قادة الحرب على العالم الإسلامي الآن، في ضوء ما يفعلونه بجسد بلاد الرافدين الجريحة، وبأطفالها ونسائها وشيوخها، وفي البوسنة. أما الموضوع الثاني، فهو محورية الاكتفاء الذاتي الغذائي، خاصة في زمن الحرب، والحاجة إلى التعامل بالإقناع، وليس بالروتين البيروقراطي، ولا بالقمع البوليسي مع المزارعين، مع التلويح بأهمية الآصرة الدينية في كسب الشعبية الحقة. – المترجم

كان بمقدور المرء آنذاك أن يقتني جهاز راديو، لاعتباره قطعة أثاث مثيرة للإعجاب، ووضعه في غرفة الجلوس.

وكان **ريتشارد ديمبلبي** وآخرون يحيطوننا بمجريات الحرب من ساحات القتال. وكان المذيعون بهيئة الإذاعة البريطانية يتحدثون الإنجليزية علي أصولها، وليس كما ينطقها المذيعون الحاليون بتلك الإذاعة أو بقناة سي إن إن التلفيزيونية علي نحو متسرع، ومن العسير علي الأذن متابعته، في هذا العصر الذي انقلبت فيه الموازين. فلقد صار اليوم مذيعو دبي هم القدوة التي يجب أن يقتدي بها الآخرين.

اقتطع هتلر المناطق الغربية من تشيكوسلوفاكيا بذريعة أن سكانها من أصل ألماني، ثم التهم بقية تشيكوسلوفاكيا، بحجة أن عاصمتها براغ هي "**طاعون أوروبا**".

ولأول مرة، سمعنا عن استخدام "**الطابور الخامس**" لتسهيل عملية الغزو (وهو ذات التكتيك الذي استخدمه **نيريري في غزو زنجبار** عام 1964). ثم سقطت بولندا، وهولندا، وبلجيكا، ولكسمبرج، والنرويج، التي باعها الخائن الميجور **كويسلنج**، متأثرا **بأيديولوجية الاشتراكية الوطنية** لهتلر، بشكل مماثل إلي حد بعيد لبيع حفنة من **الخونة بلادهم زنجبار لنيريري** بعد ذلك بنصف قرن.

ثم سقطت فرنسا التي كانت أعظم وأقوى حلفاء بريطانيا. ثم جاءت دانكيرك مجسدة للتقهقر البريطاني الملحمي من أوروبا. وباتت بريطانيا بلا سند في الميدان، قابلة للغزو علي يد عدو لا يرحم. وباتت استراتيجية **الحرب الخاطفة** التي طبقها هتلر حقيقة

مرعبة. وعند وصول الوضع إلي هذه الحالة، كشف تشرشل عن مواهبه كزعيم. وحين آلت القيادة إليه من تشامبرلين المريض والمداهن، أعلن أمام البرلمان والأمة البريطانيه مقولته:

"ليس أمامي ما أقدمه غير الدم والكدح والدموع والعرق. سنواصل القتال في التلال، وفي الشوارع. ولن نستسلم أبدا. وحتى لو غزيت هذه البلاد أو جزء منها، أو تم إخضاعها، وهو ما لا أعتقد أنه سيحدث علي الإطلاق، فإن إمبراطوريتنا المسلحة والمعززة بالأسطول البريطاني، ستواصل القتال، إلي أن يهب العالم الجديد بكل موارده لمؤازرة العالم القديم".

قال تشرشل هذه الكلمات في وقت بدا فيه أن **الديكتاتوريات مظفرة، وأن الديموقراطية تترنح**، علي الأقل في ميدان القتال. وفي حين غزت القوات الألمانية النرويج بدقة بالغة، منيت الحملة البحرية البريطانية الرامية إلي نجدة القوات النرويجية المرابطة في المنافذ البحرية بفشل ذريع. ذلك أن وحدات الأسطول كانت أضخم من الممرات التي كان من المفترض أن تدخلها. وافتقرت الزوارق التي تحمل مشاة البحرية حتى لمياه الشرب. ولم تكن المدافع التي تحملها مناسبة لمواقع نصبها. وهكذا وقعت قوة الإنقاذ البريطانية في تخبط متواصل. أما الشئ الوحيد الذي لم يهتز فهو: **معنويات تشرشل وصوته الذي بات رمزا يتلخص فيه كل شئ**. استمعنا إليه بالراديو وهو يخاطب قوة بريطانية أرسلها إلي النرويج، ويقول:

"أنتم طليعة الجيش. نرسلكم نحن وحلفاؤنا الفرنسيون لتطهروا أرض النرويج، أرض الفايكنج، من تلوث الطغيان النازي القذر"

كلمات جريئة من زعيم جرئ. ولكننا حين جلسنا نشاهد شريط الأخبار بالسينما فيما بعد، رأينا تشرشل يخطب في حوالي **عشرة من الناجين** البؤساء من كارثة النرويج. لم يكن هناك في ذلك الوقت تلفاز أو أشرطة فيديو. لكن هتلر لم يقدم علي غزو بريطانيا. **لماذا؟** اعتقد شخصيا أن السبب هو **تشرشل، الذي جعل هتلر يعتقد بحقيقة أن كل البريطانيين هم من طراز زعيمهم المقدام**. أما لو كان الذي يقود بريطانيا شخصا ضعيفا مثل تشمبيرلين، في ذلك الظرف الخاص، لعبر هتلر القنال الإنجليزي والتهم بريطانيا، التي كانت، **لولا تشرشل، آيلة للسقوط.**

وحينما كنت أنا ومحمد سالم سيف المعمري، في زيارة لبرلين الغربية عام 1962، سألنا ضابط التشريفات الذي عين مرافقا لنا، عن رأيه في مختلف الجيوش التي حاربت الألمان في تلك الحرب، التي فقد فيها هو نفسه أحد ذراعيه، فرد بقوله: "**كانت القوات الأمريكية هي الأفضل عتادا وتجهيزا وغذاء. أما الروس فكانوا يكتسحون بمجرد الكثرة العددية. تقتل ألفا منهم، فينهض لمواجهتك عشرة ألوف. أما البريطانيون فاتسموا بالصرامة والإقدام**".

وبلغة الحكماء يلخص تشرشل هذا كله بقوله:

"العزيمة والثبات في الحرب. والتحدي عند الهزيمة. والشهامة عند الانتصار"

وقبل ما يربو علي ألف عام جسد النبي صلي الله عليه وسلم كل هذه الخصال. **فلا أنصاف حلول في محاربة العدوان.** وبهذا المبدأ غلبت فئة قليلة مؤمنة يوم بدر قوة معادية أقوى عتادا، ويماثل عددها ثلاثة أمثال عددها. وفي موقعة أحد، وفي الوقت الذي أصيب فيه النبي نفسه، وقل عدد الصامدين حوله من رجاله، ننصت إليه صلي الله عليةه وسلم وهو يأمر **جنوده المهزومين المكلومين بأن يطاردوا العدو المنتصر ليرمي الله تعالي الخوف في قلوبهم.** وعندها لاذ الكفار بالهرب لتوهمهم أن المسلمين قد جاءهم مدد.

وحينما دخل عليه السلام **مكة مظفرا**، وكل من اضطهدوه من قبل باتوا رهن إرادته، صار نموذجا مجسدا **للشهامة والعفو الصفح الجميل.** ولننصت إليه وهو يقول لهم: **ماذا تظنون أني فاعل بكم؟** فيردون: **أخ كريم، وابن أخ كريم.** فيعلن عفوه العام عنهم ويقول: **"اذهبوا فأنتم الطلقاء".**

وفي ظرف مماثل تعامل صلاح الدين بالشهامة والصفح الجميل مع المسيحيين المهزومين حين حرر القدس من الصليبيين، مع أنهم هم نفس الصليبيين الذين سبق أن سفكوا دماء المسلمين في مذابحهم بالمسجد الأقصى، حتى وصلت تلك الدماء إلي ركب خيولهم.

وأبدى الحلفاء شهامة جديرة بالثناء في تعاملهم مع الألمان واليابانيين بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها. ولكن الأسى يعتصرنا ونحن نرى مواصلتهم بإصرار فرض عقوباتهم الجماعية علي المدنيين العراقيين من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء علي مدى سنوات بعد انتهاء حرب الخليج. ولو كان قادة

يتحلون بالشهامة والفروسية من أمثال تشرشل وديجول وروزفلت هم المسؤولون عن السياسة الغربية اليوم لما تصرفوا علي هذا النحو، ولما نقبوا عن ذرائع للعدوان، واختلقوا ذرائع جديدة، لمواصلة قتل العراقيين بالحرمان المتواصل من ضروريات الحياة التي يريدون شراءها بمواردهم الخاصة.

ومن الجدير بالذكر، هنا أن **تشرشل** حين كان وزير دولة لشؤون المستعمرات بلغ من الحكمة حدا جعله يأخذ بمشورة **لورانس العرب**، وينصب فيصل بن الحسين ملكا علي العراق، وعبد الله بن الحسين ملكا علي الأردن، واستعاد بذلك السلام إلي تلك المناطق المضطربة وغير الراضية. **ولم تعامل ألمانيا وإيطاليا التي شنت حربا عالمية دامت ست سنوات، وأودت بحياة ما يزيد عن أربعين مليون نفس، بمثل تلك القسوة والدناءة التي يعامل بها العراق الآن.**

وتطاول أمد الحرب العالمية الثانية، واتسع نطاقها. وانضمت إليها الولايات المتحدة، إلي جانب بريطانيا، بينما انحاز الإيطاليون واليابانيون إلي ألمانيا. ومن ليبيا هدد الإيطاليون والألمان مصر. ووصلت قواتهم إلي منطقة العلمين، في طريقها إلي الإسكندرية. وكان الجنرال الألماني رومل قائدا شديد المراس. وبدا أن ما حدث في أوروبا سيتكرر في شمال إفريقيا.

وهنا جاء الهجوم البريطاني المضاد بقيادة مونتجومري. واضطر الألمان والإيطاليون إلي التقهقر. وفي تلك اللحظة استمعنا إلي **تشرشل** يتحدث في الإذاعة دون أية تمهيدات، ويقول:

"حديثي الليلة إلى **الإيطاليين**. أقول لكم بلغة الدبلوماسيين، كلمات ملؤها الصراحة والاحترام: **نحن في حرب**. وهذه حقيقة **محزنة ومؤلمة**. فما كان يدور بخلد أحد حتى السنوات السوداء القليلة الأخيرة أن الشعبين البريطاني والإيطالي سيحاول كل منهما تدمير الآخر؟ لقد كنا أنصارا لغاريبالدي، ومن المعجبين بمازيني وكافور، وبتلك الحركة العظيمة التي بها استنار القرن التاسع عشر، ووقفنا معا في خندق واحد، في الحرب الأخيرة ضد البرابرة الهونيون. والآن **تدور الحرب بيننا؟ ما الداعي إلى ذلك؟ أسألكم عن السبب.**

وقد تسألون أنتم أيضا السؤال ذاته. سأجيبكم معشر الإيطاليين. إن ثمة **شخص واحد لا غيره يقف ضد إرادة الملك والأسرة المالكة في إيطاليا، وضد البابا وكل ما للفاتيكان من سلطة**، هو المسؤول عن وضع الأمناء وورثة روما القديمة في صف البربري الوثني المتوحش. ويحاول طياروكم إلقاء قنابلهم علي لندن. وها هي **جيوشنتا تطحن امبراطوريتكم الإفريقية**، وستواصل **تمزيقها إلي أن تصير أشلاء، وعدما بعد عين**. ونحن الآن في بداية هذه **الحكاية الكئيبة**. فمن ذا الذي يستطيع الجزم بما ستنتهي به هذه المواجهة؟"

اقتطف هذا كله بعين كلمات تشرشل، وإن بشئ من التحوير، لأنني أنقلها من ذاكرتي. ولا أستطيع القطع بدرجة قربي من الكلمات التي نطق بها في تلك المناسبة. إلا إنني أود القول أنني حين سمعتها من أكثر من نصف قرن امتلأت نفسي بالإعجاب

بها. وغاصت تلك الكلمات أو زبدتها في عظامي، وسرت فيها حتى النخاع.

ووصف أحد الكتاب تشرشل في تلك الاونة بأنه "فريد عصره في فاعلية استخدامه للغة الإنجليزية". ومرد إعجابي الشديد بهذا الزعيم، أنه كان شديد الإيمان بنفسه وبقدرة شعبه علي التغلب علي كل الصعاب، وللقضية التي كرس حياته كلها لها. ولننصت إليه وهو يقول في بعض ما خطته يداه: "لا أخشى جيشا من الأسود يقوده خروف. ولكن احترامي كله لجيش من الخراف يقوده أسد ".

بالعودة إلى دراستي في أوغندا، لم يحالف التوفيق كلا من عثمان شريف وعلي خميس في الامتحان في العام الثاني من الدراسة في ماكيريري. فلحقت بهما أنا وأحمد راشد. وبموجب ما حدث تعين علي عثمان شريف التحول من دراسة الطب البشري، إلي الطب البيطري. أما **علي خميس** فقد انهارت معنوياته، إلي حد التفكير في الاتحاق **ببرنامج تأهيل الشرطة** في مدرسة أوغندا لتأهيل الشرطة، وهو برنامج أقصر في مدة إنجازه، وليس أكاديميا إلي حد بعيد. وكان علي خميس أسن منا، ويعول أسرة ممتدة.

ولما أخفقت في إقناعه بأن يثبت، ويواصل دراسته، فاتحت أستاذنا السابق **المعلم هلال** في هذا الأمر أثناء قضائنا أجازة في زنجبار، وطلبت منه أن يحث صديقي علي عدم فقدان الأمل. وأتذكر كما لو كان ذلك قد حدث اليوم، والمعلم هلال واقف أمام سينما منازيموجا، يتحدث بحماس مع علي خميس ليقنعه بالبقاء، وإتمام برنامج الدراسات الزراعية الأطول، لما يتيحه له من فرص أفضل في المدى البعيد. وفي النهاية لان علي خميس. وقرر

الأخذ بمشورة المعلم هلال الأمينة والخيرة. ومن تلك اللحظة جد في الدراسة، وحالفه النجاح علي الدوام. وأتيحت له لاحقا فرصة الحصول علي منحة دراسية حكومية للدراسات العليا بالمدرسة الإمبريالية للزراعة الاستوائية بترينداد.

وحينما أتممنا أنا وعلي خميس دراستنا في ماكيريري عينا بوظيفة أخصائي زراعة مساعد، كان شاغل العالم كله هو **الاستعداد للحرب. ومن واجب كل بلد أن يعتمد علي موارده الداخلية من أجل البقاء.**

كانت زنجبار في الظروف الطبيعية تعتمد علي الإستيراد والتصدير بالأساس، حيث تصدر القرنفل وجوز الهند، ومنتجاته المصنعة، وتعتمد، فيما لو استبعدنا بعض بساتين كانت تنتج للسوق، وليس لغرض الاستهلاك المنزلي، علي مجموعة من المواد الغذائية المستوردة، يتصدرها: الأرز من الهند وبورما، والقمح من استراليا وكينيا، واللحوم من تنجانيقا والصومال، والبقوليات من موزمبيق.

ومع استمرار الحرب، وبذل العدو قصارى جهده لشل خطوط الملاحة التجارية البحرية التي بها قوام الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية المترامياتي الأطراف، **أصبحنا في زنجبار عرضة لخطر بالغ، لاريب فيه.** فالسفن التجارية الصغيرة كانت تحت رحمة الغواصات الألمانية والإيطالية. أما السفن التجارية الكبيرة فلم يكن بمقدورها أن **تتحرك إلا في قوافل محمية بالأسطول الحربي.** ولم تكن السفن تتحرك إلا عند **الضرورة القصوى** للمجئ بسلع أساسية إلي بلد، أو لنقلها منها إلي بلد آخر، في أمس الحاجة إليها.

وصنف **القرنفل علي أنه ليس من السلع الأساسية في زمن الحرب.**

ولم يعد بوسع أحد شراء **التوابل والمشهيات.** فلقد كانت **أندونيسيا** التي هي المستورد الأساسي للقرنفل من بلادنا في الأوضاع الطبيعية ترزح تحت نير الاستعمار الياباني. وعصفت الحرب **باقتصاد الهند.** وما كان من المنطق في شئ التضحية بروح آدمي من أجل مضغ التنبول، أو أكل الأرز المتبل. أما ثمرة **جوز الهند** فاعتبرت ضمن المواد الأساسية، بوصفها طعاما للإنسان والحيوان، علاوة علي استخلاص الجلسرين من زيتها، وهو مادة مطلوبة لصنع المتفجرات، فضلا عن صنع فحم نباتي من قشرتها للإستخدام في الأقنعة الواقية من الغازات.

وباتت مهمتنا في الإدارة الزراعية هي أن تنتج زنجبار أعلي قدر ممكن من احتياجتها الغذائية. وبلغ التركيز علي إنجاز هذه المهمة، إلي حد تصنيف زراعة **المحاصيل الغذائية في خانة "الأمور المهمة" أو "الحيوية".** وبالإضافة إلي تعبئة كل الأيادي المتاحة لزراعة المحاصيل الغذائية كالأرز والكاسافا والبطاطا والفاصوليا والذرة، كان علينا أن نقدم تقديرا دقيقا قدر الإمكان للإنتاج المتوقع، لتستطيع حكومة زنجبار طلب أغذية إضافية من الخارج، إذا كان ذلك ضروريا، وكانت إمكانية النقل البحري متوفرة.

وصدر **تشريع خاص**، بات بموجبه من سلطاتنا بصفتنا **"مراقبين للخدمة"** أن نأمر أي إنسان قادر جسديا لا يعمل بمهنة مربحة أن يزرع قطعة من الأرض المخصصة بمحصول غذائي محدد خلال فترة محددة. واقتضت تلك المهمة سيرا طويلا في الريف،

ولقاءات مطولة مع المزارعين، لبيان الحاجة الماسة لإنتاج الغذاء. وغدوت عبر القيام بهذه المهمة عارفا بكل شبر من ريف زنجبار، وتلالها، ووديانها، وسهول أرزها، وشعبها المرجانية. عرفت **الأرض**، وعرفت ما هو أهم وهو **البشر**. وحرصنا علي الاقتصاد البالغ في استعمال السلطات الواسعة التي منحها لنا القانون، والاعتماد في تحقيق مرادنا، علي الإقناع والتعليم ومد يد العون، بالأساس.

ورغم أن الموقف كان بالغ الحرج (فالحرب **دائرة، ونحن شعب يعيش بجزيرة**)، وهو وضع ربما يكون من المبرر فيه اللجوء إلي وسائل قاسية، فإننا وعينا حقيقة أننا أخصائيون زراعيون، ولسنا **نظار في عزبة**، أو **سائقي عبيد**. **فالحرب ظاهرة مؤقتة. والدائم هو نحن البشر**، ولا بد من الحفاظ علي العلاقات الطيبة بيننا في كل الظروف. ومن المهم التحلي في التعامل مع أي إنسان في زنجبار عامة، وفي ريفها بوجه خاص، بحسن الخلق، والكياسة، والإقناع.

و كان من واجبنا، إلي جانب مهمة الإقناع هذه، **تدريب المزارعين** علي وسائل زراعية أفضل، وتزويدهم بمواد زراعية محسنة، وتعليمهم كيفية استخدام الأسمدة. وجنيت الثمار الطيبة لهذا الاتصال المباشر بأبناء الريف الزنجباري، حينما صرت بعد سنوات **ناشطا سياسيا** في مهمة بناء الحزب الوطني الزنجباري الذي قاد حركة الاستقلال.

ولم تتأسس شهرتي لدي أبناء الريف بالكامل، علي عملي كأخصائي بالإدارة الزراعية. بل الفضل في الترحاب الذي قوبلت به في آدائي لتلك المهمة يرجع إلي حد بعيد، إلي كوني **ابن**

الشيخ محسن بن علي، الذي هو من فحول العلوم الإسلامية، ولكوني ابن خال، وصهر، الشيخ **بدر محمد**، ذي الصيت الذائع، والأواصر الاجتماعية المتينة في كل أرجاء الريف الزنجباري.

وكان أبناء شمال الجزيرة بخاصة يعتبرون **بدر** محمد أخا لهم. فلقد شارك بدر في السنوات الخوالي في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين في تأسيس جمعية تعاونية لنقل الركاب تسمى: "**الإتحاد الوطني**"، وهي جمعية أنشأها أبناء الريف للتصدي للمغالاة في رسوم نقل الركاب التي فرضها مالكوا السيارات.

وتطورت تلك الجمعية بحيث صارت بمثابة جمعية للمساعدات المتبادلة تكاد تغطي كل جوانب حياة المشتركين فيها. وأذكر من بين قادة تلك الجمعية الشيخ فوم بن علي زميل ابن عمي في الدراسة، وأحد أعمام الشيخ حاجي محمد، الذي صار لاحقا زعيما سياسيا لواتومباتو. إلا أن تلك الجمعية ما لبثت أن تلاشت مثل كثير من المشروعات المماثلة التي تفتقر إلي **الإدارة والخبرة المناسبة**. ومع ذلك فإنها أرست بالقطع علاقة أخوة من نوعية دامت إلي أن تبلورت في تأسيس "**الحزب الوطني** ".

وكان الفاضل بدر المقيم في بوبوبو (الواقعة علي بعد أحد عشر كيلومترا من المدينة)، وفي منيمبي (الواقعة علي بعد أربع وعشرين كيلومترا)، قائدا لمجموعة معتبرة من الرجال، كانوا يخرجون **مرة كل أسبوع لصيد الخنازير البرية بالرماح**. وكان الريفيون يعدون ذلك رياضة محببة. والأهم أنها وسيلة لخفض عدد الخنازير التي تلحق أضرارا بالغة بالمحاصيل الزراعية.

وأصبح الكثيرون من صائدي الخنازير البرية، أعضاء مهمين بالحزب الوطني الزنجباري. وهذه هي الذريعة التي أطلق بها حزب الأفروشيرازي، علي حزبنا مسمى "**حزب صائدي الخنازير**"، من باب التهكم. أما في نظرنا فإن ذلك يعتبر مكرمة، لأن المتحمسون لتلك الرياضة التقليدية هم من أبناء الأرض، من المزارعين، من جماهير زنجبار الأصلاء. وكان السيد جمشيد آخر السلاطين الزنجباريين واحدا من المتحمسين لتلك الرياضة. وأثبت بها، بالمناسبة، أنه ابن الشعب وزعيمه بحق وصدق.

بيد أنني لم أشارك أبدا في تلك الرياضة. واقتصر نشاطي الرياضي علي كرة القدم، وإن كنت قد مارست لعبة التنس في الجامعة لفترة.

وحين بدأنا العمل بعد التخرج من كلية الزراعة، عملنا تحت رئاسة م. **ف. رونس** مدير **حملة: (انتاج المزيد من الغذاء)**، جيئ به من تنجانيقا لهذا الغرض، حيث كان يعمل في تابورا. وكان يجيد التحدث بلغة النياموزي. وفي وقت لاحق استبدلوه **بفرجس ويلسون**. عملنا تحت رئاسة ويلسون الذي لم يكن له هم في حياته يشغل باله غير العمل. ومع حبي للعمل، فإنني لم أكن أرى أن يكون ذلك علي حساب كل ما عداه.

أذكر أنه حتى في مناسبة احتفال رسمي بالعيد بالقصر السلطاني، كان يأتي مرتديا البدلة الكاكي كما لوكان في الحقل. ويبحث عني هناك ليعطيني تعليمات حول ما سنقوم به بعد بداية العمل بعد العطلة. وحينما كنت أريد أن أعسكر بمجموعتي في مناطق نائية من البلاد كنت أتلمس منزل أحد أقاربي ونقيم فيه. وكان لي أقارب ومعارف في كل أرجاء ريف بلادنا. ولم يكن ذلك

يروق له. وكان يفضل بالنسبة لنفسه شخصيا نصب خيمة والإقامة بها.

هو بتعبير آخر "**أصولي**" في كل ما يتعلق بالعمل. وكان يحب أن يرى خاصة من رؤسائه في العمل أنه مجد في العمل ومتخوشن. ولم تكن تلك طريقتي في العمل. فلقد كنت أكره المظهرية والمراءاة بالعمل، واعتبرها من قبيل النفاق الرخيص. أما هو فبمجرد التظاهر بالجدية ولفت نظر الآخرين إليه، استطاع أن يشق طريقه إلي عمادة كلية الزراعة في ماكيريري، بل تولي مرة رئيس الجامعة بالإنابة. ومن بين الأسباب الرئيسة لتركي الخدمة بالحكومة في سن مبكرة، قناعتي بأنني لن أستطيع النجاح فيها، لكرهي البالغ للسعي إلي لفت أنظار رؤسائي إلي تميزي في العمل من أجل نيل إعجابهم.

وعلي أي حال فلقد قمت بعملي علي خير وجه تحت رئاسة **رونس** الإنجليزي الذي يتكلم بالنياموزية، وكذا تحت رئاسة **أ. ك. بريانت** الذي أصبح هو مدير الزراعة فيما بعد. وتكونت علاقة صداقة حميمة بيني وبين **ج. إ. تيدبري** وهو أخصائي زراعة شاب، جمع بين كونه **مثقفا**، وكونه **موسيقارا وفنانا، شديد الاهتمام بالأدب**، فضلا عن كونه من ويلز. وجمع بيني وبينه نوع من الود المتبادل، لكون كل منا ينتمي لشعب صغير يناضل من أجل الهوية القومية. أعجبتني وطنيته، حيث ترفرر راية ويلز في غرفة الجلوس بمنزله. وبفضله عرفت قيمة الموسيقى الغربية الكلاسيكية. ومعه كنت أناقش أعمال شكسبير وديكنز، ورسوم فان غوخ، وجوجان، وجينبروف، وتيرنر. كما تتلمذت لفترة علي يد السيدة **تراول** مؤسسة مدرسة ماكيريري للفنون.

وفي أول معرض فنون أقمناه في كامبالا تنبأ ناقد فني بجريدة أوغندا هيرالد بمستقبل فني باهر لي، حيث قال " **إن محسن لا يزال في مقاعد الدراسة. وثمة مستقبل ينتظره في عالم الفنون**" وهو ما ثبت لاحقا أنه كان من قبيل الأماني فلم تكن تلك النبوءة صادقة. ولم أمسك الفرشاة منذ تخرجي في ماكيريري.

وفي عام 1952، وبينما كنت أشارك في **مؤتمر تربوي في كنجز كوليدج (الكلية الملكية) بكامبريدج**، ذكرني **مسؤول إداري متقاعد** كان يعمل في أوغندا آنذاك، بأنني أهديت إليه **صورة زيتية لمصارعين** في معرض الفنون سالف الذكر. وكانت تلك االلوحة الفنية منفذة علي صفحة جريدة، وألوانها ممزوجة من أوراق البطاطا المطلية باللونين الترابي والأزرق. أما **الفرشاة** فكانت مجرد عصا مسحوق أحد طرفيها. وكانت معلمتنا **ترويل** تحثنا علي محاولة استخدام مثل هذه الأدوات العادية المتاحة في تعلم الفن، إذا عجزنا عن شراء أدوات أكثر تكلفة من المحلات. وحينما أعجب هذا المسؤول الإداري بلوحتي، سألني: **بكم تبيعها لي ؟** فقلت له ببساطة: "خذها بلا مقابل. فهي لم تكلفني شيئا".

واليوم هائنذا أقابل ذلك المسؤول الإداري بعد مرور عشر سنوات فيدعوني لتناول الشأي بمنزله، فأجد تلك اللوحة الخاصة بالمصارعين الأوغنديين معلقة في مكان بارز به، وكأنها مرسومة لتوها تنبض بالحياة والحركة والتوازن. العضلات بارزة، واللون الأخضر يلمع، وزرقة السماء داكنة، كما هي علي الدوام في أفريقيا الاستوائية. . قلت لصديقي: "**لا أستطيع أن ارسم مثل هذه اللوحة الآن**".

سألني عن سبب هجري للرسم. قلت له: **بسبب انشغالي البالغ بالشؤون العامة**". وإذا به يفحمني حين قابلني بعدها بقوله: "**طلب مني سير فيليب ميتشل** (الذي كان هو المحافظ الذي افتتح المعرض المشار إليه عام 1938، أو عام 1939) **أن أقول لك أن تشرشل لا يزال يرسم**". شعرت بالحرج، ولكن ليس إلي الدرجة التي تدفعني إلي استئناف مشواري مع الرسوم الزيتية.

وكنت معجبا في طفولتي بالمرحوم محمد سليمان البرواني، أحد أولاد عمي. كان يكبرني بسنوات كثيرة. وكان موهوبا. جمع بين مهنة **النجارة، والعزف علي العود، والرسم بالألوان المائية**. ومنه اكتسبت الذوق الفني حتى قبل دخولي الجامعة. كنت أنتشي بمعزوفاته الفردية، ولكنني لم أحاول أبدا العزف بأي آلة موسيقية. أما ابن خالتي الآخر الذي أذكره في هذا المقام فهو **سعيد محمد البرواني**، عازف الكمان، والذي كان يقيم في المنزل المقابل لمنزلنا.

وفي المساء وبعد العشاء كان كل من محمد سليمان البرواني، وسعيد محمد البرواني يعزفان كل بمنزله، وهما لا يعلمان أن حشدا من المعجبين يجتمعون خارج المنزلين يستمتعان بالموسيقى من أفضل موسيقارين في زنجبار. وكان محمد سليمان يلقب بـ: القصبجي، علي اسم أفضل عازف عود مصري، بينما كان سعيد البرواني يلقب باسم **سامي الشوا** عازف العود المصري الشهير آنذاك.

ومات محمد سليمان متأثرا **بمرض السل**، الذي كانت له الصدارة في الفتك بأرواح البشر في أواخر الثلاثينات، وأوائل الأربعينيات من القرن العشرين، ولم يكن له علاج معروف، ولا إجراءات تذكر

للوقاية منه، إلي أن التقيت بديفيد أوين عام 1955، وأسفرت حملة مكافحة هذا المرض اللعين عن نتائج ملموسة، مع اتخاذ منظمة الصحة العالمية خطوات إيجابية لاستئصال هذا المرض، وكذا لاستئصال الملاريا. كان أوين آنذاك يشغل منصب مدير **هيئة المعونة الفنية التابعة للأمم المتحدة**. والتقيت به في جنيف خلال حلقة علمية كنت من المشاركين فيها حول موضوع: "الأمم المتحدة وإفريقيا".

كنا نعمل في وادي بومبويني - ماهوندا، ونحث المزارعين علي زراعة البقوليات أو البطاطا في الحقول التي كانت مزروعة بالأرز في الموسم السابق، باعتبار تلك المناوبة في الدورة الزراعية مفيدة لخصوبة الأرض، وفي القضاء علي الأعشاب الضارة، استعدادا لزراعة الأرز في الموسم التالي. وكنت أنا المسؤول عن هذه العملية.

قسمنا مجموعتنا إلي فريقين، أحدهما بإشراف مساعدي الفاضل **علي أحمد الريامي**، ومركز عمله في كازولي بالقطاع الشرقي من الوادي، **والثاني** بإشرافي في منجابواني، بالقطاع الغربي من الوادي. ورغم أن منصبي كان أعلي من منصب علي، إلا إنني كنت أجله لكبر سنه، فالسن له في مجتمعنا اعتباره الكبير. **وتربينا علي احترام من هو أكبر منا حتى لو بعام واحد**. وفي أحد ايام العطلة الأسبوعية، وبالأحرى في يوم 13 يناير 1944 كنت علي دراجتي البخارية علي مسافة 22 كيلومترا من مانجابواني حين قابلت علي أحمد الريامي عند الكيلو السادس عشر في مفنسي مدوجو، وأبلغته **أنني سأتزوج الليلة**. سألني:

"**من أي بيت؟**". قلت: " **بنت محمد بن سيف**". قال مبتهجا: " **ذاك بيت جيد**".

هذه كانت طريقة تفكيرنا. **البيت**، أي العائلة، أمر من المهم وضعه بالحسبان حين يفكر المرء في الزواج. نعم قد لا يكون هو العنصر الحاسم، ولكنه مهم. وجاء اختياري موفقا بفضل الله.

وكان علي أحمد الريامي صاحب شخصية آسرة، وهو مثل الكثيرين منا، **أبوه عربي، وامه إفريقية من الكونغو**. وكان كارومي وهو ينادي كل منهما الآخر بلقب: "**ياخال**". قوي البنية، وشجاعته الأخلاقية، وبسالته توازيان قوته الجسدية. يحمل علي الدوام عصا من أشجار التمرهندي، لا يتوكأ عليها فحسب، بل يستخدمها في الدفاع عن النفس عند اللزوم. ومن مزايا تلك العصا أنها لينة، وصعبة الكسر عند استخدامها في النزال. وأذكر أنني كان لدي عصا من هذا النوع من بيمبا أهداها لي أخي الأكبر في طفولتي. وكنت أعتز بها، وأشعر أنني غدوت في مصاف الرجال حين أحملها، حيث كانت تعطيني ثقة بالنفس، وإحساسا بالرجولة.

و علي أحمد الريامي أهل للثقة به، وهو زميل وصديق حميم لكل من بدر ابن عمتي، وعبد الرحمن بن عامر، وهو الآخر من أقاربي، وثلاثتهم رجال شرفاء، من كبار أنصار الحزب الوطني الزنجباري من بداية عهده بالوجود. ومع أنهم كانوا يكبرونني بعشرين عاما، فإنهم اعتبروني واحدا منهم. كان الفاضلان علي أحمد الريامي، وبدر محمد البرواني عضوين باللجنة التنفيذية للحزب. أما الفاضل عبد الرحمن فكانت علاقته جد وثيقة بالحزب

عبر منظمة العمال الزنجباريين التي حطمت المغالق التي أسسها عمال أرصفة الموانئ الأجانب بمعاونة الإدارة الإستعمارية.

كتبت ذات مرة بأسبوعية **المرشد**، انتقد مجموعة من السكارى المعربدين، قضوا مضاجع ضاحية بكاملها بعربدتهم. ولجأت تلك الجماعة بحنقها العقيم إلي الكتابة بالفحم علي جدران المدينة، يرمونني بكل أنواع الإهانات. سأل عبد الرحمن، بلا علم مني، **أخي الأصغر عن مكان إقامة زعيم تلك المجموعة**. لاحظ أخي الأصغر أن عبد الرحمن يحمل **سكينا بطول ساعده**، فبذل قصارى جهده لإقناعه بالعزوف عما يعتزمه، وقال له أنني لا أهتم بالمرة بتلك الشتائم. وكل ما يؤسفني أن جدران المدينة لوثت بلا أي داع. وبشق الأنفس اقتنع قريبي المغوار بعدم تصعيد الوضع.

الفصل العاشر [1]

بحثا عن الوحدة الوطنية

أولا: مساعي توحيد قوى النضال الوطني، وتعبئة التأييد الدولي

حين انتفضت جماعات من تلقاء نفسها، في فجر نضالنا الوطني، بهدف تأسيس حركة وطنية، دون معرفة دقيقة متبادلة فيما بينها، نهضت جماعتنا بمهمة إرساء العلاقات والتنسيق فيما بين كافة فصائل العمل الوطني. وضمت مجموعتنا: علي أحمد الريامي، وبدر محمد، وعامر زاهر الإسماعيلي و أحمد سيف الخروصي وأتذكر كيف كنا نجتمع سرا مع عثمان سعود ورمضان مدافو في **كوخ طيني** في ميكونجوني، في الهزيع الأخير من الليل.

وكان ابن خالي **محمد حمود** الذي قتله حزب الأفروشيرازي بعد الثورة ببضع شهور هو الذي عرفني علي **رمضان**، عضو الجمعية الإفريقية، وزعيم واحدة من أولي تلك الجماعات، وجاء

---

[1] يتناول هذا الفصل الكيفية التي تأسست بها الحركة الوطنية الزنجبارية. ويجلي إشكالية عانت منها الحركة الوطنية في كل البلدان التي ابتليت بالاستعمار، وهي انقسام الفعاليات الوطنية بين رافض للاستعمار، وبين محتضن له، سواء على الصعيد الداخلي، أو الإقليمي. ولعل هذا هو السر في الإخفاق المتواصل الذي مني به المشروع الحضاري في بلاد عالمنا الإسلامي حتى الآن في التخلص من الإرث الاستعماري، ومن القابلية للإستعمار، رغم مرور عقود عديدة، على ما يسمى: الإستقلال. – المترجم

جدوده من ليندي الواقعة علي الساحل التنجانيقي، بالقرب من الحدود مع موزمبيق.

وانتفض هذا الثائر ضد ما يسمى: **مقترحات رانكين** لإدخال تعديلات في تركيبة المجلس التشريعي. ولا تعدو التغييرات المتضمنة في تلك المقترحات أن تكون مجرد تعديلات سطحية تجميلية علي المجلس التشريعي القائم الذي أنشأه المستعمر، حيث توجد أغلبية رسمية، وأقلية غير رسمية تعينها السلطات الاستعمارية بالكامل لتمثيل مختلف الطوائف العرقية. فوفق مقترحات رانكين يتم إدخال زيادة طفيفة في عدد الأعضاء غير الرسميين المعينين، مع زيادة مماثلة في الجانب الرسمي لتأبيد الأغلبية الرسمية. وتستمر سمة تشكيل المجلس بالتعيين، وكذا التمثيل العرقي فيه. كان هذا هو رد رانكين علي مطالب قدمتها **الجمعية العربية من أجل الأخذ بنظام الانتخاب العام، بقوائم انتخابية عامة مشتركة**، أي: إلغاء التعيين بواسطة الحكومة، والغاء التمثيل علي أساس طائفي أو عرقي. ورحب حزب الأفروشيرازي بمقترحات رنكين، لكون الأغلبية العظمى من أعضائه **مهاجرين، لا مواطنين**، لأن تلك المقترحات لم تشر لمسألة **المواطنة** من قريب أو بعيد. وظل المعيار هو العرق، وليس المواطنة فيما يسمى: دستور الإصلاح الذي قدمه رانكين، والذي هو في حقيقته، تكريس لمبدأ: فرق تسد الاستعماري. ورب ضارة نافعة.

فحينما تغلغت الأفكار الديموقراطية اللاعنصرية التي كانت جريدة "المرشد" تدعو إليها في عقول المواطنيين العاديين، لم تجد الإدارة الاستعمارية مناصا من طرح مقترحات تقف علي النقيض منها

لمجابهتها. وكان هذا هو السبب الذي أدى برجال من **أمثال** رمضان مدافو و حاجي حسين، والمعلم زايد، وعثمان سعود، والمعلم مقصودي (وكلهم زنجباريون أفارقة) إلي التحول بين عشية وضحاها إلي النضال ضد نظام الحكم الاستعماري، وكانت من الأسباب الرئيسة التي أدت إلي نشأة الحزب الوطني الزنجباري.

وحتى راشد حمادي المولود في منطقة أولي ببمبا، والمعروف باعتداله، قرر أن يشق عصا الطاعة للإدارة الاستعمارية، دفاعا عن الحقوق الثابتة للشعب في تقرير المصير. وانضم بلا تردد إلي صفوف المناضلين، وأصبح زعيما وطنيا بلا منازع في الجزيرة التي ولد بها. وحينما أظهرت الحكومة البريطانية في النهاية مؤشرات علي رضوخها لمطالب الشعب، وأذعنت لمبدأ الانتخابات العامة لأول مرة في شرق وجنوب ووسط إفريقيا، قال **شعبان سعودي مبوندا** العضو الإفريقي المعين بالمجلس التشريعي: "**هذا يوم أسود للأفارقة في هذا البلد. فنحن لا نعرف شيئا عن الانتخابات**".

ورد عليه إفريقي آخر هو راشد حمادي بقوله: " لا أستطيع ان أفهم أن يكون هناك في قرن الاستنارة الحالي، أي فرد لا يريد الحرية. وحق المرء في انتخاب من يمثله، هو الخطوة الأولي علي الطريق إلي الحرية. " وابتسم علي طريقته الريفية وتابع حديثه قائلا: "إن البقرة المربوطة في المرعى الجيد تشد الحبل من يد راعيها لتختار لنفسها ما تشاء غثا كان أم ثمينا". ويكشف هذان الاقتباسان المتقابلان عن الفرق بين عقلية كوادر الحزب الوطني الزنجباري، وعقلية كوادر حزب الأفروشيرازي.

وقررت الذهاب إلي المملكة المتحدة لعرض القضية الوطنية علي الرأي العام البريطاني، في عام 1955 حينما كانت الجمعية العربية تقاطع كل الأجهزة التشريعية للمطالبة بإدخال نظام الانتخاب بالقوائم العامة. إذ انتهي بنا الرأي في التحليل الأخير إبان العصر الاستعماري، إلي أن **الرأي العام البريطاني يستطيع التأثير علي مصيرنا بطريقة أو بأخرى.**

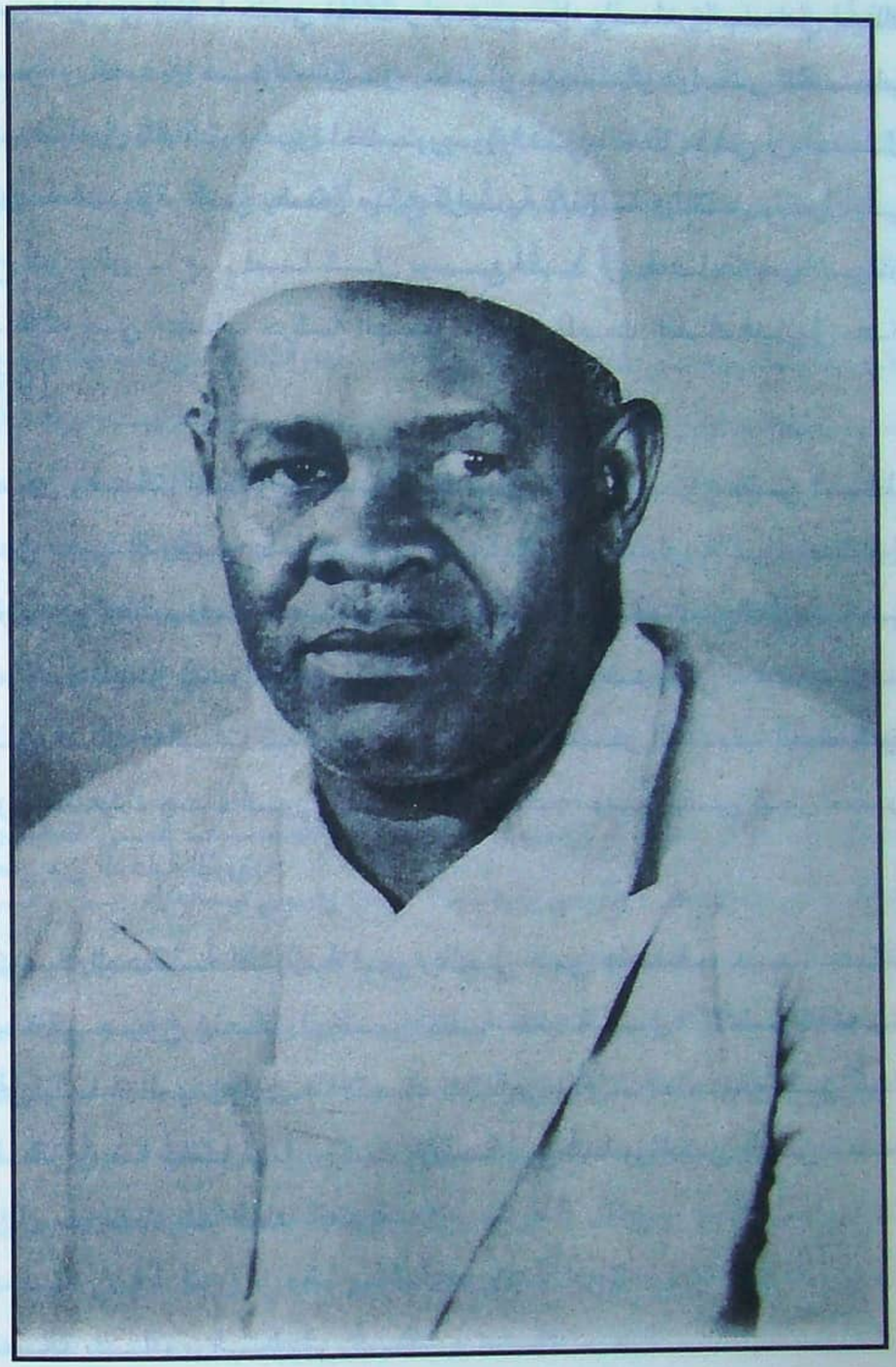
فلقد كانت زنجبار خاضعة لوزارة المستعمرات، التي سميت فيما بعد وزارة شؤون الكومنويلث، بوصفها محمية بريطانية. وكان وزير المستعمرات عضوا منتخبا بالبرلمان، والبرلمان معبر عن إرادة الناخبين. والصحافة البريطانية حرة وعامل مؤثر في قرارات البرلمان والحكومة. تلك هي الطريقة التي تعمل بها الديموقراطية. قررت الذهاب علي نفقتي لأطلع المواطن البريطاني العادي علي وجهة نظرنا.

وتبين لنا من قبل أن **إرسال خطابات والتماسات إلي المقيم البريطاني بزنجبار، وإلي رئيسه، لن يفي بالمراد.** بل حتى الكتابة إلي وزير المستعمرات لن تجدي فتيلا. فقد لا يرى الوزير بنفسه تلك الإلتماسات علي الإطلاق. والأرجح أن موظفين صغار بالوزارة مسؤولين بإدارة زنجبار، أو شرق إفريقيا، هم الذين يصنعون القرارات كلها باسم **الوزير**. وحتى لو قرأ الوزير تلك الإلتماسات، فإنه سيتأثر إلي حد بعيد بنصيحة المقيم البريطاني. والأمر سيسير علي وتيرة أخرى، فيما لو نشرنا رؤيتنا في التايمز أو الجارديان، ثم أثارها نائب أو نائبان بالبرلمان. وتلك كانت بغيتي.

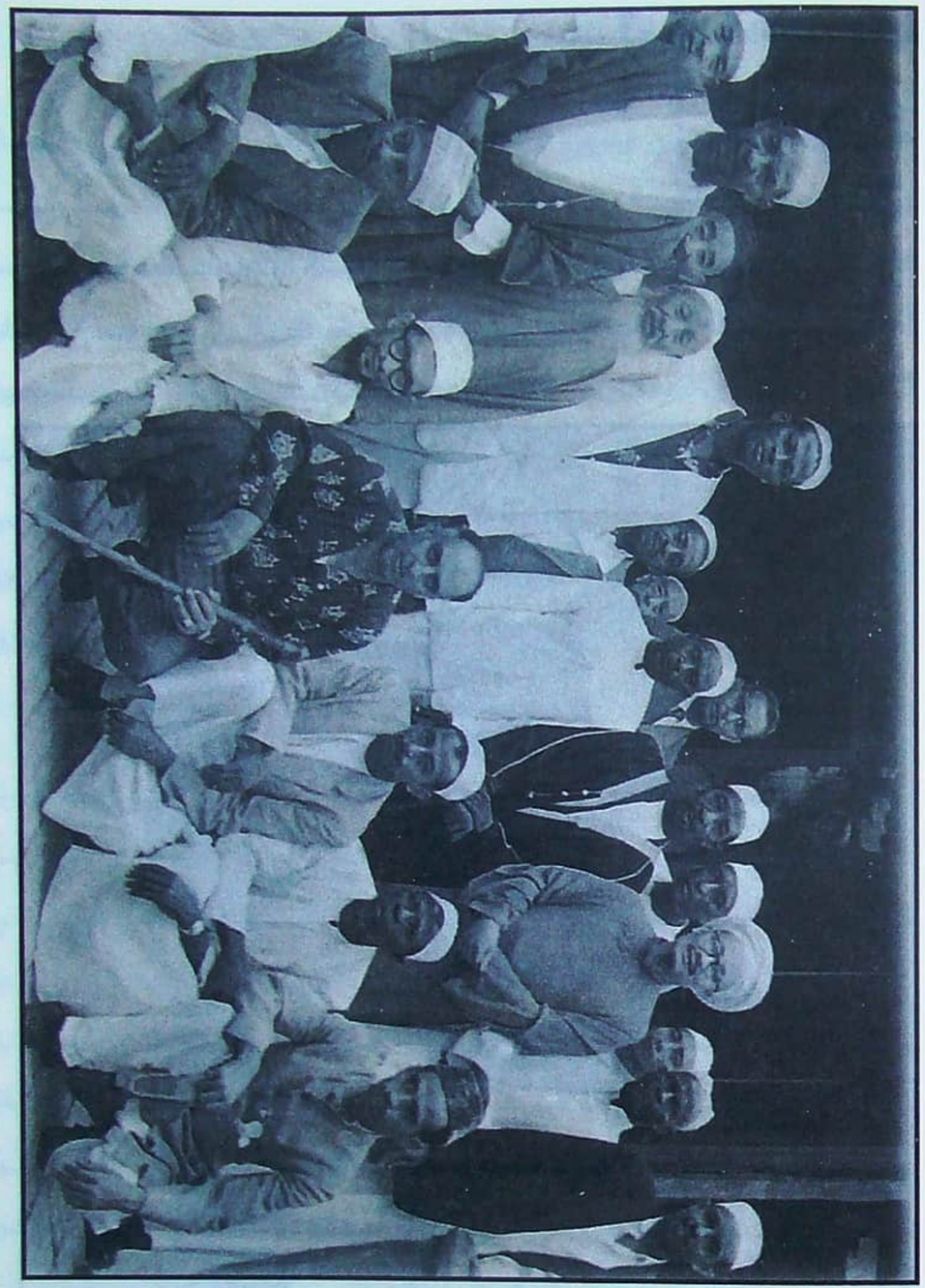
اقترضت **قرضا حسنا** من أحد أقاربي لأذهب إلي **انجلترا**، ولأعرج في طريقي إليها علي **مصر وسويسرا**. واستغرق سدادي لذلك القرض خمس سنوات. كان بمصر **معسكر دولي للشباب المسلمين** تلقيت دعوة لحضوره. وروادني الأمل في أن أحصل **بتلبية الدعوة علي بعض منح دراسية لأبنائنا وبناتنا**. ولكن أملي راح أدراج الرياح. . فما كان بوسع أحد أن يفعل شيئا يذكر آنذاك، في أعقاب حركة الجيش التي خلعت الملك فاروق عام 1952.

وحين وصلت القاهرة بعد ذلك بسنتين بعد الصراع علي السلطة بين عبد الناصر ومحمد نجيب. وكان الاستقرار غائبا. ومسؤول التربية والتعليم رفيع المستوى الذي قابلته في الصباح لم يعد في منصبه ظهر نفس اليوم. خفضت رتبته وأبعد إلي الصعيد. ولم تكن هناك فعاليات تذكر فيما يسمى: **معسكر الشباب المسلمين ببورسعيد**". جاء أنور السادات لافتتاحه، وما تبقى كان مجرد فيض من الدعاية للثورة.

وكانت **المحطة الثانية** في رحلتي هي **جنيف**، حيث دعاني صديقي **جون إينالز** لحضور حلقة علمية حول: "**الأمم المتحدة وإفريقيا** "تنظمها رابطة الاتحاد العالمي للأمم المتحدة، التي كان **إينالز** أمينا عاما لها، ورتب الإقامة لي أنا وزوجتي وابني محمد، خلال مدة انعقاد تلك الحلقة العلمية.



فواي كيتوأو – رئيس الحزب الوطني الزنجباري 1955-1964



وفد الحزب الوطني الزنجباري للصين
مع علماء المسلمين الصينيين

الجلوس من اليسار لليمين 1. ..... 2. محمد سالم الريامي 3. أحمد سيف الخروصي 4. محسن بدر البرواني 5. معلم مواندوا 6. علي رضا

الواقفون: 1. ايوني صالح 2. حاجي حسين 3. حسن أمين 4. حاجي محمد 5. روتي بلسارا 6. معراج شعلب 7. علي أحمد الريامي 8. الشريف طاهر 9. ناصر مهنا



لجنة فرع الحزب الوطني في كينيمي سماكي

من اليمين رمضان مبارك، وزير معلم، معلم زايد مبارك (نائب رئيس الحزب)، جمعه سعود، موينادي موينى مماد و جمعه جابو

ثانيا: اللقاءات الدولية الأولي

كان أول لقاء بيني وبين إينالز عام 1953 حين أتى إلي زنجبار ليطلب من الحكومة ردا تأخر طويلا علي رسالة بعث بها إليها. كان قد كتب لهم بصفته **أمينا عاما لرابطة الاتحاد العالمي للأمم المتحدة** رسالة بدعوة التربوي محمد سالم البرواني (جينجا) للسفر إلي مقديشيو لحضور حلقة بحثية تعقد هناك، موضوعها: "**تدريس الأمم المتحدة بالمدارس**" ولم تسمح الحكومة لمحمد سالم جينجا بالسفر بدعوى أن الامتحانات بالمدارس علي الأبواب، ولا يمكن منحه أسبوع أجازة. وكنت أنا وأحمد سعيد الريامي، وعثمان شريف، وشخص آخر، قد شكلنا جماعة صغيرة أسميناها: "**جمعية الأمم المتحدة الزنجبارية**".

ودعاني **إينالز** للذهاب إلي مقديشيو بعد إخفاقه في الحصول علي موافقة الحكومة علي مشاركة جينجا في تلك الحلقة، ولبيت الدعوة. وأدهشني هناك أنني أنا الوحيد الذي يمكن وصفي بأنني من **الأهالي** من كل منطقة شرق إفريقيا البريطانية. فلقد كان عقد تلك الحلقة العلمية مواكبا لتمرد الماوماو، وكانت السلطات الإدارية في كل أرجاء شرق أفريقيا مشدودة الأعصاب ومتخوفة، ويشتبهون في أن كل المنظمات الدولية منظمات تخريبية وشيوعية ومعادية للإستعمار. وكانت سلطات تلك الإدارات تعتبر **مناهضة الاستعمار جريمة لا تعلوها جريمة أخرى.**

ورأت تلك السلطات أن الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة جبهات ترمي إلي تقويض الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس. ومن ثم نظرت إلي تلك المنظمات بعين الريبة، وسعت إلي إحباط أنشطتها ما استطاعت إلي ذلك سبيلا. وكان مجرد

توجيه **رابطة الاتحاد العالمي للأمم المتحدة** دعوة خاصة لجينجا لحضور تلك الحلقة، بمثابة مؤشر واضح للسلطات الاستعمارية علي أن تلك الحلقة ومنظميها ليسوا سوى أوكار من الثائرين.

ذلك أن جينجا كان يتصدر، في منظور المستعمرين، قائمة المصنفين علي أنهم أشخاص "**خطرين**"يجب إخضاعهم للرقابة المستمرة. فلقد كان يدعو إلي الوطنية الزنجبارية ويغرس في عقول الشباب المبدأ الذي نحته: "**زنجبار للزنجباريين**". ثم إنه كان معروفا بالدعوة علي صفحات جريدة المرشد إلي أيديولوجية: "**الأجر المتساوي للعمل المتساوي** ". ومثل تلك الأفكار كانت من المحرمات في تلك الآونة التي عرفت السيادة المطلقة للبيض. ولم يكن الغرب قد صك بعد أسطورة "**الأصولية الإسلامية**".

حالفني الحظ إلي أبعد حد بالذهاب إلي مقديشيو. وكان ذلك المنتدى هو ثاني منتدى دولي أشارك فيه. وفي مقديشيو انفتحت علي آفاق معرفية أوسع. فلقد كانت تلك الحلقة العلمية معقودة برعاية رابطة الاتحاد العالمي للأمم المتحدة، واليونسكو. وتعلمت من خلال المشاركة فيها كيفية عمل منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة مثل: منظمة الصحة العالمية، ومنظمة الأغذية والزراعة، ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، والمنظمات التابعة الأخرى، مثل: منظمة العمل الدولية، والرابطة الدولية للضمان الاجتماعي.

ولم تكن كل هذه المنظمات تعمل بالسياسة بحد ذاتها، ناهيك عن أن تعمل بالتخريب، أو معاداة الاستعمار. بل كان محط اهتمامها هو الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يجب علي بلدان العالم أن تعتني بها وتحسنها بمعاونة الأمم المتحدة ووكالاتها بصرف

النظر عن الوضعية السياسية لكل منها. فالفكرة الأم هي تكافل البشرية المتبادل عبر تلك المنظمات العالمية. ولم تكن الأمم المتحدة حتى عام 1953 قد صكت شعار "**تصفية الاستعمار**" بعد.

واستطعت في نهاية المطاف، بالتعرف علي الدكتور ليو واليدمان الأمين العام **للرابطة الدولية للضمان الاجتماعي**، تأمين مشورة من منظمة العمل الدولية يقدمها لنا مستر باتيل الخبير الإستشاري، وأحد حواريي المهاتما غاندي سابقا، إلي زنجبار. وبمشورته تلك أسسنا سلسلة من الصناعات المنزلية. وكان مطلبي الرئيس هو **مشروع للضمان الاجتماعي يؤمن كل أبناء الوطن من المهد إلي اللحد**. إلا أن مشورة ذلك الخبير بينت لنا أن اقتصادنا المتخلف لا يستطيع أن يتحمل تكلفة مثل هذا المشروع الطموح، المماثل لما هو معمول به في أوروبا علي سبيل المثال. والبديل الممكن هو مشروع **الصناعات المنزلية** الذي يكفل التشغيل الكامل لكل اليد العاملة، ويمكن به للمسن والمرأة الحامل والمريض أن يعمل ويربح.

وتأسيسا علي تلك النصيحة، حصلنا علي موافقة منظمة العمل الدولية، حينما تأسس ما يعرف بـ: "**الحكومة المسؤولة**" أي المرحلة السابقة علي الحكم الذاتي، علي إمدادنا بمستر باتل الذي وضع لنا حجر الأساس **لمشروع عملي، يتضمن إنشاء عدة صناعات منزلية تعتمد علي المواد الخام المحلية المتاحة**. وكنا قبيل الإطاحة بحكومتنا، قد وافقنا علي المشروع، ورتبنا لأن يكون مستر باتيل نفسه هو أول مدير له يتولاه بضع سنين، إلي أن يتم تدريب زنجباري يخلفه في هذا المنصب. وبالإطاحة بنا دمر هذا

المشروع الطيب، تماما كما نسف كل ما هو جدير بالثناء. فلقد كانت الغاية من هذا المشروع هي **القضاء المبرم علي البطالة في صفوف كل من يتخرجون من مدارسنا.**

وبعد ذلك ببضع سنين التقيت بالرفيق العقيد **علي محفوظ**، المعروف بسمعته الرديئة، في التعذيب الوحشي لكل من رمى به قدره في يديه، الذي جاء ليحصل علي نصيبه من السجن معي، بعد **اغتيال ولي نعمته كارومي.** سألت علي محفوظ: **هل لا يزال هناك أي عاطل في زنجبار؟.** أجابني: "**نعم، كما كان الحال في الماضي، وأسوأ منه**". أدهشني رده وقلت: " **ولكن حكومتكم حكومة ماركسية. ومن المفترض أن لديكم حلا لكل مشكلة. وأيا كان الأمر، فإننا معشر البرجوازيين الرجعيين، تركنا لكم مسودة مشروع كامل تم وضعه لكفالة التشغيل الكامل لكل نسائنا ورجالنا. وهو موجود في أضابير الحكومة، ينتظر فقط من يضعه قيد التنفيذ**".

أجابني بسؤال قطعت به جهيزة قول كل خطيب. قال متسائلا: "**من يستطيع أن يقرأ؟**". إن حكومتهم بحق نموذج لحكومة علي رأسها أمي.

وحضرت قبل مشاركتنا في حلقة مقديشيو العلمية، **مؤتمرا تربويا في جامعة كامبيردج عام 1952.** بصحبة كل من: **ب. أ. بب** مدير التربية والتعليم، و**هان** مفتش المدارس، والذي شغل لاحقا منصب مدير التربية والتعليم هو الآخر. وكان موضوع المؤتمر هو مناقشة موضوع التربية والتعليم فيما كان يسمى: إفريقيا البريطانية. وتطلبت ترتيبات منظمي المؤتمر تضمين الوفد **شخصا غير حكومي مهتم بالتعليم**، ووقع علي الاختيار. وكان

ذلك المؤتمر هو الفرصة الأولي لي للإحتكاك بشخصيات دولية، وأتعرف علي تربويين من كل أرجاء إفريقيا وعلي الفعاليات الفكرية البريطانية المعنية بمشكلات التعليم في إفريقيا.

وشكلنا ضمن فعاليات ذلك المؤتمر **لجنة صغيرة لمعالجة الاحتياجات الخاصة للمجتمعات الإسلامية.** واستفدنا في عمل تلك اللجنة من خبرة خبيرين هما: **سر الختم خليفة**، مدير التعليم في جنوب السودان، و**محمود أحمد** مفتش المدارس بالصومال البريطاني، والذي كان هو الأب الروحي للتعليم في الصومال، وأسسنا في زنجبار فيما بعد، في ضوء توصيات هذين الخبيرين، المدرسة الابتدائية العربية، التي صارت نموذجا يحتذى.

وفي عام 1958 أتى هذان الخبيران التربويان إلي زنجبار للإطلاع علي ما أحرزناه من تقدم. وكان من المقرر أن يقيما معي أثناء تلك الزيارة لبلادنا. إلا أنه لسوء الحظ، أطاح الجنرال ابراهيم عبود بالحكومة السودانية المنتخبة واستبدلها بحكومة عسكرية، قبيل وصول الطائرة التي تقل هذين الضيفين إلي زنجبار. وبعد تبادل التحية بيني وبين سر الختم الخليفة في المطار لفترة وجيزة، اضطر إلي العودة إلي بلاده علي الفور.

وبعد ست سنوات أطاح **سرالختم خليفة** بمعونة الأساتذة والطلبة بنظام الحكم العسكري، وأعاد الحكم المدني إلي السودان، وشغل منصب رئيس الوزراء علي نحو مؤقت إلي أن تجري الانتخابات. إلا أنه لم يفز في الانتخابات التي ساهم في إجرائها. وعمل بعدها لفترة وجيزة سفيرا للسودان في لندن ثم اختفي من المسرح السياسي.

أما **محمود** أحمد فحل ضيفا علي في زنجبار عدة أيام. وبعد تفقده رياض الأطفال في حي الفرضة، والمدرسة الإبتدائية العربية، والمعهد الإسلامي، قال بلهجة ملؤها الحماسة والأمل: **"إنني علي ثقة ترتيبا علي ما رأيته اليوم أن اللغة العربية ستغدو في غضون عشر سنوات هي لغة التعامل في السوق".** ولم يكن يدري لحظة نطقه بهذه الكلمات هو ولا أنا بالكارثة التي كان يجري التدبير لها. لم نكن نعلم أنه في القريب العاجل سيعيد البرابرة ساعة زنجبار عصورا إلي الوراء، علي نحو قل نظيره علي مدى التاريخ.

فبعد الإطاحة بحكومتنا، **دفن كارومي وزبانيته** أجهزة المطابع العربية الثمينة في الصحافة الحكومية. ولم يعد هؤلاء بحاجة إلي أي مطبوعات باللغة العربية. وحظروا تعليم الإسلام واللغة العربية. وبأمر من وزير التربية والتعليم الرفيق **علي سلطان**، تم جمع نسخ القرآن الموجودة بالمدارس وحرقها مع النفايات في محرقة النفايات العامة. وأزيل **المعهد الإسلامي** من الوجود. وأنهي نيريري وكارومي مشروع المنح الدراسية الذي كان المئات من أبنائنا وبناتنا يحصلون بموجبه علي تعليم مجاني في مصر. كما تم إلغاء مقترح إنشاء جامعة مسلمي شرق ووسط إفريقيا، التي كان قد تم الاتفاق مع مصر علي إنشائها.

ثالثا: المعلم زايد

المعلم **زايد مبارك**، ثالث نائب رئيس للحزب الوطني الزنجباري، نموذج فريد للوطني الزنجباري، وهو قومي بامتياز، تولي ذلك المنصب بعد وفاة الشيخ معراج شعلب ثاني نائب رئيس للحزب. أما أول من شغل ذلك المنصب فور تدشين الحزب فهو الشيخ

حاجي حسين. أما الشيخ فووأي كيتوويو الغامبياني فانتخب رئيسا للحزب، وظل رئيسا له طيلة حياته.

والمعلم زايد **زنجباري بالمولد وبالنسب**، وإن كانت جذوره العرقية تعود إلي **جد أعلي ملاوي**. ومعنى ذلك، أنه من النياسا من المنظور القبلي. لم يكن له نصيب من التعليم العلماني. أما في التعليم الديني فبلغ من التمكن فيه حد التخصص في تعليم القرآن، والإمامة في الصلاة في قريته كيمب سماكي. عاش في بيته الطيني المتواضع، في مزرعته، المتاخمة للطريق المؤدي إلي مطار زنجبار، المحفوفة بأشجار جوز الهند والمانجو والحمضيات والموز، والحقول المزروعة بالبطاطا والكاسافا، فضلا عن امتلاكة عدة بقرات. ولقرب المزرعة البالغ من العاصمة، حيث تبعد عنها بستة كيلومترات فقط، ومتاخمتها لمطار التصدير الدائم التوسع علي حساب أراضيهم، فإن إمكانية ركوبه موجة الاستفادة من تلك المعطيات كانت قائمة، ولكنه لم يكن بحكم مبادئه وتنشئته مستعدا للسير في هذا الاتجاه. وبات الصراع بينه وبين سلطات الاحتلال واردا، وهو ماحدث بالفعل.

كان المعلم زايد بوصفه مزارعا، صاحب **توجه محافظ**، شأن كل المزارعين حتى في انجلترا وأمريكا وروسيا. وكان المعلم زايد وإخوانه المزارعين يرون، بلا حول ولا قوة، أن المطار يتوسع، ويلتهم أراضيهم ومزارعهم، علي الدوام، ويعرضهم هم وذراريهم لخطر وجودي. وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير، حينما تفشى وباء في الماشية. واتخذ المسؤولون الإجراءات الطبية البيطرية التي قد تكون مناسبة لمكافحته، ولكنهم أخفقوا إداريا، من حيث أنهم لم يسعوا إلي الحصول علي تعاون المزارعين الذين

كانوا سيتكبدون خسائر فادحة من جراء إبادة حيواناتهم المصابة. فلم يقدموا لهم تعويضا، ولم يعدوهم بتعويض. وربما لم يكن أمام المسؤولين فرصة تذكر، بسبب خبث الوباء وسرعة تفشيه لتوعية المزارعين وتحصيل موافقتهم علي تلك الإجراءات.

وكان المعلم زايد واحدا من الزعماء الذين اعتقلوا عام 1955 بتهمة إعاقة عملية تطعيم الحيوانات المشتبه في إصابتها، وإبادة الحيوانات المصابة. وحينما أصبح الموقف بالغ الخطورة، سعى باكنهام كبير المفوضين البريطانيين ورئيس الإدارة المؤقتة، لدى الشيخ **عبد الله بن سليمان الحارثي** رئيس الجمعية العربية الموقر، طالبا منه التدخل للتوصل إلي مصالحة مع المزارعين. وكان للشيخ شهرة واسعة في تسوية الخلافات أينما تنشب في زنجبار.

وتصادف أن كنت في زيارة للشيخ عبد الله حين جاء باكنهام إليه بهذا الخصوص. وردا علي طلبه، قال له الشيخ عبد الله: "هذا بلدنا. وكل المشكلات التي تنشب تهمني شخصيا. ولكنكم أنتم تبذلون قصارى جهدكم في استبعادنا، إلي أن تخرج الأمور عن السيطرة تماما. والآن ماذا عسانا نفعل طالما أنكم وضعتم هؤلاء المساكين في قفص الاتهام، وشرعتم في محاكمتهم؟ كان ينبغي أن لا تحاكموهم علي الإطلاق"؟ عرض عليه باكنهام أن يطلب من المحكمة تأجيل نظر القضية لإتاحة الفرصة للشيخ عبدالله للتدخل والسعي إلي تسوية ودية.

وهنا وبناء علي هذا الاقتراح، كلفني الشيخ عبدالله بأن أذهب إلي المحكمة، **وآتيه بالمتهمين بعد تأجيل نظر القضية**. إلا أن شيئا مما اتفق عليه ثلاثتنا، الشيخ عبد الله وباكنهام وأنا، لم يقدر له

أن يتم. فمبجرد وصولي إلي المحكمة صدمت بالقاضي ينطق بحكم **إدانة المتهمين وحبسهم**، فانطلقت الفوضى.

وحين زج بالمحكوم عليهم في سيارة شرطة مقفلة، لنقلهم إلي السجن المركزي، هتف الجمهور المحتشد "**الله أكبر، الجهاد**" وهاجموا سيارة الشرطة بالعصي. لم أستطع الخروج من مبنى المحكمة بسبب إيصاد أبوابه، ولكني تابعت المشهد من أحد النوافذ. وتتبع الحشد عربة الشرطة حتى مبنى السجن، وحاولوا اقتحامه لتحرير إخوانهم المزارعين المسجونين. وردت الشرطة بإطلاق النار فقتلت بعضهم.

ووضع هذا الحدث المعلم زايد في **الحلقة الثانية** من المواجهة المفتوحة بينه وبين الحكومة الاستعمارية. أما **الحلقة الأولي** فكانت قبل سبعة أعوام، وبالأحرى في عام 1948 حينما تطور **إضراب عمال الشحن البحري**، إلي إضراب عام. وكانت جريدة "المرشد" هي الصحيفة الوحيدة التي اتخذت موقفا راديكاليا مؤازرا للعمال المضربين. فحتى صحيفة أفريكاكويتو، الناطقة باسم الجمعية الإفريقية العرقية التوجه، انتقدت المضربين. بدأ ذاك الصراع بخلاف بين عمال الشحن والتفريغ والشركة التي يعملون بها وهي: شركة أفريكا ورفيج البريطانية (**شركة خدمات الشحن والتفريغ البريطانية**). وبات الوضع حرجا. وتم تعيين **لجنة مصالحة** ضمت كبير القضاة جون جراي ومولتيري كبير مسؤولي الضمان الاجتماعي، وكاتب هذه السطور.

وما لم أكن أعلمه آنذاك أن المعلم زايد نظم عملية جمع المواد الغذائية من الريف لتقديم الطعام للمضربين في ميمبيني. ولأول

مرة جمعتنا، ولم يكن كل منا يعرف الآخر، ذات المشاعر والعمل من أجل ذات القضية.

وحينما عدت من رحلتي في القاهرة وسويسرا وبريطانيا في عام 1955، أثلج صدري قيام **منظمة وحدوية وطنية**. وكان المعلم زايد هو الذي جاء إلي بيتي في منازيموجا ليدعوني، أنا وثلة من أصدقائي إلي الإنضمام إلي الحزب الوطني الزنجباري. أراد أن ينضم العرب والآسيويون إلي الحركة الوطنية، التي كانت قاصرة حتى ذلك التاريخ علي الأفارقة. . قال لي يومها: "**هذه حركة لكل ابناء زنجبار. أدع بعض معارفك وانضموا إلينا**". .

هذا هو المعلم زايد، الذي كان مع اهتمامه، بالذود عن ما هو ثمين من ممتلكاته الخاصة، علي استعداد لاقتحام عالم مستقبل التقدم والراديكالية من أجل الصالح الوطني. وقف في وجه البيروقراطيين المتخبطين في قراراتهم، وساند حقوق العمال المضربين، ودشن حركة وطنية جامعة وشاملة مكرسة لتحقيق الاستقلال وإنهاء الحكم الاستعماري.

وأيا كان الأمر، فإنه من التكلف الزعم **بأن تأسيس الحزب الوطني الزنجباري بدأ باضطرابات** كيمبي سماكي. حقيقة أنها كانت من الشواهد المبكرة علي المجابهة مع السلطات. ولكن طرح مقترحات رانكين هو السبب الحقيقي الذي أدى إلي تشكيل ذلك الحزب. فلقد نظر إليها الوطنيون الزنجباريون **علي أنها مسعى استعماري مدبر لتكريس وتأبيد نظام التعيين بواسطة الحكومة، والتمثيل علي أساس العرق**. وهذا هو الذي أثار حفيظة كل الجماعات، وأدى إلي تضافرها. ومن بين تلك الجماعات جماعة المعلم زايد، ووزير بن معلم. ولم يكن حاجي

حسين ومعراج شعلب من أعضاء جماعة كيمبي سماكي هذه كما يزعم بابو مجافيا للصواب في كتاباته. فلا علاقة لهما بأعمال الشغب المتعلقة بالمواشي.

وبعد ذلك بأمد طويل، أدلي المعلم زايد بتصريح، بينما كان يترأس اجتماع اللجنة التنفيذية بصفته نائب رئيس الحزب، ذرفت منه الدموع من عيناي، حين قال: "**لا أحد في الوجود أحب إلي من قرينتي، ولكن حبي لعلي محسن أكبر**".

ولم يشأ أن تطأ قدمه أرض مدينة زنجبار بعد إطلاق سراحه من المعتقل عام 1964. واعتزل في كيمبي سماكي، كراهية منه أن يرى عاصمة بلده الحبيب ترزح تحت نير الغاصبين. فكل إشارة، وكل رمز، وأعلام المؤسسات وأسماؤها كانت ستذكره بالامتهان والدمار الذي حل بكل ما له قيمة في البلاد.

وما كان بمقدوره أن يتحمل رؤية علم نيريري يرفرف فوق بيت العجائب الذي بناه السلطان برغش. ولا أن يرى اسم مستشفي **كريمجي**، قد استبدل بمسمى مستشفي لينين. ولا أن يرى مقر الحزب الوطني الزنجباري، وقد احتلته جمعية شباب حزب الأفروشيرازي. ولا أن يسمى قصر السيد خليفة، قصر كارومي. كل هذا كان يؤذيه إلي حد لا يستطيع تحمله. من أجل ذلك اختار أن يعتزل الحياة العامة بكاملها، فعاش في عزلة سنوات، إلي أن جاء الموت المسوي بين الجميع، فأراحه من كل هذا العذاب الدنيوي.

رابعا: رمضان مدافو

أتى جد **رمضان بن خميس**، وجدته من مدينة ليندي الواقعة على الساحل الجنوبي لتنجانيقا حينما كانت جزءا لايتجزأ من زنجبار. من ثم، فإنه كان هو وأسلافه **زنجباريين بالمولد**، وإن كان ثمة احتمال لأن يكون هو ماكوندي من حيث القبيلة. قابلته لأول مرة بعيد هجر الجمعية الإفريقية. جاء يستشيرني في إنشاء جمعية **إسلامية للأفارقة رعايا جلالة السلطان**، وكان بصحبته **عثمان سعود** خريج مدرسة باكثير الإسلامية في أكوتاني.

وثار كلا الرجلين ضد قيادة الجمعية الإفريقية التي تورطت علي نحو يثير القلق في اختيار مرشحين لعرضهم علي الحكومة لتعينهم الأخيرة في المجلس التشريعي، الذي كان رانكين يحاول تشكيله. وتضايق رمضان وعثمان من توجه قيادة تلك الجمعية لاختيار **مرشحين ليسوا مسلمين ولا زنجباريين.**

وأخذًا بنصيحتي ونصيحة زميلي الصحفي أحمد سيف الخروصي، سلم رمضان وعثمان، بمنطق التمسك بهويتهم الوطنية، وعدم التركيز علي الهوية الدينية أو العرقية، والتخلي في نفس الوقت عن فكرة تشكيل أية جمعية. فالجمعيات فات أوان صلاحيتها، وأصبح المطلوب هو تأسيس حزب سياسي فيما لو كان هدفنا هو إنهاء تعيين الحكومة أعضاء المؤسسات، والتخلص من التمثيل الطائفي. وبعد أن أرسينا أساسا للبنيان الوطني، شجعنا جماعة رمضان وغيرها من الجماعات كجماعتي حاجي حسين والمعلم مقصود، وكافة الجماعات الأخرى علي الوقوف صفا واحدا وراء شعار" **الاتحاد مع كل القوى التي يمكن**

توحيدها" فكل الزنجباريين يمكن، وينبغي، أن يتحدوا تحت راية الوطنية الزنجبارية بصرف النظر عن العرق أو الدين.

وحينما رزق **رمضان** بمولوده الأول، رفض لتشبعه بأيديولوجية القومية الزنجبارية، ومناهضته للعنصرية، أن يكتب في شهادة ميلاده اسم قبيلته تحت خانة "**العرق**". وكان موظفو سجلات المواليد يريدون أن يكتبوا في تلك الخانة كلمة: "**إفريقي**". رفض رمضان بإصرار، وقال: "**لا يوجد شئ اسمه العرق الإفريقي**"، ولا أسلم بوجود أعراق علي الإطلاق. وصمم علي أن يكتب في تلك الخانة لفظ: "**زنجباري**"، بوصفه المسمى المسلم به قانونا وفق قانون الجنسية والتجنس. وانتهي الأمر بإحالة هذه المسألة إلي **المدعي العام**، وجاء الحكم لصالحه. ومهد ذلك الطريق أمام الحزب الوطني لشن حملة ضد تضمين الإحصاء السكاني الذي أجري عام 1958 أسئلة حول **العرق وبلد المنشأ**.

ويحكي هذا المقتطف من الصفحة التاسعة من تقرير الإحصاء السكاني المشار إليه، ماحدث:

"علي الرغم من أن التفسير البالغ الحذر الذي قدمه كبير مفوضي الدائرة، فإن الحكومة تعرضت فيما بعد لهجوم شديد علي صفحات جريدة محلية (المرشد) فسرت تضمين أسئلة من هذا القبيل علي أنه محاولة لتطبيق مبدأ: "**فرق تسد**". وأصدر الحزب الوطني تعليمات لكل أعضائه أن يكتبوا في الخانة الثانية عشرة الخاصة بالعرق كلمة واحدة: "**زنجباري**"، ويكتبوا كلمة **(زنجبار)** في الإجابة علي السؤال الثالث عشر الخاص ببلد المنشأ. وتطلب ذلك رد الحكومة بحملة واسعة من الدعاية المضادة عبر صحيفة **المعرفة** الناطقة باسمها، وعبر الإذاعة، والمقابلات الشخصية.

وينبغي تسجيل أننا حصلنا علي التعاون الكامل آنذاك من القادة الأفارقة في زنجبار، سواء فيما نشرته صحيفتهم أفريكاكويتو، أو في خطبهم في مؤتمراتهم الشعبية. وتبين لنا في ذلك الإحصاء السكاني أن قبائل أصلية معينة مثل واتومباتو والشيرازي فضلوا وصف أنفسهم بلفظ: " شيرازي "، لعدم رغبتهم في تضمينهم تحت مسمى: " **أفارقة**".

وأربك ذلك هيئة الإحصاء السكاني، فلجأت إلي حل وسط، بتجميع كل من هم وابمبا، واتومباتو، واهاديمو، والعرب بما فيهم المنحدرين من جنس عربي إفريقي مختلط، وأفارقة البر الإفريقي وجزر القمر، تحت مسمى: "**العرب الأفارقة**".

وكان صاحب الفضل، والنموذج الذي سار الجميع علي خطاه في هذا الصدد، هو **رمضان مدافو**. والسبب في تسميته بلقب: مودافو أن بيع **ماء جوز الهند** كان هو مصدر رزقه، قبل الاستقلال وبعده، وبعد الإطاحة بحكومتنا، التي ساهم في تأسيسها. ونجح الحزب الوطني بفضل رجال من أمثاله، في التخلص من **الاعتراف الرسمي بالتصنيف العرقي في زنجبار**، في وقت لم يكن لنا فيه أي سلطة.

وبعد ست سنوات، وفي عام 1964، حين نقل بعضنا بعد الإطاحة بحكومتنا إلي **سجن نيريري في دارالسلام**، ارتعدت فرائصنا حين سئل كل منا عن عرقه وقبيلته لدى تسجيلنا كنزلاء بالسجن. ومرت دقيقة كاملة والشيخ إبون صالح في ذهول مطبق، غير قادر علي فهم معنى السؤال. فلم يكن ليستطيع أن يفهم كيف أن تنجانيقا التي كانت تحت وصاية الأمم المتحدة وحصلت علي استقلالها قبل حصول زنجبار عليه بثلاث سنوات، **لاتزال**

تستخدم الصيغة الاستعمارية التي تفرق البشر إلي أعراق وقبائل.

وكان رمضان مدافو واحدا من أوائل من أتوا لزيارتي بعد الإطاحة بحكومتنا والزج بي في السجن. جاء برفقة أمي وزوجي وأمها. تصاغرت نفسي أمام صنيعه هذا. ففي ذلك الظرف الخاص، وفور المذابح الجماعية وسجن ألوف الأبرياء، والدماء تقطر علي أيدي السفاحين بلا توقف، امتلك رمضان الذي لا تربطني به قرابة دم ولا نسب، الشهامة والشجاعة، انطلاقا من حبه لي، ولما ناضلت من أجله، وجاء يتحدى ويجلب علي نفسه غضب الغاصبين بزيارته لي في السجن جهارا نهارا، برفقة أقرب أقاربي. شكرت الله تعالي أن وهبنا رجالا من أمثاله يدافعون عن قضيتنا.

وقارنت بين **نفسي ونابليون** حين عاد مهزوما من روسيا، بينما كان لا يزال هو امبراطور فرنسا، وهو بقصره يطلب من خادمه الخاص أن يحضر له بعض الماء للحلاقة، فلم يجب طلبه أحد. تخلي الكل عنه بما فيهم قرينته. عندها سجدت لله شاكرا.

ولقد تعمدت اختيار المعلم زايد ورمضان مدافو كمثالين في هذا المقام، من بين هامات عالية كثيرة تأسس الحزب الوطني الزنجباري علي أيديهم. هؤلاء الرجال من الأرستوقراطين والعوام، من الأثرياء والفقراء، من المثقفين والبسطاء كانوا هم نواة الحركة الوطنية بصرف النظر عن لونهم، وعن البلد الذي جاء منه جدودهم. لم ينضموا إلي الحركة الوطنية علي أمل الوصول إلي مناصب، أو لتحصيل مكسب مادي، كما يفعل من يسمون أنفسهم "**الأرستقراط**" أو "**التقدميين**" الذين يغيرون جلدهم،

ويرحلون مهرولين إلي مرعى آخر أخصب، بانتهازية ونفعية، كلما دعت الضرورة.

أما رجالاتنا فقد جاءوا **ليخدموا أمتهم**، لا لأن **تخدمهم هي**. فشعارهم هو: **العطاء لا الأخذ**. وثبتوا علي مبادئهم مهما كانت مرارة ما يؤدي بهم ذلك إليه. ولم يمت رمضان بالتعذيب والسجن، بل لقي ربه **علي إثر سقوطه من فوق شجرة جوز الهند، كان رغم شيخوخته، ووهن عظامه، يقطف ثمارها من أجل الحصول علي قوته. تقبله الله في عباده الصالحين.**

يتواضع أي نصب تذكاري مهما بلغ من الحسن والطول، أمام مثوى هؤلاء الرجال طيب الله ثراهم.

وممن انحازوا إلي قضيتنا من أولي العلم العلماني، أناس يستحقون أيضا أن نكيل لهم المديح، سبق لي أن أشرت في مواضع أخرى من هذا الكتاب إلي اسهامات رجال منهم من أمثال: أحمد سيف الخروصي، ومحمد سالم جينجا وإبون صالح.

ومن بين من تركوا وظائفهم بالحكومة، **من أجل ربط حياتهم ومستقبلهم ببحر النضال الوطني المحفوف بالمخاطر**، نذكر: الدكتور أحمد عيدروس باعلوي، ومولد منشنجاما، وسالم كومبو، وأباذر جمعه، وأمان ثاني.

وثمة فريق آخر، ممن كان بوسعهم أن يستمتعوا براحة هم يستحقونها بعد مشوار خدمتهم العامة الطويل، ولكنهم آثروا مواصلة الكد ليقدموا يد العون للقضية الوطنية بشكل أو بآخر. فتولي **علي عيسى البرواني** أمانة صندوق الحزب. وعلي يده وبمساعدة معاونه الشاب الملتزم **عمر محمد**، تمكن الحزب من

الوفاء بكل التزاماته، طيلة حياته، إلي أن واجه مصيره المرير. وحرص حتى بعد الإطاحة بحكومتنا ومصادرة مباني الحزب وممتلكاته، علي سداد كل ما علي الحزب من ديون، قبل أن يقرر مغادرة وطنه، الذي استولي عليه قطاع الطرق.

وكان علي عيسى البرواني في صنيعه هذا الأسوة الحسنة، في صنيع **النبي صلي الله عليه وسلم** حين عهد لدى هجرته من مكة إلي المدينة إلي ابن عمه **علي بن أبي طالب** أن يرد الأمانات إلي أهلها، رغم كون أولئك القرشيين وثنيين، وكون فجورهم في العداء للمسلمين، هو السبب الذي اضطرهم إلي الهجرة.

أما المساهمات الثمينة التي قدمها أصحاب الباع الطويل في الخبرة من **أمثال**: محمد علي المجيني، والمعلم صالح مبامبا، والمعلم محمد أبو بكر، ومسعود ومحمد ثاني، والمعلم برهان عبد الوهاب، والمعلم بودا، ومجيني علي، وناصر عيسى الإسماعيلي، ومحمد وراشد عامر، ومحمد بن سعيد بن خميس، وسيد عبد الواحد، ومحمد عبود مكاندا، للحزب الوطني الزنجباري، فلا يستطيع أحد غير الله أن يجازيهم عليها. فهؤلاء وغيرهم من أمثالهم قضوا خواتيم حياتهم في العمل من أجل القضية الوطنية، لا يريدون من أحد من البشر جزاء ولا شكورا.

خامسا: أنصار بيمبا

ثمة **نواة صغيرة من الوطنيين الأوفياء** من بين الموظفين المدنيين في بيمبا قدموا للوطن مساهمة جليلة، جديرة بأن تقرض قصائد مديح خاصة بحقها. فهم أناس **خاطروا بالوظيفة** التي

يعتمدون عليها في الحصول على أسباب العيش، وبأمنهم **الشخصي**، وكدوا وكدحوا من أجل خلق الوعي السياسي بالوطنية والقيم الديموقراطية في زنجبار. وواصلوا العمل بالليل والنهار. واجتهدوا حينما يجن الليل على وجه الخصوص، دون علم رؤسائهم البيض، في إيقاظ القرويين من سباتهم، وغرس الروح الوطنية في نفوسهم. وبفضلهم عمت تلك اليقظة، وتلك الروح **بيمبا، بل في الأمة الزنجبارية بكاملها**، فهبت معلنة تمردها على الإستعمار. وتردد صدى صوت مقاماندوم، وموينيي مكو والسيد سعيد بن سلطان الجهير، في كل واد، وفي كل فج عميق، مطالبا بـ: "**الحرية الآن**".

عمل أولئك **الموظفون المدنيون**، وعمر جلهم في العشرينيات والثلاثينيات، بشكل سري، وفي الليل. واجتمعوا أحيانا في هيئة **رحلات صيد**. وأشار **والتر كوتس** الذي أرسلته بريطانيا لينظر فيما إذا كانت زنجبار قد باتت جاهزة لإدخال نوع ما من الانتخابات العامة بها على غرار ما يطالب به الوطنيون الزنجباريون، إلي جماعات الصيد هذه بسخرية مبطنة قائلا:

"إنهم أناس يصطادون في مياه هائجة" على صلة بناشطي الحزب الوطني الشبان الذين لديهم حرية العمل بشكل أكثر علانية، ونجحوا في الحصول على تأييد بعض زعماء الطوائف المتمردين والبند الوحيد في برنامج عملهم هو: نبذ العرقية وطلب الحرية. ونافذة تعبيرهم عن رؤاهم هي جريدة "المرشد" الراديكالية التي تعطيهم الأولوية في نشر آلامهم، وطموحاتهم. كما أن إذاعة صوت إفريقيا من القاهرة تنشر رؤاهم في كل أرجاء العالم. وتنشر صحيفة "المرشد" مقالاتهم باللغتين الإنجليزية والسواحيلية، ويقرأ

الشعب قصائدهم الشعرية الوطنية بنهم. ودخلت أشعارهم، وأسمائهم الحركية المستعارة التي ينشرون بها، كل بيت. وراجت بينهم قصائد أبونور ومحمد سالم البرواني. وقدمت سيدات من أمثال بيوبوا وزهيره غريب وزوينة عبدالله مساهمات أدبية لخدمة القضية الوطنية".

وممن يجب ذكرهم من **أفراد جماعة الموظفين المدنيين** هذه: الدكتور أحمد عيدروس باعلوي، والمعلم زام علي عباس، وعيسى ناصر الإسماعيلي، وعبدالله راشد، وصديق رجب، وسعود حمد المعولي، وعلي سعيد الأكبري، وأخوه أحمد. وعمل **عمر زهران** بإخلاص من أجل القضية الوطنية في عهد النضال الوطني، ولكنه **انشق وناصر** النظام الحاكم الغاصب فور الإطاحة بحكومتنا في الثاني عشر من يناير 1964. أما **عيسى ناصر الإسماعيلي** فلم يتزحزح ولاؤه للقضية الوطنية قيد أنملة نتيجة تعيينه في منصب السكرتير الخاص للسير جورج مورنج آخر مقيم بريطاني.

وكان الشيخ **ناصر بن عيسى** والد عيسى أحد الأعمدة التي قام عليها الحزب منذ نشأته. بل كان قبل ذلك كريما بلا حدود، في مد يد العون للقرويين في مفيسيني والمناطق المجاورة لها. وحين وقعت الكارثة في يناير الأسود عام 1964 ذبحه سفاحو حزب الأفروشيرازي بوحشية وألقوا بجثمانه في بئر. كما استشهدت والدة صديقنا وزميلنا عيسى في مذابح 1964. ومن بين من خدموا قضية **استقلال زنجبار**: محمد عبيد الحاج والشقيقين المنذرين عبد الله وسالم راشد، وسليمان سعيد الخروصي، وصديق رجب، ومحمد سالم السكيتي. وامتاز المعلم زام علي عباس بكونه

صاحب السبق في نشر المبادئ الوطنية غير العنصرية في بيمبا قبل نشأة الحزب الوطني الزنجباري بأمد طويل.

وتعاونت جماعة الموظفين المدنيين مع **براعم نشطاء الحزب** الوطني الزنجباري الشبان، الذين ضموا وطنيين من **أمثال:** "حبيب سليمان، وأحمد ناصر المزروعي من مكانجوني، وخلف سالم ومحمد علي من كنجيجا، وعلي محمد سيف، وناصر محمد عمير الهنائي، وناصر مهنا، وسعيد مهنا، وحسين مبارك، وخميس ناصر (ماجوجو)، وناصر علي (كشوا) والشقيقين البافقيهين صالح وعلي. إلا أن بعض هؤلاء لم يحافظوا علي ولائهم وقذفوا به في مهب الريح، ونكصوا علي أعقابهم، وأصبحوا أتباعا للخائن بابو، حين انشق علي الحزب. أما الأغلبية فتمسكوا بولائهم حتى النهاية المريرة. وعلي أكتاف هؤلاء المخلصين وبعض المسنين الليبراليين من أمثال علي عبد الرحمن باعلوي، والشيخ يحيي بن حمد الهنائي، وخلفان بن عيسى الإسماعيلي، ومبارك بن سعيد الخروصي، وبرزنجي، وخميس أوسي أقيم بنيان الحزب في بيمبا بكل حماس. وتوج هذا العمل المجيد بقرار الشيخ **راشد حمادي** الترشح ضمن مرشحي الحزب الوطني. وحينما اتخذ محمد شامتي قراره الحاسم في الانفصال عن حزب الإفروشيرازي، لم يعد لذلك الحزب العميل وجود في جزيرة بيمبا.

وربما أتهم شخصيا بأنني متيم ببيمبا، ولدي ميل عاطفي تجاهها. ولاغرابة في ذلك. فجدتي لوالدي **أمينة بنت حاجي** من شيرازي بيمبا، واثنان من أحفادي من بيمبا، والدهما من بوجيني التي حكمها مقاماندوم المبجل في العصور القديمة. ونحن نلقب أبناء بيمبا **بالأنصار**، علي مسمى أهل **المدينة** المنورة الذين هبوا

لنصرة الإسلام والنبي في أصعب اللحظات وأدقها. ولولا ولاء بيمبا الذي لا يتزعزع للقضية الوطنية الزنجبارية، لما تحررت زنجبار من الحكم الاستعماري عام 1963.

والحق أن جزيرة بيمبا **زنجبارية** بدرجة تفوق جزيرة **اونجوجا** ودرجة التجانس في الثقافة والرؤى فيها، أعلي منها عن التنويعات والإختلافات الحضرية في العاصمة زنجبار والمناطق المجاورة لها. ومرد ذلك أن المهاجرين الجدد يميلون عادة إلي التمركز في المدينة الرئيسة حيث يزيد احتمال الصراع فيها بين الثقافات والولاءات المتضاربة. وحينما تصير أسباب العيش محدودة، تتفاقم فيها الصراعات. أما المناخ الاجتماعي السائد في المناطق الريفية وشبه الحضرية كما هو الحال في بيمبا فهو أكثر ملائمة **للهوية الوطنية والتماسك الاجتماعي**. ووفر هذا المناخ أرضية خصبة لتجذر ونمو المثاليات الوطنية التي صمدت في مواجهة ثلاثين عاما من القمع الممنهج. وفي القرون الخوالي واجهت بيمبا الاضطهاد البرتغالي بمقاومة نشطة.

ومن هنا، لم يكن من قبيل الصدفة أن **تشكيلة الحكومة الأولي والوحيدة لزنجبار المستقلة**، جاءت معبرة عن علو هامة بيمبا في الوعي السياسي. فمن بين وزرائها العشرة، كان ستة من بينهم رئيس الوزراء من بيمبا. ويعود الفضل في ذلك إلي الطبيعة المتأصلة في أبناء تلك الجزيرة، ونواة جماعة الموظفين المدنيين، والناشطين الشبان من رجال ونساء، بسواعدهم وعقولهم بوركت تلك الجزيرة في عهد النضال السياسي من أجل الإستقلال.

سادسا: مع نيريري في غانا

ذات مساء في شهر مارس 1958، كنت جالسا مع جوليوس نيريري في رواق فندق أفينيدا اليوناني بأكرا، أحتسي عصير الأناناس، بينما يرتشف هو شرابا ما معتقا. قلت له: "**ما يقض مضاجعنا في زنجبار هو عدم كفاية المرافق التعليمية. فليس لدينا ما يكفي من المدارس الثانوية، ولا يوجد لدينا معاهد عليا. ولو تيسر لي حل مشكلة التعليم، فإن ذلك سيفضي بالتبعية إلي حل المشكلة السياسية، لأن من سيظلون قابلين للتغرير بهم حينئذ سيكونون قلة قليلة.** "

رد نيريري بالحرف الواحد، بقوله: "لاحاجة لي بالتعليم، علي الأقل في الوقت الحاضر. ومن حسن حظي أنه لا يوجد عندي عدد كبير من المتعلمين، لأن تلك القلة المتعلمة هي مصدر الصداع بالنسبة لي. فأمثال فونديكيرا ولوجوشا وماريالي هم الذين يعارضونني. ولا أريد المزيد منهم بالمرة في الوقت الراهن. فالتعليم سيأتي بعد الحصول علي الاستقلال. أما ما أنا بحاجة إليه الآن فهو سيارات لاندروفر. فبلادنا مترامية الأطراف. ولكي نفوز في المعركة الانتخابية القادمة يتعين علينا أن نجوبها بطولها وعرضها من أجل الدعاية الانتخابية. وستغمرني سعادة لاحدود لها، إذا عثرت علي بلد علي استعداد لإمدادي بتلك السيارات".

قلت له: "علي **حد علمي يمكن أن تقدم مصر مثل هذه المعونة.** فلم لا نتصل **بالسفير المصري** هنا، **وتطلب منه ما تريد، وأطلب منه أنا ماأريد؟** رد بقوله: " **حدد لنا ميعاد معه**". بناء علي طلبه هذا اتصلت هاتفيا بالسفير، واتفقنا علي اللقاء في العاشرة صباح اليوم التالي.

حرص صاحبي نيريري علي مغادرة حجرته بالفندق التي كانت مقابلة لحجرتي، في الصباح الباكر، وغادر الفندق دون أن يترك أية رسالة.

اضطررت إلي الذهاب إلي السفارة المصرية بمفردي. وقلت للسفير أن صديقي ربما يأتي بنفسه ويقدم لكم مطالبه. أما أنا فإن ما أريده هو معونة بلادكم لنا في التعليم الثانوي، وما بعد الثانوي. وأبدي السفير تعاطفه مع مطلبي. وأكد لي أنه علي يقين بأنه سيلبي. ولكن علي أن أزور مصر بنفسي بهذا الخصوص، وسيعلم حكومة بلاده بزيارتي وباحتياجاتي.

تذكرت أن وفدا من الحزب الوطني الزنجباري كنت من بين أعضائه، رد علي عقبيه من نيروبي في العام السابق، وحيل بينه وبين حضور المؤتمر الأفروأسيوي الذي كان مقررا عقده في القاهرة. وتحاشيا لتكرار تلك التجربة، رتبت مع **وكيل سفرياتي م. تاكيم** أن يزودني بتذكرة سفر من زنجبار إلي أكرا والعودة. ويزودني بتذكرة أخرى منفصلة من أكرا إلي القاهرة لأستخدمها إن لزم الأمر.

وتبين لي لاحقا ما لم أكن أعلمه في حينه، من أن نيريري تجنب عن عمد الإلتقاء بالسفير المصري. **فطيلة سنوات نضالنا لم يحدث أبدا أن شارك نيريري في مؤتمر مناهض للإستعمار.** فهو كان يعرف جيدا الجانب الذي تلتقي معه مآربه. ولم يكن علي استعداد بالمرة لقبول اقتراح قد يؤدي من قريب أو بعيد إلي تصنيفه في خانة المناهض للإستعمار. ومن شأن ربطه، وهو لا يزال طري العود بمصر الناصرية أن يشوه اسمه في نظر الاستعمار بلا ريب.



كوامي نكروما وعلي محسن

رئيس غانا كوامي نكروما مع زعماء أفريقيين

الثاني من اليسار علي محسن، الثالث كوامي نكروما الرابع توم مبويا من كينيا

والسادس جوليوس نيريري من تنجانيقا

إلا أن السبب المباشر لمغادرته الفندق مبكرا في ذلك اليوم كان وصول **جولدا مائير** وزير الخارجية الإسرائيلية آنئذ، بهدف معلن هو: **الإلتقاء بالقادة الأفارقة المرتقبين**. ونظم السفير الإسرائيلي حفل استقبال لها، دعينا إليه جميعا.

لم أحضر الحفل. ولكنني علمت بكل تفصيلات ما دار فيه من صديقي المعلم **أمينو كانو**، الذي كان حينها زعيما لحزب **الشعب الشمالي النيجيري**. وكنت قد سمعت من قبل عن الجهود الشجاعة التي بذلها أمينو كانو في تأسيس حركته الوطنية، وكنت تواقا لمقابلته. وفي طريقي إلي أكرا رتبت لزيارته في كانو بشمال نيجيريا، وقابلته بمكتبه المتواضع الذي يعج بالنشاط كأنه خلية نحل. وتوطدت أواصر الصداقة بيننا قبل حضورنا إلي أكرا للمشاركة في احتفالات غانا بعيد استقلالها الأول.

حضر المعلم أمينو كانو الاحتفال الذي أقامه السفير الإسرائيلي علي شرف وزيرة الخارجية الإسرائيلية. وقالت مائير للحاضرين أنها جاءت إلي أكرا خصيصا **لمقابلة قادة إفريقا المستقبل**. وأضافت أن العرب يحاولون **تطويق إسرائيل، وخنقها** وتحاول إسرائيل بدورها **تطويق العرب**. ومن هنا تأتي رغبتها في أن يكون لها أصدقاء في البلدان الأفريقية للتصدي للعرب. وإسرائيل، وفق قولها " **دولة صغيرة حديثة عهد بالوجود ولكن الشعب الإسرائيلي لديه خبرة كبيرة في التغلب علي الصعوبات. وبذا فإن بلدها في وضع يمكنها من تقديم الإرشاد والمعونة للبلدان الإفريقية الناشئة التي تواجه صعوبات مماثلة.**

ومن البدهي أن جوليوس نيريري كان حاضرا، وجاهزا لإنشاء علاقة صداقة دائمة مع دولة إسرائيل. وذهب عدد من العربات

اللاندروفر التي حصل عليها نيريري من إسرائيل، إلي حزب الإفروشيرازي الذي تصدى لناضلنا الوطني. ولم يكن من قبيل الصدفة، بالتالي، أن ذكرت المخابرات المركزية الأمريكية، أن قاسم هانجا زعيم حزب الأفروشيرازي، وبابو زعيم حزب الأمة كانا في السفارة الإسرائيلية بدارالسلام قبل الانقلاب الذي أطاح بحكومتنا في وقت لاحق في يناير 1964، بأيام معدودات.

وبعد انتهاء احتفالات غانا بعيد استقلالها الأول، دعانا نكروما إلي مقر رئاسته بقلعة كرستيانبرج، التي بناها الدانمركيون حينما كانوا يتاجرون في العبيد. وبتلك القلعة حظائر كان يتم الاحتفاظ بالعبيد فيها توطئة لنقلهم بحرا عبر المحيط الأطلسي إلي أمريكا. وما من دولة أوربية إلا وشاركت في تلك التجارة في البشر، بما في ذلك البريطانيون والفرنسيون والهولنديون والبرتغاليون. وعم نشاطهم في تجارة الرقيق كل أرجاء إفريقيا، إلا أن غرب إفريقيا كان هو مصدرهم الأكبر.

وحينما حظر السيد **سعيد بن سلطان** تصدير العبيد من ممتلكاته بشرق إفريقيا، وواصلت فرنسا قنص العبيد من كيلوا والمناطق المتاخمة لها بالمخالفة للقانون، فهدد سلطان زنجبار بالدخول في حرب ضد فرنسا. ولم يكن الفرنسيون وحدهم الذين يقتادون العبيد من شرق إفريقيا، بل نافسهم البرتغاليون في هذا الصنيع.

قال لنا نكروما، معشر ضيوفه، أنه انتهز احتفالات عيد الاستقلال كذريعة يأتي بنا من أجلها إلي غانا، لأن دعوتنا لسبب آخر قد تدفع حكامنا الأجانب إلي منعنا من المجئ إليها، علي غرار منعهم بعضنا من الذهاب إلي القاهرة في العام السابق. أما

هدفه الحقيقي، فهو أن يبحث معنا **إمكانية التنسيق بين أنشطتنا الرامية إلي تحرير كل شبر من إفريقيا من الحكم الاستعماري.**

وطرح علينا نكروما، وجورج بادمور كبير مستشاريه للشؤون الإفريقية بجانبه، مشروع إلتقاء كل القادة الأفارقة للتشاور بشأن ما وصفوه: **تكتيكات غاندي "بتبني المقاومة السلبية طريقا للتحرر من الاستعمار.** وهنا طرح **جوزيف مورومبي** الذي كان يعيش بالمنفي في بريطانيا باعتباره شخصا غير مرغوب فيه في كينيا البريطانية، سؤالا بالغ الأهمية حيث قال: **"هل سندعوا كل القادة، أم سندعوا منهم من نعلم أنه وطني فحسب؟ وسر سؤالي أن هناك بعض قادة من أمثال قادة حزب الأفروشيرازي بزنجبار يعارضون حزب علي محسن، ومن المعروف أنهم مجرد أداة بيد البريطانيين. فهل سندعوهم هم أيضا".**

انتفض نكروما قائلا: لا، لا مكان لصنائع الاستعمار وعيونه بيننا"

وهنا تدخل نيريري، صانع حزب الأفروشيرازي بدبلوماسيته المكيافيلية المعهودة وقال: "أظن أن من الحكمة دعوتهم. فهؤلاء ليسوا عملاء عن قناعة. كل ما في الأمر أنهم لا يعرفون. وحينما يأتون إلي هنا، سيتجرأون علي تبني موقف وطني، وستتدعم قضيتنا بمشاركتهم بدل إضعافها". وهكذا فكر وقدر، محاولا أن يجمل الشمطاء. كان ذلك قبل ظهوره بمظهر رجل الدولة الورع ليغطي علي نجم نكروما.

دفعت بأن أولئك الصنائع سيكونون بمثابة **الطابور الخامس** داخل صفوفنا، وضررهم أكبر من نفعهم. وهنا قدم جورج بادمور

صيغة للخروج من طريق مسدود. قال: **سنصوغ الدعوة بطريقة إذا وافقوا معها علي الحضور، فإن أسيادهم المستعمرون سيفقدون معها الثقة فيهم، وتنقطع بهم السبل".**

وتضمنت الدعوة المزمع توجيهها لحضور المؤتمر المزمع عقده في أواخر ذلك العام في أكرا انتقادا لاذعا **للعنصرية والشوفينية** واعتبرتهما عدوتان لإفريقيا أكثر من **الاستعمار.** وكانت العنصرية وموالاة الاستعمار هما الأساس الذي قام عليه حزب الأفروشيرازي. ومن ثم كان من الممكن التنبؤ برد كارومي علي تلك الدعوة. وبالفعل دعا كارومي إلي مؤتمر شعبي في مدينة زنجبار، انتقد فيه المؤتمر المزمع عقده، قائلا:

"حريتنا لن تأتي من **أكرا، ولا من القاهرة.** بل ستأتي حين يحين أوانها **من لندن.** إن من يطالبون بالاستقلال الآن **حمقى.** فليس بمقدورنا أن **نصنع إبرة.** ونحتاج لسنوات طوال **لنتعلم من البريطانيين.** وحينما نتأهل، سنقول ساعتها **لمعلمينا: صحبتكم السلامة.** لن **أذهب إلي أي مكان لأطلب الحرية".**

وتجشم **فرانسيس خميس** الكيني و**كانياما شيومي** الملاوي مشقة السفر من كينيا وملاوي إلي زنجبار باسم **منظمة حرية عموم شرق ووسط إفريقيا (بافميكا)** بغية إقناع كارومي بحضور المؤتمر الأول لعموم شعوب إفريقيا المزمع عقده في أكرا. ووافق في آخر لحظة علي الذهاب إلي أكرا بصحبتي **أنا ويابو** الذي كان سكرتير عام الحزب الوطني آنئذ.

ولكي نعود من غانا في سبتمبر بترتيب لموقف موحد، بعد أن تقرر عقد ذلك المؤتمر في ديسمبر، اقترحت علي إخواني الشرق

إفـريقيين أن نجتمـع أولا فـي وطننـا لتنسـيق اسـتراتيجيتنا ومواقفنـا. وقـدمت لهـم دعـوة لزيـارة زنجبـار. كنـت عازمـا سـاعتها علـي الـذهاب إلـي القـاهرة معتقـدا أن زيـارتي لهـا لـن تطـول. وشـمل قـادة شـرق إفريقيـا الـذين كـانوا معـي فـي أكـرا فـي مـارس: نيريـري مـن حـزب تـانو، وكـاواوا مـن اتحـاد نقابـات عمـال تنجانيقـا، وبـول بومـاني مـن الحركـة التعاونيـة بتنجانيقـا، وتـوم مبويـا وجوزيـف مـورومبي مـن كينيـا، ومـوليرا مـن أوغنـدا، وكانيامـا شـيومي مـن مـلاوي. وكنـت الزنجبـاري الوحيـد، لأن الحـزب الـوطني كـان هـو المنظمـة الوحيـدة ذات المكانة الدولية.

وعلـي النقـيض مـن توقعـاتي، طالـت فتـرة بقـائي فـي مصـر، حيـث مكثـت بهـا أربعـة أشـهر قبـل أن أتمكـن مـن مقابلـة الـرئيس جمـال عبـد الناصـر، وتلبـي كـل مطـالبي الخاصـة **بالمعونـة المصـرية للتعلـيم فـي زنجبـار**. وفـي نفـس الوقـت، فـإن المقـر الـذي كـان مـن المقـرر عقـد مـا بـات يعـرف **بالاجتمـاع التأسيسـي لمنظمـة حركـة حريـة عمـوم شـرق ووسـط إفريقيـا (بافميكـا)** فيـه، تـم اختطافـه إلـي مـوانزا بتنجانيقـا. وبهـذا الاعتبـار نسـب نيريـري الفضـل فـي تأسـيس تلـك المنظمـة لنفسـه، ولـم يـرد ذكـر للمبـادرة الأوليـة للحـزب الـوطني الزنجباري في هذا الصدد.

الفصل الحادي عشر[1]

الآصرة المصرية

أولا: جـذور شـبكة العلاقـة بـين الحركـة الوطنيـة الزنجبارية والقيادةالمصرية

قضـيت صـيف عـام 1958 بالقـاهرة، حيـث أقمـت لـدى صـديق طفـولتي **أحمـد رشـاد**، الـذي كـان أشـهر مـذيع باللغـة السـواحيلية مـن القـاهرة، تمامـا كمـا كـان شـأنه فـي راديـو زنجبـار مـن قبـل، والـذي أقيـل منـه لاسـتخدامه مكتبـه وأدواتـه **الحكوميـة فـي إنتـاج منشـور سـري** يرمـي إلـي تحقيـق الصـحوة لـدى الطبقـة العاملـة الزنجباريـة، بالتعاون مع صديقه الحميم أحمد الخروصي بامنجا.

وكـان راديـو القـاهرة هـو أول إذاعـة خـارج منطقـة شـرق إفريقيـا تبـث باللغـة السـواحيلية، بحاجـة إلـي مـذيع دائـم يحـل محـل **شـريفه اللمكـي** (هوبـو)[2] التـي لـم تكـن متفرغـة لهـذا العمـل بوصـفها طالبـة، وكانـت

---

[1] يكشف هذا الفصل المهم أبعاد الدور المصري في إفريقيا عامة، وفي زنجبار بوجه خاص، في العهد الناصري، كما يبين مدى شدة الروتين الحكومي آنذاك، وإمساك عبد الناصر بكل مقاليد القرار السياسي في كل الأمور، ما دق منها وما عظم. وتكشف هذه الدراسة عشوائية الدور المصري آنذاك، وافتقاره إلى استراتيجية واضحة. فالجمع بين موقف مصر من الحركة الوطنية الزنجبارية، وموقفها من الإنقلاب عليها، دليل على غياب الخط الاستراتيجي، وعلى غلبة البعد الاشتراكي، على البعد العروبي الإسلامي، حتى قبل نكسة 1967، كما يكشف عن عواقب المعونة المصرية على الحركة الوطنية الزنجبارية، على صعيد تأليب عناصر بالداخل والخارج عليها، والترهيب من المد العربي والإسلامي عبر المعونة المصرية – المترجم.

[2] شريفة بنت محمد بن ناصر اللمكي، أثناء دراستها بالجامعة الأمريكية بالقاهرة أصرت على أنور السادات على افتتاح أول إذاعة باللغة السواحيلية تذاع من خارج منطقة شرق إفريقيا لمناصرة

قاب قوسين أو أدنى من التخرج في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وقمت بالترتيبات الضرورية لذهاب أحمد رشاد إلي **القاهرة عبر الهند**. فلم يكن مأمونا علي الإطلاق في تلك الآونة بالنسبة لأناس مثلنا الذهاب إلي مصر مباشرة من بلد يرزح تحت نير الاستعمار. ومن هنا ذهب أحمد إلي مصر من الهند، وذهبت إليها من غانا.

وكنت قد أدرجت علي قائمة "الأشخاص الغير مرغوب فيهم" مرتين في كينيا لا لشئ إلا لمجرد إحباط تحركاتي بالخارج. واحتجزوا جواز سفري ذات مرة لمدة عامين، ولم أستطع استعادته إلا بعد تقديم التماس لوزارة شؤون المستعمرات في لندن.

أقمت مع أحمد رشاد في شقته الصغيرة، وآثرني علي نفسه، بأن نام هو علي أريكة بغرفة الجلوس، وترك لي سريره الوحيد أنام عليه. وطيلة تلك الأشهر الأربعة تناولت الغداء مجانا بمنزل الراحل **عبد الله مسعود الريامي** وزوجه **بيمدوجو** (زوينه) بالمنيرة. وتوطدت خلال تلك الفترة عرى الصداقة بيني وبين العديد من المصريين. وكنت من قبل علي معرفة وصداقة مع الدكتور **مصطفي مؤمن** منذ عام 1955، وهو الذي شغل لفترة منصب سكرتير الشيخ **حسن البنا** مؤسس حركة الإخوان المسلمين.

حركة ماوماو في كينيا وبقية حركات التحرر بالمنطقة. وكانت أول مذيعة في تلك الإذاعة. بعد تخرجها وعودتها إلى زنجبار عاقبتها الإدارة الإستعمارية البريطانية بمنعها من العمل لأكثر من ست سنوات. – محمد البرواني

والدكتور مصطفي مؤمن مهندس معماري استشاري. وقضت قرينته الدكتوره **فاطمة أبو العز** أستاذة علم الأمراض بجامعة القاهرة، وأخوها الدكتور الصيدلاني **فريد أبو العز** بعض سنوات الطفولة في زنجبار، حيث أقاما في منزل مجاور لمصنع للمياه الغازية، في شابورجي التي كان يوجد بها محل الطرابيش الخاص بخالهما **محمد الأشرقي**.

وخالهما هذا هو أول من أدخل الطرابيش إلي إفريقيا الشرقية، والتي كانت تسمى باسمه أحيانا (**الأشرقية**). وأتذكر أن محمد الأشرقي كان في ساعات العصاري يضع بعض الكراسي في الهواء الطلق أمام محله، ويجتمع أصدقاؤه المقربون لتجاذب أطراف الحديث. وهذا النوع من **البرزة، أو المجالس**، معروف في كل منطقة الشرق الأوسط وشرق إفريقيا. وكان والد قرينتي **محمد بن سيف**، وعمي مسعود بن علي من بين خلان الأشرقي.

واتسع المقام أمام فريد وفاطمة بزنجبار للبدء في حفظ القرآن والدراسة بمدرسة سانت جوزيف مع رايه (بيوبوا) شقيقة هلال وعلي البرواني. وسرعان ما انتهت فترة الإقامة المتاحة لهما، واضطرا إلي العودة إلي القاهرة. وفيها نسيا ما حصلاه من اللغة السواحيلية، ولكنهما لم يفقدا أبدا ذكرياتهما وحبهما لزنجبار.

كانت هذه هي الكيفية التي تم بها الوصال بيني وبينهما ومعهما الدكتور مصطفي مؤمن زوج الدكتورة فاطمة. دعونا علي العشاء معهم في منزل والدهما أبو العز بالجيزة، إحدى ضواحي القاهرة. لبيت الدعوة أنا وزوجتي عزة وابننا محمد، ونعيمة سعيد خالة عزة، وثلاثة من الأخوات اللمكيات: شريفة وسعاد وهريرة. وكان أحمد رشاد معنا. ومن تلك الليلة توطدت مع توالي السنين، عرى

العلاقة بيننا وبين عائلة الدكتور مصطفي مؤمن، ولا تزال تتعزز بعد مرور أربعة عقود علي بدايتها[3].

وحينما تم السماح **بالتعددية الحزبية** في عهد أنور السادات، أحيا **فريد أبو العز** الحزب الوطني، الذي كان قد أنشأه في الأصل مصطفي كامل رائد النضال المصري من أجل الإستقلال. ، والمنقوش شعاره علي قاعدة تمثاله بوسط القاهرة.

ولا أدري هل هي محض مصادفة، أم هو تدبير القدر أن اتخذ الحزب الوطني المصري مقرا له بعمارة اللواء القريبة من تمثال مصطفي كامل. وبحلول عام 1958 كانت مكاتب الدكتور عبده سلام أيضا في تلك العمارة. والدكتور **عبده سلام** هو رئيس أول مؤسسة مصرية لصناعة الإمدادات الطبية. وتلك المؤسسة كانت مملوكة للدولة. وكان هذا الطبيب جراح عظام بارع من حيث المهنة، وعضوا بالبرلمان، ورئيسا لتلك المؤسسة الجديدة. وكنت دائم التردد علي هذا المبنى بصحبة أحمد رشاد خلال فترة إقامتي تلك بالقاهرة.

فكيف تعرفت علي هذا الرجل الرائع الذي لا يمكن الوفاء بما له من دين في عنقي جزاء ما قدمه من عطف ومعونة لرفاهية زنجبار والزنجباريين؟ تم ذلك عبر همام آخر. وكما يقول المثل: "**القرين بالقرين يقارن**". فلقد كان فتحي صبري والدكتور عبده سلام زوجين لأختين هما: عايده وتوسكا. وتعرفت علي فتحي أولا.

---

[3] توفي الدكتور مصطفي مؤمن بعد كتابة هذه الذكريات.

ففي عام 1954 رأي رجل الأعمال المصري **فتحي صبري** أن من واجبه أن يسافر إلي **نيروبي لحضور مؤتمر إسلامي**. وكان من المقرر أن يحضر الرائد **صلاح سالم** وزير الإرشاد القومي المصري في العهد الناصري، المثير للجدل، ولكن الحكومة الاستعمارية بكينيا لم تسمح له بدخول كينيا. وأحس فتحي صبري بأنه لابد أن يكون لمصر حضور ما في المؤتمر المزمع عقده، ونجح بمساعدة معارفه من رجال الأعمال في الحصول علي تأشيرة دخول نيروبي، وشارك فيه.

وكان من بين من شاركوا في المؤتمر تلميذي **هاشم اسماعيل**. وأعجب فتحي بأداء ذلك الشاب في المناقشات، إلي حد إحساسه بأن زنجبار تستحق زيارته لها. قال لهاشم أنه سيزور زنجبار، ويود الإلتقاء بأناس علي صلة بالتربية والتعليم.

اتصل هاشم بي، بوصفي أستاذه السابق، واستقبلنا أنا وهاشم فتحي صبري في المطار، ورتبنا له الإقامة في فندق زنجبار. ورتبت له اجتماعا مع لجنة جمعية أولياء الأمور، التي كنت سكرتيرا مشاركا لها مع الشيخ حميد مباي.

وخطب فتحي في اللجنة وحثهم **علي بعث طلاب لإتمام تعليمهم في مصر**. وكان مهتما بالتعليم الفني بوجه خاص. وقال أن لدى مصر مجال هائل، ولكنه من المتعين الحصول علي متطلبات الإقامة لمن نعتزم إيفادهم من طلاب. ومن هنا بدأت العلاقة بيننا وبين فتحي صبري. وحينما زرت مصر عام 1955 حاولت أنا وفتحي صبري ترتيب التعليم لطلابنا دون جدوى. ولم تفلح محاولات أخرى قام بها محمد ناصر اللمكي، وسعود أحمد البوسعيدي ، وعمر زهران.

وقبل أن أغادر زنجبار في طريقي في جولة تشمل مصر وسويسرا وبريطانيا عام 1955، حضرت مذكرة اتخذ منها أساسا لما سأناشد به الرأي العام البريطاني بخصوص مطالبنا السياسية. وتمحورت تلك المذكرة حول أمر واحد: **المطالبة بإدخال نظام الاقتراع العام على أساس غير عرقي، وفق جداول انتخابية عامة، وبإعمال مبدأ صوت واحد لكل ناخب.** فمصدر الضعف الكبير في كل بلدان شرق ووسط وجنوب إفريقيا هو **العرقية.** وسواء هيمنت **الأغلبية على الأقلية**، أو **هيمنت الأقلية على الأغلبية**، فإن العرقية **شر مستطير.** ومن يستخدمونها لأية أغراض نفعية عابرة لا يضرون إلا أنفسهم. ويكشف مصير موسوليني وهتلر عن ذلك بكل جلاء. ومن المقطوع به أن كارومي أينما كان هو الآن، يدرك حماقته، كما يدركها أولئك الذين امتدحوه وصفقوا له حينما كان هو وسفاحوه يذبحون ويغتصبون ويسجنون وينفون البشر بالألوف، لا لجريرة غير العرق واللون، والانتماء الحزبي، بل حتى مجرد التعليم.

ثانيا: لقائي جمال عبد الناصر

بينما كنت على وشك مغادرة زنجبار في جولة بالخارج، حل بول بوماني التنجانيقي ضيفا على صديقه علي سعيد الخروصي بزنجبار. جمعتهما من قبل مقعد الدراسة بكلية لوفوبورو بوصفهما من طلاب الحركة التعاونية. أطلعت بوماني على مذكرتي سالفة الذكر، وقرأها بتمعن في تلك الليلة، ثم قال لي صبيحة اليوم التالي: "**بموجبات الأمانة معك، بما انك ائتمنتي على قرائتها، سأقول لك رأيي بلا مواربة. هذه المقترحات لن تكون في صالح العرب. ولم أرى في حياتي أية أقلية ذات امتيازات تطالب**

بانتخابات عامة. هي رائعة بالنسبة للأفارقة، لكن العرب سيصيبهم الضر منها"

قلت له أني لا أطالب، ولا أسعى للحفاظ على امتيازات للعرب، ولا للأفارقة. أنا أطالب **بحقوق للزنجباريين ككل بصرف النظر عن العرق.** وبخصوص ما يسمى "**الامتيازات**" فإنها سطحية وشكلية. ففي ظل الحكم الأجنبي الكل، بما فيهم العرب مضطهدون. ولن تسود العدالة إلا حين تقوم ديموقراطية حقيقية، وحين يكون لكل فرد صوت، ويستطيع أن يختار – رجلا كان أم امرأة – من يمثله في الحكومة. عندها قال بوماني: "**لو كان الأمر كذلك، فسر علي بركة الله، وأتمنى لك التوفيق**".

ويزعم بعض من يكتبون عن تاريخ زنجبار الحديث، أن العرب نادوا، بوصفهم أقلية عرقية، بالأخذ بنظام الانتخابات العامة على أساس غير عرقي، كحيلة ذكية للمحافظة على هيمنتهم. ومن بين الذاهبين إلى هذا الرأي لوفتشي وأياني. فلقد كان من الغريب بالنسبة لمثل هؤلاء الكتاب أن تطلب **أقلية** بقوة وإصرار بما هو بالقطع في صالح **الأغلبية.** وبغض النظر عما أتعشم أن يستخلصه القارئ لمذكراتي هذه، قد يكون من حقي هنا أن أقتطف من كتاب **نورمان ر. بينت** المعنون: "**تاريخ الدولة العربية في زنجبار" التعليل التالي الأكثر منطقية الذي توصل إليه، حيث يقول**[4]:

---

[4] انظر الكتاب المشار إليه ص 251-252.

"مع نهاية عام 1951 أنجبت الجالية العربية أفصح متحدث سياسي معاصر عرفته زنجبار، ألا وهو: **علي محسن البرواني** المولود عام 1919 بأسرة ثرية، لها أصول شيرازية وفق المعيار الزنجباري العرقي المعتاد، درس بماكريري. ثم عاد إلي زنجبار حيث عمل فترة موظفا بالحكومة. ثم عمل بالصحافة، وصار من أنصار **الفكر الوطني** الذي يرعاه السيد سيف بن حمود بن فيصل. ومن ديسمبر شرع محسن في إلقاء سلسلة متواصلة من الخطابات العقلانية الرشيدة أمام المجلس التشريعي، مؤكدا علي تطلعات بعض أعضاء الجمعية العربية **لإقامة مجتمع مؤسس علي مبدأ الحقوق الانتخابية المتساوية لكافة رعايا سلطان زنجبار.**

ومن ذلك الحين، وصف كثير من المعلقين هذا النهج العربي بأنه حيلة ترمي إلي **تأبيد الهيمنة العربية علي الحياة السياسية في زنجبار**. وإذا سلمنا بمقولة مايكل لوفتشي أن العرب "**كانوا أقلية ثرية أجنبية**"، لا يتجاوز عدد أفرادها قرابة خمسين ألفا من بين سكان المحمية البالغ ثلاث مائة ألف، قد يبدوا أن هذا التحليل معقولا.

إلا أن تلك الفرضية لا يوجد أي مبرر لقبولها. فالكثير من العرب الزنجباريين، ذرية أسر مقيمة في زنجبار من أجيال طويلة، وهم بالتالي جزء لا يتجزأ من المجتمع المحلي بذات درجة الأفارقة المنحدرين من أصول محلية مماثلة. فعرب زنجبار وبيمبا لم يعودوا غرباء في بلدهم، تماما كما الأمريكيون السود بالولايات المتحدة. فكلا

الجماعتان تختلف من بعض الوجوه عن العناصر السكانية الأكثر منها عددا في وطنهم، ولكن كلتا الجماعتين مواطنون تجمعهما علي قدم المساواة معظم الخصائص المشتركة للنسيج المجتمعي لأمتهم.

والأهم أن كلا من عرب زنجبار والسود الأمريكيين قد تم إبقاؤهم في وضعية منفصلة عن بقية مكونات مجتمعهم بلوائح فرضها حكام يرفضون منحهم حق تنظيم شؤون حياتهم بأنفسهم. ومن الإنصاف بالنسبة **لعلي محسن ورفاقه** اعتبارهم من المؤمنين بحق بمبادئ مشتركة بالنسبة لكل القادة الوطنيين الأفارقة في معظم المستعمرات الإفريقية، التي كانت متعطشة آنئذ للحصول علي الحرية من سادتها الإمبرياليين. وهم علي أقل تقدير كانوا علي استعداد **لترك القرار بشأن برامجهم للأغلبية الساحقة من الناخبين الأفارقة الزنجباريين**".

ويطيب لي أن أضيف في هذا المقام أنه بالإضافة إلي أصولي الشيرازية من بيمبا، فإنني أيضا سليل قبيلة الماكوندي التنجانيقية، والمطوفية السواحيلية الكينية. ولست في هذا التعدد للدماء العرقية التي تجري في عروقي فريدا، ولا أنا بالحالة الخاصة. **فتعدد المنابت سمة معتادة حتى في الأسر المالكة في كل من عمان وزنجبار**. فالسلطان **ثويني** جد السيد خليفة، أمه حبشية. والسلطان **برغش** أمه هو الآخر **حبشية**. والنبي **إسماعيل** جد العرب أمه **إفريقية مصرية**. **وإبراهيم ابن النبي** محمد صلي الله عليه وسلم، أمه **مارية القبطية**، وهي أيضا **إفريقية**.

وعرفني فتحي صبري، في ثاني زيارة لي للقاهرة عام 1958 علي الدكتور **عبده سلام**. ونجح هذان الرجلان بعد جهد جهيد في اختراق **أسوار البيروقراطية المصرية**. ومكنناني من مقابلة رأس السلطة في مصر. كان فتحي صديقا للرائد **محمد فايق** مستشار الرئيس عبد الناصر للشؤون الإفريقية، ومحل ثقته. وكان فايق ضابطا بالمخابرات العسكرية، وله إسهامه الجليل في النضال ضد الاحتلال البريطاني.

وعبر محمد فايق تعرفت علي اثنين من أصدقائه الجديرين بالثقة: **حلمي شعراوي، وبهجت دسوقي**، اللذان بذلا بمعاونة أصدقاء آخرين كل ما في وسعهما لتأمين حياة مريحة لأسرتي بعد أن أصبحت لاجئة في القاهرة اعتبارا من عام 1964 فصاعدا. وكلاهما كانا يعملان تحت رئاسة محمد فايق.

وتواصلت عبر أحمد رشاد، وسليمان مالك، ومبارك خلفان مع **الجمعية الإفريقية** في القاهرة ومكاتب التحرير التابعة لها في الزمالك. وفيها تأسست الصداقة بيني وبين المرحوم الدكتور **عبدالعزيز إسحاق**. مستشار الشؤون الإفريقية بوزارة الخارجية المصرية. ويرجع الفضل إلي هذا الرجل في إنقاذ أسرة **باتريس لومومبا** من موت محقق. فحينما شعر ذلك الزعيم الكونغولي أن حياته في خطر، طلب من الدكتور إسحاق إخراج زوجته وأطفاله من كونغو. وبذا أنقذهم من المصير الذي حل بلومومبا بعد ذلك بأمد يسير.

وثابرت أنا وأحمد رشاد علي ملاحقة الدكتور عبده سلام بمكتبه، إلي حد دفعه ذات يوم إلي اتخاذ قرار بأن **يعيرنا كامل اهتمامه**. وقرر بدلا من الاجتماع في المكتب حيث كنا عرضة للمقاطعة

باستمرار، أن نلتقي في الزمالك بحديقة منزله المطلة علي النيل في الخامسة مساء. **وتحادثنا**، أو بالأحرى **تحدثت**، وأنصت هو. ولم أدرك إلا بعد أن قضي الأمر، أنني تحدثت **ست ساعات بمفردي**، وأن الساعة بلغت الحادية عشرة مساء حين أذن لنا مضيفنا الصبور بالإنصراف.

مسكين، لقد أرهقته. ولكنه تحملني بلا كلل. فلقد كنت بحق قد شعرت بالإحباط بعد أربعة أشهر من مواعيد المقابلات التي لا تحصى والعقيمة مع مسؤولين من رتب مختلفة، ومن كتابة التماسات ومذكرات مكررة عديدة. وكل ما أنا بحاجة إليه وجئت من أجله هو معونة في مجال التربية والتعليم، ولا شئ آخر. قلت للدكتور عبده سلام: "**لو كانت حياتي في خطر، ما قبلت إذلال نفسي علي هذا النحو. ولكنني أقوم بكل هذا من أجل بلدي وشعبي**".

وحين قلت ذلك رد الدكتور سلام: "لا أظن أبدا أنك تجشمت كل هذا التعب من أجل نفسك، أو حتى من أجل بلدك. أنت تفعل ذلك من أجلنا. فأنت تساعد مصر علي أن تدرك ذاتها. وأنت تساعد مصر علي الوفاء بما عليها من مسؤوليات لا فكاك منها. وإنني مصر علي أن تواصل مسعاك. ونحن بلد متخلف، ولكننا أحسن حالا بالمقارنة ببلدكم. ومن واجبنا، بالتالي، أن نساعدكم بغاية ما في وسعنا. ومن واجبك أن تذكرنا بواجبنا. ويؤسفني أن أقول أن رجلا واحدا فقط في هذا البلد هو الذي يقدر مسؤولية مصر تجاه إشقائها العرب والأفارقة حق قدرها ذاك الرجل هو جمال عبد الناصر. وهو الرجل الذي لابد أن تقابله، وأعدك أنك

ستقابله في نهاية المطاف. فهو رجل مشغول للغاية، ولكنك ستقابله وأرجوك أن تؤجل موعد عودتك إلي بلادك".

لم ينم الدكتور سلام بعد أن غادرنا منزله في تلك الليلة، بل بعث ببرقية عاجلة إلي **علي صبري** [5] الذي كان هو المستشار السياسي المقرب من عبد الناصر، مع تعليمات لمن يتلقى البرقية بإيقاظه إن كان نائما.

وقال له أنني بالقاهرة علي مدى أربعة أشهر، أسعى لمقابلة الرئيس، أتعرض للتسويف بذريعة او بأخرى. ثم قال له أنني لو عدت إلي بلادي دون أن أتمكن من مقابلة الرئيس، فإن **إسم مصر سيتلوث في إفريقيا**، بالنظر إلي ان علي محسن يحظى باحترام بالغ في الدوائر السياسية في كل أرجائها".

وتابع حديثه قائلا أنه إن تبين أن الرئيس نفسه لا يريد مقابلته، فإن علي محسن **سيعود، ولن يتلفظ ببنت شفه**. أما إن كانوا هم (علي صبري وشركاؤه) هم المتسببون في إعاقة مقابلته للرئيس، فإنه **سيثير المسألة أمام البرلمان**.

حصل على رد من علي صبري قبل الفجر يؤكد له فيه أنه ليس هناك أية محاولة لمنع تلك المقابلة. وكل ما في الأمر أن الرئيس كان مشغولا إلي أبعد حد، ويحثني علي تأجيل المغادرة عدة أيام مع التأكيد علي انني سأقابل الرئيس.

---

[5] علي صبري لا تجمعه بالمناسبة أية صلة قرابة مع رجل الأعمال المصري فتحي صبري – المؤلف.

حدث هذا كله عام 1958، ولكنني لم أعلم به إلا في 7 اكتوبر عام 1974، لدى وصولي إلي مطار القاهرة هاربا من تنزانيا. استقبلني الدكتور عبده سلام في المطار، واصطحبني إلي بيت أسرتي آنذاك في منشية البكري بالقاهرة. **وهناك حكى لي ماحدث قبل تسعة عشر عاما خلت.**

أجلت مغادرتي للعاصمة المصرية. وفي غضون يوم واحد جاء مسؤل بمكتب الرئيس إلي شقة أحمد رشاد المتواضعة ليخبرني أنني من الآن ضيف الرئيس، وأنه جاء ليصطحبني إلي فندق. فالرئيس سيقوم برحلة عاجلة إلي **يوغسلافيا لمقابلة المارشال تيتو**. وسيقابلني بمجرد عودته. شكرت ذلك المسؤول، وقلت له أنني منذ وصولي القاهرة أعتبر نفسي **ضيف الرئيس والشعب المصري**. ولكنني مستريح حيث أنا الآن مستمتعا بكرم الرئيس، وسأنتظر عودته بالسلامة. وواصلت الإقامة في شقة رشاد، وسرعان ما عاد الرئيس جمال عبد الناصر من الخارج.

جاء اليوم الموعود فجأة. أصطحبوني إلي قصر القبة حيث من المقرر أن ألتقي بتلك الشخصية السياسية الأكثر إلغازا في حينها. رافقني أحمد رشاد حتى باب القصر الجمهوري. وهناك طلب الحرس مني أن أتقدم بمفردي. رفضت ذلك بالمطلق، مصرا علي أن يبقي معي رفيقي رشاد في تلك المقابلة. استغرقت الموافقة علي هذا الطلب ربع ساعة من الاتصالات التليفونية بين حرس البوابة وبعض المسؤولين بالقصر، إلي أن لان البروتوكول المصري وسمح بدخولنا معا.

وأود القول أنني التزمت علي مدى حياتي السياسية بمبدأ لم أحد عنه مطلقا، وهو أن أصطحب أحد رفاقي في أي اجتماع أعقده

مع مسؤول أجنبي. ذلك انني أكون في **حاجة إلي من أستشيره، ولمن يضمن أن لا يحرف ما قلته فيما بعد عن مواضعه. والعقلان دائما خير من العقل الواحد.** ولم أكن في حينها أعلم، ما علمته فيما بعد، أنه لم يكن من اللياقة بالنسبة لرشاد بوصفه من صغار الموظفين أن يكون بصحبتي لدي مقابلتي للرئيس. هذا هو رأي أصحاب البروتوكول. أما بالنسبة لي فكان زميلي.

انتظرنا بعض الوقت في صالة الانتظار، بينما كان الرئيس مجتمعا بالسفير الأمريكي. وقال لنا السكرتير الخاص للرئيس وهو يرشدنا إلي مكان الاجتماع، أن الوقت المتاح للمقابلة **ربع ساعة،** لأن موعد جلسة مجلس الوزراء سيحين بعد قليل. قلت للسكرتير هذه مدة **أكثر من كافية، لأن مهمتي لن تحتاج لكل هذا الوقت.**

وفي طريقنا إلي مكتب الرئيس شاهدنا الوزراء في غرفة أخرى في انتظار الاجتماع بالرئيس. قابلنا جمال عبد الناصر بالأحضان وبقلب مفتوح. وسرعان ما أدركت أنه هاهنا ستحل مشكلاتنا في نهاية هذا المشوار الطويل. ولعلمي بأن الفسحة المتاحة لي قصيرة، دخلت في الموضوع مباشرة، قائلا أن ما نحن بحاجة إليه هو **معونة تعليمية.** وبعد تبليغ تلك الرسالة عدت إلي الإسهاب في الحديث عن **العلاقة الأساسية التي تربط بين شعبينا وبلدينا، مستعرضا لبابها من الماضي إلي الحاضر.** وتأثر الرئيس بما جاء علي لساني، إلي حد دمعت معه عيناه. ثم قال بعاطفة جياشة: **"كيف لم أعرف بتلك الآصرة الوثقى بيننا من قبل".** وبعد ربع ساعة جاء السكرتير ليعلن أن المدة المحددة للمقابلة انتهت، والوزراء منتظرون، فقال له جمال: **"قل لهم انتظروا قليلا. فسيسعدهم الاستماع إلي ما يخبرني به أخونا هنا"**

دام لقاؤنا ساعة كاملة، تلتها عشر دقائق لالتقاط الصور. وقبل أن ينتهي اللقاء قدم لنا جمال عبد الناصر أربعين بعثة تعليمية. وقال: "ابعثوا الأطفال إلي مصر، وسنعلمهم، ونطعمهم ونكسوهم. وفي أي مرحلة علمية يأتون سنعلمهم حتى يحصلوا علي مؤهلاتهم. إلا أنك أن أردت إيفاد بنات أو اطفال صغار، فإنني أوصيك بقوة بأن ترسل معهم مربيتين تعتنيان بهم، وتعاملانهم كما لو كانوا بناتهن وأبنائهن. فأنا أود أن تأخذوا أحسن ما عندنا. ولكنني لا أريد أن يتمصر أطفالكم. والمربيتان القائمتان مقام الأم لأولئك الأطفال ستكفلان تربيتهم كزنجباريين أصلاء. وأنا أيضا علي استعداد لأن أرسل أي عدد من المدرسين تحتاجونه إلي زنجبار، وسندفع رواتبهم، شريطة تأمينكم سكن مؤثث لهم. ولما كان ذلك سيتوقف علي مدى قدرتكم علي تحمل التكلفة، فإنني أدعوك إلي التشاور مع اخوانك بعد عودتك حول عدد المدرسين الذي أنتم بحاجة إليه، وعلي استعداد لتوفير المسكن لهم".

شكرت الرئيس، وسألته عما إذا كان من الممكن تخصيص بعض تلك المنح الدراسية الأربعين لكينيا وتنجانيقا. وقلت: "إن من عادتنا في شرق إفريقيا التعاون في مثل هذه الأمور. وأعلم أن طلبة أوغندا يدرسون هنا بمنح دراسية بالفعل. أما كينيا وتنجانيقا فلا يوجد مبتعثون منهم بمصر".

رد الرئيس: "هذا أمر يرجع إليك. منحتك هذه المنح الدراسية، فافعل بها ما تشاء، ولكن مع **مراعاة نقطة فنية واحدة.** أنت تمثل حزبا سياسيا. **ولا يطيب لي أن يبدو الأمر وكأنني قد قدمت معونة لحزب سياسي. هذه مسألة شكلية،** لكنها مهمة. ".

أجبته بأنني أيضا: "سكرتير مشارك لجمعية أولياء الأمور وهي منظمة غير سياسية. وبالمصادفة فإنني سكرتير لجنة المنح الدراسية بها".

عقب بقوله: "حسنا. بذا لم تعد هناك أي مشكلة".

كانت هذه هي بداية علاقة صداقة طويلة ومثمرة مع جمال عبد الناصر، يهون في مقابلها عرق سنين، ناهيك عن الانتظار أربعة أشهر علي نفقة أحمد رشاد وعبد الله مسعود الريامي، جزاهما الله خيرا. فلقد آل عبد الناصر علي نفسه أن يقدم كل العون لزنجبار بكل الطرق الممكنة. وبصنيعه هذا "**أعاد المياه إلي مجاريها**" كما يقول المثل العربي.

وصبيحة اليوم التالي، كانت المفاجأة السارة، حيث وجدت أناسا يبتسمون، ويشيرون إلي بالبنان أينما سرت في شوارع القاهرة. فصورتي وأنا أصافح الرئيس منشورة في الطبعة الصباحية من كل الصحف. وابتهج أصدقائي المصريين وكل الزنجباريين الموجودين في القاهرة بما أنجزناه.

ولما حلقت الطائرة فوق **مطار زنجبار** مؤذنة بالهبوط، أدهشني أن وجدت المطار مكتظا بحشد من البشر لم يسبق لي أن رأيت له نظيرا في بلدنا. فالحشد يغطي مداخل المطار، ويمتد إلي ما بعد بيتي الواقع علي مسافة ستة كيلومترات. وحين هبطت الطائرة، أفسح لي راكب لا أعرفه الطريق، قائلا: "**إنزل أنت أولا، فهؤلاء كلهم في انتظارك**".

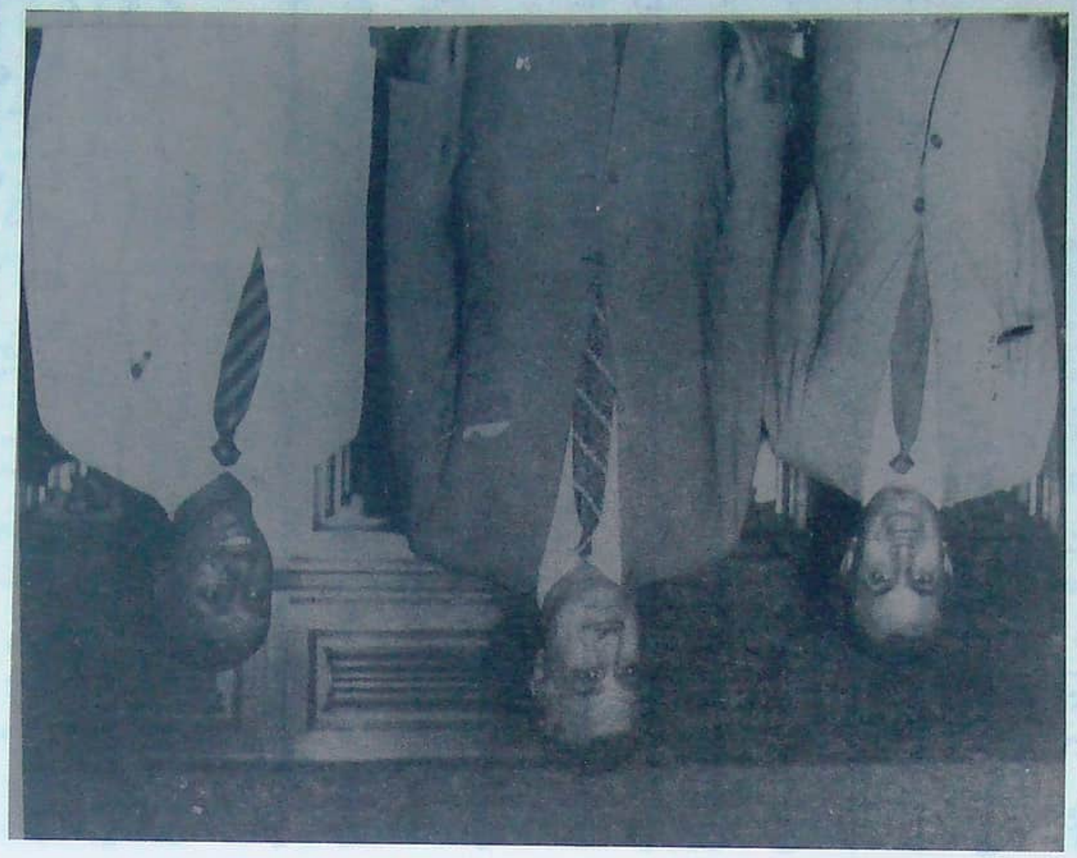
والحقيقة، أنني لم يدر بخلدي بأي حال أن كل هذا الجمع قد احتشد لاستقبالي أنا النكرة الوضيع. نزلت مهرولا مضطربا من

الطائرة لأجد نفسي في بحر من البشر، يعانقونني، ويقبلونني، ويدفعونني، وأنا في حيرة من أمري لا حدود لها.

وحكوا لي فيما بعد أنه قبيل وصولي، قال خالي الشيخ سعيد بن ناصر، ابن عم والدتي، لشقيقي الأكبر، مازحا ومتعجبا في آن واحد: "**من ذا الذي جئنا للترحيب به؟ رد أخي محمد: "فيم السؤال؟ علي** بالطبع". قال له: أي علي؟" أجابه: "**علي محسن**". قال: "**ابننا؟**". فما كان ليظن أن واحدا من أبنائه المنسيين قد بات له من الأهمية ما يجعل مثل هذا الحشد يخرج لاستقباله.

وفي النهاية سمح لي الجمهور بركوب عربة جيب مكشوفة ووقف رئيس حزبنا فواي كيتوويو إلي جانبي. ودفع الجمهور المتحمس السيارة ببطء، والشباب الدافع لها، والسائر خلفها يرددون بصوت واحد: "**بوانا علي: نريد الحرية، نريد الحرية**".

وحينما كنا علي مشارف المدينة عند نادي منازيموجا، لم أتمالك نفسي، وفاضت عيناي بالدموع، ولسان حالي يقول: **ماذا بوسعي أن أفعله** للوفاء بآمال وتطلعات هؤلاء الذين ائتمنوني عليها، ووضعوا ثقتهم في؟ ما الوسائل التي بيدي لأسترد لهؤلاء الناس حريتهم السليبة؟ هل يعلم هؤلاء مدى ضعفي وقلة حيلتي ؟ **وفي هذا المقام قطعت علي نفسي عهدا لا رجعة فيه أن لا أدع بابا يمكنني منه خدمة أمتي إلا وطرقته**".



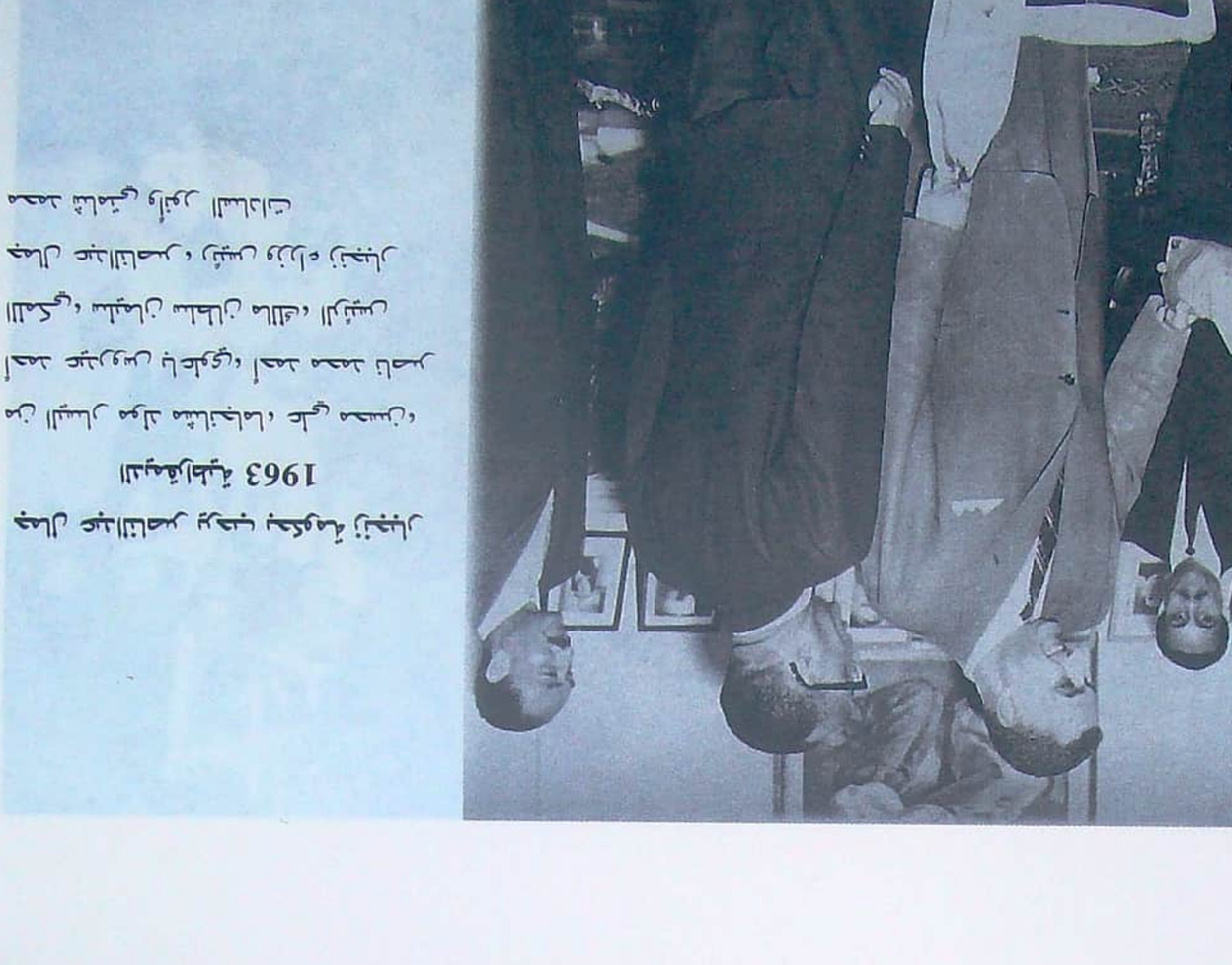
جمال عبدالناصر – القاهرة الأول – 7 يونيو 1958

من الشمال على يمين وجمال عبدالناصر وأحمد رشاد على



الطلاب المبتعثون إلى القاهرة مع ذويهم

مع المؤلف (الثاني من اليمين في الصف الأول من الوقوف) في حديقة قصر كيبويني لتوديع السيد خليفة بن حارب المعظم، سلطان زنجبار. أكتوبر 1958



مع عبدالناصر في مصر 1963

من اليسار لليمين: السفير أحمد محمد ناصر اللمكي، مولد مشانجاما (وزير التعليم)، أحمد عيدوس باعلوي (وزير الصحة)، محمد شامتي (رئيس الوزراء)، الرئيس جمال عبدالناصر، علي محسن (وزير الخارجية) وجمعه علاي (وزير المالية)



جمال عبدالناصر يرحب بحكومة زنجبار البريطانية 1963

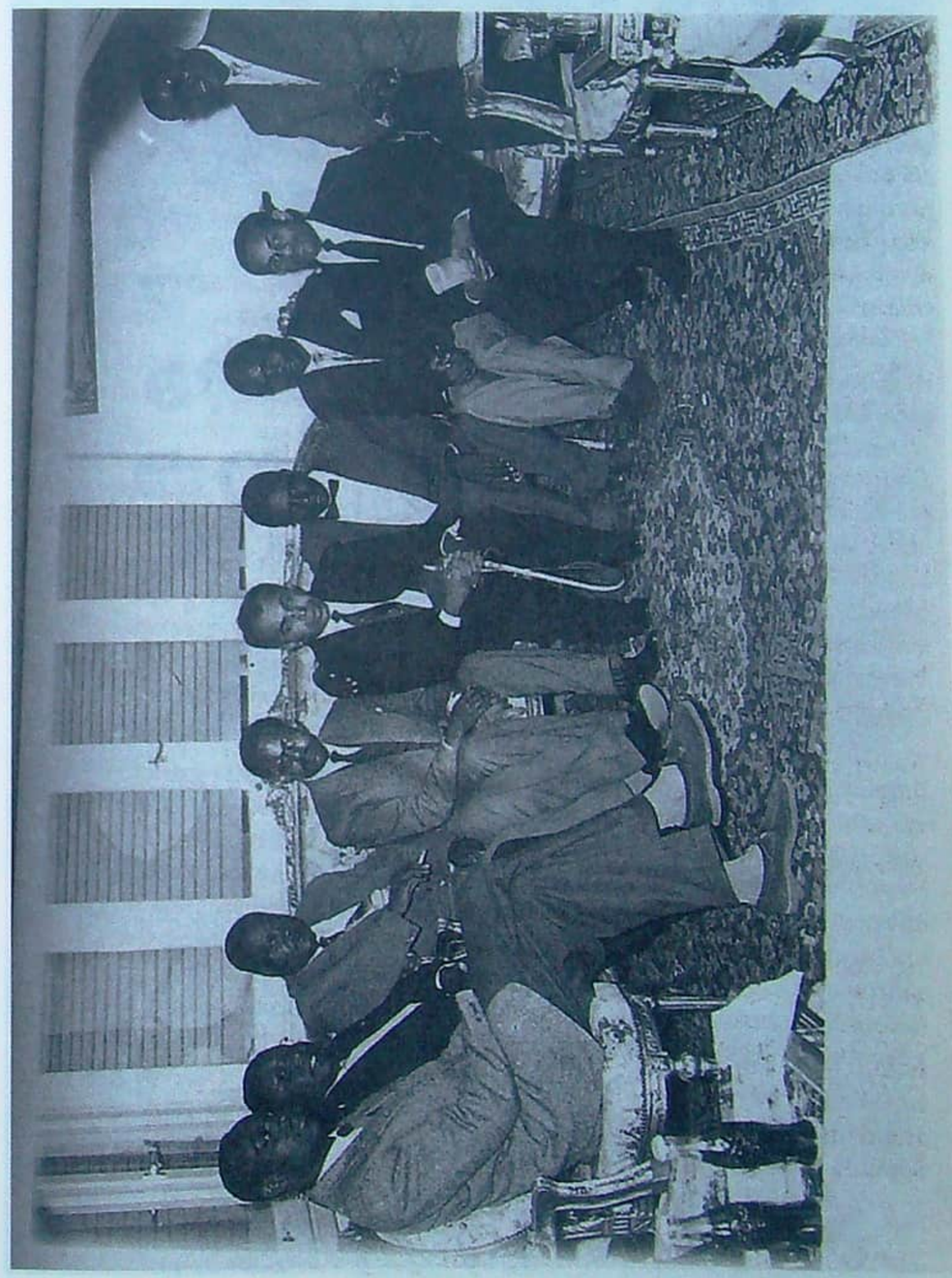
من اليسار مولد مشانجاما، علي محسن، أحمد عيدروس باعلوي، أحمد محمد ناصر اللمكي، سليمان سلطان سالم، الرئيس جمال عبدالناصر، رئيس وزراء زنجبار محمد شامتي وأنور السادات



عدد من طلبة زنجبار في القاهرة
مع مشرفاتهم القنصلات عليه بنت محسن
البرواني (شقيقة المؤلف) ورياء بنت سليمان
الريامية – 1960



أبناء زنجبار الدارسون في مصر
مع الشيخ علي محسن (الثالث من اليسار بين الجالسين) وإلى جواره الشيخ محمد بن علي المجيني- 1959



الزعماء الأفريقيون في القاهرة

علي محسن (في الوسط بالبدلة السوداء) وسليمان سلطان مالك (الثاني من اليمين) مع زعماء التحرير الأفارقة من زامبيا وزيمبابوي وكينيا وأوغندا. الثاني من اليسار روبرت موجابي والثالث من اليسار جوشوا نكومو.

ثالثا: المعونة المصرية وعواقبها

في غضون يوم أو يومين من وصولي إلي أرض الوطن، استدعاني المقيم البريطاني **السير فنسينت جلنداي**. طلب مني التخلي عن وظيفتي كرئيس لتحرير **صحيفة المرشد**. وقال إنني بصفتي عضوا بالمجلس التنفيذي، أعد **وزيرا**. ومن غير الممكن الجمع بين وظيفتي رئيس تحرير صحيفة، و"وزير". كنت أعلم أن السبب الحقيقي الذي أرق مضاجعه هو اجتماعي بعبد الناصر، العدو الأكبر لبريطانيا، والاستقبال الشعبي الحافل الذي حظيت به لدى عودتي من زيارتي للقاهرة. وتشير حقيقة أنه لم يتطرق من قريب أو بعيد إلي هذين الحدثين، إلي أنهما كانا شاغله الأهم. عدت إلي البيت، وكتبت له خطاب استقالة من كل من المجلس التنفيذي والمجلس التشريعي. وتشبثت بموقعي في الصحيفة.

كانت هذه هي **المرة الثانية** التي استقيل فيها من **وظيفة رسمية** علي سبيل الاحتجاج. قلت له لو كان صحيحا أنني أتمتع بسلطات ووضعية وزير بصفتي عضوا في المجلس التنفيذي، لكان ثمة منطق يستدعي تفكيري في التخلي عن منصبي بالصحيفة. ولكن واقع الأمر بخلاف ذلك. وشعرت بأن عبئا يلقي عن كاهلي. وكنا مقدمين علي مرحلة جديدة تماما. والحزب بحاجة إلي أن أوليه كل اهتمامي. فلقد فتحت المنح الدراسية التي حصلنا عليها من مصر كل الأبواب أمامنا. ففي الداخل ارتقت مكانة الحزب الوطني بشكل غير مسبوق. وفي الخارج بات الحزب الوطني منظمة جديرة بالاحترام، استطاع زعيمها أن يحصل علي أربعين منحة دراسية من جمال عبد الناصر. وكان هذا هو أول الغيث.

فقبلها، وعلي مدى سنوات نقبت **جمعية أولياء الأمور الزنجبارية** في كل حدب وصوب عن من يمد لبلادنا يد العون في مجال التربية والتعليم، دون ثمرة تذكر. وكنت أمسك علي الدوام بمجلد ضخم من منشورات اليونسكو يتضمن ثبتا بالمنح الدراسية المقدمة من كل بلاد العالم، وأدقق في صفحاته، وأكتب طلبات لكل من قد يستجيب. ولم تكن الاستجابة مشجعة بأي حال.

وفي النهاية جاءت المعونة الموعودة من مصر مثمرة أكثر من أي مسعى آخر بذلناه في هذا الصدد. ولم يكن غريبا بالتالي أن توافد الصحفيون علي زنجبار عقب عودتي من القاهرة، لإجراء مقابلات صحفية معي. ومن الأسئلة التي طرحوها علي: **كيف دبرت تلك المقابلة؟ ما رأيي في عبد الناصر؟ كيف تستطيع مصر الفقيرة الوفاء بما وعدتني به؟ أليس الاتحاد السوفيتي هو الممول لتلك المنح الدراسية؟**

كان ردي علي صحفي أمريكي: "**مصر الفقيرة منحتنا أربعين منحة دراسية، فهل تمنحنا الولايات المتحدة الغنية أربعمائة؟** وقلت له أنني لا أعرف ولا يهمني أن أعرف، ما إذا كان الاتحاد السوفيتي، أو أي بلد آخر سيغطي تكلفة تلك المنح الدراسية. كل ما أعرفه هو أن **مصر هي التي قدمتها لنا.**

وبعد إنجازنا هذا التعاون التعليمي مع مصر، لحقت **الولايات المتحدة** بالركب وقدمت أربعين منحة لصديقها الكيني الراحل توم مبويا. ثم حذا **الاتحاد السوفيتي** حذو مصر والولايات المتحدة وبدأ في تقديم منح دراسية، كما أنشأ جامعة باتريس لومومبا للأفارقة. ثم ظهرت **الصين** في الصورة كدولة تقدم منحا دراسية لبلدان العالم الثالث.

ومعنى ذلك، أن لواء السبق والريادة في هذا الصدد انعقد لمصر. وديدن مصر من العصور القديمة أن تكون مثوى ومثابة للمتعطشين للمعرفة. والأزهر متوج عالميا بوصفه أقدم جامعة في العالم المعاصر. فعمره يربو علي ألف سنة. ويتدفق إليها الطلاب من كل أرجاء العالم. وتخصص مدينة جامعية بأكملها، هي **مدينة البعوث الإسلامية** لإيواء المبتعثين الأجانب الدارسين به. ويدرس به ألوف الطلبة، ويدرس ألوف غيرهم في جامعات أخرى مثل جامعات الإسكندرية، والقاهرة، وعين شمس، وأسوان وأسيوط، والمنصورة، وغيرها.

وتولت جمعية أولياء الأمور تخصيص المنح الدراسية المصرية. وعرض علي تنجانيقا وكينيبا أن ترشح بعض طلابها للحصول علي منح من تلك المنح. وجاءت الإستجابة مبشرة من منطقة الساحل الكينية. وفي تنجانيقا استجاب حزب المؤتمر الوطني الأفريقي برئاسة زبير متينفو الذي لم يعمر طويلا، ولكن حزب تانو بزعامة نيريري لم يرد. وسعت عناصر في كل من كينيا وتنجانيقا إلي **تهييج الجماهير ضد فكرة إيفاد طلاب للدراسة في مصر**. ورددت الصحافة في البر الإفريقي مزاعم فحواها أن **تلك المنح مجرد خدعة للتغرير بالشباب الإفريقي للحصول علي مؤازرته للقضية العربية**. فالطلبة سيكونون بعد تخرجهم موالون للعرب، وتلك برأي تلك الصحف جريمة لا تغتفر.

كان هذا هو الهراء الذي عكف أناس من أمثال فرانسيس خميس علي ترديده في الصحافة الكينية. وحث أولئك **الكتاب السلطات البريطانية علي حظر إيفاد دارسين أفارقة إلي مصر**. وكان هذا عين ما تشتهيه تلك السلطات. وبالفعل ردت حكومتا **كينيا**

وتنجانيقا بحظر ذهاب أحد من هذين البلدين من أجل التعليم إلي "مصر أو اليونان". ولم يكن هناك طلاب يريدون الذهاب إلي اليونان للدراسة، ولكن السلطات ضمنت قرار الحظر لفظ اليونان مع مصر، لإظهار الحياد الإمبريالي.

وما كان من المتصور أن تحدث مثل هذه التصرفات بمثل هذا الصلف والوقاحة. ولكن كانت هذه هي نوعية الظلام الذي خيم علي شرق إفريقيا في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين. ومع ذلك لم يثر القادة السياسيون، بل لم يحركوا ساكنا، ولم يكلفوا خاطرهم حتى مجرد الاحتجاج.

ولم يكن بوسع السلطات البريطانية أن تتصرف علي هذا النحو جهارا نهارا في زنجبار. ذلك أن لزنجبار في حقيقة الأمر علاقات دولية عمرها قرون مع العالم كله، وبينها وبين مصر علاقة تعود للعصور القديمة، وليس من السهل فك عرى الرابطة الإسلامية.

وكانت كل شركات الخطوط الجوية التي تقوم طائراتها برحلات منتظمة بين **شرق إفريقيا ومصر مملوكة لدول غربية**. وأعلنت كل تلك الشركات أن كل الأماكن علي رحلاتها محجوزة. ولم يجد م. تاكيم وكيل سفرياتنا الباسل مناصا من القيام بزيارة خاصة، إلي أديس أبابا للترتيب مع الخطوط الجوية الأثيوبية، لتنظيم رحلة لنقل أبنائنا وبناتنا إلي القاهرة للدراسة. ومثل هذا الحل انتصارا ذللت به كل الصعاب.

ولما كان معظم الطلاب فقراء لا يقدرون علي تحمل تذكرة الطيران، فإننا جمعنا تبرعات، ونظمنا عروضا سينمائية ومهرجانات. بل وصل الأمر إلي حد تنظيم مباريات كرة قدم

بملابس تنكرية لعب فيها قدامى اللاعبين من أمثالي. وجذبت تلك الأنشطة حشودا من المتحمسين.

وقبل حصولنا علي هذه المنح كان لي أنا وقرينتي **ثلاثة من أبنائنا** يدرسون في مصر علي نفقتنا الخاصة، هم: محمد، ومنى، وفتحيه. واقترحت السلطات المصرية ضم أبنائي إلي الطلبة الدارسين علي تلك المنح. **رفضت**. وواصلوا الدراسة بالفعل علي نفقتنا الخاصة. بل إنني رفضت المشاركة في لجنة اختيار الطلبة الذين تم ابتعاثهم علي تلك المنح، مخافة أن **أتهم باستغلال نفوذي في تخصيصها**. وترك الحزب الوطني مهمة التخصيص هذه تماما في يد جمعية أولياء الأمور التي لم يكن لحميد مباي سكرتير لجنة الانتقاء التابعة لها، أي ارتباط سياسي بالحزب الوطني. أما في بيمبا التي لم تكن تلك الجمعية نشطة بها، فتولي الشيخ راشد حمادي زعيم الحزب في تلك الجزيرة رئاسة لجنة الاختيار.

ووزعت كل المنح علي طلبة وطالبات من زنجبار، في ضوء عدم تمكن تنجانيقا وكينيا من الاستفادة من الحصة التي عرضت عليهم. فقط **طفلة تنجانيقية**، روفيجيه المنبت، و**طفل** من منطقة الساحل الكيني تصادف أن كانا في زنجبار، توجها ضمن الركب الطلابي المتوجه للدراسة بالقاهرة. والمعروف أن منطقة الشريط الساحلي كانت في الأصل من بين ممتلكات السلطان الزنجباري. وأتم ذلك الطفل تعليمه بنجاح. أما الطفلة فلم يحالفها الحظ. فبعد الإطاحة بحكومتنا، قام الغاصب كارومي وسيده جوليوس نيريري بزيارة خاصة إلي مصر، وطلبا من السلطات المصرية إغلاق

بيت شرق إفريقيا، ذاك النزل الخاص الذي كان أبناؤنا وبناتنا يقيمون فيه.

وهكذا وبكل سفور طلبا إنهاء المعونة التعليمية المقدمة من مصر لزنجبار. وسهرت السفارة التنزانية بريادة السفير أحمد دريا، والمستشار الثقافي حيجا صالح، من أجل **إجبار الطلبة الدارسين على العودة إلي زنجبار بالقوة**. وقدم بعض أولياء الأمور، ممن كانوا في زنجبار، أو بالمنفي في الخارج، الراغبين في مواصلة أبنائهم الدراسة في مصر، رغم معارضة نظام الحكم الزنجباري، التماسات للسلطات المصرية لعدم السماح بإعادتهم إلي زنجبار قبل إتمام تعليمهم.

وأجبرت الطالبة الروفيجيه المتفوقة في دراستها، علي عدم إتمام تعليمها، والعودة إلي زنجبار، لتحي حياة بائسة، وتعمل بغاية وسعها وتحفر بأظافرها لتؤمن لأسرتها لقمة العيش، بعد أن اقعدت الشيخوخة والدها الفقير.

وقبل وقوع كارثة عام 1964 بسنوات قليلة، انشق صديقي القديم **أحمد رشاد** علي الحزب وتحول صراحة إلي مؤيد **للحزب الإفروشيرازي**. ولا أدري ما الذي دفعه إلي تغيير توجهه السياسي. ربما لأنه وجد من منطلق النفعية السياسية جدوى الانحياز إلي ابن اخته المذبذب الرفيق **علي سلطان** الذي اختار هو والرفيق **بابو** الوقوف بجانب كارومي، الذي باع بلاده فيما بعد لنيريري. إن الطموح الشخصي **مفسد، ومضيع، بل قاتل**، لصاحبه. فلقد دمر ذاك الطموح الكثير من الشخصيات الواعدة. وكانت لدى رشاد قدرات نادرة. ولو قدر له أن تشبث بموقفه الذي كان عليه

في شبابه، لترك بصمة في تاريخ زنجبار، كالتي تركها والده وجده من قبل.

ولكنه حط من قدر نفسه بالانحياز إلي الخونة الذين باعوا وطنهم للمحتل. وبتحوله هذا فقدت للأسف صديق طفولة، ورفيق درب في السياسة كان بالغ الأهمية. فلقد خرب عن عمد المنح الدراسية التي بذلت أنا وهو جهدا كبيرا من أجل الحصول عليها. وأثار استياء وتمردا صريحا في أوساط بعض من له تأثير عليهم من الطلبة، ولم **يفسد بذلك مستقبل أولئك الطلبة فحسب، بل لوث سمعة زنجبار أيضا**. وتحول بذلك إلي شخص تافه ضيق الأفق. وظن أن من الحنكة السياسية أن يفعل ما فعل. ولكن هل فعلته هذه تقبل في **موازين الفضيلة والأخلاق؟** هذا هو السؤال الذي يجب أن يطرحه كل من تسول له نفسه قبل أن يحسم خياره. ولم يخرج من خيانته تلك بشئ عدا منصب وكيل وزارة في وزارة الإعلام بدارالسلام. فهل المقابل يكافئ ما ضحى به؟ **وماذا لو حيزت الدنيا بما فيها لإنسان ما، وخسر روحه؟**

وبعد إطلاق سراحي من السجن، وهروبي من تنزانيا، قابلت رشاد بالقاهرة. وتفضل بزيارتي ببيتي بمنشية البكري. وكان حينها بالقاهرة ممثلا للحكومة التنزانية في مؤتمر حول **الدعاية والإعلام**. وبحكم الصداقة الماضية بيننا تعانقنا. ونظرت إلي قرينتي باستغراب. وعندها قال رشاد: "**أنا رياضي. أنا هزمت**". سألته: "**هزمت؟ من هزم من؟** رد بقوله: "**أنت هزمتنا. لقد امتطينا الجواد الخاسر**"

ثم سرد سلسلة أخطاء السادة الذين ضيع سنوات عمره في خدمتهم. وتحسر علي وجه الخصوص علي الطريقة التي يتعرض

بهـا **المسـلمون للقهـر علـي يـد نظـام الحكـم التنزانـي**. وضـرب عـدة أمثلـة. فمـن بـين مـا يربـو علـي **مائـة** وكيـل وزارة يوجـد **ثلاثـة أو أربعـة** مسـلمين فحسـب، هـو أحـدهم. وهـو مجـرد موظـف مـدني رهـن إشارة، وطوع إرادة قادة يحتقرهم لأكثر من سبب.

ولابـد أن يلعـن عبـود جـومبي فـي شـيخوخته **اليـوم الـذي اختـار فيـه اسـتخدام العنصـرية سـلما للوصـول إلـي القمـة**. فلقـد ركـع تحـت أقـدام معبـوده كـارومي بتفـاني، وتسـلق بهـدوء إلـي أن وصـل إلـي قمـة الأكمـة، ليكتشـف أنـه ارتقـى مجـرد **كومـة نمـل**، وأن ارتقـاء قمـة كليمنجـارو لـيس فـي متنـاول يـده. وكـان بمقـدوره أن يسـمو إلـي ذروة لا تـدور بخلـد إنسـان، فـي مراقـي الرضـا الروحـي الـذي يتحقـق حـين يشـعر المـرء بـأن مـا فعلـه صـحيح أخلاقيـا. **والنجـاح والفشـل ليسـا بيـد الإنسـان، وإنمـا همـا بيـد الله تعـالي. ومفـاتيح النجـاح ليسـت بيـد الإنسـان المخلـوق مـن ضـعف. فـدورنا هـو أن نعمـل، ونفـوض الأمر كله لله.**

ولقـد خـرج الإمـام علـي بإخفـاق دنيـوي، وخـرج أعـداؤه بفـوز دنيـوي. ولكـن علـي فعـل الصـواب، فمـات شـهيدا، وكـان فـي موتـه مظفـرا. وأثبـت ذلـك التـاريخ. ولكـن هـذا لـيس هـو مـربط الفـرس. فـالأهم أنـه يكفيـه أنـه رضـي بلقـاء ربـه، ورضـي الله عنـه. وأورثنـا الإمـام علـي في حياته وتعاليمه **ما تعجز أسرة مالكة بكاملها أن تقدمه.**

وفـي **مسـرحية هنـري الثـامن** لشاكسـبير نـرى الكاردينـال تومـاس ولسلي ينصح محسوبه وهو بالسجن في انتظار الإعدام.

كروميل اتهم طموحك الخداع.
فبتلك الخطيئة سقطت ملائكة، فما بال الإنسان.

المصنوع علي صوره خالقه، يتعشم أن يكسب به
أحب نفسك، واعتز بتلك القلوب التي تكرهك
فبالأمانة، لا بالفساد، تفوز
وعلي الدوام احمل بيمينك السلام الكريم
ولتخرص ألسنة الحاسدين، كن عادلا ولا تخف.
ولتكن كل أهدافك ياكروميل هي بلدك وربك والحقيقة.
عندها تسقط شهيدا.

ولقـد كتبـت مـن عقـود خلـت، قبـل تأسـيس الحـزب الـوطني الزنجبـاري، فـي صـحيفتنا "المرشـد"، افتتاحيـة بـالعنوان التـالي: "**الصـحيح أخلاقيـا حكـيم سياسـيا**" وهـذا هـو بحـق المبـدأ الـذي أسـير علـي هديـه. فأنـا أعـاير كـل شـئ أفعلـه بهـذا المقيـاس المنـزه عـن الخطـأ: الغايـة ليسـت هـي النجـاح. فهـو بيـد الله تعـالي. ودوري هـو عمـل الصـالحات. فـإن سـقطت سـقطت "شـهيدا مباركـا" كمـا قـال ويلسـلي. ولـو أن أصـدقائي الـذين حـادوا عـن جـادة الصـواب انصـتوا فحسـب لنصـيحة كتلـك التـي نطـق بهـا ويلسـلي لمحسـوبه، لاسـتيقظ ضميرهم، ولم يلقوا بأيديهم إلي التهلكة.

أتـذكر، أنـه فـي عـام 1957 بعـد أول انتخابـات تشـهدها زنجبـار، حـين هزمنـي كـارومي هزيمـة نكـراء فـي دائـرة انتخابيـة معظـم النـاخبين فيهـا مـن أنصـاره، وبـذلت محاولـة لا جـدوى مـن ورائهـا لتحديـه، همـس صـحفي بريطـاني (أظـن هـو كلايـد سـانجر مـن صـحيفة الجارديـان) فـي أذنـي قـائلا: "**مزيـد مـن الواقعيـة، قليـل مـن المثاليـة**" لـم نفـز حينـذاك بـأي مقعـد مـن المقاعـد السـتة التـي تنافسـنا عليها.

وفي عام 1962 حين استطعنا الحصول علي أغلبية المقاعد وتشكيل الحكومة، قال بابو قبل انشقاقه، علانية: "**إن مثالية علي محسن هي التي أوصلتنا إلي هذا المقام**". ثم إذا به يزعم أنه ماركسي ومن المفترض أن يستخف بالمثالية ويعدها من أحلام البرجوازية. وأنا علي يقين بأنه غير رأيه حين صرنا مرة أخرى في قاع الحقيقة، وصار هو ورفاقه الفاشيون الجدد علي قمة الزبد. فأولئك الرفاق هم بعينهم من اعتاد قبل انشقاقه أن يزدري بهم، ويدمغهم بأوصاف من قبيل: "**الساسة قطاع الطرق، والعمال المنبوذين**". ولا يجب أن يكترث المرء لما يصيبه في حياته من نجاحات ومن إخفاقات، طالما ظل وفيا للمبادئ الأخلاقية الثابتة.

رابعا: جيمس جونسون عضو مجلس العموم البريطاني عن حزب العمل

بإقامتنا علاقات مع مصر، اتسعت الهوة بيننا وبين جماعات الضغط المعادية للناصرية في بريطانيا. وتغير موقف النائب **جيمس جونسون** عضو مجلس العموم البريطاني عن حزب العمال الذي كان واحدا من بين نواب قلائل ينافحون عن قضيتنا في البرلمان البريطاني إلي النقيض. كانت العلاقات بيننا ودية. واجتمعت به في منزله في ويمبلي (أو ويمبلدون، فأنا أخلط بينهما علي الدوام). وتناولنا معه الشاي بصحبة بابو عام 1955. ولكن الحال انقلب رأسا علي عقب حين زرت عبد الناصر عام 1958. اشتاط غضبا، وحكى عنه قوله: "**ولكن ما الداعي إلي ذهابه إلي مصر؟ كل الأفارقة يأتون إلي بريطانيا**"

ويبدو أن جيمس جونسون كان يرى أن قانون **الزواج البريطاني الذي يحرم الزواج بأكثر من واحدة ينطبق أيضا علي العمل**

السياسي. وقرر جونسون المجئ إلي زنجبار ومهاجمتنا في عقر دارنا، بدعم حزب الأفروشيرازي، العنصري. وفي نيروبي في طريقه إلي بلادنا، عقد مؤتمرا صحفيا قال فيه أن **زنجبار يجب أن يحكمها الأفارقة وليس العرب**.

ولن نتجادل معه علي ظاهر هذا التصريح، بل سنغوص في مضامينه. فالأمر يتوقف علي ما يعنيه به. فإن كان يعني بلفظ **(الأفارقة)** أي إفريقي بصرف النظر عن جنسيته، فإنه يكون مجانبا للصواب. وإن كان يريد بلفظ **(الأفارقة)** أناسا من لون وشكل معينيين، فإنه يكون بمنأي عن الصواب، وينطق بالهراء. وإن كان يريد بلفظ (عربي) أناسا أجانب من مواليد جزيرة العرب، فإنه يكون مصيبا. إلا أن عقل جونسون كان به زيغ، شأن من ظن أنه بمثل كلامه هذا يساندهم. وهو في الحقيقة يهوي بهم في قاع ليس له قرار. **فرؤية هؤلاء ورؤية جونسون عنصرية محضة**.

ولو نادى جيمس جونسون علي سبيل الافتراض، بمثل هذه المبادئ في بلده بريطانيا، لطردوه من حزب العمال، ولما رأي مجلس العموم إلا من شرفة الزوار. فليقل في بريطانيا: "ينبغي أن لا يحكم بريطانيا إلا الأوربيون البيض" ولينظر هل يستسيغ البريطانيون هذا الكلام. أو ليقل ينبغي علي من هم من أصول جرمانية، أو نورماندية، أو فايكنجية، أن يحزموا أمتعتهم ويرحلوا" وينظر امكانية قبول كلامه.

ولا يعرف جيمس جونسون ومن يفكرون علي طريقته أن الدم العربي لا يسري في عروق من يسمون بالعرب في زنجبار وحدهم، بل في عروق الهاديمو، والتومباتو، والبيمباويين علي حد

سواء، المسمون أهالي زنجبار الأصليين. وزنجبار، وكل منطقة إفريقيا الشرقية لم تتعرض لغزو عربي علي غرار ماحدث لانجلترا علي يد النورمانديين بقيادة وليام الأول الفاتح.

ويقول الأستاذ كوبلاند في كتابه المعنون "**شرق إفريقيا وغزاتها**" أن شرق إفريقيا لم **تعرف أبدا عهد غزو مظلم علي يد العرب.** ولم يملك ميدلتون وكامبل في كتابهما "**زنجبار: المجتمع والسياسة**"، رغم ما احتواه هذا المؤلف من تشويهات كثيرة للحقائق، إلا أن يسلما بأن "**السيد سعيد بن سلطان لم يأتي إلي زنجبار غازيا بل بطلب من أخوة الدم.** ".

فعلي مدى ألوف السنين عمر أناس من جزيرة العرب شرق إفريقيا واستقروا بها. والحكام والسكان المحليون في عمومهم، سواء سميتهم شيرازيين أو سواحيليين، أو أنجوانيين، أو أمويين، أو قمريين، او باجونيين،، أو القبائل الإثنى عشر، يجري في عروقهم الدم العربي والبانتوي المختلط منذ القدم. ولا تعدو أهمية الاختلاف بينهم في لون البشرة أهمية الاختلاف بين الأوربيين في لون العيون والشعر الأشقر والأسمر أو الأسود.

وخطب **جيمس جونسون** في مؤتمر شعبي لأفروشيرازي حاشد في منازيموجا. وجلس علي المنصة مع أجنبي أسيوي رجعي ردئ السمعة صار زنجباريا بالتجنس هو **ف. س. باتيل**، احد الرأسماليين المؤازرين للحزب الإفروشيرازي. بل إن كارومي نفسه أجنبي المولد، ولكنه رفض طلب التجنس مدعيا زيفا وبهتانا أنه زنجباري بالمولد. وأخذت الإدارة الاستعمارية بدعواه، لأنها كانت تعلق آمالها في البقاء علي قدراته الغوغائية في تعبئة التأييد الجماهيري لها. وخلي ذلك المؤتمر الشعبي من أي شئ بخلاف

فيض من الحقد العنصري، والتغني بالدور البريطاني، والتأكيد علي حق السود علي سبيل الحصر دون سواهم، في إدارة شؤون البلاد.

وكنا قبل أن يتحول جيمس جونسون إلي لعب هذا الدور الخبيث، قد قطعنا شوطا لا بأس به في تفهيم **كارومي وجماعته معني تحديد هوية البشر بحقوق المواطنة، وليس بلون بشرتهم، أو بجدهم.** وأرست منظمة: حركة **حرية عموم شرق ووسط إفريقيا (بافميكا)**، ركيزة التقاء مشترك بتشكيل لجنة للتنسيق من أجل الحرية. ووافق حزب الإفروشيرازي علي توحيد الصفوف معنا، في جهد وطني يرمي إلي تحرير البلاد من الحكم الاستعماري. وتوج هذا المسعى بإلقائي خطابا، وأنا جالس إلي جوار كارومي علي منصة واحدة، في مؤتمر شعبي مشترك للحزب الوطني الزنجباري وحزب الإفروشيرازي. دفنا الماضي بما فيه، تعاهدنا علي توحيد قوانا. ولم يرق ذلك للمستعمرين بالمرة. وصفوه بأنه **زواج متعة،** لن يدوم أكثر من شهر العسل. ومن هنا جاء جيمس جونسون للقيام بمهمة محددة هي: **إخراج منظمة حركة حرية عموم شرق ووسط إفريقيا عن مسارها.**

الفصل الثاني عشر

الزواج[1]

أولا: ملابسات الخطوبة

ببلوغي سن الخامسة والعشرين، وبالأحرى في يوم 13 يونيو 1944، تم عقد قراني علي عزة بنت محمد بن سيف البوسعيدي في احتفال ديني. وعقد العقد القاضي الشيخ **سعيد بن راشد الغيثي** بمنزل خالي **خلفان**، الذي كانت عزة ربيبته. فلقد توفي والد عزة، بينما كانت هي واختها ليلي طفلتين صغيرتين. وبعد وفاته تزوجت أمهما الفاضلة رايه بنت ماجد بن سيف المعمري، الشهيرة بـ"بنيومو" خالي. وبهدف تعليم هاتين الطفلتين، تم إرسالهما إلي مصر حيث كانت خالتهما الدكتورة فاطمة سالم[2] تدرس بمدارس البنات بالقاهرة.

ولما وصلت الحرب العالمية الثانية أوج عنفوانها، وبات الجنرال الألماني روميل، الذي قيل عنه بأنه لا يقهر، علي أبواب مصر،

---

[1] يتطرق المؤلف في هذا الفصل على قصره لثلة من الموضوعات المهمة: قيمة المرأة في ظل الأواصر العشائرية، ويسر المتطلب الشرعي، وعسر المتطلب المتعلق بالعادات، ومسؤوليته وحده عن مشكلات العنوسة، وعن إرهاق الراغبين في الزواج بمسألة الإعداد الكامل لبيت الزوجية. ويفصل المؤلف برقي يحتذى ما ينبغي أن تتأسس عليه علاقة الزوجية والأسرة – المترجم

[2] الدكتورة فاطمة سالم سيف المعمرية كانت أحد أول سبعة نساء دخلن جامعة القاهرة عام 1929. وعملت رئيسة قسم وأستاذة للغة اللاتينية بجامعة الإسكندرية. كتبت عنها الدكتورة آسية البوعلي من جامعة السلطان قابوس كتابا بعنوان "الرائدة أ. د. فاطمة بنت سالم بن سيف المعمري– دراسة تاريخية وثائقية أكاديمية" من إصدارات وزارة التراث والثقافة العمانية.

استبد القلق بأمهما، وتاقت نفسها إلي إعادتهما إلي زنجبار. وطلب مني خالي كتابة خطاب لقرينته لترسله إلي أختها الدكتورة فاطمة سالم تطلب منها إعادة بنتيها إلي زنجبار، إلي أن تضع الحرب أوزارها.

ومع كتابتي هذا الخطاب بدأت أحلام زواجي بعزة في التشكل. وحين وصلتا، قال المعلم هلال معلمي سابقا، وزميلي في هيئة التدريس بدولي آنذاك، أنه يحبذ زواجي من إحدى ابنتي محمد بن سيف. وفي مناسبة أخرى كنت عائدا بصحبة خالي من قرية بنجوي وفاتحني خالي دون أية مقدمات: "**لماذا لاتتزوج ياعلي؟** إن العمر يجري بك" أجبته متسائلا: " أتزوج من؟". أجابني ببساطة: "**احدى ربيبتي**".

طرت من الفرحة. فأنا أعرف قرينة عمي حق المعرفة. فهي سيدة غاية في الكمال معروفة بشخصيتها الرائعة في المجتمع الزنجباري. وكلنا يحبها ويحترمها بلا حدود.

والمهم أنه بما أن اقتراح هذه الزيجة جاء من خالي الحبيب خلفان، العزيز عليّ وعلي كل العائلة، فلا شئ إلا المباركة. فلاعقبات من جهتنا لهذا الخيار.

وهنا بدأت عملية وإجراءات الحصول علي موافقة **أسرة العروس** المرتقب. واحتاج الأمر إلي شهور لاستشارة مختلف أعضاء عائلة عزة،، لأنهم كانوا موزعين في مناطق عديدة ليس في زنجبار وحدها، بل في كينيا وبريطانيا ومصر أيضا. ووافق عمها سعيد بن سيف.

ثانيا: حفل الزفاف

وبعد طول انتظار، وفي 16 ديسمبر 1944 تم زفاف **عزة بنت محمد بن سيف** على **علي بن محسن** بكل الأبهة واللياقة المناسبتين. ومن ذلك اليوم فصاعدا جمعتنا آصرة الزوجية بحقها وصرنا بمثابة روح واحدة. وسرى داخلي إحساس بلغ مني النخاع من تلك اللحظة فصاعدا بأننا صرنا جسديا وأخلاقيا وفكريا وروحيا شخصا واحدا. وكانت شبكة أقارب زوجي عزه ومعارفها واسعة. فلها خالات وعمات، وأعمام وأخوال، وأقارب في كل أرجاء منطقة شرق إفريقيا. وكان ذلك هو شأن شبكة أقاربي ومعارفي أنا الآخر.

وتدفق علينا ضيوف من ليندي بجنوب تنجانيقا إلي لامو بشمال كينيا لمشاركتنا أفراحنا بالزواج السعيد، الذي لم يكن مجرد زواج فتى وفتاة، بل هو قران اثنتين من أقدم وأكبر عائلات شرق إفريقيا. وضاعفت تلك الزيجة التي قد يبدو أنها مسألة بسيطة للوهلة الأولي، بشكل مذهل، أواصر القربى بين كل أقاربي، وكل أقارب قرينتي. وبات أقاربها أقاربي، وأقاربي أقاربها. بل صار أصدقاؤها أصدقائي، وأصدقائي أصدقاؤها. ورزقنا الله بنين وحفدة، عبرهم اتصل الحب الذي جمع الله به بيننا. ولننصت إلي القرآن الكريم وهو يعبر عن تلك الآية المعجزة، في الآية الرابعة والخمسين من سورة الفرقان: " **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً}**.

واعتدت فيما بعد لدى وجودي بالسجن علي القول لإخواني من نزلائه: "لو قدر لي الهروب من السجن، فلن أجد صعوبة بالمرة في العثور علي من يمد لي يد العون في أي مكان من شرق

إفريقيا. فليس ثمة بقعة فيها إلا وفيها أقاربي أو أقارب قرينتي. " وكان هذا هو بالضبط ما حدث حين هربت من تنجانيقا عام 1974.

وأتذكر أنني علمت في قرية تشواكا المجاورة للبحر، وهي منتجع يقع شرق زنجبار، بالموافقة الرسمية علي خطبتي. وكنت قد اتخذت من تلك القرية مقرا لحملتنا المسماة "**حملة زراعة المزيد من الغذاء**"، وأقمت في بيت مملوك للحكومة مطل علي البحر، للإشراف منها علي مناطق ميشامفي وتشاراوي واكونجروني وأوروا المجاورة لها.

وتتم الزراعة في تلك المناطق بين صخور مرجانية، في جيوب من الأراضي تحتوي تربتها علي كمية كبيرة من الأسمدة العضوية والنباتية. أما المحاصيل التي كنا نزرعها فيها فهي: الذرة العويجة، والدخن، واللوبيا الهندية والذرة، والبطاطا. وبالإضافة إلي ذلك كان سكانها صيادون، وبيئتها صحية، وخالية من الناموس، مع وفرة في الأغذية الغنية بالبروتينات من البحر، والظباء، والدجاج الحبشي، التي يتم صيدها من الأدغال.

وفهمت عبر سيري في الريف الزنجباري بطوله وعرضه علي **الأقدام السر في اختيار المستوطنين الأوائل لمناطق الشعب المرجانية**، وعزوفهم عن الإقامة في **مناطق الأحراش**. فلم يتم العثور في مناطق الأدغال التي يجري الآن زراعتها بالقرنفل وجوز الهند، علي أي إثر واحد، أو علي مقبرة، تعود إلي أكثر من ثلاثة قرون.

وبتعبير آخر، أنه لم يتم استيطان مناطق الأحراش وتعميرها إلا بعد طرد البرتغاليين. فقط في جنوب الجزيرة وغربها وشمالها توجد آثار تدل علي سكنى البشر فيها من عشرة قرون. نذكر من ذلك علي سبيل المثال: انجوجاأكو التي يشير اسمها ذاته إلي أنها كانت العاصمة، في وقت ما، وكيزمكازي التي يوجد بها مسجد قديم عليه نقوش تبين أنه كان جزءا من محلة كانت قائمة منذ أكثر من تسعمائة سنة.

وأكثر تلك الآثار إبهارا أطلال مدينة بجزيرة تومباتو في مكان يسمى ماكوتاني. ومن المحتمل أن تكون هي المدينة التي بناها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (26-86هـ-646-705م). أما الدليل الحي علي أن هؤلاء المستوطنين الأوائل منحدرون من أصول منبتها في الخليج وبقية جزيرة العرب، فهي ماثلة لكل ذي عينين تبصران.

فالوابيمبا والواهديمو والواتومباتو هم المنحدرون من تلك الأصول، وهم الآن مخلطون يجري في عروقهم دم بانتوي من البر الإفريقي. ومن بين هؤلاء بعض أفراد احتفظوا بسلسة نسبهم إلي أولئك الجدود في ذاك الماضي البعيد.

وقد يعجب المرء لسر تفضيل هؤلاء المستوطنين تلك المناطق الأقل خصوبة في الظاهر علي مناطق الأدغال الأكثر إغراء. ولنتفهم منطق ذلك، علينا أن نتذكر أن المهاجرين جاءوا من **بلدان مجدبة** أكثر من أي مكان وجدوه في زنجبار. فلقد جاءوا من **بلد شبه صحراوي**. وكانت مناطق الشعب المرجانية، والأحراش المتوسطة الكثافة الزنجبارية أكثر شبها بالمناطق التي اعتادوا العيش فيها، بالقياس بمناطق الأدغال الكثيفة. ولم تكن

الزراعة بتلك المناطق تحتاج لأكثر من إزالة ما بها من شجيرات وحرقها لتخصيب التربة ببقايا ما بها من بوتاسيوم، ثم استخدام وتد مدبب أو محراث تجره الأبقار في حرث الأرض وبذر البذور. وبهذه الطريقة يحصل المزارع علي كمية وفيرة من الذرة العويجة والخن، والحبوب بشتى أنواعها، وبالأخص البطاطا واللوبيا الهندية. وأمام القاطن في مثل تلك المناطق البحر بما يحتويه من خيرات وفيرة من الأسماك وغيرها من المطعومات البحرية، والرخويات البحرية، والربيان، والكركدن، والأخطبوط، تماما كما هو الحال في مياه الخليج وجنوب جزيرة العرب.

وفي تلك الأحراش كميات وفيرة من الظباء والدجاج الحبشي يمكن صيدها بذات الشباك التي تستخدم في صيد الأسماك. أما مناطق البر المتاخمة لتلك الصخور المرجانية فتشمل سهولا فسيحة من شيجو وأوبنجا تمتد بطول الجزيرة كلها علي وجه التقريب. وكانت هناك ولا تزال مناطق لزراعة الأرز لسكان المناطق المرجانية الشيرازيين. والتحجير والجير من الصناعات التقليدية في تلك المنطقة. وحتى عهد قريب كانت سواري أخشاب المنجروف تصدر من منطقة تشراوي إلي الجزيرة العربية.

أما مناطق **الغابات الكثيفة من زنجبار التي تعج بالبعوض** وتعلو فيها درجة رطوبة الجو، فقد دفعت أولئك الرجال المتعودين علي ظروف الصحراء شبه المفتوحة إلي تجنب العيش فيها. فقط قد يغامرون من آن إلي آخر بدخولها للحصول علي أخشاب لصنع القوارب الصغيرة، والمراكب الشراعية، والأبواب. ولكن لا إقامة دائمة هناك، تماما كما أنه لا إقامة دائمة في سهول الأرز. فكلا

الغابات والسهول كان بمثابة رصيد احتياطي للاستخدام الموسمي أو عند اللزوم.

الفصل الثالث عشر

نفثة من الطائفية[1]

أولا: التسامح الديني، وغياب المذهبية المفرقة بين الأمس واليوم

استغرق حصولي على الموافقة على خطبة عزة بعض الوقت، ولكن القلق غير السوي لم يعرف طريقه إلي. أحسست أن التأخير هو مجرد مؤشر على القيمة الثمينة لما أطلبه. فلو كانت عزة بالصورة التي رسمتها لها في وجداني، فإنها جديرة بالكفاح من أجلها. إلا أن عقد القران ليس هو نهاية الطريق، بل هو مجرد

---

[1] يضع هذا الفصل البالغ الأهمية القارئ في عمق **إشكالية مهمة**، يتوقف عليها مستقبل أمتنا الإسلامية، بل مستقبل البشرية جمعاء. تلك هي إشكالية **التراجع في الحاضر المعاش، عن درجة التسامح الديني التي عرفتها أمتنا عامة، وزنجبار خاصة، في الماضي**، إلى درجة مخيفة من **المذهبية والنزعة التفريقية**. ويبين المؤلف بجلاء، أنه بينما كان عدم التسامح، هو **الإستثناء**، والتسامح هو **الأصل**، انقلب الحال الآن. والأهم أنه كشف عن أن **عدم التسامح الديني يأتي بمردود عكسي على فاعله**، كسنة من سنن الله تعالى في الأرض. ومن الغرابة، بمكان أن يتبين القارئ أن الإدارة الاستعمارية الأوربية كانت على كل عيوبها، أكرم من حكومات ما بعد الاستقلال في مراعاة الحريات الدينية والثقافية للأقليات. ويضرب المؤلف نموذجا صارخا لذلك في معاملة كينيا لمؤسسات مسلميها التعليمية. ويختتم المؤلف هذا الفصل بطرح بالغ الأهمية يتعلق **بالسيولة التي اصابت المؤسسة الدينية الإسلامية**، والتي أدت إلى انحسار أصحاب البضاعة الصالحة فيها. وبروز أصحاب البضاعة المزجاة ممن انتحلوا لقب المشايخ بغير حق، الذين انخرطوا في خطاب المذهبية والفرقة، وأعانتهم على ذلك دوائر يهمها العبث بالدين، وتوظيفه لخدمة مآرب سياسية، بأساليب الرشوة الظاهرة والمستترة. ورصد المؤلف أسبابا **ثلاثة** لهذا التحول السلبي: سقوط التقاليد التي أرساها الحكم السلطاني في زنجبار، وسيادة التوجه الشيوعي في جنوب اليمن، وانحسار الدور المصري في مؤازرة الأمة العربية والإسلامية – المترجم

إجراء ديني وشرعي موقر. وبه صرنا زوجان، من حقنا العيش تحت سقف واحد، من منظور الدين والشرع. إلا أن العادات والأعراف اقتضت التجهيز لحفل زفاف لائق.

تم عقد الزواج بينما كنت أقيم بشكل مؤقت في منجبواني بمقتضى واجبات وظيفتي كمساعد أخصائي زراعي. وكنت أقيم مع قريبي هلال محمد علي البرواني. الذي كان آنذاك بدرجة **مدير إدارة محلية**. وهو بحكم هذا المنصب بمثابة مسؤول إداري يعمل كحلقة وصل بين العمد (مندوبي العشائر المحليين) الذين كانوا يمثلون القيادات الإدارية الشعبية، ويختارون عادة بالتوافق الضمني من عشائرهم، وبواسطة مفوض الإقليم، الذي كان يعلو المدير في الرتبة الوظيفية.

وكانت شغل وظيفة مدير يتطلب الحصول علي الثانوية والتدريب لمدة عام أو عامين في إحدى الجامعات البريطانية، علي شؤون الإدارة المحلية، واجتياز امتحان في القانون يضعه كبير القضاة. ومثل المدراء والعمد العمود الفقري للإدارة خاصة في المناطق الريفية. واعتمدت كل الدوائر الحكومية علي تعاونهم معها. وما كانت حملة "**انتاج المزيد من الأغذية**" التي تم إطلاقها إبان الحرب العالمية الثانية لتنجح، لولا تعاونهم النشط معها. ولولاهم لتعرضت زنجبار لمجاعة. فلم يكن ثمة سبيل للنجاح في المدارس أو مراكز الصحة أو أي مشروع جديد دون تعاونهم معه.

وبمرور الوقت، رقي هلال إلي منصب **سكرتير إداري**، وهو منصب رفيع في سلك الخدمة المدنية، وبات الطريق مفتوحا أمامه لشغل منصب وكيل وزارة، لو كانت الأمور قد سارت في مجراها الطبيعي. إلا **أن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن. فلقد**

حلت الكارثة بعد عشرين عاما بالكاد في 12 يناير 1964. وأطيح بكلانا، وجمع السجن بيننا.

وكان والد هلال الشيخ محمد بن علي بن خميس، مثل والدي **عالما إسلاميا**. ونشر هذا العالم مؤلفا أسماه "**مقامات أبي الحارث**" علي غرار مقامات الحريري. وكان معظم طلاب الشيخ من أبناء قبيلة الهاديمو من دونجا سكنه الريفي، وكان يحلو له قضاء معظم وقته فيها. ومن بين أبرز طلابه: الشيخ **حاجي كومبو** الذي افتتح مدرسة إسلامية في قرية كيبوجي عام 1954 أو عام 1955.

وساعده في إدارة تلك المدرسة، **عبد الله مالي** من كيونجوني، الذي رأي أن المطلوب هو **الإحياء الأخلاقي لإنقاذ البلاد مما حل بها من ضلال**. وانتهي مسعاهما هذا بهما إلي وضع أيديهما في يد جماعات أخرى لتأسيس **الحزب الوطني**. وكان من بين تلك الجماعات، **جماعة** يترأسها رمضان مدافو وعثمان سعود، و**جماعة** أخرى يقودها حاجي حسين والمعلم مقصود.

وقدر **لعثمان سعود** أن يكون واحدا من بين **سبعة عشر شخصا دخلوا السجن، ثم لم يعثر لهم علي أثر**. ويقال أنهم قتلوا بأوامر من المجلس الثوري بعد اغتيال كارومي. وكان كارومي نفسه قد حكم عليهم بالسجن بتهمة محاولة الإطاحة بحكومة حزب الإفروشيرازي. وكانت عقوبات أخرى تنتظرهم علي يد عبود جومبي ورفاقه.

وكان الشيخ **علي بن خميس** البرواني جد هلال، عالما بارزا ذائع الصيت، ولد في الباغ بمنزل ملحق بمسجد الحديث. وهذا المنزل

الذي آل لاحقا للصيدلي جاني، هو واحد من ممتلكات كثيرة سرقها نظام الحكم الغاصب بعد الغزو الذي داهم زنجبار عام 1964. وهو الآن مملوك للمقاول **أحمد المزروعي**.

وكان الشيخ **علي بن خميس** هو أول برواني يغير مذهبه من **الأباضية** إلى المذهب **السني**[2]، الذي هو المذهب الإسلامي السائد الذي يتبعه أكثر من 90 % من المسلمين في العالم. وجاء تحوله إلى المذهب السني مواكبا لتحول الشيخ **علي بن عبد الله المزروعي** من ممباسا إليه.

ومع زيادة درجة **التنوير والتمازج**، بات هناك إدراك عام سائد، بعدم وجود فروق تذكر بين **المذهبين السني والأباضي**. فبالنسبة لأصول الإسلام، يتعلم الأباضيون، ويتبعون ذات الأصول، كما بينها الإمام الشافعي في كتابه: "الرسالة". ويذهب مفتي عمان الشيخ **أحمد بن محمد الخليلي** إلى القول بأنه: **لا شئ في المذهب الأباضي إلا وله قرين في واحد من مذاهب السنة الأربعة**. ويصلي الأباضيون والسنيون في عمان، كما في زنجبار، معا في ذات المساجد، ويتصاهرون، ويتمازجون في كل نواحي الحياة.

وقد يدخل المرء مسجدا، ويصلي وراء إمام ويخرج، دون أن يعرف ما إذا كان من أم المصلين ينتمي إلى هذا المذهب أو إلى

---

[2] وكانت لعلي بن خميس مناظرة مع الشيخ صالح بن علي الحارثي أحد علماء عمان ومن جماعته بإبراء. وقال في تحوله للمذهب الشافعي قصيدة منها: إن كان حبي للسابقين تشفعاً. . . فليشهد الثقلان أني شافعي – يعقوب بن سعيد البرواني

ذاك المذهب. وقد نتجرأ فنقول: أن **الأباضية سنيون**، فيما لو اعتبرنا لباب المذهب السني هو اتباع السنة النبوية بوصفها المصدر الثاني للشريعة الإسلامية بعد القرآن الكريم. ولم يستخدم المسلمون مصطلح (**السني**) حتى القرن السابع الهجري، أي: بعد وفاة أئمة المدارس الفقهية السنية الأربعة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل، بأمد ليس بالقصير. وكان هؤلاء الأئمة في حياتهم معروفين فحسب هم وأئمة الأباضية من أمثال: جابر بن زيد وعبد الله بن أباض، بكونهم أئمة المسلمين.

ويصدق ذلك أيضا على **أئمة الشيعة الكبار**: محمد الباقر، وجعفر الصادق، وزيد بن علي. يلجأ إليهم، كل المسلمين مهما كانت ميولهم طلبا للعلم والإرشاد.

ويرجع الفضل في التقريب بين المدارس الفكرية الإسلامية، إلى العالم الأباضي الجزائري الشهير الشيخ **محمد بن يوسف أطفيش**، في تفسيره للقرآن، وفي رائعته الفقهية الموسومة "**شرح النيل**". وواصل السهر على إتمام هذه المهمة الشيخ **أحمد الخليلي** مفتي عمان الحالي.

وبدأ أهل السنة يرون من جانبهم أنه لا فروق جوهرية بينهم وبين الأباضية. والحق أنه حتى الخلافات بين المذهبين الشيعي والسني، لاتمس أصول الإسلام في قليل أو كثير. كما أن الخلافات القائمة بينهما **ذات أصول سياسية وتاريخية، لا علاقة لها بحاضرهم الراهن**. ويعتقد الحكماء من كل تلك الفرق، أن الوقت قد حان، لأن يحرر أتباعها جميعا أنفسهم من ربقة حبائل السياسة والتاريخ. ولنقرأ جميعا كتبا تؤكد على ضرورة ذلك من قبيل: **الإسلام بلا مذاهب** للدكتور مصطفي الشكعة، **والشيعة**

والتصحيح، للدكتور موسى الموسوي، و**الإسلام عقيدة وشريعة** للإمام الأكبر الشيخ شلتوت.

ولنتدبر، علاوة علي ذلك، بل قبله، في الآيات القرآنية الكثيرة التي تحضنا علي الوحدة، وتحذرنا من الفرقة والتحزب. ولنتلو معا قول الله تعالي: " إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَي اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}. (الأنعام 159)

وقوله عز من قائل: " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{32} (الروم 30-32)

وقوله سبحانه وتعالي: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَي الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ }. (الشورى 13)

ومن المؤسف أنه لايزال هناك أفراد مضللون، يناضلون بكل اجتهاد للحفاظ علي فروق طائفية ثانوية، ولإثارة قضايا من هذا القبيل، وتصويرها كما لو أنها ذات أهمية، وليّ أعناق النصوص للبرهنة علي وجهات نظرهم الخاصة. وهم بصنيعهم هذا يضاهئون فعل الفريسيين من بين اليهود الذين أدان عيسى صنيعهم بلا مواربة. وهؤلاء الأفراد يلحقون دون أن يدروا أضرارا بالغة بالإسلام في عمومه، ولفرقهم بوجه خاص. وواجب العالمين

من بيننا أن لا يسمحوا لمثل هؤلاء الأفراد بتدمير القضية النبيلة الخاصة ببناء إنسانية متحدة ومتناغمة.

ومن الأدلة الكبرى علي قدم الإسلام في شرق إفريقيا، وجود تلك **المساجد العتيقة** من أمثال: مسجد كيلوا كيسواني في تنجانيقا، ونداجوني في بيمبا، وكيزمكازي وتومباتو في زنجبار، وجيدي في كينيا. فلقد كنا **مسلمين وحسب** قبل رواج **بدعة تقسيم الإسلام إلي شيع في عالم اليوم**. فبدل أن يحدد المسلمون هويتهم بكونهم أتباع الإسلام، راحوا يذعنون للهويات الطائفية.

و كان أهالي شرق إفريقيا، **يتجنبون الانقسامات الطائفية**، في قرون خلت، بوصفها تصب في غير صالح وحدة الأمة الإسلامية في كل مكان. ورغم وجود فرق عديدة، فإنه لم تكن هناك صراعات ولا مشاحنات فيما بينها. ولم يحدث أبدا أي تمييز أو عداوات بينهم، رغم أن الأغلبية العظمى من السكان كانت تسمى نفسها: **أهل السنة**، وكان الحكام من **الأباضية** علي مدى قرنين كاملين، يحكمون من زنجبار بنفوذ غالب، يغطي كل ربوع شرق ووسط إفريقيا، وفي ظل وجود **أقلية شيعية** ليست باليسيرة، معظمها من أصول أسيوية.

وبنى **أباضيو شرق إفريقيا الكثير من مساجد أهل السنة**، كما أسسوا مدارس دينية، وكفلوا عمل أساتذتها لصالح الجميع، وكانت **أغلبية أولئك المدرسين من أهل السنة**. ولم تبذل أي فرقة أية محاولة لتحويل مسلم من فرقة إلي أخرى سواء بالإكراه أو بالمكيدة، أو بوسائل من قبيل الإغراء بالرشوة أو المناصب، أو الهدايا، أو الرحلات إلي الخارج، أو المنح الدراسية.

بل لم يحاول أي سيد، حتى في عصر الرق، إكراه أو إغراء أحد من أولئك الذين هم تحت يده من إخوانه وأخواته الخاضعين لنفوذه، على اتباع مذهبه. وفي تلك الأيام الخوالي، كان أحد جدودي يطور **منطقة ميناء ليندي الواقع جنوب تنجانيقا** لأغراض الاستيطان والتجارة، وقام بإزالة ما بالمنطقة من أحراش وتخليص المستنقعات المجاورة لها من أشجار القرم. وحينما أبدى أناس من قبيلة ماكوندي التي تقطن المناطق المتاخمة لذلك المكان، ميلهم للدخول في الإسلام، ذهب هو وكان أباضيا، إلى الشيخ **عمر اسطنبولي** ليأتي به من ماليندي بكينيا، ليعلمهم أحكام الإسلام. **ولم يحدث أبدا أن حرص جدودي على إسناد مثل تلك المهمة إلى شيخ أباضي.** وكان بوسع جدي أن يستقدم شيخا أباضيا من زنجبار أو حتى من عمان وينشر الإباضية. ولكن الأمر الحيوي بالنسبة له لم يكن هو **طائفته، بل دينه. فالإسلام ضد الطائفية.**

وفي ذلك يأمرنا ربنا سبحانه وتعالي في سورة آل عمران:

"وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{103} وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{104}. (آل عمران 103-104)

ومقتضى "**الدعوة إلى الخير**" هو: دعوة البشرية لأن تكون **بمثابة النفس الواحدة**، لا أن ننقسم شيعا وجماعات، تفرق بين الأخ وأخيه، ولا أن يسب بعضنا بعضا، ونكيل الاتهامات لبعضنا

البعض. إنها دعوة لنا جميعا للإعتصام بحبل الله تعالي. ومقتضى "**النهي عن المنكر**" هو: **تحريم كل ما ينال من الأخوة والعلاقات الاجتماعية الطيبة والتفاهم المشترك بين الإنسان وأخيه الإنسان.**

وليس الإسلام بالديانة الجديدة. بل هو **الدين الجامع لصحيح كافة الأديان المنزلة من عند الله تعالي**، كيما **تتوحد به البشرية جمعاء.** ويحرم الإسلام حتى مجرد سب عبدة الأوثان، خشية أن يدفعهم ذلك، بجهالة منهم، إلي سب الله تعالي. فلنقرأ قول الله تعالي: " {**وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** }. (الأنعام: 108.) واليوم نرى بعض المسلمين **يسب بعضهم أئمة البعض الآخر**، بل يسبون أصحاب النبي رضي الله عنهم وأرضاهم. ونرى **شيوخا يسب بعضهم بعضا والأئمة والصحابة يشتمون. وليس هذا من الإسلام في شئ.**

فلنتدبر آيات الذكر الحكيم، ونقرأه كما لوكان قد تنزل علينا، وننعم النظر في معانيه، وهو في سورة آل عمران يأمرنا بحزم أن:

"وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{105} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{106} وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{107} تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ{108}. (آل عمران 105- 108)

وهانحن نصير بتلك المذهبية المقرفة ممن ينطبق علينا هذا التحذير الإلهي: **متفرقون فيما بيننا، وساقطون في منازعات نهزم بها أنفسنا بأيدينا بعد أن جاءتنا الآيات البينات.** والإسلام لم يأتنا بالأمس القريب. بل كنا من **بداية البداية مسلمين.** ومع ذلك فإننا **نتشاحن حول خلافات تافهة استوردناها من قادمين جدد، يوظفون الدين لخدمة أغراضهم القومية أو العنصرية ضيقة الأفق.** ويسعون من أجل مصالحهم الأنانية تلك، إلى بث الفرقة بيننا. ، ويريدون أن يكون لهم من بيننا أنصارا وأذنابا. فلنحذر من أن نكون ممن يقول الله لهم يوم الدين: "**أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**".

ولنحذر من تلك القلة التي تريد أن تتفرق بنا السبل عن صراط الله المستقيم، وتسعى لإحداث الفرقة بين مسلمي شرق إفريقيا. ولنثبت على الصراط المستقيم حتى نكون ممن تبيض وجوهم يوم الدين ويستحقون رحمة الله. ونسأل الله أن **يحمينا من التفرق.** فنحن الذين كنا في الماضي **كالبنيان المرصوص**، يدا واحدة، وعروة لا انفصام لها، وكان غيرنا يحسدنا على وحدتنا. وإذا بنا **نقع اليوم في براثن الفرقة، ونصاب بفيروساتها.** فهذا يتهم ذاك **بالابتداع.** وهذا يرمي ذاك **بالكفر. وكل هذا ليس من الإسلام في شئ.**

ولا يصح أن تكون **الخلافات الفقهية** بين الأئمة في **الفروع، مادة للتشاحن بيننا، ولا أن تسوقنا إلى فقد الاحترام والتسامح المتبادلين فيما بيننا.** فلا مناص من وجود خلافات بين الأئمة حول قضايا هامشية. والحق أن تلك الخلافات نعمة من الله علينا، لأنها توسع نطاق الاختيار أمام المسلمين داخل حظيرة

الإيمان، طالما تمسكنا بالأصول. ولا تستدعي الخلافات في الفقه أو في تفسير التاريخ بث الشقاق والعداء بيننا.

ولنعد إلى إلقاء نظرة على ما كان عليه الوضع في زنجبار، قبل أن ينقلب حالها رأسا على عقب. **كان السلطان أباضيا. وكانت الأغلبية الساحقة سنيين. وكانت هناك قلة من الشيعة.**

ومع ذلك، فإنها عرفت في التقويم الرسمي مناسبتين تخصان **الشيعة** بالأساس، **توصد المصالح الحكومية أبوابها** فيهما، وهما يومي: الحادي والعشرين من رمضان: ذكرى **استشهاد الإمام علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، ويوم العاشر من محرم يوم استشهاد الإمام الحسين رضي الله عنه.** فكم عدد البلاد التي تفعل مثل هذا الصنيع احتراما لأقلية صغيرة من شعبها؟ لم نشهد تقليدا كهذا حتى في بلدان **قرابة نصف سكانها من الشيعة.**

واستفاد أبناء شرق إفريقيا من كرم عائلة **كريمجي جيفانجي** التي بنت لنا **مستشفيات، ودورا للمسنين والمعدمين، ونوادي ومراكز اجتماعية.** وهذه العائلة تنتمي إلى **طائفة البهرة** إحدى الفرق الشيعية. واستفاد الجميع، وليس المسلمون وحدهم من كرمها. فكم هو عدد البهرة في شرق إفريقيا؟ أنهم مجرد أقلية بالغة الصغر حتى في زنجبار.

ثم إن **سيوا حاجي** وهو من طائفة **الإسماعيلية الشيعية**، هو الذي بنى **أول مستشفى في زنجبار**، وبنى **مستشفى آخر في دارالسلام.** وترك **شيعي اسماعيلي** آخر هو تاريا توبان **وصية** أنشئت بموجبها مدرسة في مسجد البرزة السني، فضلا عن بناء

العديد من المساجد الأخرى من الأرصدة التي خصصها لهذا الغرض.

وبالمناسبة كان **تاريا تويان** أحد وزراء **السيد برغش**. وقام أناس لا يعرفون الوفاء بالجميل بمحو اسم فاعل الخير العظيم كريمجي من علي المستشفي التي تبرع بها للشعب، ووضعوا مكان اسمه اسم **لينين** الذي لا توجد **أدنى صلة بيننا وبينه**. وزاد الطين بلة، أن صودر منزل السير **طيب علي كريمجي**. ولما أصبح بلا مأوى غادر زنجبار بغير رجعة. ووافته المنية بعيدا عنها في باكستان، مع أنه كان زنجباريا حتى خامس جيل. كانت هذه هي الطريقة التي عبرنا بها عن امتناننا وأخلاقيتنا وشكرنا لمن صنعوا لنا معروفا.

ثانيا: معهد ممباسا لتعليم المسلمين: خسارة كبرى

نبتت بذور فكرة إنشاء ذلك المعهد العالي المهم، الذي جرت العادة علي تسميته **معهد ممباسا لتعليم المسلمين**، والذي تأسس بهدف تقديم تدريب فني عالي لشباب شرق إفريقيا المسلمين ككل، في ذهن الشيخ الراحل **مبارك بن علي الهنائي** والي الساحل والسير فيليب ميتشل حاكم كينيا. وكان السيد خليفة بن حارب سلطان زنجبار، وأغاخان، وقادرباي من ممباسا، من بين كبار المساهمين في أرصدة تأسيسه.

وتبرع الشيخ **خميس بن محمد مطافي** بثلاثين فدان من خيرة الأراضي بجزيرة ممباسا لتشييد هذا المعهد والمدرسة الثانوية الملحقة به عليها. والتزم مسلمو شرق أفريقيا صمت العجزة حين أخذت الحكومة الكينية منهم معهدهم الثمين هذا بقرار متعسف،

ومحت طابعه الإسلامي. وصار ذلك الصرح العلمي الإسلامي السابق مجرد مدرسة من بين مئات المدارس الحكومية الكينية، ولم يعد فيها من الطلبة المسلمين غير حفنة تعد علي الأصابع.

وضنت الحكومة الكينية التي لديها مؤسسات تعليمية مماثلة وأفضل بالمئات، علي مواطنيها المسلمين، حتى بهذا المعهد الوحيد. ومن الخير للحكومة الكينية في الدنيا والآخرة أن تضع في اعتبارها بالبيان الصادر عن مؤتمر (التبشير المسيحي والدعوة الإسلامية) الذي تم عقده في تشامبسي في يونيو 1976، وتعيد معهد ممباسا لتعليم المسلمين، إلي مسلمي شرق إفريقيا.

ومن بين من ركبوا الصعاب، وتكاتفوا معا لبناء معهد ممباسا لتعليم المسلمين، السير **فيليب ميتشل**، الذي كان مسيحيا بريطانيا يعرف فحسب أن مسلمي شرق إفريقيا متخلفون، وأنه ما لم تتم مساعدتهم علي أن تكون لهم مؤسسة تعليم فني عالي واحدة علي الأقل، فإنهم لن يكون بمقدورهم أن يضعوا أيديهم في يد أبناء وطنهم المسيحيين، لتنمية بلادهم.

ومن الشخصيات المرموقة الأخرى صاحبة اليد الكريمة في تأسيس هذا المعهد **أغاخان** زعيم طائفة الإسماعيلية، والذي كان أتباعه في شرق إفريقيا مجرد طائفة أقلية صغيرة العدد. ومع ذلك، فإنهم لم يتأخروا عن المشاركة في مشروعات التنمية الاجتماعية والدنيوية، بل كان في موقع الصدارة فيما يتعلق بالتعليم والاقتصاد والرعاية الصحية والإسكان وغيرها. وآمن أغاخان الاسماعيلي، والبهري قادرباي بأن من واجبهما مد يد العون إلي إخوانهم المسلمين الأقل ثراء من كل الطوائف، ليسيروا بدورهم علي طريق التقدم.

وشعر السيد خليفة بن حارب، سلطان زنجبار[3] الأباضي، كما أحس أسلافه من قبل، بالحاجة الماسة لمد يد العون للمسلمين كافة بصرف النظر عن طوائفهم. وكان مبارك بن علي الهنائي وخميس بن محمد مطافي، **سنيين**، والمستفيد الأكبر من هذا المشروع هم **السنيون** بالطبع. ومع ذلك، فإن هذين الفاضلين لم يدر بخلدهما أنهم يساعدان طائفة إسلامية بعينها، **سنية** كانت، أم **أباضية**، أم إثناعشرية، أم بهرية، أم اسماعيلية. بل قدما ما جادت به نفسيهما في سبيل الله تعالي **مساعدة للمسلمين أيا كان توجههم الديني**. وهذا هو **الإسلام**.

فماذا دهانا الآن؟ نحن الذين كنا شعبا واحدا بغض النظر عن تعدد الفرق المذهبية. وكنا لا نعرف التمييز فيما بيننا علي أسس طائفية، وكل منا يحترم الآخر، ويمد له يد العون، ونتواصل في أعيادنا وأتراحنا، وفي أفراحنا وجنائزنا، وفي الاحتفال بالمولد النبوي وفي المآتم. فكيف بنا ننخرط اليوم في مشاجرات طائفية حول أمور لا طائل وراءها؟ إن كل تلك الانقسامات هي مجرد تصورات لقوميات تفريقية مستوردة. فلماذا نقسم أنفسنا إلي صنائع لبلد أو لآخر؟

ولسوء الحظ، فإن تلك **القلة العاملة من أجل الفرقة بين المسلمين**، هي الأعلي صوتا بسبب الدعم المالي الذي تتلقاه. **والأغلبية الصامتة مغلوبة علي أمرها**. في الماضي لم يوجد بيننا حتى تلك الحفنة من دعاة الفتنة. ومن المفارقات أن الغالبية **بين**

---

[3] **السيد خليفة بن حارب البوسعيدي** ولد يوم 26 أغسطس. كان سلطان زنجبار التاسع ما بين 9 ديسمبر 1911 إلى وفاته في 9 أكتوبر 1960

أولئك الناعقين الانفصاليين هم من بين من يسمون: الشيوخ. إن الدين ليس ناديا للرقص، ولا للموسيقى. إن **الدين لله**. وبما أن ديننا واحد، وربنا واحد، وقبلتنا واحدة، وقرآننا واحد، وشهادتنا واحدة بأنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فما الداعي لأن نتشاحن علي أمور يسيرة؟ يقول الله تعالي: "**وَإِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ{52} فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{53} فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ**"[4]. ويأمرنا الله تعالي أن لا نقول لمن يلقي إلينا السلام لست مؤمنا. ولنقرأ قوله سبحانه وتعالي:

" **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ كَذَلِكَ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً**". (النساء 94)

وما دام القرآن يأمرنا **بأن لا نسمي من يلقي إلينا السلام، كافرا، فكيف ننعت بها من ينطق بالشهادتين؟** ليس ثمة بدعة أسوأ من تلك. والفتنة أشد من القتل. فما السر في حدوث هذا في العقود الأخيرة؟ إنها **ثمرة لثلاثة كوارث** أصابت الإسلام في شرق إفريقيا في العقود الثلاثة المنصرمة.

أما المصيبة الأولي فهي سقوط سلطنة زنجبار التي اعتادت علي احترام العلم والعلماء وتكريمهم، مما جعلها مثابة وقطبا

---

[4] المؤمنون ::52- 54.

جاذبا للعلماء من كل أرجاء المعمورة. احترمهم الحكام، ووقرهم المواطنون، وحرصوا علي التعلم منهم، والعمل بما يتعلمونه منهم. وهذا هو السر في مجئ كوكبة من العلماء إلي هذه الجزر، من أمثال: الشيخ محي الدين علي القحطاني، والسيد عمر قلتين من الصومال، والشيخ عبد الله باكثير من لامو، والشيخ سيف بن ناصر الخروصي والشيخ أبومسلم ناصر الرواحي من عمان، والسيد مشهور الحداد من حضرموت، والسيد احمد بن سميط وابنه المناظر له في الشهرة السيد عمر بن سميط من جزر القمر، والشيخ محمد الدهان من مصر، والسيد حسين المرعشي من العراق، وغيرهم كثير يستعصون علي الحصر.

وبين ظهرانينا شب علماء حازوا سمعة ومكانة دولية. درسوا في زنجبار وفيما وراء البحار في مصر ومكة وعمان واليمن والعراق وغيرها. وحين كان في **أوساطنا علماء أجلاء، لم يجرؤ أحد علي إثارة مماحكات وخلافات تافهة في أوساط المجتمع الإسلامي.**

وحين حلت تلك المصيبة علي بلدنا العريق، **وأطيح بالنظام السلطاني التقليدي، دخل بعض المعممين في ذاك الجدل العقيم،** وكل منهم يبحث عن **ممول أجنبي ليضبط إيقاعه علي هواه.** واتخذ هؤلاء من الدين **مهنة،** وصار منهم من يمكن شراء ذمته بأبخس الأثمان. ولم يكن **دافع من يرشون مشايخنا الجدد، هو الدين.** فهم علي العكس **يوظفون الدين لمآرب بلادهم السياسية.**

أما **المصيبة الثانية** التي حلت بالإسلام في شرق إفريقيا والمحيط الهندي بكامله في هذا الصدد، فهي **دخول الشيوعية في اليمن الجنوبي.** فطيلة قرون خلت، كان علماء من حضرموت ينشرون

الإسلام والثقافة في مناطقنا، وفي الساحل الغربي للهند، وجزر المالديف، وسريلانكا وماليزيا وأندونيسيا والفلبين.

وعرف ملايين من البشر الإسلام علي يد **علماء حضرموت.** وحل بعلماء حضرموت نفس ما أصاب علماء زنجبار وبقية بلدان شرق إفريقيا. تم **تشتيت شملهم، وتثبيط هممهم.** ولما فقد علماء الدين قيمتهم واحترامهم، نزح كثير منهم للعيش في المنفي. أما من **آثروا البقاء، فقد اضطروا بحكم الضرورة لأن يبيعوا احترامهم وتوقيرهم لمن يعرض أعلي ثمن.** وتم جرهم إلي الخوض في الصراعات الطائفية بالهدايا والرواتب، بل حتى بمجرد دعوتهم إلي مؤتمرات دولية، أو حتى، المفارقة، بمنحهم فرصة الحج بمكة، أو زيارة بعض العتبات المقدسة بالشرق الأوسط.

وأما **ثالثة الأثافي فهي سقوط مصر كرائدة للعالم الإسلامي.** فالأزهر الذي هو، فيما يقال، أقدم جامعة علي ظهر البسيطة، حيث يزيد عمره عن ألف عام، قد فقد الكثير من مكانته، نتيجة تدني مكانة مصر **علي مستوى الاقتصاد والقيادة السياسية.** فمصر التي كانت أغنى الدول العربية بسبب نيلها، والزراعة المتقدمة وقناة السويس، باتت واحدة من أفقر الدول العربية، لأن بلدانا أخرى بزتها في الثراء بسبب اكتشاف البترول. ولم تحقق قناة السويس الآمال المعقودة عليها بسبب الاعتماد علي ناقلات البترول العملاقة، والتقدم الذي تحقق في النقل الجوي. وتخبطت مصر مثل كثير من الدول الأخرى في تجربتها **الاشتراكية.** وبذا تبددت قدرتها علي مد يد العون للبلاد الإسلامية الأخرى.

الفصل الرابع عشر

الحلم الذي ضاع[1]

أولا: خطر التبديل في الأمة: الفتنة أشدّ من القتل

مساء الحادي عشر من يناير 1964 استضفت أنا وقرينتي مهندسا معماريا مصريا من الطراز الأول، بعثته الحكومة المصرية، لتصميم مخططات نواة **جامعة** بجزيرة زنجبار لمسلمي شرق ووسط إفريقيا. وكان من المزمع إلحاق **مستشفى حديث**

---

[1] يسلط هذا الفصل الضوء على ما تفعله الطائفية بنسيج الوحدة الوطنية لأي أمة، ويبين كيف أن ذلك الداء القاتل كان بابا واسعا للتدخل الخارجي، ولهدم فرص الوئام في بلد عرف بالبساطة والهدوء إلى حد أنه لم يكن له جيش، ويحكي فصول مأسسة تلك الطائفية برعاية بريطانية، وكيف كان افتراسها للسلام الاجتماعي في انقلاب 1964، ويقدم كشف حساب لإخفاقات كل من الطائفية والاشتراكية في زنجبار منذ الانقلاب حتى الآن.

ويستهل المؤلف هذا الفصل برسم صورة يستحضر فيها نخبة من **رموز صناعة الحب والإخاء والتزكية والعمران** من مشايخنا الأوائل، ثم يقدم الصورة المقابلة **لدعاة الفتنة** من المشايخ الجدد، الذين ينقبون عن دواعي الفرقة بين البشر. ويحذر بقوة وبحجة بالغة من مغبة الإنسياق وراءهم. ويبين أن في وجود **مليارات من البشر** لم يهتدوا إلى دين، سعة ومجال رحب لمن يرغب في الدعوة الحقة، وفي تقديم خدمة دينية جادة للبشرية. أما السعي إلى **الفتنة المذهبية**، فليس من الإسلام في شئ. ثم يبين عواقب تبني **أيديولوجيات إنسانية مارقة**، مثل **الماركسية** نبعت في الأساس، وغذيت من بعد، من عقول أعداء الأمة الإسلامية، وروجت الزيف، وهدمت الحلم في مشروع حضاري مؤسس على التقوى، ونابع من ميزان إسلامي صحيح، يرسي الأخوة والعمران في الأرض، وينأي بنفسه عن أي إساءة للإنسان الذي فطره الله على الحرية المسؤولة، وكرمه ونعمه. ويحكي في هذا السياق بمرارة زيف ما يسمى: الاشتراكية، **وكيف أتت على الأخضر واليابس في زنجبار، وأضرت بالبشر وبالحيوان وبالزرع وبالحجر** –المترجم

كامل التجهيز ومسجد بهذه المؤسسة العلمية، على أراض في كوامتيبورا، تبرع بها بالفعل المرحوم الشيخ **محمد ناصر اللمكي**، وأبناء الشيخ **مسعود بن علي الريامي**.

وفي نفس ذلك اليوم وقعت **الكارثة** بعد منتصف الليل. نشبت قلاقل أسفرت عن الإطاحة بحكومتنا، ومقتل الألوف من أبناء شعبنا، في حدث منقطع النظير على مدى تاريخ زنجبار الطويل. **وزج بي في السجن عشر سنوات وخمسة أشهر دون محاكمة.** ونجا المهندس بأعجوبة من القتل، أو من السجن لأجل غير مسمى، وفق ما علمت منه فيما بعد، بفضل العون الذي قدمه له خال قرينتي **أحمد عمر الجهضمي**، الذي نجح في إخراجه من زنجبار إلي بر الأمان.

ولو كتب لنا التوفيق في إنجاز هذا المشروع الهام لما ذاق مسلمو شرق ووسط إفريقيا الهوان الذي عانوا منه على مدى العقود الثلاثة الماضية، ولا زالوا يتجرعونه بسبب الافتقار إلي **مؤسسات التعليم العالي**.

ومنذ الإطاحة بحكومتنا الوطنية المنتخبة، ولّت أيام **مدرسة باكثير**. وولّى عهد كان لدينا فيه **علماء وقضاه مشهورين** يشار إليهم بالبنان. **أين** السيد احمد بن سميط؟ **أين** الشيخ عبدالله باكثير؟ **بل** أين تلاميذهما وحوارييهما **من أمثال:** السيد عمر بن سميط، والشيخ محسن بن علي، والشيخ أبو بكر، والشيخ محمد بن علي بن خميس، والشيخ محمد بن عمر، والشيخ سليمان العلوي ؟ **أين** الشيخ سعيد بن دهمان؟ **أين** الشيخ حسن بن عمير؟ **أين** الشيخ برهان المكلا وأضرابه من **أمثال مشايخنا:** ناصر بن جاعد الخروصي وسيف بن ناصر الخروصي وقسور

بن حمود الراشدي وسعيد بن راشد الغيثي، وسعيد بن ناصر الغيثي، وسلطان بن محمد الإسماعيلي، وعلي بن سالم الإسماعيلي، وحبيب بن مبارك المعولي، وغريب بن علي العوفي، وناصر بن سالم الرواحي، وعبد الرحمن بن محمد الكندي، ومحمد بن سعيد الكندي، **علي سبيل المثال لا الحصر؟** لم تعد تحس منهم من أحد، أو تسمع لهم جميعا رجزا.

ومن بين العلماء الذين تقطعت **بنا السبل** من بعدهم: الشيخ **عبد الله صالح الفارسي** الذي ترجم معاني القرآن الكريم إلي اللغة السواحيلية. أما من **بقوا ففي صفوفهم دخل**. ومن بينهم **بعض من جعل نفسه صنيعة وألعوبة بيد أعداء الأمة علي نحو قميء**. فياحسرتاه، بل ألف حسرة، علي امرئ عرف الطريق إلي مرضاة الله، ثم نكص علي عقبيه، يبتغي العزة بسبل الشيطان. والعزة والعظمة الحقة ليسا لأحد غير الله تعالي.

وينبغي علي العلماء أن يعوا مسؤولياتهم. وعليهم أن يعلموا أنهم **ليسوا أدنى ممن يريدون شراء ذممهم**. فالمؤمنون هم الأعلون علي الدوام. وعلي من يريدون نصرة الإسلام أن ينصحونا علي الوجه الصحيح. عليهم أن ينشئوا مؤسسات تعليمية مناسبة تقدم المعرفة التي نحن في أمس الحاجة إليها في شؤون الدين والدنيا، دون أن يطلبوا من المستفيدين منها ولاء سياسيا ولا مذهبيا، في المقابل. فليس ثمة حاجة **لأن نحول الأباضي إلي سني، أو السني إلي شيعي. فالتحول من طائفة مسلمة إلي طائفة أخرى مسلمة ليس نشرا للدين**. وهناك الملايين من البشر لم يعرفوا الله تعالي، ولا يزالون ملحدين ومشركين، **وهم الأولي بالسعي لإنقاذهم وخلاصهم**. وجامعة الأزهر فريدة من حيث أنها تدرس

الإسلام ذاته، وليس **كما تتصوره طائفة مذهبية بعينها**. فالطوائف تعامل في رحابه علي أنها **مجرد مدارس فكرية** في الأمور الفقهية، وليست **أوعية حصرية مانعة**. إلا أن الكثير من المؤسسات الأكاديمية في عالمنا الإسلامي، تسير، لسوء الحظ، في اتجاه مغاير للأزهر في هذا الصدد، وتهتم **بالتلقين الطائفي** أكثر من اهتمامها **بتعليم الإسلام ذاته**.

ومن واجبنا أن نتوقف عن التشاحن بخصوص أمور طائفية، ونوحد الصف الإسلامي. ولا داعي **بالمرة للإساءة إلي أئمة الفرق الأخرى، ولمزهم وتجريحهم**، بينما نريد منهم أن **يجلوا أئمتنا**. فليس ثمة **مبرر أخلاقي** يسمح لأحد كائنا من كان أن **يسب أي صحابي** من صحابة النبي صلي الله عليه وسلم الأخيار. فالحق سبحانه وتعالي يقول بأسلوب جامع مانع: "السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ **رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ** وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}. [2]

فالله تعالي عليم بالملك والملكوت، ولايعزب عن علمه شئ في الأرض ولا في السماء. وهو يعلم السر وأخفي. وأيا ما كان قد حدث بعد تنزل هذه الآية الكريمة، فإن ثبوت رضي الله عن

---

[2] التوبة:100. وقد يكون من المناسب الإشارة هنا أيضا إلى قول الله تعالى في حق الصحابة رضوان الله عليهم: مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً{محمد:29}- المترجم.

الصحابة ورضاهم عن ربهم يظل حقيقة دامغة لا يرقى إليها الشك. فمن نحن أبناء اليوم الذين لا تصل هاماتنا لأخمص أقدام هؤلاء الصحابة، حتى نماري في حكم الله من الأزل بحقهم؟

إنهم هم الصفوة المختارة للنبي من الرجال والنساء، الذين **علي أيديهم أرسى أساس الأخوة بيننا**. ولنتذكر أن الله بيّن لنا في محكم التنزيل أن **الفتنة** أشد من **القتل**، وأن جهنم وبئس المصير هي مأوى من يتسبب في إثارة الفتن بين المسلمين. فالله تعالي يخاطب نبيه في القرآن الكريم: "**{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ }**[3]. فالحمد لله تعالي الذي أنعم علينا بالإيمان، ووعد بتقبل توبة التائبين. يقول سبحانه وتعالي في سورة الزمر: "**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**}[4].

ثانيا: نذر الكارثة

اقترحنا علي الحكومة البريطانية، عبر المقيم البريطاني السير جورج مورينج، في عهد الحكم الذاتي الداخلي، إبرا م **ميثاق تعاون مشترك مع المملكة المتحدة**. وقوبل طلبنا بالرفض. وقال السير جورج أن بلاده ستنهي مع منح بلادنا الإستقلال **كل مسؤولياتها بما فيها المسؤولية عن الدفاع والأمن**. ثم قال

[3] الأنعام:159. .

[4] الزمر:53.

بسخرية مبطنة: "**لماذا لا تطلبون ترتيبات من هذا القبيل من عمان أو من المملكة العربية السعودية؟**

وكان ذلك المسؤول البريطاني يعلم تمام العلم أن أيا من الدولتين اللتين ذكرهما، غير قادرة في ذاك الوقت من الستينيات حتى علي الدفاع عن نفسها. فلم يكن لدى أي منهما خطوط طيران مدنية، ناهيك عن أن يكون لديها أسراب مقاتلات جوية أو سفن حربية. وفي أحداث حرب الخليج في التسعينيات شاهد علي صحة ما ذهبت إليه. وكنا نعلم أنه يستثيرنا لنفصح عما إذا كانت ثمة **ترتيبات أو تفاهمات بيننا وبين مصر** عدوهم الأول آنئذ. فاعتبرنا الصمت حكمة. واتضح لنا أن البريطانيين لن يفعلوا أي شئ من شأنه إرباك علاقاتهم مع جوليوس نيريري، رجلهم في المنطقة، وأن الزمن الذي كان فيه لسلطان زنجبار مكان الصدارة في مخططاتهم الإمبريالية، قد ولّى. وباتت كل المؤشرات تدل علي أن ثمة مؤامرة مخططة تحاك بليل.

وكنت قد استضفت **جيمس كالاهان** زعيم حزب العمال البريطاني، والذي كان في حينها بالمعارضة، ثم تولي رئاسة الوزراء فيما بعد، علي العشاء بمنزلي. وفي سياق المحاورة التي دارت بيننا بهذه المناسبة، قال لي أنه **ينبغي علي زنجبار أن لا تتوقع أن تكون دولة مستقلة**. فمستقبلها – حسب رأيه – "**يكمن في الاتحاد مع تنجانيقا. وهي غير قادرة علي البقاء بمفردها**". وكان الرجل صريحا. أما غيره ممن مردوا علي المناورات الاستعمارية، فإنهم فضلوا أن يأخذوا باليسار ما قدموه باليمين. وهم برجلهم علي قمة السلطة في تنجانيقا، سيكونون علي يقين من مواصلة تنفيذ مخططاتهم.

ويبدو أن أولئك البريطانيون الدهاة، لم يكونوا يعرفون آنئذ، ما **سيرتكبه رجلهم من حماقات مروعة**. نعم لم يكونوا يعرفون **قدرته الخارقة علي تدمير ما بناه الآخرون**. فلقد كشف المستقبل اللثام عن تدميره: جمعية كيليمنجارو التعاونية، وجمعية بوكوبا روبستا لزراع البن، وجمعية سوكوما التعاونية لزراع القطن، ومزارع القنب التي كانت بمثابة العمود الفقري لاقتصاد تنجانيقا، وبنية الحكم المحلي، والإدارة المحلية، التي كانت تعمل بسلاسة وفعالية، ومنظمة الخدمة العامة بشرق إفريقيا. وتوج جهده التدميري بتدمير عملة شرق إفريقيا القوية التي كانت تضارع الجنيه الإسترليني. والحق أن **هذا الإنسان دمر كل شئ بناه رعاته في العقود السبعة السابقة علي تسليمهم البلاد له علي طبق من فضة.** وعلاوة علي هذا كله، وقبله، تدمير **دولة زنجبار العريقة**، التي عجز عن تحقيق أمنية روادته طويلا بإلقائها في المحيط الهندي.

وتأسيسا علي ما كان لي من علاقات شخصية مع شخصيات دولية لدى استقلال زنجبار، رأي إخواني أنني الشخص المناسب لتولي حقيبة الشؤون الخارجية. فكنت قد سبق لي مقابلة عدد من الوزراء البريطانيين، والقادة السياسيين في ألمانيا وفرنسا، كما التقيت العاهل المغربي الملك الحسن، وكوامي نيكروما، ونهرو، وجمال عبد الناصر، والحبيب بورقيبة، وأحمد بن بلا، والجنرال أيوب خان، وأنديرا غاندي، وديفيد أوين سفير بريطانيا لدى الأمم المتحدة، وغيرهم من زعماء العالم. كما كنت قد شاركت في كل اجتماعات مؤتمر عموم شعوب إفريقيا، وبعض مؤتمرات التضامن الأفروأسيوي. وهكذا كانت **خبرة الشؤون الخارجية جزءا من كينونتي قبل أن أتولي وزارة الخارجية.**

وبعد فشل المؤتمر الدستوري الزنجباري الأول عام 1962، قمت بزيارة فرنسا وألمانيا الغربية والمغرب. وتوصلت إلي ترتيبات مع الحكومة الفرنسية، تعهدت بموجبها بإنشاء **معمل لغات** مشابه لمعمل لغات رأيته في باريس. وكان من المأمول بمساعدته أن يستطيع الطلبة غير العارفين باللغة الفرنسية، الإلمام بها في غضون بضع شهور، بدرجة تمكنهم من الإستفادة من المحاضرات التي تلقى بالجامعة باللغة الفرنسية.

وكان من المقرر أن يرعى معمل اللغات المقترح تعليم اللغات الفرنسية والعربية والإنجليزية. وتقرر إنشاء هذا المعمل بكلية السيدة نونو لتدريب المعلمات القريبة من راحاليو. وكان من المزمع أن تشكل هذه الكلية، وكلية تدريب المدرسين المناظرة لها نواة جامعة تؤسس بمعونة مصرية في كوامتيورا في ضواحي مدينة زنجبار. وتقرر إنشاء كلية **تدريب المعلمين** بتمويل أمريكي، ضمن المعونة الأمريكية الرامية إلي تهيئة زنجبار للإستقلال. واتفق الفرنسيون معي أيضا علي إعادة **هيكلة كاملة للمدرسة القمرية** بحيث تضم مدرسة ثانوية كاملة، وفتحها أمام طلاب من كافة الطوائف. كما وعد الفرنسيون بإجراء بحوث علي الآفات والأمراض التي كانت تلحق أضرارا بالغة بالزراعة خاصة بمحصولي القرنفل وجوز الهند.

وشهدت ستينيات القرن العشرين معجزة الازدهار الإقتصادي الألماني. وكان الإحياء الصناعي يسير بخطى عملاقة، مما جعل ألمانيا بحاجة إلي أيدي عاملة. وتوصلت إلي ترتيبات مع المسؤولين الألمان علي تزويد بلادهم بيد عاملة من زنجبار.

فيحصلون هم علي العمل، ونتعرف علي ما لديهم من التكنولوجيا، هي الأكثر تقدما علي الصعيد العالمي.

وكنت صاحب حلم أسعى إلي تحقيقه، يحاكي إرسال اليابانيين شبابهم الواعد إلي أوروبا وأمريكا في فترة ما بين الحربين العالميتين، ليعملوا ويتعلموا في المصانع الغربية. وبيد كل شاب كراسة يسجل فيها بدقة ما ينبغي عليه عمله. ويعودون بعد الفترة المتعاقد عليها إلي اليابان، ويحل فوج آخر مكانهم. وكان هذا هو مفتاح الثورة الصناعية اليابانية. ولم يقف حلمي عند حد حصول شبابنا علي فرص عمل بألمانيا، وإنما يمتد إلي اكتسابهم خبرة التعامل مع التقنيات واكتساب روح التفاني في العمل، علي نحو لا يحلمون بإمكانية تحقيقه فيما لو قبعوا في وطنهم.

وكنا قد شرعنا بالفعل في مشروع مماثل مع مصر، ولكن هدفه لم يكن هو توفير فرص العمل، بل كان **تعليميا تربويا** من ألفه إلى يائه. وكانت النية أن يبدأ الصغار التعلم من الصفر. أما من هم في سن الرابعة عشرة فأكثر، الذين لم ترتقي بهم علاماتهم للإلتحاق بالتعليم الثانوي، فتقرر إلحاقهم بمدارس **التعليم الصناعي** في مصر. واختار من حال ضعفهم في اللغة العربية دون التحاقهم بالبرامج الأكاديمية الخاصة بمحض إرادتهم هم وأولياء أمورهم، التدريب علي صناعات معينة.

وعند وصولهم إلي مصر نظمت لهم جولة علي مختلف الصناعات للتأكد من موافقتهم علي الدراسة في الأقسام التي وقع اختيارهم عليها. واصطحبتهم أنا وصديقي أحمد رشاد في تلك الجولة التفقدية التعريفية. ومن المؤسف أن هؤلاء هم الطلبة الذين سعى رشاد لاحقا إلي تدمير فرصتهم، وإثارة السخط في نفوسهم،

وحرضهم علي رفض مواصلة التدريب في الأقسام التي اختاروها. ثم غرر بهم بمساعدة ابن اخته اللئيم **علي سلطان** وحثهم علي اتمام دراستهم في بلدان عديدة من دول الكتلة الشرقية. [5] وصار معظمهم نماذج للفشل في حياتهم. نجح واحد أو اثنان منهم في شق طريقهما بشكل أو بآخر في بلد مشرقي. وصار كثير منهم من الرعاع أتباع بابو. ولم يحصدوا غير خيبة الأمل حينما وصل بابو وعلي سلطان إلي السلطة، وألقوا بهم في سلة النفايات.

ولم يستبد بنا القلق في البداية تجاه هذه النكسة المؤقتة التي أصيب بها مشروع التعاون التعليمي مع مصر. فلقد كانت علاقتنا مع مصر قائمة علي أساس متين. وأنشأ الحزب الوطني في مقره المهيب في داراجاني مركزا طبيا. ومنحه الدكتور عبده سلام كريم اهتمامه. وأمدتنا مؤسسة الأدوية التي كان يرأسها بأكثر مما كنا بحاجة إليه من المستلزمات الطبية علي الدوام. وحدث يوما عجز في المضادات الحيوية بمستشفي زنجبار الحكومي، غطيناه من مخزوننا.

---

[5] يعترف علي سلطان في مذكراته الصادرة في 2009 أنه أرسل الطلاب من القاهرة بناء على قرار منظمة الشيوعية الدولية بدعوة شباب زنجبار للدراسة في الجامعات الشيوعية لتدريب قادة المستقبل.

المصدر:

"Race, Revolution, and the Struggle for Human Rights in Zanzibar", The Memoirs of Ali Sultan Issa and Seif Sharif Hamad by G. Thomas Burgess, Ohio University Press page 65 – محمد البرواني

وأدار **متطوعون المركز الطبي للحزب الوطني** بالكامل. فكان يفتح أبوابه ظهرا. ويناوب فيه الطبيب **سلطان المرعشي**، والمرحوم الطبيب سعيد عبود طاهر. أما طاقم التمريض **فضم**: علي مكه وجمعه دوجودوجو. وتبع المركز الطبي **اللجنة الإجتماعية** التابعة للحزب، المكونة بدورها من عمال متطوعين، يرعون المرضى، ويسيرون عربة إسعاف لنقل المرضى إلي المركز الطبي، أو إلي المستشفي المركزي عند اللزوم، فضلا عن ضمان نقل الموتى بكل كرامه إلي مثواهم، مع توفير الحزب كل متطلبات الجنازة.

ووفر الحزب خدمة علي مدار الساعة لنقل المرضى إلي المستشفي ونقل الموتى من المستشفي إلي بيوتهم مهما نأت لتخرج جنازتهم منها. ووفرت اللجنة الإجتماعية عاملين لمساعدة المحتاجين بكل السبل الممكنة، بما في ذلك تجهيز قائمة بالمستعدين للتبرع بالدم الذين يمكن استدعاؤهم إلي المستشفي في أي وقت عند اللزوم.

كما كانت تلك اللجنة **تجمع تبرعات لإعادة بناء منازل أية قرية** يعصف بها حريق. وساهم الحزب عبر العمل التطوعي في بناء **طرق موصلة لمناطق** نائية، مثل الطريق الموصل إلي نونجوي، والطريق الموصل إلي ماتيموي، **والجسر الواصل** إلي جزيرة أوزي من أونجوجاأكو، الذي أتاح إمكانية الوصول إلي تلك الجزيرة بالسيارة لأول مرة في التاريخ.

وفتح الحزب الوطني فصول **محو الأمية بشكل منتظم**، وقدم المعونات الطبية في حالات انتشار الأوبئة. وكانت حالة التأهب علي مدار الساعة قائمة في مقر الحزب في انتظار أي استغاثة،

والمتطوعون من اللجنة الإجتماعية علي أهبة الاستعداد لتلبية النداء. وكل هذه المعونات كانت تقدم مجانا ودون سؤال المستفيد عن انتمائه الحزبي أو دينه، أو طائفته. وإلي هذه الأنشطة، أكثر من أي سبب آخر، يعود الفضل في تعزيز مكانة الحزب الوطني باعتباره حزب الشعب.

ثالثا: تشكيل حزب شعب زنجبار وبيمبا

أول منصب وزاري تقلدته هو منصب **وزير التربية والشؤون الاجتماعية**. كان ذلك في عهد ما يسمى: "الحكومة المسؤولة". وفي تلك المرحلة كانت الأغلبية العظمى من أعضاء المجلس التشريعي، وليس كل أعضائه، منتخبين. فقط كانت قلة من الأعضاء يعينون، فضلا عن عضوية **ثلاثة** به بحكم مناصبهم هم: السكرتير الأول (أو المدني) الذي كان في المركز الثاني في هرم السلطة بعد المقيم البريطاني. والمدعي العام، والسكرتير المالي، وجميعهم من المغتربين البريطانيين. وكان السكرتير المدني مسؤولا عن الأمن والخدمة المدنية. واحتفظت بريطانيا بالدفاع والشؤون الخارجية، عبر المقيم البريطاني والحكومة البريطانية.

وقصارى القول، أننا معشر الوزراء المنتخبون لم تكن لنا ولاية بالمرة فيما يتعلق بالشؤون الخارجية والأمن الداخلي والخارجي والشؤون المالية والقانونية. وكان رئيس حكومتنا المنتخب يسمى الوزير الأول. ونجحنا في التغلب علي معارضة حزب الأفروشيرازي وشكلنا الحكومة بعد أن انشق فصيل من ذلك الحزب بزعامة محمد شامتي و وعلي شريف، وكونوا ما أسموه: **حزب شعب زنجبار وبيمبا**، المماثل في سياسته وأهدافه لسياسة

وأهداف الحزب الوطني. فهو حزب وطني التوجه، معادي للعنصرية والاستعمار. وجذب ذلك الحزب معظم أعضاء الجمعية الشيرازية القديمة، خاصة أعضاؤها في بيمبا التي كانت معقل قوتها فيما سلف. ولقد كان أغلبية الشيرازيين في بيمبا وشمال زنجبار بين مؤيد للحزب الوطني ومنتمي إليه. وباتوا يمثلون الأغلبية العظمى من أعضائه.

وتشكل حزب شعب زنجبار وبيمبا في أواخر عام 1959 بعد طرد زعيم شيرازي جليل هو الشيخ عمير تاجو من حزب الإفروشيرازي، وتشهير عبيد كارومي به. وكان هذا الشيخ هو أكبر عضو إفريقي بالمجلس التشريعي ورجل دين بارز.

أما عن السبب في طرده من الحزب الذي أسسه هو وكارومي برعاية نيريري، فهو أنه حرر توصية لصالح **الاتحاد الاجتماعي للشباب الإفريقي** للحصول علي معونة مالية من فاعل الخير كريمجي لتشييد مبنى لناديهم. وكان ذلك الاتحاد مكونا من شبان أفارقة متعلمون، وهؤلاء هم أعدى أعداء كارومي. وتمثل رد فعل العناصر المحترمة في حزب الإفروشيرازي علي الإهانة التي تعرض لها عمير تاجو، في الانسحاب من الحزب، قبل أن يحل بهم ما حل به

رابعا: تلفيقات في مواجهة الحقائق

علي النقيض من مزاعم بابو التي ظهرت لأول مرة في أحد أعداد مجلة (**أفريكا إفينتز: أحداث إفريقيا**) ثم أعيد نشرها في كتاب

يسمى "**زنجبار تحت الحكم الاستعماري**"[6]، أن الانشقاق الذي تعرض له حزب الإفروشيرازي حدث "**بعد أسابيع قليلة فقط**" من التوصل إلي اتفاق أكرا بين الحزبين الوطني الزنجباري والإفروشيرازي، علي عدم **مساندة أي جماعة تنشق** عن أحدهما **فيما لوحدث** ذلك بسبب هذا التفاهم.

والحقيقة التي أعلنها بابو نفسه مرارا وتكرارا، أن حزب شعب زنجبار وبيمبا انشق بعد اتفاق أكرا **بعامين كاملين**. فالتفاهم بين الحزبين، والذي يضخمه بابو ويسميه بالمصطلح الرنان "**إعلان أكرا**" تم التوصل إليه في ديسمبر 1957 أما الانشقاق فوقع في أواخر 1959. ولم يأتلف الحزب الوطني مع حزب الشعب إلا بعد مرور عامين آخرين، أي عام 1961.

وبلغة أخرى، فإن بابو يبالغ في تصوير الاتفاق الشفوي الذي تم بين كارومي من جهة، وأنا وبابو من جهة أخرى علي مشهد من كوامي نكروما، ويصفه بإعلان أكرا، ويهون من شأن الفترة التي مرت بين هذا التفاهم وبين بداية التحالف بين الحزب الوطني وحزب الشعب، فيختزلها من فترة امتدت من عام 1957 حتى عام 1961، إلي "**مجرد أسابيع قلائل**" وهذا تحريف صارخ حتى بلغة الصحافة المتساهلة.

وعلاوة علي ذلك، فإن الانشقاق لم يكن سببه، حين حدث بأي حال، موافقة حزب الإفروشيرازي علي الإنضمام للنضال ضد الاستعمار، وأن ذلك هو ما كان كارومي يخشاه، وفق ما يقوله

---

[6] الكتاب المشار إليه حرره عبدالشريف وإيد فرجسون. وهذه المزاعم منشورة به ص 220-249.

بابو مرارا وتكرارا. والحق أن كارومي كانت فرائصه ترتعد من العناصر الأكثر فاشية في حزبه بقيادة جمال نصيب. إلا أن التهديد من جانب هؤلاء لم يتجسد في أرض الواقع. وعلي النقيض من ذلك، فإن كارومي نفسه هو الذي تسبب بعد عامين من التوصل إلي ذلك التفاهم، في الانشقاق الذي وقع في صفوف حزبه، ليس بطرد عمير تاجو فحسب، بل بانخراطه شخصيا بالكامل هو وحزبه في حملة تشهير ضد ذلك الشيخ المسن.

وامتنعوا بسبب هذه الحملة من حضور اجتماعات **لجنة التنسيق من أجل الحرية** التي كان من المقرر عقدها بشكل دوري في مقري الحزبين بالتناوب. وذهبنا مرارا إلي مقر حزب الإفروشيرازي في كيجانجواني، فقط ليقال لنا أن كارومي وثابت كومبو خرجوا في حملة ضد عمير تاجو.

ولما نفذ صبري، قمت بزيارة إلي دارالسلام لأطلب من **نيريري**، بوصفه راعي حزب الإفروشيرازي ومختلقه، التدخل وحث كارومي علي العودة إلي رشده. فلقد كان الوقت يمر بسرعة، ولجنة الحرية مهددة بالتفكك مالم نلتقي ونواصل مهامنا النضالية. قلت لنيريري الذي ساعدني عباس سايكس علي الاجتماع معه بعد مراوغة وجهد جهيد، أنه كلما تمادى حزب الإفروشيرازي في كيل الشتائم لعمير تاجو، كلما عزز من مكانته. والحل الأمثل هو تجاهله. وإني لأتذكر الخطأ الذي وقع الحزب الوطني الزنجباري فه بالتركيز علي الحط من قدر كارومي في أوائل عهده بالوجود.

اتفق نيريري معي في الرأي وأصدر تعليماته إلي بوكي مونانكا بوصفه السكرتير العام لمنظمة حرية عموم شرق ووسط إفريقيا (**بافميكا**) بأن ينصح **كارومي بما ينبغي عليه فعله**. وكنا قد

عثرنا علي نيريري في فندق نيوأفريكا. ولا أعلم ماذا فعل بوكي، ولكن **كارومي لم يوقف حملته ضد تاجو**. وشيئا فشيئا أدركت العناصر الجيدة في الطائفة الشيرازية الخطأ الذي اقترفته بالسماح لنفسها بوضع يدها في يد دهماء حزب الأفروشيرازي. واختارت تلك العناصر الانسحاب منه.

وفي انتخابات يناير 1961 فاز حزب الإفروشيرازي بعشرة مقاعد، بينما حصل الحزب الوطني علي تسعة مقاعد، وحصل حزب الشعب علي ثلاثة مقاعد. وافق حزب الشعب علي تشكيل حكومة ائتلافية مع الحزب الوطني، ولكن **علي شريف** أحد الفائزين الثلاثة عن حزب الشعب انشق عليه في اللحظة الأخيرة مستسلما لضغوط من أخيه الأصغر المتآمر **عثمان شريف**.

ويقال أن عثمان تلقى رشوة كبيرة من مجموعة أنصار حزب الإفروشيرازي الهنود، وفي مقدمتهم **ف. س. باتيل**، و**رستم سيدوا** و**غلام حسين اسماعيل**. وهؤلاء الثلاثة كانوا هم قمة جبل الجليد الظاهرة من كبار المرابين الرأسماليين، التي كانت تتلاعب بقطاعات معينة من القيادات الإفريقية. ورفض محمد شامتي ما عرضه حزب الإفروشيرازي عليه من مال ومن مكاسب سياسية. ونبذ الرجل النفعية العابرة، واختار الحق الأخلاقي الباقي.

ولم نبذل أية محاولة من عام 1959 حتى انتخابات يناير 1961 للتحالف، أو حتى للتعاون، مع حزب الشعب. وكنا حزبين منفصلين تماما رغم تقديرنا لسياسة حزب الشعب وبرنامجه. وحين وصلت نتائج الانتخابات بنا إلي طريق مسدود، دعا المقيم البريطاني جورج مورينج كارومي أولا بوصفه زعيم الحزب الحاصل علي العدد الأكبر من المقاعد لتشكيل الحكومة فيما لو

استطاع البرهنة علي تأمين أغلبية مقاعد المجلس التشريعي. وحينما فشل كارومي في الحصول علي موافقة حزب الشعب علي التحالف معه، وانتهت المدة المحددة له لتشكيل الحكومة، طلب المقيم البريطاني مني بوصفي زعيم الحزب الحائز علي ثاني أكبر مجموعة من المقاعد تشكيل الوزارة إن استطعت تأمين الأغلبية. وأخفقت أنا الآخر في تحقيق هذا المطلب.

ولنتذكر أن سبب المعضلة كان هو **عدد المقاعد**. ولم يجادل أحد في مسألة الحزب الحاصل علي أعلي عدد من أصوات الناخبين. وكان عمر حزب الشعب عامين. وقد خاض الانتخابات كحزب مستقل، وفاز بثلاثة مقاعد بالغة الحيوية، مما جعل كل من الحزبين الكبيرين تواقا للتحالف معه.

وعقدنا اجتماعين مع قيادة حزب الشعب، **أولهما** في تشاكيشاكي في بيمبا، **والآخر** في شنجاني بزنجبار. وشارك بابو الذي كان هو سكرتير عام الحزب الوطني مشاركة كاملة، في المفاوضات التي جرت فيهما الرامية إلي إقناع ذلك الحزب بالدخول معنا في حكومة ائتلافية.

فكيف في ضوء هذا كله يستطيع بابو أن يزعم أن الحزب الوطني ساند حزب الشعب حين انشق علي حزب الإفروشيرازي "**في غضون أسابيع معدودات من التوصل إلي إعلان أكرا**"، بينما كان هو كسكرتير للحزب الوطني خارج البلاد؟

وصلنا إلي طريق مسدود. بحوزة حزب الإفروشيرازي أحد عشر مقعدا. ومع حزبنا أحد عشر مقعدا. وفقدنا مقعد تشاكيشاكي في بيمبا الذي كان الدكتور باعلوي ينافس عليه، بصوت واحد.

وكانت النتيجة بالمختصر المفيد أنه لا مفر من إجراء انتخابات أخرى في غضون ستة أشهر. وكان من اللازم في ذات الوقت تشكيل حكومة تصريف أعمال مؤقتة يترأسها السكرتير المدنى البريطاني. واقترحت أن يترأسها أحمد لاكا بوصفه شخصية زنجبارية غير حزبية مرموقة ومقتدرة، ولكن كارومي رفض هذا الحل. وخصص منصبين وزاريين لحزبنا ومثلهما للحزب الإفروشيرازي. وتوليت الوزارة الأثيرة علي نفسي: **وزارة التربية والتعليم**.

وزيد عدد مقاعد المجلس التشريعي المتنافس عليه إلي رقم وتري هو **23 مقعدا**، تحاشيا للوصول مرة أخرى إلي مثل هذا المأزق. وتمت زيادة عدد المقاعد وتحديد الدوائر الانتخابية، وإدخال ما يلزم من تعديلات علي حدودها بالإتفاق المشترك بين الأحزاب، أو بالأحرى، **بالاستجابة للمماحكات والمطالب المملة لممثلي حزب الإفروشيرازي الذين كانوا مضرب المثل في الوسوسة بأشد التفاصيل تفاهة وسخافة والإصرار عليها**.

ومن ذلك الحين فصاعدا توثقت عرى التحالف بين الحزب الوطني وحزب الشعب إلي حد اعتبارهما بمثابة **حزب واحد**. فكنا نعقد مؤتمرات شعبية مشتركة، ونقوم بحملة انتخابية مشتركة، ونتشارك في أرصدتها، ونعمل معا يدا واحدة. وبات من المفروغ منه بالتالي أننا قد تعزز وضعنا، وسنفوز في الانتخابات.

وانطلاقا من إدراك حزب الإفروشيرازي لهذه الحقيقة، فإنه بذل قصارى جهده لمنع أنصارنا من الإدلاء بأصواتهم. وكانوا يتحرشون بهم وهم أمام لجان الانتخابات في انتظار الإدلاء

بأصواتهم، ويضربونهم زاعمين أنهم لا يحق لهم المشاركة في الانتخابات.

وكان عصابة دهماء حزب الأفروشيرازي، والكثير منهم مرتزقة أوتي بهم من تنجانيقا لهذا الغرض، يلقون الحجارة علي الناخبين المنتظرين، بل كانوا يقتحمون البيوت ويهاجمون العائلات وينهبونها. وبدأت تلك القلاقل في مركزي الاقتراع في داراجاني ورحاليو، ثم انتشرت في بقية أرجاء الريف. وحين وصلت أعمال الشغب إلي ذروتها ظهر ذلك اليوم، اتصلت **هاتفيا بالمقيم البريطاني** وطلبت منه الأمر بإيقاف عملية الاقتراع، حيث بات من غير العملي مواصلتها. ولكنه رفض مطلبي. وعلي الرغم من كل ما ارتكبه حزب الإفروشيرازي من ترويع وأعمال عنف، فاز حزبنا **بثلاثة عشر** مقعدا مقابل **عشر** مقاعد لذلك الحزب.

إلا أن أعمال القتل استمرت عدة أيام، خاصة في المناطق الريفية. ولقي **ثمانية وستين** شخصا حتفهم، وجرى التمثيل بجثث الكثيرين منهم، وشرد **المئات**. واستقبلت مدرسة أغاخان والمدرسة السنية في مكونازيني وعدد من المنازل الخاصة أسرا نزحت من المناطق التي يهيمن عليها ذلك الحزب، واتخذت منها ملاذا آمنا. وقام القطاع النسوي واللجنة الإجتماعية بالحزب الوطني بأعمال بالغة الروعة في رعاية أولئك اللاجئين علي مدى عدة شهور، إلي أن تمكنوا من العودة إلي ديارهم.

وتم استعادة السلام مع وصول قوات شبه عسكرية من كينيا. حقيقة أننا فزنا في الانتخابات ولكننا فقدنا ثمانية وستينا شخصا، فضلا عن **إصابة المئات**، وأضرار مادية تفوق الوصف. والأسوأ من هذا كله أن العلاقات الإنسانية بيننا صارت أسوأ مما كانت

عليه. ثم جاءت المهزلة القانونية التي زادت الطين بلة، وأرست حجر الأساس للمأساة المروعة التي كانت خيوطها تنسج لإخراجها إلي أرض الواقع بعد عامين ونصف من تلك البدايات.

حقيقة أن السلطات ألقت **القبض علي عدد كبير من المشتبه فيهم وقدمتهم للمحاكمة**. ولكن المحكمة أخلت سبيلهم جميعا عدا **شخص واحد**، وبرأتهم من جريمة القتل. فما سر ذلك؟ لقد قتل **ثمانية وستون آدميا كل علي حدة**. ومعظمهم قتلوا في بيوتهم، وليس في شجار حاشد يصعب فيه الجزم بمن قتل من؟ واستمر مسلسل القتل الأحمق عدة أيام، جهارا وليس خلسة.

ومن الأمور ذات المغزى المهم أن الرجل الذي عينته السلطات البريطانية للتحقيق في هذه الجرائم هو **ايدنجتون كيساسي** مفتش الشرطة الذي كان ممن لا يخفون تعاطفهم مع حزب الإفروشيرازي. ورأي كثير من المهاجرين الأفارقة في هذا الحزب العنصري، التكئة التي يستندون عليها في تكريس هويتهم.

و كيساسي هذا مهاجر، جلبه إلي زنجبار وهو شاب يافع قبل ذلك بسنوات معدودات، صديقه الشخصي الرقيب ثورن رئيس فرع العمليات الخاصة، وعمل في البداية كاتبا بهيئة الاتصالات السلكية واللاسلكية، ثم انتظم في سلك الشرطة. وكافأته ثورة 1964 بتعيينه رئيسا لجهاز الشرطة، فضلا عن مزرعة كبيرة. وترك هذا كله وكل ما ارتكبته يداه من مظالم، ولقي حتفه بجلطة مقعدة.

والشئ بالشئ يذكر. ففي قضية" **إثارة الفتنة**" التي رفعت ضد صحيفة **الفلق ولجنة الجمعية العربية**، اسندت السلطات

البريطانية مهمة الادعاء إلي **بيلي ميرفي** المدعي العام ومستشار الملكة، يعاونه فيها **رئيس هيئة الإدعاء** الذي استدعي من تنجانيقا لهذا الغرض. واعتبرت السلطات البريطانية تلك المسماة بقضية "إثارة الفتنة"من الخطورة بمكان بحيث سوغت لها اسناد مهمة التحقيق فيها لادعاء علي هذا المستوى الرفيع. أما مجرد مقتل **ثمانية وستين** آدميا، هم علي أية حال ينتمون إلي حزب يسعى إلي إنهاء الحكم الاستعماري، فيكفي أن يتولي الادعاء في قضيتهم مفتش شرطة في مستوى كيساسي.

ولنا في ضوء كل هذه الملابسات أن نحكم علي هشاشة معيار التحقيق الذي تم تطبيقه، ناهيك عن طريقة عرض القضية أمام المحكمة. فحتى المقيم البريطاني جورج مورينج ذهل من إخلاء المحكمة سبيل المتهمين بالجملة. وقال لي: " **لقد طلبت ملف خدمة كبير القضاة بالنيابة، لأرى ما إذا كان فيه ما يشير إلي تورطه بتسييس عمله القضائي بوظيفته السابقة في سيشل. ولو أنني تبينت وقوعه في شيء من هذا القبيل، لأبلغته للسلطات. ولكنني وجدت ملف خدمته نظيفا**".

وعلي أي حال فإن القاضي لا يستطيع أن يحق الحق بأي درجة تذكر، فيما لو عرضت عليه القضية علي نحو هزيل، ودون ادعاء وتحقيق جادين. فهو لا يستطيع أن يحكم إلا في ضوء **الأدلة والبينة** المقدمة له. إلا أن الشئ الوحيد المؤكد أنه لو كان بين القتلي مواطن أو مواطنين بريطانيين، لجاء فريق من كبار ضباط التحريات بشرطة سكوتلاند يارد للتحقيق في القضية، ولتوفر الدليل المادي المحدد بصرف النظر عن وجود شهود

عيان أم لا، ولتولي الادعاء المدعي العام بنفسه مع إمداده بالمزيد من العون القضائي من بريطانيا.

ويومها نطق سير جورج مورينج بنبوءته المشؤومة قائلا: "**لن ترى زنجبار السلام بعد اليوم**". ولم يكن الأمر يحتاج إلي نبوءة متنبئ علي أن مستقبلا مظلما ينتظرها. ومثل تأسيس منظمة عنصرية بما لا يحتمل أي لبس، في ذات اليوم، للمنافسة في انتخابات تجري علي أساس غير عرقي، **نهاية السلام والوئام في زنجبار**. فلقد كان حزب الإفروشيرازي لعنة من يوم مولده.

وبعد استعادة الأمن، تم تشكيل لجنة لتقصي الحقائق، جاء حكمها هو التبرئة بالزور والبهتان للجميع من المسؤولية عن تلك المجازر، فضلا عن نسبة السبب في الاضطرابات إلي ما أسمته: "**الملاسنات**".

وقالت اللجنة أن الحزب الوطني الزنجباري استخدم **الدين** في حملته الانتخابية، ووظف حزب الإفروشيرازي **العرق** فيها. وعلي فرض استخدام الدين في أوساط شعب أكثر من تسعين في المائة منه أتباع دين واحد، فإن ذلك لا يمكن باليقين أن يكون سببا في نشوب خصومة خطيرة بينهم، بل سيكون عامل توحيد لصفهم. أما العنصرية العرقية فيمكن بالقطع أن تكون سببا للشقاق، في بلد به مجموعات عرقية كبيرة وعديدة.

ولم تعر تلك اللجنة بالا لدلالة كون الضحايا جميعا من طرف واحد، علي أن مسؤولية تلك المذابح تقع بالمطلق علي كاهل حزب الإفروشيرازي الذي ينطق اسمه ذاته بعنصريته. فمن المستحيل منطقيا أن يكون الحزب الوطني وحزب الشعب

مسؤولين عن مقتل ما يزيد علي ستين شخصا من أعضائهما. وحين يتشاحن فريقان، وتكون كل الضحايا من أحدهما، فمن يكون القاتل؟ تجنبت اللجنة هذا الحكم الجلي.

ولا أعتزم هنا تفنيد أو فضح المزاعم الي وجهها العديد من الكتاب إلينا. فتلك المزاعم ترددت قبل أن تكشف الوقائع بذاتها عن حقيقتها. وصبت كل أجهزة الإعلام فيضا من المزاعم والإهانات علي رؤوسنا، منتهزة فرصة وجود كل من يستطيع أن يجلي الحقيقة بين الأموات، أو في غياهب السجون.

وتنافس كتاب منهم الجاد ومنهم الهازل في تبرير الجرائم التي ارتكبها المتمردون، إرضاء لحكام الأمر الواقع ولراعيهم المعلم نيريري. ووصمت تلك الحملة الدعائية الضحايا بأنهم **(عرب)**، وتلك وصمة عار تكفي لتبرير استئصال شأفتهم. وحاز كارومي المولود في الكونغو الموافقة علي اعتباره من أهل زنجبار، وجدير بالحلول محل السيد جمشيد سليل الجيل السادس من نسل السيد سعيد بن سلطان. بل كان الأزد أسلاف السيد سعيد بن سلطان في شرق إفريقيا علي مدى ما يربو علي ألف عام قبل أن تطأ أقدام أول مهاجر شيرازي أرضها.

وحتى إذا نحينا تلك الخلفية التاريخية جانبا، فإن العقود التي مرت منذ أن تولي أولئك الغاصبون مقاليد السلطة في البلاد جعلت من تسرعوا في حكمهم وكتبوا ضدنا يراجعون أنفسهم. فقائمة الجرائم والقتل الجماعي لأنصار الحزب الوطني وحزب الشعب، الذين لم يكونوا بأي حال عربا، بل لم تكن أكثريتهم من العرب، والتعذيب والقتل الذي طال رفاق كارومي في الجور أنفسهم، من أمثال

قاسم هانجا، وعثمان شريف، وعبد العزيز توالا، وجاها أبوا، وجيمي رنجو، وصالح سعدالله. والقائمة جد طويلة.

كل هذا، وغيره كثير، لابد أن يجعل من لفقوا التهم ضد الحزب الوطني وحزب الشعب يقولون: ياليتنا لم نكتب ما خطته أيدينا. فلقد عاث المخربون الذين تولوا مقاليد الأمور في البلاد فسادا. وشهدت زنجبار الزواج بالإكراه والاعتداء بالقوة علي شرف النساء والرجال بلا توقف، والمصادرة الجماعية للممتلكات، والتدمير الكامل للنظام التعليمي، وللنظام القضائي، وللخدمات الصحية. **ومزق هؤلاة الطغاة كل ما بناه السلاطين والبريطانيين من قبل أن تنكب البلاد بهم، كل ممزق.**

وتحت اسم لينين الشيوعي المتأله، تحللت **مستشفي كريمجي** التي بنتها أسرة زنجبارية فاعلة خير، لكل آدمي مريض بصرف النظر عن العرق أو القومية أو الدين، وأصابها **العفن** بالمعنى الحرفي للكلمة. وسقطت زنجبار وتنجانيقا في وهدة قاع الفقر والتخلف. أليس من غير المعقول تكبد مثل هذا الثمن الباهظ لمجرد إشباع الرغبة في "**استئصال شأفة العرب؟**"

هذا هو منطق **العنصرية. فالعنصري يستهدف كل الأعراق الأخرى.** فما أن فرق كارومي شمل العرب، حتى تفرغ لصب جام غضبه علي **الشيرازيين**، الذين وصل علي أكتافهم إلي السلطة. فحظر استخدام اسم: **شيرازي**، رغم أن حزبه ذاته ظل يسمى حزب **الإفروشيرازي**. ولأن جزيرة بيمبا كانت بكاملها علي وجه التقريب من أنصار الحزب الوطني وحزب الشعب، فإن كارومي وخلفاءه استهدفوها، وأوصلوها إلي حالة يرثى لها. ونفث كارومي سخائم حقده علي رؤوس القمريين. وأعلن أنهم ليسوا مواطنين،

وطـرد الكثيـرين مـنهم مـن زنجبـار. وشـمل الطـرد أناسـا مـنهم كـانوا مـوظفين بالسـلك المـدني، بـل كـان مـن بيـنهم وزراء. **فلقـد حكـم كارومي بالهوى وبالمتناقضات.**

خامسا: القمريون في زنجبار

جـاء حـين مـن الـدهر لـم يكـن أبنـاء جـزر القمـر، يصـيرون فيـه زنجبـاريين بمجـرد المولـد، ولا حتـى بـالتجنس، مـا لـم يحصـلوا علـي موافقـة فرنسـية صـريحة، باعتبـار أنهـم وفـق القـوانين التـي كانـت سـارية، رعايـا فرنسـيين. وضـايقني هـذا الوضـع الشـاذ بشـدة حـين عجـز زميـل دراسـتي وصـديقي **محمـد برهـان المكـلا** عـن الإلتحـاق بالكليـة معـي لكونـه لـيس زنجباريـا مـن الوجهـة القانونيـة، رغـم أنـه هـو ووالـده مـن قبلـه مـن مواليـدها. فهـو مسـجل علـي أنـه قمـري، وبـذا فهـو فرنسـي الجنسـية. وكـان مـن بـين أهـم المهـام التـي مـن أجلهـا دخلـت المجلـس التشـريعي فـي أوائـل الخمسـينيات، القيـام بحملـة ضـد هـذا التشـريع، الـذي خولـت حكومـات غربيـة نفسـها بموجبـه "**حقـوق التميز الإقليمي** "، وبالأحرى في **زنجبار**.

فكـان مرسـوم الجنسـية والتجـنس الزنجبـاري تشـريعا مـن نوعيـة تجعلـه لا ينطبـق علـي مـواطني بلـدان محـددة مـذكورة فيـه، تشـمل عمليـا كـل البلـدان الغربيـة. ومنـذ إعـلان الحمايـة البريطانيـة علـي زنجبـار، تخلـت بريطانيـا عـن حقوقهـا فـي "**التميـز الإقليمـي**"، بحكـم أن زنجبار صارت بكاملها تحت الاختصاص البريطاني الشامل.

وتـأثرت الطائفـة القمريـة أكثـر مـن أي طائفـة أخـرى بهـذا التحـول. طرحـت هـذه القضـية فـي جريـدة المرشـد، وفـي المجلـس التشـريعي، بتعـاون وثيـق مـع الشـيخ إبـوني صـالح، أحـد أبـرز القـادة القمـريين.

وأسسـت حجتـي علـي الإعـلان العـالمي لحقـوق الإنسـان الصـادر عـن الجمعيـة العامـة للأمـم المتحـدة، والـذي يخـول كـل **إنسـان الحـق في تغيير جنسيته.**

وتمكنـت بـذلك فـي البدايـة مـن إقنـاع الحكومـة البريطانيـة بمنطقيـة حجتـي، فقامـت بـدورها بإقنـاع حكومـات الـدول الأخـرى المدرجـة ضـمن ذلـك التشـريع، بـالتخلي عـن حقـوقهم فـي التميـز الإقليمـي، الـذي فـات أوانـه، والـذي أحكمـوا بـه قبضـتهم علـي رعايـاهم، حتـى لـو كـانوا هـم وآبـاؤهم وجـدودهم مـن مواليـد زنجبـار. وهكـذا حسـمت هـذه المسـألة وأغلـق **ملفهـا قبـل حصـول زنجبـار علـي الإسـتقلال**، بـل حتى قبل احتدام العمل السياسي الحزبي في زنجبار عام 1957.

وبـذا أصـبح كـل القمـريين المولـودين فـي زنجبـار مـواطنين بالمولـد بشـكل تلقـائي، ولـيس مـن حـق أحـد أن ينـزع جنسـيتهم مـنهم. كمـا صـار بمقـدور مـن ولـدوا خـارج زنجبـار أن يحصـلوا علـي جنسـيتها، فيمـا لـو أقـاموا فيهـا خمـس سـنوات متواصـلة، وطلبـوا الجنسـية. وتأسيسـا علـي ذلـك قـدم قمريـون أجانـب طلبـات تجـنس، وحصـلوا علي الجنسية بالفعل. **إلا أن كارومي تجاهل هذا كله.**

وباسـتثناء تلـك الحالـة الاسـتثنائية الطارئـة، التـي تعـود إلـي العهـد الاسـتعماري، والتـي تـم الـتخلص منهـا، لا يوجـد أي فـرق بـين الزنجبـاري والقمـري، فهـم شـعب واحـد عرقيـا وثقافيـا. ولـم يعـرف التـاريخ الزنجبـاري حالـة واحـدة لـم يقـم القمريـون فيهـا بـدور مشـرف. فلقـد لعـب أبنـاء جـزر القمـر دورا مهمـا فـي نشـر المعرفـة **الدينيـة والدنيويـة**، لـيس فـي زنجبـار وحـدها، بـل فـي كـل ربـوع شـرق إفريقيـا. ولمـع اسـم السـيد أحمـد بـن سـميط وابنـه الحبيـب عمـر، كـالنجوم بـين أسـماء علمـاء شـرق إفريقيـا. وهمـا قمريـان بالمولـد، زنجباريـان

بالتجنس والمشاعر. ويصدق ذلك علي قائمة طويلة يصعب حصرها، منهم **السادة المشايخ:** محمد المروني، وأحمد ملومري، وبرهان المكلا، والسيد أحمد بن حسين، وعبد الرحيم بن عبد الرحمن.

وبرهن القمريون علي استعدادهم، شأنهم شأن الأعراق الأخرى كافة، للتضحية بأرواحهم لنشر السلام والتعاضد في البر الإفريقي، والنضال من أجل حفظ كرامة زنجبار ووحدة شرق إفريقيا. وتوفي السيد السمار البوسعيدي جد السلطانة نونو، وآدم مبامبا القمري جنبا إلي جنب مكللين بالفخار في ساحة الوغى بكينيا. وكان الشخص الثاني في قيادة القوات بعد بشير في الجهاد ضد المستعمرين الألمان هو موبني هازي القمري. ولم يتقاعس القمريون عن القيام بواجبهم ومسؤولياتهم خلال الحربين العالميتين.

ولم يخدموا هؤلاء الأعلام زنجبار بصفتهم قمريين، بل من منطلق كونهم مواطنين زنجباريين. ولما نادى المنادي داعيا لتوحيد القوى في النضال من أجل الاستقلال، لم يتخلف القمريون الزنجباريون عن أية طائفة أخرى في تلبيته. وكانت قائمة طويلة منهم، من بينهم: حسن أمين، ومحمد أبوبكر، ومحمد عبود مكندا، وموسى لاشوكا، والسيدة زهرة بنت صالح، وبادي مزي، وسعاده وعلي جعفر، وصالح مبامبا، ومجيني علي، وعبود داهوما، مولد مشنجاما، في موقع الصدارة في تقديم الدعم السخي الخالص، للحزب الوطني الزنجباري، رائد استقلال زنجبار.

سادسا: يناير الأسود

راح حق التصويت في انتخابات عامة علي أساس غير عرقي، وحق الاجتماع وتشكيل الجمعيات، اللذين حصل عليهما كل أبناء زنجبار بعد كفاح مرير، أدراج الرياح، مع الإطاحة بحكومة زنجبار الشرعية في يناير 1964. وكانت تلك الحقوق الإنسانية الأساسية غير القابلة للتصرف، قد تم انتزاعها من بين أنياب معارضة مشتركة ومسعورة من جانب المستعمرين والأفروشيرازيين. وأعلن كارومي فور اغتصابه السلطة، أنه لن تجري انتخابات علي مدى **الخمسين سنة التالية**. وتساءل: "**ما الهدف الذي تريدون الانتخابات من أجله؟ أردتم أن يحكمكم أفريقي، وهاهو الآن يحكمكم. فما الداعي للإنتخابات؟**

ولعلنا نتساءل: ما الذي عاد علي أولئك الذين ناصروا تلك الطغمة من السفاحين في عملية تقويض القيم الراقية التي استغرق بناؤها قرونا، والتي كان تحالف الحزب الوطني وحزب الشعب، مهيئا للحفاظ عليها وإثرائها؟ لم **يجنوا شيئا غير المآسي** التي لا توصف، والتي لم تتنكب بها زنجبار وحدها، بل منطقة شرق إفريقيا برمتها. فلقد كان رائد هؤلاء هو **الانتهازية السياسية** وليس **الحق الأخلاقي**. وأسفر صنيعهم هذا عن **كارثة**. فهم كما قال لي أحمد رشاد في القاهرة: "**ركبوا الجواد الخاسر**"، جواد الانتهازية التي لاخلاق لها، والتي لا تثمر غير تأجيج الصراعات.

ويبدو الزعم بأن حزب الأفروشيرازي قد حرم بإصرار من تشكيل الحكومة رغم فوزه بأغلبية الأصوات، مقولة جوفاء، في ضوء حقيقة أنه رفض علي مدى ثلاثة عقود من وصوله إلي السلطة بوسائل دموية، إجراء انتخابات من أي نوع كانت. وحتى حينما

أجرى انتخابات وخسرها، حال دون تمكين منافسيه المنتصرين فيها من تولي مقاليد السلطة.

سابعا: المحرقة

كانت اضطرابات 1961 بمثابة **التجربة النهائية** لسيناريو المحرقة المخطط للقيام بها لاحقا عام 1964 التي ذبح الغوغاء بقيادة المرتزقة فيها، وفق ما ذكره جون أوكيلو، **إثنا عشر ألف آدمي**.

أما حجر الأساس لتلك المجزرة، فيعود تاريخ وضعه إلي عام 1957، حين شكلت الجمعية الشيرازية والجمعية الإفريقية: **حزب الإفروشيرازي**، بريادة وتوجيه جوليوس نيريري.

تلقيت مساء يوم الجمعة التاسع من يناير 1964، بعد حصولنا علي الاستقلال بشهر واحد، مكالمة من محمد شامتي رئيس الوزراء بالذهاب لمقابلته علي جناح السرعة. وقال لي أنه تلقى معلومات مؤكدة تفيد أن حزب الأفروشيرازي المعارض، سيثير أعمال شغب مساء غد السبت. ولم يكن في حدود المعلومات التي توفرت لديه، علي يقين بخصوص **نوع تلك القلائل أو مداها**، ولكنه كان يرجح أنها قد تكون تكرارا لما فعله ذلك الحزب عام 1961، حيث قتل ثمانية وستين، وأصيب المئات بعاهات مستديمة. وقال رئيس الوزراء أنه أعطى أوامر بالفعل لسوليفان قائد الشرطة الإنجليزي بوضع قواته في حالة تأهب.

وكان رئيس الوزراء علي قناعة بأن الشرطة ستقوم بما فيه الكفاية فيما يتعلق بالمحافظة علي الأمن والنظام في المدينة. أما بالنسبة للمناطق الريفية فيجب أن نجهز رجالنا فيها لمواجهة أية طوارئ.

وطلب مني أن أنقل هذا التحذير إلي المعنيين لاتخاذ الاحتياطات الضرورية. وكان رئيس الوزراء يعلم أننا أنشأنا **لجنة أمنية** تابعة للحزب بعد أحداث عام 1961 ولدينا **خطط طوارئ معينة** للتعامل مع مثل تلك المواقف. ولم أكن عضوا بتلك اللجنة.

وفور عودتي من بيت رئيس الوزراء قابلت ابن أخي محسن محمد، وطلبت منه أن يأتيني علي الفور **بمحمد عبود مكاندا سكرتير اللجنة الأمنية**. ولما جاء مكاندا كلفته بتبليغ تلك الرسالة لرجالنا في كل أرجاء الجزيرة. ووفق الخطة، كان علي من يقيمون في مناطق معزولة أن يجمعوا أسرهم في مساكن حصينة يحرسها مسلحون، في حالات الأزمات. وقبل الفجر جاء مكاندا إلي منزلي وسيارته مغطاه بالندى، وأبلغني أن كل رجالنا من الشمال إلي الجنوب قد تم تبليغهم علي الوجه المطلوب. وكان برفقته عبدالله علي، الشهير بعبدالله بابا، ومحسن بدر، ومنصور محمد. وفي ظهر اليوم التالي وبعد ساعات الدوام تفقدت العديد من القرى للتأكد من أنها علي أهبة الاستعداد. ووجدت الحال علي ما يرام في كل المواقع التي زرتها.

وفي المقابل، فإنه رغم أن رئيس الوزراء أعطى بما له من صلاحيات **تعليمات محددة لقائد الشرطة**، فإننا لم نكن مطمئنين تماما. وكان من عادتنا في الأمور المتعلقة بالأمن أن نتصل بعناصر أخرى بالشرطة نثق في ولائها. وحاول مكاندا وحاجي حسين وإبوني صالح، كما حاولت أنا، دون جدوى، الاتصال **بسليمان سعيد الخروصي** نائب قائد الشرطة، أو مزي مبابا الضابط رفيع المستوى، أو محمد السكيتي أحد كبار ضباط

الشرطة. لم نتمكن من الاتصال بأي من هؤلاء الضباط الموثوق بهم. **فلقد كانوا جميعا خارج المدينة.**

وبدأ الشك يتسلل إلي عقولنا، في احتمال أن يكون التقرير الذي تلقاه رئيس الوزراء مجرد خدعة. فإشاعة حدوث أعمال شغب وشيكة باتت منتشرة في كل مكان. فكيف يمكن أن يختار كل أولئك الضباط الكبار الذين وضعنا فيهم كل ثقتنا، ليس بسبب ولائهم فحسب، بل بسبب كفاءتهم الثابتة، أخذ أجازة في تلك المناسبة الخاصة، للترويح عن أنفسهم في نجوع الريف؟ ألم يسمعوا بتلك الإشاعة؟ بل كيف يمكن تصور أن مثل هذا الخبر لم يأتنا من بادئ الأمر من أولئك الذين من واجبهم جمع المعلومات الاستخبارية، أي من أجهزة الشرطة عامة، وفرع التحريات الخاص بالذات، وكذا من الإدارة المحلية التي كانت في هذه اللحظة من أدناها إلي قمتها في أيدي زنجباريين، لا مبرر لدينا علي الإطلاق للشك في ولائهم؟ فهم بمقتضى مناصبهم مسؤولون عن أن يعرفوا، وأن يجمعوا معلومات استخباراتية، ويرسلوا تقارير بشأن كل تلك المسائل إلي الوزراء المعنيين، أي في هذه الحالة إلي رئيس الوزراء ووزير الداخلية، ويوصوا بالإجراءات الواجب اتخاذها.

ولكن لا أحد من قوات الشرطة، ولا من موظفي الإدارة المحلية، قام بواجبه. وعلي العكس عرف الوزراء بأعمال الشغب المحتملة بشكل غير رسمي. وبات عليهم هم **أن ينقلوا تلك المعلومات إلي من كان من واجبهم أن يجمعوها ويبلغوها هم لهم.** وهكذا بات الوزراء الذين لا يختلفون بالطبع عن المواطن العادي فيما يتعلق بالمسائل الأمنية، يعطون التعليمات دون أية مشورة من مرؤسيهم

ومستشاريهم المحترفين الذين يتقاضون رواتب. **لم أصادف في حياتي موقفا هزليا إلي هذا الحد.** وهو موقف **يدعو للسخرية، لولا أنه كان مأسويا إلي أبلغ حد.**

وأيا كان نصوص الوثائق والقوانين، فإن حقيقة الواقع تؤكد أن مسؤولية ماحدث تقع علي كاهل المسؤولين البريطانيين والحكومة البريطانية في المقام الأول. فلقد كانت زنجبار خاضعة لحكم بريطاني مباشر من عام 1890 حتى التاسع من ديسمبر 1963. أليست فضيحة دولية أن يتعرض هذا البلد بعد شهر واحد من **(الرحيل البريطاني الصوري)** بعد أربع وسبعين سنة من الحكم البريطاني ؟

أقول **(الرحيل الصوري)**عن عمد، لأن حقيقة الواقع أن كل من رئيس جهاز الشرطة، وكذا رئيس الفرع الخاص الذي هو بمثابة جهاز المخابرات، ورئيس مصلحة السجون، ورئيس قوات الشرطة السيارة التي هي بمثابة شرطة عسكرية، كانوا لا يزالون بريطانيين. وبالإضافة إلي ذلك كان هناك عدد من كبار الضباط البريطانيين في جهاز الشرطة.

ووفق الخطوات الدستورية المعمول بها، فإن ساحة الأمن والدفاع كانت حرما **لا تطأه غير أقدام البيض حتى يوم استقلال زنجبار، قبل تلك الكارثة بشهر واحد.** وظلت ساحتي الأمن والدفاع، حتى بعد ذلك اليوم، مقصورة علي الموظفين البريطانيين. نعم كان من المفترض بحكم الدستور والقانون أنهم يتلقون الأوامر من الوزراء المنتخبين. **ولكن هل كان هذا هو ما يحدث في أرض الواقع؟**

لذا فإنني حينما أكد لي رئيس الوزراء أن كل شئ في المدينة سيسير علي ما يرام، حيث أنه أصدر تعليمات إلي القائد سوليفان، باتخاذ كافة الاحتياطات الضرورية، شعرت بقدر من الطمأنينة، ولكن مخاوفي لم تتبدد تماما. فالحقائق كما كشفت عنها التطورات اللاحقة، وكما عرفناها لاحقا، كانت مختلفة جملة وتفصيلا. سأل القائد سوليفان، **سبات** رئيس الفرع الخاص عن مدى صحة تلك الأنباء، فقال له أن هذه هي المزاعم المعتادة للحزب الوطني ضد حزب الأفروشيرازي. وهنا ترد **ثلاثة احتمالات** ليست جميعها في صالح **سوليفان** ولا هي في صالح **سبات** بوصفهما ضابطين مسؤولين عن الأمن.

الاحتمال الأول أن **سوليفان وسبات** لم يسمعا عن تلك الشائعات الواسعة الانتشار. فإن صح ذلك فإن معناه أنهما لايستحقان مركزيهما. والاحتمال الثاني **أنهما يعلمان بها، ولكنهما تآمرا مع المتمردين والمجرمين**، فهذا أدهي وأمر. وإن كانت الثالثة وهي أن طريقة تفكيرهم لم تتغير لتتوافق مع الوضع الجديد، ويعوا أن من يتلقون منهم التعليمات والأوامر الآن، هم السلطات القانونية والدستورية، وليس الحزب الوطني الذي اعتادوا علي اعتباره جمعا من "المهيجين المعادين لبريطانيا"، فإن معنى ذلك أنهم واصلوا اعتبار حزب الأفروشيرازي محبوبهم المدلل، واعتبار الحزب الوطني في وضعية المذنب. وهذا أيضا لا يضعهما في وضع مشرف.

وشهدت ثكنات زيواني حادثة كاشفة عن المستور. كانت تلك الثكنات هي مستودع أسلحة وذخيرة الشرطة الرئيس. وكان كل حارس من حراس تلك الثكنات مسلحا ببندقية ومزودا بخمس

طلقات. وقرابة منتصف الليل مر ضابط الشرطة البريطاني **دورهام**، وقام بتجميع الذخيرة من الحرس، ووضعها في سلة وأخذها معه. وبعد مغادرته **بدقائق تعرضت تلك الثكنات لهجوم بالبنادق والسهام.**

واجتاح المهاجمون **مستودع الأسلحة**. ولقي بعض الحراس الذين صارت بأيديهم بنادق بدون ذخيرة، مصرعهم. وهرب البعض الآخر إلي الأحراش المجاورة. وتلقيت تلك المعلومات من أحدهم لدى اعتقاله معي بسجن دودوما. كما تيقنت من صحة هذه الرواية من رجال شرطة آخرين كانوا بتلك الثكنات.

وخرج كل الضباط الإنجليز وأفراد عائلاتهم من زنجبار دون أن تمس شعرة من واحد منهم، بينما تعرض رجال الشرطة المحليون العزل للذبح. والحقيقة أنه علي مدى تلك الثورة التي ذبحت واغتصبت، وأصابت ألوف السود والسمر، بعاهات مستديمة، لم تمس شعرة من إنسان أبيض علي الإطلاق.

وبينما كنت أنا وشامتي وجمعه علاي، في نقطة شرطة مالينـدي قبل الفجر، قررنا بالتشاور مع القائد سوليفان طلب العون من القوات البريطانية المتمركزة آنذاك في كينيا. واتصلنا بكروسويث المفوض السامي البريطاني الجديد (وهو بدرجة سفير). قال: لا مانع. ولكن لابد من الحصول علي إذن من الدولة المضيفة، أي: من **كينيا**. اتصلت بجوزيف موروميي المسؤول عن الشؤون الخارجية في ذلك الوقت، والذي كان من أصدقائي المقربين. قال لي أن الرئيس كينياتا موجود في منزله الريفي في جاتوندو، وسيعود إلي نيروبي صباح اليوم التالي، وأضاف: "**وأنا علي يقين أنه سيوافق**".

عرضنا اقتراحا آخر علي كروسويث. قلت له أن هناك قوات بريطانية في **عدن**، وهي في حينها مستعمرة بريطانية. وبالتالي نتحاشى مسألة الحاجة إلي إذن الدولة المضيفة. رد كروسويث: "أين يمكن إنزال مثل تلك القوات؟ **المتمردون مسيطرون علي المطار**". قلت له: "يمكنهم إنزال قوات مظلات أولا، والسيطرة علي المطار. وقد لا يكونون بحاجة إلي النزول. فبمجرد توجيهكم إنذار بأنكم ستقصفون المطار من الجو، فإن كل المتمردين سيلقون أسلحتهم. وسيخلون المطار". رد بقوله: "**لا مناص من إذن الحكومة البريطانية**". قلت: "**إذن أنقل إليها طلبنا**".

رد بقوله: "اليوم عطلة نهاية الأسبوع. ولا يمكنني الاتصال بالحكومة البريطانية. وعلي أي حال، فأنا لن أوصيها بالموافقة، فأنتم حكومة أقلية. ولن أوصي حكومة جلالة الملكة بالتدخل في شؤون زنجبار الداخلية".

لم أستطع فهم ما عناه بحكومة أقلية. قلت له أن لدينا **ثمانية عشر** مقعدا من بين مقاعد المجلس التشريعي الواحد والثلاثين، مقابل **ثلاثة عشر** مقعدا للمعارضة. وأيا كان الأمر، فإن أناسا أبرياء يذبحون. ونحن أمام مسألة إنسانية، وليست دستورية، ونحن عضو بالكومنويلث".

صم أذنيه، ولم يتزحزح عن موقفه. كانت عقليته من ذات نوع العقلية الضيقة الأفق لعناصر أجنبية في الخدمة المدنية التي كنا علي خلاف معها. وددت لواستطعت أن أفهم الكيفية التي يفكر بها أناس من أمثال سترنجر وروبرتسون وكروسويث. فتلك الشخصيات كانت بالنسبة لي مستعصية علي الفهم. وربما كنت غبيا. فكروسويث جاء من حلف شمال الأطلسي وعاد إلي

وظيفته الأصلية به عقب الإطاحة بحكومة زنجبار. فما أن انتهت مهمته في زنجبار، حتى بات من المنطقي أن يعود إلي موضعه الحقيقي.

وبعد أسبوع واحد، أطاح الجيش بحكومة تنجانيقا. واختفي نيريري، وكل وزرائه، عدا أوسكار كامبونا وزير خارجيته. وأطلت **بارجة حربية بريطانية قبالة دارالسلام**. وقصفت ثكنات كاريتو وأنزلت مشاة البحرية، وجردت المتمردين من السلاح، وأعادت نيريري إلي سدة الحكم. ولم تستعفف بريطانيا عن التدخل في شؤون تنجانيقا الداخلية. وتكررت مواقف مماثلة في كينيا وأوغندا، أعيدت الأمور فيها جميعا إلي نصابها بالقوة البريطانية. **أما بالنسبة لزنجبار فلا**. ولم نكن نعرف آنئذ أن وحدات من البحرية البريطانية والأمريكية كانت مرابطة في مياه زنجبار الإقليمية. ولا يخفي الهدف علي أصحاب البصيرة.

ثامنا: سليمان سعيد الخروصي يدافع عن سمعتي

سليمان صديق طفولتي. تربينا في ذات الحي. ودرسنا في ذات المدرسة. وقضى معي سنة في ماكيريري قبل أن ينتقل إلي **مدرسة تدريب الشرطة** في كمبالا. وأحرز نجاحا باهرا في سلك الشرطة، وتدرج فيه حتى وصل لحظة حصول بلادنا علي الاستقلال إلي منصب **نائب قائد الشرطة**. وكان من المقرر أن يحل محل القائد الأجنبي سوليفان في سبتمبر 1964، **التاريخ المضروب لجعل جهاز الشرطة زنجباري بالكامل**.

كانت خطتنا تقضي بجعل جهاز الشرطة زنجباري محض قبل الاستقلال. إلا أن سليمان نصحنا في اجتماع جمعه بي أنا

والدكتور باعلوي وزير الصحة، والشيخ محمد ناصر اللمكي رئيس لجنة خدمات الشرطة، بالتريث، مصرا علي أنه يحتاج إلي عدة أشهر في منصبه قبل أن يتأهل لشغل منصب قائد الشرطة. ومن هنا كان تحديد تاريخ سبتمبر 1964 لتحقيق هذا الغرض.

كنا آنذاك في عهد ما يسمى "**الحكم الذاتي الداخلي** " وكنت وزير الشؤون الداخلية. ولم يكن بالشئ غير المعتاد أن تستبقي المستعمرات التي تمر بمرحلة انتقالية علي الطريق إلي الاستقلال، لفترة قصيرة أو طويلة خدمات عناصر من ضباط الأمن من نظام الحكم الاستعماري السابق. فثمة دول حديثة عهد بالاستقلال مثل تنجانيقا وكينيا وملاوي وأوغندا ظلت سنوات قبل أن تشعر بأنها قادرة علي إدارة شؤون الأمن والدفاع مستقلة عن حكامها الاستعماريين السابقين.

أما بالنسبة **لعناصر الشرطة الأفارقة**، التي كانت أغلبيتها من كينيا وتنجانيقا، فقد أعددنا ترتيبات كافية لنقلهم إلي بلادهم، مقابل استبدالهم بزنجباريين إن أمكن، أو منحهم تعويضات مالية مجزية لإنهاء خدمتهم، بذات الشروط التي تطبق علي المغتربين البريطانيين، في حالة عدم توفر إمكانية مقايضتهم. وإذا بنا كما حدث لاحقا نمطر بالنقد من معسكرين متضادين، مع الزعم بأن هذا التصرف وراء الإطاحة بحكومتنا. فلقد رأي البعض، ومنهم زنجباريون، أنه **كان ينبغي علينا أن نتخلص من كل عنصر أجنبي في جهاز الشرطة قبل أن نمسك بزمام الحكم بعد الاستقلال.**

وفي المقابل، زعم آخرون، خاصة من الكتاب الأجانب، أننا بالتسرع في جعل جهاز الشرطة زنجباري صرف، أثرنا حفيظة

عناصر الشرطة المدربة، واستبدلناهم بمجندين خام، وإن كانوا زنجباريين، مما تسبب في الثورة. وبتعبير آخر، أنه أيا كان التصرف الذي فعلناه، أو كان من الممكن أن نفعله، فإننا كنا سنعتبر مجانبين للصواب إما في نظر هذا الفريق أو في نظر الفريق الاخر.

ودخل سليمان سعيد معي السجن بعد الإطاحة بنا. وكنا مسجونين في السجن المركزي في قسمين مختلفين. وكان معه في القسم الذي هو فيه بعض من وصلت بهم الحماقة إلي حد تحميل الوزراء السابقين مسؤولية الورطة التي حلت بهم. ورأي هؤلاء أنه كان من مسؤولية الوزراء **التثبت من حماية الحكومة ضد الثورة.** اشتاط سليمان غضبا، وقال: "**ليس من حقكم نقد الوزراء. فلم يكن من واجب شامتي، ولا علي محسن، ولا أي وزير آخر، أن يحمي البلاد ضد التمرد. بل كانوا هم الذين يجب حمايتهم منه**".

ولو جاز توجيه اللوم لأحد، فإن عليكم أن تلومونا نحن، الشرطة. فنحن العناصر التي تدربت وقبضت رواتبها لكي تحافظ علي الأمن الداخلي، وتحمي السلطان والوزراء الممثلين للحكومة. ونحن، وليس الوزراء، الذين كان **بيدنا السلاح.** ومهمة الوزراء هي **رسم السياسة العامة وفق المشورة التي نقدمها لهم، ويتأكدوا من تطبيقها.** وعلي أي حال، فإنه كان من **واجب كل مواطن أن يحافظ علي الأمن.** ولا يزيد الواجب الملقي علي كاهل الوزراء عن الواجب الملقي علي أي مواطن منكم.

وأردف يقول: "لقد تقاعستم عن القيام بدوركم كمواطنين عاديين. ففي يوم التمرد أغلقت أنا والمفتش إدي (محمد علي) نقطة شرطة مويرا علي عدد يسير من رجال الشرطة، وأخذنا بنادقهم، وجئت

إليكم في كيأونجوني حيث كان هناك عدد من الرشاشات وبنادق الصيد. وناشدتكم أن تأتوا معي ويقودكم إدي. وكان بوسعنا أن نباغت كل المتمردين المتمركزين في رحاليو، وهم سكارى بالنصر. ونجردهم جميعا من أسلحتهم. رفضتم. كل منكم بلا استثناء رفض. وزعمتم أنكم تحمون بيوتكم وعائلاتكم. والآن، أنتم جميعا هنا بالسجن، وعائلاتكم وبيوتكم وأسلحتكم بيد السافحين خارجه. وتلومون الوزراء؟".

كلام قوي من رجل قوي. أسكتهم في تلك اللحظة. ولكن مثل هذه الأراجيف لم تتوقف حتى الآن، خاصة علي **ألسنة من كان بيدهم السلاح ولم يستخدموه**، ومن كان بيدهم السيوف، وسمحوا لأسرهم بأن تذبح بالمناجل. وكما يقول المثل السواحيلي: "**الفم بيت الكلمات**". ولم تتوقف أبدا مثل تلك **الأقاويل عن التدفق من بعض الأفواه علي مدى العقود التي تلت تلك الفاجعة.**

وتكرر في زنجبار عام 1964، نفس ما حدث في أواخر القرن التاسع عشر. تخلي عن البطل **بشير الحارثي**، رفاقه الأرستقراطيين، وهو في وضع حرج، بعد أن كانوا **قد أقسموا بالقرآن الكريم ليقاتلن معه حتى الشهادة، ضد المستعمرين الألمان.** وسرعان ما تصالح أولئك **الخونة مع الألماني المنتصر**، وصاروا عملاء له. وبالمثل، ظن بعض معاصرينا أن **من دواعي الحنكة والانتهازية التريث علي أمل التصالح مع من يخرج منتصرا من الصراع ومؤازرته.**

وبينما كنت بصحبة محمد شامتي وجمعة علاي والمعلم هلال بن محمد بن هلال البرواني وحاجي حسين في نقطة شرطة ماليندي مع بعض رجال الشرطة الأوفياء نحرس مدخل مرسى السفن،

والقصر والمدينة القديمة بوجه عام، في ذلك اليوم المشؤوم، أرسلت مناشدة إلي بعض أنصار حزبنا في تلك المدينة، أن **يأتوا بأسلحتهم إلي نقطة شرطة ماليندي**. فلم يلبي الدعاء إلا **القليل**، وهم: أحمد سيف الخروصي، محمد سعيد قاسم، سالم احمد البوسعيدي، محمد مسلم الرواحي، علي خميس موسى، سعيد بدر، هلال محمد هلال البرواني. وبينما كان بوسع المئات أن يأتوا إلينا بسهولة لم ينفر غير هؤلاء القلة لمجابهة الرعاع الجامحين المتحفزين لاجتياح العاصمة ونهبها. أما الباقون فكانوا حسب ما نطقت به ألسنتهم: "**يدافعون عن بيوتهم**". وفي غضون يوم أو يومين **سلموا جميعا أسلحتهم، ولم يطلقوا رصاصة واحدة**. وتم القبض عليهم هم أنفسهم، وسيقوا إلي السجون، تاركين بيوتهم.

ويذكرني هذا الموقف بما فعله **المنافقون بالمدينة** علي عهد النبي صلي الله عليه وسلم، والذي يصوره القرآن الكريم في سورة الأحزاب، بقوله تعالي:

" وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً{12} وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً{13} وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً{14} وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً} (الأحزاب 12-15)

وأغرب ما في الأمر كله، هو **اختصاصي، وأنا الوزير الأدنى مسؤولية عن الأمن بنصيب الأسد من النقد.** فبحكم شغلي لمنصب وزير الخارجية أثناء قيام ما يسمى: **الثورة**، كنت أقل الوزراء مسؤولية عن الأمن الداخلي. فوزير الداخلية في حكومة الاستقلال هو سالم كومبو. وكان محمد شامتي هو موضع المسؤولية العامة عن الأمن بوصفه رئيسا للوزراء، ورئيسا لمجلس الأمن القومي. وكان راشد حمادي مساعدا لوزير الداخلية.

هؤلاء هم **المسؤولون الثلاثة المعنيون** في المقام الأول بحفظ النظام والقانون في البلاد. صحيح أن **كل الوزراء مسؤولين** مسؤولية جماعية وفق الدستور، وما جرت عليه تقاليد العمل الحكومي. بل الحقيقة أن كل **مواطن يتحمل نصيبا من مسؤولية الحفاظ** على النظام والأمن. إلا أن الواجبات الوظيفية المعتادة **لوزير الخارجية تحتم وجوده خارج البلاد معظم الوقت.** وبهذا الإعتبار وحده يكون من غير المستساغ انشغاله بأمور الحفاظ على النظام والقانون، والأمن بوجه عام بوصفها شؤونا داخلية. وبذا يكون هو الأقل مسؤولية في هذا الصدد من بين كل الوزراء، بل من بين كل المواطنين، بصرف النظر عن مكانته في الحزب الحاكم.

وأيا كان الأمر، فإن ما شهدته **زنجبار من أحداث مأساوية لم يكن بالأمر الفريد من نوعه.** فنحن لسنا أول ولا آخر حكومة يطاح بها. ومن المدهش أن نسمع أناسا يجادلون بخصوص أسباب ووسائط الانقلاب، ويوزعون اللوم. ربما كانت هذه هي **طبيعة البشر.** وربما كانت هي **ديدن المنافقين،** ومن في قلوبهم مرض الذي لا يتغير. فمن أنا **حتى أحتج على صنيعهم هذا،**

وقد سبق أن اتهموا النبي نفسه؟ بالعكس إن من دواعي الشرف أن أتذوق شيئا مما ذاقه صلي الله عليه وسلم. ولنقرأ قول الله تعالي:

{أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً }[7].

تاسعا: مزاعم خيالية

من الغريب أن أحدا لم يشر بأصابع الاتهام، خلال العقود التي انقضت منذ قيام ما يسمى الثورة، إلا إلي **الوزراء المساكين.** فبعض الأنصار اعتقدوا أن وزراء حكومة محمد شامتي لا يعزب عن علمهم مثقال ذرة، ولا يخرج من طوق قدرتهم شئ، بما أنهم وزراء. وهم إن لم **يرتقوا إلي مستوى هذا المعيار غير الصحيح، فإنهم يستحقون الإدانة، ويعدون من سقط المتاع.**

وحقيقة الأمر، أن هؤلاء الوزراء لم يكونوا **أصحاب قوة أو معرفة خارقة فوق مستوى البشر العاديين.** ولم يكونوا، في ذات الوقت، **أناسا تافهين لا طائل من ورائهم،** جملة وتفصيلا. بل الحق أنهم كانوا أناسا عاديين لديهم ذات القدرة، ولديهم نفس القدرات التي لدي كل مواطن أمين تجاه وطنه، وعليهم ما عليه من مسؤولية.

---

[7] النساء:78.

وأيسر شئ في هذه الحياة الدنيا، أن يكون المرء **حكيما بعد وقوع الحدث**. هنا تطرح الأسئلة: لماذا لم يفعلوا كذا أو كذا؟ ومن هذا القبيل قول ناقد زنجباري وهو متكئ علي أريكته في مصر بعيدا عن الميدان: "**لو كنت في زنجبار لسحقت الثورة**". بل إن بعض أصحاب العقول **تفوهوا بمزاعم من نسج خيالهم**. زعم واحد أو اثنان أنهما حذراني من ثورة وشيكة، وادعيا أنني قلت لهما: "**كيف يقلبون الحكومة؟ إنها ليس كوب شاي** ". وكرر آخرون نفس المزاعم، ولكن مع نسبتها إلي وزير آخر، فمنهم من نسبها إلي جمعه علاي، ومنهم من نسبها إلي باعلوي، ومنهم من نسبها إلي إبوني صالح.

ونسج خيال آخرين تهمة أغرب وأخطر ضدي، زاعمين أنني تواطأت مع كارومي من أجل الإطاحة بالسلطان رغبة مني في الثأر لموت أحد جدودي، سجنه سلطان سابق، ومات بالسجن.

بل لم نعدم شخصا لا يستحي أن يقول أنه كان شاهد عيان في راحاليو يوم 13 يناير 1964، وأن كارومي عرض **علي منصبا وزاريا، مكافأة لي علي التواطؤ مع المتمردين، ولكنني رفضت مصرّا علي تولي منصب الرئيس**". ويزعم هذا "**المحترم**" أنه ناشدني قبول الوزارة، ووقف المجزرة الجارية، ولكنني رفضت. وهذا وفق ما يزعم هذا الكذاب الأشر هو **السبب في الزج بي في السجن.**

ومن المهم هنا الإشارة إلي أن ذلك الشخص لم يتفوه بتلك الفرية، إلا بعد مرور **ثلاثين سنة**. وحقيقة الأمر، أن هذا الإنسان عديم الحياء **لم يكن موجودا في راحاليو بالمرة** حين استسلمنا نحن الوزراء لكارومي وعصابته. وهو لم يكن **حاضرا لاستحالة وجود**

المرء في مكانين في آن واحد. كان ذاك الآدمي في بيمبا، ولم يأتي إلي زنجبار إلا بعد ذلك **بعدة أسابيع، مكبلا بالسلاسل في سفينة حكومية.**

ولم أكن وحدي في راحاليو. فحين وصلت وجدت أميرعلي عبد الرسول وكيل الوزارة قد وصل من قبل. وبعد قليل جاء بقية الوزراء باستثناء **راشد حمادي** الذي كان في بيمبا. **فلماذا ينسج هذا الرجل بالذات بعد ثلاثين سنة من الصمت تلك الحكاية الملفقة التي لا أساس لها ولا يصدقها عاقل الزاعمة بأن كرومي عرض علي منصبا وزاريا جزاء دوري المزعوم في التمرد؟**

السبب بسيط وواضح. قبل عام 1964 كان ذلك الرجل من أنصار الحزب الوطني الملتزمين. وكنت خلال زيارتي لبيمبا أنزل عليه ضيفا بمنزله أحيانا. وكانت له لأسباب عائلية خاصة، **علاقة وثيقة مع الفصيل اليساري من الحزب الوطني**. وحينما انشق ذلك الفصيل عن الحزب، بات أمام معضلة. إن هو لحق بهم، فإن ظاهره المحترم سيتضرر، كما ستتأثر مشاريع أعماله بالسلب. فآثر الرجل أن يبقى **بجسده** في الحزب، **وقلبه** مع رفاقه القدامى الذين اعتاد التآمر معهم تحت جناح الظلام.

وساعدته الثورة علي **الخروج من معضلته**. أيد المنتصرين صراحة. ونمت مشاريع أعماله بسرعة منقطعة النظير. وأقام علاقات قوية مع الحكومة عبر رفاقه الاشتراكيين. ولم تكن له من **أيديولوجية سياسية، غير أيديولوجية تحقيق الثراء الذاتي** بكل السبل، بعد أن كان راضيا علي مدى سنوات قبل الثورة بكسب الرزق الطيب الذي يسد به متطلبات الحياة، عبر العمل الجاد.

أما الآن، وفي أحضان الثورة، وما قامت به من **مصادرة جماعية للممتلكات**، فقد انفتحت أمامه فرص للكسب غير المشروع، لم يكن يحلم بها. فشرع ينتزع الممتلكات المسروقة يمنة ويسرة، مقابل **كلمات معسولة يطرب بها أذن الحكومة**. وكان هو وأمثاله يتمنون لو أننا قبرنا في السجن. فلما خلصنا الله من ذاك الابتلاء، اشتاط غضبهم وفقدوا توازنهم، أمام تساؤلات مرة: ماذا عن مستقبلهم وثروتهم التي حازوها بأكل أموال الناس بالباطل؟ ماذا عن دورهم في التواطؤ مع الحكومة المستبدة؟ ماذا قدموا لزنجبار ولشعبها غير العمل علي صيانة مصالحهم الخاصة؟

لابد أن مثل تلك الأسئلة تقض مضاجعهم. ومن هنا يلجأون إلي **نسج خيالات للتغطية علي الحقيقة**. وأملهم أن ينخدع الكثير من الشباب بمقولاتهم، ويظنون أنها عين الحقيقة، وأن يروج من يعيشون علي فتات موائدهم تلك الأكاذيب التي يختلقها أسيادهم.

وكما يقول المثل السواحيلي: "**المتحدث بمفرده لا يغلب**". فالمعنيون بتلك التلفيقات هم بين **سجين ومنفي**. وهنا كان من بين الأكاذيب التي لفقت حكاية **تآمري مع كارومي للثأر لموت جدي علي يد سلطان لم يترك ذرية من صلبه من بعده.**

هذا هو الاتهام الأكثر مدعاة للسخرية. حقيقة أن جدي **عبد الله بن سالم** قاد انتفاضة شعبية، بالاشتراك مع السيد برغش ضد ماجد، الذي تمرد هو نفسه ضد شقيقه الأكبر السيد **ثويني** من أجل تمزيق الإمبراطورية العمانية الكبرى، إرضاء لطموحاته الشخصية، ولطموحات أعوانه الاستعماريين. وثويني حليف جدي هو جد السيد خليفة بن حارب بن ثويني، وهو بالتالي الجد

المباشر **للسيد جمشيد**. ونفي السيد برغش إلي بومباي، ثم خلف ماجد فيما بعد وذاع صيته وغطت شهرته الآفاق.

وساندت القوى الغربية عامة، والبريطانيون والألمان علي وجه الخصوص، **ماجد في خلافه مع أخيه**، لأنه كان من مصلحتهم فصل شرق إفريقيا عن عمان، حتى يتيسر لهم اقتسام الإمبراطورية الضعيفة والمقسمة، فيما بينهم، وفق خطة تقسيم معدة سلفا، ضمن ما يعرف **بالتكالب علي إفريقيا**. وبدأ تدمير عمان وزنجبار بالانقسام الذي تم علي يد ماجد. **فدولة زنجبار التي كانت قد ضمت في أوج تألقها عمليا كل منطقة شرق إفريقيا، بما فيها الصومال وكينيا وتنجانيقا، وتمددت في عمق البر الإفريقي حتى المناطق الشرقية من الكونغو، وقعت تلك الدولة فريسة لجشع القوى الإمبريالية.**

وفي عام 1886 حدد البريطانيون والألمان حدود ممتلكات السلطان بساحل تنجانيقا وكينيا مع جزر مافيا وأونجوجا وبيمبا المجاورة. وفي عام 1890 استولوا علي كل شئ، وأقاموا محمية بريطانية في الجزيرتين المتبقيتين. وتولوا شؤون إدارتهما، ولكن مع الإبقاء بحنكة علي السيادة الإسمية بيد السلطان، واحتفاظ الزنجباريين بجنسيتهم.

وكان لورد كتشنر هو ممثل بريطانيا في **لجنة ترسيم الحدود**. وأعرب كتشنر عن رأيه آنذاك قائلا: "**إن زنجبار دولة في مجتمع الدول. وهي ليست تابعة لأحد. ولا هي محمية لأحد**". والحق أن زنجبار ظلت دولة حتى في ظل الحماية البريطانية، لها سلطانها ولها جنسيتها ولها علمها الوطني.

ولهذا السبب فإن حفل الاستقلال في حي كوبر لم يشهد إنزالا للعلم البريطاني. فذاك العلم لم يرفرف أبدا إلا علي منزل المقيم البريطاني. بل من الأمور ذات الدلالة أن مسمى المقيم البريطاني بالسواحيلية، كان هو: **السفير**. ومعروف أن المندوب الاستعماري كان يسمى في المستعمرات والأقاليم الخاضعة للإنتداب: **الحاكم**. ولم يكن الأمر علي تلك الشاكلة في زنجبار. ففي كل الوثائق الرسمية كانت زنجبار تكتب: **دولة زنجبار**.

ومن الطبيعي، أن **كل سلطان لزنجبار كان يشاطر شعبه عدم الارتياح تجاه حكم دولة أجنبية وهيمنتها علي البلاد**. ومن بين أولئك السلاطين من كبح استياءه وراء ابتسامة مهذبة وكياسة شكلية ظاهرية، فسمحت له السلطات الاستعمارية بالعيش في سلام حتى قضى نحبه. ومنهم من منع من الحصول علي حقه بالوراثة، كما حدث للسيد **خالد بن برغش**، ومنهم من خلع من منصبه مثل **السيد علي بن حمود**، ومنهم من أطيح به بغزو مخطط تم في قناع ثورة، كما جرى **للسيد جمشيد**. وهؤلاء السلاطين الثلاثة الشبان الأعزاء علي قلوب شعبهم، لم يكونوا سلسين بما يكفي لعدم الصدام مع المستعمر علي الدوام. وكشف السيد جمشيد مبكرا عن مشاطرته لشعبه في المشاعر الوطنية.

عاشرا: تنصيب السيد جمشيد

أبلغتني قرينتي، لدى عودتي ذات ليلة من زيارة للريف، أن المقيم البريطاني جورج مورينج، يريد أن أذهب إليه بمجرد عودتي. وحين وصلت صدمت بنبأ مفاده أن الحالة الصحية لمعالي **السلطان السيد عبد الله بن خليفه تدهورت بدرجة خطيرة**. كنت أعلم أنه مريض، ويشكو من ألم في رجليه، ولكنني لم أكن أعلم

أن حالته بهذه الدرجة من السوء. وجدته يعاني من غرغرينة ناتجة عن مرض السكر المزمن. وعلمت أن طبيبا بريطانيا زاره بالفعل، ولا مناص من بتر كلتا رجليه. وقال لي مورينج: "**إن السلطان قد يقضي نحبه أثناء عملية البتر. فماذا عن الخلافة؟ من سيخلفه؟**"

أدهشني كلامه. فلم يدر بخلدي أبدا أن مثل هذا السؤال يحتمل أكثر من إجابة. أجبته علي الفور بحسم: "**السيد جمشيد بالطبع فهو الوريث الشرعي. هو الإبن الأكبر**".

سألني: "ولكن هل تريدونه؟".

أجبت: "المسألة ليست مسألة أننا نريده أو لا نريده. وعلي أي حال، **فإننا نريده ولا نرضى بسواه**". استسلم مورينج قائلا: "**حسنا**". ثم قال أننا بحاجة صبيحة اليوم التالي للحصول علي موافقة أبناء السلطان الثلاثة علي البتر قبل إجراء العملية. وتم تحصيل تلك الموافقات المطلوبة بمنزل الدكتور باترون مدير الخدمات الطبية، بحضور السيد جمشيد وأخويه السيد محمد والسيد حارب، والشيخ محمد شامتي الوزير الأول آنئذ، والدكتور باعلوي وزير الصحة، وأنا معهم. ومن المصادفات أن هذا المنزل نفسه كان في وقت من الأوقات هو مقر القنصلية الألمانية، الذي لجأ إليها السيد خالد حين اضطر تحت قصف الوحدات البحرية البريطانية، إلي الخروج من **بيت العجائب**.

لم يفارق السيد عبد الله الحياة أثناء تلك العملية القاسية، ولكنه لم يتعافي من مضاعفاتها. وأكد لنا الجراح البريطاني أن الألم الذي كان في رجليه لا يطاق، ولكن السلطان كان رجلا شجاعا،

وتحمله بصبر ورباطة جأش. وكانت هذه هي المأساة الثانية التي تحل بالسلطان في فترة وجيزة. فقبلها بثلاثة أعوام فقط توفي والده السيد خليفة.

لم يتوج السيد جمشيد علي التو سلطانا. فلقد دعا جورج مورينج لاجتماع للمجلس التنفيذي، وسألنا بلا مواربة: "**هل تريدون تتويجه سلطانا عليكم؟**" أجبنا جميعا بصوت واحد "**بالطبع نريد**". ووفق بروتوكول الحماية، فإن موافقة الحكومة البريطانية، علي تنصيب السلطان، كانت لازمة. مر يومان دون ورود رد من المملكة المتحدة. وفي نفس الوقت، كان السيد جمشيد نفسه مترددا في قبول المنصب، وأعرب عن رغبته في العيش كمواطن عادي. واقترح تنصيب شقيقه الأصغر السيد محمد بدلا منه. وكنا نعلم الحب الكبير الذي يملأ قلب السيد جمشيد لشعبه لذا أهبنا به أن يقبل المسؤولية الثقيلة التي شاء القدر أن يضعها علي كاهله. وافق، ولكن علي مضض.

ألححنا علي جورج مورينج ليسرع بتنصيب جمشيد سلطانا علي البلاد. وقلنا له: "**إننا لم نعد نطيق البقاء دون سلطان**".

عندها أذعن تحت إلحاحنا وقال: "سأفعل ذلك علي مسؤوليتي الخاصة، شريطة أن تؤازروني فيما لو جاءت الريح بما لا تشتهي السفن. فحتى الآن لم أتلقى رد حكومتي، رغم تذكيري لها مرارا بهذا المطلب".

كان من الواضح أن السلطات البريطانية وجدت نفسها أمام معضلة. فمن الصعب عليهما اتخاذ قرار. فهي من جهة أمام السيد جمشيد الذي يكرهه نيريري رجلهم في المنطقة. وهي من

الجهة الأخرى أمام إجماع الوزراء المنتخبون الشرعيين علي تأييد تنصيبه دون سواه. وانتهي الأمر بتنصيب السيد جمشيد وعمت السعادة أنصار الحزب الوطني وحزب الشعب. وعم الغيظ حزب الأفروشيرازي ورعاته، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون التنفيس عنه في الحال. فراهنوا علي تصفية حسابهم معه فيما بعد.

وبذا كان السيد جمشيد هو أول سلطان ينصب دون الحصول مسبقا علي موافقة رسمية من الحكومة البريطانية، منذ تحول زنجبار إلي محمية بريطانية عام 1890. فلقد وصلت تلك الموافقة بعد أن كان قد صار سلطانا بالفعل.

ومما لاشك فيه أن السيد جمشيد كان من أشد أنصار الحزب الوطني. ومرد حبه له أنه: **أولا**، هو الحزب الذي وحد الزنجباريين جميعا بصرف النظر عن العرق، وهو، **ثانيا**، الحزب الذي طالب، وناضل، من أجل الاستقلال التام لزنجبار، وهو، **ثالثا**، الحزب الموالي للنظام السلطاني قلبا وقالبا.



الوزراء بعد تولّي السيد جمشيد مقاليد العرش

الجلوس من اليسار: السيد محمد بن عبدالله (شقيق السلطان)، جورج مورنج (آخر مقيم بريطاني)
السلطان السيد جمشيد بن عبدالله، محمد شامتي (رئيس الوزراء)
السيد حارب بن عبدالله (شقيق السلطان)
الوقوف من اليسار: الوزراء سالم كومبو، أباذر جمعه، مولد مشانجاما، علي محسن ، جمعه علاي، إبوني صالح، أميرعلي عبدالرسول، أحمد عيدروس باعلوي وراشد حمادي.



وزير الخارجية – علي محسن البرواني، يؤدّي اليمين الدستورية أمام جلالة السلطان جمشيد بن عبد الله آل سعيد أغسطس 1963م.

ويبدو في الصورة بينهما جورج مورنج، المقيم البريطاني وخلف جلالة السلطان السيد محمد بن عبدالله شقيق السلطان والشيخ سعيد بن هلال البوعلي

حادي عشر: النظام الملكي تقليد إفريقي تليد وراسخ

ليس النظام الملكي بالنسبة للزنجباريين نظاما جديدا يعود الأخذ به إلي قرنين أو قرنين. وليس العمانيون هم من أدخلوا النظام الملكي إلي زنجبار. فلقد كان لدى العمانيون إمامة منتخبة في ديارهم. والحقيقة أن العمانيين وجدوا النظام الملكي قائما في زنجبار من أمد بعيد قبل مجيئهم إليها. وكان موويني مكو المنحدر من أصل هاشمي يدعى (السيد). وحكام زنجبار علي مدى تاريخها المعروف ملوك. بل الحقيقة أن أسرا مالكة حكمت شرق إفريقيا كلها منذ العصور القديمة.

وكان لنا عبر التاريخ **ملوكا وسلاطين** حكموا من أونجوجاأوكو، وكزيمكازي، وتومباتو، وموكمبو، وبوجيني، وماتومبيني في بيمبا. وحكمت زنجبار **ملكة** مرة واحدة ورد اسمها في الشعر السواحيلي (الملكة **فاطمة** الزنجبارية). والقرن والطبلة اللذان هما الرمز الملكي لموويني مكو (السيد) موجودتان، أو كانتا موجودتان في المتحف. وثمة رموز ملكية أخرى مماثلة محفوظة في لامو وباتي في كينيا. ولا أدري ما إذا كان "غوغاء حزب الأفروشيرازي في زنجبار، ورفاقهم المتطفلون، لم يعبثوا بتلك الآثار التاريخية. فلقد راودتنا فكرة استعمال قرن موويني مكو كرمز بدلا من الصولجان في مجلسنا التشريعي بعد الاستقلال.

وعلي من يريد أن يعلم، أن يسأل كافة الطوائف الإفريقية ليتأكد أنها جميعا عرفت **النظام الملكي** عبر كل العصور. فليسأل قبائل النيامويزي، والهايا، والباجندا، والتشاجا، والهيهي، والماكوندي، والبوندي، وأي شعب من شعوب شرق إفريقيا، ليعلم أنهم كلهم

حكمهم ملوكهم سواء سموا ملكهم: مويني، كاباكا، سلطان، مقام، مانجا، شيخ، أو متيمي – كلهم ملوك.

ومعنى ذلك، أن العصف **بالنظام الملكي، عصف بتقليد إفريقي تليد له جذوره القديمة العميقة**. وأعاد الرئيس الأوغندي موسيفيني الاعتبار لكافة ملوك بلاده، كباكا بوجاندا، ومقام بونيورو وتورو، وموجابي انكول، كيبزنجا بوسوجا وغيرهم، مقررا بحكمة أن ذلك يمثل استعادة لتقاليد شعبه ولا علاقة له بمقتضيات السياسة العابرة. فالشجرة لا تعتبر شيئا فيما لو اجتثت جذورها. وجذورنا راسية في تقاليدنا. فلو أردت تدمير شعب ما، فاقطع الصلة بينه وبين تقاليده باعتبارها هي الجذور التي نبع منها.

ومما يحسب للبريطانيين أنهم رغم خلقهم الاستعماري، لم **يرغبوا في القضاء المبرم علي تاريخ وتقاليد الشعوب التي حكموها**. فلقد كانوا هم أنفسهم أصحاب تقاليد، واحترموا التقاليد والتاريخ. أقدموا علي **تعديل** المؤسسات وليس علي **تدميرها** المبرم ما لم تكن هناك ضرورة ملجئة. جاؤوا فوجدوا لدينا **نظاما ملكيا** فجعلوه **دستوريا**. فخلصوه من السلطات المطلقة. ألغوا سلطات **السلطان المطلقة**، وتركوه **يملك ولا يحكم**، علي غرار ما فعلوا من قبل بالنسبة لملكهم في بريطانيا. وتمرسوا في التكيف مع النظام الملكي الدستوري. وكانت **السلطنة خيرا وبركة بالنسبة لنا حين شرعنا في النضال من أجل الاستقلال**. فلم يكن بيننا وبين السلطان أي خلاف. بالعكس كان يمثل **مؤسسة عريقة يتآلف فيها الوقار والشرف، وقطبا جامعا لعرى الوحدة الوطنية والوئام الوطني**.

وكان كل المطلوب أن يستعيد الشعب **السلطة** من المستعمرين، ويحافظ على **عرش السلطنة** بوصفه الرمز الحي والخالد للأمة. وعلى هذا انعقد إجماع الأحزاب الثلاثة في زنجبار حتى عهد الإستقلال. ووقع قادة الحزب الوطني، وحزب الشعب، وحزب الأفروشيرازي، على وثيقة مقدسة تجسد دستور دولة زنجبار عن رضا ودون أي إكراه، **معترفين دون أدنى تحفظ بالنظام السلطاني وبالحاجة إلي المحافظة على الأسرة المالكة**. وقعوا على ذلك في البداية في لانكسترهاوس، ثم وثقوه في الجمعية الوطنية في زنجبار.

ثاني عشر: نيريري المدمر

أزال نيريري بمزاجه التدميري المشيخات التي كانت قائمة في بلده تنجانيقا، ثم غزا زنجبار ودمر نظامها السلطاني، ثم ولى وجهه شطر أوغندا مستخدما صنيعته أوبوتي في تدمير ممالك ذلك البلد هو الآخر. فما كانت نفسه تطيق رؤية كل من قبائل الهايا والسوكوما والنيامويزي، والهيهي، والتشاجا والنياكيوزا، كل ينعم بنظامه الملكي الذي ارتضاه.

ونود الإشارة هنا إلي أن **التدمير ليس، على الدوام، شرطا مسبقا للبناء والتطوير**. فلقد تأسست المسيحية على اليهودية، وتأسس الإسلام عليهما معا. وبوسع من يريد البناء أن يؤسس على هيكل قائم، طالما كان الأساس يتحمل ذلك.

فلنقرأ قول سيدنا عيسى عليه السلام، يقول: "**لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل.**[8]

ولنقرأ قول الله تعالي لنبيه في سورة آل عمران: " **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ** }. (آل عمران 3 -4)

أما **التدمير لذات التدمير، فمنبعه الجهل والبربرية والوحشية، أو مجرد الكراهية**. ولقد دمر **نيريري كل ما وقع بين يديه**. هتلر بنى ثم دمر كل ما بناه بجنونه. أما نيريري فكان أسوأ منه. فلم يحدث أبدا أن بنى أي شئ، بل دمر كل ما ورثه، أو استولي عليه: مزارع القنب، وتعاونيات القطن والبن، ومدخرات المزارعين الصغيرة، ومزارع الذرة في أيرنجا، ومزارع القمح في أروشا. ودمر زنجبار وكل بساتينها الجميلة ومزارع القرنفل وجوز الهند. ودمر أوغندا وجزر القمر وسيشل. وبذل قصارى جهده ليدمر كينيا ومالاوي ولكنه فشل. ودمر الشلن الشرق إفريقي، واستبدله بعملته عديمة القيمة لمجرد أن يرى صورته عليها. ودمر منظمة الخدمات المشتركة لإفريقيا الشرقية بسبب غيرته من نيروبي وكمبالا.

وتجدر الإشارة هنا إلي أن الجنرال الأمريكي دوجلاس ماك آرثر استولي بعد الحرب العالمية الأولي، بصفته القائد الأعلي لليابان المحتلة على أراض من ملاكها الشرعيين، ووزعها على الرعاع.

---

[8] انجيل متى:الإصحاح الخامس:17

وكان هدفه من ذلك هو **معاقبة وإضعاف من اعتبرهم مصدر النزعة العسكرية اليابانية**. وكنتيجة لذلك انهار الاقتصاد الياباني تماما إلي حد عجز اليابان عن تحمل التعويضات الثقيلة التي فرضها الحلفاء المنتصرون عليها. كما فقدت اليابان القدرة الشرائية التي كانت الولايات المتحدة تعول عليها في إغراق الأسواق اليابانية بالسلع الأمريكية.

وهكذا ارتد **صنيع دوجلاس ماك أرثر إلي نحره**. واحتاجت الولايات المتحدة إلي السير في عملية في الاتجاه الآخر **بإعادة المزارع المصادرة إلي أصحابها**. ودبت الحياة من جديد في اليابان. ونهضت مرة أخرى نهضة أذهلت العالم كله.

وبالمثل من الممكن إحياء زنجبار التي كانت قد تأهبت لوثبات كبيرة علي طريق التقدم في ديسمبر 1963. وعندها نسفت سفينتها وأغرقت. وبوسعها أن تطفو مرة أخرى شريطة تخلصها من الأسباب التي أدت إلي تدميرها، بأن تعود مرة أخرى إلي **الدستورية والشرعية القانونية التي كانت عليها في أواخر عام 1963**.

واعتقد نيريري أن فئة معينة من البشر في زنجبار وتنجانيقا تقف في طريق طموحاته. واكتسبت كلمة "**السمو**"، أو بالأحرى **العظمة الفارغة** قداسة بالغة في وجدانه. وأراد أن يكون له الكبرياء في كل شئ، وأن يكون هو **الزعيم الأوحد للحزب الأوحد**. وراودته نفسه أن يكون هو **الرئيس الأوحد والأسمى** ليس في تنجانيقا وحدها، بل في كل إفريقيا في الوقت المناسب. وسقطت زنجبار تحت سلطانه. وجاء الدور علي بقية بلدان شرق إفريقيا. وكان مستهدفه الثاني هو أوغندا.

وحين كنا في سجن كيكو بدارالسلام، قرر من كان منا في ماكريري أن يذهب أول من يطلق سراحه منا إلي أوغندا، ويحذر أصدقاءنا هناك من أن بلادهم هي المستهدف القادم لنيريري. فلقد كنا نعرف عقلية نيريري وطريقة تفكيره، وأنه يعتقد أن النظام الملكي هو العقبة الأولي في طريق مشروعه الكبير **للسيطرة علي شرق إفريقيا**.

ولسوء الحظ، لم يطلق سراح أي منا قبل الإطاحة بكباكا وكل الحكام، وغزو أوغندا. فالرغبة المسعورة في السمو لا تطيق أية منافسة. وحق الملكية الخاصة يجعل البشر ذوي عقول مستقلة. ويمنعهم من أن يكونوا خانعين، وليّني العريكة. ولابد، بالتالي، وفق هذا المخطط من **تركيع ملاك الأراضي** المويني بالساحل، والواتيمي بتابورا وإيرنجا، والمانجي ببلاد التشاجا، والباكاما في بوكوبا، والمشايخ بزنجبار. انزع الأراضي منهم، وسيخضعون.

فالشعب بلا ملكية وبلا ملك ضعيف لا حول له ولا قوة، سهل القياد. والثور المخصي لا ينجب. فقط، يصير مجرد عجل مخصي، صالح فحسب لجر عربة، أو محراث. ولكنه لا يتكاثر. وتلك هي **الحالة التي أوصل نيريري شعب زنجبار إليها**. فكل ما باتوا يقدرون علي التفكير فيه هو السعي إلي الحصول علي وظيفة حكومية. ويتراوح الهدف بعد ذلك حسب قدرات الطالب بين العمل كساعي بمكتب حكومي، وبين كاتب مبجل يسمى وزيرا. ولما كان الوصول إلي أي وظيفة أو منصب يعتمد علي مودة "**الأب الأسمى للأمة**"، فإن قلة فحسب هم الذين يسمح لهم بتكديس ثروة هائلة من الممتلكات المصادرة، بالسير علي هوى أسيادهم، ومشاركتهم في الغنيمة.

إن النسور التي تتغذى علي جثث الأخرين، تغرر بنفسها. **وحتى تلك النسور تموت، وتلتهم الديدان والنمل أجسادها.** والجميع إلي فناء، بما في ذلك الرئيس الأوحد للحزب الأوحد، الذي سماه هو نفسه الآن (**حزب الجهلة**). هذا هو المسمى الذي أطلقه نيريري علي الحزب الذي كان حتى عهد قريب يفاخر بأنه مؤسسه.

ومن واجب الشعب أن يفيق من سباته، ويدرك أن **السلطة السياسية دون عودة حقوق الملكية الخاصة إليه هي مجرد سراب**، ووهم سريع الزوال. ولن تنهض زنجبار وتنجانيقا مما حل بهما من فساد وفقر ما لم تعاد مسألة الملكية إلي وضعها الصحيح. فالسلع المستوردة من دبي أو من الشرق الأقصى لن تصلح ركائز الاقتصاد، كما لن يتحقق الازدهار الحقيقي بفتح بيوت الدعارة والحانات والخمارات.

ومن الغريب أن أبناء زنجبار حاولوا وسط بلوى التشويش علي أذهانهم هذه، التجمع والتحرك ضد كل شئ بدءا من نطق صوفيا كواوا وانتهاء بقضايا الهجرة. ولكنهم لم يفكروا أبدا بعد في المطالبة علي أضعف الإيمان في موضوع **إعادة ممتلكات المساجد** التي هي في الأصل أوقاف قدمت للشعب كله، وبنيت كنائس مكان بعضها.

ويتعبد المؤمنون في مساجد أوقفت عليها أموال كثيرة. ولكن تلك الهبات صودرت وبددت بين الرعاع الذين اغتصبوا الحرائر وقتلوا المواطنين الأبرياء عام 1964. ويدرس أطفالهم في مدارس قرآنية مبانيها آيلة للسقوط، بينما لتلك المدارس أوقاف كانت مخصصة للإنفاق عليها، ولكن الحكومة صادرتها. ومعنى ذلك، أن الزنجباريين يتعبدون **في ممتلكات مصادرة**، وهم يعلمون أن

الصلاة في مثل هذه الأماكن في حكم العدم. وأن مجرد النوم في تلك البيوت إثم. وتم تعيين مفتي، ويوجد مدير للأوقاف. ومكاتب هذه الرموز الإسلامية الشرعية في مبنى مامبومسيجي المصادر.

ثم ما الذي يفعله مدير الأوقاف ما دامت ممتلكات الوقف تعطى لبولس وبطرس؟ إن الاحتجاج علي إلغاء قيود الهجرة مع البر الإفريقي تبدو سخيفة وواهمة، طالما أن معظم الأراضي قد باتت بيد الغرباء، وبات المالكون الزنجباريون الشرعيون بلا أراضي.

ويتمرغ أناس، **محترمون في ظاهرهم، في أوحال الممتلكات المصادرة دون أدنى تأنيب للضمير.** فإن كان هؤلاء لم يتعلموا درس التاريخ، وإن كانوا لم يسمعوا الحقيقة من كبرائهم، ألا يرون بأم أعينهم ماحدث، وما لا يزال يحدث؟ **يأتون. . . . يخطفون. . . . يحكمون. . . . ثم يموتون صفر اليدين. . . . ثم يصيرون أكواما من عظام نخرة.** فعلي من لا يزالون علي قيد الحياة ويكدسون الثروات من غير حل أن يعتبروا ويقلعوا عن غيهم.

ولكنهم لا يقلعون. فطبع من رتع في الشر وغاص فيه، شبيه بحال ماكبيث، وهو يتأمل في عاقبة أمره ويقول: "لقد آن لصالحي الشخصي أن يتقدم علي أي اعتبار آخر. وقد قطعت مشوارا مديدا في بحر الدماء. واستوى في الملل التوقف والإقدام في نظري "

وعلي يد موسيفيني استعاد حكام أوغندا التقليديين، اعتبارهم وحقوقهم. وأعيدت الممتلكات المصادرة إلي أصحابها الشرعيين. وبهذين العملين الحكيمين أعد موسيفيني المناخ الملائم لبناء دولة

يسودها السلام والازدهار. أما زنجبار فقامت فيها خمس حكومات منذ الإطاحة بالحكومة الشرعية المنتخبة وتدميرها عام 1964. ولكن أيا منها لم تعالج أيا من المسائل الأساسية. ولا ينتظر أن تكون الحكومة القادمة أيا كان توجهها أحسن حالا. ذلك أنه لا يزال يتربع علي قمة القيادة العرقية **نفس الفرسان القدامى الآتين من نفس الإسطبل القديم**، وليس ثمة مؤشر حتى الآن علي أن أي شئ حيوي سيتغير. والمحزن أن الجماهير تريد مجرد تغيير في الوجوه.

وتدل كل المؤشرات علي أن سياسة الحكومة الجديدة ستكون مجرد عودة للمرحلة الثالثة، التي تمخضت عن دستور عام 1984 ووضعت ما أسمته "**ميثاق حقوق الإنسان**". عندها ولدت آمال ما لبثت أن تبددت. وتم إحياء الوطنية الزنجبارية. ولكن زنجبار ظلت جزءا من تنزانيا. وظلت الدعوى التنزانية بأن الجنسية شأن اتحادي. والواقع أنه لا يمكن أن تكون هناك وطنية زنجبارية قادرة علي البقاء مالم ترتبط بالسيادة والإستقلال.

ونص دستور 1984 علي أنه لن يتم تأميم ممتلكات إلا **للمصلحة العامة، ومع دفع تعويضات عادلة**. ثم أعلن لاحقا أن هذا لا ينطبق علي ما **تم مصادرته قبل صدور الدستور**. وبذا كان صنيعهم صنيع من **يغلق الأبواب بعد أن فرت الخيول**. أو بالأحرى أصدروا دستورا لحماية المغتصِبين. فما دامت كل الملكيات قد صودرت دون أي تعويضات من قبل، وليس للصالح العام بالمرة، فإن الحكام المنافقين من ترزية التشريعات، أرادوا أن يخدعوا العالم بحبر علي قطعة ورق يسمونها: الدستور.

ونحت نيريري الوصف المناسب لذلك الدستور في لحظة صدوره عام 1984، قائلا: "**دعهم يسنونه. فسيكون مفيدا في لف بعض البرتقال فيه**". وعلي الرغم من ميثاق حقوق الإنسان الذي أصدروه، فإن **قانون الاعتقال دون محاكمة لأجل غير مسمى** لا يزال ساريا ومطبقا في كل من تنجانيقا وزنجبار. ولا تزال الممتلكات المصادرة علي حالها، ويتم التصرف في الكثير منها وتوضع عائداتها في جيوب الحكام. ولم يطرأ تغير ذو بال. **لا زلنا في المربع الأول.**

وأوصت لجنة نيالالي الخاصة بالتعددية الحزبية بوجوب إدخال تعديلات علي أربعين قانونا قمعيا في التشريعات التنزانية الراهنة، قبل الشروع في الإعداد لانتخابات متعددة الأحزاب. ولم يرد في تلك القائمة السوداء أي قانون كان ساري المفعول في زنجبار قبل الإطاحة بالنظام السلطاني. وهذا هو أكبر دليل علي براءة السلطنة.

الفصل الخامس عشر

العمل السياسي [1]

أولا: مداواة فيروس الأساطير بالتنشئة الأسرية

---

[1] يستهل المؤلف هذا الفصل بالتنبيه على فيروس بالغ الخطورة في تغذية الطائفية، ألا وهو حشو عقول أطفالنا بأساطير تجاه بعض مكونات النسيج الإجتماعي، أو تجاه أي جماعة بشرية. فالتربية غير السوية التي تغرس في عقل الطفل صورة تخرج أبناء عشيرة أو طائفة ما من عداد البشر، مبنية على أساطير وخرافات، تهدم السلام والوئام داخل الأمم وبين الأمم. والاحتكام إلى صحيح الدين والسنة، وصحيح العلم، بوصفهما مصدرين لا يتعارضان أبدا لدى العقل السليم، وربط العملية التعليمية بهما هو المخرج من ركامات الأساطير التي تتوارثها أجيالنا. والتنشئة الأسرية هي مفتاح الاستواء في العمل السياسي.

والأمر المهم الذي ينبغي التنبه إليه أن المؤلف يتناول تحت عنوان (**العمل السياسي**) أمورا ليست على شاكلة ما يدعو الغرب إلى دراسته تحت مثل هذا العنوان. فهو يبدأ بدور **الأسرة في التنشئة السياسية المستقيمة**، ويثني بأثر **أحوال الأسرة على التشكل النفسي والعقلي للطفل**. أما الدرة الثالثة الثمينة التي يفتح عين القارئ عليها فهي تجلية **تأثير ما يدرسه الطلبة من حكايات أسطورية على عقولهم، وضرورة حسن الإنتقاء، لكونهم يسقطون ما يدرسون على واقعهم**. ثم تأتي النقطة الرابعة في التأسيس الذي يقدمه المؤلف من واقع خبرته وشهادته، متمثلة في الوعي بأن **الآخر، مثل الأنا، في صفوفه الصالح والطالح**. فأهل الكتاب كما علمنا قرآننا (**لَيْسُواْ سَوَاء**). وأما الدرة الخامسة التي يؤسس للوعي بها، فهي أن **الصحافة سلاح ذو حدين**، وهي **ناسفة للسلام إن كانت قبلتها هي تعميق الحاجز الثقافي بين البشر**. ويؤكد هنا أنه لا فروق جوهرية تذكر بين كافة القبائل والشعوب والأمم، وأن **السياسة المبنية على إظهار الفروق تضر ولا تنفع**، على العكس من **التركيز على القواسم المشتركة بين البشر وبين الثقافات**. ويجلي هذا الفصل حقيقة جوهرية، هي ضخامة القاسم المشترك بين الإسلام والمسيحية، وأن كل الفروق بينهما مفتعلة من صنع المرجعيات الكنسية بالمخالفة للكتاب المقدس ذاته – المترجم

روعني وأنا ما أزال طفلا، الجهل الذي رأيته مستشريا بين معظم خلاني في ضاحيتنا، فيما يتعلق بعالم القوى ذات الطبيعة الخارقة، عالم الأشباح والسحرة. ولم أعتقد في كلمة واحدة مما كان سائدا من حولي. ومرد ذلك أن والدي كان رجل دين لا يصدق إلا ما جاء بالقرآن وبالسنة النبوية المطهرة. وهو كان لا يقبل فيما عدا ذلك إلا ما أثبته العلماء وأقاموا الحجة على صحته. وكانت لديه قناعته أنه لا تناقض بين الدين والعلم، فكلاهما يعضد الآخر. فلم ير تناقضا بين نظرية دارون عن النشوء والتطور، وعناصر جدول مندل الوراثي من جهة، وقصة خلق آدم وحواء من جهة أخرى.

كان تعليمه دينيا محضا، إلا إنه كان يصر علي أن أعرض عليه **كل يوم ما تعلمته في المدرسة**. وكلما كبرت صارت محاوراتي معه أكثر جاذبية وثنائية الاتجاه. وكانت هذه الممارسة هي أفضل طريقة للمراجعة. وتعين علي أن أشرح له بكيفية يستطيع أن يفهم بها كل مسائل الكيمياء والفيزياء والأحياء المعقدة بمصطلحاتها. ثم يحكي لي هو بعد ذلك تصوره بلغة دينية وميتافيزيقية. وبهذه الطريقة وقاني من الشكوك والتناقضات التي تغير عادة علي عقول الشباب المراهقين.

وعلي الرغم من أن حالتي الصحية في طفولتي لم تكن علي ما يرام، حيث اعتدت علي الإصابة بالملاريا، وأصبت أحيانا بالدودة الشصية، ومرة بذات الرئة، فإن طفولتي كانت سعيدة بوجه عام. ومع إعلان إفلاس والدي وأنا في السادسة أو السابعة من عمري، انغرس في ذهني من طفولتي أن **الجهل والفقر** هما العقبتان الأساسيتان أمام الحياة الطبيعية.

فلقد تلقى والدي ضربة مؤلمة مع الركود الاقتصادي الكبير الذي عصف بسوق المال العالمية. وسارت الأمور من سئ إلي أسوأ مع مقاطعة الهند للقرنفل الزنجباري بسبب إنشاء الحكومة الزنجبارية برئاسة المقيم البريطاني سير ريتشارد رانكين، **جمعية مزارعي القرنفل**، وهي هيئة شبه حكومية، من أجل كسر احتكار عصبة صغيرة من المصدرين انتظموا في اتحاد احتكاري، بات يفرض الثمن الذي يحدده علي السوق. وأتذكر أن شهورا كانت تمر، وليس معي **ما أحلق به شعري.**

وفي نهاية الأمر كان مزي جومبي تاجر السمك، والد عبود جومبي، يعطيني المبلغ الصغير الذي أنا بحاجة إليه. وكان مزي جومبي متزوجا من ماما ياسمين، أم اختنا الكبرى فاطمة. وكانت تمر شهور لا نستطيع أن نرى فيها السينما إلا من الخارج، رغم أهمية مثل هذه الأشياء بالنسبة لنا كأطفال في عصر لم يكن يوجد فيه بعد الراديو، ناهيك عن التلفزيون.

وكنت في الثانية عشرة تقريبا حين تحدثت مجموعة منا بجدية عن خطة **للذهاب والسطو علي بنك خاص بالمرابي الكبير** صالح جانجي. وكان قد **ارتهن عددا من ممتلكات أقاربي** الذين وقعوا في قبضته الربوية. وكانت تلك بداية **وعيي بكوني حيوان سياسي.** أما المصدر الذي استلهمنا منه تلك الفكرة فهو **أسطورة روبين هود** التي قرأنا حكايتها في المدرسة، وشاهدناها في الأفلام. **ومثل كثير من الساسة الناشئين، لم تتجاوز مؤامرتنا حد الثرثرة.**

ثانيا: المسؤولون الاستعماريون: صالح، وطالح، ولا مبالي

كان الدافع وراء تأسيس سير ريتشارد رانكين[2]، **جمعية مزارعي القرنفل**، هو كسر نوع من الاحتكار أقامته طبقة متطفلة من المصدرين، من أجل حماية مصالح المنتجين الأساسيين. وعكف أولئك المصدرون علي التجمع والسماح لواحد أو اثنين فقط بشراء القرنفل المطروح في السوق **بالثمن الذي يفرضونه.** وفي ظل غياب منافسة، كان المنتجون لا يجدون مفرا من البيع بالثمن المعروض عليهم.

وتجدر الإشارة، إلي أن تسيير صناعة القرنفل وإدارتها ليس بالسهولة التي يصورها من يكتبون عنها علي جهل ببواطنها. فهي عمل يتضمن مخاطرة بالغة، ويتوقف مصيره علي عوامل كثيرة يصعب التنبؤ بها، من بينها علي سبيل المثال لا الحصر: مدى توفر اليد العاملة التي تجنيه في الوقت المناسب بالأعداد وبالبراعة المطلوبة مع توفير المسكن والمأكل والمشرب والرواتب لأولئك العمال، ومدى ملاءمة الأحوال المناخية، وهطول المطر في الوقت المناسب لنمو البراعم ونضج الثمار، وسطوع الشمس في الوقت المطلوب لتجفيفه، ومدى كفاية الحصر التي يوضع عليها لدى تجفيفه.

---

[2] أود التنبيه إلى عدم الخلط بين ريتشاد رانكين المقيم البريطاني في زنجبار في الثلاثينيات، وابنه جون رانكين المقيم البريطاني فيها في الخمسينيات. – المؤلف.

والذين لا يخسرون أبدا في صناعة القرنفل هم من **يجنونه**، يليهم وإن بدرجة أدنى: **من يصدرونه. فالقاطفون والمصدرون هم فقط في دائرة الأمان. أما المُخاطر فهو المنتج.** فهو الشخص الذي يصدق عليه المثل: "**القرنفل ينهار دون إنذار**". فالمنتج – المزارع – واقع بين رحى القاطف والمصدر. القاطفون يملون سعر القطف، وإذا لم يكن مرضيا لهم يتركونك عن بكرة أبيهم، ويذهبون إلي منتج آخر، دون رد المبالغ التي دفعت لهم مقدما. وهم دائما في **مركز من يملي** إرادته استنادا علي قوة المساومة الجماعية. ويملي **المصدّر** بدوره سعر الشراء، ويغدو بوسعه بالقروض التي يكون قد قدمها للمزارعين بضمان المحصول مسبقا،، ابتزازهم حتى الثمالة. وعلاوة علي القاطف والمصدّر، بل قبلهم، يأتي **تقلب المناخ** في زنجبار علي نحو لا يمكن التنبؤ به. فهو مناخ شبيه بمناخ انجلترا.

ولتغطية تكلفة الجني الضخمة، والتي تتضمن الاستعداد لدفع مقدمات مالية مسبقة للقاطفين المرتقبين (وكثير منهم لا يوفون بما اتفقوا عليه، ولا يردون ما في ذمتهم)، وتخزين كميات كبيرة من المواد الغذائية اللازمة، وشراء حصر جديدة للتجفيف عليها كل موسم، وتوفر سيولة نقدية للقاطفين الذين يتقاضون أجرهم مساء كل يوم حسب الكمية التي جنوها، يضطر المزارع إلي الإقتراض من المصدِّرين ذاتهم، الذين من مصلحتهم امتصاص آخر قطرة من دم المنتجين.

ومن هنا تمثلت الوظيفة الرئيسة **لجمعية مزارعي القرنفل** في توفير هذه **الخدمة النافعة**. فقبل إنشاء هذه المنظمة، وقعت نسبة كبيرة من **المنتجين الزراعيين في حبائل المقرضين الربويين،**

وانتقلت **ممتلكاتهم المرهونة إليهم**. وطرأ تحول سريع، علي النمط التقليدي المتمثل في تشكل المجتمع الزراعي من **العرب والأفارقة**، وتشكل **مجتمع التجارة من الهنود**، ولكن ليس في اتجاه تبادل المواقع. صار العرب والأفارقة **مديونين معدمين**، يطردون من بيوتهم وممتلكاتهم، وآلت **ملكية كل شئ إلي الهنود.**

وأنشأ ريتشارد رانكين بصفته المدير البريطاني العام **آليتين أخريين مكملتين لعمل جمعية مزارعي القرنفل**، أولاهما: **هيئة نقل ملكية الأراضي**، ومهمتها هي: التدقيق في كل عملية بيع للمزارع. ولم يعد من المسموح به **التصرف** في أراض زراعية مملوكة لعربي أو إفريقي **إلا بموافقة الهيئة**. أما **الإجراء الثاني** فهو إنشاء: **مشروع تسوية الديون**. ونقلت الأراضي المرهونة للدائنين إلي هذا المشروع لإدارتها، مع دفع فوائد للدائنين **بمعدل سعر الفائدة المعمول به في البنوك، وليس بالمعدلات المتضخمة التي كان المرابون يفرضونها**. وبهذا الشكل تم إنقاذ تلك الممتلكات والحفاظ عليها. وبها تمكن المزارعين من استعادة ممتلكاتهم وكل حقوق التصرف فيها بعد سداد ما عليها من ديون.

كان صاحب هذه الإجراءات الاقتصادية الثلاثة بالغة الأهمية فكرة وتنفيذا هو المقيم البريطاني ريتشارد رانكين. بيد أنه ووجه بمعارضة شديدة من زعماء الجالية الهندية. وشن الاتحاد الوطني الهندي الزنجباري حملة ضد تلك الإجراءات، وبعث بوفد من ممثليه إلي الهند سعيا للحصول علي مساندة حزب المؤتمر الوطني الهندي.

ويحسب لمن صاروا لاحقا مؤسسين لدولة باكستان، وفي مقدمتهم محمد علي جناح، زعيم العصبة الإسلامية، أنهم قاموا **بحملة**

مضادة في كل أرجاء الهند لصالح زنجبار. وتمثلت حجتهم في أن من **حق زنجبار أن تحمي مصالح مواطنيها**.

إلا أن حزب المؤتمر كان واسع النفوذ. وانتهي الأمر **بمقاطعة الهند للقرنفل الزنجباري**. بل إن حزب المؤتمر هدد موريشيوس بمقاطعة إنتاجها من السكر فيما لو اشترت أي قدر من القرنفل الزنجباري. وبعد قدر كبير من المجادلات تم التوصل إلي **حل وسط** بين حكومة زنجبار، والاتحاد الوطني الهندي الزنجباري الممثل لمصالح المصدرين.

وبموجب تلك التسوية، تم الاتفاق علي **عدم** قيام جمعية مزارعي القرنفل الزنجبارية بتصدير أي كمية من القرنفل، مع **احتفاظها** بحقها في تحديد السعر الأدنى للشراء في كل موسم. وفي حدود هذا السعر يشتري اتحاد المصدرين المحصول من المزارعين ومن مخزون القرنفل المتوفر لدى تلك الجمعية. وتشترط تلك الجمعية النسبة التي يلتزم المصدرون بشرائها منها في كل موسم، حسب كمية المخزون لديها. ولم تتأثر وظائف الجمعية الأخرى المتعلقة **بإمداد المزارعين بالأقساط المقدمة للقطف، وللزراعة، وحصر التجفيف، والمؤن اللازمة للعمال الزراعيين**.

وتولي **س. إ. بارتليت** منصب المدير التنفيذي لجمعية مزارعي القرنفل. وكان هذا الرجل قد عاش في الريف من أمد طويل في شراكة عمل مع **جريزبروك**، في شركة تحمل اسميهما: جريزبروك وبارتليت. وبات اسم بارتليت مرادفا لاسم جمعية مزارعي القرنفل، حيث اعتاد القرويون علي تسميتها: جمعية **بارتليت**.

ودخل اسمه في **أغنيات شعبية**، خاصة في بيمبا التي كانت هي المستفيد الأكبر من تلك الجمعية. وواصل بارتليت، حتى بعد تركه منصبه ببلوغه سن التقاعد، الإقامة في الريف الذي أحبه. وعاش هانئ البال في شارع هادئ مطل علي حدائق فيكتوريا الجميلة. وتوثقت عرى الصداقة بيني وبينه عبر تحاورنا الصريح، بخصوص المشكلات الاقتصادية التي تواجه زنجبار.

ونبذ بارتليت الروتين الحكومي في عمله كمدير للجمعية، وأحرز نتائج باهرة. إلا إنه لم يكن محل رضا من جانب الإدارة الإستعمارية بسبب تعوده التعبير عن وجهة نظره بصراحة وبلا مواربة في الصحف. فقد كان لا يطيق الروتين البيروقراطي ويفضل التعامل المباشر الصريح.

وآل منصبه بعد وصوله سن التقاعد إلي مدير زراعة سابق. وعندها صارت تلك الجمعية **مجرد دائرة حكومية مع كل المعوقات البيروقراطية والبطء المزعج في الإجراءات**. وأصبح المدير شخصا لا يمكن الوصول إليه. وصار الموظفون كأصحاب اقطاعيات، كل منهم هو الآمر الناهي في منطقة نفوذه.

والتقيت أنا وبابو، حين ذهبت إلي انجلترا عام 1955 للترويج للتغييرات الدستورية ببارتليت في محل إقامتنا بضواحي كيوجاردنز، وخططنا استراتيجيتنا معا. وكانت مساهمته في بلورتها ثمينة. وكان بارتليت قد رحل في أواخر حياته من زنجبار للعمل مع هيتشكوك ملك القنب التنجانيقي. وسرعان ما دخل في صراع مع الدكتاتور نيريري، وذاق مرارة الاعتقال الوقائي علي يديه. وكنت أنا الآخر في هذا الوقت بالمعتقل.

وفضلا عن الركائز الإقتصادية الثلاثة التي أرساها ريتشارد رانكين، تلقت زنجبار مساهمات جديرة بالثناء من مقيمين بريطانيين آخرين، علي الأقل ممن عرفتهم في حياتي. فلقد كان لدى "السير كلود هوليس" ولع لا يقاوم ببناء الطرق، بز فيه الرومانيين القدامي. ولم يكن الأعضاء المعينون في المجالس التشريعية العتيقة، يفكرون في شئ يروق لشعبهم أكثر من المطالبة بإنشاء طرق. فالطرق تفتح آفاقا ومناطق أمام التجارة والحضارة، وتيسر انتقال البشر والسلع والتعليم والرعاية الصحية. وهي شبيهة بالشرايين في جسد الإنسان. ومن ثم فلا عجب أن الباجندا (سلاطين أوغندا) يسمون طرقهم الترابية التقليدية "زينة البلاد".

وبفضل الجهود التي بذلها "هوليس" نشرت مجلة إيست أفريكا ستاندارد" مقالة أشارت فيها إلي **زنجبار** علي أنها البلد" **الذي به أفضل منظومة طرق في الإمبراطورية الاستعمارية بكاملها، باستثناء ترينداد**. ولكن هذا الإستثناء غير منصف لأن ترينداد **مصدر الطرق**". ومعنى الإشارة الأخيرة، أن ترينداد من المنتجين الأساسيين للأسفلت".

أما **المقيم البريطاني الثالث** الذي لا يمكن غض البصر عن مساهمته في ازدهار زنجبار، ولا تجاهلها، فهو **سير جورج مورينج**، آخر من شغلوا هذا المنصب. جاء إلي بلادنا من نيجيريا، حيث كان **حاكما عاما** لها، وتركها وهي قاب قوسين أو أدنى من الإستقلال. ودار في خلد بعضنا حين ترامى إلي مسامعنا نبأ تعيينه مقيما بريطانيا ببلادنا، أن ذلك **مؤشر ضمني علي أنه اختير بالذات ليعد زنجبار للإستقلال**. وشعرنا أن

بريطانيا نوت انهاء الحماية. وحين وصل إلي بلادنا كنت كالعادة بالخارج. طلب مقابلتي بمجرد عودتي. وكان اجتماعنا بالغ الأهمية. **وساد بيننا إحساس بالاحترام والتفاهم المتبادل. وأحسست براحة واستئناس به لم أشعر بهما قط مع أي من أسلافه.**

قال لي: "أود أن تقوم العلاقات بيننا علي الصراحة التامة، لا أن تكون علاقة بين **ممثل قوة إمبريالية** يتحادث مع ممثل **حزب سياسي مناهض للإستعمار**. فأنا جورج مورينج، وأنت **علي محسن**، وحسب. تحدث معي بتلك الصفة وسأرد بالمثل. سأكون صريحا معك شريطة أن تكون صريحا معي. والشئ الوحيد **الذي أريده أن لا ينقل عني كلام علي وجهه، أو محرفا، في مؤتمرات شعبية**. فأنا لا يهمني ما أناقشه هنا معك ومع رفاقك الموثوق بهم والمسؤولين، الذين يحافظون علي سرية ما قيل لهم. أقول لك ذلك لأنه في الفترة القصيرة التي مضت منذ شغلي لمنصبي هنا، نقل البعض عني أقوالا محرفة في مؤتمرات شعبية. تتعلق بأمور بحثتها معهم بصفة سرية."

بهذا بدأ اجتماعنا الأول الذي حددنا فيه شاكلة التعاملات المستقبلية بيننا، التي كانت علي الرغم من تباين موقفينا صريحة ومؤسسة علي الاحترام المتبادل. وكان جورج مورينج فريدا بين من شغلوا هذا المنصب ووجدت فيه أنا ورفاقي رجلا قادرا علي **احترام وجهة النظر المعادية للإستعمار**. قال لي في أول اجتماع بيننا أنه لا يستريح لما رآه في زنجبار من **وجود طبقة من المسؤولين البيض تجعله لا يحتك بشكل مباشر مع موظفي الحكومة من غير البيض**. فلقد اعتاد علي التعامل مع النيجيريين

مباشرة في بلدهم. ومعه استطعنا اتخاذ خطوات متتابعة علي الطريق صوب الهدف العزيز علي قلوبنا وهو الاستقلال. وبفضل توجهه ومنهجه تقلص قدر كبير مما كان بيننا وبين السلطات الاستعمارية من احتكاكات سابقة. وبالتعاون معه اكتسبنا خبرة في أساليب الإدارة، وفي إدارة مجلس الوزراء، وتعلمنا التقاليد الديموقراطية واحترام استقلال السلطة القضائية، وتعرفنا علي وظائف المفوضين القانونيين، بجهازي الشرطة، والخدمة المدنية، وما شاكل ذلك. ومن بين مبادئه السلوكية التي حاولنا الإلتزام بها **"كن حازما وعادلا"**.

ولسوء الحظ فإن ب. إ. **رويرتسون** المسؤول البريطاني التالي لمورينج في سلم الإدارة الاستعمارية بزنجبار، كان من نوعية أخرى، **لا يشاطره المشاعر ولا التوجه**. فهو من المدرسة القديمة، مدرسة القرن التاسع عشر الاستعمارية. وحينما ناشد القنصل البريطاني العام آرثر هاردينجي حكومة بلاده بأن لا تنتزع الشريط الساحلي من زنجبار، رد عليه لورد سالسبوري رئيس الوزراء البريطاني آنئذ بغطرسة،: **"هذه إحدى التضحيات التي يجب أن تقدمها زنجبار من أجل المصالح الإمبريالية"**.

وأحس جورج مورينج أن الحمل الوديع المضحى به قد نزف بما فيه الكفاية، وأنه قد آن الأوان لأن يسمح لهاتين الجزيرتين، اللتين هما كل ما تبقى من امبراطورية مترامية الأطراف كانت تغطي منطقة شرق إفريقيا بكاملها وعمان، أن تحيا وتتمتع بالحرية كبقية بلدان العالم. إلا أن رويرتسون كان له رأي آخر. كان يفكر في مصلحته الخاصة. فلقد أمضى عمره كله موظفا بالإدارة الاستعمارية. وإذا تحررت كل البلاد، فأي مستقبل يبقى له هو

وأمثاله؟ وكان يقول لمن هم محل سره، أنه لا يزال في ميعة الشباب. ومن ثم، بذل قصارى جهده عاقدا العزم علي تخريب كل ما يحاول مورينج القيام به.

وشهدت الإدارة المدنية نوعا من **الانقسام في الولاء: فريق يتفق** مع مورينج في الرأي ويناصره، و**فريق يعارض** ذلك التوجه ويعوقه ويعضد روبرتسون السكرتير العام. وكان ف. أي. سميثيمان الذي عمل لفترة سكرتيرا عاما لمحمد شامتي، في مقدمة المناصرين لرأي مورينج. فلقد آمن ذلك الرجل **بالقضية الزنجبارية**، وكد واجتهد في خدمة زنجبار عن طيب نفس. وخلت الخطب التي كتبها لرئيسه من أي شائبة، وجاءت معبرة عن وجهات نظرنا بالكامل. بل إنه كان يحلي خطبه **باقتباسات مناسبة** من القرآن الكريم. وما كان بوسعي أنا أو شامتي أن نكتب خطبا أفضل منها. فلقد كان سميثيمان أحد بريطانيين قلائل، ممن يتحدثون السواحيلية وكأنها لغتهم الأم.

وكانت هناك **نوعية ثالثة من المسؤولين لا يبالون بأن تسير الأمور في هذا الاتجاه أو في الاتجاه الآخر**. هم يقومون بواجبهم الوظيفي بكل أمانة فحسب. ومعظم أفراد هذه الفئة كانوا من **المهنيين**: أطباء ومحامين، ومدرسين، وأخصائيين زراعيين، وما شاكل ذلك. بيد أن بعض من كانوا في **مناصب رفيعة**، خاصة في جهازي الأمن والمخابرات، كانوا **يعارضون** عملية التحرك صوب الاستقلال بكاملها. فلم يكن هؤلاء يطيقون فكرة تلقي الأوامر من غير البيض.

ولم تعدم نوعية من المسؤولين الأجانب، مكنتهم طريقة تنشئتهم وخلفيتهم الفكرية من تحرير أنفسهم من العقلية الضيقة الأفق

العرقية إن لم يكن الإستعمارية أيضا. ومن **نماذج هذه النوعية: الوصي العام اريك ستيفنز**. فعلي الرغم من كونه انجليزي الأصل، فإن مولده في الهند، ساهم بقوة في جعله **يكره الطريقة التي يتصرف بها زملاءه البيض بشدة، واختار رفاقه وخلانه من بين غير البيض**. ومن المؤسف أن مثل هذه النوعية من الأفراد لم يكن لها **تأثير سياسي كاف** علي طريقة تصريف الأمور العامة. أما من لهم **رأي مخالف فلم يكن بوسعهم فقط أن يؤثروا علي سير الأحداث، بل كانت مقاليدها بأيديهم بالفعل.**

ثالثا: أولى مقالاتي السياسية

في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، وأنا في السادسة عشرة أو في السابعة عشرة من العمر، نشِرت مقالة في مجلة أسبوعية محلية يدعوا كاتبها إلي إنشاء **اتحاد للشباب الآسيوي** يضم **الشباب العربي والشباب الهندي**. شعرت بضيق بالغ. وتحاورت بشأن تلك المقالة مع صديقي العجوز **خليل علي** رئيس تحرير صحيفة تسمى: **الزنجباري**، كانت هي أول صحيفة تصدر بالسواحيلية في البلاد.

وخليل نموذج للزنجباري. فأبوه من **كشمير**، وامه من **جزر القمر**. وهو في النحافة مثل محمد علي جناح، وفي التوتر مثل كاسيوس[3]، وفي الفقر مثل فأر الكنيسة[4]. في صوته بحة لا تفارقه، وتجري الوطنية في عروقه بكثافة.

---

[3] كاسيوس هو المدبر الرئيس لاغتيال يوليوس قيصر، وقد أبرز وليم شكسبير عمق توتر كاسيوس في مسرحيته "يوليوس قيصر". – محمد البرواني

قلت له أن هذه **المقالة لا أساس لها**. إن أرادوا تشكيل مثل هذا الاتحاد، **فعليهم الذهاب إلي آسيا**. وإذا كان هناك أناس لا يزالون يحددون هويتهم **ببلد المنشأ**، فأفضل خيار لهم هو **العودة إليها**. فالمنظمة السياسية الوحيدة المبرر إنشاؤها في زنجبار هي تلك التي **تعرف نفسها بهذا البلد ويكون أعضاؤها زنجباريون وحسب**. أهاب خليل بي أن أكتب ردا علي تلك المقالة ووعد بنشره. وقد كان. كتبت ونشر. فكانت تلك أول مقالة سياسية يخطها قلمي، وأنا ما زلت طالبا بالمدرسة الثانوية.

وأذكر أنه حين ظهر العدد الأول من صحيفة **الزنجباري** منذ ستة عقود[5] قال ناظر المدرسة هولنجزويرث أن **البلاد تدخل حقبة جديدة وخطيرة. ولن تكون زنجبار بعد الآن ذاك البلد الذي ينعم بالسلام والهدوء**. فالصحف التي كانت موجودة من قبل كانت تصدر بلغات أجنبية، ولا يستطيع قراءتها إلا القليلون. وتنبأ بأنه مع صدور صحيفة باللغة السواحيلية، فإن **الجميع سيتسيس**، وستشهد **زنجبار يقظة جماهيرية**. وحذر من أن هذا لا يعني أن البلاد **ستنعم بمزيد من السعادة أو الازدهار**.

وكان محمد سالم جينجا مساعد هولنجزويرث يساند صحيفة الزنجباري، من وراء حجاب، بحكم كونه موظفا حكوميا. وشرع عبر هذه الصحيفة في الدعوة إلي الوطنية الزنجبارية رافعا شعار: "**زنجبار للزنجباريين**". إلا أن تلك الصحيفة **فارقت الحياة بموت**

---

[4] يضرب المثل بفقر فأر الكنيسة لتقشف الرهبان وعدم وجود ما يأكله الفأر.

[5] لدى كتابة المؤلف لمذكراته. والسياق يدل على أنه كتب فيها عام 1935 أو 1936 – المترجم.

مالكها ورئيس تحريرها. وظهرت صحيفة سواحيلية أخرى. تسمى مابامبازوكو (**الفجر**) تولي السيد سيف مابوستي رئاسة تحريرها. وكان من المفترض من الناحية الرسمية الشكلية أن تكون مجرد طبعة سواحيلية من صحيفة **الفلق** التي كانت تصدرها الجمعية العربية باللغتين الإنجليزية والعربية. أما في الواقع، فإن صحيفة الفجر كانت مستقلة وأكثر واقعية، وذات نهج شبابي. ولم تعمر تلك الصحيفة هي الأخرى طويلا.

وأحسسنا بوجود فراغ، تم سده بدرجة كافية في أوائل الأربعينيات بصحيفة **المرشد**، والتي كان يمتلكها صديقان: مسعود محمد الريامي، وأحمد سيف الخروصي. الأول مديرها، والثاني رئيس تحريرها. واقترح علي **أحمد سيف الخروصي** حين قابلته، المساهمة بمقالات حول **الزراعة** حيث كنت أعمل آنئذ بوظيفة اخصائي زراعي مساعد. ولم يكن يعرف بعد **توجهي السياسي**. ارتحت بشدة لفكرة ظهور صحيفة تدعوني من بدايتها إلي الكتابة فيها. إلا أن تعليم الزراعة عبر الصحافة لم يكن هو ما يشغل بالي. **كنت أغلي من داخلي وأنا أرى، بلا حول ولا قوة، هشاشة النظام الاجتماعي السياسي في البلاد برمته**. وهاهي الفرصة تأتيني **مطلوبا لا طالبا**، للتعبير عن وجهة نظري بالصحافة فيما اعتبره أهم قضايا الساعة. وكنت أراقب من طفولتي **مثالب انقسام شعبي إلي أعراق وطوائف ومذاهب**، منتهكة للقواسم المشتركة الرئيسة التي توحدهم علي ما بينهم من فروق ظاهرية.

رابعا: الصراعات والوئام

افتتنت لفترة يسيرة في بداية التحاقي بالكلية في ماكيريري **بأيديولوجية القومية السوداء** كما يطرحها ماركوس جارفي.

واعتادت ثلة منا علي قراءة أدبه المناهض للبيض بنهم. إلا أنني سرعان ما هجرت هذا الضرب من العنصرية. وساعدني علي ذلك أمران: **نشأتي الدينية، والنهج العلمي الذي اكتسبته في ماكيريري**.

وبالإضافة إلي ذلك، كان كل أعضاء هيئة التدريس بالكلية عدا **اثنين، بيض وبريطانيين**، مما ساعدني بدرجة أكبر علي التخلص من أية بقايا عداء ضد **أي إنسان بسبب لونه**.

وأقمت صداقات حميمة ليس مع عدد من زملائي الأفارقة وحسب، بل مع بعض أساتذتي كذلك. وكنت أقضي العصاري، ما لم يكن لدى ارتباط آخر، إما مع **هانكوك** محاضر علم الأحياء، نتسكع في حديقة النباتات الصغيرة التي كنت أنا وهو مغرمين برعايتها، والتنقيب عنها، وغرسها، ووضع علامات علي كل الأشجار الكائنة علي التل. وإما أقضيها مع **ليي** محاضر اللغة الإنجليزية الذي قطفت منه بعض الروائع الأدبية، ونحن نتجاذب أطراف الحديث في محيط ماكيريري.

وكان رئيس الجامعة **جورج تيرنر** يعتز بالزنجباريين، ويحترم ثقافتنا وخلفيتنا الاجتماعية. ورغم أنه كان **مسيحيا ملتزما، وابن أسقف**، فإنه لم يكن **متسامحا** تجاه الإسلام فحسب، بل كان **موقرا له**. وأذكر قوله بكل إخلاص ذات مرة في احتفالية أقمناها بمناسبة المولد النبوي: "**إنها الحقيقة. والحقيقة لابد أن تقال، أن نبيكم بين لكم أكمل طريق إلي الله**"

و دعاني مستر تيرنر ذات مرة أنا وزميلي علي خميس علي العشاء. اعتذرنا له في ذاك التوقيت، لأننا كنا في شهر رمضان.

ثم قلنا له فيما بعد أننا نود تلبية دعوته. وقد كان. وأثناء تناولنا العشاء قال لنا: "**أنتم لستم مسلمين أتقياء. فأنتم لم تتبعوا رمضان بست من شوال. سائقي جمعة مسلم تقي. وهو صائم**". قلنا له إن صيام ست من شوال ليس فريضة، بل سنّة. أجاب: "**هذا بالضبط هو السبب في أنني قلت أنكم لستم مسلمين أتقياء. أنتم مسلمون وحسب. فالتقي يذهب في العبادة إلى ما هو فوق الفريضة**". وكان هذا درسا لن أنساه.

ولما كبرت، عينت ممثلا لزنجبار بمجلس محافظي جامعة ماكبريري. وتصادف أن كنت الوحيد ممن درسوا بها من قبل بين أعضاء ذلك المجلس. وهناك تعرفت علي **محاضر رياضيات**، توسمت فيه أنه شخص يألف ويؤلف. . أحسست بشئ ما في شخصيته جذبني إليه. كان لونه يميل إلي البياض، ويبدو خجولا، واسمه **كابازا**.

أثار اسمه شيئا في ذهني. تبينت لاحقا أنه **يهودي عراقي**، واسمه الأصلي بالعربية **خباز**. قال لي أنه كان طالبا في **كامبريدج حين أقيمت دولة إسرائيل**. وبعد تخرجه في تلك الجامعة لم يستطع العودة إلي **العراق** بسبب المشاعر المعادية لليهود الناجمة عن نشأة إسرائيل، وهو لا يحب الذهاب إلي إسرائيل التي يشعر بأنه لا رابطة تربطه بها. وحينما طرح إعلان عن وظيفة محاضر رياضيات انتهز الفرصة، واختار المجئ إلي ماكيريري. **تعاطفت معه**. فهل كان ذلك **إرهاصا بما سيحل بي في السنوات القادمة؟**

نقطة الضعف في أنني حين أتحدث مع شخص، وأنظر في وجهه، **أضع نفسي في مكانه وأراه مرآة ينعكس فيها كياني كله: لوني وعرقي ومشاعري**. نسيت أننا شخصيتان مختلفتان. إلا أن

الموقف يتغير حين يصير بين البشر صراع صريح. أما في غير تلك الحالة فيغيب بالمطلق وعيي بأية فروق بيننا.

وهذا هو ما دفعني إلي دعوة **كبازا** أو **خباز** لزيارة زنجبار، والإقامة **معي بمنزلي** خلال الأجازة. ربما كانت تجول بخاطري هاجس الرغبة في اكتشاف **اليهودي الخبيث المتخفي بداخله**. وربما كان هذا هو ذات المنطق الذي من أجله أراد الأستاذ دي بنسين رئيس ماكيريري آنئذ أن **يجعلني أقيم معه خلال فترة اجتماع المجلس**. إلا أن دي بنسين بعد أقامتي معه ثلاثة أيام قال لي: "**اكتشفت أنكم – الزنجبارين – مختلفين عن غيركم من الأفارقة. أنتم مثلنا تماما**". لم أتأكد هل كان هذا القول ثناء علينا، ولكنه كان من الواضح أن هذا هو ما يعنيه. فلقد أضاف قوله: "**اعتقد أن السبب أنكم لكم تاريخ**".

وسمعت كلاما مماثلا من كثيرين في مناطق عديدة من المعمورة. ومن واقع خبرتي الخاصة، فإن ما يسمى **بالفوارق** بين البشر هو أمر **ظاهري وسطحي بكل ما تتضمنه الكلمة من معنى**. فثمة سمات داخلية مشتركة تجمع بين كل البشر. أما الفروق فهي ظاهرية ومبالغ فيها، عن عمد لأغراض خفية أحيانا.

كنت في طريقي، في مارس 1958 لحضور احتفال غانا بالذكرى السنوية الأولي للإستقلال. احتجت إلي السفر من أوسومبورا بالكونغو إلي كانو في نيجيريا علي **طائرة تابعة لخطوط جنوب إفريقيا الجوية**. هيأت نفسي لمقابلة **سياسة العزل العنصري** التي اعتقدت أنني سأتعرض لها علي متن الطائرة. **كنت المسافر الوحيد غير الأبيض**. ومن المفارقات السارة أنني **لم أتعرض لأي شئ من قبيل ما كنت أتوقعه**. ولم ألحظ أي اختلاف بالمرة بين

الوضع علي متن تلك الطائرة، وأي خطوط جوية أخرى سبق لي السفر عليها. وهبطت الطائرة في كانو بسبب عطل فني. **واضطر المسافرون جميعا إلي النزول في فندق المطار الذي كنت سأقيم به علي أي حال.**

وبينما كنت أتناول العشاء، جاء جنوب إفريقي أبيض من أقصى مائدة، وسأل بأدب: "هل يمكن أن أجلس معك؟ رحبت به. راقبني عن كثب وأنا أتناول الطعام. ثم قال: "نحن الجنوب أفريقيين نُتهم ظلما بممارسة تفرقة علي أساس اللون. والحقيقة أن ما بيننا هو الحاجز الثقافي، وليس حاجز اللون. فرجل مثلك، علي سبيل المثال، لا يمكن أن يتعرض لأي تمييز. فأنت لست مختلفا عنا. ولكنك لا تعرف نوعية السود الذين لدينا في جنوب إفريقيا. ".

لم أشأ أن أقوض العلاقة الحضارية التي قامت بيننا. لذا لم أجادله. فالقدر جاء بي من زنجبار، وبه من جوهانسبرج، وجمعنا علي متن تلك الطائرة، ثم وضعنا وجها لوجه نأكل نفس الطعام. ربما كانت هذه هي **أول مرة** في حياته **يرى بانتوي**، أو بأي مسمى يسموننا به في بلادهم، ليس **خادما له**. ويقيني أنه استمتع بتناول العشاء مع شخص **غير أبيض، وتحادث معه حديث أنداد**. وبالنسبة لي كانت تلك تجربة سارة أن أسافر علي خطوط جنوب إفريقيا، وأن أتناول الطعام مع جنوب إفريقي أبيض. ووجدت أنهم **ليس لهم ذيول ولا قرون، وأنهم تماما مثلنا.**

والتقيت بعدها بخمسة عشر عاما، باثنين من جنوب إفريقيا، من البانتو السود هذه المرة، أحدهما **أسود** من الزولو، أسود مني قليلا، والثاني **أسمر** مثلي من الخوسا. وهما يمثلان القبيلتين الرئيستين في جنوب إفريقيا. وهما مناضلين من أجل الحرية

تابعين لمنظمة المؤتمر الوطني الإفريقي في تنزانيا. جمعني بهما السجن عدة سنوات. عشنا معا وأكلنا معا، كأصدقاء، بل كإخوة. ولم يحدث بيننا أدنى خلاف، رغم كوني **مسلما**، وهما **مسيحيان** إسما، لا يؤمنان بالمسيحية ولا يمارسانها. . وتجربتهما في تنزانيا مثيرة. كانا في الماضي **يعتقدان أن الإسلام ديانة خاصة بالأسيويين وحدهم**. ولم يكن لديهم فكرة عن وجود **أفارقة مسلمين**. ومنبع هذه الرؤى غير الصحيحة هو نظام العزل العنصري الساري آنذاك في بلادهم، حيث يحيا كل عرق في معزل قاصر عليه، بموجب القانون.

وفي ماكيريري، كنا **نحن المسلمون أقلية يسيرة في مجتمع أغلبيته العظمى من المسيحيين**. وذهل الطلبة وأعضاء هيئة التدريس حين تبين لهم أننا لا نختلف عنهم في شئ. فتاريخ أوغندا تاريخ **حروب قبلية ودينية**. الكاثوليك ضد البروتستانت، والمسيحيون مجتمعون ضد المسلمين. وكانت النتيجة هي **سحق المسلمين وهيمنة المسيحيين**، مع جعل **اليد العليا للبروتستانت** بوصفهم ربائب بريطانيا العظمى. في البداية كان المسلمون هم أصحاب الصدارة في ذلك البلد. ولكن الوضع انقلب مع تغلغل الإرساليات التبشيرية الاستعمارية.

وحين زرت أوغندا في أواخر الثلاثينيات، كانت آثار الأحقاد التاريخية لا تزال قائمة. **واختار مسلمي أوغندا المقهورين، مواصلة التحدي**. وظلوا يجاهرون بدينهم، ويختلفون في زيهم، ومنهم من يسير في شوارع العاصمة حاملا إناء من الماء للوضوء، ومتأبطا حصيرا للصلاة عليها. فهم يصرون علي

إظهار أنهم مختلفون. وأقلقت تلك الخاصية الإشهارية إخوانهم من غير المسلمين.

وفي المقابل حين رأونا من كانوا معنا من أولئك المسيحيين في ماكيريري، لا نبدي أي فرق ظاهري عن أغلبية من حولنا، رغم التزامنا بديننا، أعلنوا أنه: "**لو كان مسلمو بلادنا مثلكم، لما كان هناك أي داع للخلاف**" ومرة أخرى قالوا: "**أنتم غير مختلفين عنا**".

وعلى الرغم من أنني تربيت منذ طفولتي مع كاثوليك، وهندوس، وبارسيين، وبوذيين، في بيوت مجاورة لنا، وكان مبنى الكنيسة الكاثوليكية يفصل بين بيتنا وبيت أصهاري، إلا إنني لم تتح لي الفرصة لدراسة المسيحية كديانة. **قبلنا جيراننا كلهم واعتبرنا ذلك في حكم المسلمات. لم نتسامح فحسب مع معتقداتهم وممارساتهم المختلفة، بل احترمناها. شاركناهم في أعيادهم، وشاركونا في أعيادنا.**

وسنحت لي الفرصة في ماكيريري لدراسة المسيحية، لأنها كانت واسعة الانتشار. قرأت "الكتاب المقدس"، وناقشت أمور العقيدة مع زملائي الطلبة ومع أساتذتي. وصبيحة آيام الآحاد كنت أذهب إما إلى **الكتدرائية الكاثوليكية** في روباجا، أو إلى **الكتدرائية الإنجليكية** في ناميريمي. رغبت في سماع المواعظ. ولم يتطرق شك إلي جموع المصلين بأنني لست من بين المؤمنين بالكنيسة.

وفي الكلية لم **تفتني موعظة قدمها واعظ زائر**. وعبر صداقتي مع **جودفري بنايسا** الذي شغل فيما بعد منصبي المدعي العام والرئيس بأوغندا، اتصلت بوالده الذي كان رجل دين بروتستانتي.

وسر ذاك الأب العجوز لمّا قال له ابنه أنني **عربي**. وقال: "**محسن. أنت عربي ؟ أنا أحب العرب كثيرا. فحين زرت السودان أحسنوا وفادتي. استضافوني ثلاثة أيام. وقالوا لي أن من هدي نبيهم استضافة الضيف ثلاثة أيام على الأقل. لقد كانوا كرماء بحق**". ثم أهدى إلي نسخة من **إنجيل القديس يوحنا بالعربية**.

واستأنفت دراستي **للكتاب المقدس** في سجن دودوما. ودخلت في هذه المرة في العمق، بتوجيه من المبشر البروتستانتي الإسترالي **كنجسلي جرين**. وخرجت بقناعة تامة بأن ثمة **أرضية مشتركة كبيرة بين اليهودية والمسيحية والإسلام**، تفوق ما بينهما من فروق ظاهرية. ويتضح ذلك بوجه خاص لو ميزنا بين **النصوص المقدسة والوعظ الطائفي الكنسي**. وضمنت النتائج التي توصلت إليها في كتيب أسميته: "**لندع الكتاب المقدس يتكلم**" في الطبعات الثلاث الأولى منه، ثم أسميته: "**الكتاب المقدس يتكلم**" في الطبعة الأخيرة الموسعة.

والمغزى المستفاد من كل هذا الطرح، أن البشر جميعا جنس واحد. ولا ينبغي أن تكون الاختلافات في لون البشرة ولون العينين ولون الشعر، أو حتى في العقائد والتصورات، عائقا يحول دون عيشهم معا، يتفهم كل منهم الآخر، ويعاونه. ومن المؤسف، أن النفعية العابرة تعمي كثيرين منا عن رؤية فساد تصرفاتنا. ولقد كتبت من سنين في جريدة المرشد مقالة بعنوان: "**الصحيح أخلاقيا حكيم سياسيا**". ولو اتخذنا من هذا المبدأ مرشدا لنا فسوف يكون هناك أمل في المستقبل.

قلت من قبل أن الأستاذ دي بونسين قال أننا معشر الزنجباريين" لسنا مختلفين عنهم. لأن لنا تاريخ". وهذه المقولة بالغة الأهمية.

فكل شعب، أيا كان، له تاريخ، فيه ما يدعوا للفخار، وفيه ما يدعوا للخجل.

وحينما تقدمنا بالتماسنا إلي لجنة الأمم المتحدة لتصفية الاستعمار، للمطالبة باستقلال زنجبار، أهديت كل عضو من أعضاء اللجنة السبعة عشر نسخة من كتاب: " **زنجبار إلي أين؟**" الذي نشره الحزب الوطني الزنجباري. وقبل ذلك قدمت لتلك اللجنة في أول اجتماع لها يعقد على القارة الإفريقية في المغرب عام 1962 **وصفا توضيحيا لتاريخ زنجبار حتى الآن**. وأعجب الأعضاء بشدة بحقيقة أن زنجبار، كانت من أمد بعيد، أمة متحضرة، وآمنوا بانه ينبغي معاملتها علي هذا الأساس. **فزنجبار واحدة من أقدم الدول الإفريقية**. وهي بالتالي جديرة باستعادة حريتها السليبة بأسرع ما يمكن. كان هذا هو الحكم العام الذي انتهت إليه اللجنة، وعبرت عنه صراحة في المداولات. ووصف المندوب الإيطالي الطرح الذي قدمته للجنة بأنه: "**بيان أكاديمي علمي** ". ووصفني المندوب الروسي بـ "**المدافع البارع**". وحتى المندوب الأمريكي هنأني.

وبينما كنت في المغرب عام 1962، سمعت بالإذاعة أن العديد من أعضاء الحزب الوطني الزنجباري، ومن بينهم بابو أمين عام الحزب، قد اعتقلوا بموجب **ترتيبات حالة الطوارئ** التي أعلنها المقيم البريطاني. وتلقيت تعليمات من الوزير الزنجباري الأول الشيخ محمد شامتي بضرورة عودتي إلي الوطن علي الفور، وألا أتوجه كما كان مقررا من قبل إلي لندن.

غيرت جدول زيارتي المزمعة لتونس والصومال التي دعيت لزيارتهما وعدت إلي زنجبار مباشرة. حدثت تلك الوقائع بعد فشل

المؤتمر الدستوري الأول عام 1962، وبسبب هذا الفشل. واتهم من تم اعتقالهم بأنهم نشطاء حزبيين تآمروا لإحداث اضطرابات بإشعال النار في بعض المباني والقيام بأعمال تخريبية، للإستياء من رفض بريطانيا لطلب حكومة الحزب الوطني وحزب الشعب، الانتقال من مرحلة الحكومة المسؤولة إلي وضعية "**حكومة الحكم الذاتي الداخلي** ".

فلقد انصاعت الحكومة البريطانية لمطالبة حزب الأفروشيرازي بتعليق أي تقدم دستوري علي إجراء انتخابات جديدة أولا. ولم يكن قد مر بعد عام واحد علي الانتخابات العامة التي أجريت، وراح ضحيتها أرواح ثمانية وستين شخصا علي يد حزب الأفروشيرازي. ولم يكن أي منا نحن الوزراء، بما فينا الوزير الأول، أي سلطة فيما يتعلق بالمسائل الأمنية بالمرة، في تلك المرحلة، حيث كانت حقائبنا الوزارية محصورة في: الوزير الأول، وزير التربية، وزير الزراعة، وزير الأشغال، وزير الصحة. وكانت سلطة **إعلان حالة الطوارئ** حقا حصريا للمقيم البريطاني. واعتقل بموجب السلطات المخولة له من تم اعتقالهم من أعضاء حزبنا. وبعد وصولي إلي زنجبار التقيت أنا والوزير الأول مع المقيم البريطاني. وأهبنا به أن يطلق سراح المعتقلين أو يقدمهم للمحاكمة. قال جورج مورينج: " **لدي دليل أقنعني بأنهم متورطون في مؤامرة لخلق فوضى عبر تدبير حرائق. ولكن هذا الدليل لا يمكن عرضه علي محكمة**".

عندها قلت له بلهجة متحدية أكثر منها مجرد تقرير للحقائق: "وأنا لدي دليل مقنع بالنسبة لي، ولكنني لا أستطيع عرضه علي محكمة علي أن المؤامرة كلها مختلقة من جانب الإدارة

الاستعمارية". وهنا وصلنا إلي طريق مسدود. وهددت بالإستقالة من الحكومة. قلت له أنني لا أستطيع أن أظل عضوا بحكومة تحتجز أعضاء حزبنا في السجن دون محاكمة، وتخلق حالة طوارئ نحرم بموجبها من حق الاجتماع، بما أن لوائح الطوارئ تحظر الاجتماعات العامة.

كانت هذه هي ثالث مرة أعلن فيها المفاصلة الرسمية مع سلطة الاحتلال. إلا أن الوزير الأول حثني علي التحلي بالصبر، لأن مثل هذه الخطوة ستخرج نضالنا الوطني عن مساره الأساسي المتعلق بالإصلاحات الدستورية. رضخت لمشورته الحكيمة، وكبحت جماح تشددي الشبابي. وما كنت لأذكر هذا الحادث المؤسف لولا التحريف التالي لبابو في مقاله السالف الذكر الذي أعيد نشره في كتاب بعنوان: **زنجبار تحت الحكم الاستعماري** [6] والذي جاء به: "بعد الانتخابات العامة عام 1963، وما نجم عنها من صدور دستور الحكم الذاتي، شكل الحزب الوطني وحزب الشعب، **الحكومة الجديدة**، التي تمتعت بكل سلطات الدولة عدا الاستقلال التام. وكان المستعمرون لا يزالون محتفظين بحقائب وزارات الدفاع والشؤون الخارجية والمالية، ولكن **معظم سلطات القمع والإكراه كانت في يد الحكومة الجديدة غير المستقرة**. وتلك الحكومة هي التي **اعتقلت وسجنت الكثير من النشطاء ومن اليساريين بما فيهم السكرتير العام للحزب الوطني الزنجباري** ".

---

[6] انظر الكتاب المشار إليه ص 238.

وهكذا يتبين أن لدى بابو قدرة مرموقة علي تشويه الحقائق والتلاعب بالتواريخ لتوافق آراءه ووجهة نظره. فاعتقاله هو وبعض أعضاء الحزب الوطني (ومن بينهم صهري عبد الله سعود وابن اختي محسن بدر) حدث عام 1962 في ظل حالة الطوارئ التي أعلنها المقيم البريطاني، وليس بعد انتخابات 1963 كما يزعم. وفي عام 1962 لم يكن لدى الوزراء المنتخبين أية سلطات من أي نوع كانت، ذات صلة بتطبيق القانون. **فالاتهام برمته من نسج خيال بابو.**

الفصل السادس عشر

زنجبار والرق[1]

أولا: زنجبار بين الريادة في حظر الرق وأباطيل المستعمرين والتبشيريين

من المستحيل تقريبا أن ترى كلمة **زنجبار** مكتوبة، دون إلحاق **مؤسسة الرق** بها. وحينما عادت لجنة تصفية الاستعمار إلي نيويورك بعد جولة في إفريقيا، صب **نسيلو سواي** سفير تنجانيقا لدى الأمم المتحدة كل ما تراكم في قلبه من سخائم الحقد علي اسم **زنجبار الطاهر**، وتفوه بشتائم لم تسمع أذن نظيرا لها. بث

---

[1] يقدم هذا الفصل إضاءة معرفية بالغة العمق، وعظيمة الأهمية، تتعلق بتعرية موقف الغرب الاستعماري من حقوق الإنسان. فالتجارة في البشر جرم باء الغرب الاستعماري بنصيب الأسد منه، وكان هو آخر من يقلع عنه. والأهم أن الاستعمار يرمي غيره بدائه، ويستهدف الغمز في العروبة والإسلام بالباطل، ويولد نوعية من عقلية العبيد، بغرس أساطير في العقل الإفريقي تكرس الشعور بالدونية وبعقدة الذنب. ويبين المؤلف بحق أن **إفريقيا لم تكن أبدا طيلة تاريخها في موضع الضحية والمستعبد**. وينعي على من **ينسجون على منوال المستعمر والمبشر الغربي، ويرددون مقولات تكرس الإحساس الزائف بفضل الغرب عليهم، وبدونيتهم**، ويعززون بذلك من فرص الاستغلال الخارجي لبلادهم، ومن بذر بذور الفتنة في صفوف أممهم. ويبين المؤلف أن الغرب أتى معه **ببعض مظاهر التمدين المادي**، لكنه بالمقابل أتى معه **بموبقات أخلاقية** مدمرة. واجتهد في تشويه البنية الثقافية والأخلاقية لشعوب المستعمرات، على نحو لا تزال مفاعيله السلبية تنخر فيها حتى الآن. ويعري المؤلف دور الإرساليات، وما يسمى **برهبان الأديرة** في انتهاك كرامة الإنسان والتمثيل به حيا وميتا، ويرصد وقائع في هذا الصدد تشيب لهولها الولدان. ثم يختتم المؤلف هذا الفصل بتفنيد دعوى الغرب تحرير المرأة، مبينا أنه اغتال أنوثتها وآدميتها معا. ويبين بالمقابل أن الإسلام وحده هو الذي أعلى من شأن المرأة، ورتب العلاقة بينها وبين الرجل بوسطية مواكبة للفطرة التي فطر الناس عليها، على نحو يكفل عزتها، ويديم الفضيلة والعفة في المجتمع، ويحميه من أمراض جسدية ومعنوية واجتماعية لا قبل له بها – المترجم

الرجل الحياة **في كل الأساطير الملفقة التي نسجتها الإرساليات التبشيرية** حول: "**وحشية النخاسين العرب**". وأضاف إليها المزيد من نسخ خياله. وقذف وشهر في كل اتجاه، ثم قال بصوت هامس مملوء بالاستهجان: "**هذا هو ما يسمى الحضارة العربية. هذا هو ما يسمى: الحضارة الإسلامية**"

وأضاف السفير التنجانيقي أن زنجبار جديرة بأن تسمى بحق "**الحانة النتنة**" لأن رائحتها عفنة. ولب أطروحته، المساند للموقف الثابت للحزب الإفروشيرازي، أنه **بالنظر إلي ما عرفه تاريخ زنجبار من مظالم، وبالنظر لوجود نسبة يعتد بها في تركيبة سكانها المتعددة الأعراق من العرب، فإن هذا البلد ليس مؤهلا بعد للحصول علي الاستقلال. ويجب أولا القيام بحملة** تطهير عرقي مبرم.

أذهلني هذا الطرح، وقمت بتفنيده نقطة نقطة بكل دقة، وكشفت أباطيله، وجعلته في موضع يرثى له، وألجمته وأسكته. أكدت علي عدم صلاحية الحجة التاريخية، لأنه **لا توجد دولة في العالم لم يعرف تاريخها علي الإطلاق أية شرور.**

فتنجانيقا نفسها عرفت **النخاسة وتجارة العبيد**. وفي حين ألغيت النخاسة من **زنجبار عام 1897**، فإنها ظلت مزدهرة في تنجانيقا حتى **عشرينيات القرن العشرين**. فهل أعاق ذلك استقلال تنجانيقا بأي حال؟"

وعرفت **الولايات المتحدة النخاسة من نوعية يصير ما عرفته زنجبار منها في حكم العدم**. فهل يستطيع أحد الزعم بأن الولايات

المتحدة كان يجب أن لا تكون دولة حرة لأنها مارست الرق في ماضيها وبحجم لا نظير له في ضخامته في أي بلد آخر؟

ثم إن السفير التنجانيقي يزعم أن حكومتنا ليست ممثلة لشعبنا بدرجة كافية، بدعوى أنها ليست منتخبة بنسبة مئة في المئة. وأود أن أقول له أنه يكفي تماما أن حكومتنا قد انتخبت بنظام انتخابي يتمتع في ظله 30% من إجمالي المواطنين بحق التصويت، في حين أن حكومة بلاده المعينة، انتخبت في ظل نظام يعطي هذا الحق لـ 9% فقط من المواطنين. ومع ذلك فإن تنجانيقا تتمتع تماما بالاستقلال.

أخرسته، فلم ينطق ببنت شفة، اللهم إلا التمتمة المشوشة بأنهم في المرة القادمة سيجعلون حق الانتخاب يشمل كل ناخبيهم. قلت إنه من المؤسف أن كل من في **قلوبهم مرض وأحقاد مقيتة يرمون زنجبار بها**، ويتخذون منها كبش فداء. فهم يستهدفون زنجبار سواء انصرفت نيتهم لمهاجمة العرب أو المسلمين، أو الرأسماليين، أو الشيوعيين، أو الإقطاعيين. وأنا أقول أننا لسنا عرب، ولا مسلمين، ولا شيوعيين، ولا رأسماليين. نحن ببساطة **زنجباريون نصبوا إلي استعادة حريتنا السليبة.**

ابتهج المندوب البريطاني سير هوف فوت، وطلب الكلمة وقال: "علي من ينتقدون بريطانيا العظمى بدعوى أنها لم تساعد مستعمراتها بما فيه الكفاية، أن يراجعوا أنفسهم بعد سماع هذا المتحدث. هذا هو النوع الذي تعلم علي يد بريطانيا. حين استمعت إليه سادني إحساس بأنني في مجلس العموم".

وأود القول أن نسيلو سواي، رجل لا غبار عليه بوجه عام، ولكنه **قال ما قاله امتثالا لأوامر من رئيسه نيريري**، الذي يريد فعل كل ما في وسعه لإعاقة حصول زنجبار علي الاستقلال، إلي أن يأتي اليوم الذي يكون بوسع تنجانيقا التهامها فيه. ومن الأمور ذات الدلالة أن حزب الأفروشيرازي كان ممثلا في هذا الاجتماع برجلين هما عثمان شريف الذي لقي حتفه علي يد كارومي بعد ذلك بأعوام معدودات، وكارومي السفاح الذي مات ميتة الغاصب علي يد أحد ضباط جيشه.

ومن المؤسف أن حكومة زنجبار لا تزال حتى الآن غير واعية بالضرر الهائل الذي تلحقه بنفسها، وبزنجبار، بترديد الحكايات الأسطورية التي اصطنعتها الإرساليات التبشيرية الاستعمارية في القرن الثامن عشر. ومن المفهوم أن لتلك الإرساليات مآرب خفية من وراء ذلك، تتمثل في تقويض سيادة دولة زنجبار وحريتها، التي ساءهم أن وجدوها قائمة وفي أزهي تألقها. وأرادت تلك الإرساليات أن تقيم الاستعمار محل تلك السيادة والحرية. وسعت تلك الإرساليات إلي تقويض الإسلام الذي وجدوا أهل البلاد عليه، واستبداله بدينهم، بما أن القيام بتلك المهمة هو المبرر الذي تدفع بلادهم رواتبهم من أجله، وهو مصدر رزقهم.

وبعد أربعين سنة من تأسيس منظمة **إرسالية الجامعات بإفريقيا الوسطى** (UMCA) في زنجبار، رغبت الجهات الراعية لها، في إغلاقها، لأنها بعد مرور عقود أربعة لم تحقق نتيجة تذكر تبرر بقاءها. فردت الإرساليات المقيمة في زنجبار بالتماس للسماح لها بمواصلة عملها، جاء في هيئة كتاب بعنوان: "**أين نعيش، وماذا نفعل؟**" وكان هذا الكتاب بمثابة قائمة من الحقائق المشوهة.

فالتقرير يزعم أن أهالي زنجبار ليس لديهم أي **إحساس بالخطيئة. والإسلام هو السبب.** وبطريقة جعل **قبة من الحبة**، يعقد ذلك الكتاب عنوانا بحجم: **"القمار يمارس في كل بيت بزنجبار"** استنادا علي **صورة فوتوغرافية** لمجموعة صغيرة من المواطنين العاديين المحترمين في نجامبو، يلعبون الورق كما نتسلي عادة.

ولا تفوتنا هنا نقطة غائبة علي درجة عالية من الأهمية، ألا وهي أن **لعبة الورق** في الغرب تتم دائما **برهان علي مال**. ولا وجود بالمرة لمثل هذا التصرف بين السواحيليين. ويزعم ذلك التقرير أن معظم أبناء زنجبار **مدمنون** إما للخمور أو للأفيون. وبهذه التلفيقات، وكنتيجة لها، سمح للبعثة بالبقاء. وضمن المبشرون الإرساليون المحليون وظائفهم. وظنت سيدات لندن الطيبات المسنات أنهن يخلصن أرواحا من أجل المسيح، إن لم يكن الآن، فعلي المدى الطويل.

وقبل ذلك حاول البرتغاليون تحويل ساحل شرق إفريقيا إلي المسيحية، مع فارق واحد هو أن **طريقتهم كانت أكثر وحشية.**

فلقد قتل البرتغاليون، وحرقوا، ونهبوا منطقة شرق إفريقيا بكاملها علي مدى قرنين من الزمان. وكانت غايتهم كما يصفها ليندون هاريس هي: **تنصير الشرق وتحويل تجارة المحيط الهندي المربحة إلي خزائن لشبونه.** وكانت حروبهم – كما يقول وليام هيشنز – بذات روح الحملات الصليبية. وخرجوا من تلك الحملة بالخيبة المطبقة.

فلقد استطاع أبناء شرق إفريقيا بمساعدة إخوانهم في الدين والدم من عمان، أن يحرروا أنفسهم من القهر البرتغالي. إلا أنهم ما أن

نفضوا عن بلادهم وأنفسهم نير **الاستعمار البرتغالي**، حتى أتاهم **غزاة جدد**، ولكنهم هذه المرة أشد مكرا. جاءوا في **عباءة الاستكشاف، المتبوع بالتبشير، والزعم بالرغبة في تخليص إفريقيا من السوط الأكبر المسلط عليها وهو الرق، بينما كان الاستغلال الإقتصادي والاستعمار علي قمة أولوياتهم في حقيقة الأمر.**

ومن الإنصاف القول بأن الاستعمار حقق بعض الخير لإفريقيا. فأنا لست ممن يرون أن **الأمور التي هي في جوهرها شرّا، تخلوا تماما من أي خير. فالخير في بطن الشر.** فالمستعمرون فتحوا بلادنا، وجاؤا معهم بالقانون، والنظام، والمدارس، والمستشفيات، والطرق والسكك الحديدية، والخطوط الجوية والبحرية التي تربطها بالعالم الخارجي. إلا أنهم، في المقابل، أبطلوا كل هذا العمل **الصالح بغرس الأحقاد بين الشعوب وبتحريف التاريخ.**

في البداية، جعلوا الأفارقة يؤمنون بالكلمة المطبوعة، ثم **غذوهم بالنفايات.** وجدوا أن السواحيلي يتعلم القراءة والكتابة بلغته مستخدما أبجدية عربية، **فخلقوا منه أميا ليتمكنوا من تعليمه أبجديتهم المستوردة، ومطبوعاتهم الدعائية المحرفة للتاريخ.** نعم أتوا بأدوية، ولكنهم أتوا أيضا بسموم الكحوليات والخمور. **سمموا شعويا بكاملها.** وباتت الخمر وليس المياه هي الشراب المفضل في زنجبار الآن. وبدعوى **تحرير المرأة**، أشاعوا الفاحشة، وجعلوها تبيع جسدها، وابتلوها بأمراض عضال من السيلان، إلي الزهري، وصولا إلي ما هو أدهي وأمر، مرض نقص المناعة المكتسبة: الإيذز. أرسوا النظام والقانون، ولكنهم جاءوا بالبنادق والقنابل اليدوية، وبرفقتهما المخدرات والقمار.

والأنكى من كل هذا، أن كل إفريقي تجرى له **عملية غسيل مخ، بمجرد أن يدخل من باب مدرسة الحضانة، بحكايات مزيفة عن النخاسة وتجارة العبيد بغية غرس الكراهية بداخله لنفسه، وإصابته بعقدة نقص.** فالإفريقي يصور في كل الكتب المدرسية التي تدرس له علي أنه في مؤخرة الركب. وتصور له إفريقيا والأفارقة علي أنهم كانوا علي الدوام في موقع الضحية للعدوان والاستغلال الخارجي، وأن القارة السمراء هي **قارة العبيد**. ومع أن في هذه المقولات **شئ من الحقيقة**، فإنها **لا تمثل الحقيقة بكاملها.**

فمن إفريقيا جاء **هانيبال** الذي استطاع بجيشه القرطاجني المعزز بالفيلة أن يعبر جبال الألب بغية إخضاع الإمبراطورية الرومانية، بعد أن قهر أسبانيا. واتخذ هانيبال الإفريقي **عبيدا من الأسرى الأوربيين في غزواته المذهلة.** ومن إفريقيا جاء **سيدنا موسى** عليه السلام، وخلد اسمه وذكراه في الإنجيل والقرآن. وقاد القائد الإفريقي **طارق بن زياد** الجيش الإسلامي وفتح به أسبانيا، وأسس حكما دام ثمانية قرون، في ذلك البلد الأوربي. وتخلصت القارة الأوربية، بفضل هذا الحكم ذاته من عصور ظلامها، بإدخال التعليم الابتدائي العام، وإنشاء أولى الجامعات بها.

وعرف اليهود أزهي عصور تاريخهم، في أسبانيا المسلمة، علي حد قول الكاتب اليهودي **لويس جولدنج** في كتابه الموسوم **(المشكلة اليهودية)**. ومع سقوط دولة الإسلام في أسبانيا **عاد الظلام ومعه محاكم التفتيش**، تلك المؤسسة المسيحية التي كان هدفها هو استئصال شأفة اليهود والمسلمين وكل أصحاب التفكير الحر، وفي مقدمتهم العلماء. وحمل **المصريون**، وهم شعب

إفريقي لواء الحضارة ألوف السنين، وصنعوا معجزات لا تزال موضع إعجاب البشرية جمعاء حتى اليوم. وتتحدى **الأهرام**، إحدى عجائب الدنيا السبع، كل الحسابات. و**الأزهر**، أقدم جامعة في العالم جامعة إفريقية. وعرفت إفريقيا **حضارات:** تمباكتو، وغانا، وزيمبابوي، وزنجبار. وعلي ضوء هذا كله، لام الرئيس الكاميروني المغتال سيلفانو أوليمبيو، **ذوي النفوس الضعيفة من الأفارقة الذين يتشدقون بأن جدودهم كانوا عبيدا.** واعتاد رحمه الله أن يقول بفخر مبرر أو غير مبرر: "**أنا لست سليل العبيد. أنا سليل ملاك العبيد**".

ومع هذا كله، فإن أدب الإرساليات التبشيرية الاستعمارية يسعى إلي صبغ الإفريقي بعقدة النقص. فيقال للطالب الإفريقي أنه **عبد وضيع**، وما جاء الرجل الأبيض إلا ليحرره من **الرق**. وأنه كان **عاريا**، فجاء الرجل الأبيض **ليكسوه.** وكان **متوحشا**، فجاء الرجل الأبيض **ليمدّنه**. وكان **وثنيا** فجاء الرجل الأبيض **ليعطيه ديانة.** فالحط من قدره، وتلويث ماضيه، هو الطريق إلي جعله يقدر الخير الذي أفاضته الإرساليات التبشيرية الاستعمارية عليه. وهذا هو السبيل الوحيد لجعله طيعا سهل القياد، ولجعله يتحمل نير الاستعمار بلا تذمر. وبهذه الطريقة تصاب عيناه بالغشاوة.

ويواصل **عملاء الاستعمار** من أبناء شرق إفريقيا،، سواء كانوا من زنجبار أو من البر الإفريقي، أو من بقية مناطق الساحل، **ترديد الإهانات التي انهالت علي رؤوسهم علي لسان أسيادهم الاستعماريين في المدارس.** ويشير الكتاب الغربيون بأصبع الإتهام إلي الإسلام الذي يمثل التحدي الأكبر بالنسبة لهم، حين يتحدثون عن تجارة العبيد. ويحاولون بذلك التغطية علي الدور

المقـــزز الـــذي لعبتـــه الـــدول الغربيـــة المســـيحية فـــي ذاك العمـــل المشـين، لـيس فـي غـرب إفريقيـا فحسـب، بـل فـي شـرق إفريقيـا أيضـا. وعلـي الـرغم مـن ذلـك، فـإن كتابـاتهم المحرفـة إلـي أبعـد حـد لا تخلـوا مـن **بعـض حقـائق بـارزة**، تتضـمن قـرائن دالـة علـي الحقيقـة الأساسـية لتلـك المسـألة. ولنقـرأ، علـي سـبيل المثـال، مـا كتبـه **ميـدلتون وكامبـل** فـي كتيبهمـا المعنـون: "**زنجبـار: المجتمـع والسياسة**" من أن:

"قراصـنة عـرب مـن منطقـة الخلـيج الفارسـي كـانوا يمارسـون النخاسـة فـي بدايـة عهـد السـيد سـعيد بـن سـلطان. **فـأزال السـلطان هـذا التهديـد**، وأحـل السـلام بحظـر **بيـع العبيـد لهـم**. ثـم أصـدر أمـره عـام 1822 بحظـر بيـع العبيـد لغيـر المسـلمين أيضـا. وأضـعف بـذلك التجـارة الفرنسـية فـي العبيـد بممتلكاتهم بالمحيط الهندي ".

ويتضـح ممـا سـبق، أن العـرب الـذين كـانوا يسـتعبدون غيـرهم كـانوا يمارسـون عمـلا لا يقـره الإسـلام. فهـم موصـفون بـكونهم" **قراصـنة مـن الخلـيج الفارسـي** " وحظـر السـلطان شـراءهم عبيـدا. وحظـر مـن وقـت مبكـر يعـود لعـام 1822 بيـع العبيـد لغيـر المسـلمين ممـا أضـعف التجـارة الفرنسـية فـيهم، وكـاد يـدخل فـي حـرب ضـد الفرنسـيين بسـبب اسـتمرارهم فـي أخـذ عبيـد مـن كلـوا بتنجانيقـا متحـدين الحظـر الـذي فرضـه. وهنـا نشـاهد الصـورة الحقيقيـة **لحـاكم مسـلم يحظـر بيـع العبيـد لدولـة مسـيحية "متحضـرة" تصـر علـي مواصلة الاتجار في البشر بالقوة.**

وفيمـا يتعلـق بالأوضـاع الاجتماعيـة فـي زنجبـار تحـت حكـم السـلاطين منـذ مـا يربـو علـي قـرن مـن الزمـان، تقتـبس السـيدة **سـالمة**

ابنـة سـعيد بـن سـلطان التـي هربـت مـع تـاجر ألمـاني، وتحولـت إلـي المسـيحية فـي كتابهـا "**مـذكرات أميـرة عربيـة**" نقـلا عـن كتـاب للكاتـب الإنجليـزي **جوزيـف تومبسـون** صـادر فـي مجلـدين فـي لنـدن عـام 1881 أنه:

"لـم يعـد أحـد يـرى **عبيـدا جياعـا**، أو **عرضـة لسـوء المعاملـة**، لأن السـلطان كـان بمجـرد أن يعلـم بـأي **واقعـة معاملـة وحشـية**، يحـرر مـن تعـرض لهـا علـي الفـور، ويحميـه مـن بطـش سـادته. ويبـدو، بحـق، أن **تلـك الطبقـة تعـيش فـي وضـع مـريح للغايـة هنـا، وتتمتـع بحريـة تفـوق عشـرة أمثـال الحريـة التـي يتمتـع بهـا الكتبـة والبنـات اللاتـي تعملن في الحوانيت**".

وألغـى السـيد **بـرغش بـن سـعيد**، تجـارة العبيـد بالكليـة فـي كـل ممتلكاتـه، وأغلـق سـوق النخاسـة الـذي كـان فـي زنجبـار، فـي عـام 1872. وبعـد **ثمانيـة عشـر عامـا كاملـة**، وفـي عـام 1890 وقعـت **الـدول الغربيـة علـي ميثـاق بروكسـل الـذي يحظـر الاتجـار فـي العبيـد**. ويتنـاقض ادعـاء ميـدلتون وكامبـل أن السـيد بـرغش حظـر تجـارة العبيـد عـام 1872 " **تحـت ضـغط عظـيم مـن الحكومـة البريطانيـة**" مـع حقيقـة أن الـدول الغربيـة نفسـها لـم تحظـر تجـارة العبيد حتى عام 1890.

فلـو صـح أن الحكومـة البريطانيـة مارسـت ضـغوطا علـي بـرغش ليحظـر تجـارة العبيـد عـام1872، فمـا الـذي منـع البريطـانيين والألمـان مـن حظـر تجـارة العبيـد فـي كينيـا وتنجانيقـا اللتـين كانتـا خاضـعتين لحكمهـم إلا بعـد حظرهـا فـي زنجبـار بعـدة عقـود؟ ومـع كـل هـذا لا تـزال الوقاحـة تصـل بنيريـري إلـي حـد ترديـد مقولـة أن

زنجبار كانت "**تواة الرق**". والحقيقة أنه من المستحيل أن يكون **أي زنجباري على قيد الحياة عبدا في يوم من الأيام، بالنظر لكون الرق قد ألغى في زنجبار منذ قرن من الزمان.**

وفي المقابل، قد يكون بين التنجانيقيين الأحياء بعض من كانوا عبيدا في الماضي، لأن الرق لم يحظر فيها إلا في عام 1920. وفي ضوء كل هذه المعطيات، أليس من المزعج بحق، أن نجد بعض الغوغائيين ممن هم من أصل عربي أو هندي أو قمري أو شيرازي، ينسجون على منوال نيريري، فيما يتعلق بمسألة الرق، بينما لا يوجد قمري أو هاديمو، أو بمباوي أو تمباتو سبق استعباده. كما لم يتم استعباد أي موينى، أو مونجوانا أو سواحيلي من الساحل الأفريقي. ولو كان لأي من هؤلاء علاقة بالرق فهي بوصفهم ملاكا للعبيد، وليس بوصفهم عبيدا.

فالواقع أن العبيد كانوا يجلبون من البر الإفريقي الذي كانت **العبودية متأصلة فيه، وليس من جزر السواحليين**. وأول مجموعة من العبيد سجلها التاريخ في زنجبار هي أولئك العبيد الذين جلبهم برتغالي في **القرن السادس عشر** بطلب من شيرازي جمبانجوم في بيمبا كشرط للسماح له بالإقامة في الجزيرة الخضراء.

ومن الحقائق الثابتة أنه حينما صار تحرير العبيد إلزاميا بالقرار الذي أصدره السيد حمود عام 1897، تبين أن ما كان بيد **الشيرازيين من عبيد كان ضعف ما بيد العرب**. والخلاصة أنه، ليس ثمة أمة **تحتكر الفضيلة**، أو **تنفرد بالرذيلة**، في هذا الموضوع، أو في غيره.

ثانيا: العبد الخصي

يقول المثل السواحيلي: من يريد أن يحقرك، لن يدقق في الشتائم. سيشهر بك بما يتيسر له".

ولنبدأ بتهمة أن الزنجباريين اعتادوا **خصي العبيد**. وعلى حد علمي فإن هناك حادثة واحدة مسجلة في عهد السيد برغش (1870-1888) أزال فيها مالك **خصيتي عبده الذي اغتصب ابنته**. وما كان من **برغش إلا أن سجن هذا السيد، ليس لكون عبده لا يستحق العقوبة التي أنزلها به، وإنما لأنه ثأر لنفسه بنفسه**. فالحكومة وحدها هي صاحبة الحق في تحديد العقوبة وتطبيقها وفق القانون.

وفند الدكتور ويندل فليبس الأمريكي الجنسية مقولة **الخصي** هذه في كتابه (**تاريخ عمان**). وفي أربعينيات القرن العشرين قام الدكتور **ويندل فليبس** بصحبة أستاذ الجغرافيا الدكتور **محمد عوض**، والدكتور **محمد متولي** أستاذ علم الإنسان بجامعة القاهرة بزيارة لزنجبار فيما أسموه "**مهمة إفريقية**". ولما كان الأستاذان المصريان زميلين للدكتورة **فاطمة سالم سيف المعمرية**، فإنني استضفتهم فترة وجودهم في زنجبار. ثم واصل ويندل مهمته العلمية في **جنوب الجزيرة العربية والخليج** فيما بعد. وكان هو أول من **اكتشف البترول في عمان**.

وقد أكون معذورا في الاستشهاد المطول الذي سأورده هنا من كتابه الهام المجلي للحقيقة. يقول ويندل فليبس:

"كان **خصي العبيد** عرفا من أبشع ما تفتقت عنه قريحة الإنسان. وينسب المؤرخ الروماني **امينوس مارسيلينوس**

(325-398 م) إختراع تلك الفكرة إلي الملكة **سميراميس** التي حكمت الأشوريين من عام 811 حتى عام 808 قبل الميلاد. ولكن تلك العادة قد تكون أقدم من ذلك. فهي كانت سائدة في كل أرجاء آسيا. وكان هناك خصيان في خدمة بلاط الأباطرة الصينيين من وقت مبكر يعود علي الأقل إلي عهد ين وانج (781 قبل الميلاد).

وينبغي الإشارة في هذا المقام، قبل الانتقال من العموميات إلي التاريخ، إلي أنه بينما واصلت **الكنيسة الكاثوليكية الرومانية** تأييدها لهذا العمل الوحشي واللاإنساني حتى القرن التاسع عشر (في الواقع حتى 1878) واستعمال الخصيان، مع إيقاع هذا الفعل **بأربعة آلاف طفل من روما** في العام السابق لصدور مرسوم البابا كليمنت السادس عشر بحظره، فإن حكومة **الإمبراطور دومتيان** حظرته في القرن الميلادي الأول، كما حظره النبي محمد الذي أدان المثلة بكل أشكالها، وقال برمزية رفيعة، أن "**الصوم فقط هو الوجاء**[2]"

وبالنسبة للفترة التي تعنينا هنا، فإن الدير القبطي بجبل عطر بالسودان هو من المصادر الرئيسة **للطواشي**، حيث يحقق الرهبان أرباحا طائلة من تزويد **الأسواق الإسلامية والمسيحية** بهم. ويقدم ب. **س. رومينديو** وصفا مثيرا

[2] يشير بذلك إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه لو **وجاء** ". فالصوم – لا التمثيل بالبشر – هو الوجاء. المترجم

لهذا **المصنع للمخصيين**، ناقلا عن المستكشف **راؤول دي بيسون** وهو أحد المستكشفين في القرن التاسع عشر، أنه بالدور الأرضي من مبنى ذلك الدير الشبيه بالقلعة، غرفة عمليات بها كل الأدوات اللازمة لإجراء هذه العملية الرهيبة.

ويمدد الطفل **الصغير المسكين، أو السجين أو العبد التعيس**، علي منضدة العمليات، وتثبت رقبته بمثبت في المائدة، ويباعد بين رجليه، ويثبت رسغي قدميه بطوقين حديديين، ويمسك مساعدين، كل بأحد ذراعيه. ثم يقبض من يجري العملية **القضيب والخصيتين ويجرة موس حاد يزيل الجزء الظاهر من أعضائه التناسلية بالكامل.** ويصل الجرح الناتج عن ذلك إلي عظم العانة، وينتج **قرحة لا تلتئم بسهولة.** ثم يتم إدخال **أنبوب قصير من الخيزران أو قثطرة في مجرى البول**، لمسافة تصل إلي بوصتين، **دون أي اهتمام بما يترتب علي ذلك من نزيف**، ليتسنى خروج البول منها.

ويغطى الجرح كله بمجرد ضمادة، ثم يدفن الضحية الصغير في الرمل الدافئ حتى رقبته، ويترك معرضا لأشعة الشمس الحارقة. ويحاط جسده الصغير بالرمل بإحكام بحيث تستحيل إمكانية الحركة بالنسبة له، لأن الرهبان يرون أن عدم الحركة مطلقا عنصر مهم في نجاح العملية. ويتم التضحية بحوالي 35 ألف طفل إفريقي سنويا لإنتاج حصة سودانية من الطواشي قوامها في المتوسط 3800 شخصا.

ومن المقطوع به أن صناعة الخصيان الطواشي، نابعة من محاكاة عملية خصي الثيران والفحول، بغية جعل تلك الحيوانات مذللة للإنسان بدرجة أكبر. وكان العبيد يعاملون في كل المجتمعات علي **أنهم كالحيوانات سواء بسواء، وكان من المنطق معاملتهم علي هذا الأساس**".

ويلزمنا حين نبحث دور عمان في تجارة العبيد في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وندينه، أن نضع في الحسبان أن كل الشعوب الآسيوية، والأفارقة أنفسهم، وشعوب الأمريكتين الشمالية والجنوبية، ومعظم الشعوب الأوربية كانوا آنئذ يتاجرون في العبيد ويستعملونهم.

وكانت التجارة في **العبيد، عبر الأطلسي أبشع وأشد ضراوة من التجارة العربية فيهم**. وكان الإنجليز أصحاب **أسوأ سجل** تارة و**أفضل سجل** في تلك التجارة الحمقاء، تارة أخرى. فلقد كانوا هم **أكبر تجار العبيد في العالم**، وبلغ من نقلوهم بحرا من العبيد إلي أمريكا **أربعة ملايين نسمة**. إلا أنهم في عام 1807، وبعمل تشريعي نبيل قام به ويلبرفورس وجرانفيل وشارب وتوماس كلاركسون، استطاعوا إصدار قانون يحرم **علي أي سفينة نقل أي عبيد من أي ميناء يقع ضمن أراضي الإمبراطورية البريطانية، أو إنزال أي عبيد**، في أي مستعمرة بريطانية بعد مارس 1808.

ويتعين علينا الإشارة هنا إلي أن أشد أعداء هذا الإجراء الذي قطعته انجلترا علي نفسها، كانت هي الولايات المتحدة والأسطول الأمريكي.

والحقيقة أن السيد سعيد بن سلطان لم يكن حاكما مطلقا محضا، بل مزج بين السلطة المطلقة والرفق والذوق والرحمة. وكان شعبه يعتبره والدا أكثر منه حاكما، كما تشهد به عادته الخاصة بزيارة أوضع عبيده وتهنئتهم بنفسه في مناسبات مثل زواجهم. وكان ذلك الحاكم، يسوي بين أدنى عبد وبين أبنائه حين يتعلق الأمر بإقامة العدل. ولأنه كان صديقا حميما للجميع، فإنه أراد فعل الخير للجميع. وينطق ج. س. ب. فريمان – جرانفيل بالحقيقة بكل تأكيد، حين يقرر أن: سر طول عهد السيد سعيد ونجاحه يكمن في " الكلمات الأخيرة". فلقد حكم السيد سعيد اثنتين وخمسين سنة من عام 1804 حتى عام 1856. "

ومن المفارقات أنه السخاء البالغ والعطف الصادق، والود المستنير والمتعاطف من جانب هذا السلطان المسلم، هو الذي أدى إلي إخفاق الجهود التي بذلتها الإرساليات التبشيرية المسيحية في شرق إفريقيا. وكما يقول إدموند روبرتز: "لم تعرف كافة الأديان في ممتلكات السلطان التسامح معها فحسب، بل كانت محلا لحماية السلطان".

وجمع السلطان سعيد بين كونه مسلما ملتزما لم يهتز ولاؤه للإسلام قيد أنملة، وبين خلو نفسيته تماما من التحيزات الدينية ضيقة الأفق. ولم يسمح لرؤاه الدينية الخاصة أن تحجب عن بصره سجايا الآخرين الذين يدينون بغير دين الإسلام وقيمتهم. ومن مآثره أنه منع ذبح الأبقار في المنطقة المجاورة لمنزل جيرام سويجي

مسؤل الجمارك الهندوسي في يوم عيد الفطر، احتراما لمشاعره الدينية.

وحين منعت إثيوبيا التي يحكمها حاكم مسيحي المستكشف المبشر الزاهد جوهان كرابف من التبشير في أوساط الجالا، في أوائل عام 1844، ذهب ذلك المبشر إلي زنجبار ومكث بها ثلاثة أشهر، ثم انطلق صوب شرق إفريقيا الاستوائية عبر ممباسا مخترقا أراضي الجالا، باسم جمعية إرسالية الكنيسة البريطانية، حاملا وصية مكتوبة من السلطان قوبلت بالطاعة مكتوب بها "هذا كتاب سعيد بن سلطان. تحياتي لكل رعايانا وأصدقائنا وحكامنا. هذه الرسالة مكتوبة للدكتور كرابف الألماني. وهو رجل طيب، يريد أن يهدي البشر إلي صراط الله. أحسنوا وفادته. وكونوا في خدمته في كل مكان". [3]

وعلي كل منا أن يسأل نفسه: لو كان الغرض من فرض الحكم الاستعماري هو التخلص من **لعنة الرق**، فلماذا سمحت بريطانيا وألمانيا بازدهاره في أراضي كينيا وتنجانيقا عقودا **بعد إلغائه في أراضي زنجبار المسلمة، المتهمة بالباطل؟ ولماذا** لم يتدخلوا في موزمبيق التي استمر الاسترقاق وتجارة الرقيق فيها تحت حكم دولة من بين أعضاء الأسرة الدولية الأوربية هي **البرتغال؟** ولماذا استبعدت **إثيوبيا** المسيحية صراحة من خطة التكالب الاستعماري

[3] انظر :ويندل فيليبس، تاريخ عمان ص 126-130.

علي إفريقيا وتقسيمها بين القوي الأوربية، والتي **استمر الرق فيها حتى عهد الإمبراطور هيلاسلاسي ؟**

إن من واجب الكتاب والمؤرخين ومن بينهم السواحيليون أنفسهم، أن يحرروا عقول هذا الجيل والأجيال القادمة من هذه الترهات. وينبغي علي السواحيليين أن لا يبتلعوا عن طيب خاطر كل الأكاذيب التي يزقمها المغرضون لهم في حلوقهم. عليهم أن يزنوا المقولات خاصة تلك التي تصدر عمن يسعون إلي تحريف الحقائق لأغراض سياسية، أو دينية، أو عرقية.

ولزام علي السواحيليين عامة والزنجباريين خاصة أن يرفضوا بالكلية **الحكايات الزائفة** التي تدور حول ما يسمى: **كهوف العبيد** في مانجبواني بزنجبار، وشيموني علي الساحل الكيني "، ومزاعم أن **الحلقات الحديدية** التي كانت **تعلق بها أجراس مدرسة سانت جوزيف** (القديس يوسف) (مدرسة متاكوجا حاليا) ومنطقة مرهوبي[4] عند المدخلين الشمالي والجنوبي لميناء زنجبار، كانت " **لتقييد عبيد أو إماء السيد برغش**"، وما شابهها ذلك من السخافات التي لا يقبلها عقل عاقل، الناتجة عن الجهل، والنابعة من سوء الطوية.

وينبغي علي شباب اليوم المستنير أن لا يأبه للروايات التي هي من نسج الخيال الذاهبة إلي أن أناسا **دفنوا أحياء** تحت بيوت من

[4] منطقة مرهوبي بزنجبار منسوبة إلى المراهبة. وهم قبيلة عمانية تنتمي إلى الحرث وكانت مساكنهم مدينة ابراء بشرقية عمان. ومازالت أسر منهم تسكن ابراء وبلدة الكامل من الشرقية بعمان. – يعقوب بن سعيد البروانى

قبيل **بيت العجائب**، ومامبومسيجي. فهذه البيوت بنيت في وضح النهار والتاريخ، مع وجود شهود عيان من البعثات الأجنبية والممثلين الديبلوماسيين. ولم يحكي أحد منهم أن شيئا من هذا القبيل قد حدث. **ولو كان أحد منهم شاهد شيئا، فلماذا لم يحتج أو يرفع الأمر إلي حكومته؟**

الحقيقة أن زنجبار **تعرضت لعملية إسقاط لما حدث في بلاد ومجتمعات أخرى، دون أي دليل يذكر**. وعلي سبيل المثال، نطالع في **ميري استودنتس انسيكلوبيديا** أنه: "كانت قرابين للآلهة تقدم من بين العبيد التولتكس والأزتيك. ومن بين الزنوج الأفارقة وسكان جزر البولونيز وهنود شمال غرب المحيط الهادي من كان يعدم عند دفن حاكم أو بناء منزل أو معبد جديد. ففي مثل تلك المناسبات، كانت التضحية بأحد الممتلكات الثمينة (العبيد) يعزز مكانة المالك. وكانت تلك الشعائر وثنية معادية للإسلام بذات درجة عدائها للمسيحية.

ويعلم نيريري أنه ما من **قبيلة إفريقية إلا ومارست الرق**. وهو يعلم أيضا أن **كل الدول الأوربية مارست الرق**. ويعلم ثالثا أن زنجبار هي أول بلد يلغي الرق، وتنجانيقاهي آخر بلد يلغيه، علي صعيد منطقة شرق إفريقيا. وهو يعلم أخيرا، أنه كان من بين الممارسات المتعارف عليها **بين قبائل إفريقية معينة في تنجانيقا أن زعيم القبيلة حينما يموت تدفن معه مجموعة من عبيده أحياء حاملين جثمان سيدهم.**

وقال لي أوسكار كامبونا أن تلك العادة لم تتوقف إلا بعد مجئ **الإسلام والمسيحية**. فمن ذا الذي خلي تاريخه من أي عيب؟ إن نيريري **يحفر في تاريخ غيره ليواري سوءة حاضره**. فاغتصاب

زنجبار علي يديه حدث اليوم وليس من عدة قرون. وأعماله الطالحة حاضر معاش. ومع ذلك فإنه حين يتفوه بمزاعم مهما كانت خيالية، فإن جوقته ترددها بصوت واحد. ومن قبله تصرف المستعمرون علي ذات الوتيرة. واصلوا ترديد خرافات، أو تضخيم وقائع بسيطة، من أجل لفت الأنظار عن المظالم التي يرتكبونها.

وليس التاريخ مجرد **رواية أحداث** جرت. بل هو أيضا **تأويل لتلك الأحداث ونسبتها للزمان والمكان الذي حدثت فيه والمبررات الكامنة وراءها**. ولا يمكن قياس ما حدث في أوغندا من قرون خلت، علي سبيل المثال، بذات مقياس بريطانيا القرن العشرين. فاليوم من غير الإنساني حمل شخص ما علي الذهاب من كيلوا إلي كيجوما سيرا علي الأقدام. ولكن كان هذا هو ما يفعله الجميع منذ مائة عام. وترتعد فرائصنا اليوم حين نشاهد في فيلم صيادا يقتل فيلا من أجل العاج، أو كركدن من أجل قرنه. وربما كنا نحن أنفسنا من ثلاثين أو أربعين سنة نصيد تلك الحيوانات المسكينة لمجرد التسلية ونشعر بالسرور عندما نرى أحدها يسقط برصاصة واحدة، ونتفاخر بذلك.

وخلاصة القول، أن **أفكارنا المتعلقة بالتصرفات الأخلاقية، تختلف باختلاف الزمان والبيئة الاجتماعية وعوامل أخرى.** فلنتأمل في دلالة **عدم إلغاء** أي من سيدنا عيسى عليه السلام أو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم **الرق دفعة واحدة.** لا. بل سلم كل منهما بوجوده بشكل ما ودعا إلي الرفق بالعبيد. ورغم أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم صاغ عدة إجراءات يمكن أن تؤدي في الوقت المناسب إلي تجفيف منابعه وزواله المبرم، فإنه لم يصل إلي حد حظره بالمطلق، لأن الأوان المناسب لم يكن قد

حان بعد. فلم تكن هناك **آلية متاحة لتنفيذ أمر من هذا القبيل الذي يحتاج إلي وفاق دولي**. ونشبت حروب، وأخذ أسرى. وكان بالإمكان تبادلهم، أو فدائهم، مع إمكانية استعباد المتبقين. واعتبر ذلك تصرفا أكثر إنسانية من قتلهم.

وصار **عتق العبيد** من أسمى القربات في الإسلام. يقول الله تعالي: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ{12} **فَكُّ رَقَبَةٍ**{13} أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ{15} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ}[5].

ومن الأهمية بمكان أن **نكتب تاريخنا بأنفسنا**. فلقد تعرض السواحيليون **لافتراءات كثيرة**. ويتوجب علي من بوسعهم إجراء بحوث بموضوعية أن ينهضوا بهذا الواجب. وأنا أعلم أن بحوثا مهمة قد أنجزت، وإن كان لم ينشر معظمها بعد. ومن يعرفون، ولا يتيحون لغيرهم ممن لا يعلمون أن يعرفوه، يرتكبون كبيرة إخفاء الحقيقة. **فالحقيقة يجب إعلانها، لأن الصدق منجاة.**

ثالثا: دور المرأة

من حسن حظي أني ولدت في أسرة أغلبية أعضائها من النساء. فلقد كنا **ثلاثة** إخوة و**عشر** أخوات. والحب والرقة والأدب والعفو والعطف خصال تميز النساء عن الرجال. وكان العنصر الغالب في أسرتي أنا وعزة هو العنصر النسائي: **ابنان وأربع** بنات. وكان الحزب الوطني الزنجباري محظوظا هو الآخر، علي الأقل في ظاهرة أن العنصر النسوي كان يفوق دائما نصف الحاضرين

---

[5] البلد:12-16.

في أي مؤتمر شعبي، أو مظاهرة، أو أي مهمة طارئة تعين عليه القيام بها. وهذه هي التقاليد الإسلامية الحقيقة.

وأول آدمي أمن بنبوة محمد صلي الله عليه وسلم **إمرأة** هي خديجة. وبعدها جاء **شخصان**: علي و**بركة**. والأخيرة امرأة إفريقية من الحبشة. وكان للنبي عليه السلام **سبعة** أطفال **أربع** بنات و**ثلاثة** أبناء. ومات كل أطفاله البنين في سن الطفولة. واستدامت سلسلة نسبه الطاهر عبر ابنته **فاطمة** رضي الله عنها وأرضاها. وأول شهيد في الإسلام إمرأة هي **سمية**، وهي امرأة إفريقية من الحبشة، لقيت ربها، تحت وطأة عذاب لا يحتمله آدمي.

واحتفي النبي صلي الله عليه وسلم، بروح رسالته السمحة، كل الحفاوة **بحق النساء في الحب والاحترام**. ومن بين وصاياه التي لا تنسى: "**الجنة تحت أقدام الأمهات**". وقوله: "**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي** ". ورفع الإسلام المرأة، من وهدة الهوان التي تدنت إليها في الجاهلية، إلي مستوى صارت فيه **الجنة ذاتها تحت أقدامها النبيلة، كأم لنا جميعا.**

وفي حين أحل القرآن الكريم **حواء** من تهمة إغواء آدم علي ارتكاب المعصية، نقرأ في رسالة بولس الرسول الأولي إلي تيموثيس: "**لتتعلم المرأة بسكوت ويكل خضوع. ولكن لست آذن للمرأة أن تتعلم ولا تتسلط علي الرجل بل تكون في سكوت. لأن آدم جبل أولا ثم حواء. وآدم لم يغو ولكن المرأة أغوت فحصلت في التعدي** "[6]

---

[6] رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس، الإصحاح الثاني:11-14.

ونقرأ في رسالته الأولي إلي أهل كورنثوس: "**لتصمت نساؤكم في الكنائس** لأنه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضا. ولكن إن كن يريدن أن يتعلمن شيئا فليسألن رجالهن في البيت **لأنه قبيح بالنساء أن يتكلمن في كنيسة**" [7]

أما القرأن فيحمل آدم وحواء معا مسؤولية الخطيئة. فهما يتحملانها معا. وبما أنهما تابا إلي الله فقد عفا الله عنهما معا.

يقول الله تعالي: "وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ{35} فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَي حِينٍ{36} فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{37}" [8]

ويوصينا الله تعالي بتقوى أمهاتنا وأرحامنا عقب أمره **بتقواه مباشرة**، فيقول سبحانه: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ **اتَّقُواْ رَبَّكُمُ** الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء **وَاتَّقُواْ اللّهَ** الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ **وَالأَرْحَامَ** إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً" (النساء 1)

ويجهل من ينادون **بالمساواة الرياضية بين الجنسين الفروق البيولوجية والنفسية المتأصلة فيهما**. فالله تعالي **خلقهما**

---

[7] رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح الرابع عشر:34 -35.

[8] البقرة:35-37.

مختلفين لوظيفتين مختلفتين. ولو أصر أمرؤ، علي سبيل المثال، علي المساواة المطلقة بين المرأة والرجل، فإن ذلك سيفضي إلي عدم التوازن والظلم. فلو تقرر وفق هذه الفرضية حصول الرجل علي أجازة رعاية طفل، ومطالبة المرأة بأداء الخدمة العسكرية، فإن ذلك ستترتب عليه فوضى وسخافات عبثية بالغة. ولنسأل أنفسنا ما هو حال تلك التي تسمى: **المرأة المحررة في الغرب**"؟

في عام 1952 كنت أتمشى في طريق عودتي إلي الفندق بباريس قرابة منتصف الليل. وكانت تلك الليلة بالغة البرودة في أوائل الشتاء. رأيت امرأة فائقة الجمال، ترتدي ملابس خفيفة باعتبار الزمان والمكان، وتحتمي بمدخل عمارة وهي ترتجف من البرد في انتظار خروج **زبائن من المسارح ودور السينما**. بكيت شفقة عليها، **وقلت لنفسي**: ما الذي ساقها إلي تلك الحالة التي هي عليها؟ بالتأكيد ليس **الدافع الجنسي**، بل **الفقر والحاجة**. ورجعت بخاطري إلي بناتي، ولسان حالي يقول أنه لم ينقذ أسرنا من مثل تلك الحالة البائسة غير العناية الإلهية.

وبعد ذلك بعشر سنوات كنت أتمشى بشارع بوليفارد أوف ريبرباهن بهامبورج. ولفت نظري **شارع جانبي تتلألأ الأنوار من نوافذ محلاته**. وما أن دخلت الشارع، حتى صعقت من هول ما شاهدت. فبدلا من السلع المعتادة التي توقعت أن أراها معروضة في فاترينات المحلات، كان المعروض **سيدات شبه عاريات للبيع المؤقت لكل من هب ودب**. وما علي الراغب إلا أن **ينتقي ويختار**. ومن حقه أن **يفحص دون التزام**. والأمر كله، يعتمد

علي ذوق الزبون وعلي ما هو مستعد لدفعه. وليست هذه حالة فريدة بل يوجد مثلها في لندن ونيويورك وحتى في روما.

وكنت ساذجا حينما ظننت في سنوات ما بعد الحرب أن **الفقر** هو السبب الوحيد أو الرئيس في مثل هذا التحلل الأخلاقي. إن وراء ذلك سببا أكثر محورية، يتمثل في: **تآكل أساس الفضيلة ذاته بالاستغلال المتعمد لجسد حواء في الاستثارة الجنسية**. وبذا لم تحرم المرأة من حقوقها **كامرأة** فقط، بل حرمت من **إنسانيتها**.

ولم يعد حال البقرة التي تباع بالسوق، أسوأ من حال المرأة في ذاك الشارع الجانبي بهامبورج، أو أشباه العاريات في الخمارات الإنجليزية، وأوكار العري، ونوادي العراة والعاريات المسموح بها، والمرخصة قانونيا في كل أرجاء العالم الغربي، والتي ليست إلا مؤشرا علي التدني البالغ في القيمة التي يوليها الغربيون لأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم.

وما عروض الأزياء وما يسمى **بمسابقات الجمال** إلا عمليات عرض للبنات المحتاجات علي منحرفين متعطشين للرذيلة. ويقاس نجاح **مصممي الأزياء** بقدرتهم علي التلاعب في تفصيلة ملابس النساء بحيث تبرز أجزاء جسد من ترتديها، الأكثر إثارة للشهوة الجنسية. هذه هي **حرية المرأة التي يدعو الغرب إليها بأعلي صوته**. وهذه هي **المساواة** التي تطالب بها **المخبولات في الشرق**. ولكن هل هذه مساواة؟ أليست معاملة المرأة في الغرب الآن أسوأ مما كانت عليه معاملة العبيد؟ وعامة القول أن **الرق الأبيض** الذي يتاجر في ظله في النساء للبغاء هو أحد **ملامح ما يسمى المجتمع الحديث المحرر**.

وأتذكر أنه من ستة عقود، قال أستاذي ل. و. هولنجزويرث: "لو تزوج شخص ما ابنتي. واكتشفت أنه مصاب بالزهري، لقتلته رميا بالرصاص".

وكان **الزهري والسيلان** هما المرضان المرعبان اللذان ينتجان عن **الزنا** في ذلك الحين. ومع مرور الوقت، تم وضع هذين المرضين التناسليين تحت السيطرة باستخدام عقاقير السلفا والمضادات الحيوية. والآن انتشر مرض أشد ضراوة هو مرض فقدان المناعة المكتسبة **الإيدز**. وبمجرد كبح جماح هذا المرض، سيطل مرض آخر ألعن منه برأسه.

وهذا وحده، ناهيك عن الكثير من **التعقيدات الاجتماعية** للزنا، **سيفضي بالبشرية إلي الهلاك**، طالما تجاهلت **العفة والفضيلة التقليدية** كما بينها لنا رسل الله المكرمون. والبشر الذين يتجاهلون تعليمات الرسل وتوجيهاتهم يلقون بأنفسهم إلي التهلكة. فلقد رأي هولنجزويرث أن من **يصيب ابنته بالزهري، هو في حكم من قتلها**. ولو أنه أخذ الأمر مأخذ الجد، دون تحيزات ثقافية أو دينية، فإنه سيرى أن الشريعة التي حرمت الزنا علي المتزوجين، لها ما يسوغها، ليس فقط من أجل منع **انتشار الزهري** وإصابة ابنته به فحسب، بل لمنع وقوع **مظالم أدهى وأمر** علي ابنته وكل بنات وأبناء آدم وحواء. **فالوقاية خير من العلاج**. ولقد قال المسيح عليه السلام: "**من نظر لحليلة أخيه ثم اشتهاها فقد زنا**". وإن كان هذا التوجيه أكثر جذرية، إلا إنه أقل جدوى في الواقع

العملي من التوجيه القرآني **لبني آدم: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً.** [9]

ويبدأ منع انتشار الأمراض الفتاكة التي تنتشر عبر الممارسة الجنسية، والاضطرابات الاجتماعية الأخرى، بإرساء الحشمة من جانب الرجل والمرأة علي السواء. ويمكن أن يتشدد الإنسان في الحشمة، ويصل فيها إلي حد **الإفراط** أو يتساهل فيها إلي حد التفريط، مثلها مثل أي شأن إنساني آخر. فقد يصل الإنسان إلي حد **الرهبانية** بنبذ الجنس بالكلية كما هو الشأن في أعراف الكنيسة الكاثوليكية، حيث يقطع الرهبان والراهبات عهدا علي أنفسهم بالتبتل.

ولاحاجة بنا للخوض فيما لممارسات مثل الرهبنة من مزايا ومثالب. ويكفي القول، بأن أعراف الرهبانية حظيت بالقبول، بل بالاحترام في كل أرجاء العالم الغربي. وازدهرت في الماضي وفي الحاضر. ولم **يجرؤ أحد علي السخرية من راهبة**، سواء لبست لباسا أبيض، أو أزرق، أو أسود، يغطي جسدها من رأسها إلي أغمص القدمين عدا وجهها. فمظهر الراهبات يحظى بالاحترام في كل أرجاء العالم.

---

[9] الفرقان: 68. بل يحرم الله تعالى قرب الفواحش جميعها. يقوول تعالى: وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }الأنعام151

وعلي الطرف النقيض المقابل، نجد **فتيات البيكيني** تمارسن تجارتهن الشنيعة جيئة وذهابا علي الشواطئ أو في شوارع أوروبا، وأمريكا وبانكوك. وهؤلاء أيضا **يعتبر العالم الغربي حالتهم حالة طبيعية بدهية. ويعدهم جزءا من "الحضارة".**

أما الإسلام، فاتخذ طريق **الوسطية السمحاء.** وهذا الخيار هو موضع الهجمات المنسقة من كل صوب وحدب. فالإسلام تبنى بوصفه دين الأمة الوسط، **نهجا معتدلا.** فهو لم **يحرم الجنس،** بل اعتبره **أمرا نبيلا ورباطا مقدسا فيما لو تم وفق نظام وضوابط العلاقة الزوجية الشرعية.** ولم يقف الإسلام ضد مقتضيات الفطرة الإنسانية، ولكنه سعى إلي توجيه الغرائز الإنسانية إلي وجهة مثمرة وكريمة. **فالزواج** عند المسلمين هو **نصف الدين.** وفي ذات الوقت، فإن المعاشرة الجنسية خارج نطاق مؤسسة الزوجية من الكبائر.

والمرأة **ليست ممنوعة** في منظور الإسلام من الذهاب إلي عملها شأنها شأن الرجل، ولكنها مطالبة، هي والرجل علي حد سواء **بالخروج بزي محتشم.** حقيقة أن الطفل يخرج من بطن أمه عريانا، ولكنه عوضا عن ميلاده وجسده مغطى بالفرو أو الشعر أو الريش الحامي له كما هو حال الحيوانات والطيور، قد **أنعم الله عليه بالعقل** الذي به يصنع لباسا له بمجرد أن يخرج من دائرة الوحشية البدائية، إلي ساحة التحضر.

ومن المتوقع، في ضوء ذلك، أن تحاكي المرأة **المسلمة الراهبة في اللباس الساتر لكل جسدها عدا وجهها،** ولكنها تفترق عنها في كونها من **حقها أن تتزوج،** وأن تنجب وترعى أسرة. ومن حق المرأة المسلمة أن تعمل مدرسة وممرضة وربة منزل وكاتبة

ومهندسة وطبيبة وغيرها من المهن. فقط **يحرم عليها أن تعمل عاهرة**، أو تبدي زينتها ومفاتنها الجسدية، لتجذب نظرات الرجال أو تثير شهوتهم.

وما كان القديس بولس سيحتاج لأن يحظر علي المرأة التعلم ولا بعدم سلب قوامة الرجل والتعلم منه في صمت حيث يقول: "**ولكن لست آذن للمرأة أن تتعلم ولا تتسلط علي الرجل بل تكون في سكوت**". ولو أردنا أن نسجل فضل موقف الإسلام من النساء لاحتجنا إلي كتابة مجلدات. ويكفي أن المرأة في لحظة كتابة هذه المذكرات، تترأس حكومات ثلاث من أهم الدول الإسلامية هي: **تركيا وباكستان وبنجلاديش**[10]. وكل واحدة من تلك السيدات الفاضلات جاءت إلي سدة الحكم بانتخابات عامة وقبول شعبي، وبأصوات ناخبين مسلمين. ولم يشعر أحد أن ثمة غرابة في ذلك.

وتعلمت الأمة من أم المؤمنين **عائشة** رضي الله عنها الكثير من هدي النبي. فهي رضوان الله عليها استطاعت بفضل قربها من رسول الله وصلتها الحميمة به، جمع قدر كبير من السنة النبوية القولية والفعلية. وجرت **الفطرة الإنسانية** علي أن **تعمر النساء أكثر من الرجال**، وأن تعمر **الزوجات عشر سنين** في المتوسط بعد **وفات أزواجهن**. ويعود ذلك إلي خصائص بيولوجية، وإلي مخاطر بيئية خارجية يتعرض لها الرجال بدرجة أعلي من النساء. بل من الحقائق المشاهدة **أن نسبة وفيات الأطفال الذكور تفوق نسبة وفيات نظيراتهم من البنات.**

---

[10] عند كتابة هذه الذكريات (1995-1996) كانت تانسو تشيلر رئيسة وزراء تركيا وبناظير بوتو في الباكستان وخالدة ضيا في بنجلاديش.

وبالنظر لطول متوسط العمر المتوقع للنساء، فإن احتمال أن **ترثن أقاربهن الذكور يفوق احتمال حدوث العكس**. وبالإضافة إلي ذلك، فإن الشرع الإسلامي يقرر حق المرأة في الحصول علي **النفقة من والدها طالما لم تتزوج**. وحين **تتزوج** ينتقل **عبء النفقة عليها إلي زوجها**. والزوجة غير مطالبة بإنفاق فلس من ممتلكاتها حتى علي نفسها، ناهيك عن إلزامها بإنفاق شئ قل أو كثر علي أبنائها أو علي زوجها.

وحده الزوج يتحمل عبء سد احتياجات أسرته بما في ذلك زوجته وأولاده. ومن هنا فإن **جعل نصيب المرأة من الميراث نصف حظ الرجل، يفوق بكثير النصيب الكامل الذي يحصل عليه نظيرها من الرجال** وذلك لقلة مصاريفها. وهذا هو السبب أنه في مجتمع مسلم مثل المجتمع الزنجباري قبل عام 1964، كان عدد النساء الثريات يفوق عدد الرجال الأثرياء. أما في المجتمعات الأخرى، فإن المرأة ليست مخولة **بميراث أي شئ، بل قد لا تكون مخولة بأن تمتلك شيئا أو أن تكون لها ذمة مالية مستقلة من الأساس. ويخضع حق المرأة في الميراث والتملك لأهواء المشرعين غير الجديرة بالثقة تماما.**

أما في شرعنا الإسلامي، فإن القرآن يقرر أن " **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ** مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ **وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ** مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً}. (النساء 7)

ويقضي بأن: "لاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَي بَعْضٍ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ** مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء **نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ** وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً". (النساء 32)

الفصل السابع عشر

الأصولية[1]

ينبغي التنبه إلي حقيقة أنه ليست كل ممارسات المسلمين **مطابقة لصحيح الإسلام**، تماما كما أنه ليست كل تصرفات المسيحيين **نابعة من تعليمات المسيح عليه السلام**. وعلي سبيل المثال، فإن الإسلام لم يفرض **النقاب**، الذي ترتديه بعض المسلمات. ومع ذلك، فإنني أعتقد أن من حق أي إنسان أن يلبس ما يرى أنه مناسب له – رجلا كان أم امرأة – طالما أنه لم يخرج عن حدود الحشمة واللياقة. فهذا أحد **حقوق الإنسان**.

و**الحجاب** في الإسلام شئ مختلف عن **النقاب**. هو بالأحرى، الزي الذي يستر جسد المرأة كله عدا **الوجه والكفين والقدمين**. ومن قبيل الاعتداء الصارخ علي حقوق الإنسان الأساسية، أن

---

[1] يسلط المؤلف الضوء في هذا الفصل على إسقاط الغرب مفهوم الأصولية الذي هو في الأصل مفهوم خاص بفئة من المسيحيين، على الأمة الإسلامية مع تحريف معناه، بحيث يصير مرادفا للتعصب الأعمى. ويفند بحجج دامغة مزاعم الغرب أن الأمة الإسلامية في عمومها، وليس فريقا منها فحسب، كما هو الحال بالنسبة لكل الأمم هو المصاب بالتعصب الأعمى. ثم يدلل على كيل الغرب بمكيالين في مواجهة المرأة المسلمة خاصة والمسلمين عامة، في مقابل تسامحه مع الراهبات والقساوسة والحاخامات. ويستعرض تاريخ العالم الغربي مبينا أن عجز الغرب عن التسامح هو سر كل ما عرفه العالم في القرون الأخيرة من حروب وويلات، ويربط بين تحرير الغرب من طموحه وغروره وتعصبه الأعمى، وبين إمكانية بقاء الحياة على الأرض، ويلفت النظر إلى توظيف الغرب والسائرين في ركبه **للجنس والمخدرات** في مواصلة كبريائهم وطغيانهم واستضعافهم لغيرهم. ويؤكد أن درس التاريخ هو أن ما يفعله الغرب لن يصب في صالحه في النهاية، وأن التكالب الغربي على أمتنا، سينتهي بدخول الغرب في الإسلام، تماما كما كانت نهاية القهر الروماني للمسيحيين الأوائل – المترجم.

تقوم حكومة ما غربية كانت أم شرقية، بفرض شروط علي شكل زي الأفراد، ما لم يكن، كما قلت سلفا، مناف لمقتضيات الحشمة واللياقة العامة.

ومن المنافي لمقتضى العقل أن نرى أو أن نسمع أن أحدا لا يتعرض بأي حال بقول ولا بفعل ضد **الراهبات الكاثوليك** مع ارتدائهن ملابس تغطي جسدهن كله عدا وجوههن وأيديهن، ولا ضد **القساوسة المسيحيين** بملابسهم ذات الياقة الإكليريكية، وتتدلي الصلبان من أعناقهم علي صدر ملابسهم الموشاة، ولا ضد **السيخ** بلحاهم وعمائمهم، ولا ضد **اليهود** بقلنسواتهم ولحاهم الطويلة. أما حينما يتعلق الأمر **بالمرأة المسلمة** التي ترتدي زيها التقليدي، غير المختلف عن زي الراهبات الكاثوليك فتثور ثائرة المعارضين ويسعون إلي منعها، ويسمونها: "**أصولية**". فلماذا هذا الكيل بمكيالين؟

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: من هم الأصوليون، وما هي الأصولية؟ يصف معجم موسوعة ميرت استيودنت انسيكلوبيديا الصادر عام 1973، الأصولية بأنها: "حركة ظهرت في البروتستانتية الأمريكية في القرن العشرين تتعلق بالتمسك بالتفسير الحرفي للكتاب المقدس". . ويصف معجم اللغة الإنجليزية الموجز – كونسايس إنجلش ديكشنري – في طبعته الرابعة الصادرة عام 1988 الأصولي بأنه هو: "المؤمن بالكلمة المنزلة بالكتاب المقدس وبالتأويل الحرفي لها". إلا أن الطبعة الثامنة من قاموس أكسفورد الموجز الصادرة عام 1990 تعرف الأصولية علي النحو التالي: "التمسك المطلق بالمعتقدات البروتستانتية التقليدية مثل: عصمة الكتاب المقدس، والقبول الحرفي للعقائد

المسيحية بوصفها أصولا للمسيحية، والتمسك الصارم بالمبادئ القديمة أو الأساسية لأي عقيدة، وبالأخص الإسلام".

ويتضح من ذلك كيف أن مفهوم الأصولية تطور من مفهوم دال علي **حركة خاصة كانت تنطبق علي طائفة مسيحية** بعينها، إلي **حركة تنطبق بالأخص علي المسلمين**، بقدر كبير من التحريف لمعناه الأصلي. ونحن لا نماري في توسيع نطاق المفهوم الذي أريد به في الأساس وصف حالة طائفة من المسيحيين، وتمديده ليشمل المسلمين، شريطة أن لا تتعرض تلك الكلمة للتحول في مضامينها عبر عملية النقل هذه. فلو كان معنى هذا المفهوم هو كما موصوف بالمعاجم الغربية، فإن كل المسلمين أصوليون. فأي إنسان لا يؤمن بالوحي الإلهي المنزل ويشك في كون القرآن معصوما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو خارج مظلة الإسلام. وكل المسلمين يؤمنون بالقرآن، تماما كما يؤمن الأصوليون المسيحيون بالكتاب المقدس. لابأس إذن حتى الآن. ولكن **ما لا يقبل** هو أن يرتبط ترويج المفهوم فيما يتعلق بالمسلمين بمعنى محرف يجعل كلمة "**أصولية**" مرادفة لكلمة "**التنطع والتعصب الأعمى**". ولو أن تلك الكلمة استعملت مرة أخرى بهذا **المضمون المحرف، لتصف من هذا حاله من المسلمين لما كان لنا اعتراض عليها. فمن بين المسلمين، شأنهم شأن المسيحيين أو اليهود أو السيخ، أو الملحدين من هو مصاب بالتنطع والتعصب الأعمى.**

أما استعمال مفهوم "**الأصولي**" بدلالاته المشوهة علي نحو لا يسلم منه كل من يتخذ من الإسلام دينا، ويسعى إلي الحياة وفق نهجه وتعاليمه، واعتبار **الإسلام ذاته ديانة "تنطع وتعصب**

أعمى"، فأمر **لا يقبله عاقل**. فالعلماني والشيوعي والملحد يمكن أن يكون متعصبا ومتنطعا، كالمؤمن بأي دين من الأديان سواء بسواء.

بل إن من هو مصنف رسميا علي أنه "**ليبرالي**" قد لا يكون ليبراليا إلا في الحدود التي تسمح بها **مصالحه الخاصة**. وهو يصادر علي الرؤى المغايرة لوجهة نظره، رغم ليبراليته ما لم يكن متسامحا. والغرب الليبرالي متسامح تجاه اليهود الآن، لأنه خاض حربا مظفرة منذ جيل أو جيلين، ضد ألمانيا التوسعية، التي تصادف كونها معادية للسامية.

وبات من العرف السائد منذ ذلك التاريخ الموافقة **بلا قيد ولا شرط علي كل ما يطلبه اليهود** فيما يمثل جانبا من جوانب **رد الدين الذي في عنق الغرب علي مدى ألفي عام من العداء ضد اليهود**. فحتى عام 1858 كان من المحظور أن يكون بالبرلمان الإنجليزي أي عضو يهودي. وكان ليونيل ريتشارد أول يهودي يسمح له بعضوية مجلس العموم البريطاني. وفاز ذلك اليهودي في الانتخابات أربع مرات كمرشح ليبرالي قبل أن يتم تعديل القانون بما يسمح بعضويته بصفته يهوديا في البرلمان. وقبل ذلك، كانت عضوية البرلمان البريطاني حكر علي المسيحيين.

وعلي الرغم من خضوع المسلمين للاستعمار الغربي المعاصر علي مدى ما يزيد عن قرن من الزمان، فإنهم لم **يقبلوا الذلة تجاه المستعمر**، بل كانوا متحدين حتى وهم مهزومون. فهم أناس لا يركعون إلا لله تعالي. وهم لا يطلبون من الغربيين صدقة ولا إحسانا، بل يطلبون منه الاحترام بوصفهم إخوة لهم في الإنسانية،

وأصحاب رسالة وحضارة ليست أدنى بأي حال من رسالة وحضارة غيرهم من الأمم.

ونجد أنفسنا هنا أمام **نموذج مثالي** كاشف خاص بحالة **البوسنة**. فالبوسنويون ليسوا أقل **أوربية** من الألمان أو البلجيك. فالفارق الوحيد بينهم وبين غيرهم من الأوربيين هو **دينهم**. وبسببه تعرضوا لعدوان صربي يصل إلي حد الإبادة الجماعية، من أجل استئصال شأفتهم من أوروبا، لكونهم مسلمين يلتزمون بالتوحيد الخالص، مع انهم يحترمون المسيح ويبجلونه ويؤمنون به، علي ذات درجة احترامهم وتبجيلهم وإيمانهم بنبيهم محمد.

ولكن لسان حال الغربيين يقول أنه: **بما أنهم ليسوا مثلنا تماما، فيجب القضاء المبرم عليهم**. وهم محرومون حتى من حق الدفاع عن النفس. وحصار البلدان الغربية مضروب عليهم، مع منعهم من استيراد السلاح. وتشرد الملايين منهم من ديارهم. وتعرض الألوف منهم للقتل وللإغتصاب. وأوروبا " **المتحضرة**" تنظر لكل هذا بارتياح لا يخفي علي ذي عينين. وتنتظر دولة إسلامية أوربية أخرى هي **ألبانيا** ذات المصير. فهي بلد مستهدف بات ناضجا لاقتطافه.

ولكن هل يقف الأمر عند هذا الحد؟ **الإجابة بالنفي**. فلقد غزت روسيا **الشيشان**. ولم تختلف روسيا سواء كانت هي روسيا القيصرية أو الشيوعية، أو المتطلعة لأن تكون رأسمالية و" ديموقراطية"، قدر قطمير عن **روسيا الإمبريالية** بتحيزاتها البربرية. **وليست المسيحية والاشتراكية والديموقراطية وكل المذاهب السياسية الأخرى، أكثر من مظهر خارجي سطحي خادع**. فالغرب ارتكب جرائم من **بينها**: الحروب الصليبية،

ومحاكم التفتيش الأسبانية، والحربين العالميتين الأولي والثانية، والمحرقة، وإلقاء القنبلتين النوويتين علي هيروشيما ونجازاكي، واغتصاب البوسنة والشيشان.

إلا أن ثمة شئ واحد يبقى في حكم المؤكد. (**وَيَمكُرُونَ وَيَمكُرُ اللّهُ واللّهُ خَيرُ المَاكِرِين**). فقد يلقي مسلمون حتفهم، وقد تغتصب بلادهم ويتم ضمها. ولكن الإسلام سيتقدم وسينتشر، لأنه دين الفطرة. فهو ليس ديانة جديدة طرية العود، ابتدعها محمد من أربعة عشر قرنا. بل هو **الدين الإلهي الذي لا يعرف البداية ولا النهاية**. فالكون بكل ما فيه يسبح بحمد الله تعالي ويسجد له طوعا وكرها[2]. وحين جاءت حرب الخليج، وتدفقت القوات الغربية علي المنطقة، أعربت بعض الدوائر عن تخوفها من أن يؤدي هذا الغزو إلي الإخلال بالتوازن الثقافي والاجتماعي، وأن يضر ذلك بالقيم الإسلامية فيها.

ولكنني كان لي **رأي آخر**. وقلت لأصدقائي، ومعارفي إنه من المستحيل منع أي شعب من الاتصال الدولي. وهذه الاتصالات

---

[2] من المؤشرات القرآنية المؤكدة لما ذهب إليه المؤلف رحمه الله:" أن الله تعالى يقول: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} آل عمران83. ويقول: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} الرعد15. ويقول: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً} الإسراء44 ويقول: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ} آل عمران19- المترجم.

مفيدة علي المدى الطويل. ألم يحثنا النبي عليه الصلاة والسلام علي طلب العلم ولو في الصين؟ ألم يقل النبي: "**الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أولى الناس بها؟**" ولم ينفر النبي نفسه من الاتصال بغير المسلمين من مسيحيين أو يهود أو وثنيين. ألم **يرسل إخوانه المستضعفين إلي الحبشة المسيحية كمهاجرين تحاشيا للإضطهاد؟**

وعلينا أن نتذكر بالنسبة للتحالف مع غير المسلمين، أن فتح مكة جاء ثمرة لوفاء النبي بما قطعه من التزامات علي أمته في تحالفه مع قبيلة خزاعة الوثنية التي كان يجمعه بها ميثاق نصرة متبادلة. أما فيما يتعلق بقداسة الأرض الإسلامية من أن تدوسها قدم أي مشرك بالله تعالي، فإن ذلك الحكم قاصر علي أراضي الحرم المكي.

وتنبأت بأنه أيا كانت الملابسات، فإن نفرا من تلك القوات الأجنبية سيتعلم شيئا قد يساهم في تصحيح بعض المفاهيم المغلوطة عن المسلمين والإسلام. وسيصب ذلك في **صالح الجانبين المشترك**. ولقد فاق ما حدث بالفعل في أرض الواقع أقصى ما كان يداعب خاطري. ويقال أن ألوفا من أفراد تلك القوات الأمريكية الغازية، اعتنقوا الإسلام نتيجة تجربتهم في حرب الخليج. ولا يعلم إلا الله المدى الذي سيؤثر به هؤلاء الألوف الذين هداهم الله تعالي إلي الإسلام علي بقية الشعب الأمريكي.

ومن هنا، فإنني أرى أن مأساة البوسنة والهرسك والشيشان ستسفر علي النقيض من مخططات المتآمرين عليهما عن **المزيد من انتشار الإسلام في القارة الأوربية**. وستصير نبوءة جورج برنارد شو، بأن **أوروبا ستصير يوما ما، مسلمة تتبع الهدي النبوي،**

حقيقة واقعة. فلباب درس التاريخ الواجب الوعي به أن: **القهر الروماني للمسيحيين الأوائل لم يسفر إلا عن انتشار المسيحية في أرجاء أوروبا.**

وحين زرت بريطانيا لأول مرة عام 1952 كان هناك مسجد واحد صغير في ووكنج بمقاطعة سوري، علي بعد قرابة ثمانين كيلومترا من لندن. وبعد ذلك بأربعة عقود، بات من المستحيل تقريبا أن تجد **ضاحية** في كل أرجاء بريطانيا لا يوجد فيها **مسجد أو مصلي** يستطيع المرء الوصول إليه سيرا علي الأقدام. ويقول روبرت موري في كتابه الذي يدق فيه أجراس الخطر، المنشور تحت عنوان ينطق بمضمونه الترويعي "**الغزو الإسلامي: لنتصدى للديانة الأسرع انتشارا في العالم**": "إن المسلمين يشترون **الكنائس الإنجيليكية المهجورة**، ويحولونها إلي **مساجد** بوتيرة يزعم معها بعض المسلمين أن **انجلترا ستكون أول بلد إسلامي في أوروبا**".

وأود القول، بأنني لا أولي أي اهتمام لزيادة عدد من **يتحولون إلي الإسلام**. والمهم هو **التفاهم والتقدير المتبادلان**. فحين يحدث ذلك في أرض الواقع، سيسود التسامح وسيحترم كل طرف رؤى الآخر. والوئام والازدهار يسودان في المجتمع **حين يحترم كل إنسان رؤى الآخر، دينية كانت أم اجتماعية أم سياسية**. كانت تلك هي سمة حياتنا في زنجبار كما عرفتها في طفولتي وفي شبابي. وطبعت علي وجه أحد الطوابع البريدية اللتي صدرت بمناسبة الاستقلال في العاشر من ديسمبر 1963 صورة كنيستين مسيحيتين ومسجدين إسلاميين، ومعبد هندوسي، وضريح روحاني. وعلي الطابع كتبت عبارة " **التسامح الديني** ". بوصفه

العلامة المميزة للمجتمع الزنجباري. وكان الفنان الذي صمم هذا الطابع هو المرحوم الشيخ **عبد الله فرحان**، الشهير **بأبي الفن**.

في هذا النوع من المجتمعات عاش آباؤنا وعشنا. وكان جيراني وأصدقائي مسيحيين وهندوس وبوذيين وزرادشتيين. كما كان جيل آباء كل هؤلاء المنتمين إلي أديان مختلفة، أصدقاء لأبي وأعمامي وأخوالي، وكان أبناؤهم خلاني ورفاق لعبي في طفولتي، وفي مقاعد الدراسة في المدارس والجامعة. وجذب الحزب الوطني الزنجباري حين ظهر إلي الوجود، كافة **العناصر والأعراق والطوائف**، لأنه لم يكن منظمة عنصرية ولا طائفية. وكان **وولفانج دورادو** هو الأمين العام للوزارة في وزارتي، **كلارا ديسوزا** هي سكرتيرتي الخاصة، وكلاهما كاثوليكي من أصل جوا بالهند. ولكنهما كانا، مع ذلك، زنجباريين وصديقين شخصيين لي. والقول نفسه يصدق علي الدكتور كارفالو. وكان ديراجلال ن. شاه الهندوسي زميل دراستي وصديق عمري. ومن علامات الضعف في الحضارة والثقافة الغربية **أنها تعجز عن التكيف مع العمامة واللحية، والحجاب، والساري والدوطي[3] الهنديين**. فما السبب الذي يسوغ لها المطالبة بأن يحاكيها الجميع؟

إن **عدم التسامح** هو السبب الوحيد الذي أدى إلي نزوح المنشقين علي الكنيسة الإنجليزية من انجلترا منذ ثلاثة قرون، بحثا عن بيئة أكثر قبولا لهم في العالم الجديد. وكان الآباء المؤسسون لاجئين مسيحيين هربوا من بلاد يحمكها مسيحيون. وشهد **تاريخ أيرلندا**، علي مدى ثلاثة قرون، صراعات وقمع وحشي من البريطانيين

[3] الساري هو لباس المرأة التقليدي بالهند والدوطي هو لباس الرجل الهندي.

ضد الأيرلنديين، ومن البروتستانتية ضد الكاثوليكية. وهذا هو **تعصب الغرب**. ومعنى ذلك، أن **الغرب لا يزال بحاجة إلي أن يحرر نفسه من نفسه، من تحيزاته، ومن افتقاره إلي التسامح، ومن غطرسته.**

فكل **الحروب** علي مدى التاريخ **بدأت علي يد الغرب**، وشنها الغرب لأسباب غربية. وعلي مدى قرنين كاملين شنت كل الممالك المسيحية الأوربية حملات متكررة **ضد مسلمي فلسطين ومصر**. وفي تلك الحرب المقدسة كان اليهود هم الآخرون يُذبحون بحجة أنهم "**قتلوا ابن الرب علي الصليب**". ولم **ترخص** أعلي المرجعيات الكنسية فحسب، بل **باركت** كل من: **الحملات** الصليبية، و**الاضطهاد** البرتغالي لشعوب الشرق علي مدى قرنين، و**غزو** أمريكا الشمالية والجنوبية، بما ترتب عليه من عواقب تشمل **الإبادة الجماعية للسكان الأصليين- الهنود الحمر الأمريكيين – وأسر ونقل ملايين الأفارقة عبر المحيط الأطلسي إلي العالم الجديد.**

ثم جاءت الحربان العالميتان، **الأولي** ما بين عامي 1914 و1918. و**الثانية** ما بين عامي 1939 و1945. وكان الغرب المسيحي هو المسعر الأول لهما والممسك بزمام بدايتهما ونهايتهما. وخلالهما حاربت أمم مسيحية أمما مسيحية، كما حارب المسيحيون أمما غير مسيحية،. وخضبت أرض العالم بالدماء. فأوروبا المسيحية وأمريكا الجنوبية المسيحية، في حالة اضطراب دائمة بالغة. والعالم كله في توتر دائم، **لأن الغرب المهيمن لم يتعلم أن يكون متسامحا مع نفسه.** فهو يهوي

بقدميه صوب حتفه النهائي، مخمورا بالمخدرات، وبالإباحية الجنسية، وبالرأسمالية المغرورة، مع تدمير العالم بأسره.

فالعالم ينتقل علي يدي الغرب من **حالة طارئة** إلي **حالة طارئة** أخرى، متنكبين الطريق الأخلاقي المستقيم الذي رسمه شرع الله لنا. فالبروتستانت والكاثوليك في أيرلندا **يغرقون** في خضم الخمور بشتى صنوفها ، ثم **يتقاتلون**. والصوماليون واليمنيون **يتخدرون** بالقات، ثم **يتسلون بقتل** بعضهم بعضا. وما أن نجح **الأفغان** في **التخلص من الشيوعيين**، حتى دخلوا باسم الإسلام في **دائرة الانتحار الوطني** بينما يطمسون عقولهم **بالأفيون** الذي يزرعونه.

وخلاصة القول، أن الغرب ليس **محتكرا لمهمة خلق التوترات**. فأصغر قبيلة آسيوية، أو إفريقية لديها القدرة أيضا علي تعكير صفو العلاقات الإنسانية، ولكن ليس **بالحد العالمي الهائل** الذي تمثل بالحروب الصليبية والحربين العالميتين. وما حرب الخليج والحرب الكورية والفيتنامية والنيجيرية والرواندية وما شاكلها غير مجرد ومضات يسيرة، بالقياس **بالحريق الهائل** الذي يود الغرب إشعاله بين الفينة والأخرى. وعلينا أن نبحث في **جذوز المظالم**. فالطبيب الحق هو من يعالج **المرض** وليس مجرد **العرض**. ونحن نقرأ في الكتاب المقدس: "**لا تزنوا**". ونقرأ بالمقابل في القرآن الكريم: {**وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى** إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً}

الإسراء32

ونستمع إلي الإنجيل وهو يقول وفق رواية بولس الرسول: "لا تكن فيما بعد **شراب ماء**، بل استعمل **خمرا قليلا** من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة". ولنقارن ذلك بقول الله تعالي: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{90} إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ{91}. (المائدة 90-91)

ولننصت إلي النبي عليه السلام وهو يعلمنا أن " ما أسكر كثيره فقليله حرام". الامتناع الكامل إذن هو العلاج الناجع.

ولقد رأينا كيف غمس **المتمردون في زنجبار** الذين سموا أنفسهم "ثوريين" أنفسهم في **الخمر**، وتعاطي **الحشيش** إلي أن وصلوا لحالة سعار استطاعوا معها أن يرتكبوا جرائم يصعب التعبير بالقلم عنها، ضد الرجال والنساء والأطفال، الذين عاثوا فيهم قتلا واغتصابا وسرقوا ونهبوا، وهم فرحون. ولاستدامة تلك الحالة كان أول ما فكروا فيه بعد استيلائهم علي الحكم هو إنشاء **معمل ماهوندا للتقطير**، لصناعة الخمور من قصب السكر الذي زرعوه في مناطق زراعة الأرز، التي تم طرد المزارعين منها بالقوة.

وعلي مدى **ثلاثة عقود**، وهذا المصنع القمئ ينتج **خمورا** تسمم بها قلوب وعقول المواطنين، وتوالت علي سدة الحكم خمسة أنظمة حاكمة دون أن يبذل أي منها حتى مجرد محاولة لغلق ذلك المصنع، أو حتى لتحويل أنشطته إلي أغراض إنتاجية بناءة. ويحتاج الشعب الزنجباري إلي المواد الكربوهيدراتية الحيوية التي يمكن الحصول عليها من الأرز، والسكر. ولكن السلطات الضالة وجدت أنه من المربح لها أن تنتج الخمور المسممة عن أن تنتج الطعام للجوعى.

ولا يختلف الحال عن ذلك في **البر الإفريقي**. فمنطقة دودوما في وسط تنجانيقا باتت مناسبة تماما **لزراعة الكروم** بفضل جهود القساوسة الكاثوليك. وكان من الممكن أن يكون ذلك نعمة بالنسبة لبلد يعاني من نقص في امدادات الفواكه الطازجة. ولكنه بدلا من أكل **العنب الطازج**، او استخراج العصير منه، فإن السلطات التنزانية اختارت أن تضيف به **شرابا مسكرا آخر** إلي قائمتها الهائلة من المشروبات الكحولية. وتم إرساء علاقة تعاون وثيقة بين دودوما وماهوندا، حيث تقدم الأخيرة المحلول الكحولي المقوي للخمر الذي تنتجه دودوما. وترمز هذه الشراكة في الإثم إلي **الوحدة التنزانية**.

فالوحدة التنزانية هي الإنجاز النهائي لنيريري. ولكن هل هي إنجازه، أم هو مجرد أداة في مؤامرة أخبث منه بكثير؟ لا علم لي. ولكن بالحكم في ضوء الطريقة التي تتشكل بها معطيات الواقع من بداية القرن التاسع عشر حتى الآن، يبدو أن **هناك خطة محددة رسمت خطوطها من البداية، ويجري تنفيذها خطوة خطوة، مع توظيف لأذناب مختلفين في عهود مختلفة**. وصدرت القرارات في أوروبا عن القوى التي قسمت إفريقيا. وجاء طموح السيد ماجد لأن يكون سلطانا مستقلا عن أخيه الأكبر السيد ثويني، مناسبا تماما لتلك المخططات.

فعلي يديه تم تفكيك الإمبراطورية العمانية الكبرى، التي أرسى السيد سعيد بن سلطان دعائمها بكل قوة. وتعاقبت القوى الاستعمارية بسرعة في الانقضاض علي شرق إفريقيا بعد إضعافها، علي **شاكلة مهاجمة النسور لغزالة جريحة**. وأخذت كل من إيطاليا وبريطانيا وألمانيا وبلجيكا نصيبا من الأراضي

التي كان السيد سعيد بن سلطان قد عززها ووحدها. وانكفأت عمان في العزلة والتخلف، إلي أن جاء السلطان قابوس بن سعيد المعظم، فأنقذها. ولم يتبقى من أراضي زنجبار المترامية الأطراف من القرن الإفريقي إلي موزمبيق، غير جزيرتين صغيرتين هما بيمبا وزنجبار. وفرضت بريطانيا حمايتها عليهما كذلك.

ويمكن القول، أن الغرب استطاع أن يتخذ من زنجبار نقطة وثوب في البر الإفريقي. وحصلت الإرساليات التبشيرية، والمستكشفون، والاستعماريون، عبر زنجبار، علي كل أنواع الدعم التي ساعدتهم علي التغلغل في قلب القارة الإفريقية. وكانوا **أهل كرم ومودة** عندما قدموا. ولكنهم **صاروا متكبرين وطغاة**، بعد أن حققوا مآربهم. واستخدم هؤلاء الأوربيون جزر لامو ومباسا وزنجبار وبيمبا ومافيا والقمر **كنقاط وثوب للقفز** منها إلي داخل إفريقيا. وبعد استخدامها في تحقيق ذلك المطلب، تم **نبذها واعتبارها من سقط المتاع**. بل أصبحت تلك الجزر **ملحقات يجري قهرها ومنعها من أن ترفع رأسها مرة أخرى**.

وبتعبير آخر، كان ليفنجستون وستانلي وكرابف وغيرهم مجاملين والابتسامة علي وجوههم، حينما كانوا يسعون إلي الحصول علي العطف والمساندة من حكام أقاليم ساحل شرق إفريقيا. ولكنهم بمجرد أن رسخوا أقدامهم في المنطقة، فرغوا أنفسهم هم وأمثالهم لتقويض من مدوا لهم يد العون من قبل. وهم في ذلك ليسوا ذرية غريبة من البشر. فهم صورة طبق الأصل لمن يحركهم **الطموح** الذي هو أصل **الشرور**، كما عبر عن ذلك شكسبير علي لسان **بروتوس**. وحينما يتكلم شكسبير، فإنه يقول دررا خالدة:

هذا برهان مشترك

متواضع هو، سلم الطموح الناشئ
ومنه يولي وجهه، الصاعد عليه.
لكنه ما أن يصعد إلي غاية مبتغاه
حتى يدير ظهره للسلم
وينظر إلي السحب محتقرا **الدرجات الأولي**
التي عليها صعد.

واستخدمت **جزر الكاريبي** علي ذات الشاكلة، التي استخدمت بها **الجزر الواقعة قبالة ساحل شرق إفريقيا**. فكانت هي أول ما اكتشف وتم استيطانه. ولكن ما إن أصبح البر الأمريكي تحت سيطرة المستوطنين حتى باتت الجزر الكاريبية شيئا بغيضا علي نفوسهم. وسعوا إلي جعلها مناطق تابعة إما **بتجاهلها، أو بالهيمنة عليها، أو بقمعها**. وصارت تلك الجزر بغيضة، مثل كوبا وهاييتي، لما لم تعد وديعة وفي خدمة الاستجمام والرياضة. وبوسعنا، بالتالي، أن نثمن قول اللورد سالسبوري لسير آرثر هاردنج، حينما ضمت الحكومة البريطانية الشريط الساحلي إلي كينيا: "هذه هي إحدى التضحيات التي ينبغي علي زنجبار أن تقدمها من أجل المصالح الإمبريالية".

فزنجبار التي أتى عليها حين من الدهر كانت تمتد فيه إلي موزمبيق، ومن المحيط الهندي حتى ما وراء البحيرات العظمى، تقلصت رويدا رويدا، حتى اضطرت لأن تضحي بنفسها من أجل المصالح الاستعمارية للقوى الغربية.

وحين كنت في لندن عام 1962 لحضور المؤتمر الدستوري الأول، **قابلت سيدة من القبارصة اليونانيين** سبق أن عاشت في زنجبار مع زوجها الإنجليزي، الذي كان مهندسا ينقب عن

البترول في كاما. وارتعدت فرائص تلك السيدة حين علمت أننا جئنا من أجل المطالبة بالإستقلال. وقالت: "من فضلك ياعلي، **لا تطالب بالاستقلال**. بلدكم جميلة. وأنتم بحالتكم الراهنة سعداء. وهؤلاء الناس أقوياء للغاية، **وسيدمرون بلادكم**". سألتها: "لماذا ناضلت **قبرص** وحصلت علي استقلالها؟ ردت علي: "من الذي استفاد؟ فقط ذلك **القسيس**. (تقصد الأسقف ماكاريوس). فقبرص تعاني الآن أكثر من أي وقت مضى. **وهؤلاء لن يتخلوا عن مستعمراتهم دون أن يلحقوا بكم أضرارا بالغة تعكر صفو مستقبل بلادكم علي الدوام**".

يومها ظننت أن تلك السيدة ساذجة إلي أبعد حد. ولكن ظني لم يكن في محله. لم أرغب ساعتها في أن يدور مثل هذا النقاش في العلن. فلقد كنا في بهو فندق مونترويال. وتعللت بعذر ما لإنهاء تلك المحادثة. وكان لب حجتي أن حالتنا **شبيهة بحالة إنسان يعاني من غرغرينة في قدمه فهل تبتر تلك القدم أم لا؟** قد يؤدي البتر إلي إنقاذ حياته، ولكن ليس بالضرورة. والسؤال هو: **أن نكون أو لا نكون.**

وبأسلوب شيق عبر توماس باكينهام عن تلك الإشكالية في كتابه "**التكالب علي إفريقيا**" حين وصف الكيفية التي كان لورد سالسبوري ومستشاره سير بيرسي آندرسون بوزارة الخارجية يخططان للتقسيم، ويقرران "**ما يمكن التضحية به. قررا أن السلطان هو من يمكن التضحية به**" [4]. إلا أن السلطان يمثل

[4] انظر: توماس باكينهام، التكالب على إفريقيا، ص 294

الشعب والبلاد. فالسلطان كان هو زنجبار والزنجباريين. وهم بالتالي، موضع التضحية بهم من أجل المصالح الإمبريالية والغربية.

الفصل الثامن عشر

في الحكومة[1]

أولا: الأمن الغذائي عبر التعليم والبحث العلمي المنفتح زمن الحرب

---

[1] يستعرض هذا الفصل خبرة زنجبار في تحقيق الاكتفاء الذاتي زمن الحرب عبر التعليم والبحث العلمي. ويلقي الضوء على أهمية البحث العلمي المنفتح على تجارب الأمم الأخرى في المجالات المناظرة، والناقل للتجارب من المعمل إلى المزارع، والتعليم المتجاوز لمستوى التلقين، إلى مستوى تشكيل العقول، والدراسة المفتوحة والمنفتحة في البيئة، وليس المحبوسة بين جدران الفصول، والتلاحم بين الأستاذ والطلاب، ونشر الوعي بالتفكير المنهجي العلمي، انطلاقا من التسليم بالآصرة الوثقى بين العلم **الصحيح والدين الحق، والسياسة الأمينة**.

ويقرر المؤلف ان شاغله الأكبر تمثل على الدوام في بناء **الأمة الزنجبارية، ونبذ الطائفية**، وأن من تحركوا بالورقة الطائفية من منطلق انتهازي، أضروا بغيرهم وبأنفسهم في آن واحد. ويسلط الضوء في المقابل، على دوره في تحويل الجمعية العربية إلى جمعية حاضنة لكل الطوائف ولكل الفرقاء الزنجباريين، موضحا أن مهمة تحويل المجتمع الذي مرد على الطائفية إلى مجتمع يعلي من شأن الوحدة الوطنية والتحرر القومي، لم يكن بالأمر السهل. ومن الأهمية بمكان هنا، ان المؤلف بين أن صمام التحول، ارتبط بتحول في موقف رأس النخبة العربية، ولم يكن تحولا في موقف القاعدة الجماهيرية ذاتها.

ثم يسلط المؤلف أضواء كاشفة على معالم الحكم البريطاني غير المباشر في زنجبار، الذي قام على خلق مؤسسات شورية، تعرب منها السلطات نبض الشعب، مع الانفراد بسلطة اتخاذ القرار.

ويبين المؤلف، أخيرا، أن جيل حكام ما بعد الاستقلال تعلموا الإدارة من تلك الإدارة الاستعمارية ذاتها، وليس بالرجوع إلى نماذج من خبرتنا التاريخية ولا من نماذج موازية معبرة عن خصوصيات أمتنا. ولعل هذا هو السر في عدم حدوث تحول جوهري وإيجابي في منظومات حكم بلادنا في عهد ما يسمى: مرحلة ما بعد الاستعمار التقليدي. ولعل هذا أيضا واحدا من أهم النوافذ التي عاد منها الاستعمار بأشكاله الجديدة، وتعاظمت في ضوئه القابلية للإستعمار – المترجم

أول وظيفة شغلتها بالحكومة هي **معاون أخصائي زراعة**. كان ذلك في عام 1942 في معمعة الحرب العالمية الثانية، علي إثر تخرجي من كلية الزراعة. وكان سنام المسؤولية في أي بلد آنئذ هو بذل غاية الجهد من أجل توفير **حاجة البلاد من الغذاء**. ذلك أن وسائل المواصلات والنقل لم تعد آمنة. وفيما يخص زنجبار كانت مصادر التزود بالأرز الذي هو الغذاء الرئيس لشعبها، إما **تحت الاحتلال الياباني، أو في مناطق تدور فيها معارك ضارية.** ولم يكن من الوارد استيراد الأرز من بلاد مثل الهند وبورما وتايلاند.

وعلاوة علي ذلك، فإنه مع سقوط أندونيسيا في يد اليابانيين لم يعد بوسعنا بيع القرنفل لتحصيل المال الضروري لشراء الغذاء، حتى علي فرض تمكننا بمعجزة من العثور علي وسائل لنقل منتجاتنا. ومن ثم فإنه كان لزاما علي أنا وزميل الدراسة علي خميس أن نبدأ حياتنا الوظيفية بانخراط كامل في المشروع المعروف بـ "**حملة إنتاج المزيد من المواد الغذائية**". وعين زميلنا أحمد راشد الذي تخرج في نفس وقت تخرجنا من ماكيريري **مساعد طبيب بيطري**. وبه اكتملت مهمتنا بشكل ما. . واتخذنا من محطة كيزمباني للزراعية التجريبية مقرا لعملنا.

وكانت تلك المحطة عبارة عن مركز بحوث، للتدقيق في المشكلات الزراعية في زنجبار من كافة جوانبها. والبحث العلمي عملية متواصلة ومضنية. فقد يتوصل الباحث، أحيانا، إلي نتائج مثيرة، ولكنه في أغلب الأحيان يكون بمثابة عمل فني دؤوب ذي نتائج متواضعة لا تصلح لتصدر عناوين الصحف.

ويعرف المنخرطون في البحث العلمي، والذين كنت من بينهم علي مدى عقد من الزمان، كطالب بالجامعة وكمعاون أخصائي زراعة، ويقدرون الفائدة الهائلة للتجريب والبحث. ونحن نعرف الضرورة القصوى لمواصلة البحث العلمي في كل وقت وحين. والنموذج الكلاسيكي الذي يضرب به المثل في هذا الصدد هو تجربة **تخصيب القمح** التي كانت تجري في محطة روثأمستد التجريبية في انجلترا علي مدى عصور، ولا تزال مستمرة.

وقمنا في مركز بحوث كيزمباني بتجارب علي محاصيل زراعية، مثل القرنفل وجوز الهند والبن والكاكاو والمانجو والحمضيات بمختلف أنواعها، والموز والأناناس والبقوليات بشتى صنوفها، والأرز والكاسافا والبطاطا والخضروات وما شاكل ذلك. كما قمنا ببحوث علي بعض المبيدات الحشرية.

وعرف المركز عملية مستمرة لإنتاج **سلالات مطورة**. ومن هنا كان الجمع بن **تجارب التخصيب، وتجارب التحكم في أمراض النباتات وفي الحشرات التي تصيبها**. وكنا نبحث علي الدوام عن أنواع مقاومة، من أجل زيادة الإنتاج، ومن أجل تجويد المذاق، وغير ذلك من الخصائص المرغوبة في كل نبات علي حدة.

وكان لدينا في هذا المركز العلمي قسم يسمى: "**المتحف**" به عينات من نباتات شتى مجلوبة من مناطق عديدة من العالم، يمكن تطويرها للإنتاج بكميات اقتصادية، عند اللزوم. فنبات الشاي الشرق إفريقي مجلوب في الأصل من حديقة نباتات كيوجاردنز بانجلترا. وتمت تجربته في منطقة سليم بزنجبار. ومع أن تلك التجربة فشلت، فإنها أرست الأساس اللازم لمزيد من

التجارب عليه في مرتفعات كينيا وأوغندا وتنجانيقا، كللت بنجاح كبير.

وكان هناك تعاون كبير بين **مركز كيزمباني** ومراكز بحوث عديدة في أرجاء العالم، **مثل:** مركز أماني بتنجانيقا، وكاندي بسريلانكا، وروثأمستد بانجلترا. ومصدر المسيتو، تلك النوعية البالغة النجاح التي طورناها من الكاسافا هو مركز بحوث أماني الشهير الذي أنشأه الألمان. واستطعنا بمؤازرة العمال الفنيين في كيزمباني **تمديد نطاق عملنا إلي الحقول**، وإمداد المزارعين علي الدوام بأحسن البذور والشتلات، وتعريفهم بأفضل طرق الزراعة في ضوء النتائج التي توصلنا إليها بالبحوث بالمحطة التجريبية.

واستطاع مركز كيزمباني أن يحرز نتائج مبهرة في تطوير سلالة من **الأبقار المدرة للألبان** سبق تطويرها في كينيا، بعد عمل منهجي دؤوب استمر عدة سنوات. وأنجزت تحسينات مماثلة في استيلاد نوعيات من **الطيور الداجنة** في زنجبار بادخال سلالة دواجن رودأيلاند لأغراض التجريب والإنتاج.

وتحقق تقدم واضح نتيجة هذه الجهود البحثية، يشهد به كل من يتذكرون **أنواع الدجاج الهزيلة** الصغيرة الحجم المهجنة التي كانت تجري في المنازل الريفية، وتنتج بيضا **قليلا** من حيث الكم، **رديئا** من حيث النوعية. إلا أن حدث الإنقلاب والإطاحة بحكومتنا انحرف بهذا العمل العلمي النافع والعظيم الذي كان يجري في كيزمباني عن مساره. **فالجهل هو اللغة الكبرى التي يمكن أن تحل بأي مجتمع.** وهذا هو السر في تسمية العصر السابق علي الإسلام في جزيرة العرب: **عصر الجاهلية.**

وبعد فترة، طلب مني العمل **بتوجيه التدريب الزراعي** في المدارس الريفية بمدرسة (دولي المتوسطة) ومدرسة (تدريب المعلمين). وكانت بكل مدرسة ابتدائية ريفية، حديقة مدرسية صغيرة. أما دولي، فقد كان يتبعها المزيد من الحقول الواسعة وحظائر الطيور الداجنة، بوصفها مدرسة يدرس الطلبة فيها **بنظام الداخلية**، أنشئت خصيصا لتلبية متطلبات المجتمع الزراعي.

وبدلا من التدريبات البدنية والرياضية، كان الطلبة يكتسبون اللياقة البدنية والعلم النافع عبر **رعاية محاصيلهم، ودواجنهم** قبل **تناول وجبة الفطور**. وكانت مهمتي هي تزويدهم بما لدي من علم زراعي، وهي وظيفة استمتعت بها من أعماق قلبي.

وأظن أن توجيهاتي لم تكن ممتعة ومفيدة لطلابي فحسب، بل لبعض المدرسين أيضا. وكنت أدرس **مادة الأحياء** قبل تعيين السيد عمر عبد الله مدرسا لتلك المادة. وفي ظل عدم وجود معمل تجارب، كنت أقوم بالتدريس لطلابي في الأغلب الأعم في **مزارع المدرسة**، وفي **رحلات خلوية بيئية قصيرة** اصطحبهم فيها من **دولي** إلي شواطئ بوبوبو، وتلال ماسينجيني، وحقول كيزمباني.

ولم يكن ما يهمني هو مجرد **تدريس موضوع بعينه لطلبتي**، بقدر عنايتي **بغرس توجه الملاحظة والاستقصاء العلمي في نفوسهم.** فلقد كنت أنا نفسي شديد الحماسة لطلب العلم، **تتلمذت** علي: هـ. ج. ويلز، ج. ب. ويلز، جوليا هوكسلي، ج. ب. س. هالدين الذين كانوا هم، في تلك الأونة من بين أشهر العاملين من أجل **تبسيط المنهج العلمي وجعله في متناول الجميع، وربطه بالحياة.**

والواقع أن الخط الفاصل بين **العلم الصحيح** و**الدين الحق**، وبينهما وبين **السياسة الأمينة** رفيع للغاية. ولقد علمتني قوانين الوراثة، والتطور، وأصل الأنواع، والإسلام، أنا وطلبتي، أنه من الغباء المستحكم تقسيم البشر إلي أجناس وقبائل، بينما هم جميعا من أصل بشري واحد. فالعلم والإسلام يتحدثان، في منظورنا، بلغة واحدة.

ثانيا: حلقة الوصل – إرهاصة للحزب الوطني الزنجباري

لم يمر وقت طويل قبل أن يفاتحني الطلاب الأكثر نضوجا ورشدا من **طلبة مدرسة تدريب المعلمين**، ساعين إلي أن يعرفوا مني السبيل إلي حل للموضوع الأهم الذي يؤرقهم، ألا وهو: **الانقسامات بين الطوائف العرقية**. جائتني مجموعة من خمس أو ست طلاب، وقالوا لي: "نحن هنا في دولي نعيش معا، وندرس معا، والصداقة سائدة بيننا، ولا نشعر بأي فوارق بيننا. ولكن بمجرد أن نتخرج من المدرسة، ونذهب إلي ساحة العمل، يلحق كل منا بفصيله العرقي، ونتشتت، ونفترق. . هذا يلحق بالجمعية العربية، وذاك بالجمعية الإفريقية، وهذا بالجمعية الشيرازية، وذاك بالجمعية القمرية. **فكيف نبقي علي هذه العلاقة الطيبة التي ترسخت بيننا بالمدرسة بعد خروجنا إلي ساحة الحياة العملية بعد التخرج؟**

كانت لدي إجابة علي السؤال. قلت لهم أنه بعد الحرب العالية الأولي، شكلت مجموعة من **الطلبة الألمان والبريطانيين التواقين إلي تجسير الفجوة بين الشعبين الألماني والبريطاني**، منظمة أسموها: "**حلقة الوصل**". أنشأنا بدورنا **حلقة وصل** في دولي بهذه

المجموعة من الطلبة. وقررنا أن تكون هذه الحلقة بمثابة **مجموعة عمل**، تبلغ رسالتها عبر جريدة المرشد الأسبوعية، التي كنت أكتب افتتاحياتها سرا آنئذ، كمهمة ائتمنني عليها محمد سالم البرواني الشهير بجينجا حين غادر زنجبار إلي بريطانيا لتحصيل المزيد من التعليم.

وكان أعضاء مجموعتنا هذه، ينتشرون في العصاري والعطلة الأسبوعية، علي **مقاهي القرية** في دولي وكيزيمباني ومكانياجني وبوبوبو وكل الأحياء المحيطة بالمدرسة، ويشرع الواحد منهم في قراءة تلك الجريدة الأسبوعية، بينما يستمع آخرون. وبذا تم جذب انتباه القرويين. وبجانب الافتتاحيات كانت هناك مقالات عديدة روعي فيها أن تكون مصدر استنارة وإرشاد. كما كان للشيخ عبد الله صالح الفارسي صفحة خاصة للفكر الديني. وبمرور الوقت، اكتسب طالب أو طالبين المهارة الكافية لإعداد موضوعات للمناقشة بأنفسهم، والتحاور مع القرويين بشأنها.

وعلي مسافة لا تبعد عن دولي إلا بقرابة أربعة أو خمسة كيلومترات، كان يوجد **مستشفي ويليزو**، الذي هو في الواقع: **مأوى للمسنين، والمصابين بأمراض عضال**. وكان ذلك المستشفي مؤسسة حكومية تمول من المال العام، ولكن إدارة مجريات العمل به بيد **راهبات كاثوليكيات**. وكان من النادر أن يزور أقارب المرضى مرضاهم من نزلائه لبعد هذا المأوى عن المدينة، ووجوده في منطقة منعزلة.

من هنا جعلنا من مهام (**حلقة الوصل**) القيام بزيارات منتظمة لتلك المؤسسة للترويح عن المسنين والمرضى، وللعمل كحلقة وصل بينهم وبين أقاربهم. ومن بين رفاقي الذين عملوا معي في

توجيه **الطلاب أعضاء هذه الحلقة:** المعلم سيف ناصر البرواني والمعلم صالح عبد الله الجهضمي. وكانت تلك المحاولة بداية جيدة، ولكنها تلاشت مع تخرج أولئك الطلاب، وعودتي للتفرغ لمهام عملي الزراعية في كيزمباني.

وعين **مدونجي أوسي** أحد أفراد مجموعتنا معلما بمدرسة مكواني الابتدائية في بيمبا. وكان المعلم **زام علي** ناظر تلك المدرسة واحدا ممن يكرهون الانقسامات العرقية في المجتمع الزنجباري، ولكنه لا يعرف سبيلا للتصدي لها. وحينما علم من مدونجي أوسي بأمر تلك الحلقة، ابتهج لها وقرر الشروع في إنشاء منظمة تحقق التشابك بين الأعراق في المجتمع الزنجباري بكل معنى الكلمة. وسمى المنظمة التي جادت بها قريحته: **الجمعية الزنجبارية المحايدة**، وطلب منا التعريف بها وترويجها في جريدة المرشد الأسبوعية. استجبنا للطلب، ولكننا اقترحنا استبدال كلمة " **المحايدة**" بكلمة "**الوطنية** " لما لها من معنى أكثر إيجابية. واستجاب بدوره لاقتراحنا.

وبدأت الجمعية الوطنية الزنجبارية بزعامة المعلم زام علي عباس بداية طيبة. وحازت علي تأييد **مختلف الفرقاء الزنجباريين**. ومن بين **أعضاء تلك المنظمة الأوائل:** أحمد محمد ناصر اللمكي[2]

---

[2] أحمد بن محمد بن ناصر اللمكي درس بالقاهرة وحبس بها قبل ثورة 1952 لنشاطه السياسي المناهض للإستعمار. عاد إلى زنجبار وترأس تحرير جريدة "الفلق" الناطقة بلسان الجمعية العربية في زنجبار. كان ناشطا في الحزب الوطني، وعين أول سفير لزنجبار في القاهرة. مع عصر النهضة في عمان عاد إليها وعمل سفيرا لعمان في كل من اليمن والجزائر وألمانيا وبريطانيا. وعمل نائبا لرئيس مجلس الشورى العماني.

وعثمان شريف وعبد الله عامر. كما أبدى يحيى علوي الاخصائي الإعلامي الحكومي اهتماما بها.

وحضر **كارومي ومتورو ريحاني ومتوموا بورافيا**، وكلهم من أعضاء الجمعية الإفريقية، **أول اجتماع عام** عقدته تلك المنظمة في مدرسة أغاخان. وحينما أعلن رئيسها أن **عضوية المنظمة قاصرة علي الزنجباريين**، سأله كارومي عما إذا كان من حقه بوصفه من مواليد الكونغو الحصول علي عضويتها. وحين رد عليه رئيس الجلسة بأن ذلك بإمكانه **شريطة التقدم بطلب الحصول علي الجنسية الزنجبارية**، غضب وخرج هو ورفيقيه من قاعة الاجتماع. وسرعان ما **نبهت الحكومة الموظفين بجهازها المدني بأنه من المحظور عليهم بحكم الأوامر الحكومية السارية المشاركة في أنشطة سياسية.**

والحق أنه كانت هناك لوائح حكومية من هذا القبيل، ولكنها لم تطبق من قبل، لأن كل المنظمات القائمة كانت **طائفية**. وكانت الطائفية أساسا جيدا للحكم الاستعماري. ورأت الإدارة الاستعمارية **أن نشأة منظمة غير عرقية تدعو كل الأعراق للوحدة، ابتكار جديد وخطير**. وكان معنى هذا التنبيه الحكومي أن علي المعلم زام، بصفته مدرسا، وعثمان شريف، بصفته طبيبا بيطريا، أن ينسحبا من تلك المنظمة. وبانسحابهما كتبت شهادة وفاتها.

ولم يبرز المعلم زام في الصورة حتى وصل إلي **سن التقاعد**. وعندها انضم **للحزب الوطني الزنجباري**، وأصبح مرشحه عن دائرة فووني ضد عبود جومبي. وفي المقابل، تنصل مدونجي أوسي من مبادئ "**جمعية الوصل**" وأصبح أحد مؤسسي حزب الإفروشيرازي. وقام بدور **نشط ومخزي في الانقلاب الدموي** الذي

أطاح بحكومة الحزب الوطني وحزب الشعب، الديموقراطية المنتخبة عام 1964. وبعد فترة وقع هو الآخر **فريسة لشجرة الشر التي زرعها**. فلقد قتله كارومي، المستأسد الذي جاء به هو إلي سدة الحكم، والذي كتب له سيرة ذاتية تنبض بالتملق والمداهنة.

وبالمثل فإن **عثمان شريف**، أدار ظهره لمبادئ الجمعية الوطنية الزنجبارية التي كان عضوا بها، ولو لفترة يسيرة، وأصبح عضوا **ناشطا في غرس الأفكار الفاشية والشوفينية** في عقول المثقفين الأفارقة، مؤججا نيران الفرقة بين الزنجباريين. وانتهي به المطاف إلي المشاركة في تأسيس حزب الأفروشيرازي، وصار لفترة زعيما لكتلته البرلمانية، بينما احتفظ **كارومي** بالرئاسة العامة لذلك الحزب. وكوفئ بعد إطاحة حزب الأفروشيرازي بالحكومة الشرعية واغتصاب السلطة، بمنصب وزاري.

ولعلم كارومي بالطموحات الشخصية لعثمان وتخوفه من مكائده، نحاه في وظيفة بالسفارة التنزانية في لندن، ثم في واشنطن. وأثناء زيارته لزنجبار نجا بأعجوبة من عملية تصفية جسدية له علي يد كارومي. فلقد تدخل نيريري في الوقت المناسب، علي أساس أن عثمان كان **دبلوماسيا يمثل الاتحاد التنزاني**، وليس زنجبار. وبالتالي **فلا ولاية لكارومي عليه**. وعينه نيريري طبيبا بيطريا في منطقة أرينجا بوسط تنجانيقا.

إلا أن كارومي لم يكن من النوع الذي يقبل بسهولة، أن يحال بينه وبين من يريد افتراسه. ومن هنا فإنه تعقب عثمان حتى في ايرنجا، وأكره اثنين أو ثلاثة من أصدقائه المقربين، علي تقديم دليل مشفوع بالقسم أمام المجلس الثوري، علي أنه كان يتآمر

للإطاحة بالحكومة. ثم دفعهم إلي الذهاب إلي نيريري، وإعادة مزاعمهم علي مسامعه. وبذا أعيد عثمان إلي زنجبار مكبلا. ويقال أن كارومي أجهز عليه بيديه الملطختين بالدماء، بعد أن أذاقه أبشع أنواع العذاب.

وبحكم العدالة، لقي من خانوا عثمان بتقديم أدلة مزيفة ضده تنفيذا لما طلبه كارومي منهم، ذات المصير الواحد تلو الآخر علي يد ذلك الوحش غير الآدمي، وراحو جميعا ضحية للانتهازية السياسية التي عكفوا عليها. ثم توج هذا المشهد بتلقي كارومي رصاصة الرحمة علي يد ضابط بالجيش الزنجباري أفرغ خزينة ذخيرته بكاملها في أحشائه. وبعد أن استبد هذا الطاغية بالشعب الزنجباري ثمانية أعوام من عام 1964 حتى 1972، جاء النقيب **حمود** ليسوقه إلي قبره بثمانية ثقوب بالرصاص في أسمن موضع في جسده.

وحينما كنت أنا وعثمان شريف زميلي دراسة في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، كان عثمان شريف يبذل قصارى جهده للتأكيد علي أنه "**فارسي** " الأصل. وكان يفتخر بكونه شيرازيا من بيمبا، ويتصل من **الأصل الإفريقي**. فلقد كان **(الإفريقي الأصل)** في ذلك الوقت، ينظر إليه، خاصة في البر الإفريقي، علي أنه من أدنى الطبقات.

ومن هنا كان من مقتضى الانتهازية السياسية أن يبرز أصوله الشيرازية. فلقد كان هرم التصنيف السائد في البر الإفريقي في حينه من **الأعلي إلي الأدنى** كما يلي: **الأوربي** ثم **الأسيوي** ثم **الإفريقي**، في كل شئ من التعليم إلي المرتبات مرورا بالعلاج في

المستشفيات، وصولا إلي مقاعد السينما، وفي محطات السكك الحديدية، وحتى في دورات المياه العامة.

ولم يكن بوسعه أن يصبو لأن يكون أوربيا بسبب لون بشرته. فلقد كان اسمر اللون مثلي أنا وشامتي ومانديلا. ومن ثم فإنه اختار أفضل بديل متاح. وبعد ذلك بعقود ثلاثة، زعم بحرارة بوصفه رفيقا لكارومي والمتحدث باسمه، في خطاب له أمام لجنة الأمم المتحدة لتصفية الاستعمار، أن: "بزنجبار أمتان **عربية وإفريقية**. وإذا تم منح الاستقلال فإن **العرب** سيذبحون **الأفارقة**. "

وكان كل ما نطق به في هذا المقام سخف وبهتان من نسج الخيال. فلقد كان واضحا أمام الجميع **أن التشابه في الملامح الجسدية بيني وبينه يفوق ما بينه وبين صديقه المختار كارومي**. وبعدها بخمس سنوات ذُبح عثمان شريف، ولكن ليس بيد من أسماهم العرب، وإنما بيد "**أخيه الإفريقي كارومي** "، تلك الأخوة المؤسسة علي النفعية السياسية وليس علي الحق الأخلاقي. ولقد عرف كثيرون من أمثاله من هم إخوانهم الحقيقيون، ولكن بعد فوات الأوان.

ثالثا: انضمامي للجمعية العربية

بعد خمس سنوات من الخدمة بالحكومة، **قدمت استقالتي**. ولم تكن الإدارة الاستعمارية نوعا من **الإملاء المحض** من جانب المسؤولين البيض، علي نحو ما نصورها عادة نحن المعادون للإستعمار، بل كانت **إدارة إنسانية ومهذبة** بدرجة تفوق بكثير حكم معظم من ينتقصون من قدرها. فلقد كانت في الحقيقة **نوعية من الحكم بالتشاور والتوافق**، في ظلها تسعى السلطات

الاستعمارية للتعرف علي رؤى الجماهير، وتتمتع الجماهير بحقها الكامل في التعبير عن وجهات نظرها.

ولا يعني ذلك أن تلك الحكومة كانت ملزمة باتباع وجهة نظر الجماهير بأي حال، وإنما يعني أنها كانت توليها اعتبارها واحترامها، علي الأقل من **حيث الشكل**. أما **القرار فكان من اختصاص تلك السلطات وحدها**. وتمثلت آلية تحقيق ذلك في وجود عدد مما يسمى: "**المجالس واللجان القانونية**" ذات الدور الاستشاري البحت، **تشمل**: اللجنة الاستشارية للتعليم، واللجنة الاستشارية للصحة، واللجنة الاستشارية للزراعة، واللجنة العدلية لزيارة المسجونين المنوط بها التأكد من أن السجون تدار كما ينبغي وفق القانون، وأن نزلاءها يلقون الرعاية الواجبة، ولجنة المتحف.

وإلي جانب تلك **اللجان**، كان هناك **المجلس التشريعي** الذي يهيمن عليه المسؤولون البيض، إلي جانب أعضاء غير رسميين معينين لإضفاء مسحة استشارية عليها. ومن المقومات الثابتة في كل تلك اللجان والمجالس، أن **الحكومة كانت تعين كل من يسمون: الممثلين، وعلي أساس عرقي.**

وكان هذان العنصران: **التعيين** من جانب الحكومة، و**التمثيل** علي أساس عرقي، هما الأمران اللذان اعترض عليهما بعضنا بشدة من بداية تعاملنا مع تلك اللجان والمجالس. إلا أن هذا لم يمنعنا من الاستفادة من الهيكل الإداري القائم، حين لم يكن أمامنا بديل آخر.

وكنا في ذلك أشبه بمن يستخدم **عربة يجرها ثور**، ونفسه **تتوق إلي سيارة**. ورأت السلطات الاستعمارية في هذا الترتيب صمام أمان للشعب، وطريقة لتمكين الحكومة من معرفة آراء الشعب وأحاسيسه، دون منح سلطة بالضرورة للشعب. **وحين استقلت من الخدمة الحكومية**، وأنا في أواخر العقد الثاني من عمري، **ألح علي فريق من المتحمسين الأكبر مني عمرا وخبرة، بالمشاركة الأنشطة في الجمعية العربية.**

استشرت مرشدي **محمد سالم جينجا**. صارحته بمآخذي علي الانخراط في منظمة طائفية بلا مراء، بينما أن مبدئي ومبدأه هو تأسيس **الوطنية الزنجبارية**. قال لي محمد سالم جينجا أن الانضمام ليس فكرة سيئة، بل سيكون فرصة تفتح الباب أمامي لبث الأفكار الليبرالية والتقدمية في أوساط تلك الجمعية، والسير بها علي الطريق الصحيح.

وسرعان ما أصبحت، بعد انضمامي لتلك الجمعية، عضوا **منتخبا في لجنتها التنفيذية**. ووجدت في تلك اللجنة إخوة يشاطرونني الرأي، **أذكر منهم:** السيد سيف بن حمود بن فيصل، وأحمد سيف الخروصي، وعامر زاهر، والمعلم هلال محمد هلال، وأحمد محمد ناصر اللمكي. **ولم يكن تحويل منظمة عرقية إلي منظمة ذات منظور وطني جامع.** بالأمر السهل المنال.

ولم يكن بالأمر اليسير أيضا توسيع مدارك مجتمع زراعي تعود علي مدى عقود طويلة علي مطالبة سلطة الحماية بتنازلات علي اساس طائفي، إلي مجتمع ينصب انتباهه علي بناء الوحدة الوطنية، والمطالبة بالتحرير الوطني كواحد من حقوقه. وأتذكر أنه في أول مرة طرحت فيها موضوع **توحيد الصفوف بوضع أيدينا**

في أيدي الطوائف الأخرى، هاجمني عضو محافظ باللجنة قائلا: "**سياستك معروفة جيدا. أنت شيرازي**". ولم أرد بأكثر من ابتسامة ساخرة. وبمرور الوقت، صار ذلك الشخص نفسه من كبار مؤيدي **سياسة الوطنية الزنجبارية**. واعتاد بعدها علي تسميتي بـ "**الحكيم**".

رابعا: الشيخ عبدالله بن سليمان الحارثي[3]

جاءت نقطة التحول المصيرية الحاسمة في مسار الجمعية العربية، حينما تبنى رئيسها المبجل الشيخ **عبد الله بن سليمان الحارثي** مبادئ الوطنية الزنجبارية، بكل مضامينها، جملة وتفصيلا. ومن النادر للغاية أن يتحول رجل مسن راسخ القدمين في موقعه، إلي مناصر لقضية راديكالية جديدة. ولكن الشيخ عبدالله كان من نوعية يندر نظيرها. فهو عالي المقام في الشجاعة الأخلاقية، وفي الأمانة، وفي الإخلاص.

بالصدفة البحتة، كان مسقط رأسه في عمان. فسلالة الحارثي ذات جذور عميقة في زنجبار وشرق إفريقيا تعود لأكثر من ألف عام. ويقال أن **أول شيرازي قدم إلي شرق إفريقيا عام 985** ميلادية، بعد قدوم الحرث إليها بستين عاما. وكان الشيخ عبدالله هو ثاني أهم شخصية مرموقة في زنجبار بعد السلطان. له سمعة طيبة في إصلاح ذات البين والحكم بين المتخاصمين أفرادا كانوا أم طوائف. وهو من النوع الذي يتمسك بما يعتقد أنه الصواب

---

[3] هو الشيخ عبدالله بن سليمان بن حميد بن عبدالله الحارثي من بلدة المضيرب بشرقية عمان ومن أعيان العرب في زنجبار. وكان رئيسا للجمعية العربية بها.

مهما كانت النتائج التي يجرها عليه موقفه. **لا يكل ولا يمل أبدا من السعي إلي الوئام والوحدة.**

أحببته واحترمته حب الإبن واحترامه لأبيه. وكنت أعلم أنه، في المقابل، يحبني حبه لابنه. ولأمانته وورعه البالغ عهد إليه بالإشراف علي ممتلكات مهمة خاصة باليتامى والأرامل ومن يعيشون عادة خارج البلاد، وإدارتها. وما أن ثمن الشيخ عبدالله **حكمة الوحدة الوطنية** كنقيض **للطائفية**، والمناداة **بالتحرر الكامل من الحكم الاستعماري**، كنقيض **للإصلاحات السطحية في سياق الوضع القائم**، حتى بات موضع ولائنا الكامل. ووفي هو بعهوده ولم يتزحزح عنها. وفشلت كل المحاولات التي بذلتها الإدارة الاستعمارية للوقيعة بينه وبين مجموعتنا الراديكالية. وترسخت الثقة المتبادلة بيني وبينه.

وكان الشيخ عبدالله يشغل منصب رئيس جمعية الاتحاد الزراعي، إلي جانب رئاسته للجمعية العربية. وكان الفاضل أحمد لاكا المنحدر من أصل آسيوي هو نائب رئيس منظمة الاتحاد الزراعي. وكنت أمينا مشاركا لها مع سعيد مباي، القمري الأصل، إلي جانب عضويتي في كل من: اللجنة الاستشارية للتربية والتعليم، واللجنة الاستشارية للزراعة، ولجنة المتحف، ومجلس جوز الهند المجفف.

وكنت من جراء شغلي لكل تلك المناصب إلي جانب منصب رئيس تحرير جريدة المرشد الأسبوعية، مشغولا للغاية. وإلي جانب ذلك كله كنت مطالبا بالعناية بمزارع والديّ المبعثرة، ومزارع أم زوجتي، ومع مرور الوقت تولي شقيقاي الأكبر والأصغر معظم مهام العناية بمزارع أهلنا، مما خفف الأعباء الملقاة علي عاتقي.

والأمر الوحيد الذي تأثر بحدة بالسلب من جراء هذه الأشغال هو **الدروس الدينية التي كنت أتلقاها من والدي**، الذي قال لي بنفسه: "**إن ما حصلته حتى الآن فيه الكفاية. ففرغ جهدك لخدمة شعبك**". ووافقه علي هذا الرأي، الحكيم الموقر **السيد عمر بن سميط**. وسمعت أنه قال ذات مرة: "**إن ما يقوم به علي محسن عظيم الثواب عند الله تعالي**". كما بارك الشيخ محمد بن عمر الخطيب، والشيخ سليمان العلوي، والسيد حسن بن سلطان المرعشي، والشيخ عبد الله صالح الفارسي، وكافة معلمي السابقين، الأنشطة السياسية التي أقوم بها. ومن هنا استراح ضميري.

و كان لزاما علي، بحكم رئاستي لتحرير جريدة المرشد، وعضويتي في العديد من اللجان والمجالس الاستشارية، أن أكون علي اتصال بشكل يومي **بمسؤولين حكوميين. وشهدت تلك العلاقة حالات صراع بيننا، ولكنها لم تكن علاقة صراعية علي الدوام**. فلقد نجحت في معظم الأحيان، في أداء مهامي بقدر كبير من التفاهم والتقدير المتبادل. ولم يكن همي هو **أداء مهامي الوظيفية** فحسب، بل **تعلم آليات الإدارة** كذلك. ولاحظت باهتمام بالغ **كيف يدير مختلف رؤساء الدوائر الحكومية اللجان الاستشارية التابعة لهم**، وكيف **يستفيدون من مشاورتهم لنا نحن ممثلي الشعب، في أداء واجباتهم الوظيفية.**

وكنت قد حصلت أساسيات المعرفة في المدرسة. ثم توسعت معارفي واستوت علي سوقها عبر سنوات الدراسة الخمس بكلية الزراعة. وهيأتني سنوات خدمتي الخمس كموظف صغير في الجهاز المدني للخدمة العامة، كما اكتسبت منها أوليات نوع من

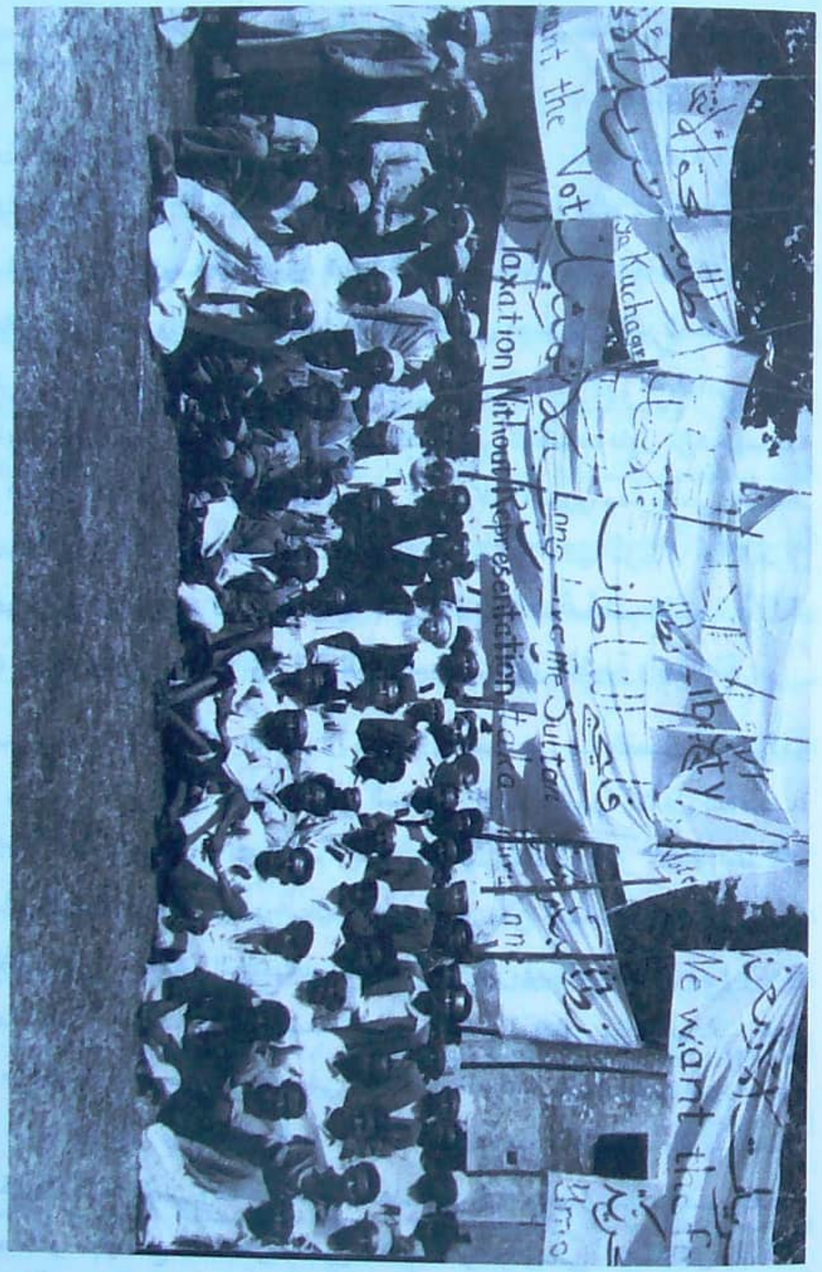
المسؤولية عن نفسي وعن الآخرين. ثم أمضيت خمسة عشر عاما رئيسا لتحرير الجريدة الأكثر راديكالية في شرق إفريقيا آنئذ. وشغلت منصب المستشار بأجهزة ولجان شتى، بما فيها ما **يسمى باسم يفتقر إلي الدقة:** "المجلس التشريعي"، والذي لم يكن في واقع أمره أكثر من **مجلس استشاري، أو مجلس إمعة يجيز كل ما تريده الحكومة.** كان هذا كله قبل أن أتقلد سلطة ومسؤولية المشاركة في تسيير شؤون الحكم.



الشيخ عبدالله بن سليمان بن حميد الحارثي – رئيس الجمعية العربية في زنجبار



السيد حسن سلطان المرعشي



مظاهرة للجمعية العربية في زنجبار تطالب بانتخابات المجلس التشريعي سنة 1954م.
في مقدمتها الشيخ عبدالله بن سليمان الحارثي والسيد سيف بن حمود بن فيصل آل سعيد

الفصل التاسع عشر

حكومة المثقفين[1]

أولا: الحكومة بين معياري الثقافة والنزاهة

---

[1] يستهل المؤلف هذا الفصل ببيان أنه هو ورفاقه قد تأهلوا جيدا لتولي مقاليد السلطة في البلاد بعد رحيل الاستعمار. ومع أنه يرى أن وصف البعض للحكومة المنتخبة اليتيمة بعد الاستقلال، التي لم تعمر غير شهر واحد **بحكومة المثقفين**، تقريظ قد يكون مبالغا فيه، فإنه يؤكد على أن إخفاق حكومة الانقلاب في الحصول على أي **دليل إدانة ضد أي مسؤول بتلك الحكومة، من الوزير إلى الساعي**، رغم وضعها يدها على كل مستندات الحكومة والحزبين الحاكمين، وعدم تجرؤها على إحالة أي مسؤول منها، سواء علت مرتبته او تدنت **إلى القضاء، دليل نزاهة يسجله لها التاريخ**. والواقع أنه رفع مقام حكومته بمعايرتها بمعيار أسمى في تقديري مما يسمى: الثقافة. فحكومة المثقفين قد تصاب بالانتهازية النفعية وتفسد، وقد تكون ثقافتها ذاتها مزجاة. أما العنوان الأهم لأي حكومة فهو: **نزاهتها، وعدم قدرة خصومها على إدانتها أمام محاكم قانونية عادلة، وليس على صفحات الجرائد والأحاديث الإذاعية المرسلة، والمؤلفات غير العلمية والمغالطة.**

ثم يستعرض المؤلف الحقائب الوزارية التي تولاها. ويجد القارئ نفسه في هذا الفصل أمام مؤلف جد مشغول بإثبات خصلتين ضروريتين متلازمين **في المسؤول العام الكبير**: التأهل للمنصب، وعدم الاكتفاء برأيه. ففي كل وزارة خبراء من حقهم أن يستعان بهم. والتغيير مر المذاق وصعب في تحقيقه، ولكن ثماره بالغة الحلاوة لمن يصبر عليه. وعين العدل هي المعاملة التفضيلية لأبناء الريف، والمناطق الأدنى في إمكانياتها التعليمية، والأصعب في ظروفها المعيشية. فبها تتحقق عدالة الفرص بين أبناء الوطن الواحد، ويتم استكشاف عبقريات كانت ستدفن، وتزال أسباب رهيبة للفرقة وللتفاوت بين مناطق وأبناء الوطن الواحد. وفي حين يبين المؤلف عشقه لوزارة التربية، نراه ينقل من الوزارة التي أبدع فيها، إلى وزارة ينظر إليها على أنها متنافرة مع شخصيته، يقبلها فحسب من منطلق كونها مكروها لازما يتعين وضع المسؤولية عنه في رقبة مسؤول ما. ويلمس القارئ بوضوح كيف أن المستعمر لم يسمح للمستعمرات حين دخلت دائرة ما يسمى: **الإستقلال** بامتلاك بنية قانونية ومؤسسية تجعلها قادرة على البقاء دون مساندة خارجية، مما جعلها بين فكي كماشة: مصالح الجهات المستفيدة من الحالة الاستعمارية، الحريصة على استمراريتها، والقوى الاستعمارية القادرة على مواصلة التدخل عبر سدنتها وأذنابها المسبحين بحمدها – المترجم

كانت تلك السنوات التي أمضيتها في التلمذة والتعلم وقطع الخطوات الأولي علي طريق تكوين البديل الجاهز لتحمل المسؤولية ذات أهمية بالغة. وشاطرني في ذات الخبرة إخواني الذين تولوا مناصب وزارية في حكومة الحزب الوطني وحزب الشعب في شتى مراحل تحمل المسؤولية من الحكم الذاتي إلي الاستقلال الكامل.

وحينما كنت أنا وسالم كومبو وزير الداخلية السابق، في سجن دودوما، جيئ **بأربعة تنجانيقيين إلي السجن**، وهم شقيقي أوسكار كامبونا: أوتين وماتياس، وماوامبو رئيس دائرة البروتوكول التنزاني السابق، وجيوجيو مدير المراسم بحزب الاتحاد الوطني الأفريقي التنجانيقي (تانو). والأخير هو الشخص الذي اعتاد تنظيم الحشود الجماهيرية الكبيرة بدارالسلام التي توافدت في أوائل عهده بالألوف لتحية **المعلم نيريري**، كلما عاد من الخارج، أو عقد مؤتمرات شعبية بالعاصمة، في وقت وصلت فيه شعبيته إلي ذروتها.

وتم إلقاء القبض علي هؤلاء الرجال الأربعة، وايداعهم السجن معنا، لأنهم كانوا علي صلة وثيقة **بأوسكار كامبونا** الأمين العام السابق لحزب الاتحاد الوطني الأفريقي التنجانيقي (تانو)، ووزير الشؤون الخارجية التنزاني السابق، الذي لم يفعل أكثر من الهروب إلي الخارج.

وكان بالسجن قصاصة من صحيفة كينية تتضمن صورة فوتوغرافية للوزراء الزنجباريين المطاح بهم في عهد الاستقلال. وعلق **ماوامبو** علي تلك الصورة مبديا إعجابه بهم، ووافقه رفاقه الثلاثة الآخرون،، قائلا: "**حكومة مثقفين**". وما كنت لأصل في

تقريظ حكومتنا إلي مثل هذا الحد. ولكنني أقول بيقين أن حكومتنا كانت حكومة **من رجال أمناء علي خبرة، جرت تهيئتهم لشغل مناصبهم بمهنية.**

ولا أقول ذلك من باب التفاخر. فعلي الرغم من أننا اعتقلنا **وليس بحوزتنا شئ**، وصار للغاصبين اليد الطولي للوصول بلا أي قيد إلي كل الوثائق، وإلي كل أثر يمكن تقديمه كدليل ضدنا، في مكاتبنا الوزارية ومكاتبنا بالحزب، ومن فروع الحزب، وحتى من منازلنا، ومن بنوكنا، ومنا كأشخاص، فإن أحدا من حكومتنا، سواء كان وزيرا، أو سكرتيرا، أو كاتبا، أو موظفا بالحزب، أو حتى ساعيا، **لم يقدم للمحاكمة، حتى ولو بدليل مزيف من صنع الغاصبين، بتهمة السرقة أو الفساد، أو إساءة استعمال السلطة الممنوحة له بحكم منصبه في منع حق عن مستحق، أو محاباة من لا يستحق.**

وجاء **كارومي** بنفسه إلي السجن، ذات يوم بُعيد اعتقالنا، ليقول لنا: "**سوف يتم عقد اجتماع للمدعين العموميين في كل بلدان شرق إفريقيا للنظر في مسألة محاكمتكم أمام محكمة قضائية**". وانتظرنا بقلق. فمع أن كل واحد منا واثق من براءة ساحته، فإنه قد لا يكون واثقا بذات الدرجة من بياض صفحة كل شخص آخر من بين إخوانه. **ثم جاءت النتيجة بخلو ساحتنا جميعا من كل عيب.** وعلمنا لاحقا أن الخبراء القانونيين قرروا **أنه لا أساس لمحاكمتنا.** وأن **النصيحة الخاصة بمثولنا أمام محكمة، لن تفضي إلي تبرئتنا فحسب، بل قد تدين الحكومة الغاصبة.** وظل نظام حكم المتمردين في السلطة علي مدى ما يزيد علي ثلاثة عقود. وكل ما نجح في القيام به **هو تلويث سمعتنا في وسائل**

الإعلام وفي الكتب التي يؤلفها محاسيبهم. ولم تنظر أية قضية معينة أمام محكمة قانونية. والتاريخ سجل ذلك لحكومتنا.

ثانيا: حقيبتي الوزارية الأولي: وزارة التربية والشؤون الإجتماعية

كانت حقيبة التربية الأثيرة إلي نفسي هي أول وزارة أتولاها. وكنت أعلم أن **جمعه علاي** الذي كان مدرسا طيلة حياته الوظيفية، تواق إلي تولي تلك الوزارة. وكان الجميع يعتقد أنني سأتولي وزارة الزراعة، بحكم تخصصي المهني. ولكنني كانت لي وجهة نظر أخرى. قلت لهم أن **المتخصص قد لا يكون قادرا علي إدخال أفكار جريئة وابداعية في وزارته، بعكس الشخص الذكي الذي يتولاها من خارجها.**

ففي كل وزارة عدد كاف من المهنيين المحترفين الأكفاء ليقدموا المشورة للوزير. واقترحت عليهم أن يتولي جمعه علاي **وزارة الزراعة**، وأن أتولي أنا **وزارة التربية.** وحظي اقتراحي بالقبول بالإجماع. ومع ذلك فإننا لم نطبق تلك القاعدة فيما **يتعلق بوزارة الصحة، وتولاها أحمد عيدروس باعلوي جراح الأسنان.** كانت هذه هي التشكيلة الوزارية، حين ألف الحزب الوطني وحزب الشعب حكومته المسؤولة الأولي عام 1961. واختير محمد شامتي **لمنصب الوزير الأول بالتوافق العام**، بحكم سنه وخبرته ونضجه وشخصيته الجديرة بالاحترام، والتي جعلته هو الأنسب من بيننا جميعا لهذا المنصب.

وبالرغم من أنني لم **أتدرب كمعلم**، فإن لدي خبرة في تدريس الزراعة والأحياء والفنون في مدرسة تدريب المعلمين. وكنت

علاوة علي ذلك، عضوا لعدة سنوات باللجنة الاستشارية للتربية، وفي لجنة البعثات، وأحد مؤسسي جمعية أولياء الأمور التي انحصر اهتمامها علي مجال التعليم. كما شغلت منصب الأمين المشارك لتلك الجمعية مع صديقي ورفيقي الأكبر الشيخ حميد مباي.

ودعيت، بالنظر إلي اهتمامي بالتربية والتعليم كشخص عادي، من خارج التربويين، لحضور **مؤتمر كامبريدج الخاص بالتعليم البريطاني الإفريقي** عام 1952، بصحبة **ب. أ. باب** مدير التربية، ونائبه **هان**. وكان منظمو المؤتمر قد طلبوا مشاركة شخص غير حكومي منخرط في أنشطة تعليمية تربوية. وتصادف أن وقع علي الاختيار.

ومثلت زنجبار في عام 1953 في حلقة علمية موضوعها: "**التعريف بالأمم المتحدة في المدارس**" عقدت في مقديشو برعاية الاتحاد العالمي لرابطة الأمم المتحدة. ونجحت في عام 1958، في الحصول علي **أربعين بعثة، وأربعة مدرسين من مصر** لجمعية أولياء الأمور الزنجبارية. ووقع علي الاختيار لتمثيل زنجبار في مجلس أمناء جامعة ماكيريري، تلك الجامعة التي تخرجت فيها، وكنت أول طالب من خريجيها يختار عضوا بذلك المجلس.

والخلاصة، أنني **لم أكن دخيلا حديث عهد تماما بشؤون التعليم**. فلقد استحوذ موضوع تعليم أطفالنا علي اهتمامي، إلي حد أن داعبني الشيخ **عبد الله بن سليمان الحارثي** ذات يوم قائلا: "**ياعلي أعتقد أنك قد تدع زنجبار تغرق برمتها في سبيل التعليم**" أجبته مستغربا: "**هل ثمة خطأ فيما أفعله يا شيخي؟**". رد

بقوله: "**لا. أنا أمزح. إن التعليم يستحق الأولوية التي توليها له.**".

وحضرت مؤتمر أديس أبابا الذي نظمته منظمة اليونسكو لدراسة أوضاع التعليم في إفريقيا، بصفتي وزيرا للتعليم، وبرفقتي **هان** وكيل وزارة التربية، ومساعده **عامر علي**[2]. وحضرت عقب ذلك مؤتمر **التربويين بمجموعة بلدان الكومنويلث** الذي عقد في نيودلهي، برفقة عامر علي. وافتتح جواهرلال نهرو رئيس الوزراء الهندي المؤتمر، وألقى علي مسامعنا خطابا ارتجله، يمثل رسالة علمية حول معنى التعليم، خلب عقول كافة مستمعيه. فلقد كان عبقريا.

وحين زار الكاتب الأمريكي جون جنثر صاحب كتاب "**داخل أسيا**" زنجبار، سألته عما إذا كان قد كتب فيه أن: "**لا يوجد غير عشرة أو خمسة أشخاص علي قيد الحياة يمكنهم أن يكتبوا بالإنجليزية بمستوى كتابة نهرو بها**" أجابني بقوله: "لقد كتبت: "**خمسة**" والآن وبعد أن أنعمت النظر فيما كتبته، أقول: "لا يوجد غير **ثلاثة** علي قيد الحياة يمكنهم الكتابة بالإنجليزية بدرجة جودة كتابة نهرو بها"

---

[2] هو عامر بن علي بن عمير المرهوبي من رواد التعليم في كل من زنجبار وعمان. درس في جامعة بخت الرضا بالخرطوم وجامعة لندن. وصل إلى منصب وكيل وزارة التعليم ما قبل غزو زنجبار. في عمان عمل مديرا عاما للتعليم ثم وكيلا للوزارة عينها. ساهم في إنشاء المدارس الإبتدائية في كافة أرجاء السلطنة ثم المدارس الثانوية فكليات المعلمين والمعلمات والمعاهد التقنية وكان أهم إنجازاته عندما كلفه جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم بإنشاء جامعة السلطان قابوس. وعينه جلالة السلطان نائبا لرئيس جامعة السلطان قابوس عند افتتاحها عام 1986 حيث لعب دورا فاعلا في إرساء القواعد الأكاديمية لتلك الجامعة عند أول انشائها.

ونجحت، خلال الفترة القصيرة التي شغلت فيها منصب وزير التربية والتعليم، في إدخال **إجرائين مهمين. أولهما** هو: **منح أجازة وضع وحضانة المولود للمدرسات**، وهو الإجراء الذي تم تعميمه ليشمل كل العاملات بالحكومة. أما **الإجراء الثاني** فهو: **الترتيب الذي تحصل بموجبه كل المدارس الابتدائية بالبلاد علي حد أدنى من المقاعد في المدارس الثانوية**. وكان الغرض من هذا الإجراء هو **الحد من عدم التوازن في الفرص المتاحة للقطاعات الأكثر تخلفا من أبناء الشعب الزنجباري**. ولم يتحقق هذان الإجراءان دون نضال.

لاحظت حينما توليت مهام منصبي أن **طلاب المدارس الثانوية من طوائف معينة يمثلون أغلبية واضحة لا تتناسب مع نسبتهم العددية بين سكان زنجبار**. وبصرف النظر عن عوامل الثراء والمكانة الاقتصادية، ودرجة تعليم الوالدين، والاستقرار الأسري، فإن من هم من أصل أسيوي كانوا بحكم تخصصهم في التجارة، من **سكان المدن** في الغالب. وبالتالي توفرت لهم ميزة البيئة الثقافية والاجتماعية المناسبة. وعلاوة علي ذلك، فإن **أفضل المدرسين كانوا يعينون بمدينة زنجبار**، حيث كانت الحاجة إليهم في **الأنشطة الخارجية**، مثل الكشافة والرياضة.

وفي المقابل، كانت **أغلبية طلبة المدارس الريفية ومدارس جزيرة بيمبا من الأفارقة والعرب**، وتنقص أولئك الطلبة كثير من المزايا المتوفرة بالمدينة. فالمدينة مزودة بالكهرباء وبمياه الشرب بالمنازل. ولم يكن مطلوبا من أطفال الحضر إحضار المياه من البئر أو من النهر، ولا البحث عن الحطب أو الوقود، ولا مساعدة

الوالدين في الزراعة، ولا في طرد الطيور التي تلتهم بعض الثمار، ولا في الحصاد، ولا في قطف القرنفل.

وترتيبا علي ذلك، لم يحصل طالب واحد من عدد كبير من تلك المدارس، علي مدى حياتها، علي تقدير يؤهله لدخول مدرسة ثانوية. **وهذه حالة مفزعة، لا يمكن السماح ببقائها**. وهنا ابتكرت نظاما تضمن بموجبه أية مدرسة ابتدائية حدا أدنى من المقاعد في المدارس الثانوية المتاحة، لأفضل خريجيها كل عام، قبل اختيار من يدخلون بجدارتهم. اعترض **جراي جريج مدير التربية بالإنابة** علي هذا الإجراء مستندا علي الحجج التالية:

أ- **لن يكون أساس الالتحاق هو الجدارة الخالصة**. ولن يتمكن الطلاب الجدد الداخلون بغير الجدارة من الارتقاء لمستوى الدراسة الأعلي بالمدارس الثانوية.

ب- سيكون ذلك علي حساب التلاميذ الأسيويين الأكثر تفوقا من الوجهة الأكاديمية. وهذا بمثابة تفرقة عنصرية في التعليم، وانتهاك لميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وقال: "إذا كنت تريد التمييز ضد الهنود، فقل ذلك بصراحة".

حاججته بحجج مقابلة. قلت له إنه من الخطأ أن تقرر أن طالبا في الثالثة عشرة أو في الرابعة عشرة من العمر **كان محروما من الفرص، سيكون عاجزا عن إحراز تقدم حينما تتاح له تلك الفرص**. وأنا علي ثقة أنه لو تم إلحاق طلاب المدارس الريفية هؤلاء بمدرسة الملك جورج الثانوية، أو بمدرسة السيد خليفة الثانوية، أو بمدرسة السيد عبد الله في بيمبا، بما في تلك المدارس من **نظام للداخلية**، فإنه ستتوفر أمامهم **فرصة أفضل لمنافسة**

الآخرين. ورفضت، بالمطلق، أن يكون اقتراحي بمثابة **تفرقة عنصرية**. وقلت أنه، على العكس، يمثل في الحقيقة **إزالة لتفرقة طال أمدها ضد بيمبا والمناطق الريفية**.

إلا أن جريج تشبث بموقفه. وقال أنه بوصفه مسؤلا استعماريا، فرئيسه هو **السكرتير المدني** (السكرتير الأول سابقا)، ولن **يتلقى تعليمات من أحد غيره**. أكدت له أن **أوامري يجب أن تطاع في وزارتي بوصفي وزيرا للتربية**. كان هذا في مرحلة ما يسمى " الحكومة المسؤولة". وكنت أنا نفسي أتوقع حدوث مثل هذا التضارب في الولاءات.

كنا في مرحلة انتقالية، على الدرجة الأولي من السلم الموصل إلي الاستقلال. أحلت **الموضوع إلي المقيم البريطاني** سير جورج مورينج، الذي أفاد بأن ولاية **السكرتير المدني تتعلق بشروط خدمة جريج فحسب، وليس بتنفيذه مهامه الوظيفية بوصفه وكيل وزارة**. وتعليمات الوزير في وزارة **لها الصدارة**. وعلي أي حال، فقد اقترح المقيم البريطاني عرض الأمر علي **المدعي العام**. وحكم الأخير **لصالح جريج، ذاهبا إلي أن اقتراحي بمثابة تفرقة عنصرية**.

لم أقتنع أنا ولا جورج مورينج بهذا الحكم. ومن ثم أحال جورج مورينج الأمر إلي وزير الدولة لشؤون الكومنويلث بلندن. وكتبت مذكرة بموقفي، وكذا فعل جريج. وجاء الرد في حينه بقرار قانوني مفاده أن اقتراحي لا يتعارض بأي حال مع ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي الصادر عن الأمم المتحدة الخاص بحقوق الإنسان. وهو بالعكس، اقتراح يزيل أحد أشكال التمييز.

لم يبذل جريج، بمجرد الحصول علي هذا القرار، أية محاولة لعرقلة التنفيذ. وبالتعاون معه وبمساندته، فاتحت مدرسي المدارس الثانوية، فتطوعوا بلا استثناء، وبصرف النظر عن عرقياتهم المختلفة، بإعطاء الطلاب القادمين من المدارس الريفية عامة، ومن مدارس بيمبا عناية خاصة، ودروسا إضافية خاصة، لتمكينهم من الارتقاء لمستوى دراساتهم الثانوية.

وقبل نهاية العام جاءني جريج والفرحة بادية علي أسارير وجهه بالنجاح الذي حققه هذا النظام. واقترح زيادة النسبة المخصصة لطلبة تلك المدارس في العام الدراسي القادم. وكان من دواعي السرور أن تزور المدارس الثانوية بعد ذلك، وترى أن الدارسين بها لم تعد أغلبيتهم من تركيبة عرقية معينة، أو من مناطق جغرافية معينة.

ونجحت أثناء عملي وزيرا للتربية في إقناع **أغاخان** بفتح مدرسته الثانوية لكل الطوائف، وبإنشاء **مدرسة أخرى** في مازيزيني. وبالمثل، وافقت **الحكومة الفرنسية** بناء علي طلبي أثناء زيارة قمت بها لباريس، علي فتح **أبواب القبول** بمدرسة القمر **لكل الطوائف**، ورفعها إلي مستوى المدرسة الثانوية. وهكذا وبفضل **تعاون الجميع تمكنا من إزالة بعض مظاهر ربما تكون من قبيل التفرقة العنصرية في التعليم**.

ثم تعين إجراء تعديل الوزارة مع التطور الدستوري المتعلق بالتحرك صوب **مرحلة الحكم الذاتي**. وهنا أسندت إلى **وزارة الشؤون الداخلية**. وتركت وزارة التربية نادما عليها. فلقد تعلقت بها نفسي. وحينما كنت أستعد لإنهاء مهام عملي بها، جاء جريج إلي مكتبي، وقال لي: "**البراعة ليست خصلة نادرة. ولكن**

الإخلاص والإمانة خصلتان نادرتان. وفيك ياسيدي وجدت تلك الخصلتين. وأنا آسف علي انتهاء عملك بالوزارة. فلقد استمتعت بالعمل معك. " نطق بهذه الكلمات البسيطة، والدموع في عينيه. وقدم بذلك لي أسمى مكافأة متصورة.

كانت كلماته هذه سلوى لي علي تركي تلك الوزارة الحبيبة لزميل أثق به كل الثقة وهو مولد مشنجاما، الذي استطاع بعد تسلمه مهام منصبه بفترة وجيزة أن **يصدر إعلانا رسميا لكل المدارس الثانوية، بأن كل من هو مؤهل للتعليم العالي فتى كان أم فتاة، سيحصل علي منحة دراسية يحقق بها طموحه.** وأدى ذلك الإعلان إلي تأجيج حماس الطلبة.

ثالثا: وزارة الشؤون الداخلية

لا تتناسب مهمة فرض القانون والنظام مع فطرتي التي جبلت عليها. فقوام شخصيتي هو **الإقناع والإرشاد**، وليس الإكراه والعقاب. ومع ذلك، فإن تلك المهمة لابد أن يتعين علي شخص ما أن يتولي أمرها. وأول ما أدركته فور قيامي بمهام منصبي هو **أن حكومتنا ذات بنية قانونية ضعيفة إلي حد بعيد.**

فالحكومة الزنجبارية تحت الحماية البريطانية **قادرة علي حفظ النظام والقانون بدعم من القوات الإمبريالية وما لها من مهابة.** وإن دعت الضرورة، فإن الأسطول البريطاني مستعد وتحت الطلب. وبإمكانها أيضا الاستعانة بقوات من تلك المرابطة في كينيا أو من أي مستعمرة بريطانية قريبة. ولهذه الأسباب، ولأسباب أخرى، **فإن الحكومة الحائزة علي حماية بريطانية تتمتع**

بالهيبة الكافية، وبالقوة المساندة التي توفر لها الاستقرار والإحساس بالراحة.

وفي المقابل، وعلي النقيض من كل أقاليم البر الإفريقي، فإن زنجبار ليس بها قانون لتسجيل الجمعيات، ولا قانون لضبط الباعة المتجولين. ولا توجد بها سجلات بطاقات هوية. وليس لوزير الداخلية سلطة إعلان أن شخصا ما غير مرغوب فيه. ووجدت أيضا أن معظم عناصر قوة الشرطة في كل الرتب، لايزالون من الأجانب رغم الزيادة الكبيرة في عدد الزنجباريين في صفوفها، في السنوات القليلة السابقة.

وكنت قد ساهمت بوصفي عضوا في المجلس التشريعي في تحقيق عملية زيادة نسبة العناصر الزنجبارية في قوات الشرطة. كما ساهمت بدرجة كبيرة في تحسين ظروف الخدمة بقوات الشرطة، بما في ذلك الزي وأحوال المعيشة. وكان للتحسينات التي أدخلت في زنجبار بناء علي طلبنا صدى في بقية أرجاء شرق إفريقيا.

وعلي الرغم من كل هذه الإجراءات، فإنني كنت أعلم **أن قوة الشرطة بتركيبتها الراهنة لا يمكن أن تعول حكومة وطنية زنجبارية عليها تماما في حالة الأزمات.** ففيما عدا قوة الشرطة المحمولة شبه العسكرية، لم يكن لدى زنجبار **قوات مسلحة.** ومن هنا رأيت أن من واجبي تقوية موقف حكومتنا **تشريعيا** في نطاق الدستور الراهن، وبما يتمشى مع الحقوق الإنسانية الثابتة.

وتأسيسا علي ذلك، طلبت من العاملين بالوزارة تزويدي بمقترحات حول التعديلات المطلوبة في القوانين، مع التأكد من وجود تشريع

مماثل في مكان ما من بلدان مجموعة الكومنويلث، عامة، وفي بلدان شرق إفريقيا المجاورة بوجه خاص. وأسفرت توصياتهم **عن القوانين الخاصة بتسجيل الجمعيات، وضبط الباعة المتجولين،** وهي القوانين التي قوبلت بالاحتجاج من جانب المعارضة في المجلس التشريعي، إلي حد الانسحاب من الجلسات عدة مرات.

فلقد كان من مقتضى المصلحة الأنانية للمعارضة التي يمثلها حزب الإفروشيرازي، أن تخفق الحكومة في **فرض القانون والنظام** في البلاد. ولم تكن تلك المعارضة **راغبة في تسوية ما قد يظهر من خلافات بطريقة ديموقراطية.**

وفيما يتعلق بتركيبة **قوات الشرطة** اتخذنا ترتيبات يتم بموجبها **استبدال كافة العناصر الأجنبية بعناصر زنجبارية،** وهي خطوة اتخذتها كافة بلدان شرق إفريقيا الأخرى، وتتخذها كل الدول المستقلة في العالم، عاجلا أو آجلا. ولولا رفض **سليمان سعيد الخروصي** نائب قائد الشرطة، تولي منصب قائد الشرطة، لما كان علي رأس جهاز الشرطة الزنجباري قائدا أجنبيا لحظة حصول بلادنا علي الاستقلال.

وترتب علي تلك الترتيبات إنهاء خدمة بعض رجال الشرطة الأجانب، ولكن أحدا منهم لم يحرم من كافة حقوقه المترتبة علي ذلك. فما كنا لنفعل ما فعله نظام حكم حزب الأفروشيرازي بالمواطنين الزنجباريين الذين طردوهم من كل الدوائر الحكومية، دون أن يعوضهم بفلس واحد.

ويزعم بعض الكتاب الغربيين أن من بين **أخطائنا** أننا سمحنا لعناصر الشرطة من **غير الزنجباريين بالبقاء في زنجبار** بعد أن

سرحناهم من جهاز الشرطة. فعلي أي أساس قانوني أو أخلاقي كنا نطردهم من بلادنا؟ ولو كنا فعلنا ذلك، ألم يكن نفس أولئك الكتاب الغربيون سيكونون أول من يشير إلينا بأصابع الاتهام بارتكاب انتهاك وحشي لحقوق الإنسان؟ ولو فعلنا لكان التمرد مبررا بمثل هذا الانتهاك.

رابعا: الشؤون الخارجية

من حسن حظي أن خدمتي بوزارة الداخلية **كانت قصيرة.** فمع الاستقلال توليت حقيبة **الشؤون الخارجية والتجارة.** وكان هذا المنصب أكثر قبولا بالنسبة لي. فمنذ عام 1937 حين سافرت للخارج للدراسة الجامعية، كانت فترة وجودي بالخارج، تضاهي فترة وجودي في زنجبار. وبات من واجبي ومن مصدر سعادتي في آن واحد، حضور مؤتمرات دولية، والاجتماع بشخصيات دولية، وزيارة بلدان أجنبية من باندونج إلي واشنطن.

وأصبح لي معارف، منهم من هو في عداد الأصدقاء في كل أرجاء العالم. فلقد كنت قد التقيت سلفا **بالملك الحسن** عاهل المغرب، واخته الأميرة **عائشة، وبورقيبة، ونهرو وابنته** أنديرا غاندي، والجنرال **أيوب خان،** و**سوكارنو،** والإمبراطور **هيلاسلاسي، وجمال عبد الناصر، وكوامي نكروما، ونكومو وكاوندا، وأمينو كانو، وتشيف انوهورو، وبن بركة، وديفيد أوين، ولينوكس بويد، وكريش جونز، وجورج بادمور، وفينر بروكوي، وغيرهم.**

وتواصلت بعد فتح مكتب الحزب الوطني الزنجباري بالقاهرة، وبالعمل عن قرب مع إخواني **أماني ثاني وسليمان مالك**

المسؤولين عن ذلك المكتب، مع كل من لهم صلة **بمؤتمر عموم شعوب إفريقيا والتضامن الأفروآسيوي**. وعلي ضوء ذلك كله كان من المناسب إسناد حقيبة وزارة الشؤون الخارجية إلي. ووقع اختياري علي سليمان مالك بما له من خبرة طويلة في الشؤون الدولية، وبما له من علاقات وثيقة مع مختلف حركات التحرير التي تتخذ من القاهرة مقرا لها، لشغل وظيفة مستشار **بوزارة الشؤون الخارجية**. كما عينت **أماني ثاني** مستشارا ببعثتنا لدى منظمة الأمم المتحدة.

الفصل العشرون

انضمام زنجبار إلي منظمة الأمم المتحدة[1]

أول مهمة رأينا ضرورة القيام بها عقب نيلها الاستقلال وولادتها من جديد هو السعي لانضمامها إلي منظمة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى. وتعين علينا **ترتيب تمثيلنا الدبلوماسي في حدود اليسير للغاية المتاح لنا**. وتوجهت بصحبة محمد شامتي رئيس الوزراء، والمعلم **هلال محمد هلال** سفيرنا المعين الجديد، إلي مقر منظمة الأمم المتحدة بنيويورك، حينما تقرر قبول بلادنا عضوا في تلك المنظمة العالمية، ورفع رئيس

---

[1] يرصد المؤلف في هذا الفصل معطيات الجلسة الاحتفالية التي قبلت بها كل من زنجبار وكينيا بالأمم المتحدة. ويستعرض اثنين من كلمات الترحيب، ثم يستعرض كلمة رئيس الوزراء الزنجباري بتلك المناسبة، من منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة.

ومما يلفت النظر أن كلمة **مندوب سيراليون** بالغت في امتداح الروح البريطانية في التعاون مع فكرة تصفية الاستعمار التقليدي، وتضمنت دعوة للدول الاستعمارية الأخرى لمحاكاتها، ودارت من بدايتها إلى نهايتها على محور واحد هو تصفية الاستعمار والتفرقة العنصرية من القارة السمراء.

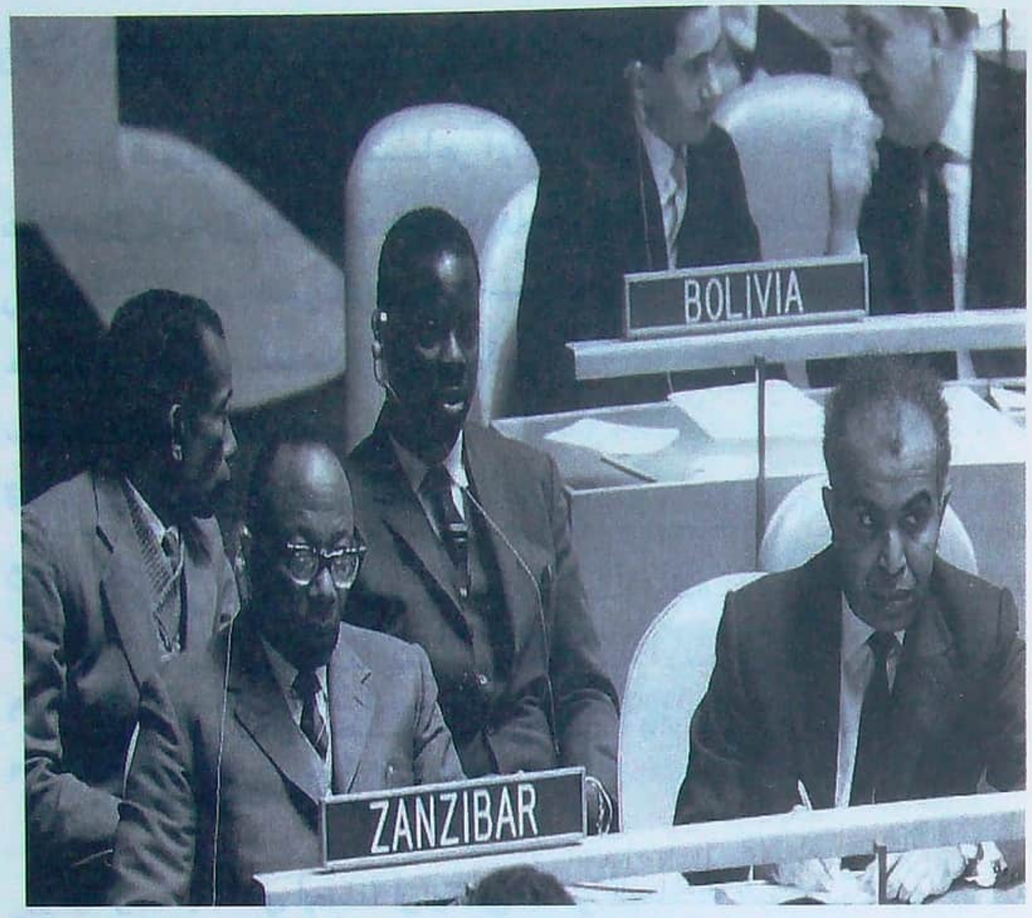
وفي اعتقادي أن حالة زنجبار عند الاستقلال، وموقف بريطانيا من الإنقلاب على الشرعية الدستورية بعد شهر واحد من الإستقلال، يؤشر مرة أخرى، على أن النخب التي تولت الحكم بعد الاستقلال، كانت في معظمها غارقة في مداهنة الاستعمار رغم قيادتها حركة التحرير للتخلص منه، وحريصة على التمسح به، وعلى النسج على منواله. وستتضح تلك المفارقة الهامة بجلاء في الفصول القادمة. أما **الخطاب الياباني** فجاء هو الآخر معبرا عن كيل المديح الكلامي من الدول المتقدمة، للدول الناشئة، دون أي تلميح ولو على استحياء إلى تعهدات ملموسة بالمساندة.

ومع أن خطاب رئيس الوزراء الزنجباري جاء كاشفا عن نوعية من الحكام واسعي الأفق، الراغبين في خدمة شعوبهم، النابذين للطائفية، والمتطلعين للتعاون الإيجابي مع بقية دول العالم، وصيغ بأسلوب حضاري جامع، فإن موقف العالم كله من الإنقلاب الذي حدث سريعا، يدلل على أن تلك اللغة تبور في أعراف عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية – المترجم.

وزرائنا في احتفالية رمزية علم بلادنا الأحمر، وفي القلب منه حبتي القرنفل المترابطتين، اللتين ترمزان لجزيرتينا، في دائرة سلام وتقدم خضراء.

كانت تلك لحظة فخار تاريخية. وتضمنت خطب العديد من المندوبين **كلمات ثناء قيمة بحق تاريخنا وحضارتنا القديمة.** واستضافنا الرئيس جونسون في لقاء خاص. بل إن بعضنا جاء إلي الولايات المتحدة كضيوف علي طائرة الرئيس الأمريكي الخاصة التي استقلها مندوبون أمريكيون لحضور حفل استقلال زنجبار وجارتها كينيا.

وقد يكون من المناسب أن أعيد نشر اثنين من خطابات كثيرة ألقيت في معرض الترحيب **بانضمام زنجبار وكينيا** إلي منظمة الأمم المتحدة. ووقع اختياري هنا علي خطاب **ممثل سيراليون** كنموذج لدولة إفريقية، وخطاب **ممثل اليابان** كنموذج لدولة آسيوية.



انضمام زنجبار للأمم المتحدة

وفد زنجبار في الأمم المتحدة يترأسه محمد شامتي – رئيس الوزراء (الأول يسارا) وبجانبه علي محسن وزير الخارجية وخلفه هلال محمد هلال البرواني مندوب زنجبار بالأمم المتحدة وخميس حسن السكرتير الأول

أولا: خطاب ترحيب المندوب السيراليوني

سيدي الرئيس، قال الشاعر الإنجليزي روديارد كبلنج ذات مرة "**الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيان أبدا**". واليوم يلتقي الشرق والغرب في إفريقيا. فشرق إفريقيا وغرب إفريقيا يلتقيان اليوم في الأمم المتحدة. نلتقي بكل تأكيد، لأننا **جميعا نعيش في عالم واحد.**

وأود باسم وفد بلادي سيراليون وحكومتها وشعبها، أن أعرب عن أحر التهاني القلبية لوفدي وشعبي زنجبار وكينيا في هذه المناسبة التاريخية، يوم انضمامهما إلي منظمة الأمم المتحدة. وترحب سيراليون، بوصفها عضوا بالكومنويلث، بانضمام زنجبار وكينيا إلي أسرة الكومنويلث، والأسرة الدولية.

ويود وفد بلادي أيضا أن يثني علي المملكة المتحدة لما قدمته بوصفها سلطة الإدارة، من عون لشعبي زنجبار وكينيا لتمكينهما من الحصول علي الاستقلال، في مناخ تسوده الصداقة والتعاون والتفاؤل. ومن دواعي السرور أيضا ملاحظة أنه بمجرد إنشاء منظمة الوحدة الإفريقية، ظهر عضوان من المرتقب انضمامهما إليها. . ومن دواعي السعادة كذلك أن معاقل الاستعمار سلمت بسرعة واضطراد، بعد الإعلان التاريخي الخاص بمنح الاستقلال للبلدان والشعوب الخاضعة للإستعمار، بذلك الحق الثابت، بسبب رياح التغيير العالمية التي هبت علي قارتنا الحبيبة.

ويرحب وفد بلادي بانضمام وفدي زنجبار وكينيا إلي صفوف المدافعين عن **الحرية والعدالة والاستقلال** بالأمم المتحدة،

والساعين إلي إنهاء التحيز العنصري من المشهد الإفريقي، ومن العالم كله.

إن رئيس وزراء بريطانيا هو الذي تنبأ من جنوب إفريقيا، ذلك البلد المثقل بالتفرقة العنصرية، بأن **رياح التغيير ستهب علي إفريقيا**. ويسر وفدي التأكيد علي أن المملكة المتحدة قد استشعرت اتجاه تلك الرياح بوجه عام، ومنحت الاستقلال لشعوب مستعمراتها في إفريقيا. ويأمل وفدي أن **تواصل المملكة المتحدة** سعيها الطيب في عملية إزالة الاستعمار من إفريقيا. ونحن نتطلع ليوم نرى فيه **روديسيا الجنوبية، وروديسيا الشمالية، ونياسالاند،**[2] **والأقاليم الأخرى التي لا تزال تحت الحكم البريطاني، وقد نالت استقلالها، وانضمت إلي صفوفنا في هذه المنظمة.**

وفي حين نثني علي **دور المملكة المتحدة في مجال تصفية الاستعمار**، فإننا نعرب عن أسفنا تجاه توجه بعض القوى الاستعمارية الأخرى في إفريقيا، خاصة **البرتغال**، لعدم رغبتها في القبول بحقيقة أن **الاستعمار كان بمثابة مفارقة تاريخية يجب استئصالها علي جناح السرعة**، من علي وجه الأرض.

ويتعشم وفدي أن يحذو أولئك الذين لا يزالون يبذلون قصارى جهدهم باستماتة للإبقاء علي قبضتهم علي مستعمراتهم، حذو المملكة المتحدة، كي يتيسر إزالة الاستعمار من القارة الإفريقية.

---

[2] روديسيا الجنوبية هي زيمبابوي وروديسيا الشمالية هي زامبيا ونياسالاند هي مالاوي اليوم- محمد البرواني

وأرحب مرة أخرى، بوفدي زنجبار وكينيا لدي هذه المنظمة ونعاهدهما علي التعاون، من أجل السلام والأمن لكل الدول صغيرها وكبيرها، ولكل البشرية رجالها ونسائها، دون تمييز بسبب العرق أو اللون أو المعتقد، والمساواة والعدالة وفق القانون.

السيد الرئيس، باسم سيراليون، وإفريقيا، والأمم المتحدة، أقول بحق بلغتي شعبي زنجبار وكينيا بالسواحيلية "أوهورو" **(الحرية لكل الشعوب في كل أرجاء أرض الله الواسعة)** شكرا سيادة الرئيس.

ثانيا: خطاب ترحيب المندوب الياباني

سيدي الرئيس، في هذا اليوم انضم نجمان جديدان هما **زنجبار وكينيا إلي كوكبة الدول الإفريقية الأعضاء في منظمتنا**. وبهما صارت سماؤنا أكثر ضياء. فعضوية منظمتنا تزيد باضطراد، بما يجعلها أكثر تمثيلا لشعوب العالم. وكانت وتيرة السير صوب الحكم الذاتي والاستقلال قد تسارعت في زنجبار في الأعوام القليلة الماضية، لتتوج مؤخرا ببروزها كدولة مستقلة كاملة السيادة. ويثلج صدورنا الآن انضمامها إلي عضوية منظمة الأمم المتحدة.

وبذات الدرجة من الفرحة نحيي انضمام كينيا إلي أسرتنا، ذلك البلد الذي سيكون بعد خضوعه لحكم استعماري لأمد طويل، من الآن فصاعدا، بيننا بمنظمة الأمم المتحدة، وبأسرة مجموعة الكومنويلث، بفضل السياسات المستنيرة التي تنتهجتها المملكة المتحدة تجاه تصفية الاستعمار في السنوات الأخيرة.

ولم تكن العلاقات بين اليابان وكل من زنجبار وكينيا واسعة النطاق في الماضي. ولكن تلكما الدولتين أصبحتا شقيقتين لبلادنا، بصيرورتهما أحدث أعضاء الأمم المتحدة. ومن هذا

المنطلق نرحب بهما في أسرة الأمم المتحدة. وباسم وفدي تايلاند واليابان أود أن أعرب لهذين البلدين، ولممثليهما الجالسين في ساحة الأمم المتحدة لأول مرة عن أطيب الأماني الأخوية، وعن ولاءنا للجهود التي نحن علي ثقة مطلقة بأنهما سيقومان بها وبكل نجاح لتحقيق كافة المبادئ النبيلة التي من أجلها نشأت الأمم المتحدة.

ونعرب أخيرا عن أحر التأييد القلبي للجهود التي ينبغي بذلها لمساعدة هذين البلدين الجديدين علي تحقيق أقصى التفعيل لما لديهما من إمكانيات كامنة للتنمية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. وشكرا سيادة الرئيس.

ثالثا: خطاب محمد شامتي رئيس الوزراء بالأمم المتحدة[3]

السيد الرئيس:

يشرفني ويسعدني أن أكون هنا ممثلا لزنجبار في لحظة موافقة **الجمعية العامة علي طلب انضمامها إلي منظمة الأمم المتحدة.**

ولانضمام زنجبار إلي عضوية هذه المنظمة العظيمة دلالة خاصة في عقلي، لبها أنه ما من دولة مهما كانت صغيرة ومتواضعة في إمكانياتها، لا تستطيع أن تمثل هنا علي قدم المساواة مع الدول الكبرى في عالمنا. وهناك من يرى أن من الخطأ أن تكون الأمور علي هذه الشاكلة. أما أنا فأرى أنه مصدر قوة لهذه المنظمة، وهو الذي سيلهم زنجبار استخدام ما تتيحه لها عضويتها بالمنظمة من

---

[3] ألقى رئيس الوزراء محمد شامتي بصفته رئيس حكومة دولة زنجبار المستقلة ذات السيادة، الخطاب التاريخي التالي في ذلك اليوم التاريخي، 16 ديسمبر 1963، أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك. وكان شامتي شيرازيا من بيمبا، يترأس حكومة الغالبية العظمى من أعضائها أفارقة من بيمبا. فلقد كان ثلاثة فقط من بين وزراء تلك الحكومة العشرة هم الذين يمكن وصفهم بأنهم منحدرون من أصل عربي. ففي ذلك الوقت لم يكن أحد من بيننا، وبالأخص الشيخ محمد شامتي نفسه، يفكر من ذاك المدخل البدائي. وغايتي من الإشارة إلى تركيبة الأصول العرقية الأولى لوزراء حكومتنا هنا هو الرد على الاتجاه السائد الذي تنامى بين البعض ودفعهم إلى اعتناق رؤى شوفينية مشوهة مبنية على الأصول العرقية. ومع نمو الشوفينية، وهنت إلى حد كبير النزعة الوطنية والمبادئ الليبرالية التي كان الحزب الوطني الزنجباري، وحزب الشعب قد أرسياها.

مزايا بروح من المسؤولية والوفاء للمبادئ التي من أجلها أنشئت الأمم المتحدة.

وأود أن أعرب عن غاية امتنان بلادي، لأصدقائنا الكثر في كل أرجاء العالم، الذين قدموا دعما كبيرا لنضالنا من أجل التحرر الوطني، وللجنة تصفية الاستعمار التي ساهمت بقوة في تسريع وتيرة مسيرتنا صوب الاستقلال، ولمنظمة الأمم المتحدة الجليلة التي ندين لها بالكثير.

ولا زلنا نتطلع إلي **العون والمؤازرة منهم جميعا في النهوض بشعبنا كي نغدو قادرين علي المساهمة بنصيبنا المتواضع في تسوية مشكلات العالم.** وأود أن أعرب عن خالص تقدير وفدي للمندوبين الأفاضل بمجلس الأمن والجمعية العامة الذين أثنوا علي نضال بلادنا وإنجازاتها. وأقول شكرا لكل من تبنوا طلب بلادنا الإنضمام لمنظمة لأمم المتحدة، ولكل المندوبين الأكارم الذين وافقوا بالإجماع علي هذا الطلب.

سيادة الرئيس، تتصدر المشكلات السياسية عناوين الصحف في كل أرجاء العالم. ولكن يظل من غير المعروف بوجه عام، علي سبيل المثال، أن **الملاريا** التي كانت حتى سنوات معدودات تحصد أرواح البشر بدرجة تضاهي أي حرب، قد تم استئصالها تقريبا من زنجبار، بفضل الجهد المكثف المشترك الذي قامت به **منظمة الصحة العالمية ومنظمة صندوق رعاية الطفولة التابع للأمم المتحدة (اليونيسيف)، وحكومة زنجبار وشعبها.**

وليس من المعروف أيضا، أننا نحاول بهدوء، ولكن بإصرار وعزيمة التخلص من **لعنة البطالة** بمساعدة منظمة العمل الدولية،

ومنظمة الأغذية والزراعة. وثمة طرق أخرى عديدة تعاونت بها دول ومنظمات دولية في معالجة مشكلاتنا. فالشكر لهم جميعا.

والآن وبعد أن تحررت طاقات شعبنا باستعادة سيادتنا وعزتنا الوطنية، بات بوسعنا أن نتطلع بثقة إلي **معونة أكبر وأشمل من كل أرجاء العالم**. فزنجبار واحدة من **أصغر دول العالم**، التي نالت عضوية الأمم المتحدة، بمعيار عدد السكان والحجم. وهذا بحد ذاته يستتبع تحميلنا **أعباء**، لا تعد ذات شأن يذكر بالنسبة للدول ذات الثروة الكبيرة، ولكنها تعتبر **ثقيلة الوطأة بالنسبة لنا لكون مواردنا ضئيلة**. ونحن علي استعداد لتحمل تلك الأعباء بطيب خاطر. وإن لم تكن بلادنا **ثرية بمعايير العدد وحجم الإقليم والثروة المادية**، فإننا **لا نعتبر أنفسنا فقراء في قيم الحياة التي هي أثمن وأهم إلي حد بعيد**. ولهذا السبب، نشعر بأننا قادرون علي المساهمة، ولو المتواضعة، في شؤون هذه الجمعية العامة.

فنحن أمة ترتكز علي تاريخ وحضارة جذورها ضاربة في القدم والشرف. ونحن شأن معظم شعوب العالم العظيمة، ننحدر من أصول كثيرة مختلفة، يتصدرها الأصل الإفريقي، ولكن تسري معه في عروقنا دماء من جزيرة العرب، ومن حضارات آسيا وفارس، ومن الهند، ومن بلاد أخرى كثيرة. ووجد الأوربيون حين جاءوا في رحلات كشوفهم الجغرافية العظيمة، كل العون وكل متطلبات المعيشة متوفرة علي شواطئ بلادنا. وحظي أناس من أعراق كثيرة الراحة والاستقرار في جزرنا. ومنها نظموا عملية استكشاف وتنمية وسط وشرق إفريقيا.

وبفضل تلك الجذور التي ترسخت عبر القرون، تشكل مزيج من ثقافات كثيرة، جعلنا نفخر بسمعتنا في الاعتدال والصداقة. وفي حين أننا نعيش في عالمنا المعاصر، ولا نعتزم الانكفاء في ماضينا، فإننا ننوي أن نؤسس مستقبلنا علي تقاليده تلك.

وزنجبار دولة ذات **نظام ملكي دستوري**، مؤسس علي التقاليد الليبرالية والديموقراطية، تحكمها حكومة علي رأسها رئيس وزراء ومجلس وزراء منتخب، ومسؤولية وزارية جماعية، أمام جمعية وطنية منتخبة علي أساس الانتخاب العام.

وتؤكد نصوص الدستور الزنجباري بشدة علي حقوق الإنسان الأساسية، **وفي مقدمتها**: الحرية الشخصية، والحماية ضد التمييز. وتتمثل أهدافنا العامة في **السلام والتقدم** في الداخل والخارج. والأمر الأهم هو المساعدة علي خلق مناخ سياسي في العالم الذي يعتبر أعداء الإنسان الحقيقيون فيه هم: **الجوع والجهل والمرض**. ويجب توجيه الاهتمام كله للتصدي لهؤلاء الأعداء، كي لا تبدد الموارد والوقت في أمور الشقاق التي لا طائل من ورائها.

وتقوم السياسة الزنجبارية العامة علي **الحياد الخيّر والإيجابي**، دون تمييز ضد أي بلد علي أساس من العرق أو العقيدة أو الثقافة أو الأيدلوجية، ومؤازرة كل الإجراءات الرامية إلي تحقيق السلام في العالم المبني علي التعاون الدولي.

ولقد اختارت زنجبار **بإرادتها الحرة** بعد حصولها علي الاستقلال، أن تبقى **عضوا بمجموعة الكومنويلث**. ومن المناسب في هذا المقام، ومن دواعي السعادة، **الثناء علي العلاقات الودية الدائمة**

القائمة بين زنجبار والمملكة المتحدة. ونحن نؤمن بالكومنويلث بوصفه مظلة لعدد كبير من الدول المتساوية ذات السيادة، التي تضم الكثير من الشعوب والثقافات، التي اختارت بإرادتها، وبطريقة ديموقراطية، الارتباط معا، وآلت علي نفسها أن تعمل من أجل إثراء السلام والتعاون والرفاهية في كل أرجاء العالم.

ويهم زنجبار أن تعزز عرى العلاقات القائمة بينها وبين كل من إفريقيا والشرق. ولهذا الغرض باركنا هذا العام **إعلان مبادئ باندونج الصادر عام 1955، وميثاق منظمة الوحدة الإفريقية،** المبرم في أديس أبابا هذا العام. ولزنجبار علاقة وثيقة بشكل خاص مع بقية **بلدان شرق إفريقيا، ونعتزم مواصلة تعميق تلك العلاقة علي أساس من الصداقة والتعاون من داخل، أو من خارج شكل ما من الاتحاد الشرق أفريقي.**

ويسعدني في هذا السياق، ان أرحب بوجه خاص بانضمام كينيا التي تربطها بزنجبار صلات كثيرة ووثيقة، إلي الأمم المتحدة، في ذات لحظة انضمام بلادنا إليها. واسمحوا لي في هذه اللحظة العزيزة في تاريخنا، أن أقتبس قول شاكسبير وأقول: **"نحن أسدان ولدنا في يوم واحد"**

سيدي، لقد قطعت عهدا صارما لدي تقديمي طلب عضوية بلادي في الأمم المتحدة، مماثلا لذلك الذي قطعه ممثلو الدول الأعضاء الأخرى علي أنفسهم، بأنني **قبلت بالنيابة عن حكومتي الالتزامات المتضمنة في ميثاق الأمم المتحدة، وتعهدت بتطبيقها.** وهذا الإعلان الصارم، عهد حقيقي للغاية من جانبي، وأدعوا الله أن يعين بلادي علي الوفاء التام به، في المستقبل.

شكرا سيادة الرئيس.

فياحسرة، بل ألف حسرة، أن تلك الآمال والطموحات الكبيرة التي وردت علي لسان رئيس وزراء زنجبار في هذا الخطاب التاريخي، علي ما حظيت به من مساندة واستحسان عالميين، علي النحو الذي تجلي في ردود أفعال ممثلي دول العالم بالأمم المتحدة، **عصفت بها ومزقت أوصالها مكائد ولصوصية قلة من الأفراد الناقمين الحاقدين المعززين بقوات أجنبية.**

فهل تستطيع زنجبار أن تنسى أو أن تسامح **أولئك الذين دمروها ماديا ومعنويا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وروحيا؟** ففي غضون شهر واحد، هوت بلادنا من **ذروة** الدولة المستقلة التامة السيادة، في مجتمع الدول، وعلي سدة الحكم فيها رئيس دولة دستوري ورئيس وزراء علي رأس مجلس وزراء منتخب، إلي **وهدة** مجرد ذيل تابع لبلد إفريقي مجاور، وبات كل شئ فيها أدنى من الصفر.[4]

رابعا: الحزب الوطني الزنجباري – حزب شعب زنجبار وبيمبا، حزبان لكل الشعب

اضطررنا بسبب **المحدودية البالغة لمواردنا** لاعتماد بعثتنا الديبلوماسية في نيورك ممثلة لنا لدى الأمم المتحدة، ولدى الولايات المتحدة، واعتبار سفارتنا **في لندن** ممثلة لنا في بقية بلدان أوروبا، وسفارتنا **في القاهرة** ممثلة لنا في بقية بلدان العالم

---

[4] أعدنا نشر هذه الخطابات الثلاثة بإذن من عبد الله صالح مبامبا مدير مكتب الأمم المتحدة الإعلامي بإسلام أباد – المؤلف.

العربي، مع اعتزام إنشاء سفارة لنا **في أندونيسيا** التي تستورد الجزء الأكبر من إنتاجنا من القرنفل، تكون مركزا لتمثيلنا في بقية أرجاء آسيا.

وفي حين حرصنا علي اختيار **السفير والمستشار** (الرجل الثاني في السفارة) من بين أنصار تحالف الحزب الوطني وحزب الشعب، فإننا عينا **السكرتيرين الأوائل** علي أساس **الكفاءة** بصرف النظر عن **الانتماء السياسي**. وعلي ضوء ذلك، شغل **خميس حسن** منصب السكرتير الأول بسفارتنا بالأمم المتحدة. وتولي **علي خميس** منصب السكرتير الأول بسفارتنا بالقاهرة (وهو الرئيس الحالي لمجلس النواب الزنجباري). واعتزمنا تعيين **علي حسن موينى** بمنصب السكرتير الأول بسفارتنا في أندونيسيا (أصبح لاحقا رئيسا لتنزانيا).

وكنا **نعلم أن هؤلاء الثلاثة من أنصار حزب الأفروشيرازي**. ولكن كل ما كان يعنينا هو أنهم قادرون مهنيا علي شغل ذلك المنصب. ولم يكن من السهل تماما إقناع الجميع في **اللجنة التنفيذية لحزبنا** بعدالة وحكمة اختيار هؤلاء لهذه المناصب، ولكنني نجحت في نهاية المطاف في الحصول علي تأييد **أعضائها بالإجماع**، بتذكيري لهم بأننا **حزب طليعي** من بداية نشأته، يعمل لصالح الأمة كلها، وليس لصالح شريحة من الشعب.

وبدأ تأثير مثل هذه الإجراءات يظهر جليا علي القطاعات الأنضج فكرا في أوساط المعارضة، وخلاصة العناصر الشابة المتعلمة التي تطمح في معالي الأمور في المستقبل. وفوجئت هذه العناصر بما سرها من أن حكومة الحزب الوطني وحزب

الشعب التزمت الإنصاف والعدل، وأنها تقدر كل مواطن وفق الاستحقاق بصرف النظر عن انتمائه السياسي. بل تردد حديث عن اعتزامهم الإنضمام إلي التحالف الحاكم بالجملة.

ومثل هذا تهديدا لقيادة حزب الأفروشيرازي شبه الأمية، ولحزب الأمة حديث العهد بالوجود، ولزعيمهم المشترك نيريري. وأصبح واضحا لهم أنه كلما طال أمد بقاء الحكومة في السلطة كلما زادت فرصة تعزيزها لشعبيتها، وكلما زادت إمكانية تناقص التأييد الذي تحظى به المعارضة. وفي ضوء ذلك، صار من المحتم التسريع بالتمرد قدر الإمكان. ويبين ذلك السبب في شروع كارومي وأنصاره المقربين من السفاحين، بعد المذبحة العامة التي حصدت أرواح الألوف من أنصار الحزب الوطني وحزب الشعب، في قتل العناصر المثقفة بحزب الأفروشيرازي، ممن ساورتهم الشكوك في تفكيرهم في تغييرهم ولاءهم، الواحد تلو الآخر. وممن تمت تصفيتهم من هذا المنطلق: عثمان شريف، وقاسم هانجا، ومدونجي أوسي، وتوالا، وجاها أبوا، وكثيرون غيرهم من أمثالهم.

وتم تخفيض مرتبة الدكتور كنجوابا علي نحو مهين. وبعد أن كان طبيبا مؤهلا وكفئا، بات مسؤولا عن مكتب بريد. واضطر الدكتور أحمد راشد الذي هو طبيب بيطري، والذي عين مديرا للإقتصاد، إلي الفرار لإنقاذ حياته، ومات في بريطانيا.

ومثل **عبود جومبي** بمثابة حالة استثنائية نادرة. فلقد استطاع بالتملق لكارومي وفعل كل ما يأمر به، تحاشي لعنته. وبقي ليرتدي ملابس كارومي الملطخة بالدماء، وليختال في صولجانه وخزيه برهة، جاء بعدها اليوم الذي لم يكن يتوقعه، حيث طرده نيريري من منصبه، وحوله إلي نكرة، بعد أن كان قد أمضى عشر

سنوات في منصبه، لم ينجز خلالها شيئا يذكر بالمرة علي الطريق صوب إزالة الشرور الأساسية لما يسمى: **الثورة**

فرغم تحول **عبود جومبي** المزعوم إلي **الاعتدال والاستقامة**، ظل معمل ماهوندا لتكرير **الكحول** ينتج المسكرات. وظل **السكر** مستشريا. وتواصل السجن دون محاكمة. وظلت **الممتلكات المصادرة** مصادرة. وظل ألوف المواطنين الزنجباريين **بالخارج كلاجئين** في كل أرجاء المعمورة. وتمت تصفية السبعة عشر الذين أعلن كارومي تخفيض الحكم الصادر عليهم بتهمة كونهم "**خونة**" من **الإعدام** إلي **السجن**، سرا حينما وصل عبود جومبي إلي سدة الحكم. وفرغت الديموقراطية والأمانة والإخلاص، من كل معانيها منذ عام 1964، وسار علي ذات النهج طيلة عهده. وظلت **العنصرية** هي لباب أيدلوجيته السياسية. وتشير كل الدلائل إلي **أنه لم ينبذ ذلك المبدأ الرئيس الذي تأسس عليه حزب الأفروشيرازي.**

ثم جاء **علي حسن موينى** إلي سدة الرئاسة، و**سيف شريف حماد** إلي منصب الوزير الأول، ورأيا أن من مقتضيات النفعية السياسية عدم معالجة المشكلات الأساسية. فلم يكن ماهو **حق أخلاقيا** يشغل بالهما كثيرا. **ولم يطرأ، بالتالي، أي تحول جوهري بالنسبة للمسائل الحيوية.** فقط تردد **كلام مرسل عن أن النظام الحاكم سينصر المظلومين، وسيعادي المخطئين.**

ولكن ذلك كان مجرد تشدق بالكلام. ولم يعرف الواقع سوى **تغييرات سطحية** هنا وهناك غايتها خداع السذج. فلم **يمس** قانون الاعتقال دون محاكمة. ولم **يسمح** بأي معارضة سياسية. ولم **يرخص** بصدور أي صحيفة في زنجبار. وبلغ جيل كامل من

الزنجباريين سن الرشد دون أن يحلم بأنه قد أتى علي بلادهم حينا من الدهر، كان لها فيه صحافة حرة، مع وجود ما يزيد علي عشر صحف مملوكة ملكية عامة. وظلت **الممتلكات** المصادرة في أيدي الغاصبين وسفاحيهم، الذين كانوا في غالبيتهم من غير المواطنين الزنجباريين.

ولم يجد القادة أنفسهم حرجا في **حيازة الممتلكات المصادرة واستخدامها.** كل ما استجد هو صدور قطعة من الورق **سميت الدستور** عام 1984. وأرست تلك **الورقة:** الجنسية الزنجبارية من الوجهة الشكلية، ولكن **شبح الجنسية التنزانية** ظل يحوم في سماء زنجبار. وأعلن ذاك المسمى بالدستور أنه لن يتم تأميم أية ممتلكات إلا للمصلحة العامة وبعد دفع تعويض كامل وعادل. وكان ذلك مجرد **حبر علي ورق.** فلقد أعلن أن **القانون لن يسري بأثر رجعي.** وبتعبير آخر، أن الغرض من ذلك القانون لم يكن بأي حال **تصحيح الأخطاء التي وقعت**، بل **حماية اللصوص من أن يحرموا من الممتلكات المسروقة.** فما سبق سرقته لا يعاد إلي ملاكه الحقيقيين.

والسؤال الذي **يفرض نفسه:** ما هو مضمون الجنسية الزنجبارية فيما إذا المواطن قد فقد أرضه وبيته وبلده؟ وهكذا أصبحت زنجبار **أسطورة**، بينما أصبحت **تنزانيا** صنيعة نيريري وكارومي **حقيقة واقعة.** وتم تبديد ممتلكات الأيتام، والمساجد، والمدارس، وكل الأوقاف الدينية، وإعطائها لكل من هب ودب، بينما بات أصحاب الحق في الانتفاع بها يعتمدون علي الصدقة ممن اضطروا إلي الخروج للعيش بالمنفي بعد الاستيلاء علي كل ممتلكاتهم.

ثم جاء **نظام حكم آخر** هو نظام حكم **إدريس عبد الوكيل**، الذي سار علي ذات نهج أسلافه. وعلي ذات المنوال، نسج نظام **حكم سالمين عامر**. ولا تزال **القوانين الأربعون** التي أعلن عن كونها قوانين قهر من بين مجموعة القوانين التنزانية **سارية المفعول**.

والخلاصة، أن كل أنظمة الحكم التي قامت منذ الانقلاب **نبذت التزاماتها الإخلاقية** لصالح **اعتبارات الانتهازية السياسية**. ولن توصلهم تلك الانتهازية إلي أبعد مما أوصلتهم إليه. فمن اليقين أنهم ملعونون في الدنيا والآخرة.

ولنقرأ قول الله سبحانه وتعالي:

" فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ{195} **لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ{196} مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ{197}**[5].

[5] آل عمران:195-197.

الفصل الواحد والعشرون

ذكريات السجون[1]

[1] في هذا الفصل عصارة تجربة تجعله جديرا بأن يقرأه القارئ على مهل، ويعيد قراءته. وهو بحق مفيد لحكوماتنا قدر كونه مفيد لنخبنا، ولعامتنا. **فهو يرسم معالم معاناة نفس في ستة سجون،** على مدى ما يزيد على عشرة أعوام، دون حكم قضائي، أيا كان نوعه، أمام كل أنظمة الحكم في عالمنا أمام ضميرها تجاه حقوق الإنسان المواطن، وتجاه دينها وأعرافها الحضارية. وهو يؤكد أن **كينونة الإنسان مرادفة للحرية**، والسجن دون محاكمة، ودون إدانة بمحاكمة عادلة قتل للنفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق. وينبه إلى ضرورة **فتح ملفات السجون**، واستعادة الوفاق بين مسمى **رجل الأمن** وبين **وظيفته**. فالأمن صار بقوانين الطوارئ تارة، وبالمخالفة بين القوانين والواقع تارة أخرى، **إسما على غير مسمى**. وهو فوق هذا وقبله، يعري **أسطورة المنظمات الحقوقية الإنسانية** الغربية، على كل مكائدها، هي وما يسمى منظمات المجتمع المدني، لا تهتم، ولا تحرك ساكنا، حين يتعلق الأمر بمواطن ما من عالمنا العربي والإسلامي المسكين، حتى وإن كان سبب وجوده بالسجن سياسيا وليس جنائيا بأي حال. ومن عناوين الدروس العظيمة التي ينبه المؤلف البشرية جمعاء إليها في هذا الفصل المهم: مرارة السجن ظلما، وفداحة العدوان المتمثل في الحبس لأجل غير مسمى دون محاكمة عادلة، والتنبيه إلى أن السجن في ظل فوضى قوانين الأحكام العرفية، والاعتقال وفق أهواء الحاكم الفرد وزبانيته، يتحول إلى مدرسة لصناعة المجرمين، وليس إلى مدرسة للإصلاح، ويطول الظالم والمظلوم. فدائرة الظلم تتسع وتطول كل من له صله بالسجين بدرجة أو بأخرى، ويجلي المؤلف قدرة الإنسان بالإيمان على تحويل أقسى الظروف إلى نعمة. فلقد حول السجن بإيمانه وعزيمته إلى مدرسة حياة، غاص فيها في عمق النفس البشرية، ووجد فيها ما يمتدح وما يذم. واستطاع أن يحول السجان إلى صديق حميم، ومارس دورا دعويا رائدا. وخرج منه محاسبا لكثير من المنظمات الحقوقية التى تمارس دورها على صفحات الجرائد وفي المؤتمرات، وليس في الميدان الحقيقي من داخل السجون. فهي تداهن السلطة، وتضيع فرصة الحصول على معلومات أولية مباشرة كاشفة. ويعري المؤلف نوعيتين عجيبتين من البشر: **من مارسوا تعذيبا وحشيا لغيرهم**، وانتهي بهم المطاف ضمن الصراع بين الظالمين على السلطة إلى السجن، وإذا بهم لا يتوبون، بل يتباهون بأوزارهم. **ونوعية من رجال الدين، تعظ الضحية وتنصحها بالصبر، ولا تقول كلمة حق لسلطان جائر**. وهو رغم فشل محاولاته الهرب من السجن يؤكد على درس مهم: رفض القبول بترك أمر تقرير منع الحرية وإعادة منحها للظالم – المترجم.

سنوات في منصبه، لم ينجز خلالها شيئا يذكر بالمرة علي الطريق صوب إزالة الشرور الأساسية لما يسمى: **الثورة**

فرغم تحول **عبود جومبي** المزعوم إلي **الاعتدال والاستقامة**، ظل معمل ماهوندا لتكرير **الكحول** ينتج المسكرات. وظل **السكر** مستشريا. وتواصل السجن دون محاكمة. وظلت **الممتلكات المصادرة** مصادرة. وظل ألوف المواطنين الزنجباريين **بالخارج كلاجئين** في كل أرجاء المعمورة. وتمت تصفية السبعة عشر الذين أعلن كارومي تخفيض الحكم الصادر عليهم بتهمة كونهم "**خونة**" من **الإعدام** إلي **السجن**، سرا حينما وصل عبود جومبي إلي سدة الحكم. وفرغت الديموقراطية والأمانة والإخلاص، من كل معانيها منذ عام 1964، وسار علي ذات النهج طيلة عهده. وظلت **العنصرية** هي لباب أيدلوجيته السياسية. وتشير كل الدلائل إلي أنه **لم ينبذ ذلك المبدأ الرئيس الذي تأسس عليه حزب الأفروشيرازي**.

ثم جاء **علي حسن موينى** إلي سدة الرئاسة، و**سيف شريف حماد** إلي منصب الوزير الأول، ورأيا أن من مقتضيات النفعية السياسية عدم معالجة المشكلات الأساسية. فلم يكن ماهو **حق أخلاقيا** يشغل بالهما كثيرا. **ولم يطرأ، بالتالي، أي تحول جوهري بالنسبة للمسائل الحيوية**. فقط تردد **كلام مرسل عن أن النظام الحاكم سينصر المظلومين، وسيعادي المخطئين**.

ولكن ذلك كان مجرد تشدق بالكلام. ولم يعرف الواقع سوى **تغييرات سطحية** هنا وهناك غايتها خداع السذج. فلم **يمس** قانون الاعتقال دون محاكمة. ولم **يسمح** بأي معارضة سياسية. ولم **يرخص** بصدور أي صحيفة في زنجبار. وبلغ جيل كامل من

الزنجباريين سن الرشد دون أن يحلم بأنه قد أتى علي بلادهم حينا من الدهر، كان لها فيه صحافة حرة، مع وجود ما يزيد علي عشر صحف مملوكة ملكية عامة. وظلت **الممتلكات** المصادرة في أيدي الغاصبين وسفاحيهم، الذين كانوا في غالبيتهم من غير المواطنين الزنجباريين.

ولم يجد القادة أنفسهم حرجا في **حيازة الممتلكات المصادرة واستخدامها**. كل ما استجد هو صدور قطعة من الورق **سميت الدستور** عام 1984. وأرست تلك **الورقة**: الجنسية الزنجبارية من الوجهة الشكلية، ولكن **شبح الجنسية التنزانية** ظل يحوم في سماء زنجبار. وأعلن ذاك المسمى بالدستور أنه لن يتم تأميم أية ممتلكات إلا للمصلحة العامة وبعد دفع تعويض كامل وعادل. وكان ذلك مجرد **حبر علي ورق**. فلقد أعلن أن **القانون لن يسري بأثر رجعي**. وبتعبير آخر، أن الغرض من ذلك القانون لم يكن بأي حال **تصحيح الأخطاء التي وقعت**، بل **حماية اللصوص من أن يحرموا من الممتلكات المسروقة**. فما سبق سرقته لا يعاد إلي ملاكه الحقيقيين.

والسؤال الذي **يفرض نفسه**: ما هو مضمون الجنسية الزنجبارية فيما إذا المواطن قد فقد أرضه وبيته وبلده؟ وهكذا أصبحت زنجبار **أسطورة**، بينما أصبحت **تنزانيا** صنيعة نيريري وكارومي **حقيقة واقعة**. وتم تبديد ممتلكات الأيتام، والمساجد، والمدارس، وكل الأوقاف الدينية، وإعطائها لكل من هب ودب، بينما بات أصحاب الحق في الانتفاع بها يعتمدون علي الصدقة ممن اضطروا إلي الخروج للعيش بالمنفي بعد الاستيلاء علي كل ممتلكاتهم.

ثم جاء **نظام حكم آخر** هو نظام حكم **إدريس عبد الوكيل**، الذي سار علي ذات نهج أسلافه. وعلي ذات المنوال، نسج نظام **حكم سالمين عامر**. ولا تزال **القوانين الأربعون** التي أعلن عن كونها قوانين قهر من بين مجموعة القوانين التنزانية **سارية المفعول**.

والخلاصة، أن كل أنظمة الحكم التي قامت منذ الانقلاب **نبذت التزاماتها الإخلاقية لصالح اعتبارات الانتهازية السياسية**. ولن توصلهم تلك الانتهازية إلي أبعد مما أوصلتهم إليه. فمن اليقين أنهم ملعونون في الدنيا والآخرة.

ولنقرأ قول الله سبحانه وتعالي:

" فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ{195} **لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ{196} مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ{197}**[5].

[5] آل عمران:195-197.

الفصل الواحد والعشرون

ذكريات السجون[1]

[1] في هذا الفصل عصارة تجربة تجعله جديرا بأن يقرأه القارئ على مهل، ويعيد قراءته. وهو بحق مفيد لحكوماتنا قدر كونه مفيد لنخبنا، ولعامتنا. **فهو يرسم معالم معاناة نفس في ستة سجون**، على مدى ما يزيد على عشرة أعوام، دون حكم قضائي، أيا كان نوعه، أمام كل أنظمة الحكم في عالمنا أمام ضميرها تجاه حقوق الإنسان المواطن، وتجاه دينها وأعرافها الحضارية. وهو يؤكد أن **كينونة الإنسان مرادفة للحرية**، والسجن دون محاكمة، ودون إدانة بمحاكمة عادلة قتل للنفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق. وينبه إلى ضرورة **فتح ملفات السجون**، واستعادة الوفاق بين مسمى **رجل الأمن** وبين **وظيفته**. فالأمن صار بقوانين الطوارئ تارة، وبالمخالفة بين القوانين والواقع تارة أخرى، **إسما على غير مسمى**. وهو فوق هذا وقبله، يعري **أسطورة المنظمات الحقوقية الإنسانية** الغربية، على كل مكائدها، هي وما يسمى منظمات المجتمع المدني، لا تهتم، ولا تحرك ساكنا، حين يتعلق الأمر بمواطن ما من عالمنا العربي والإسلامي المسكين، حتى وإن كان سبب وجوده بالسجن سياسيا وليس جنائيا بأي حال. ومن عناوين الدروس العظيمة التي ينبه المؤلف البشرية جمعاء إليها في هذا الفصل المهم: مرارة السجن ظلما، وفداحة العدوان المتمثل في الحبس لأجل غير مسمى دون محاكمة عادلة، والتنبيه إلى أن السجن في ظل فوضى قوانين الأحكام العرفية، والاعتقال وفق أهواء الحاكم الفرد وزبانيته، يتحول إلى مدرسة لصناعة المجرمين، وليس إلى مدرسة للإصلاح، ويطول الظالم والمظلوم. فدائرة الظلم تتسع وتطول كل من له صله بالسجين بدرجة أو بأخرى، ويجلي المؤلف قدرة الإنسان بالإيمان على تحويل أقسى الظروف إلى نعمة. فلقد حول السجن بإيمانه وعزيمته إلى مدرسة حياة، غاص فيها في عمق النفس البشرية، ووجد فيها ما يمتدح وما يذم. واستطاع أن يحول السجان إلى صديق حميم، ومارس دورا دعويا رائدا. وخرج منه محاسبا لكثير من المنظمات الحقوقية التى تمارس دورها على صفحات الجرائد وفي المؤتمرات، وليس في الميدان الحقيقي من داخل السجون. فهي تداهن السلطة، وتضيع فرصة الحصول على معلومات أولية مباشرة كاشفة. ويعري المؤلف نوعيتين عجيبتين من البشر: **من مارسوا تعذيبا وحشيا لغيرهم**، وانتهي بهم المطاف ضمن الصراع بين الظالمين على السلطة إلى السجن، وإذا بهم لا يتوبون، بل يتباهون بأوزارهم. **ونوعية من رجال الدين، تعظ الضحية وتنصحها بالصبر، ولا تقول كلمة حق لسلطان جائر**. وهو رغم فشل محاولاته الهرب من السجن يؤكد على درس مهم: رفض القبول بترك أمر تقرير منع الحرية وإعادة منحها للظالم – المترجم.

لنعد مرة أخرى بالذاكرة إلي **خبرتي كسجين لنيريري**. وأستسمح القارئ عذرا علي عدم التزامي بالفراغ من كل موضوع لدى طرحه في موضع واحد في حكايتي هذه.

بعد إيداع **عبود جومبي**، كل الوزراء (باستثناء الشيخ **راشد حمادي الذي كان في بيمبا**) في السجن، ومعهم قادة الحزب الآخرين. تم سجني في غرفة محجوزة بصفة جناح مستشفي للمسجونين المرضى. ولفترة كنا نزود بأسرة وفرش، وزيارتنا مسموح بها، طعامنا يأتينا من بيوتنا.

وذات يوم زارنا **سعيد واشوتو**، أحد السفاحين الذين تشكل منهم ما يسمى: **المجلس الثوري**، وأصدر أمره بسحب الأسرة. وبات لزاما علينا أن ننام علي بطانية من الليف الشائك شأن بقية المسجونين والمحتجزين. ولم ننزعج من هذا التحول لأنه كان بمثابة مشاركة للمشقة التي تعود عليها إخواننا سلفا. ولسبب غير معروف، استبعد بعضنا من جناح المستشفي الجيد التهوية، وأودع في **زنزانات حبس انفرادي مظلمة، مليئة بالذباب بالنهار، وبالبعوض اللاذع بالليل، مع وجود دائم لدلو نتن يستدعي الذباب، ولكنه لا يفعل شيئا لطرد البعوض.**

ثم جاء كارومي لزيارتنا. وأعادونا مع أصدقائنا في جناح المستشفي، حيث مكثنا هناك فترة. ثم نقلنا **أنا وجمعه علاي** إلي زنزانتين محتجزتين **للمساجين المدانين قبل تنفيذ حكم الإعدام**، دون أن يفصح أحد لنا عن السبب. وكان علينا أن نمر **بغرفة الإعدام** قبل أن نصل إلي زنزانتينا. وأمضينا **ثلاثة أيام مقلقة** في تلك الزنزانة قبل أن يؤكد لنا مدير السجن كيلونزي، أنه لا علاقة لذلك بأي شئ صدر عنا. كل ما في الأمر أنه كانت هناك حاجة

إلي جناح المستشفي **لمجموعة معتقلين قادمين من بيمبا**. كان ذلك بعد مرور شهور علي يوم 13 يناير الذي دخلنا فيه السجن. وكان من بين المعتقلين الجدد من بيمبا ذلك **الكذاب الأشر** الذي لفق حكاية أنه **كان موجودا في راحاليو، (مقر حزب الأفروشيرازي)**، حينما عرض علي كارومي بزعمه **منصبا وزاريا كمكافأة علي التواطؤ معه في الإطاحة بحكومتنا.**

وبعد ستة أشهر في السجن المركزي في كيليماني، تم فجأة **نقل كل الوزراء، وقادة تومباتو:** الشيخ حاجي محمد، والشيخ نياكانجا، **وثلاثة ضباط شرطة سابقين:** سليمان سعيد الخروصي نائب قائد الشرطة، ومزي مبابا مساعد مدير الشرطة، ومحمد الخروصي مفتش الشرطة، جوا إلي **دارالسلام لاعتقالهم لأجل غير مسمى بالبر الإفريقي**. وهذا دليل، فيما لو كان هناك حاجة إلي دليل علي أننا كنا **سجناء نيريري**. ولم يكن كارومي، وبابو، وجومبي، وبقية أولئك الزبانية غير مجرد **أدوات** يتلاعب بها **سيدهم الأكبر.**

وبينما كنا نمر في السيارات التي وضعنا بها، في طريقنا إلي المعتقل، عبرنا بالأكواخ وأحياء الفقراء بعاصمة تنجانيقا، وشاهدنا الظروف المرعبة التي كان يعيش الأفارقة في ذلك البلد في ظلها، وتبادلنا نظرات معبرة، لسان حالها يقول: "**هل يجرؤ هذا الرجل أن يقول أنه غزا زنجبار ليحرر الأفارقة من الفقر والبؤس؟**

كان قد مر علي استقلال تنجانيقا **عامان**، حين كانت زنجبار قد أمضت **شهرا واحدا** في أحضان الحرية. ومع ذلك كانت الحالة المعيشية فيها حتى في أسوأ أحياء الفقراء أفضل مما شاهدناه في تنجانيقا بمراحل شاسعة. فلا شئ في أبعد مكان في زنجبار يشبه

الظروف المعيشية للأفارقة في عاصمة تنجانيقا. ولم يفكر نيريري في خير أبدا. وبوسع شاهد العيان أن يشهد أنه بعد مرور ثلاثة عقود علي الاستقلال، لم يتغير أي شئ نحو الأفضل.

نقلنا من المطار مباشرة إلي كوندوشي، الواقعة علي بعد عدة كيلومترات خارج العاصمة، والتي كانت مركزا لتدريب حراس السجن. وأنزلونا في جزء من هذا المركز أثناء عطلات المتدربين، إلي أن يتم ترتيب أماكن أخرى لإقامتنا. وباستثناء السور المحاط بسلك شائك، فإن هذا السجن كان شبيها بدرجة أو بأخرى بالمعسكر. وكان بإمكاننا رؤية البحر عن بعد. وبمجرد وصولنا طلب منا التجرد **من كل ملابسنا للكشف الطبي**، وهو شئ لم يحدث لنا نظيره في زنجبار. ورابط حراس مسلحون أمام زنزاناتنا وخلفها.

وبعد يومين أتى **أوباديو روجامبوا** مدير السجن، واشتاط غضبا لما رأي أولئك الحراس. أمرهم بالإنصراف وهو يقول لهم: "**أليس لديكم ذرة ذكاء؟ هل هؤلاء من النوع الذي يستدعي مثل هذه المعاملة؟** ومن تلك اللحظة فصاعدا حصلنا علي حرية أكبر في الحركة داخل مبنى المعسكر. وينتمي روجامبوا إلي قبيلة الهايا من بوكوبا. وهو دمث الخلق. تعاطف مع محنتنا. ومن ثم كان يقوم بمهام منصبه بتردد واضح، ويبذل جهده ليجعل ما يسببه لنا من تعب عند أدنى حد ممكن حسب الظروف. بل إنني أحسست أن هذا هو توجه كل العاملين بالسجن التنجانيقيين، حتى تحت رئاسة رمضان الذي خلف روجامبوا كمدير للسجن.

مكثنا زهاء **شهر** في كوندوشي قبل أن نرحل إلي سجن **كيكو** في العاصمة. وهو **سجن حديث للغاية والأمن فيه مشدد إلي أبعد**

حد. ذكرني هذا السجن **بسجن النازي**، كما تعودنا علي رؤيته في الأفلام. فهو مبني علي نحو يستحيل معه علي نزلائه أن يروا أي شئ خارجه.

وكم كانت صدمتنا لدى **تسجيلنا** حين سألونا عن **القبيلة والعرق** الذي ينتمي إليه كل منا. فلقد كان القبيلة والعرق من مخلفات الماضي فيما استقر عليه حالنا في زنجبار قبل تلك المحنة. ونجحنا حتى قبل الاستقلال في الضغط علي السلطات الاستعمارية من أجل إزالة أي **إشارة للقبيلة أو العرق في الوثائق الرسمية**. وها نحن هنا في تنجانيقا، تطرح علينا تلك الأسئلة البالية، بعد الاستقلال **بثلاث سنوات**.

وذات يوم أتى مدير السجن روجامبوا لزيارتنا، وقال بدعابة لاذعة: "لو كان الأمر بيدي **لشنقت كل الساسة**. أنتم أيها الناس لا **أخلاق عندكم ولا مبادئ**. حين أنظر إليكم أرى أن: **الرئيس نيريري يكرهكم، لأن أمينكم العام بابو اعتاد أن يهاجمه في صحيفته، ويصفه بأنه صنيعة الاستعمار**. فما هو الوضع الآن؟ **أطيح بكم**، وأنتم الآن بالسجن هنا، بينما **بابو المذنب الحقيقي**، وسبب كراهيته لكم، **وزيرا له. أي نوع من البشر أنتم؟**". قال كل هذا بعبارات عامة. ولكن المعنى الدقيق لها لم يفوتنا.

حقيقة أنه لو كان كل الساسة مكيافيليون يتلونون كالحرباء، مثل ذلك الشخص الذي ألمح إليه، يغيرون لونهم حسب مقتضيات الانتهازية، فإن شنقهم يكون عقوبة أقل بكثير مما يستحقون.

وبعد أن قضينا عدة شهور في سجن كيكو، تم توزيعنا علي عدة سجون أخرى. أرسلوا سالم كومبو وزير الداخلية السابق، وأباذر

جمعه وزير الزراعة السابق، وأنا، إلي سجن دودوما بوسط تنجانيقا، وهو سجن استعماري قديم يعتبر في مقدمة السجون من حيث شدة إجراءات الأمن. وكان هذا السجن آنئذ هو الوحيد في تنجانيقا الذي تنفذ فيه أحكام الإعدام. وبالتالي فإن كل المحكوم عليهم بالإعدام كانوا يقضون بقية عمرهم في هذا السجن. وكان مدير هذا السجن: راشد توفيق، فهو مثقف دمث الخلق، من مواليد كيجوما الكائنة علي بحيرة تنجانيقا. وكانت لهجته شأن معظم أبناء المدن التنجانيقية مماثلة للهجتنا. ولم يكن يستسيغ إذلالنا، بل يقوم فحسب بما يحتمه عليه عمله. اعتذر لنا عن الأوضاع في السجن. قلت له: "**ليس ثمة ما تعتذر عنه. لما كنت وزيرا كنت أختار حين أسافر إلي الخارج غرفة بدورة مياه ملحقة بها في أي فندق أنزل به. والوضع هنا أفضل. فالمرحاض داخل الغرفة ذاتها**".

وكان هذا الرجل يتمتع بحس فكاهي. ضحك حينما سمع مني هذا الرد. ومن تلك اللحظة فصاعدا كانت المعاملة بيننا طيبة. وكان يأتي حتى في أيام الأحاد – يوم عطلته الأسبوعية – ويقضي معنا ثلاث أو أربع ساعات نتجاذب أطراف الحديث، ونتحاور، ونتبادل المزاح والنكات.

إلا أن هذا كله لم يشفع لراشد توفيق عند سالم كومبو الذي كان حاضر النكتة ولا يبارى فيها. وكان سر عدم ارتياحه إليه هو ما بدر منه مما يدل علي جهله بحقيقة حكومة زنجبار التي جرت الإطاحة بها. قال لي سالم كومبو: "**أنا لا أطيق الحمقى**" وكان ردي عليه: "**إنها ليست غلطته. كل ما في الأمر أنه لا يعرف. ومن واجبنا أن نجعله يعرف**".

في البداية كان راشد توفيق **يعتقد، أو أعطانا انطباعا بأنه يعتقد،** أن ثمة **مبررات للإطاحة بحكومتنا**، من جراء تصديقه للدعاية التي كانت تنهال علي شعب زنجبار وتنجانيقا، الزاعمة أن الحكومة المطاح بها كانت **حكومة أقلية "عربية" غريبة**، تتسلط علي أغلبية إفريقية.

وتبين لهذا الرجل بكل جلاء زيف تلك الاتهامات الموجهة ضدنا، بعد أن التقى أحمد عيدروس **باعلوي** في سجن متوارا، وجمعة علاي[2] في سجن تانجا. وقام بنفسه بزيارة إلي زنجبار. وصار يعلم **أن حكومتنا كانت حكومة وطنية الغالبية العظمى من أفرادها أفارقة، وأن الزنجباريين من كل الأصول العرقية، يجري في عروقهم الدم الإفريقي بدرجة لاتقل عن من يسمون: الأفارقة، وأن الأمر كله هو مجرد تلاعب بألفاظ مموهة لتسويغ قضية غير عادلة.**

والحق أنني، لقيت معاملة طيبة من السجانين ومن نزلاء السجن، علي مدى عشر سنوات أمضيتها في سجون مختلفة بتنجانيقا، وبالأحرى في سجون: كوندونشي، وكيكو، ودودوما، وموانزا، وبوكوبا. واكتسبت احترامهم وتقديرهم. وانتقل راشد توفيق إلي سجون أخرى لبعض الوقت، وحل محله المدير **مصطفي داتشي** وهو من قبائل البوندي من مقاطعة تانجا. عاملنا معاملة عادية من **حيث الظاهر**، ولكنه كان علي العكس من توفيق، **يخفي في نفسه شئ.**

---

[2] جمعه علاي الأبروي وهو زنجباري ترجع أصوله إلى قرية ابراء من الشرقية بعمان – يعقوب بن سعيد البرواني

وكان هناك زميل من بلدي يعمل بإدارة الجيولوجيا في دودوما، هو: **أحمد علاي**، الشقيق الأصغر لجمعه علاي، اعتاد زيارتنا، وكان يحضر لي بعض التمور قبل شهر رمضان للإفطار عليها، فضلا عن وجبة الإفطار. وكلف مصطفي داتشي شابا من حراس السجن يدعى *ويلبرود* بأن يكون **عينا علينا يراقب العلاقة بيني وبين أحمد علاي**. وبات ذلك الحارس مألوفا وصديقا لكل منا، إلي حد أن أحمد علاي وثق فيه بدرجة كبيرة.

أولا: ألفونسو أدونجو: الهارب الكبير

كان يوجد شخص يدعى: **ألفونسو أدونجو**، في القسم الخاضع لأقصى درجات الأمن، الذي كنا نزلاء فيه في سجن دودوما. وهذا الشخص من قبائل اللوو من كينيا، وهو أهم هارب من السجن في شرق إفريقيا. تمكن من الفرار من سجن لوزيرا الأوغندي الردئ السمعة، ثم من سجن يسوع في كينيا وكان علي وشك الهروب من السجن المركزي بزنجبار، حينما تم تسليمه وأعيد إلي دودوما الذي سبق له أيضا أن هرب منه. وأنشئ قسم خاص له ولأمثاله في سجن دودوما، جدران زنازينه وسقفها من الخرسانة المسلحة، بحيث تبدو وكأنها ثلاجة. أما الجدار المحيط بالمبنى فبارتفاع ثلاثة أمتار وسمك متر واحد. ويرابط عليه حارسان علي مدار الساعة: واحد علي الأرض، والثاني في برج المراقبة الذي لا مدخل له من الداخل.

وكان مدخل برج المراقبة من خارج جدران السجن. ولكل زنزانة قفلين ثقيلين مصنوعين من النحاس. ولم يسمح لألفونسو بالعمل بالرغم من كونه سجينا مدانا يقضي فترة سجن محكوم عليه بها. ومرد ذلك هو الخشية من أنه إذا اتصل بأخرين، فقد يدبر وسيلة

للهرب. فهو إنسان لا تعرف براعته الحدود. وكانوا يحرصون علي التأكد من أن اللحوم التي تدخل زنزانته خالية تماما من العظم، مخافة أن **يصنع من العظم مفتاحا، أو أداة ما تساعده علي الهرب.**

جمعت كل هذه المعلومات عن ألفونسو أدونجو يوم وصولنا إلي السجن، وإيداعنا فيه بشكل مؤقت مع مجموعة من المعتقلين التنجانيقيين. وفوجئنا بوجود معتقلين غيرنا في تنجانيقا، بعضهم من **أعضاء نقابة العمال** التي ساندت التمرد الذي قام به الجيش بعد الإطاحة بحكومتنا بأسبوع واحد، والبعض الآخر من **المتعاطفين مع الزعيم** عبد الله سعيد فونديكيرا، ممن نظموا صلاة شكر بمناسبة تبرئته من التهم الملفقة التي أثيرت ضده. وفي ذات اليوم نقلنا إلي ماهو معروف **بقسم ألفونسو.**

كان ألفونسو شخصية مرموقة بين المسجونين. بنية جسده قوية، وطوله متوسط. وأتاحوا له في زنزانته بطانيتين فقط، إحداهما ينام عليها، والثانية يلتحفها. وكان يؤمر في نهاية الدوام كل يوم بأن يتجرد من ملابسه تماما، ويجلس القرفصاء ويحدق أحد حراس السجن في إسته ليتأكد أنه لم يخبئ شيئا. ويتم تفتيش زنزانته بدقة قبل السماح له بدخولها. ويظل قميصه وسرواله بالخارج. ولا يسمح له بالنوم إلا بملابسه الداخلية.

ولم يكن له من الوسامة نصيب، وإن كان جسده جسد رجل بحق. قوي ورشيق. عيناه تلمعان كما الأبنوس، مع بروز ستة من أسنان فكه الأسفل علي شاكلة المنتمين إلي قبيلة اللوو. وكان حسن المعاشرة، وجذابا وودودا. ولما رأي أنني مسن (بحكم أن المسن في العرف الإفريقي هو من جاوز **سن الأربعين**، وكنت حينها في

السادسة والأربعين) عرض مساعدتي في غسل ملاءة سريري. وكما هي عادتي في التعامل، لم يمر وقت طويل، إلا وقد ترسخت الصداقة بيننا.

وكنت قد شرعت في **التفكير في الهروب من السجن** من أول يوم دخلته في زنجبار. فلم أكن أعرف الأمد الذي سأقضيه به. ولكنني كنت عازما علي **الخروج منه إلي رحاب الحرية في أقرب فرصة ممكنة**. دعوت الله أن يقيض لي معجزة أخرج بها منه. ولكن دعوتي لم تقبل في حينها. وعصرت عقلي بحثا عن حل عملي، وخرجت صفر اليدين.

وكان في مكتبة سجن دودوما كتابان موضوعهما هو: **الهروب من السجن**. وجدت أنهما مشجعان. لكن مضمونهما لا يتناسب مع حالتي. وهنا بدا لي كما لو **أن ألفونسو منحة إلهية، حباني الله بها لتكون سببا في إنقاذي**. فها نحن أمام رجل هرب أكثر من مرة من السجن، ناهيك عن هروبه مرات تستعصي علي الحصر من الحجز بأقسام الشرطة، والتي لم يهتم بإحصائها مكتفيا بإحصاء مرات الهروب من حراس السجن. ومع أن هؤلاء **خبراء في إبقاء الآدميين في قبضتهم فإنه أصر علي تحديهم**. وذات يوم وبينما كنت أجالسه علي انفراد فاتحته في الموضوع بطريق غير مباشر.

قلت له: "ألفونسو. ماذا تفعل **بألفين أو ثلاثة آلاف شلن توضع تحت طلبك؟** رد قائلا دون أدنى تفكير: "**أهرب**". وكان هذا هو الموضوع الأهم الذي يشغل تفكيره، وتفكيري أنا أيضا.

ثم بين لي أن السبب في إعادة القبض عليه، كلما هرب، أنه لم يكن معه أموال يمكنه بها الخروج إلي خارج البلاد. ولم يجد مناصا من أن **يسرق ليأكل**، ناهيك عن أن يدبر مصروفات السفر. وأوقعه هذا في المحظور مرارا وتكرارا. ولو توفر معه المال الكافي فإن بوسعه أن يضع **خطة لهروب مضمون من شرق إفريقيا**. قلت له أن بإمكاننا أن نحصل علي المبالغ اللازمة من أقاربي في ممباسا.

وهنا بدأنا، أو بالأحرى بدأ هو، **التخطيط**. كان له صديق من قبيلة اللوو سبق أن هرب معه ذات مرة من السجن، وبات حرا يعمل في دارالسلام. وحدد ألفونسو أدونجو كل التفاصيل والتكلفة. وكان من اللازم وفق تلك الخطة، حيازة مسدس لإخضاع الحارس الموجود في برج المراقبة. وأود الإشارة إلي أنه لا يكون هناك حارس علي الأرض بالليل. وكنا بحاجة إلي حبل نستخدمه في التسلق إلي قمة البرج، ومنه نخرج إلي الحرية.

وكان يعرف ارتفاع البرج بالضبط لأن الحراس الذين يراقبون منه، يحتاجون عادة إلي مياه من الصنبور الموجود في مجمع السجن. واعتاد ألفونسو علي تزويدهم بحاجتهم من المياه في إناء مربوط بعبوة مراهم تستخدم في حماية رجليه من السلاسل المقيد بها. وقسنا أيضا طول سلك الكهرباء لمصباح منير يصل إلي زنازيننا الأربع، أنا وألفونسو وسالم كومبو وهنجو إيروجي. والأخير نقيب بالجيش وواحد من قادة التمرد الذي تم إحباطه عام 1964. وهو شاب من النياموزي وسيم ومثقف، محكوم عليه بالسجن مدى الحياة. ولم يكن سالم وهنجو يعرفان شيئا عن تلك الخطة. فقط كان **سرها بيني وبين ألفونسو**. وكنت قد اقترحت فكرة الهروب

علي سالم ذات مرة، ولكنه ارتعش. فقررت ألا أخوض في هذا الموضوع معه أكثر من ذلك. قررت أن أعرفه في لحظة تحريره. وعندها لا يصير أمامه إلا خيار من **اثنين:** إما أن يتبعنا، أو يختار البقاء بالسجن.

وبات السؤال كيف نوصل هذه الرسالة إلي أقاربنا في ممباسا، ومن سيستلم الأموال حين يأتوننا بها؟ كانت الإجابة علي هذين السؤالين حاضرة عند ألفونسو أدونجو. نجحنا فيما بيننا أن نقنع **أحد الحراس المتعاطفين** معنا أن يرسل خطابنا بالبريد إلي السيدة **شريفه أحمد البوسعيدية**، خالة زوجتي، وإحدى أقطاب الحزب. ويتم إرسال المبلغ وهو خمسة آلاف شلن إلي **قس كاثوليكي إيطالي** اعتاد المجئ **لتلبية احتياجات ألفونسو الروحية.**

وكان ألفونسو قد قال للقس سلفا أنه ينتظر وصول مبلغ من المال خاصا به من كينيا. وسيأتي أحد إخوته، ويأخذ ذلك المبلغ ليبني به بيتا صغيرا له يكون جاهزا لدي إطلاق سراحه. ووافق القس، إلا إنه حينما **أتى المبلغ، أبلغ مدير السجن مصطفي داتشي، وسلمه له.** وحينما جاء شقيق ألفونسو ليأخذ المال، كذب القس، وقال له أنه لم يحصل علي أي أموال من ألفونسو. وهكذا **أحبطت مؤامرتنا.** ولحسن الحظ لم يستطع أحد أن يخمن مصدر تلك الأموال، ولا الدافع الحقيقي وراءها.

كان ألفونسو أدونجو **لصا محترفا، متخصص في السرقة من عربات قطارات البضائع فحسب.** وله رفاق من نظار المحطات يعطونه نصيبا من البضائع المنقولة، ولديه متخصصون في تلقي البضائع المسروقة وتصريفها، وبإمكانه الوصول إلي ما بداخل

عربات البضائع، وإلقاء ما يشاء منها خارجها، والقفز من القطار المتحرك دون أن يصاب بأذى.

وعلي الرغم من مغامراته الكثيرة، ووقوعه أحيانا في مواقف بالغة الحرج، فإنه **يقسم أنه لم يتسبب في أي أذى مادي لأحد طيلة حياته.** فلقد كان **كاثوليكيا متدينا**، يتعبد طوال الليل. ويحاجج بأن السرقة من السكك الحديدية **ليست ذنبا**، لأنها **لا يترتب عليها إضرار بأحد، لأن شركات التأمين تدفع مقابل كل البضاعة التي فقدت في عملية النقل.**

كانت محكومية ألفونسو في كينيا قد أوشكت علي الإنتهاء. ولكنه كان ينتظره استكمال محكومية أخرى في أوغندا. ووعد ألفونسو بأنه إن **نال حريته**، فسيأتي **بنفسه ليحررنا من السجن.** وكان ألفونسو أدونجو قد هرب من أوغندا قبل حصولها علي الاستقلال. ومن ثم طلب مني أن أشفع له لدي المدعي العام الأوغندي **جودفري بينايسا**، الذي كان صديقا شخصيا لي حيث كنا زملاء بالجامعة. كتبت الخطاب، وأعطاه هو إلي **حارس شاب** كان في نوبة حراسة ببرج المراقبة. وكان ألفونسو قد قدم خدمة لذلك الحارس بأن أصلح له ساعة يده. وطلب ألفونسو من هذا الحارس أن يسلم ذلك الخطاب إلي صديقي **أحمد علاي** الذي كان يعمل بإدارة الجيولوجيا ليرسله هو **بالبريد**، بغية ضمان إرساله. اعترضت علي ذلك لأننا كنا بذلك نورط آخرين أكثر مما ينبغي. وكنت أعلم أن صديقي أحمد يستاء من ذلك أحيانا. **ولكن ألفونسو لم يأبه باعتراضي.**

أسر **أحمد** بهذا الأمر إلي **ويلبرود** الذي نصبه مصطفي داتشي مدير السجن عينا علينا. فنصح ويلبرود أحمد بأن يسلم الخطاب

إلي داتشي، وأبلغه هو بكل التفصيلات. تردد أحمد، ولكن داتشي طلب منه تسليمه الخطاب. وهكذا **وقع المحظور**. عوقب الحارس الذي أخذ الخطاب بالوقف عن **الخدمة والإحالة إلي المحاكمة**. ووضعت أنا في **الحبس الانفرادي** أسبوعين، مع تخفيض الوجبة الغذائية المقررة لي إلي النصف.

وحين جاء موعد جلسة محاكمة الحارس **استدعيت كشاهد**. وتمت المحاكمة في غرفة خاصة، لأنه لم يكن من المرغوب فيه سياسيا إدلائي بشهادتي في جلسة علنية. وكان محامي الدفاع بارسي، مسن عاش في شبابه في زنجبار يدعى كيكا. أما القاضي فكان نيجيريا. اعترفت بأنني كتبت خطابا لألفونسو. ولكن لا علم لي بالكيفية التي كان يخطط لإرساله بها. وفعلت ذلك بغية مساعدة ألفونسو، لأنه **عانى بما فيه الكفاية**. وشعرت أنه قد تاب، ومعاقبته بأكثر مما عوقب به حتى الآن، سيكون عقابا من أجل **الأذى لذاته لا للإصلاح**، علي عكس ما تقتضيه فلسفة عقوبة السجن. عقب كيكا بقوله: **"كنت إذن سامريا صالحا"**

وقضت المحكمة بإخلاء سبيل الحارس، وإعادته إلي الخدمة. وفي وقت لاحق، زار اوبايدو روجامبوا مدير السجون سجن دودوما، وأبلغني أن السلطات في دارالسلام تعرب لي عن أسفها تجاه **إخضاعي لعقوبة الحبس الانفرادي**. فهم أنفسهم كانوا سيفعلون ما فعلته في مثل تلك الظروف. ووصل مشهد ألفونسو إلي نهايته بانتهاء محكوميته في تنزانيا، وترحيله إلي أوغندا ليكمل الحكم الصادر بحقه من عهد الاستعمار. وتبخرت آمالي في الخروج المبكر من السجن بجهوده.

ثانيا: زعيم نقابة العمال صمويل كاتونجوتو

لم يبق أباذر جمعه وزير الزراعة السابق بحكومتنا، معنا أمدا طويلا، بل نقل إلي سجن آخر. وتم الإفراج عن كل المعتقلين التنجانيقيين الذين كانوا في قسم آخر من السجن، الواحد تلو الآخر، باستثناء **معتقل واحد** هو: صمويل كاتونجوتو زعيم عمال السكك الحديدية الذي أيد محاولة التمرد العسكري التي قام بها الجيش عام 1964، فجئ به ليواصل اعتقاله معنا. وكانت زعامة تلك النقابة قد آلت إلي صمويل كاتونجوتو، حين تم إيفاد كاسانجا تومبو إلي بريطانيا بصفة مفوض سامي تنزاني. وصمويل كاتونجوتو شخصية مرموقة، استطاع بقوة حجته المدعمة بالحقائق والأرقام، أن يحول **أكبر مناصر متملق**، إلي **متمرد**. وانبهر حارس من قبائل تسنداوي كان يتابع حوارنا من برج المراقبة بكلمات كاتنجوتو، إلي حد فاضت معه عيناه بالدموع، وأعلن أمامنا جميعا أن: **"لو تصادف أن أمرت أن أحرس نيريري، فإنني أعرف إلي أين أوجه بندقيتي. فمن الأفضل أن أموت، من أن يستمر كل التنزانيين تحت حكمه الاستبدادي"**.

وألم مرض بصمويل كاتونجوتو. إلا أن طبيب السجن لم يعطه غير **المزيد من المسكنات**، التي لا تفعل أكثر من جلب النعاس. نفد صبري، وقلت للطبيب بحدة أن **من واجبه المهني أن يقدم للمريض العلاج المناسب بصرف النظر عن موقفه السياسي**. وينبغي عليه في كل الأحوال أن يقدم التوصيات اللازمة للمسؤولين، فيما لو لم يكن العلاج المطلوب لديه. وقلت له أن **نيريري لن يخلّد**. ومن **تابعوا هتلر في جنونه لا زالوا يُطلبون**

للمثول أمام العدالة. وهو بصفته طبيبا سيُسأل عن سلامة المريض. وكاتنجوتو يشكو من مرض باطني. وإجراءات التشخيص الطبي قاصرة. والحالة تستدعي نقله إلي مستشفي مناسب لإجراء المزيد من الفحوص الدقيقة". قال الطبيب لزميلي سالم كومبو: "**لابد أن السيد علي كان متشددا للغاية وهو خارج السجن**"

رد عليه سالم كومبو بقوله: "**إنه لا يقول إلا الحقيقة**". وعندها نقلوا كاتنجوتو إلي مستشفي دودوما، وهي مستشفي إقليمية من المستوى الثاني علي أحسن تقدير. وقالوا بعد مجرد الفحص بالأشعة السينية، أنه لا يعاني من مرض جسماني. وواصلوا إتخامه بالمهدئات. ولم يفرج عن كاتونجوتو إلا بعد فوات الأوان، حيث ذهب إلي دارالسلام وهو يعاني من **نزيف كبدي داخلي**. أجرى له طبيب روسي عملية جراحية عاجلة بمستشفي مهمبيلي المركزي، أنقذت بها حياته، مدة كفته لأن يكتب لي خطابا، وصلني وأنا لا زلت بالسجن. ثم فاضت روحه إلي بارئها، بعد فترة وجيزة. وفقدت **ابنته حديثة الولادة نظرها** لوجودها في قرية نائية لا تتوفر فيها رعاية طبية مناسبة، ولم يكن هناك من يأخذها هي وأمها إلي دارالسلام لتلقي العلاج المناسب، بينما كان والدها بالمعتقل.

وانضم إلينا معتقل آخر، يدعى **جيمس ماكوني**، وهو شاب من زمبابوي من قبيلة شونا، في أوائل العشرينيات من العمر، ممن يسمونهم **المناضلين من أجل الحرية**، الذين سئموا من البقاء في تنزانيا وهم لا يحركون ساكنا. غادر المعسكر وكان في طريقه إلي زامبيا، حيث تم القبض عليه، وسيق إلي السجن بدعوى كونه **فارا**

من الجندية. وكان هذا الشاب موظفا بزامبيا قبل تجنيده كمناضل من أجل الحرية وإرساله إلي مصر للتدرب كفدائي.

وحين طلبت زيارة المبشر البروتستانتي الاسترالي **كينجسلي جرين ليعلمنا الكتاب المقدس**، انضم هذا الشاب وسالم كومبو إلي، في تلك الدروس. وكان هذا الشاب كاثوليكيا، ولكن معرفته الدينية كانت قاصرة. فلقد علم منا لأول مرة أن القدس التي يتصارع العرب واليهود عليها، مدينة في فلسطين، وليست موضعا في السماء، كما فهم من التعليم الذي تلقاه في كنيسته. وفي المقابل، كان كينجسلي جرين بروتستانتي من كنيسة بعيدة الصلة بالكنيسة الكاثوليكية.

ثالثا: النقل إلي سجن موانزا

بعد وصول المعتقلين الأربعة، ومن بينهم أخوي كامبونا، نقلت إلي سجن موانزا. فلقد وجدوا أنه من غير المستحب أن نبقى معا. وحذرني مساعد مدير السجن حينما رآني معهم، قائلا: "**يا سيد علي لا تتكلم في السياسة**". أجبته: "**نحن لم نودع هنا بسبب السرقة**". وبعد ذلك بفترة وجيزة، صدر أمر ترحيلي إلي سجن آخر، ولكن ليس قبل أن أبذل محاولة أخرى للهرب من سجن نيريري. وكنت قد تمكنت بمساعدة سجين سيخي ذكي ومثقف للغاية، وحارس متعاون، أن أتواصل مع العالم الخارجي بيسر. ودبرت هذه المرة محاولة هروب جسورة وماهرة للغاية.

قدرت أن مدير السجن سيصدر بالقطع أوامر بترحيلنا إلي دارالسلام بمرافقة قوة حراسة. وتمثلت الخطة في **نصب كمين لتلك الحراسة في الطريق**، ومغادرتنا نحن ومخلصينا البلاد جوا بطائرة

خاصة. وهنا جاءت ثغرة، قوضت هذه المحاولة الثانية للهروب، من أساسها.

لم يحدث أبدا أن وضعت قيود في يدي طيلة سجني في تنزانيا حتى لدي نقلي من سجن إلي آخر. وكان كل من يراني مرحلا في قطار أو في سيارة يعتقد أنني أنا **الرئيس** ومن برفقتي هم بطانتي وأفراد الحراسة الحاملين لحقائبي. وكان هذا هو الانطباع الذي خرج به بعض أعضاء **فرق السلام الأمريكية**[3] حين قابلوني وأنا في الطريق إلي سجن موانزا. ظنوا أنني عضو بإحدى **وكالات الغوث الدولية** في مهمة مماثلة لمهمتهم. ونجحت في وضع **رسالة مكتوبة، خلسة في يد أحدهم**، طالبا منه أن يحيط **ديفيد ريد** الذي هو أحد أصدقائي الأمريكيين الصحفيين علما بمحنتنا. لم يكن لدي عنوانه، ولكنني خمنت إمكانية إرساله إليه علي مؤسسة ريدرزدايجست التي هو من المنتسبين إليها. ولا أعلم ما إذا كانت تلك الرسالة قد وصلت إليه. وأعلم الآن أنه **قد مات، ولا أدري متى مات.**

أنزلوني في البداية في سجن موانزا الذي رحلوني إليه، من دودوما في زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام. وفي الصباح، حملوني علي قضاء النهار كله في غرفة جرت العادة علي تنفيذ أحكام الإعدام فيها للحيلولة دون الاتصال بالمسجونين المحكومين. كانت تلك تجربة رهيبة. ولم يخفف من كآبتها، وجوها المرعب، أن قيل لي أنها لم تعد تستخدم في عمليات الإعدام. فبها مشنقة، وكل

---

[3] فرق السلام الأمريكية أنشأها الرئيس جون كينيدي في 1961 من متطوعين من الشباب الأمريكي المؤهل للخدمة في دول العالم الثالث. – محمد البرواني

الأدوات التي تتطلبها عملية الإعدام. وليس بها أي إنسان يمكنك أن تتحدث معه غير الحارس.

إلا أن ذلك الوضع أتاح لي فرصة لإقامة **علاقة صداقة وثيقة مع فرد** صار مفيدا للغاية بالنسبة لي في **التواصل مع الخارج.** وبواسطته استطعت توصيل **مقالات كتبتها إلي الصحافة** تفضح ظلم النظام الحاكم الذي يضطهدنا. ونشرت تلك المقالات في مناطق عديدة من العالم، وفي تنزانيا نفسها. كان هذا الشاب الوطني والمخلص يوجه تلك المقالات إلي جهة النشر، ويرسلها بالبريد، كما كان يفعل برسائلي الأخرى.

شكوت له من أن الصحافة تعج بتهم لا أساس لها ضدي، ولا ينهض أحد بمهمة تفنيدها. . اقترح علي كتابة مقالات لوضع الأمور في نصابها الصحيح. ووعد بأن يتولي هو كفالة اتخاذ ما يلزم لنشرها. عندها بدأت أكتب للصحافة، وأنا لا زلت في السجن. وأتذكر أنني في ليلة واحدة كتبت **عشرين مقالة كل منها خاص بموضوع بعينه، ليتولي هذا الحارس الصالح إخراجها من السجن قبل الفجر.**

وبعد قضاء شهر أو شهرين في تلك الزنزانة، نقلت إلي قسم آخر بالسجن حيث نزلت في أفضل زنزانة حللت بها علي مدى مدة سجني التي جاوزت العشر سنوات. كان لتلك الزنزانة **نافذتان متقابلتان**، إحداهما شرقية، والأخرى غربية، مما مكنني من رؤية طلوع الشمس وغروبها. وأمام الزنزانة ملعب كرة قدم تابع للسجن. وبدلا من الجردل الذي يقضي السجين حاجته فيه، كانت هناك دورة مياه مناسبة بصنابير مياه. وكانت تلك وضعية لا نظير لها في أي سجن من السجون الستة التي اعتقلت فيها. والأهم من كل

ذلك أن تواصلي مع نزلاء هذا القسم من السجن لم يكن موضعا لأية قيود. وأود الإشارة لبيان الحقيقة كاملة، إلي أن سلطات السجن سمحت لي حين كنت نزيل زنزانة المحكومين بالتواصل معهم، في وقت لاحق.

وانضم إلي وأنا في سجن موانزا، أنانجيسي، الأمين العام لجمعية شباب حزب الاتحاد الوطني الأفريقي التنجانيقي، بتهمة التآمر لتنظيم تلك الجمعية عسكريا، بهدف الإطاحة بحكومة نيريري. ويذكر أن هذا الشاب ينتمي إلي قبيلة النياكوسا، بجنوب تنجانيقا، وهي قبيلة يكرهها نيريري. وكان أنانجيسي وكثيرون من أبناء تلك القبيلة مثقفون علي مستوى رفيع. وهو حاصل علي بكالوريوس الاقتصاد من الهند. ذكرني بزيارته لي في بيتي بزنجبار حينما كنت وزيرا للتعليم، يوم أن عرفني عليه زميله بالكلية غسني محمد هلال، الذي كان والده زميل دراسة لي في المدرسة الابتدائية. وأعجب أنانجيسي أثناء تلك الزيارة، كما قال لي حين جمعنا السجن، بسرعة استعانتي بالمصادر من وثائق ومراجع أوثق بها كل كلمة أنطق بها.

وكان هذا الشاب قد أتى إلي سجن موانزا مرحلا من سجن بوكوبا حيث كان برفقة مولد مشنجاما. وشغل أنانجيسي نفسه فترة وجوده بسجن موانزا في **إعداد مخطط لكتاب يقترح فيه إحياء الاتصالات القديمة بين الشرق الأوسط وشرق إفريقيا**. ولا أعلم إن كان قد طور تلك الفكرة في كتاب بالفعل. فلقد فقدت التواصل معه مع ترحيلي إلي سجن بوكوبا، حيث صرت أنا رفيقا لمولد مشنجاما.

رابعا: الحاج مصطفي

بينما كنا بسجن موانزا، اعتاد الحاج مصطفي، وهو واعظ مسلم زنجباري عجوز، من أصل قمري، هاجر من مسقط رأسه، في شبابه، واستقر به المقام في نيروبي، علي المجئ إلينا في أيام الجمعة وإلقاء مواعظ علي مسامعنا وإمامتنا في الصلاة.

وفي وقت لاحق، انجذب هذا الشيخ إلي الوعظ بسجن موانزا، وانخرط وهو في السبعينيات من عمره بحيوية في الدعوة الإسلامية. وعلي مدى سنوات سجني التي تزيد علي عشرة أعوام، وفي كل السجون الستة التي سجنت بها، **لم يأت أحد، غير هذا العجوز والمعلم عباس عبد الله من بوكوبا، لإلقاء مواعظ دينية إسلامية علي المسجونين المسلمين، أو لتطييب خاطرهم، وإرشادهم، وتعليمهم أمور دينهم**. وفي المقابل، كانت كافة تلك السجون تعج **بالقساوسة المسيحيين والمبشرين البروتستانت** من كل الطوائف. ولم يأتنا أي واعظ مسلم حتى في زنجبار، حين كان كل النزلاء تقريبا من المسلمين. وحده **الأسقف البروتستانتي الزنجباري هو الذي اعتاد زيارتنا من آن لآخر.**

واقتصرت الحالات التي جاء فيها شيخ أو قاض إلي السجن علي الحصول علي موافقة "رسمية" من الأباء المسجونين علي زواج بناتهن بالإكراه لأعضاء من الحزب أو بالحكومة. ولم يكن هؤلاء الشيوخ والقضاة يرون أي سجين آخر. فهم لم يأتوا بغرض الوعظ، ولا المواساة، ولا الإرشاد.

وبفضل الجهود التي بذلها الحاج مصطفي، تم جمع أموال لبناء **مسجد** لحراس سجن موانزا، وغيرهم من المسلمين المرتبطين به.

ولم يكن الحاج مصطفي يستطيع المجئ إلي السجن مشيا علي الأقدام لكونه طاعنا في السن، ولا تتوفر له وسائل مواصلات أخرى، غير استجداء توصيلة مجانية، أو دفع أجرة، رغم فقره، لسائق تاكسي. ولكنه كان يحضر بانتظام شديد مرة كل أسبوع وفي عيد الفطر. وكان يأتي معه يوم الاحتفال بالمولد النبوي بمجموعة من الصبيان من تلاميذ إحدى المدارس الإسلامية لإحياء تلك المناسبة بقصائدهم الدينية.

ورغم أن مدير سجن موانزا كان رجلا متغطرسا يتعامل مع النزلاء بخشونة، فإن كبير ضباطه، وكل العاملين معه كانوا علي خلق، ويراعون مشاعر الآخرين. وأود الإشارة إلي أن محمد أحمد الكنعاني، من مافيا، كان هو كبير ضباط السجن. وكان خاله الطيواني عمل مترجما في محكمة تشاكيشاكي ببيمبا. ونتيجة تلك العلاقة حصل محمد علي الشهادة الابتدائية من مدرسة في بيمبا، حين كان الشيخ محمد رمضان نيامكا شامتي ناظرا لمدرسة تشاكيشاكي. وهذا الضابط الكبير هو الذي أوصى لدي مدير السجن بنقلي إلي سجن بوكوبا لكي أكون برفقة زميلي مولد مشنجاما.

خامسا: سجن بوكوبا

تلقيت وأنا في سجن بوكوبا النبأ الحزين المفجع الخاص بوفاة والدتي. وصلني هذا النبأ تلغرافيا. وتوفي أخي الأكبر الذي كان بمثابة الوالد بالنسبة لي، أيضا، وأنا **سجين نيريري في هذا السجن**. وفي ظل هذه الأوضاع غير الطبيعية قد يفقد المرء الإحساس بالغضب تجاه من ذاق الويلات علي أيديهم بلا رحمة، ولكنه لا يستطيع أن ينسى الإحساس بالحزن. حقيقة أنه في ظل

ظروف الحرمان من أدنى حقوق الإنسان، وهو أن تكون بجوار أمك أو أخيك، وهو يحتضر، فإن الإحساس بالحزن يغلبك، ويذهلك، ويصرعك.

وصلت إلي هذا السجن في أول المساء، وكان كل النزلاء في زنزاناتهم. وتقرر نزولي في الزنزانة التالية لزنزانة مولد مشنجاما. وبينما كنت واقفا هناك سمعت صوت **المؤذن لصلاة المغرب** آتيا من داخل مجمع السجن. استفسرت من مولد مشنجاما، وعلمت منه أن جماعة من المسجونين المسلمين يقيمون صلاة جماعة.

كانت هذه أول تحية أتلقاها في هذا السجن. وكان ذلك بمثابة فأل طيب بالنسبة لي. فلقد لاحظت وأنا في سجن موانزا أن من بين نزلاء السجن أبناء قبيلة الهايا من بوكوبا كانوا أكثر استنارة في أمور الإسلام، بالمقارنة بمن هم من مناطق أخرى. وكنت أظن قبل ذلك أن منطقة بوكوبا مسيحية عن بكرة أبيها. ولكن أنانجيسي الأمين العام لجمعية شباب حزب الاتحاد الوطني الأفريقي التنجانيقي، وهو مسيحي ملتزم، نزيل سجن بوكوبا أخبرني أن الإسلام بدأ ينتشر في أوساط تلك المنطقة، ويحرز تقدما سريعا. والآن ينشرح صدري داخل هذا السجن بأن يكون أول ما أصادفه فيه هو: آذان صلاة المغرب.

كان سجن بوكوبا وحدة صغيرة، يستخدم فحسب للمحبوسين احتياطيا، بينما نقل المسجونون الذين ينفذون أحكاما قضائية، إلي سجن جديد أكبر في كبنجوريا الواقع علي بعد كيلومترات من المدينة. ولم يحتفظ في هذا السجن إلا بعدد يسير من المسجونين المدانين لأغراض النظافة والطهي والحياكة. وسجنت أنا ومولد كل علي حدة في زنزانتين متجاورتين. وزودونا **بسرير وكرسي،**

وهو ما يعتبر بمثابة رفاهية غير عادية في السجون التنزانية. إلا أن الكرسي كان بدون وسادة. وكنت أطبق بطانية، وأضعها عليه حين أريد استعماله. وكان مسموحا لنا بالاختلاط دون أية قيود مع المحبوسين احتياطيا بالنهار، لأن حراسهم كانوا معهم في ذات مكان الحجز. وكان المحبوسون المسلمون مجمعون في جناح واحد لتيسير أدائهم الصلاة في جماعة، وتناول طعام الإفطار الرمضاني معا في شهر الصيام.

وحين رأيت مولد مشنجاما يصلي منفردا، سألته عما إذا كان ممنوعا علينا الصلاة مع الجماعة. أجاب بالنفي. ومن هذه اللحظة، بدأت أنا وهو نصلي مع الجماعة في **صلاة الظهر والعصر والمغرب**. وصرت **أنا إمامهم في الصلاة**. وبعد الصلاة كنت ألقى **موعظة قصيرة** في موضوعات متعددة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية. وأدى ذلك إلي إثارة الاهتمام والحماس بين المسجونين. وبدأ بعضهم يأتون إلي زنزانتي، ويجلسون علي السرير والكرسي، أو حتى علي الأرض، لمناقشة موضوعات شتى. وامتد الاهتمام بتلك الدروس إلي غير المسلمين نزلاء الزنانين القريبة الذين كان بوسعهم سماعها.

ولا حظت بعد زيارة مبشرين مسيحيين أيام الآحاد، علي وجه الخصوص، أن أسئلة كثيرة تطرح علي بخصوص الموعظة التي قدموها. وأثارت الأحاديث التي كنا نسمعها من إذاعة صوت الإنجيل من الراديو الترانزستور الذي كان بحوزتي، أسئلة كثيرة من المستمعين المسيحيين. وكنت أحاول قدر استطاعتي الإجابة علي تلك الأسئلة مستعينا **بالكتاب المقدس**، الذي كان لدى نسختين منه بالإنجليزية والسواحيلية. ورويدا رويدا، **بدأ أصدقائي**

المسيحيون يدركون أن ما يقوله لهم وعاظهم ليس مطابقا لما جاء في الكتاب المقدس، علي الدوام، من جهة، ويدركون من جهة أخرى أن ثمة **وشائج بين القرآن والكتاب المقدس، أعمق مما كانوا يعتقدون في ضوء ما تعلموه من كنائسهم**. ثم بدأت أفواج من عناصرهم الشابة تبدي رغبتها في اعتناق الإسلام بشكل مطرد.

ومن الأمور ذات الدلالة الخاصة **أن شهر رمضان كان يشهد أكبر اندفاعة لاعتناق الإسلام**. ذلك أن النظر إلي شهر الصيام علي أنه شهر نكران للذات، وليس مجرد امتناع عن الطعام والشراب، كانت له جاذبيته الآسرة، لدى أولئك النزلاء المتعطشة نفوسهم للقيم الروحية. وقال عدد منهم أن الديانة التي لا تطلب من أتباعها، ما هو أكثر من الإيمان غير المبني علي دليل قاطع، ديانة لا تناسبهم.

رأونا نلتقي علي الصلاة **خمس** مرات كل يوم، وندخل بعدها في نقاش حر **لمشكلاتنا الدينية والاجتماعية**، طيلة شهر رمضان، ممتنعين طواعية عن الطعام والشراب من الفجر إلي الليل حتى ونحن نعاني من مشاق الاعتقال. وخلصوا إلي أن **هذا هو الدين الحق**. والأهم مما سبق، أنهم رأوا كيف نحيا أنا ومولد مشنجاما في علاقة ودية مع الجميع. ومكثت في هذا السجن عامين ونصف العام. ووفق الله تعالي أكثر من **ثمانين** من نزلائه ممن تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والثلاثين، إلي اعتناق الإسلام، علي يدي، كلهم إما من الكاثوليك أو من البروتستانت، عدا أربعة وثنيين. وساعدتهم علي تلاوة القرآن باللغة العربية، مستعينا بمنهج ابتكرته لتعليم القراءة والكتابة بها في غضون أسابيع. بل

إن **أحد الأذكياء** منهم استطاع أن يقرأ القرآن بالعربية في غضون **خمسة أيام** فقط.

وذات يوم جمع **مدير السجن** كل النزلاء باستثنائي أنا ومولد، في مبنى آخر من مباني السجن، مما أثار تساؤلات لدينا. ولما عادوا أخبرونا أن المدير قال لهم: "أنتم ترون هذين الشيخين. نحن **لا نحترمهما لأنهما كانا وزيرين**، إذ أننا لا يهمنا منصب أحد، ولا ماذا كان وهو خارج السجن. فنحن نعامل الناس وفق سلوكياتهم هنا داخل جدران السجن. وهذان الشيخان **يحترمان نفسيهما**. فإن أحسنتم السلوك سنحسن معاملتكم". كان هذا هو مدار حديثه.

وكان من بين المحبوسين احتياطيا شاب توتسي من بورندي، هرب إلي تنزانيا من الأعمال الوحشية التي يرتكبها الهوتو وعمل خادما بمنزل صاحب متجر هندي ليكتسب ما يقيم أوده. وانتقل من تلك الوظيفة إلي وظائف أخرى مماثلة. ونصحه صديق عربي شاب بأن يعمل بالتجارة، ليتمكن من الاستقلال والاعتماد علي نفسه. واقترح عليه العمل كبائع للقهوة في شوارع بوكوبا. وأقنع ذلك الشاب والده بإقراض مبلغ من المال لذلك الشاب التوتسي ليشتري متطلبات عمله هذا من براد وأكواب وما شاكل ذلك. قال الأب العربي أنه سيعطيه المبلغ المطلوب بصفة **قرض ليعلمه عدم الاعتماد علي الهبات.**

لم يمر وقت طويل قبل تمكن ذلك الشاب التوتسي من سداد القرض، وشراء عربة يد صغيرة يمكنه أن يضع عليها المزيد من الأكواب وبعض الفطائر. وحقق نجاحا ملحوظا في عمله. إلا أنه دخل السجن علي سبيل **الحبس الاحتياطي بسبب اتهامه بالتورط في مشاجرة.** وكان هذا الشاب **كاثوليكيا معمدا**، ولكنه كان مهتما

بالإسلام، ولديه تساؤلات بحاجة إلي توضيحات، ساعده ارتباطه بي فترة وجوده بالسجن علي التوصل إلي إجابة عليها، فاعتنق الإسلام. ونجحت من جانبي في تعليمه القراءة باللغة العربية. وانتهي الأمر بتبرئته من التهمة التي سجن بسببها. وبعد سنوات تلقيت رسالة منه أثناء إقامتي بالقاهرة، علمت منها أنه انتقل إلي موانزا وتزوج ورزق بثلاثة أولاد، **وساعد عدة أشخاص علي اعتناق الإسلام**. وأكد في خطابه أن كل ما ناله من خير، كان بسبب لقائنا به في سجن بوكوبا.

وبينما كنا نصلي ذات يوم رأيت شابا يبدو من سيماه أنه زنجباري. ولما سألته عن اسمه وأجاب: الأمين، ازدادت ثقتي بأنه علي الأقل سواحيلي. ثم قال لي أنه **توتسي من بوروندي، وأن والديه قتلا، وفر هو وأختيه إلي تنزانيا**. وانتهي به المقام في قرية يعيش فيها بعض **الفقراء المسلمين**، الذين رحبوا به، وشاركوه في القليل الذي رزقهم الله به. وفي ضاحية قريبة، كان هناك **أناس كاثوليك** علي ديانة هذا الشاب التوتسي، **يعيشون في بحبوحة، ولكنهم لم يقدموا أي عون للاجئين**. ولما رأي ذلك الشاب لأول مرة، المسلمين يعيشون وكأنهم أخوة أشقاء، قرر حسب قوله: "**الانضمام إلي حزبهم**" المتمثل في جماعة زادها هو العون المتبادل. وكانت تلك هي الطريقة التي دخل بها هو وأختيه في الإسلام. وتعلم كيفية الصلاة، وكيفية تلاوة القرآن.

وكان معنا بالسجن شاب من قبيلة الهايا، يدعى جسباري، في أوائل العشرينيات من عمره، بالغ الوسامة والأناقة. **ذاق مرارة السجن أول مرة بسبب احتجاجه علي تخطي سيدة لدورها في الصف في إحدى المستشفيات، تصادف أن كانت زوجة مسؤول**

حكومي كبير. حدث له هذا وهو في العقد الثاني من عمره، ولا يزال تلميذا بالمدرسة. وكان أسبوعان **بالحبس الاحتياطي كافيين لإدخاله عالم الجريمة**. وصعد بسرعة علي سلم الجريمة، إلي أن صارت بحوزته بندقية محلية الصنع، يستخدمها في السرقة بالإكراه.

وحين وصلت إلي بوكوبا كان هذا الشاب واثنان آخران محبوسان حبسا احتياطيا **بتهمة القتل**. ومن بين المتهمين الثلاثة ابن الضحية الذي قابلوه فقط حين ألقي القبض عليهم. ولم يكن ثمة دليل يذكر علي صحة التهمة. ورتبت أنا ومولد مع أصدقاء لنا خارج السجن، لتدبير **محام كفء للدفاع عن المتهمين**. وبالفعل تمت تبرئتهم. إلا أن السلطات أعادت القبض علي جسباري بأمر **اعتقال جديد** صادر من نيريري خاص بمن أسموهم: "**المجرمين الميؤوس من إصلاحهم**" دون أي محاكمة بالمرة. وكان جاسباري قد بات حينئذ **مسلما** وغير اسمه إلي: **جمال حاجي**، تيمنا بالإسم الثاني من اسم صديقه المقرب **مولد مشنجاما حاجي**.

وبات ذلك الشاب مسلما ملتزما، بالغ الحرص علي التمسك بعقيدته، عاقدا العزم علي طي صفحة الإجرام. ولكنه لم يكن ليطيق السجن بلا محاكمة سواء بالنسبة لنفسه أو بالنسبة لنا كأشخاص بات يحبهم. . وذات ليلة فتح ذلك الشاب فتحة في سقف زنزانته، وقفز منها إلي خارج السجن. ومكنه من ذلك كونه شابا ورياضيا. وأصبح علي علاقة **بأصدقاء لنا خارج السجن**. وبعد وضع **كل الترتيبات اللازمة لتخليصنا من السجن، ذهب لإحضار بندقيته التي كان قد دفنها في قريته. رأي حارس ليلي**

شبح شخص مريب بالليل، فأطلق عليه النار، وأرداه قتيلا، قبل أن يتعرف علي هويته. وتصادف أن كان ذلك الحارس **خاله**.

وكانت سمعة جمال، المعروف بقريته بجاسباري – سيئة، ولم يكونوا يعلمون شيئا عن تحوله إلي الإسلام، واعتزامه التوبة عن الجريمة، لأن ذلك كله حدث في السجن. **ويموت جاسباري، تحطم أملي في الفرار من السجن للمرة الثالثة**. ولم يحظى هذا المسكين حتى بدفن مناسب. بيد أننا معشر المسلمين بالسجن صلينا عليه صلاة الجنازة – صلاة الغائب. والحكم لله الذي يعلم وحده المصلح من المفسد. وعلي حد علمنا، ولا نزكي علي الله أحدا، أن جمال، أو جاسباري كان شابا صالحا تاب من ذنوبه. والنبي صلي الله عليه وسلم يقول: "**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**".

ودخل السجن شاب في الثلاثين من عمره، من قبيلة الهايا، يدعى عزيري. وقبلها ألقت السلطات القبض علي شقيقه إدريس ماجورا الذي كان مدرسا مقيما بزنجبار، في بوكوبا، ورحلته إلي زنجبار لسجنه هناك، **بتهمة التورط مع عثمان شريف في محاولة للإطاحة بحكومة كارومي**. والمعروف أن إدريس ماجورا تربى علي يد سعيد داهوما (كومبانيونجو) الذي لقى مصرعه علي يد نظام حكم حزب الأفروشيرازي، هو ومحمد سالم جينجا، وعامر زاهر، ومحمد حمود وحمزة. وكان سعيد داهوما صديقا لي، لعبنا معا كرة القدم في شبابنا، وصار لاحقا عضوا مخلصا بالحزب الوطني الزنجباري.

ولأسباب غير معروفة، باستثناء كونه شقيقا لماجوري، ألقت السلطات القبض علي عزيري الذي لم يسبق له أن أقام في

زنجبار علي الإطلاق، ووضع في السجن. ونزل في جناح يضم قرابة **ثلاثين سجينا مسلما في ذات المجمع الذي نعيش فيه.** وكان رتاج باب جناحهم مثبت بقطعة من ماسورة معدنية غائرة في الحائط. وبفعل كثرة الفتح والغلق علي مدى سنوات، تصدع جزء من الحائط المحيط بتلك الماسورة. وأدى ذلك إلي ظهور جزء من تلك الماسورة. واحتاج عزيري إلي مبرد لنحت تلك الماسورة به. أعطاه أحد الحراس جهاز الراديو الخاص به لإصلاحه، فقال له أنه محتاج لمبرد لإصلاحه به. وكان أحد النزلاء يقف كل يوم ووجهه إلي المبنى وظهره للباب متحدثا لشخص أمامه، بينما يقوم عزيري بنحت الماسورة بهذا المبرد ببطء ودقة دون إثارة أي شك. واستمرت تلك لعملية عدة أيام. وبذا ضعف الرتاج بحيث بات من الممكن لنزلاء السجن أن يدفعوا الباب بالليل ويفتحونه بسهولة. وكان جوهر الخطة أن الحراسة الليلية علي كل أولئك النزلاء عبارة عن حارس واحد بالمجمع، وحارس أو حارسين علي القسم. ويوسع زهاء ثلاثين نزيلا وفق هذا السيناريو أن يتغلبوا علي هذا العدد المحدود من الحراس. وبالمفاتيح التي يصادرونها من الحراس يفتحون بابي زنزانتي وزنزانة مولد مشنجاما، ويخرجونا معهم إلي الحرية.

ولسوء الحظ كان بين نزلاء جناح عزيري **شاب مجرم** تعود علي الاعتقالات المتكررة. وأفشى ذلك الشاب السر لسلطات السجن. ونقل عزيري وبعض رفاقه المقربين، الذين كانوا هم قادة تلك المحاولة، إلي قسم آخر بالسجن مع عزلهم. ولم يكتشف دورنا في تلك المحاولة. والحقيقة أننا لم **نعرف بها إلا بعد فشلها.** وهكذا كنت قاب قوسين أو أدنى من الخلاص من السجن **للمرة الرابعة،** ولكن الأمل تبدد في اللحظة الأخيرة.

إلا ان عزيري كان صاحب عزيمة، فلم تردعه زنزانته الجديدة عن تدبير محاولة أخرى للهروب. كانت هناك فتحة عالية محاطة بقضبان حديدية سميكة. وحصل عزيري علي منشار حديد من بالوعة صرف صحي. ونجح هو وزملاؤه باستعمال ذلك المنشار في إحداث فجوة بين تلك القضبان تكفي لخروجهم. وحرص علي جعل القضبان المقطوعة تبدو صحيحة لدى النظر إليها من الخارج.

وكانت بوكوبا تشهد عاصفة رعدية بشكل شبه يومي. وحين تهب تلك العاصفة تصدر أوامر للنزلاء بدخول زنزاناتهم، وتغلق عليهم. وتأكد عزيري واثنان من رفاقه أنهم **قد دخلوا زنزانتهم المعينة وأوصدت عليهم. وبينما كان المطر يهطل بغزارة خرجوا منها إلي بر الأمان.** وعبر عزيري الحدود إلي أوغندا، ومنها إلي السودان. ومن هناك كتب لي رسالة بالسواحيلية بحروف عربية وصف فيها **عملية فراره البطولية إلي الحرية.** بيد أن الحماقة وصلت بواحد من الاثنين الذين فرا معه إلي حد العودة إلي بوكوبا، حيث أعيد القبض عليه، ودخل السجن من جديد.

سادسا: اعتقال قاض وقسيس

تضاعف عدد مجموعتنا التي تضمني أنا ومولد مشنجاما، لنصبح أربعة بوصول **قاض وقسيس.** أما **القاضي** فهو ناكنجا، مواطن ملاوي كان يعمل كقاض مقيم في دارالسلام، مذهبه بروتستانتي تابع للكنيسة المشيخية، ينتمي إلي قبيلة الياو الملاوية الكبيرة المعروفة بكون معظم أبنائها مسلمين. وينتمي العديد من أبناء خالي لهذه القبيلة.

ولـم يكـن ذلـك القاضـي علـي علـم يقينـي بسـبب اعتقالـه، ولكنـه كـان يخمـن **سـببين، أولهمـا**: إصـداره حكمـا **بـالبراءة لـبعض الآسـيويين كـانوا قـد اتهمـوا بجـرائم تتعلـق بجـوازات السـفر، لعـدم تـوفر دليـل إدانـة كـاف**. وضـايق هـذا الحكـم نيريـري بشـدة. وسـمعته يصـوب فـي كلمـة مذاعـة جـام غضـبه وسـخطه علـي أولئـك " **القضـاة المغـرورين بأنفسـهم، لكـونهم تعلمـوا فـي انجلتـرا، ويصـممون علـي مـا يسـمونه عدم كفاية الأدلة**".

أمـا **السـبب الثـاني** الـذي يظـن ناكنجـا أنـه وراء اعتقالـه، فهـو حضـوره بالمحكمـة أثنـاء مـا يسـمى "**محاكمـة الخونـة**" ببيـي تيتـي وتشـيباكا، مـع أنـه كـان **فـي أجـازة**. وكـل مـا فـي الأمـر، أنـه حضـر مـن بـاب الاهتمـام بتلـك القضـية لكونهـا غيـر عاديـة، وأمضـى وقتـا طـويلا بالمحكمـة يتـابع وقـائع المحاكمـة. وكانـت النتيجـة أن شـكوكا سـاورت نيريـري، **فـي أنـه يعـاون محـاموا الـدفاع بمشـورته القانونية**.

ويقـول ناكنجـا أن مـا تصـوره نيريـري نسـج خيـال، لأن المحـامين كـانوا **أكثـر كفـاءة منـه، وأكثـر خبـرة وتمرسـا بمهمـتهم**. ولكـن هـذا ماحـدث. فعقـل أي **طاغيـة زائـغ ولا يمكـن التنبـؤ بطريقـة تفكيـره**. وهـو **لا يكتفـي بـالقوانين** التـي ابتـدعها، التـي تصـاغ مشـاريعها تحـت إشـرافه، ويصـدرها برلمـان أعضـاؤه مـن اختيـاره، **ولا بكـون التحقيقـات** والادعـاء يتمـان علـي يـد وكلائـه الشخصـيين، **ولا بـأن المحاكمـات تـتم** بمحـاكم طـوع بنانـه. فهـو مـع هـذا كلـه، **لا يـزال يعتقـد أن الأمـور لا تسـير تمامـا علـي النحـو الـذي يريـده**. ومـن هنـا فإنـه يضـيف إلـي كـل مـا سـلف تـدعيم **سـلطته** التـي هـي همـه الأول

والأخيـر، بمـا يسـميه: **الاعتقـال الوقـائي**. وبموجـب ذاك **المسـمى قانونا**، سجن نيريري ناكنجا القاضي المقيم بدارالسلام.

أمـا **القسـيس** فهـو نيافـة بنتـاليو راعـي الكنيسـة اللوثريـة فـي بوكوبـا، والـذي ارتكـب هـو الآخـر **جـريمتين لا تغتفـران** فـي نظـر نيريـري. ولا يعـرف هـو ولا أنـا علـي سـبيل اليقـين أيهمـا هـي **السـبب فـي اعتقالـه**. كـان مـن قبـل يتبـع **الكنيسـة الكاثوليكيـة**، التـي ينتمـي إليهـا نيريـري، ثـم تحـول إلـي **البروتسـتانتية اللوثريـة**. إلا أن هـذا التحـول تـم مـن أمـد بعيـد. ومـن الصـعب، بالتـالي، الجـزم بأنـه هـو السـبب فـي وضـعه علـي القائمـة السـوداء. بيـد أن ثمـة خيـوط تلمـح إلـي العكـس. فلقـد أشـار زبانيـة نيريـري المنـاظرين للبـوليس السـري النـازي، وهـم يسـتجوبون ذلـك القسـيس إلـي أنـه: "**خـائن للكنيسـة الأم التـي عمـد فيهـا**". أمـا **السـبب الثـاني** الأرجـح لاعتقالـه فهـو: **اكتشـاف أنـه كـان يراسـل أوسـكار كامبونـا العـدو الأكبـر لنيريـري، الموجـود فـي نفـي اختياري بالمملكة المتحدة.**

سـاد وفـاق حمـيم بيننـا وبـين المعتقلـين الجديـدين. وتشـاركنا معهمـا فـي زنزانـة واحـدة كبيـرة ملحـق بهـا دورة ميـاه، تتـوفر فيهـا إمكانيـة الخصوصـية، علـي نحـو غيـر مـألوف فـي السـجون التنزانيـة. والحـق أن ظـروف الحيـاة فـي سـجن بوكوبـا كانـت أفضـل بالمقارنـة ببقيـة السـجون. فلقـد كـان بوسـعنا مخالطـة المسـجونين الآخـرين، والعـيش فـي نفـس المجمـع، بحيـث لا نفصـل عـنهم إلا فـي الليـل. زد علـي ذلـك أن سـلطات سـجن بوكوبـا يحترمـون توصـيات الأطبـاء الـذين يـزورون نـزلاء السـجن، ويولونهـا اهتمامـا كبيـرا، علـي العكـس مـن أودينيو مدير سجن موانزا.

وبناء علي ذلك، كان يصرف لنا بيضة وقطعة جبن بوجبة الفطور يوميا لاستكمال معدل وزننا الطبيعي. وكانوا يقدمون لنا عادة أنواعا لذيذة من أسماك بحيرة فكتوريا القريبة، شبيهة بسمك الشعري التي كنا نأكلها في زنجبار. وكنا نزود علي الدوام بسباطة من الموز الطازج، مع إمدادنا بواحدة جديدة كلما فرغ ما لدينا. وعلي العكس من كل السجون الأخرى، لا توجد جدران خارجية محيطة بزنزانات السجن، بحيث أنه لو قدر أن خرق سجين جدار زنزانته، فإنه يصير خارج السجن. وبدا لي أنه بحكم وجود هذا السجن علي بعد خمسة وخمسون كيلومترا فقط من الحدود مع أوغندا، فإن الحرية باتت في متناول اليد أكثر من أي سجن آخر.

وبمجرد وصولي إلي هذا السجن سألت زميلي مولد مشنجاما عما إذا كان قد سبق له **التفكير في الهرب**. أجاب **بالنفي**، رغم وجوده بهذا السجن بشكل متواصل لمدة تربو علي **خمسة أعوام**. والواقع أنه باستثناء جسباري، ونزيل آخر أو نزيلين، لم تكن له صلة تذكر ببقية النزلاء. فلقد كان من النوعية التي تكتفي **بالتواصل مع نفسها**. فبوسعه أن يجلس متأملا ساعات في ممارسة اليوجا.

أما أنا فكنت علي النقيض من ذلك تماما، **منبسطا وودودا واجتماعيا، وقادرا علي تأسيس تواصل وصداقة في زمن لا يذكر**. وساعدتني تلك الخصال علي تحقيق أفضل الممكن في كل الظروف التي مرت بي. وفي نفس الوقت، فإنني **كنت أستكشف السبل التي يمكنني بها تحرير نفسي من السجن**. ورأيت أنه من **غير المستساغ أن أنتظر إلي أن يفكر أعدائي في إطلاق سراحي**. وأردت أن **أحرر نفسي**. ورسمت بالاستعانة بمرآة صورة

بارزة لي من العظام المهشمة، وكتبت تحتها مقولة لشكسبير: "**الجدران الحجرية لا تصنع سجنا، ولا القضبان الحديدية تصنع قفصا**".

وحينما تم إطلاق سراحي، في نهاية المطاف، أخذت سلطات السجن هذه الصورة، وصورا أخرى مماثلة تصور حياة السجن، بينها صورة لألفونسو، وأخرى لهنجو وكل منهما مصفد القدمين بالسلاسل. وقال مدير السجن أن تلك اللوحات تقدم صورة غير مقبولة لحياة السجن. وتعجبت قائلا: "**أليست هذه هي حقيقتها؟**

أطلقت السلطات سراح نيافة الراعي القسيس قبلنا. وبعد ذلك بشهور جرت محاولة **لخرق جدران زنزانتنا**. ولسوء الحظ، أن من حاول ذلك لم يكن متمرسا، فأحدث ضوضاء كبيرة أثناء محاولته خرق الجدار. فتنبه الحارس، وأبلغ رئيسه الرقيب المسؤول عن الحراسة بالقطاع، فأطلق ذلك **الرقيب، الذي كنا علي وئام معه، رصاصة تحذيرية في الهواء، ولاذ من كان سيحررنا بالفرار**.

ونقلونا في ذات الليلة إلي زنزانة أخرى بمبنى داخلي. وبعد أيام قليلة نقل كل منا إلي سجن آخر. أعادوني إلي سجن بوكوبا ثم إلي سجن دودوما. ولم أكن قريبا من الحرية مثلما كنت في بوكوبا حيث لم **يكن يفصل بيني وبينها غير جدار بسمك خمسة عشرة سنتيمترا**. ولكن مشيئة الله أبت تحقيق ذلك. وللمرة الخامسة باءت محاولتي الفرار من السجن بالفشل. **ومع ذلك لم أستسلم**.

ولم تعرف السلطات علي نحو يقيني من يحاولون إطلاق سراحنا. ومع ذلك، فإن السلطات ألقت القبض علي القس الراعي وابنه الذي كان في أجازة من دراساته في إحدى الجامعات الأمريكية.

واحتجزتهما سبعة أشهر، ثم أطلقت سراحهما دون التوصل إلي أي دليل حاسم. وتعرض المعلم عباس الذي كان يزور النزلاء المسلمين مرة كل أسبوع، لبعض المتاعب، لاشتباههم في تورطه في تلك المحاولات بشكل ما. ولكن السلطات لم تعتقله.

سابعا: انضمام بابو وعلي محفوظ[4] إليّ (في السجن، وليس في السياسة والدين)

بينما كنت صبيحة يوم في سجن موانزا بشكل مؤقت ضمن سلسلة ترحيلاتي بين السجون، نازلا في زنزانة المحكومين القديمة، أتاني **خبر اغتيال كارومي**. نعم جاء الحراس والإخوة المسجونون لتهنئتي، وهم جميعا يعتقدون، **أن نهاية اعتقالي قد حانت**. قالوا في فرح: **"لقد سقط السفاح"**. إلا أنني نبهتهم إلي أن الأمر يتوقف بدرجة كبيرة، علي نوعية من قتله. وكنت أعرف، علاوة علي ذلك، أن **نيريري**، وليس **كارومي**، هو الذي **يبقيني بالمعتقل**. ولم تتضح لي الصورة علي حقيقتها، إلا بعد وصولي إلي سجن دودوما، ووصول **بابو** و**علي محفوظ** إليه بعدي. وكان بابو وعلي محفوظ زعيمين للمجموعة اليسارية المسماة "**الرفاق**"[5]

---

[4] علي محفوظ محمد الوهيبي من أصول عمانية ومن أنصار بابو الشيوعيين. التحق بالحزب الشيوعي البريطاني في الفترة 1959-1961. أشرف في كوبا على تدريب الشباب الزنجباري علي حرب العصابات قبل الإستقلال وبعد غزو زنجبار في 1964 أصبح من قادة الجيش نقل ولاءه كاملا لكرومي وله دور كبير في المجازر والمآسي التي تلت الإنقلاب. اعتقل بعد مقتل سيده كرومي ثم عاش في موزمبيق بعد الإفراج عنه حتى موته. – محمد البرواني

[5] "الرفاق" هو اللقب الذي تسمى به أنصار حزب الأمة الذي تزعمه عبدالرحمن بابو وعلي سلطان عيسى. – محمد البرواني

فجأة، ونحن لا زلنا بالنهار، طلب مني الحارس دخول زنزانتي. سألت راشد توفيق مدير السجن عن السبب. رد بقوله: "**لأن بعض أصحابك قادمون. ولا نريد أن تقابلهم**". بعدها رأيت بابو يمر أمام زنزانتي، ويسجن في الزنزانة الواقعة علي يسارها. وكان عشرة مسجونين آخرون من إيرنجا موجودين بالخارج. سألتهم عن السجين الثاني. قالوا إنهم لا يعرفونه، ولكن يبدو أنه هندي. ثم عرفت أنه العقيد **علي محفوظ**. ورغم أن كل منا كان لا يستطيع أن يرى الآخر، فإنه كان بوسعنا أن نتحادث، لأن نافذتي الزنزانتين كانتا في ذات الإتجاه المطل علي الموضع المسموح لكل المحتجزين بقضاء النهار فيه عادة. سألت بابو: "**ماذا حدث؟**". "**تطوع حمود وحمادة للتضحية بنفسيهما**". سألته: "**وما الوضع الآن؟**". رد بقوله: "**تم إلقاء القبض علي كل بروانى وكل قمري**".

فلقد كان حمود البرواني حفيد خالي، بينما كان حماده زنجباري من أصل قمري. لم أستفسر منه عما إذا كان بابو وعلي محفوظ قد اعتقلا لكونهما براونة أم قمريين. فحقيقة الأمر أن القتلة من "**مجموعة الرفاق**"، الذين يتفاخرون بكونهم ماركسيين، ومن عناصرها القيادية بابو وعلي محفوظ. حقيقة أن بعض أقارب حمود، ومن بينهم شقيقي عبدالله وابن أختي محمد بدر ألقي القبض عليهم في البداية، ولكنهم سرعان ما أطلقوا سراحهم.

وفي ظهيرة ذلك اليوم نفسه، ساقوا **بابو** من زنزانته، وهو مكبل اليدين، وسلسلة أخرى حول وسطه طرفها بقبضة حارس، وتم ترحيله إلي سجن آخر. أما **علي محفوظ** فبقي معي بالسجن شهورا كثيرة. وسمحوا له، في صبيحة اليوم التالي، **بمخالطة كل**

من بالمبنى. وانهمك في التأكيد علي أنه **مقبوض عليه بطريق الخطأ**، وأنه سيطلق سراحه في القريب العاجل. فهو لا ناقة له ولا جمل بالمرة في عملية اغتيال كارومي. بل هو علي العكس موال لكارومي حتى النخاع ويعتبره بمثابة والده.

ثم حكى لنا دوره في **مطاردة أعداء كارومي والثورة واعتقالهم.** وحكى أفاعيله في هذا الصدد بارتياح بالغ، قائلا **أن ولاءه وتبعيته لنيريري لا تعرفان حدودا.** فكيف يوضع في خانة واحدة مع **بابو**، ذلك المغامر عديم المبادئ وغير الجدير بالثقة، والذي لا يثبت علي خط فكري واحد؟ أما هو، محفوظ، فمن كبار أنصار حزب الأفروشيرازي، وحزب الاتحاد الوطني الأفريقي التنجانيقي. ومن المؤكد أن ثمة خطأ ما في اتهامه، وهو علي يقين أن الأمور ستعود إلي نصابها الصحيح في القريب العاجل. وسيطلق سراحه، ويعاد إلي منصبه. وكان من الواضح أنه **مصاب بنوع من الهذيان.**

وبات جليا أن برأس علي محفوظ ما يشبه الدوار، وأنه يتصرف علي شاكلة المصدوم. فهو **هائج مائج، علي استعداد لأن يحكي لكل من لديه استعداد لأن يسمعه.** كان علي محفوظ حتى لحظة القبض عليه برتبة مقدم مؤهل للترقية، أو **عقيدا بكل معنى الكلمة، كما كان يحلو له أن يصف رتبته.** وأضفي عليه ذلك هالة خاصة لدى ضباط الصف الصغار بالسجن. إلا أنه بعد فترة يسيرة، لم يعد يمثل في نظرهم شيئا أكثر من كونه شخصا ثقيل الظل إلي حد مزعج. فلقد كانت قسوته علي ضحاياه مضرب المثل. ويحكي حراس السجن كيف **كوى أناسا** من قبيلة ماكوندي **بنار مستعرة** علي الحدود مع موزمبيق، ليستخرج منهم معلومات

عن حركة الجنود البرتغاليين. وذاق أبرياء زنجباريين صنوفا من التعذيب علي يديه، كما علمت بعد إطلاق سراحي. من هنا كانت سمعته سيئة في أوساط الحراس والنزلاء علي حد سواء. **فساديّته تفوق شجاعته المادية.**

وأود الإشارة إلي أنني تعمدت وصف شجاعته بـ **(المادية)**، لأنه لم يكن له نصيب يذكر من **الشجاعة الأخلاقية.** فهو لم يستطع تحمل السجن بالصبر. وانتابه خوف مرضي من أنه **سيسمم.** وكان هو وبابو متخوفين من **أن يتم ترحيلهما إلي زنجبار، ويعتقدان أنهما سيتعرضان للتصفية الجسدية** هناك، بالنظر لكونهما قد قتلا الكثيرين. كانت فرائصهما ترتعد من أشخاص مثل سيف بكاري، وسعيد بافوأي، وإبراهيم ماكونجو ونظراؤهم، ممن كانوا رفاقهم في الظلم من قبل، ولا يزالون في السلطة، وهم علي استعداد لفعل كل ما من شأنه الاحتفاظ بالسلطة.

وحكى لي علي محفوظ، كيف تورع الصينيون عن تلبية طلبه منهم عقاقير بوسعها أن تستأصل شأفة عناصر مناهضة للثورة موجودة رهن الاعتقال بالسجون دون ترك أي أثر لدي فحص الجثة بعد الوفاة. واستجاب المسؤولون بألمانيا الشرقية لهذا الطلب. وقضى ضابط الشرطة مزي مبابا نحبه بهذه الطريقة. واستبد خوف قاتل بعلي محفوظ من أن يكون مصيره هو ذات مصير ذلك الضابط وغيره من بين ضحايا حكومة زنجبار الثورية.

وعرفت فيما بعد حالات نزع فيها علي محفوظ أظافر أصابع قدمي ضحاياه، وعلقهم في سقف الزنزانة، أقدامهم إلي أعلي ورؤوسهم إلي أسفل، مع وضع فحم مشتعل يصب عليه فلفل

حار، تحت رؤسهم المنكسة. وفقد ناصر منصور، أحد الضحايا نظره نتيجة تلك المعاملة، وأفاد طبيب صيني بالمستشفي الحكومي بزنجبار بأنه لن يبصر مرة أخرى. إلا انه استرد بصره بمعجزة إلهية بعد حين. عذبوه بغمره في الماء ليلا ونهارا حتى صدره علي مدى عدة شهور، مما أصابه بشلل جزئي. بل ثمة شائعة تفيد أن علي محفوظ اعتقل والدته، ولكنها غير صحيحة.

أما الصحيح فهو أنه اعتقل **محمد سالم جينجا** خال زوجته. ولقي محمد سالم جينجا ووالد حمود حتفهما علي يد نظام الحكم الثوري الزنجباري. واغتال النقيب حمود، **كارومي**، للثأر لمقتل والده. وتعرض بعض "**الرفاق**" **للتصفية الجسدية، بنفس الطريقة التي صفوا بها من يسمونهم المناهضين للثورة.**

ولم أحاول إثارة خلافات مع علي محفوظ. فأيا كان الأمر، فإننا صرنا في **سفينة واحدة**. وبات لزاما على كلٍ منا أن يتحمل عيوب الآخر. ولكنني كنت في بعض الحالات أعجز عن تحمله، وأنفجر، كما حدث ذات مرة **يوم 12 يناير ذكرى الإطاحة بحكومتنا**. فلقد واصل من يوم قدومه ارتداء زيه العسكري السابق، بعد أن أزيلت منه الكتفية، والأزرار النحاسية. وفي تلك المناسبة، ارتدى زيه المكوي، وبدأ يغني أغانيه "**الثورية**". ويحكي بشماتة كيف نهبوا مخازن السلاح بثكنات الشرطة، وقتلوا كل من كان في طريقهم، بالمناجل، والسهام، والبنادق.

حاولت بكل ما لدي من طاقة ضبط النفس، ولكنني في النهاية لم أتمالك أن أصيح عليه قائلا: "لماذا تتعمد جرح مشاعرنا؟ إن لم تكن نادما علي قتل شعبك وتدمير بلدك، فإنني لا زلت أشعر بالألم حين يذكرني أحد بتلك المأساة. هل دورك في تلك المذابح

شئ يفتخر به؟ ألا تشعر بالعار؟ كان هذا كافيا لإسكاته. والحق أن كل الحضور – حراسا ونزلاء– فزعوا من بجاحته، التي كان من الممكن أن تكون كوميدية، لولا تعلقها بموقف مأسوي. باختصار كان الرجل مريضا.

ذات يوم زارنا **مسجل المحكمة**، بصحبة نائب مدير السجن. وطلب منا الاصطفاف. وكعادتي وقفت مع إخوة معتقلين، تصادف أن كانوا من قبيلة الهيهي من إيرنجا. أما علي محفوظ فوقف **أمامنا** جميعا بجسمه الضخم، وبطنه الناتئة من زيه العسكري السابق الذي لم يعد ملائما له. وقدمه نائب مدير السجن للمسجل علي أنه: "**المقدم محفوظ**". وبسرعة الطلقة، جاء التصحيح من علي محفوظ: "**العقيد، من فضلك**".

وبعد مغادرة الزائرين، وحينما أصبحنا بمفردنا، قلت له: "الإجابة الصحيحة، التي كان يجب عليك طرحها هي: **أنا مجرد سجينك**". تلك هي الطريقة المناسبة لتصحيح ما قاله. **فالغرور الذاتي ليس جزءا من ثقافتنا الزنجبارية**". ولكن كلامي هذا لم يؤثر فيه بقليل أو كثير. رد بقوله: "**هذه هي طريقة التعامل التي تنفع مع أمثال هؤلاء. أنا أعرفهم**". لم أشأ أن أجادله. فلعله يعرف بمرور الوقت، أنه بقدر محاولته التكلف في الحديث عن نفسه، بقدر تذكيره بأنه مجرد سجين.

وبعد تلك الواقعة بقليل، كتب علي محفوظ **التماسا مطولا للرئيس نيريري، يرجوه أن يطلق سراحه، وأطلعني علي مسودته.** اقترحت عليه **تعديلات معينة، ولكنه رفضها**. وجاء الإلتماس مفرطا في التأنق البلاغي، وفي المداهنة، وفي الخنوع. بينت له أنهم معشر الماركسيين، هم أصحاب شعار: "**التاريخ سينصفنا**".

فماذا سيقول التاريخ بشأن مثل هذا الإلتماس الذليل من عقيد؟ قلت له أنني ثمرة التعليم البريطاني. ولقد تدربنا علي أن نكتب في مثل هذه الحالات **المختصر المفيد**، ونذكر الحقائق، ونتركها تتحدث عن نفسها بنفسها. وعلي المرء أن يتذكر علي الدوام أن التماسه قد ينشر يوما ما، وعليه أن لا يقول في السر ما يتحرج من أن يذكر في العلن.

إلا أنه تشبث برأيه، وقدم خطابه إلي **مدير السجن للموافقة عليه وفق التعليمات، قبل أن ينسخه الموظفون علي الآلة الكاتبة، ويعيدونه إلي كاتبه للتوقيع عليه**. ومر وقت طويل للغاية دون أن يوافق راشد توفيق مدير السجن علي خطاب الإلتماس، إلي أن نفذ صبر علي محفوظ، وطلب بقوة مقابلته. وأخيرا سمحوا له بمقابلته.

أمسك راشد توفيق **مسودة الخطاب** في يده، ووجه حديثه إلي علي محفوظ قائلا: "**انظر إلي هذه**. إنك كتبت كلاما فارغا هنا وهنا، وأخذ وهو يتكلم ينتقل من فقرة إلي أخرى، إلي أن بلغ به السخط في النهاية، **حد تمزيق الخطاب إربا**، وإلقاء قصاصاته في سلة المهملات، قائلا: "**هذه رسالة سخيفة. ولو وافقت علي إرسالها، سأعتبر أحمق أنا الآخر. إخرجوه من هنا**". وأمر الحارس أن يعيد علي محفوظ إلي زنزانته. عاد وهو يغلي من الغضب، وكل جسده يرتعش، وهو يقول متوعدا: "**سيرى، سيرى** "قلت له: "**ماذا سيرى؟ هو السجان**، وأنت **مجرد سجين**. " كان هذا هو علي محفوظ. هو باختصارشخص مختل العقل. أليسوا كلهم شواذ مأفونون، أولئك الذين **يقتلون، ويغتصبون، ويعذبون، ويسجنون،**

ويُهجرون مواطنين أبرياء، ويُصادرون الممتلكات، من أجل إقامة مجتمع مساواة مزعوم؟

زار راشد توفيق زنزانة علي محفوظ، فوجده قد كتب علي جدرانها بخط جميل بالقلم الرصاص مقولات مأثورة عن كارل ماركس، ولينين، وماوتسي تونج، وفيدل كاسترو، ونيريري، وكارومي. ذهل توفيق، وصاح قائلا: "أزل هذا. ماذا دهاك أيها الرجل؟ هل أنت مخبول؟ تقتل رجلا، ثم تتظاهر بأنك تقتبس مقولاته؟" وهنا تولي علي محفوظ بنفسه تنظيف زنزانته من القذورات التي اختطها علي جدرانها، ظنا منه أنها ستشفع له لدي السلطات.

ثامنا: أبناء قبيلة الهيهي وغيرهم

لما أعادوني إلي سجن دودوما عام 1972 بعد فشل محاولة الفرار من سجن بوكوبا، رأيت **عشرة مزارعين** من قبيلة الهيهي من إسماني إيرنجا، من بينهم عبدالله موانيدي الذي أطلق الرصاص علي الدكتور كليرو مفوض إقليم ايرنجا، فأرداه قتيلا.

شعرت في أعماقي بتعاطف فطري متأصل تجاه أولئك المعتقلين. فهم مثلي، **صودرت مزارعهم علي يد طغاة**، خدمة لأحد صنوف ما يسمى: **الإشتراكية**. وعلاوة علي ذلك، فإن كبيرهم آدم سابي، كان زميل دراسة في ماكيريري، رغم أنه التحق بها بعد تخرجي فيها. وكان عم والدتي العظيم **روماليزا حليفا لجده مكواوا زعيم قبيلة الهيهي، في حربه ضد المستعمرين الألمان**. وحينما كنت في دودوما كان شيخ منطقة ايرنجا هو **حارث خلف**، أحد طلبة والدي وموضع رعايته، حيث تربى في بيتنا. ومن هنا كان هناك قاسم مشترك كبير يربطنا بهم بوصفنا جميعا **ضحايا قهر نيريري**.

وكان زراع الذرة في إيرنجا، قد باتوا قادرين علي توفير **حاجة تنزانيا منه، مع بقاء فائض يصدر إلي البلدان المجاورة**، في آن واحد. وبإنتاجهم صارت إيرنجا مدينة زاهرة. وهذا المشروع قد بدأ من الألف إلي الياء بالصدفة. وصف لي أحد الهيهي المحتجزين، أنه كان قد اعتاد علي الذهاب إلي غابة ايسماني لاصطياد الأفاعي للاستفادة بجلدها الثمين. وبينما كان يمضي بعض أيام في تلك الأدغال سقطت منه بعض **حبات الذرة** علي الأرض. **أدهشته سرعة نموها وحيويتها**. وفي الموسم التالي **وسع المساحة المزروعة بالذرة**. ولما لمس نجاح مشروعه، بنى بيتا، وجاء بأسرته للإقامة بتلك المنطقة.

ولما نظف منطقة واسعة من الأحراش يعجز عن زراعتها بمعزقة يدوية، أستأجر **محراثا آليا**. وانتهي به المطاف **بشراء محراث آلي، بقرض**. واستطاع سداد القرض من محصول ذات الموسم. وحذا الآخرون حذوه، إلي أن استصلحت منطقة أيسماني كلها، بمزارعين منهم من يمتلك **بضع أفدنة**، ومنهم من يمتلك **ألوف الأفدنة**. وهكذا بالجد والعرق والمبادرة، أصبح أناس بسطاء من قبيلة الهيهي **مزارعون أثرياء** يمتلكون محاريث آلية، وعربات نقل، ويمتلكون بيوتا ريفية دائمة، فضلا عن ممتلكات في مدينة إيرنجا ذاتها.

ثم **رصدتهم عين** حزب الاتحاد الوطني الأفريقي التنجانيقي الحسودة، وقررت عبر مفوضها الإقليمي أن تسلب ما حازه الآخرون بالكد والعرق، لكي يجعلوا العالم يرى ما فعلته اشتراكيتهم عبر ذلك الحزب. **صادروا المزارع، وحولوها إلي قرى اشتراكية**. وكانت زوجة أحد اولئك المعتقلين عضوا في إحدى تلك القرى

الاشتراكية. وبعد أن عملت لمدة عام كامل، استلمت نصيبها المتمثل في **سبعة عشر** شلنا تنزانيا، **وأربعة جالونات من الذرة**. وكانت مزرعة زوجها البالغ مساحتها سبعة أفدنة من بين المزارع المصادرة. وبنفس تلك الطريقة، توجهت النية إلي تقديم إنجازات زنجبار الماضية علي أنها من إنجازات فترة ما بعد الثورة. ذلك أن كلا من الحزب الإفروشيرازي، حزب الاتحاد الوطني الأفريقي التنجانيقي، عاجزان عن إنجاز شئ يذكر بجهدهما، ومن ثم فإنهما متيمان باجترار أمجاد أسلافهم.

ودخل معنا كريستيان أوبيرا **نائب رئيس مخابرات الرئيس الأوغندي السابق أويوتي**، السجن. أما التهمة التي اعتقل بسببها، فهي أنه نصح **بعدم غزو أوغندا عبر كاجيرا**، تأسيسا علي أن القطاع الغربي من أوغندا **غير موال بتاتا لأويوتي**. وبالتالي، فإن القوات التنزانية الغازية، ستمر في هذه الحالة، في **أرض معادية**. وعلي الرغم من استحالة القول بأن **عيدي أمين** يحظى بشعبية في تلك المنطقة، فإن **أويوتي** الذي أطاح بالكاباكا، وألغى كل النظم الملكية الخاصة بالقبائل الناطقة بلغات البانتو، **مكروه بدرجة أكبر**. ولم ترق هذه النصيحة الجوهرية **لأويوتي وراعيه نيريري**. وكان هذا **سببا كافيا لاعتقاله**.

وانضم إلي ركبنا في السجن لبعض الوقت، **اثنان** من المناضلين من أجل الحرية من جنوب إفريقيا، أحدهما من قبيلة **الزولو** ويدعى زواني، والآخر من قبيلة **الخوسا**، ويدعى مكوانازي. وبز زواني رفيقه في الثقافة، في مقابل تفوق رفيقه عليه في الصراحة، وفي حسن العشرة. وساد الوفاق بيننا فترة بقائنا معا في السجن. وتعلم كل منا الكثير من الآخر. وعلي الرغم من أنهما كانا

مسيحيين معمدين، فإنها لم يكن في قلبيهما ذرة إيمان. ومن هنا فإنهما تأثرا بالنذر القليل الذي عرفاه عن الإسلام نتيجة العيش معي، وقالا أنهما لم يكونا يعرفان أن هناك أحد غير هندي يدين بالإسلام. وكان اعتقادهما أن **الإسلام كالهندوسية ديانة قاصرة علي الآسيويين**. وقالا إنه إن دعي إلي الإسلام علي يد أناس سود في جنوب إفريقيا، فإن دعوتهم ستصادف قبولا واسعا، لأن **المسيحية فشلت في معالجة المشكلات التي تواجه السود.**

وتلقيت رسالة مماثلة من شاب من قبيلة الماساي، محبوس حبسا احتياطيا بتهمة **سرقة مواشي**. وكان هذا الشاب الذي درس حتى المستوى الثاني بالمدرسة الثانوية خارق الذكاء. علمته فترة انتظاره للمحاكمة، كيف يقرأ ويكتب الأبجدية العربية، كما شرعت في تعليمه اللغة العربية ودرست له، في الفترة التي انقضت حتى تمت تبرئته وإخلاء سبيله، كتابين في القراءة العربية. ورغم أنه لم يعتنق الإسلام رسميا، فإنه كان يميل إلي اعتناقه، ويقول أن قبيلة الماساي لو تعرفت علي حقيقة الإسلام لاعتنقه الكثيرون من أبنائها. وأضاف أن الإسلام ليس نقيضا صارخا لتقاليد الماساي علي العكس من المسيحية. ولا غرابة في ذلك. فالقرآن يصف الإسلام علي أنه دين الفطرة التي فطر الله الإنسانية عليها[6].

---

[6] يشير بذلك إلى قول الله تعالى:" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي **فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" الروم30 – المترجم.

الفصل الثاني والعشرون

العتق من المعتقل[1]

أولا: الإفراج وجولة محزنة في زنجبار وبيمبا

استدعيت يوم الثلاثين من إبريل 1974 إلي مكتب مدير سجن دودوما. أبلغني أنني علي وشك الترحيل إلي دارالسلام، ولكنه

---

[1] يضع المؤلف القارئ في هذا الفصل أمام إضاءة معرفية عميقة ومقنعة، لحقيقة أن القهر الذي جلبته أيدلوجيات سياسية مستوردة مثل الاشتراكية الماركسية، إلى مجتمعاتنا، لم يقف عند حد تعميق الصراع والطائفية، وانتهاك حقوق الإنسان، وفتح السجن على مصراعيه، وكأنه القبر، لاينجو منه أحد إلا إلى حين، وغرس الشك والريبة بين أبناء الوطن الواحد، وحتى بين أتباع الاتجاه الفكري الواحد، بل طال ضرره **الحيوان والزرع والحجر**. ويبين المؤلف أن السجانين أنفسهم ينقسمون إلى نوعين: **أناس ساديّين** يفاقمون الظلم الذي أوقفهم رؤساؤهم على إنزاله بالبشر، وهم بحمد الله قلة وإن كان شرّها مستطيرا، **وبين أناس** يجعلون أجسادهم مع الحاكم الظالم،، وروحهم وقلوبهم وعقولهم مع إخوانهم المعتقلين، ويسهمون بإنسانية رفيعة في التخفيف عنهم، وحفظ آدميتهم وغرس الأمل في نفوسهم. ويؤشر هذا على أهمية تنشئة من يعملون في **أماكن الحجر على الحرية هذه** على: القيم الدينية، وعلى نبذ الظلم، وجعل اليسر مع العسر، وتجنب جعل العسر عسرين.

ويسلط هذا الفصل أضواء باهرة على حقيقة أنه لم يكن هناك أي مقابل للقهر المادي والنفسي باسم السراب الاشتراكي،، ولو على مستوى هذه الحياة الدنيا. ولم يقف لهيبه عند **حد الرافضين له**، بل طال **المصابين به** أيضا، فقتل بعضهم بعضا، وسجن بعضهم بعضا.

ويطوف المؤلف بنا في الجولة التي أراد النظام الاشتراكي الحاكم الذي سجنه، وأبعده هو وأمثاله عن سدة الحكم، أن يبرهن له لدى إطلاق سراحه، على ما أحرزه من تقدم، **كاشفا خواء مبدأ المساواة الاشتراكي من أي مضمون إيجابي قيّميا كان أم ماديا**. وهو درس لم نشاهده في التجربة الزنجبارية وحدها، بل رأيناه في المنظومة الاشتراكية الأوربية السابقة برمتها، وفي كثير من تجارب التنمية في بلادنا الإسلامية – المترجم

أضاف: "لدي تعليمات بأن أستفسر منك عما إذا كنت تفضل الانتقال إلي العاصمة" كان ردي عليه: "أفضل البقاء هنا لأن درجة الحرارة، وكذا نسبة الرطوبة ليستا عاليتين، ولا يوجد بعوض. وأنا أكره البعوض". رد بقوله: "ولكنك هنا معرض لأن تنساك السلطات. وهناك ستكون قريب منها، ويزداد احتمال تفكيرهم في إطلاق سراحك".

قلت: ربما. **ولكن الله موجود في كل مكان، واعتمادي عليه وحده لا شريك له.** ومع ذلك فإنه من الأيسر في الحقيقة لأقاربي وأصدقائي أن يزورونني في دارالسلام بالمقارنة بزيارتهم لي هنا".

عندها تحدث المدير بابتسامة راضية قائلا: "الحقيقة أنك ستغادر إلي دارالسلام لإطلاق سراحك. "

وجاء الفرج علي لسان هذا المدير الذي كان مسؤولا عن سجن بوكوبا طيلة العامين اللذين قضيتهما بين جدرانه، ولم أر منه غير العطف والاحترام. وحتى حينما جرت محاولة لنقب جدار زنزانتي في سجن بوكوبا، لم نر منه أدنى تأنيب باللعنات البيروقراطية المعتادة، بل ظل يعاملنا باحترام إلي أن رحلنا إلي سجون أخرى.

وفي سجن دودوما الذي نقلت أنا وهو لاحقا إليه، جرت محاولة أخرى للهروب تشملني. فلقد حاك صديقي القديم تشيباكا وأحد إخوة موانجيسي خطة للهروب من السجن. كانا نزيلين في قسم آخر من السجن بصفتهما ضمن من ينفذون أحكاما صادرة بحقهم. أما أنا فكنت محبوسا بقسم يخضع لإجراءات أمنية مشددة. ورغم ذلك استطعنا أن نتواصل عبر **المسجونين القائمين**

بأعمال النظافة، الذين بوسعهم بحكم المهام المكلفين بها، أن يتحركوا بين كل الأقسام.

وجرى التفكير في الاستعانة بمدد خارجي يتكون من مجموعة صغيرة من الرجال المسلحين ذوي العزيمة الثابتة، في شن هجوم مباشر لإخضاع حارس القطاع. ولم أكن أعلم بتفصيلات تلك العملية. ولم أجد ضرورة للاستفسار عنها. كل **ماعرفته أن زميلاي سيتحملان المسؤولية الكاملة عن تحرير نفسيهما، وأنا معهم، حتى إخراجنا خارج حدود تنزانيا. وعندها، سأتحمل المسؤولية، وأبحث عن أي دولة عربية يمكن أن تمنحنا حق اللجوء السياسي.**

وليلعب الحظ العسر دوره، **انحرفت مذكرة** كان من المزمع توصيلها إليّ، ووصلت إلي يد **مدير السجن**. علي إثر ذلك نقل تشيباكا وموانجيسي إلي زنزانات العقاب والحبس الانفرادي. ولم تصدر عن ذلك المدير أية **بادرة** تشير إلي أنه علم بتورطي في تلك المحاولة، إلي أن هدأت الأمور تماما، ثم قال لي بشكل عابر: "**يا شيخ، حاول البعض تهريبك من السجن**". تظاهرت كما لو أن تلك هي أول مرة يترامى إلي مسامعي مثل هذا الكلام، وتساءلت: "**إلي أين كانوا سيأخذوني؟**" أجاب: "**لا أعلم، ربما إلي بلد عربي**" قلت: "**كيف كانوا سينقلونني؟**" أجاب: "**ربما بطائرة عمودية**". قلت: "**هؤلاء حشاشون قطعا**". وافقني قائلا: "**نعم حقا. لو كنا حمقى وصدقناهم، كنا تسببنا في متاعب جمة لأبرياء، لا ضرورة لها**".

ومما لاريب فيه أنه اشتبه في وجود علاقة لي بتلك المحاولة على الأقل، ولكنه كان **رجلا صالحا**، وأدى مهام عمله المرهق

مراعيا أن يسبب لي أدنى قدر ممكن من الضيق. والحق **أنني لم أتعرض من جانب كل العاملين بالسجون الستة التي سجنت بها لأي معاملة رديئة**. . وعموما كانت هذه **سادس** وآخر محاولة فاشلة للفرار من السجن.

وهاهو ذات المدير يبلغني بارتياح بالغ أنه قد تقرر أخيرا **إطلاق سراحي**. وحينما أراد من تقرر أن يرافقني إلى دارالسلام، أن يأخذ المبلغ الصغير الذي كان محفوظا بالأمانات في المكتب، قال مدير السجن: "**دعه يأخذ أمواله بنفسه. إنه الآن حر**". وهكذا، وبعد أكثر من عشر سنوات، صرت **مؤهلا بدرجة تكفي للتصرف في نقودي**. إنها مسألة بسيطة، ولكنها توضح كيف **يجرد السجن والاعتقال أناسا راشدين من آدميتهم**. فبحكم السجن والمعتقل، يسند **لحارس أمي أمر إدارة مالي، كما لو كنت طفلا**. ولا يؤتمن شخص راشد على التصرف في شلنات معدودات مملوكة له. والآن بلغت الرشد، وهو ما لم يحدث لي من قبل لدي ترحيلي من سجن إلى آخر.

وصلت إلى سجن كيكو بعد المغرب. وكان من المطلوب إثباتي في **سجل النزلاء**، تماما كما حدث يوم قدومي من زنجبار عام 1964. وسألني الحارس المسؤول عن السجل عما إذا كنت أريد **زنزانة منفردة، أم أفضل البقاء مع أصدقائي**. وكان هذا الخيار الذي طرح علي هذه المرة ميزة جديدة. وبهذا السؤال ذاته علمت أن هناك آخرون بجانبي، وجاء ردي باقتباس المثل السواحيلي القائل: "**لا يحب العزلة إلا مشعوذ**". وبناء عليه صدرت أوامره بحبسي في زنزانة **(محسن علي)**. كانت تلك مفاجأة أخرى. **هل**

والدي يمتلك زنزانة هنا؟ لم أسأل من هو محسن علي ، على اساس أنني سأكتشف الأمر بنفسي بعد برهة.

وجدت **محسن علي** شابا من البهرة[2]، **ودودا ولطيفا إلى أبعد الحدود، متدينا، شديد المواظبة على الصلاة**. إلا أن كل هذه الخصال الحميدة لم تحل دون اعتقاله بتهمة أنه "**مخرب اقتصادى**". فهو، مثله مثل شابين شيعيين من الإثناعشرية تركتهما في سجن دودوما، ومثل صديقي محمد خان في موانزا، ممن استطاعوا عبر العمل الجاد **تحقيق قدر من الرخاء الاقتصادي، يجدون أنفسهم محلا للقبض عليهم واعتقالهم، بمجرد أن يتقاعسوا يوما ما عن رشوة تلك الأيادي الكثيرة الممتدة في شبكة واسعة تطوقهم**. فشرط ألا يتعرض لهم أحد بسوء هو تمكنهم من إرضاء الجميع.

ومعروف أنه من الصعب أن ترضي الجميع على الدوام. فالمثل يقول: "**إرضاء الجميع، في كل الأحوال، من المحال**". ولهذا السبب جيء **بسمي والدي** إلى السجن. وعلى كل حال، فإنه كان يمثل النقيض التام لشخصية علي محفوظ. فهو شاب هادئ، ومتزن. وهو مثل الشابين الإثناعشريين اللذين كانا معي في سجن دودوما صاحب **شجاعة أخلاقية نابعة من إيمانه الديني**. وعاش محسن علي في زنزانته الصغيرة، كما لو كان في بيته، وتقاسمها برحابة صدر مع جمعة علاي ومولد مشنجاما اللذين وجدتهما معه، وانضممت إليهم. وكان لمحسن سرير، ألح علي أن أنام أنا عليه، ولكنني رفضت. وتقاسمت الأرض مع جمعة ومشنجاما.

---

[2] البهرة طائفة شيعية صغيرة ترتكز بالهند ويبلغ تعداد أتباعها المليونز – محمد البرواني

واكتشفت في صبيحة اليوم التالي، أن سجن كيكو مليء بمعتقلين آخرين، وبه عدد من **"الرفاق"** أتباع بابو، معتقلين من يوم اغتيال كارومي، فضلا عن عناصر من المناضلين من أجل الحرية الموزمبيقيين.

وفي الفاتح من مايو، نشرت صحيفة ستاندارد مقالة بصفحتها الأولى حول **نبأ الإفراج عنا نحن الثلاثة بلا قيد ولا شرط**، إلى جانب **صورنا**. إلا أنه لم يحدث شئ في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي له. وبدأ صبرنا ينفد. وأهاب بنا بعض إخواننا المعتقلين، وبعض حراس السجن، أن نقابل مدير السجن، ونحتج على استمرار احتجازنا، بينما نشر على العالم كله أننا قد تم إطلاق سراحنا في الفاتح من مايو. إلا إننا فضلنا الاحتفاظ برباطة الجأش، والتزام الصمت. ولم نرد أن نعرض قارب النجاة للخطر، ونحن قاب قوسين أو أدنى من البر.

وأخيرا، وفي صبيحة الخامس من مايو، دعينا إلى مكتب مدير السجن، حيث خضعنا **لتفتيش دقيق عن أي أسلحة هجومية بحوزتنا، حتى لو بمستوى موس حلاقة**. وكان ما يجري برمته غريبا. فما الداعي لكل هذه التصرفات الفجة؟ ثم نقلونا **بسيارة** إلى **جزء معزول من المطار**. وهنا جال بخاطري مصير إخواننا الوزراء: **أحمد عيدروس باعلوي وسالم كومبو وأباذر. فلقد تم ظاهريا إطلاق سراحهم في تنجانيقا، ثم أرسلوا إلى زنجبار، حيث سجنوا مرة أخرى لمدة عامين.**

وفي المطار، جاء رمضان نيامكا مدير السجن، وعمر محاجي، وزير الداخلية، ومفتش عام الشرطة. وقال لنا الوزير أننا قد أطلق سراحنا بأوامر من الرئيس بلا قيد ولاشرط. ومن المقرر **أن نقوم**

بزيارة إلى زنجبار وبيمبا لنرى بأنفسنا **"التقدم"** الذي تحقق في السنوات العشر الماضية، كما وعد الراحل كارومي. وأكد لنا الوزير أن مرافقته هو ومفتش عام الشرطة لنا، هو من باب الحرص علي سلامتنا، حيث أن الشؤون الداخلية صارت مسألة تخص الحكومة الاتحادية، كما أن المفتش العام هو رئيس قوات الشرطة في زنجبار وفي تنجانيقا معا. وعلمنا أنه من المقرر ان نذهب إلي **زنجبار**، ونعود مساء نفس اليوم. **وسنختار، بعد عودتنا من تلك الجولة، بحرية المكان الذي نحب أن نقيم فيه في زنجبار، أو تنجانيقا، أو حتى بالخارج وقتما نشاء.** فإطلاق سراحنا **غير مربوط بأي قيد على الإطلاق.**

وبينما كانت تلك الطائرة الحكومية الصغيرة ذات المحركين، تحلق على ارتفاع منخفض في سماء زنجبار التي أعرفها تماما معرفتي براحة يدي، أذهلتني **ندرة الأشجار** التي كنا نعتزم غرسها في السنوات العشر الماضية. فلا يوجد من **أشجار جوز الهند، أو القرنفل، أو المانجو، أو أشجار الحمضيات** غير ما كان موجودا قبل **عام 1964**. ذلك أنني خرجت من سماعي للراديو، ومن قراءتي لما تتباهى به الصحف بخصوص **المحاريث الآلية الصينية الكثيرة** التي تم جلبها إلى زنجبار، بانطباع فحواه أنه قد تمت **فلاحة كل شبر** في البلاد. إلا أنني أرى **بأم عيني المتخصصة**، من الجو الآن **ريفا أصابه الإهمال**. . والأحراش، وأشجار جوز الهند العتيقة قد **شحب** لونها، وبلغت من الارتفاع حدا لم تعد معه مثمرة. وأشجار **القرنفل** قد أصابها الهزال، وجفت، وماتت أطراف أغصانها.

وفي المطار، لم يكن هناك أحد في استقبالنا، ليس نحن ممن كنا مجرد مساجين أفرج عنهم، بل معالي وزير الداخلية ومفتش الشرطة التنزانية العام. وبعد قرابة عشر دقائق أو ربع ساعة رأينا **سيدة حافية**، تجر قدميها تسير إلينا. سألها الوزير: "**ألا تقدمون لنا شيئا، ولو حتى علبة عصير؟** وبعد أكثر من نصف ساعة جاء **إدنجتون كيساسي** قائد الشرطة **بعذر أقبح من الذنب**، حيث قال: "**معذرة. كنت في الكنيسة. فاليوم الأحد كما تعلمون**".

وهكذا ظهر أن أولئك المسؤولين، لم يكتسبوا بعد عشر سنوات من إدارة حكومة رديئة، أبسط مبادئ **المجاملة الاجتماعية**، ناهيك عن **قواعد البروتوكول الرسمية**. فها نحن الآن في وضعية ينتظر فيها وزير الداخلية، ومفتش عام الشرطة في المطار، ليستقبلهما **قائد الشرطة** الذي يأتي متأخرا بنحو ثلاثة أرباع الساعة. ألا يعرفون أن الوزير الاتحادي يجب أن يكون في استقباله على الأقل نظيره في زنجبار؟ ولو كان كيساسي **متدينا** إلى درجة أنه لا يستطيع التخلف مرة عن كنيسته، ألم يكن بوسعه أن **ينيب شخصا آخر** من بين مرؤوسيه لاستقبال رئيسه المباشر مفتش عام شرطة الاتحاد، الذي جاء مع رئيسهم جميعا: وزير الداخلية الاتحادى؟

وفور تقديم ما **اعتبره من وجهة نظره اعتذارا**، شرع كيساسي في إعطائنا صورة عامة عن: "**الإنجازات**" التي سنراها في التو بأم أعيننا. سنرى **الوحدات السكنية**، التي بنيت للشعب، **وفندق بواواني**، بمطعمه الأكبر من مطعم أي فندق آخر في شرق إفريقيا". ذاك الفندق الذي هو مفخرة الثورة وسنام إنجازاتها. "ولو سألتموني عن **التصميم المعماري لذلك الفندق**، أو أي مبنى آخر

نشيده، سأقول لكم: **لا يوجد شئ من هذا القبيل. فنحن لسنا بحاجة إلى تصميمات معمارية. نحن نشيد المباني بأنفسنا، وبأموالنا. وحتى لو انهارت، فلا بأس. سنبنيها من جديد**".

أمعنت النظر في ملامح وجهه، ظنا مني أنه ربما **يمزح**. وتبين لي أنه لم يكن يمزح، بل يتكلم **بجدية مطلقة**. وجاء الدور على الوزير ليتندر عليه. قال عمر محاجي بلغة شبه اعتذارية: "نحن في البر الإفريقي لا زلنا متمسكين **بالأفيون الاستعماري**، بأن يكون لكل مبنى **مخطط معماري، ومسح كمي، وإشراف مهندس مدني**، وما شابه ذلك، تماما كما كنا في عصر ما قبل الاستقلال"

لم يفهم كيساسي، أن الوزير يستهزئ. وواصل حديثه بفخر، قائلا: "تخلصنا من كل تلك **النفقات غير الضرورية**. وسترون **المدينة الحجرية القديمة**. البيوت **تتساقط من تلقاء نفسها**، الواحد تلو الآخر. ولا **نحتاج لهدمها**. وفي فترة وجيزة سيتم إعادة بناء المدينة بالكامل. وستندثر المدينة القديمة". وهكذا كان أولئك الأوغاد المخربون يفتخرون بما أحدثوه من خراب.

وبعد مغادرتنا المطار، رأينا مباني مازيزيني الحكومية التي بنيت قبل الثورة بسنوات معدودات. وجدناها بحالة يرثى لها. تلاشت حدائقها، وزحفت عليها الأدغال. تعجبت، إن كانت المدينة الحجرية القديمة مدانة لكونها بنيت على يد الإقطاعيين العرب المكروهين، فإن الذي بنى مباني ضاحية مازيزيني هم إحباؤهم الاستعماريون البريطانيون. فلماذا يتركونها تبلى على هذا النحو، بينما هي صالحة تماما للاستعمال؟ علمت لاحقا أنها مستعملة بالفعل، ويقطنها القادة الثوريون أنفسهم. كل ما في الأمر أنهم

عاجزين عن تقدير استحباب، ناهيك عن ضرورة، جعلها نظيفة ومرتبة.

وقطعت السيارة طريق ميتشنزاني العريض للغاية، المحاط **بوحدات سكنية ضخمة خالية من أي مسحة معمارية**، لنصل أخيرا، إلى مبنى **فندق بواواني** المناظر لها في الغرابة والتشوه، الخالي من أي معلم يخفف من رتابته غير مستنقع أشجار القرم الموحل. ثم إن بياض الجدران التي لا تحميها السقوف المائلة في جزيرتنا التي تتخبطها الرياح الموسمية، كان معناه شيئا واحدا، هو تحول تلك الجدران البيضاء إلى **لون رمادي كالح، يجعل المبنى أشبه بقلعة قديمة**، أو **سجن**، منه بفندق بني من عهد قريب.

وقابلنا مفاجأة أخرى حين استضافنا **ايدنجتون كيساسي** على كوب شاي وكعك في الفندق. **لم يسمح لسائق السيارة بالجلوس معنا علي المائدة. التهم كعكاته على مسافة منا**. كنت على وشك الإلحاح علي أن يجلس معنا، كأمر نعتبره طبيعيا، وتعودنا عليه طيلة حياتنا نحن **الإقطاعيون، الأرستوقراطيون، والرجعيون البرجوازيون**.

وها نحن الآن، مع أولئك الذين قلبوا حال البلد رأسا علي عقب، **بحجة إقامة المساواة، يميزون صراحة ودون حياء** ضد واحد من بني جلدتهم ولونهم وعقيدتهم السياسية، لمجرد كونهم يشغلون وظيفة متواضعة. ثم إننا رأينا تلك **السيدة** التي هي موظفة حكومية تستقبلنا في المطار، وهي **حافية القدمين**. لا تمتلك حتي الحذاء. ونحن هنا إزاء الرجل الذي قاد السيارة، من المطار إلى فندق بواواني، وهو مواطن، ينبذ في مكان قصي، من جانب ذات

القادة، الذين كان يجب أن يقدموا المثل، على الأقل أمامنا نحن الإقطاعيين المهزومين. هذه **هي مزرعة الحيوان لجورج أورويل، تُطبق علي الواقع**.

وكانت صدمة لزميلي ولي حينما كانت السيارة تطوف بنا في جولة في أرجاء المدينة، أن لاحظنا **ندرة من نعرفهم**، أو **نتذكرهم**. وما أن عبرنا نفق مبني المعهد الإسلامي سابقا، حتى رأينا أستاذي ابراهيم قاسم الذي درست الحساب على يديه بالمدرسة الابتدائية على دراجته، تبدو عليه أمارات الشيخوخة. ولم نلفت نظره. وبدا لنا المكان كله **غريبا وموحشا**. ورأيت في هذا كله **تجسيدا لكوابيس كانت تطاردني في السجن**. وبعد مشاهدة مصنع **أحذية** بني مؤخرا في متوني، اقتصرت زيارتنا له على مشاهدته من الخارج، وزيارة لمطعم مرهوبي على الشاطئ، المحاط بسلك شائك، لمنع المتطفلين من الدخول، طرنا إلى الجزيرة الخضراء: بيمبا.

وكنت قد تكون لدي انطباع مما سمعته بالراديو عن هذا المطعم، أنه مكان يمكن للمرء أن يستجم فيه على الأقل، ويدعو أصدقاءه على الطعام فيه، ويقضي به وقتا طيبا، محاطا بالخضرة وبيئة البحر الخلابة. وجاءت الحقيقة الواقعة **لتبدد ما دار بمخيلتي**. نعم. فلقد **قتل السلك الشائك الكئيب، والموائد اللزجة، والكراسي البلاستيكية الرخيصة كل أحلامي**. وهناك قابلت واحد من اثنين، إما موسى ميسره، أو خميس درويش. خانتني الذاكرة.

ويلزمني القول أن الاستقبال الشخصي الذي حظينا به بوصفنا **الأعداء السياسيين السابقين** من جانب **القادة الثوريين وغيرهم**، لاغبار عليه من وجهة نظر **المجاملة الشكلية**. فلم يكن ثمة ما

يؤشر على مشاعر عداء ولا كراهية، ولا سرور ولا سعادة. **كل شئ كان عديم الروح، شبيها بفعل الإنسان الآلي، خال من أية عواطف إنسانية من أي نوع كانت.** وتراءى لنا أن **الجميع باتوا منكسرين،** فقدوا مذاقهم وحيويتهم،، مثلما تفقد زجاجة مياه غازية مفتوحة من ليلة ماضية فورانها. ويبدو أن نشوة **الإمساك بزمام السلطة قد تبددت** بعد عشر سنوات عجاف، الباقي الوحيد بعدها هو **الاقتصاد المحتضر الكئيب.**

وطافت بنا السيارة، في جزيرة بيمبا، من مكواني في الجنوب، مرورا بتشاكيشاكي، وصولا إلى ويتي في الشمال. وجدنا الطريق بحالة ممتازة، إذ قد فرغت شركة أجنبية من تشييده من فترة وجيزة. إلا أن **مزارع بيمبا المعتنى بها، على ما ألفناه، اجتاحتها الأدغال.** وصارت **أشجار القرنفل** شبيهة **بالأشباح،** مصابة بمرض موت الأطراف، في مرحلته المتقدمة. وبدت **الطرق خالية من السيارات** ومن **الناس.** فقط رأينا بشكل عرضي، رجلا وامرأة طاعنين في السن، خائري القوى جالسين على باب بيتهما.

وبدت علامات الإصابة **بالملاريا، والدودة الشصية، أو اليرقان، مستشرية بين سكان كل من زنجبار وبيمبا.** والمستثنى الوحيد بالطبع هو **الأبقار السمان** في المراعي الغنية والواسعة، **والقادة السياسيون والحكوميون السمان،** الذين يرتعون في خيرات الممتلكات المصادرة. بل حتى هؤلاء لاحت عليهم معالم **التخمة والانتفاخ،** وباتت بطونهم على شفا الإنفجار.

وفي ويتي، أطلعونا على **إحدى البنايات المكونة من شقق للإسكان الشعبي.** واستدعوا أحد السكان، بينما كان محافظ تلك المقاطعة يقول لنا أن السكان لا يدفعون إيجارا.

هنا قاطعه الساكن، وقال: "لا، أنا أدفع ثلاثة وثلاثين شلنا شهريا"

رد المحافظ: "هذا مقابل استهلاك الكهرباء".

قاطعه الرجل للمرة الثانية، قائلا: "لا توجد كهرباء في شقتي". رد المحافظ: "لابد إذن أن تكون مقابل المياه".

مرة أخرى قال الرجل: "المياه غير موصلة لشقتي". "

رد المحافظ قائلا: "إمش، أنت لاتعرف أي شئ". "

واستدعوا شخصا آخر أجاب بالإيجاب على كل الأسئلة التي طرحت عليه، وفق مشيئة مضيفينا تماما.

ثانيا: عبود جومبي يرفض مقابلتنا

أخذونا بعد ذلك إلى ما جرت العادة أن يكون بيت محافظ الإقليم. تبين لنا أن عبود جومبي رئيس زنجبار وحاشيته موجودون فيه. ذهب الوزير عمر محاجي لمقابلته، بينما انتظرنا نحن بالخارج تحت شجرة مانجو وكأننا طالبي عطاء مساكين. وبعد مدة عاد ليقول لنا أن عبود يرى أنه حيث أننا قد تم الإفراج عنا **بأمر من الرئيس نيريري، فإنه من غير الملائم له بصفته نائب رئيس (الاتحاد التنزاني) أن يقابلنا، خشية أن يفسر ذلك على أنه يعني تعليق الإفراج عنا على أي شرط.** ولا يمكن لأحد غير عبود أن يفكر بمثل هذا المنطق. فمن الواضح أنه بصفته **انقلابيا، يفكر ورأسه إلى أدنى، ورجليه إلى أعلى، منكوسا على رأسه.**

لـم نـنـدهش كثيـرا لهـذا التصـرف. فكـل القـيم والأعـراف والتقاليـد انقلبـت رأسـا علـى عقـب فـي مرحلـة مـا بعـد الإنقـلاب. فمفهـوم الثـورة ذاتـه يعنـي باللغـة السـواحيلية حرفيـا: جعـل عاليهـا سـافلها. والواقـع المشـاهد أن كـل شـعب زنجبـار مـن القمـة إلـى القـاع بـات يبـدو وكأنـه يسـير علـى رأسـه، وقـدماه معلقتنـا فـي الهـواء. وزبـدة القـول، أننـي بـت علـى قناعـة بـأنني أكـون بمثابـة مـن يطلـب المسـتحيل، فيمـا لـو أردت أن أرى الأمـور بـالمنظور الـذي تعـودت علـى رؤيتهـا بـه. سـأبدوا آنـذاك وكـأنني غريـب مـن خـارج العصـر. سـأكون مثـل رجـل يرتـدي ملابسـه، يـدخل نـادي العـراة. والحكمـة القديمـة تقـول: "إغمـض عينيك حين تدخل بلد العميان".

قـال عمـر محـاجي أننـا لوكنـا نحـن أنفسـنا نريـد أن نقابـل الـرئيس، فإنـه لا مـانع لديـه. قلنـا أننـا **لا نريـد مقابلتـه**. عنـدها دعينـا إلـى مبنـى خـارجي لتنـاول الغـداء. وفوجئـت لـدي مـروري علـى المطـبخ أن **الطـاهي** هـو أحـد **كبـار الخـدم فـي قصـر السـلطان**. بـل كـان هـو **حاجـب السـلطان والسـلطانة**. ثـم كانـت عاقبـة أمـره خسـرا. فكـان هـو الذي **أرشد الرعاع أثناء الثورة لنهب ما في القصر أثناء الثورة**.

ومـمـا لا ريـب فيـه، أنـه كـان وهـو بصـدريته القرمزيـة، وغطـاء رأسـه فـي بهـو مقـابلات السـلطان الرسـمية، **أكثـر كرامـة**، منـه وهـو يرتـدي تلـك **الملابـس الرثـة، ويجلـس القرفصـاء علـى أرضـية المطـبخ، وحولـه أوانـي وقـدور طـبخ سـوداء فـي مطـبخ عبـود جـومبي**. فهـو لـم يكسـب مـن الخـدمات الجليلـة التـي قـدمها للـ " الثـورة" غيـر هبوطـه مـن **بـلاط السـلطان** إلـى **مطـبخ عبـود جـومبي**. حييتـه بـاحترام، دون أن أكشف عن مشاعري أو عن ما يجول بخاطري.

خيرونـا بـين الأرز بالبهـارات، أو المـوز الأخضـر بالسـمك. وكانـت مفاجـأة للجميـع أن ثلاثتنـا اخترنـا البـديل الأخيـر. فلقـد كـان الأرز فـي ذلـك الوقـت هـو الغـذاء المفضـل لـدي الزنجبـاريين. أمـا نحـن فقـد سـئمناه حيـث كـان هـو غـذاؤنا اليـومي علـى مـدى عشـر سـنوات بالسـجن. وكـان داوود محمـود، وخمـيس صـبور، مـن بـين القـادة الثـوريين الـذين حضـروا معنـا تلـك الوليمـة. وداوود محمـود هـذا واحـد مـن بـين تلاميـذ الشـيخ حـاجي محمـدي. وكـان هـو **المتسـبب مـرارا فـي القـبض المتكـرر علـى شـيخه وأسـتاذه، وإهانتـه**. أمـا الثـاني – خمـيس صـبور – الـذي كـان اسـمه فـي شـبابه متوموميكـوا، فهـو منحـدر مـن قبيلـة تنتمـي إلـى **البـر الإفريقـي**، ولكنـه تربـى فـي **بيـت خـالي الشـيخ خلفـان بـن سـالم**. وارتـبط خمـيس مـن وقـت مبكـر للغايـة بالجمعيـة الإفريقيـة، وصـار عضـوا نشـطا فـي تلـك الحركـة المعاديـة للمواطنـة الزنجباريـة. وكافـأوه علـى ذلـك بمنصـب محـافظ جزيـرة بيمبـا، فضـلا عـن بعـض الممتلكـات المصـادرة بعـد ثـورة 1964. ومـع ذلـك، فإنـه **خـتم حياتـه مزارعـا معـدما، يحمـل علـى رأسه سلة الموز والكاسافا في السوق**.

وفـي المسـاء أعادونـا إلـى **دارالسـلام**. حيـث أخـذنا أمتعتنـا القليلـة التـي خرجنـا بهـا مـن سـجن كيكـو. وذهـب مولـد مشـنجاما للإقامـة مؤقتـا مـع ابنـة أخيـه زوجـة الـدكتور أوكـي، بينمـا ذهبـت أنـا وجمعـة عـلاي إلـى بيـت **خلفـان أحمـد** ابـن شـقيقتي. الـذي كـان مقيمـا فـي ميكونجوني.

وفـي اليـوم التـالي، انتقلنـا معـا إلـى بيـت ابنـة أختـي **جميلـة بنـت بـدر**، وابنتهـا **فاطمـة محمـد حمـود** فـي مـاجوميني، حيـث قضـيت **خمسـة أشـهر فـي انتظـار اسـتخراج جـواز سـفر للـذهاب إلـى مصـر** للـم

شملي بزوجتي وأطفالي. وانتقل **جمعة علاي** في وقت لاحق، للإقامة مع أخيه الأصغر **أحمد علاي**، الذي كان موظفا بدائرة الجيولوجيا في دودوما.

وكنت على اتصال يومي **بسعيد عبود ماكندا**، الذي هو من أنصار الحزب الوطني المخلصين. ويذكر أن السلطات رحلت شقيقه **محمد عبود** بعد الثورة إلى جزر القمر. أما **سعيد** فظل في دارالسلام. واعتدنا أداء الصلاة معا في نفس المسجد، وعلى قضاء أمسياتنا معا. ومن حسن حظي في دارالسلام أنه كان بها **هلال سنان البرواني** أحد أقاربي، وحفيد روماليزا العظيم، الذي قدم لي خدمة متواصلة، بنقلي بسيارته كلما احتجت إلى ذلك.

وكان صديقي الحميم والمقرب **ماجد يحيي الكندي** الذي كان يرعاني أنا وإخواني حينما كنا بالسجن، قد انتقل إلى **عمان**، قبل إطلاق سراحي. ولولا ذلك لكان أول من يتلقاني بأحضانه لدى إطلاق سراحي. وغلبتني شجوني حينما جاء الشيخ **محمد سليمان اللمكي** وابن اخيه الشيخ **محمد بن ناصر اللمكي** ، لتهنئتي، في ذات الليلة التي وصلت فيها. فهما شيخان جليلان في مقام والدي، وقلبي مملوء باحترامهما. وكان من الأليق أن أذهب أنا إليهما، وهو ما كنت أعتزمه بحق.

أثرت في تلك البادرة بشدة، كما أسرتني تلك الدموع الممزوجة فيها الفرحة بالأسف، التي انهمرت من عيني صديق عمري **شعبان صالح الفارسي**. بكى ولم يتمالك نفسه، لما رأى ما صرت عليه من الشيخوخة والوهن. فلقد فقدت **عشرين كيلوجراما من وزني في سجون نيريري**. ولم تكن مقابلتي لصديقي وزميلي عيسى ناصر الإسماعيلي في دارالسلام، بأقل إثارة للشجون. وتلقيت بعد

وصولي إلى القاهرة وإقامتي بها، علي تعهد كتابي من عيسى لا رجعة فيه، على مواصلة النضال إلى أن تصير زنجبار مرة أخرى حرة وذات سيادة. وأقسم على أن الاشتراك في النضال، هو ضمانة عودته إلى زنجبار بعد تحريرها.

ثالثا: الهروب من تنزانيا

بعد اليأس التام من الحصول علي **جواز سفر**، رغم تأكيد الوزير عمر محاجي أنني سأحصل عليه، **خططت للهروب من تنزانيا**. وكنت تواقا لمغادرتها بطريقة قانونية عبر القنوات المناسبة، كي يظل بوسعي العودة والعيش هناك لمساعدة شعبي الذي أدين له بالكثير. وكنت **أنا ومولد مشنجاما متيمين بمشروع إنشاء قرية نموذجية** في منطقة بوكوبا، هدفها الرئيس **هو**: إعادة تأهيل من يتم إطلاق سراحهم من إخواننا المسجونين. وكنا نعتزم أن نجعلها قرية جاذبة باستقدام عناصر شابة من الرجال والنساء ذوي الشخصية القوية ممن نعرفهم من أبناء زنجبار والساحل.

وكنا ننوي للتمكن من تنفيذ هذا المشروع، أن نطلب مساعدة **منظمات دولية**، كنا على اتصال بها قبل الإطاحة بحكومتنا، **مثل: منظمة** العمل الدولية (أيليو)، و**منظمة** الأغذية والزراعة (فاو)، **ولجنة** أكسفورد للإنقاذ من المجاعة (أوكسفام)، و**منظمة** التربية والعلوم والثقافة التابعة للأمم المتحدة (يونسكو). وكنت أعتزم السفر أولا إلى **مصر** للحصول على موافقة زوجتي وأبنائي علي الانضمام إلي هذا المشروع الواعد. إلا أن القدر والسلطات التنزانية حالا دون تحقيقي لهذه الأمنية. فبعد شهرين من تكتيكات المراوغة، **قررت السلطات أن تبلغني صراحة أنني لن أستطيع الحصول على وثائق السفر اللازمة.**

حينئذ عقدت العزم على اتباع نصيحة صديقي القديم محمد عبيد، الذي نصحني فور إطلاق سراحي أن **أخرج من البلاد**، وإلا فسيكون مصيري مماثلا **لمصير إخواني** باعلوي وكومبو وأباذر، الذين حصلوا علي تأكيدات بالحرية الكاملة في العيش حيث يشاؤون، والذهاب إلي حيث يشاؤون، ثم فجأة ودون سابق إنذار **أعيد القبض عليهم وسجنهم لمدة عامين إضافيين.**

قمت بترتيبات مع **ثلاثة أفراد** كل على حدة. ورغم ثقتي المطلقة فيهم جميعا، فإنني **احتفظت بسري لنفسي**، ولم أكشف لأي منهم الترتيبات التي قمت بها مع الآخرين. وقررت أن أتبع أول من يأتيني قائلا: **آن أوان الرحيل**. وهؤلاء الثلاثة هم: تلميذ سابق من تلاميذي، و**الثاني** واحد من أنصار الحزب المخلصين، وشقيقه متزوج من إحدى بنات إخوتي. و**الثالث** ابن خال زوجتي. وثلاثتهم وطنيون غيورون، أعلم أن كل واحد منهم على **استعداد لأن يضحي بحياته في سبيل خلاصي**. وأنا أقر بعجزي التام عن رد جميلهم. وأجرهم عند الله تعالى، جزاهم الله تعالى هم وأسرهم، خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

وشاء الله تعالى أن كان السبق **لابن خال زوجتي**، الذي أبلغني ذات ليلة وقد قارب شهر رمضان علي الانتصاف، أن قد حان الأوان. لم أخبر أحدا باستثناء حفيدة أختي **فاطمة** محمد حمود. واقترحت عليها أن تقول خلال **الأيام الثلاثة** التالية لكل من يسأل عني، انني ذهبت إلى مدينة **ليندي** الجنوبية لزيارة عمي المقيم هناك. وحاكيت في ذلك الخدعة التي لجأ **النبي** صلى الله عليه وسلم إليها عند الهجرة من مكة إلى المدينة. فلقد سار عليه السلام في اتجاه الجنوب قبل أن يغير اتجاهه صوب الشمال إلى

المدينة التي هي وجهته الحقيقية. وكان سعيد عبود مكاندا حاضرا حين هممت بمغادرة ماجوميني، وتناولنا معا الإفطار. ونظر إلى بفضول واضح، يستشف منه أنه كان يعي أن ساعة الصفر قد حانت. وهو الذي سبق له أن حذرني، من الإفصاح لأحد، حتى له هو نفسه عن يوم مغادرتي.

نقلني شاب يدعى **محمد مبارك** لا يعرف شيئا عن خطتي بدراجته البخارية إلى المحطة لأستقل منها الأتوبيس، الذي أوصلني إلى المدينة، لأنتقل منها في عربة نقل إلى تانجا. واختفيت فيها حسب الترتيبات **يومين**، توطئة لعبور الحدود إلى كينيا. وكنا حسب الترتيبات أمام **ضرورة العبور بسرعة**. وهنا واجهتنا انعطافة مفاجئة لم أكن أدري كنهها على الجانب الكيني، تلقينا في ضوئها **توصية بالتخلي عن فكرة الهروب من أساسها.** إلا إنني كنت مصمما على الرحيل في ذات الليلة. وأنا معروف وسط عائلتي، بسمعة لا أستحقها، وهي أنني **لا أتزحزح عن رأي عقدت العزم عليه.** ورأيت أن إلغاء الخطة على نحو ما أوصانا به عيننا في كينيا، سيكون بمثابة كارثة. وصممت على السفر في ذات الليلة.

وكان سيل المكالمات التلفونية المحمومة بين الجانبين مشفرا. وفي النهاية ورغم كل العقبات، جاءت إشارة الموافقة، ونقلت إلى بيت ليس ببعيد معزول عن الحدود الكينية. ومن هناك نقلني مرافق على **دراجته** في المناطق التي يمكن قطعها بالدراجة، ولا يمكن السير فيها على القدمين. وحكيت تجربتي هذه في هذا الموقف في تقرير بعنوان: "**كنت سجين نيريري**" **وسأعيد** نشره هنا، لأختم به هذا الكتاب. ولن أستطيع ما حييت أن أوفي بالدين

الثقيل الذي في عنقي لمختلف تلك الحلقات من البشر الذين قدموا لي معونة حيوية إلى أن استطعت **نيل حريتي بعد طول انتظار**. وأنا على علم، أن مكافأتهم الكبرى على ما قدموه لي، هي رضاهم الذاتي عن تقديم الخير لإنسان في موقف عصيب.

الفصل الثالث والعشرون

كنت سجين نيريري[1]

صرت حرا بحق، بعد طول انتظار، بعد خمسة أشهر من إطلاق سراحي من الوجهة الفنية من المعتقل، وبعد قرابة إحد عشر عاما من الإطاحة الدموية بحكومتنا، والزج بي في غياهب السجون. شعرت فقط في الخامس من اكتوبر 1974 حين وصلت إلى مطار القاهرة، أنني إنسان حر، بكل ما للكلمة من مضامين[2].

---

[1] ما يلي هو نص تقرير كتبته **لمنظمة العفو الدولية بعد إطلاق سراحي من السجن**، وهروبي من تنزانيا، عام 1974، ونشره أصدقائي في دبي في **صورة كتيب محدود التداول**. ولما وصلت نسخة من هذا الكتيب إلى أستاذي الدكتور هولنجزويرث، أرسل إلى خطاب تهنئة، وصف فيه التقرير بأنه " **رائع** " واقترح على كتابة مؤلف مفصل تحت ذات العنوان. وأبلغني أيضا أنه كتب إلى **عبود جومبي**، الذي هو أحد طلابه القدامى، فور توليه الرئاسة في زنجبار، يناشده إطلاق سراحنا. ودفع الرد المراوغ والمثبط الذي تلقاه منه، أستاذي إلى القول في خطاب التهنئة:" **إنني أخجل من أن من بين طلبتى إنسان مثل عبود جومبي**". ومن ثم فإن هذه الذكريات بمثابة استجابة تأخرت كثيرا لمقترح أستاذي. ولم أشأ أن أنشر الدراسة الموسعة الحالية كلها تحت عنوان التقرير. وأرجو أن يغفر لي ذلك حيثما كان – المؤلف.

[2] يمثل هذا الفصل الخاتم **سدس** حجم الكتاب الذي بين أيدينا. أما من حيث **النوع** فهو **عصارة التجربة بمجملها، وجماع خيوطها**. يستهله المؤلف بلوحة فنية ناطقة **بمحورية الأسرة**، ومكانتها في قلب الإنسان الذي يحرم منها، وتعيش هي بهمه، ويعيش هو بهمها. وحده **الأمل** في لحظة يلم الله فيها شمله بصاحبته وبنيه هو البلسم الشافي والزاد القادر على قهر تسرب اليأس إلى نفسه في سجن طويل، هو كما قال بمثابة **يوم واحد متكرر**، لا يمكن حسابه بالأسابيع والشهور والسنين، ما دام معياره هو السجن بلا محاكمة، لأجل غير مسمى.

ويؤشر هذا الفصل على إصابة الكثير من **الأنظمة الحاكمة** في عالم ما بعد الاستعمار التقليدي **بداء العجز عن العفو**، والعيش في كنف **دائرة الشك الأعمى الخبيثة**. فحتى بعد قرار الإفراج غير المشروط، تعود السلطة إلى مصادرة الحق في الطمأنينة، وتمنع جواز السفر، وتجعل الحرية المتاحة قاصرة في أحسن أحوالها على **العيش في المنفي بصفة لاجئ**، بمنأي عن الوطن، وتقتل فرصة البناء، وإعادة إصلاح ذات البين. وهنا تتشوه المفاهيم، وتفقد مضامينها. **فإطلاق السراح لا يصير مرادفا للحرية**. وحتى **السجان** يرى من هول ما يشاهده في سجون أوجدها **المستكبرون للمستضعفين**، = مع أن كلاهما من أولاد آدم وحواء، أن **الشنق أهون من الإعتقال**. ومع جمع السلطات بيد شخص واحد، وتسميته **بالمعلم والحكيم**، وتعلية كلمته على كل **شرع وكل عرف وكل قانون**، يتكرس الإستبداد، وتنتفي حرية كل من يخضعون لحكمه، وتغدو القوانين والدساتير مجرد حبر على ورق.

ومن منطلق **العدل في القول** نرى المؤلف يؤكد على أن **زبانية السجن** ليسوا سواء. منهم **السّادي** المصرّ على التمادي في الغيّ، ما دام قادرا عليه، وعلى التفنّن في أساليب التنكيل بالبشر، محروسا في ذلك بالفساد، والتزييف، وانتفاء المحاسبة والشفافية، وهوان القوانين، في واقع الأنظمة المستبدة. ومنهم **صاحب الضمير الحي المغلوب مع ذلك على أمره**، والمؤدي لعمله بفتور المضطر غير المؤمن به.

ويعري المؤلف نفاق منظمات حقوق الإنسان، التي تعمل على **نحو مسيس، يداهن، ويتكلم بالهمس** في أحسن الأحوال حينما يتعلق الأمر **بانتهاك حقوق الإنسان العربي المسلم**، ويعلو أزيزها فيما لو مست **شعرة من إنسان غربي أبيض**. بل هي فوق ذلك تعاير حالة حقوق الإنسان بمعلومات من خارج دوائر السجون ذاتها، هي أقرب للزيف منها إلى حقيقة الواقع. ولا مانع عندها بمقتضى النفعية السياسية، أن **تجمّل الطاغية، وأن تغطي على عيوبه وتبدلها حسنات**.

ويفعل غزو الأيد لوجيات السياسية التي نبتت في تربة الغرب بكل صنوفها من الليبرالية إلى الإشتراكية، وصولا إلى الفاشية والنازية، وعبرت عن واقعه الصراعي، في **عقول فريق من النخب الحاكمة في عالمنا الإسلامي**، نرى الحكومات تغير أولوياتها، وتعجز عن قراءة الحدث على حقيقته، وتفتح بنفسها **أبواب إفلاسها السياسي والأخلاقي** معا.

وبغض النظر عن **النخبة المتغربة**، فإننا نجد عناصر من **البقية الصالحة من النخبة، تغاضب مجتمعاتها، وتهاجر إلى الخارج**. وبدل أن تتأمل في دروس تجربتها بكل أبعادها، وفي واقع أمتها، وتنقب في إمكاناتها البشرية والمادية الكامنة والمهدرة، وتركز على إصلاح بيتنا الداخلي، تسعى

وقبل عبوري حاجز الهجرة سمعت من يناديني باسمي. وكنت قد علمت أن صديقي الدكتور **عبده سلام**، وزير الصحة المصري السابق في الطريق ليكون في استقبالي. وماهي إلا دقائق حتى تعانقنا على الطريقة العربية الإفريقية التقليدية. واصطحبني إلى صالة كبار الزوار، حيث وجدت زوجتي وابني الأصغر، الذي بلغ حينها الثالثة عشرة. وفي التو وصلت شقيقتي الأكبر وثلاثة من بناتي. يالها من فرحة. ويالها من بهجة ونشوة وجدانية غامرة. هذه هي اللحظة التي عايشت سنوات من الحرمان من أجلها، وتحملتها بصبر جميل. **ويات الحلم الذي شد من أزري بالسجن حقيقة واقعة**. أصبحت مع أعز الناس على قلبي. بوسعي أن أراهم. . أن **أتحدث** معهم. . أن **استمع** إليهم. . بَل حتى أن **ألمسهم**. . **أشمهم**. . **أقبلهم وأتذوقهم بشفتاي**. . . . **وافرحتاه**. وها هي السعادة الغامرة المتمثلة في أنني **أفعل كل هذا**

لجذب ما تبقى من عناصر حاملة للهموم الحقيقية لأمتها، إلى **الغرب**، لتغرق هي الأخرى في حبائله وفي مشكلاته، بذريعة القيام بنشاط اقتصادي ودعوي، بينما **تعاني العناصر التي تصمد وترفض الإنشغال بغير هم أمتها المباشر، ومن على أرضها، من منطلق الوعي بأن فاقد الشئ لا يعطيه، وأن لب المعركة الحقيقية هو الاجتهاد من أجل استعادة ذاتنا الحضارية الأصيلة، أولا قبل التفكير في هداية الغير، من بيئة تعاملها بجفاء، وصفوة في الخارج تضن عليها حتى بمجرد مساندتها في نشر علمها ومعرفتها**، وفي إعداد العدة للشروع في **عملية تنشئة سياسية** حضارية جادة مؤسسة على صحيح الدين، تتخلص بها مجتمعاتنا من **الفراغ الروحي** الذي أصابها، ومن الأعراض السلبية المصاحبة له، حتى تستعيد أمتنا ريادتها الحضارية، وتقوم بدورها من جديد في وضع البشرية على مسار إنساني صحيح مغاير لذلك الذي وضعتها عليه الحضارة الغربية الصراعية باستعمارها القديم والجديد. وفي القلب من هذا كله يأتي المفتاح الذي ختم به المؤلف شهادته على العصر هذه، والمتضمن أمرين جوهريين: تبني أساسيات التفسير القرآني الجامع، المرسخ للوئام، والمزلزل لأسباب الصراع بين البشر، وكتابة **تاريخنا بأيدينا** – المترجم.

دون أي قيد، ودون أن يراقبني جواسيس نيريري، ويقدمون تقاريرهم، ودون كابوس إعادة القبض علي، والزج بي مرة أخرى بالسجن، دون محاكمة ولو هزلية. ولو كان النعيم لا يعني غير ذلك، لكان جديرا بأن يعمل المرء من أجله عصورا بلا كلل ولا ملل

أولا: الهروب إلى الحرية

سجلت الشريط التالي نصه، والطائرة تحلق بي في الطريق إلي القاهرة:

"بعد طول انتظار وبعد عشر سنوات وتسعة أشهر، صرت حرا من جديد. وأنا الآن على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية المصرية تطير بسرعة تسعمائة كيلومتر في الساعة، وعلى ارتفاع ثلاثين ألف قدم فوق مستوى مياه البحر، باتجاه القاهرة. وأشعر أنني **ولدت من جديد**. ولقد قمت بعملية هروب مثيرة من **عبودية تنزانيا**. غادرت دارالسلام بهدوء في التاسعة مساء آخر أيام سبتمبر. وتوجهت صوب الحدود الكينية.

ومكثت أياما معدودات متخفيا قرب الحدود. ووجدت في البيت الذي اختبأت به بعض **الكتب العربية الجيدة**. أمضيت وقتا مفيدا في تصفح مجلدات **إحياء علوم الدين** للإمام أبي حامد الغزالي. وكان الفصل الذي أثار اهتمامي بشدة، وأعتزم ترجمته إلى اللغة السواحيلية، هو **الفصل الذي يتحدث عن مخاطر التواطؤ مع الحكام المستبدين**.

وحينما صار الساحل آمنا، وتم اتخاذ الترتيبات اللازمة، هممت بالتسلل عبر خط الحدود إلى كينيا وإلى الحرية، وإذا بي أجد

نفسي محاطا **بحرس الحدود** المسلحين بالبنادق، تعززهم ميليشيات **محلية مسلحة بالمناجل**. ولحسن الحظ، نجح مرشدي في الهرب، وذهب ليعلم صديقي الذي كان ينتظرنا على بعد عدة أميال على الجانب الثاني من خط الحدود ومعه وسيلة النقل اللازمة.

ونجحت بعد ساعتين من المساومات في إقناع الحرس بأن **يخلوا سبيلي، ويتركوني حرا**. كانت تلك مهمة صعبة لمست فيها **وترا حساسا في ضمائرهم**، حينما قلت لهم أنني فار من ويلات تنزانيا. ولحسن الحظ لم يتعرفوا على هويتي الحقيقة. فقط صدقوا جوهر حجتي. قلت لهم أن **زوجتي وأولادي في مصر**، وأنا أخوض غمار كل هذه المخاطر من أجل لم الشمل معهم، بعد أن فشلت في الحصول على **جواز سفر** من الحكومة التنزانية. وقلت لهم أنني واحد من **ألوف المعتقلين دون محاكمة**. ولم يطلق سراحي إلا من أمد قريب، وثمة احتمال كبير لأن **يقبضوا علي مجددا** فيما لو بقيت في تنزانيا.

وقلت لهم أنهم لو أخذوني إلى الحجز، فمن المؤكد أنني **سأعدم** كما فعلت السلطات التنزانية من قبل بألوف المعتقلين. دفعوا بأنهم قطعوا على أنفسهم عهودا **بخدمة بلدهم، وأن يحرسوا حدودها**. قلت لهم أنني مخطئ من الناحية الفنية **بانتهاك القانون**. ولكنني لست مخطئا في محاولة **إنقاذ حياتي**. فالسيد **المسيح** فعل ذلك. حاول **الهرب**. وأولئك **الذين ساقوه إلى الصلب، كانوا هم أيضا يعتقدون أنهم يطبقون القانون. ولكنهم كانوا من المنظور الأخلاقي مجانبين للصواب**. وبالتالي، إذا سلموني إلى رؤسائهم،

فإنهم سيكونون بمثابة من يطبق **قانونا تنزانيا جائرا، وينتهك مبدأ الفضيلة الإنسانية.**

كان أحد الحراس مسلما. تعاطف معي من البداية. ورأى الحراس المسيحيون أن ثمة تشابه بين حالتي وحالة المسيح. أمروني أن أجلس القرفصاء، بينما ذهبوا هم للتشاور فيما بينهم، على مقربة مني. قالوا لي أنني إذا تحركت، فسيطلقون على الرصاص.

سولت لي نفسي أن أندفع عبر الحدود التي لم يكن بيني وبينها غير حوالي ثلاثين إلى أربعين مترا. ولكني فكرت في أنه لا يوجد أحد بالقرب من الحدود الكينية، وأخشى أن يطاردوني حتى داخل الأراضي الكينية، ويقتلوني بنيران أسلحتهم، ولن يكون أيا منا أعقل من الآخر. والمنطقة كلها منطقة أدغال.

ومن ثم التزمت الهدوء، وتضرعت إلى ربي سائلا رحمته. عادوا بعد فترة وجيزة، وسألوني هل سأستطيع معرفة طريقي عبر الحدود فيما لو تركوني؟ قلت لهم أنه ما دام **مرشدي** قد لاذ بالفرار، فإنني **انتظر منهم أن يدلوني على الطريق.** ساعدوني على العبور عبر مستنقع نباتات القرم إلى كينيا قرابة نصف ميل، إلى أن عثرنا على طريق **معبد وسط** الأحراش. ولما كان القمر حينها في ليلة تمامه، فإنني لم أجد صعوبة في السير باتجاه الشمال بعيدا عن تنزانيا، إلى ان وصلت إلى **فانجا**، أولى المدن الكينية على بعد أميال من الحدود. وكانت تلك المدينة الصغيرة تغط في النوم.

وقبل أن أصل المدينة رأيت **سيارة تسير** خلفي ببطء. مشيت في وسط الطريق. ولكنها قبل أن يقع ضوئها على، استدارت وغيرت مسارها. ومن ثم واصلت السير إلى أن دخلت المدينة. أبصرت

مسجدا قرب الشاطئ. وجدته مغلقا، وبساحته رجل نائم. ذهبت إلى البحر، وغسلت بعض الوحل الذي كان على قدماي ورجلاي، وتوضأت، وعدت فصليت صلاة الشكر في ساحة المسجد. ثم أيقظت الرجل النائم فيها، وسألته عما إذا كان من الممكن **أن أستأجر سيارة من المدينة لتنقلني إلى ممباسا** في تلك الليلة. أخبرني بأن أتوبيسا سيتحرك إلى ممباسا في الساعة الثالثة وكانت الساعة في المسجد تشير إلى الثانية بالضبط.

وكان حرس الحدود التنزانيين، قد أخذوا ساعة يدي، فضلا عن ثلاث مئة شلن كيني كانت معي، وقطعة قماش صوف تكفي لصنع بدلة. ورغم أن **ساعة اليد** تلك كانت لا تساوي أكثر من بضع جنيهات، فإنها كانت تذكارية، لكونها أهديت إلى من زميل معتقل، لقي حتفه رميا بالرصاص، بعد هروبه من السجن.

وفي معرض محاولتي تحديد موقف الأتوبيس، عدت أدراجي على ذات الطريق الذي دخلت منه المدينة، وعندها رأيت مرة أخري **كشافات سيارة** تسير ببطء صوب المدينة. وقررت في هذه المرة أن أستوقفها حتى لو كانت سيارة شرطة. فلقد أحسست بدرجة أكبر من الأمان في كينيا، حتى وإن كنت في البلاد بطريقة غير شرعية. وحين وقفت السيارة وجدت بها **صاحبي** يجوب الطريق جيئة وذهابا بالقرب من الحدود، على أمل أن يساعدني فيما لو نجحت في الهرب من حرس الحدود الذين وقعت في قبضتهم، رغم أن أماله قد تبددت تقريبا حين سمع صوت خمس طلقات من المكان الذي كان **ينتظر لنقلي منه بعربته.**

ووصلت بمساعدة تلك السيارة، وسيارة أخرى نقلتني إلى **فوي**، ثم أتوبيس عام، إلى نيروبي في نهاية المطاف، في **الرابعة والنصف**

عصر الثاني من اكتوبر 1974 بعد انتهاء الدوام بمكتب ممثل المفوض السامي لشؤون اللاجئين التابع للأمم المتحدة بنصف ساعة، الذي كنت أعتزم الإقامة فيه إلى أن أستخرج، المستندات القانونية اللازمة لمغادرة كينيا.

كان وضعي هنا دقيقا للغاية. فليس بوسعي أن أنزل في أحد الفنادق، حيث أنني لا أحمل **بطاقة هوية**، ولا **جواز سفر**. وفي كل الأحوال، فإنه من المخاطرة النزول في فندق، وأنا **مهاجر غير شرعي، ومطلوب من جانب السلطات التنزانية**. وفي محطة الأتوبيسات، حينما كنت أحاول الاتصال هاتفيا ببعض أصدقائي وأقاربي، **رأيت ضابط أمن تنزاني** كان معي حينما كنت في سجن دودوما. وعلى الرغم من أنني لم أعرف سبب سجنه، فإنني كنت أشعر دائما بعدم ارتياح في وجوده.

وها هو الآن أمامي حرا معافى. قال لي أنه في زيارة لنيروبي تستمر أسبوعا. وقلت له أنني وصلت للتو عبر موشي، وإنني سأعود إلى دارالسلام في غضون يوم أو يومين. وأدت مقابلتي لهذا الرجل إلي تثبيط همتي عن إجراء المزيد من المكالمات التليفونية. فكرت في الذهاب إلى **المسجد** الرئيس بنيروبي لصلاة المغرب. وهناك شعرت بأنني سأجد بالقطع من سيدلني على الوجهة التي أريد الذهاب إليها. ولكنني تأكدت قبل ذلك أن رجل الأمن لا يتتبعني.

ورأيت في المسجد، وبعد أداء الصلاة، شخصا أمامي يقرأ بالمصحف، يبدو مألوفا لي، ولكنني لم أستطع معرفته على وجه الدقة. انتظرت حتى يفرغ من تلاوته، على أمل أن يتعرف هو علي. **وهذا هو ماحدث**. كانت مفاجأة سارة له. وسألني عما إذا

كنت أريد الذهاب إلى قريبتي التي حاولت الاتصال تليفونيا بها. قلت له أنني جئت إلى المسجد للصلاة، ولأتلمس طريقي للوصول إليها. وكان هو الآخر من اقاربي، وبالأحرى: أحد أبناء خال زوجتي. قال لي أنه معزوم على العشاء مع نفس قريبتي التي أريد الذهاب إليها. وركبت معه سيارته، وذهبنا إليها معا".

وفي **ذات الليلة** جرى اتصال مع كل من مندوب الأمم المتحدة السامي لشؤون اللاجئين، والسفير المصري لدي كينيا. وفي صبيحة **اليوم الثاني** قمت بزيارتين قصيرتين لهما، ولمندوب اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وخرجت من تلك الزيارات **بوثيقة سفر من الصليب الأحمر**، و**تأشيرة** دخول مصرية، و**تذكرة** سفر على الخطوط الجوية المصرية مدفوعة من لجنة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين. وفي مطار نيروبي تم كل شئ بسلاسة، تماما كحالة ما كنت وزيرا. وتمحورت كل أنشطة رجال الأمن فيما يبدو حول هدف واحد هو حمايتي من كل مكروه وتيسير مغادرة مريحة لي.

تلك هي الكيفية التي صرت بها على متن هذه الطائرة التي تطير بسرعة مذهلة، **لتجمع شملي مجددا مع أسرتي**، التي فصلت عنها قرابة إحدى عشرة سنة. وعقدت العزم من الآن فصاعدا، وقد تحررت من أغلال العمل السياسي الوطني الضيق الأفق، على أن أكرس **بقية حياتي لتخفيف معاناة الإنسانية بأسرها**. فلقد استفدت من مساعدة منظمة العفو الدولية ومساندتها، منذ أن زجوا بي في السجن. وهي منظمة عظيمة تضم رجالا ونساء أوفياء كرسوا أنفسهم للسعي إلى استخدام كل الوسائل الشرعية المتاحة لتحرير المسجونين بسبب ضمائرهم. . . ولتحرير أولئك

الرجال الذين يعانون بسبب معتقداتهم السياسية أو الدينية. . . ولتحرير من يعانون بسبب عرقهم. . ولتحرير من يعانون بسبب رفضهم الركوع لإملاءات الطغاة.

وساعدتني **منظمة العفو الدولية** عامة، وعبر صديقي النرويجي **أرني هـ. كريستنسين** بصفة خاصة، بطرق شتى. وثابرت طيلة سنوات اعتقالي على تقديم عرائض إلى الحكومة التنزانية لصالحي. وساعدتني على الاحتفاظ بمعنوياتي عالية عبر فترة ابتلاء صعبة من حياتي، بما أرسله اعضاؤها من خطابات التعاطف، والنصيحة إلي، وإلى أسرتي. وكان السيد كريستنسن يعرف ذوقي في القراءة، وواظب على تزويدي بما أقرأه. ولولا منشوراتهم الكاشفة عن محنتنا، لغطى عنكبوت النسيان عليها مع تطاول الزمن. وتدفقت علي بطاقات وخطابات التعاطف من أنصار منظمة العفو الدولية المنتشرين في كل أرجاء العالم وأنا حبيس بين جدران السجن الأربعة.

وبذل أفراد وحكومات غاية ما بوسعهم لإخراجي أنا وإخواني من السجن. وقامت منظمات الزنجباريين الذين يعيشون بالمهجر في شتى مواضع منافيهم، بجهد جدير بكل الثناء. ولكن قضيتنا كانت صعبة، لأن لمعذبينا قلوبا من الحجر الصوان الصلد عديمة الإحساس. فلقد كانت إرادة الطغاة الذين يحكمون تنزانيا تتصرف باليقين إلى هلاكنا نحن الذين نعرف الحقيقة، ولكن بهدوء، إما داخل جدران السجن أو خارجه، ولكن داخل حدود تنزانيا. فمن بين كل إخواني الوزراء لا يوجد خارج تنزانيا غير وزير واحد، هو راشد حمادي، هرب بمركب بمجداف من بيمبا إلى البر الإفريقي، ومنه تم تهريبه متخفيا إلى الخارج. وأنا الثاني الذي أصبحت حرا.

ومات إبوني صالح في دارالسلام وهو محدد الإقامة بعد سنوات معدودات من إطلاق سراحه من السجن. ولقي أميرعلي عبدالرسول ذات المصير. ويعيش محمد شامتي رئيس وزرائنا، محنة مروعة بحي عشوائي فقير بمدينة دارالسلام. وهم **يقتلونه ببطء**، بعد أن رفضوا السماح له بالذهاب إلى أطفاله في كينيا، بعد التماسه ذلك من الحكومة التنزانية من أمد طويل دون جدوى.[3] أما الدكتور أحمد عيدروس باعلوي، وسالم كومبو، وأباذر، الذين أطلق سراحهم عام 1968 لمدة شهر، ثم أعيدوا إلى السجن، فهم رهن الإقامة الجبرية بزنجبار ويحظر عليهم السفر حتى إلى الجزء البري من تنزانيا.[4]

ولم أقرر الهروب من تنزانيا إلا بعد أن توصلت إلى يقين قاطع، بأن **نيريري والمجلس الثوري الزنجباري يريدان إهلاكي**. فهم لم يقتلونا يوم الإطاحة بحكومتنا خوفا من الرأي العام العالمي، وليس انطلاقا من الرحمة الإنسانية. فلقد كان نيريري يعلم أن **الاعتراف** بنظام الحكم الذي أقامه في زنجبار سيكون **أصعب**، فيما لو **قتل الوزراء في نفس اليوم الذي ذبحوا فيه ألوف الأبرياء.**

فاختار سياسة وحشية قوامها: "كف يده عنا إلى حين، والتصرف على شاكلة ما يفعل السادة الخبثاء. يستثيرون غضب مخدوميهم. ثم يبدون وكأنهم يوبخونهم. وعبر سنوات لاحقة يقتلونهم ببطء

---

[3] سمحت السلطات لمحمد شامتي بعد هروبي بمغادرة تنزانيا إلى كينيا. ومن كينيا انتقل إلى الإمارات العربية المتحدة، وفاضت روحه إلى بارئها بعد مرض لازمه أمدا طويلا – المؤلف

[4] مات أباذر بعد ذلك. أما باعلوي فيعيش بالمنفي في الإمارات العربية المتحدة – المؤلف.

وفي صمت وبيقين، دون أن يثير ذلك رد فعل يذكر. وتمرر جريمتهم على أنها وفاة طبيعية لساسة بلغوا من الكبر عتيا"[5]

ثانيا: مطلق السراح لكن ليس حرا

أكد لنا عمر محاجي وزير الداخلية يوم أن أطلقوا سراح ثلاثتنا **(جمعة علاي ومولد مشنجاما وأنا)**، في الخامس من مايو 1974، أن إطلاق سراحنا غير **مقيد بأي شرط**. وقال أننا أحرار في العيش حيثما نشاء داخل البلاد، وحتى في السفر إلى الخارج، والعودة وقتما نريد. إلا أن الوزير أضاف **تحذيرا، مفاده** أن: "**لا تحاولوا الفرار. فلا يحاول الخروج من البلاد متخفيا، إلا من هم ممنوعون من السفر. وأنتم غير ممنوعين من السفر**".

قلت له، أنني بقدر رغبتي في أن أموت في البلد الذي ولدت به، بقدر واجبي في أن ألم شملي بزوجتي وأبنائي، قبل أن أضع أية خطط لترتيب مستقبلي. وأسرتي موجودة بالقاهرة. وعدني أنهم سيصدرون جواز سفر لي، بمجرد أن توافق مصر على دخولي أراضيها. وبعد قدر كبير من التردد على جناحي الأمل بين الوزير ومدير عام الهجرة (أو معاونه) على مدى ما يربو على شهرين، صعقوني في نهاية المطاف في الثالث عشر من يوليو بتصريح مدير الهجرة لي بأنه تلقى **تعليمات** " **من السلطات العليا بعدم إصدار جواز سفر لي** ".

---

[5] انتهي الشريط المسجل.

وخلال شهري استخدام تكتيكات المماطلة، أكد لي الوزير مرارا، صراحة، أو ضمنا، ردا على ما ساورني من شكوك، أن الحكومة لا تستطيع التراجع عن وعدها لثلاثتنا، بأننا أحرار في أن نذهب إلى حيث نشاء. وقال بالحرف الواحد: "**كيف يمكن أن تحنث الحكومة بكلمتها بعد الإعلان الكامل لحقيقة أنكم قد تم إطلاق سراحكم بلا قيد ولاشرط، وانكم لا تخضعون لأية قيود؟**".

وخامرني يوم خرجت من سجن دودوما إحساس بالفرحة والغم في آن واحد. فرحت بخروجي من السجن بعد طول انتظار. وحزنت، بل تفطر قلبي، واغرورقت عيناي بالدموع، كوني أترك ورائي إخواني في كربات السجن، أولئك الذين صاروا من أعز أصدقائي بالمعتقل. ففي القسم الذي كنا محبوسين به "**أسيويان**" معتقلان بتهمة اختزان الفول، وأوغندي رفض التجنيد في جيش الرئيس أوبوتي، و**زنجباريان** لا يعرفان أبدا سببا لاعتقالهما، **ومواطن كونغولي**، كان هو السكرتير الثاني في سفارة الكونغو بدارالسلام، زج به في السجن على ما يبدو إرضاء للرئيس موبوتو، لأن والد ذلك السكرتير كان وزير الداخلية والعدل سابقا، ثم انشق على الرئيس موبوتو، وهرب من الكونغو. وخلفت ورائي بالسجن أيضا واحدا من المناضلين من أجل الحرية من **جنوب إفريقيا**، أفقده المعتقل صوابه. وكل هؤلاء في ريعة الشباب في العشرينيات، أو في أوائل الثلاثينيات من أعمارهم.

وثمة أخرون في الأقسام الأخرى من السجن. فهناك ثلاثون سجينا آخرون، أمضيت معهم الأيام الثلاثة الأخيرة لي بسجن كيكو للحبس الاحتياطي بدارالسلام. ومعظم هؤلاء من زنجبار وجنوب إفريقيا وقبيلة الكوندي من منطقة الحدود مع موزمبيق.

ووجوه هؤلاء الحزينة تطاردني. ويوجد مئات مثلهم في سجون تنزانيا الكثيرة، لا يعرف أحد عددها بالضبط. والبعض يقدرهم بالألوف. وفي بعض السجون يتقاسم أربعة نزلاء بطانية واحدة بالية. وقد يتقاسم أربعة حصيرة من الكتان يفترشونها على أرضية أسمنية، تقوم بالنسبة لهم، على خشونتها، مقام السرير والمراتب.

وحين دخل زميلي مولد مشنجاما سجن بوكوبا، لأول مرة، عام 1964، كان عدد نزلاء ذلك السجن قرابة **ستين نزيلا** في المعتاد. ولما لحقت به عام 1969 وجدنا عدد النزلاء قد ارتفع إلى **ثلاث مائة**، وحينما رحلنا منه عام 1971 كان عدد نزلاءه قد جاوز **الستمائة**، على الرغم من افتتاح سجن آخر على بعد أميال منه، استوعب الجزء الأكبر من المسجونين. هذا هو **التقدم** الذي سجلته تنزانيا، وهذا هو المؤشر على شعبية نظام الحكم القائم فيها. **المزيد من السجناء، والمزيد من المعتقلين.**

ثالثا: الشنق أهون من الاعتقال

من المؤكد أن الرق والاستعمار شرور أهون من الاعتقال دون محاكمة. ولكن قليلون هم أولئك الذين يدركون هذه الحقيقة. وإنه لكابوس، أن يعيش المرء في بلد يمكن فيه القبض التعسفي عليه وفق هوى شخص أوحد، ويزج به في غياهب السجن لأجل غير مسمى. **فمشهد الأفاعي وهي تختبئ في كل جحر لا يمثل كابوسا لمن سبق أن لدغته فحسب، بل هو الجحيم بعينه.**

أما والحال كذلك، فإن السجون المنتشرة في كل أرجاء تنزانيا تعج بمئات المعتقلين، **لا يعرف الكثيرون منهم التهمة القانونية التي**

بسببها هو داخل السجن، لأن أحدا منهم لا توجه له **تهمة**. ويعتري مثل هؤلاء المعتقلين إحساس غامر بإمكانية **نسيانهم**.

و يفقد المعتقل بمجرد أن يصير داخل السجن، أي مؤشر مهما كانت ضبابيته بخصوص الموعد الذي سيتم إطلاق سراحه فيه. فهو **بالسجن طالما كان ذلك يسعد الرئيس**. ولقد وصف بيرنارد بلامود شعور المعتقل بأسلوب بليغ في كتابه الموسوم "**المتواطئ**" بقوله:

"وهكذا **تمر الأيام**. كل **يوم يمر وحيدا**. يزحف كشئ يحتضر. وفي بعض الأحيان، يفكر، فيري أن **ثلاثة أيام مرت**. ولكن **الثالث هو والأول سواء**. إذن هو في **اليوم الأول** لأنه لا يستطيع أن يجد فرقا بين أن ير كل يوم من الأيام الثلاثة قائما بمفرده، أو أن يجمعها معا. يوم واحد يزحف ببطء وينقضي، ليتلوه يوم واحد آخر يسير علي دربه.

إذن لا يكون أبدا أمام أيام ثلاثة، ولا خمسة، ولا سبعة. فلا وجود لما يسمى الأسبوع، طالما أنه لا نهاية لزمانه في السجن. ولو أنه كان يقضي حكما بعشرين سنة مع الأشغال الشاقة في سيبريا، لكان للإسبوع معنى ما.

أما بالنسبة لرجل قد يمكث بالسجن أياما غير معدودات، فلا يوجد إلا يوم أول يتلوه يوم أول آخر الثالث هو الأول. والرابع هو الأول. والواحد والسبعين هو الأول. والأول هو الثلاثة ألوف. ".

ومن المصادفات ذات الدلالة أنني يوم قرأت هذا الاقتباس في الخامس من اكتوبر 1972، كنت في اليوم رقم **3187** في المعتقل، وبعد عامين كاملين، وفي ذات اليوم الخامس من اكتوبر 1974 وصلت **حرا إلي مصر**. وقال لي أوباديو روجامبوا مدير السجون التنزانية ذات يوم أنه يفضل **أن يشنق على أن يعتقل**. وهو يعي ويعني ما يقول. **فالاعتقال يعني السجن مدى الحياة**. والإحساس بأن أسرتك تعاني قدر ما تعانيه، أو أكثر منك، يقهرك، ويقتلك، قبل الآوان.

أعرف **خمسة** ممن كانوا معي من المعتقلين في فترة أو في أخرى، ماتو خلال شهور من الزج بهم في السجون، **وأربعة** فرقوا بينهم وبين زوجاتهم، واضطروا إلى تطليقهن.

ومكمن الشر في **تخويل** أي إنسان، حتى لو كان **ملاكا، سلطة معاقبة الآخرين دون محاكمة عادلة، أن ذاك يستبطن إبطال كل ما بالبلاد من قوانين**. ففي عام 1976، كان الرئيس نيريري يخطب في مؤتمر شعبي في مسقط رأسه، وسأله أحد الشيوخ عن ماهية **الاستقلال** الذي حصلوا عليه، ما دامت مواشيهم لا تزال تسرق؟ وبغضبة مهيبة، طلب نيريري تحديد كل لصوص المواشي من بين ذلك الجمع المحتشد.

ومن هناك، ودون اللجوء إلى المحاكم، بل دون حتى استشارة وزارءه حول الإجراء الذي ينوي اتخاذه بحق المتهمين (أو التثبت من المدعي العام حول مدى قانونية تصرفه) أمر نيريري **بالقبض** على كل من تم تحديدهم في ذلك الاجتماع العام، **واعتقالهم** إلى أجل غير مسمى.

وهكذا انطلقت حملة **اعتقالات جماعية** لـ" لصوص المواشي" في طول البلاد وعرضها على نحو عشوائي. وتراوح عدد من اعتقلوا في تلك الحملة بين **الستة آلاف والعشرة آلاف**. واستقبل سجن دودوما الذي كنت نزيله آنذاك وحده قرابة **ألف وخمسمائة** منهم. وكانت الاعتقالات واسعة النطاق، إلى حد عجز الشرطة عن مجاراته، واحتياجها لمساعدة **كل من**: جمعية **شباب** حزب الاتحاد الوطني الأفريقي التنجانيقي، وحراس السجون. وظلت **عربات نقل محملة برعاة يعلوهم الهزال في أسمال بالية، بل عراة، تصل إلى السجن على مدى عدة أسابيع، إلى أن اختنق السجن برائحة كريهة لا يتحملها البشر.**

وامتلأت زنزانات السجن عن آخرها بالنزلاء. وحشر **ثمانية وعشرون** محتجزا، بزنزانة في قسمنا مخصصة أصلا **لسجين أو لثلاثة سجناء**، مع أن مساحتها بما فيها دورة المياه خمسة أمتار طولا، وأربعة أمتار عرضا. وتمرد نظام الصرف الصحي الخاص بالسجن. وفاحت رائحة العرق، والغائط، في المكان كله.

وبعد شهر أو شهرين، تفشى مرض غامض. وأصيب **معتقل** باستسقاء، وفارق الحياة خلال يوم أو يومين. وكل يوم كان **ثلاثة أو أربعة** من ضحايا تلك السلطوية القاسية القلب يقضون نحبهم. ولم تبذل أية محاولة لتزويد هذا الحشد الغفير من **المعتقلين ببطانية أو بحصير**. وبعد ثمانية أشهر في هذه الظروف الرهيبة، شرعوا في إطلاق سراحهم، دون أن **يعرضوهم على محكمة**، أو حتى **يستجوبوهم**. ومن هنا كانوا **مندهشين** حين تم الإفراج عنهم بذات درجة اندهاشهم حين تم إلقاء القبض عليهم. وما دام المرء

لم يعرف الذنب الذي اقترفه، فإنه لن يعرف ما الذي يجب عليه أن يتجنبه حينما يطلق سراحه.

فالغاية من الاعتقال في تنزانيا **سر خفي**. فهل الهدف هو العقاب؟ أم الإصلاح؟ أم هما معا؟ أم لا هذا ولا ذاك؟ يبدو في نظري أن معياره هو مجرد **ترويع الشعب** حتى يشعر على الدوام أن على رأس الدولة **سلطة مستبدة، لا تحتمل أي تدخل، ولا أي نقد، ناهيك عن أن تراود أحد، فكرة تداول السلطة**. وكان زملائي من أبناء قبيلة الجوجو المساكين ينشدون مرثيات في زنزاناتهم بالليل، يلعنون فيها الطاغية، ويدعون الله أن يهبهم من يقدم لهم الدواء الذي يخلصهم من ذلك الرجل. وكان معظمهم قد تم الإفراج عنه، حينما أخلوا سبيلي. وبقي قليلون منهم، قال مدير السجن لهم أن **الرئيس قال أنه لن يفرج عنهم، إلا حينما يصيروا على درجة من الشيخوخة والضعف، لا يستطيعون معها الجري وراء مواشي الآخرين.**

وفي عام 1968، شن نيريري حملة **اعتقالات جماعية جديدة**، موجهة هذه المرة ضد " **المجرمين المخضرمين**"، ومن وصفوا بأنهم على درجة من المهارة لا يمكن معها إدانتهم أمام **محكمة**. . وبتعبير آخر، فإن المتهمين الذين لا تتوفر أدلة كافية لإقناع محكمة قانونية بإدانتهم، يظل من الممكن تعقبهم، ومعاقبتهم، بواسطة البصيرة الغامضة للرأس الأعلى الجاثم في معزله عن الشعب في قصر الرئاسة.

تلك هي ذروة المغالاة في **تقدير الذات**، وهذه هي وهدة **الانحطاط بالنظام القانوني** في البلاد **وبسلطة القضاء والنظام** برمته. وطالت هذه الحملة المئات. وكان قدر هؤلاء هو السجن إلى أن

يصيروا "**عاجزين عن السرقة**". وشملت تلك الاعتقالات الشاملة أناسا من كل الصنوف. وكان من بين ضحاياها **معارضون سياسيون**، رأت السلطات أنه من غير مقتضي الحكمة، رفع مكانتهم بحبسهم بصفة معتقلين سياسيين. وامتدت أيضا إلى **أناس اشتبهت السلطات في كونهم** يمارسون أنشطة إجرامية، لمجرد أنهم باتوا على درجة من الثراء، أو من النفوذ، تفوق تلك التي يريدها لهم قادة الحزب، أو كبار المسؤولين بالحكومة. كما اكتوى بها **من تاقت عين قائد ما، إلى الاستحواذ على مشاريع أعمالهم، أو على زوجاتهم**. وطالت أخيرا أناسا **ينتمون إلى عرق أو قبيلة أو دين لا يروق لأولئك القادة.**

ثم أن قانون **الاعتقال الوقائي** أداة مناسبة بيد الرئيس يدوس بها **بحذاء غليظ حتى على أحكام المحاكم**. ويطبق هذا القانون وفق هوى الرئيس. وأمامنا قضية **كاسيلا بانتو**. اتهم كاسيلا بالتحريض على **عنف تسبب في حالة وفاة**. ولما لم يجد القاضي دليلا على **صحة التهمة، أخلى سبيله**. ولكن الرئيس لم يعجبه كلامه اللاذع، فقرر **اعتقال كاسيلا والقاضي**، وأمر قاض آخر بإحالته إلى المحكمة العليا. وعند نظر القضية أخلى جورجيس كبير القضاة سبيل كاسيلا بانتو. ومرة أخرى أعاد نيريري كاسيلا بانتو إلى المعتقل، فلبث فيه عامين. وفهم كبير القضاة الذي هو من جزر الهند الغربية الرسالة، واستقال. وغادر البلاد بعد تلك الواقعة.

ووجهت تهمة الخيانة **للصحفي الشاب جراي ماتاكا**، إلى جانب **آخرين:** بيبي تيتي، واثنين من عائلة تشيباكا. وصدرت أحكام بالسجن المؤبد على بيبي تيتي، والتشيباكيين. وبعد شهور

معدودات أطلق سراح بيبي تيتي **بقرار رئاسي. وأخلت محكمة استئناف شرق إفريقيا سبيل جراي ماتاكا. وعلى الفور صدر أمر رئاسي باعتقاله إلى أجل غير مسمى.** وهو لدي كتابة هذ المذكرات في **العام الرابع بالمعتقل.** وبالنظر لتأييد محكمة الاستئناف المذكورة بعض طلبات الاستئناف الخاصة بقضية الخيانة هذه، فإن نيريري وقع مرسوما يقضي **باستثناء القضايا السياسية التنزانية من ولاية تلك المحكمة.**

رابعا: أربع سنوات بالسجن دون أمر اعتقال رئاسي

في عام 1968، زار القاضي **سيتون**، أحد قضاة المحكمة العليا، سجن موانزا. سألته: **هل لنا أي وضع قانوني؟** قال له مدير السجن أن **وزراء زنجبار السابقين، لم تأت معهم أية مستندات.** وعد القاضي بالنظر في الأمر. وبعد ذلك بأربعة أعوام حينما كنت بسجن بوكوبا، أشار السكرتير التنفيذي للمفوض الإقليمي علي بالتقدم بالتماس للرئيس طالبا إطلاق سراحي. قلت له أنه طالما أنني لا **أعرف السبب** في وجودي بالسجن، فإنني لا **يتوفر لدي أساس** يذكر يمكن أن أبني التماسي عليه.

رد قائلا: "من المؤكد أن أمر الاعتقال قرئ عليك حينما اعتقلت".

قلت له أنه لا يوجد **قرار اعتقال خاص بي**، على حد علمي. قال مدير السجن: **لا. يوجد أمر اعتقال**، وقرأ أمرا يزعم أنه جاء من الرئيس، وأنه مصاغ بعبارات قانونية ورسمية. وفحوى ذلك الأمر أنه لما كان الرئيس مقتنعا بكذا وكذا، مسميا كل أعضاء وزارة محمد شامتي، كانوا يتصرفون بطريقة تضر **بأمن الدولة**، فإنه **أمر باعتقالنا**، وحينما سألته عن **تاريخ صدور** ذلك الأمر

المزعوم، تبين أنه موقع في **عام 1968**، بعد تاريخ التقائي بالقاضي سيتون في سجن موانزا.

ومعروف أنه قد أطيح بحكومتنا واعتقلنا عام 1964. وحتى على فرض أن هناك **ثورة** في زنجبار، وأن أعمالا غير قانونية قد حدثت هناك، فإن اعتقالنا من قبل **الرئيس نيريري في البر الإفريقي حيث ينفرد بلا منازع بالأمر والنهي، من منتصف عام 1964 حتى 1968 تاريخ التوقيع على قرار الاعتقال، يظل غير قانوني حتى بموجب قوانين تنزانيا الجائرة.**

فعلى مدى **أربعة أعوام** قبل توقيعه على أمر الاعتقال كنا في معتقله. فهل من الممكن أن يكون أحد منا قد تصرف **خلال تلك الفترة** على نحو يخل **بأمن الدولة؟** ولنفترض أن تلك الإشارة تخص الفترة السابقة على القبض علينا واعتقالنا، فإننا كنا وزراء منتخبين وفق قوانين البلاد والدستور المعمول بهما آنئذ في زنجبار. **فهل يمكن أن نكون قد تصرفنا على النحو الموصوف بالأمر الموقع من نيريري ؟** وأيا كان الأمر فإن اعتبار الـ" **دولة**" المشار إليها **تنزانيا** لا يستقيم، لأنها **لم تكن موجودة لحظة إلقاء القبض علينا من الأساس.**

إن اليأس يصيبنا حين نجد أنفسنا إزاء رئيس دولة يفترض فيه **أن يقيم ميزان العدالة**، ينحط إلى **مستوى تلك الألاعيب والأكاذيب الرخيصة.**

وكتبت التماسا للرئيس متسلحا بتلك **الحقائق الجلية**، مصاغ بالطبع بلغة مناسبة ومهذبة. ولكن نيريري لم يرد. بل لم يصدر مجرد ما يفيد تلقيه أيّ من زهاء **عشر رسائل أرسلتها إليه وأنا**

داخل السجن، وبعد خروجي منه. ويبدو أنه يعتبر المجاملة العادية بالرد على المراسلات من مخلفات الاستعمار في تنزانيا.

وفي يوم عيد رأس السنة الميلادية عام 1971، أطلق المزارع **عبد الله سعيد ماميندي** الرصاص على المفوض الإقليمي الدكتور كليرو فأرداه قتيلا. كان ذلك المزارع واحدا من بين من **صودرت مزارعهم** بالقوة لإنشاء ما يسمى **بالقرى الاشتراكية الجماعية.** وكان طغيان ذاك المفوض وسوء سمعته، مضرب المثل. واشتكى ضحاياه من استبداده، وأبلغوا **قادة الحزب** بأفاعيله بهم، فنصحوهم **بإبلاغ الشرطة**، فأبلغوها. وأحاط أبوبكر ماميندي مأمور الشرطة في المنطقة، رؤساءه في دارالسلام **بالأنشطة الاستفزازية** التي يرتكبها ذلك المفوض الإقليمي، كما أبلغهم بتعوده على **السكر**، ووقوعه في بالوعة مجاري، واعتدي المتسكعون عليه جنسيا.

وبعد اغتياله، زج بأربعين من المزارعين الذين قدموا شكاوى ضده إلى الشرطة، **وبمأمور الشرطة** نفسه الذي كان يحقق في حادث الاغتيال، **في المعتقل**، إلى أن أدين **عبد الله سعيد ماميندي**، وصدر ضده حكم **بالإعدام**. وحتى قبل النظر في القضية، لم تدن كل وسائل الإعلام الجماهيرية التابعة للحزب، ماميندي وحده، بل أدانت كل المزارعين واصفة إياهم بـ " **الرأسماليين المستغلين، والرجعيين، والخونة**". وخرجت مظاهرات ترعاها الحكومة لإدانتهم. وهكذا، أدين ماميندي على يد وكلاء الحكومة، قبل أن يمثل أمام المحكمة. ووضعت السلطات كل الشهود المحتملين الذين **قد تؤدي شهادتهم حتى لمجرد تأسيس ظرف مخفف لفعلته، رهن الاعتقال**، إلى ما بعد البت في القضية.

ومن الواضح أن هذه الخطوة قيست أيضا بمعيار غرس الرعب في قلوب كل من قد **يفكر في تقديم دليل يفيد في الدفاع عن المتهم**. وبهذه الطريقة، تفقد العدالة عفافها في بلدان مثل تنزانيا حينما يسود قانون الاعتقال، ويتمتع رجل واحد بسلطة مطلقة. وكان معي في سجن دودوما **اثنا عشر شخصا** من ايرنجا من بينهم ماميندي نفسه. وأمضى أبوبكر مأمور الشرطة يومين معنا قبل ترحيلهم له إلي سجن آخر.

وفي حين نشر الكثير عن **التعذيب** الذي يتعرض له **المسجونون في جزيرتي زنجبار وبيمبا**، فإن شيئا لم ينشر من الوجهة العملية عما يحدث في **البر التنزاني**، حيث تسود **معاملة غير إنسانية للمعتقلين**،. ولكن بالنظر لغياب الديموقراطية وحق التعبير بوصفه واحدا من حقوق الإنسان الأساسية، فإن حوادث التعذيب والوحشية لا يبلغ بها من يتعرضون لها، خوفا من العواقب.

رأيت مساجين في سجن موانزا، حين كان أودنيو هو المدير المسؤول، **منع عنهم الطعام والماء أربعة أيام**، وهم ينقلون إلى المشتشفي بين الحياة والموت، وهم أقرب للموت، مع **تقارير** تزعم أنهم **مضربون عن الطعام**. واعتدت على سماع انتهاكات مماثلة في دودوما. سمعت عن جريمة قتل في موقف لم أكن أستطيع فيه أن أرى، لوجود جدار يفصل قسمنا عن زنازين العقاب.

وكان المجرم في سجن دودوما ضابط كبير، ملقب بـ " **الوجه الحديدي**" لأنه كان مشهورا بأن قلبه كالحجر أو أشد قسوة. ولما استرخى المدير الأعلى المسؤول نتيجة سمو منصبه، وحضوره ما لا يحصى عدده من الاجتماعات والمناسبات والحفلات السياسية، فإنه ترك كل أمور الإدارة الداخلية في يد مساعده وذاك الضابط

الكبير، من الوجهة العملية. وكلاهما معا جعلا الحياة في السجن جحيما لا يطاق.

وتوقفت **الاجتماعات الدورية** التي كانت تعقد كل يوم سبت، ليستمع فيها الضابط المسؤول لشكاوي نزلاء السجن. وزالت الزيارة **الشهرية الروتينية** التي كان يقوم بها **قضاة** للسجن. ولا بد أن أضيف هنا أن هذا التدهور في المعايير لم يكن من خصوصيات سجن دودوما. فلقد رأيته في موانزا كذلك. وكان الوضع أفضل في سجن بوكوبا حين غادرته، بالرغم أنه ينبغي القول بأن القادة السياسيين من أمثال المفوضين الإقليميين والوزراء كانوا يتحاشون بوضوح النظر في دخائل مجريات الحال في السجون.

أما بالنسبة **للرئيس ونائبه**، فلا أظن أن أحدا منهما زار سجنا في **البر التنزاني**، ناهيك عن أن يكون أحدا منهما قد تحادث مع من ألقياهما في غياهب السجون من رجال ونساء. وتفاقم الوضع في سجن دودوما على يد المسمى" الوجه الحديدى" صاحب القلب الحجري الذي لا تعرف الرحمة طريقا إليه، ومساعد مدير السجن المدمن للمخدرات. وقرر أحد السجناء الإنتقام من صاحب الوجه الحديدي. ونجح ذلك السجين بشكل ما في حيازة **سكين**، وحاول طعنه بها. ولكن صاحب الوجه الحديدي سقط لحسن حظه على نحو صارت معه رأسه بعيدة عن ذاك السجين، الذي تعثر بدوره في القيد الحديدي الذي في رجله، فسقط هو الآخر. ولم يتمكن بالتالي أن يطول إلا رجلي ذلك الضابط، اللتين ظل يمزقهما بسكينه، إلي أن تغلب عليه الحرس، وانتزعوا السكين من يده.

ضربوه **بالهراوات** حتى **استسلم**. وضعوا **القيد** في يديه، وأمروا حارسا بأن **يطلق النار علي رجليه**. وبعد كل هذا الترويع، ألقوه

وطلقة في **رجله** في زنزانة العقاب. وبعد فترة وجيزة جاء **مساعد المدير، وزاده عذابا فوق العذاب**. وكنا نسمع الصراخ من قسم زنزانات العقاب، ونرى **الحارس** الذي **على برج المراقبة يدير وجهه** من هول ما يرى، وهو يقول: "إنهم يقتلون الرجل". ثم رموه مرة أخرى، في تلك الزنزانة سيئة التهوية، وفجروا **قنبلة مسيلة** للدموع فيها. **ومات ذاك السجين في نفس الليلة.**

وصبيحة اليوم التالي، جمعت سلطات السجن كل المسجونين في **الساحة الرئيسة للسجن**، وأحضرت **الجثة** وطرحوها أمامهم عارية تماما. وأخذ مساعد المدير **ينخس الجثة بعصا في يده**، وهو يقول: "**قف وقل لزملائك إلى أي حد بلغت بك الشجاعة، وماذا كانت عاقبتها؟**" ثم وجه حديثه إلى المساجين قائلا أن **مصيرا مماثلا ينتظر كل من يسئ التصرف.**

ثم أعيد كل **المسجونين إلى زنزاناتهم**، التي كانت قد ألقى بها **قنابل مسيلة للدموع**". والهدف من ذلك هو تيسير مهمة انتزاع "**اعترافات**" منهم. وسرعان ما حصلوا على عدد من الاعترافات والإتهامات. إلا أن عملية التعذيب استمرت **عدة أسابيع**. وأنقصت الوجبات الغذائية حتى بالنسبة لنا نحن **المعتقلين**. وكنا جميعا نعتقد أن حادثة القتل هذه، ستستدعي على الأقل **فتح تحقيق في الحادث ومحاكمة مرتكبيه.**

وقال حراس السجن أنهم سيبلغون **الشرطة** بحقيقة ماحدث، حينما **يفتح التحقيق**. ولكن شيئا من **ذلك لم يحدث**. فقط سمعنا عبر الراديو عن **إشارة عابرة جبانة من أحد أعضاء البرلمان، بأن هناك ضباط ساديين، يعذبون المسجونين حتى الموت**. والإجراء الوحيد الذي اتخذ هو مجرد **إجراء إداري** بنقل كل الضباط الكبار

إلى سجون أخرى. وأغلق الملف. ففي بلد يوجد فيه **قانون الاعتقال** لا يوجد صوت غير صوت **السيد**. وما السلطة القضائية إلا أداة منحازة لتأبيد السلطة، وتحويلها إلى سلطة دائمة.

خامسا: ليسوا جميعا ساديّين

لا أود أن أترك انطباعا، بعد كل ما سلف لي تقريره، بأن **كل**، أو حتى **أغلبية ضباط السجون** في تنزانيا **ساديون**، قساة القلوب، لا على الإطلاق. فالحقيقة أن **الوزراء السابقين لقوا رفقا ومعاملة إنسانية من كثير من الضباط، يحمدون عليها**. بل إن بعضهم كان يلوي عنق اللوائح إلى حد كسرها، ليصنع لنا معروفا. وصحيح، بالمقابل، أنه كانت **بسجل المعاملة وصمات سوداء، يندى لها الجبين، أخذت نصيبي منها**. فبينما كنا لا نزال في زنجبار، دون سبب معروف، عرفنا أنهم انتقوا **خمسة** منا الوزراء، وأبقونا في عزلة تامة بحبس انفرادي أربعة عشر يوما. كل واحد منا في زنزانة مغلقة عليه ليلا ونهارا، ولا جليس ولا أنيس. والزنزانات مظلمة، عدا ما يتخلل إليها من فتحة التجسس من الممر.

كنا في شهر رمضان، شهر الصيام، وكنا نتناول فطورنا وسحورنا باللمس، وبكميات بالغة الضآلة. ولا نستطيع رؤية ما نأكله. وزاد الدلو النتن الوضع مرارة. كنت بالنهار أتضرع إلى الله أن يأتي الليل **لينام الذباب**. وكنت بالليل أتضرع إلى الله أن يأتي النهار، **ليخلد البعوض إلى الراحة**. وفي اليوم الرابع عشر أتى **كارومي**، وصدرت لنا الأوامر بأن ننضم إلى إخواننا في مستشفى السجن. يومها قال لنا كارومي أن المدعين العموميين لحكومات شرق

إفريقيا سيجتمعون في نيروبي، للنظر في إحالتنا إلى محكمة لمحاكمتنا. ومن الواضح أنهم **لم يجدوا شيئا في حكومتنا يمكنهم التذرع به لتوجيه أية تهمة إلينا**.

ثم فصلونا ذات يوم، مرة أخرى. اختصوني في هذه المرة، **أنا وجمعة علاي** بإرسالنا إلى زنزانتين من تلك المخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام. وسحبت منا الأسرة التي كانوا قد أمدونا بها من البداية بأوامر من سعيد واشوتو، أحد أعضاء المجلس الثوري، حين زار السجن. وحكم علي، في سجن دودوما بقضاء أسبوعين في زنزانة العقاب لكتابتي خطاب لجودفري بينيسا الذي هو زميل دراسة سابق بالجامعة، وكان يشغل ساعتها منصب المدعي العام الأوغندي، أرجوه أن يعفو عن زميل سجين كان محكوما عليه بتنفيذ حكم صادر ضده في أوغندا بعد انتهاء محكوميته في تنزانيا. واعترضت السلطات سبيل تلك الرسالة، وصادرتها.

إلا أن العقوبة في هذه المرة كانت **لينة بالنسبة لي**، حيث سمحوا لي ببطانية ومرتبة، وأعطوني ربع وجبتي من الأرز وبعض الخضروات مرة كل يوم. ولم يكونوا يعطوننا أي طعام في الصباح ولا في المساء. وفي عام **1971**، وبعد محاولة فاشلة لخرق جدار السجن لتحريرنا، نقلونا من سجن بوكوبا إلى سجن موانزا، حيث احتفظوا **بثلاثة** منا لمدة شهر في زنزانات المحكومين بالإعدام، بنفس الترتيبات المطبقة عليهم، بدرجة أو بأخرى. **وكانت تلك الخبرة صعبة**.

وفيما عدا ما سلف، فإن **أوضاع حياتنا في السجن كانت طبيعية ويمكن احتمالها**. إلا أن ذلك لا ينسحب على بقية نزلاء السجون، خاصة أولئك الذين كان من حظهم العاثر أن بقوا في زنجبار. ثم

إن أي سوء معاملة يتركز في **النظام** ذاته – وليس في طبيعة الأفراد الشريرة – أعني في ذلك النظام الخاص **بالاحتفاظ بالبشر في السجن دون محاكمة، للاشتباه في نواياهم بلا بينة، أو بسبب جبن طاغية يخشى علي الدوام من رد فعل ما اقترفت يداه من شرور.**

وعرفت في السجن أيضا لحظات من **الرضا الروحي العميق.** فالمرء يشعر بالخير الحقيقي، حينما يوفق في **إقناع سجين** بالعزوف عن نية الانتحار، أو حينما ينجح في **وضع ترتيبات** مع أصدقاء صالحين بالخارج لتقديم دفاع قانوني من الطراز الأول، لمجموعة من الشباب حكم عليهم ظلما بالإعدام، وأن يسمع بعد ذلك، أن ذلك الحكم قد نقض. أو حينما **يكتب عريضة** استئناف لمحكوم، وتلغي محكمة الاستئناف حكم المحكمة الابتدائية، أو **حينما** يعلم شابا يافعا القراءة والكتابة، فيصير قارئا كاتبا، ويستطيع أن يوسع معارفه بمزيد من القراءات، أو **حينما يستطيع** أن يقود فردا من متاهات التشوش الروحي، إلى الصراط المستقيم، أو **حينما** يهدي قميصا زائدا لديه، لآخر عاري الظهر، أو **حينما** يتلقى رسالة من محكوم سابق، يقول فيها بسرور، أنه تاب وصلح حاله، نتيجة ما تلقاه من إرشاد وإلهام منه حينما جمعهما السجن. كل هذه لحظات يمكن للمرء أن يتذكرها، ويستعيد ذكراها ولذتها المبررة.

ومع ذلك، يبقى الشئ اللعين أن: **السجن حرمان من الحرية.** ولما كانت **الحرية أغلى من الحياة**، فإننا يمكن أن نحكم بصوابية مدير السجن روجامبوا حين قال أنه يفضل **الشنق على الاعتقال.** وليس الحبس عقوبة للفرد المعني فحسب، بل لحشد من الآخرين،

لأسرة بكاملها، ولكل من تربطهم به رابطة الدم، أو الحب، أو غيرها من الأواصر. **وبوسع المرء في السجن، أن يؤثر على النزلاء الآخرين بسهولة أكبر، من التأثير على من هم بالخارج. ولكن هم نادرون من يؤثرون بشكل نافع.**

وتماما كما توجد لحظات يشعر المرء فيها بالتسامي لرؤيته لأعمال صالحة أنجزت، فإنه تعتريه **الكآبة** في لحظات كثيرة، حينما يرى: **أطفالا** أحداثا يزج بهم في السجن بسبب **مخالفات تافهة**، ويجري تعريضهم للتأثيرات الشريرة لمجرمين قساة القلوب. ومقابل **نفثة** تبغ، أو حشيش قد لا يتردد الولد في بيع جسده. وماذا يمكن للمرء أن يتوقع في مؤسسة فيها بشر من جنس واحد، محشورون فيها بالمعنى الحرفي للكلمة، الجسد ملتصق بالجسد الآخر، على مدى شهور وسنوات باستمرار؟ إن مجرد **الحبس الاحتياطي يحدث تحولا كاملا في حياة الشخص، لأن الحبس الاحتياطي في تنزانيا يدوم ستة أشهر، أو سنة، أو أكثر، مهما كانت تفاهة المخالفة، كالنشل، أو التشاجر.**

وعرفت بالسجن حالة رجل متهم بارتكاب **جريمة قتل**، سئم من **الحبس الاحتياطي ثلاث سنوات**، فوافق على **الاعتراف بجريمة لم يرتكبها، لأنه أراد أن تحسم القضية، بأي نتيجة كانت.** وصدر عليه حكم بالسجن ست سنوات. فالوقت الذي تقضيه في الحبس الاحتياطي لا يوضع في الحسبان مهما طال.

سادسا: "الرجل المنسي"

ثقيل هو الإحساس على **قلب المعتقل**، بأنه قد صار **نسيا منسيا.** ولحسن حظي، فإن اللحظات التي خامرني فيها هذا الإحساس

كانت قليلة، ولكنها حين جثمت على صدري كانت ثقيلة كالجبال. وساعدتني **تلاوة القرآن الكريم، وقراءة الكتاب المقدس، وكتابات شكسبير، على التغلب على الإكتئاب.** وحالفني الحظ في أن أسرتي، وأصدقائي، ومنظمة العفو الدولية ممثلة بآرني كريستنسين النرويجي داوموا على مراسلتي. إلا أنه كانت هناك فجوات بالطبع، لم تكن أي من رسائلي تصل إلى أحد خارج السجن.

حدث ذات مرة حين كنت في بوكوبا، أن أيا من رسائلي لم تصل إلى وجهتها على مدى **ستة أشهر** لأسباب لا أعرفها. **ومرت سنة ونصف السنة** حين كنت في دودوما دون أن **يتسلم أحد رسالة مني. إلا أن المراسلات الداخلية الآتية بغير الطرق الرسمية لم تتوقف.** وعبر أولئك الأشخاص أنفسهم حصلت على الدوام على نخبة منتقاة من الكتب.

إلا أنني كان يحزنني الشعور بأن منظمة العفو الدولية وغيرها من المنظمات الإنسانية، والحكومات، والأفراد المتعاطفين معنا في محنتنا، **لا يضغطون بشدة على حكومة تنزانيا المستبدة.** وشاطرني كل إخواني المعتقلين هذا الإحساس.

فلقد اعتدنا سماع إدانات قاسية لنظام الحكم العسكري **باليونان،** ولحكومة **جنوب إفريقيا،** وحتى لعدد من **الحكومات العربية.** ولكن حينما يأتي الدور على اتهام **حكومة تنزانيا،** فإن العبارات **تصاغ بعناية لتؤكد أن المجرم هو نظام الحكم الزنجباري، وليس نيريري.** بل تذهب إلى أن نيريري يستحق أن **نربت على ظهره،** تأثرا بحملة إعلامية تصوره بصورة ملائكية. ولم لا حين نعلم أنه حصل على **وصية طيبة** في هذا الصدد من آخر حاكم بريطاني، وأنه يتلقى سيلا مستمرا من **التبريكات** من نبع الفاتيكان. وكل ما

يفعله من سوء يبيض بالزيف **بالليبرالية** البريطانية، و**الكاثوليكية** الرومانية" **فاسم جوليوس منزه عن الفساد. والطهارة تغطي وجهه".**

ذلك أن الغرب يحكم على **تنزانيا** من واقع **كلمات نيريري المعسولة،** دون **اتصال يذكر مع ضحايا طغيانه.** وعلى الرغم من أن منظمة العفو الدولية، على سبيل المثال، كانت تراسلني، فإن ذلك كله كان يتم **عبر القنوات الرسمية.** فقط رسائل قليلة، إن كانت هناك رسائل على الإطلاق، وصلتني بطرق أخرى. وقبل إطلاق سراحي بعدة أشهر، كتبت إليهم في مناسبتين: **تقارير تتضمن كل التفصيلات عن عدد من الحالات. ولم تصل تلك الخطابات أبدا إلى وجهتها. وكتبت لهم حتى بعد خروجي من السجن عن محنتي. ويبدو أن الرسالة لم تصلهم.**

وكانت التقارير التي كتبتها من السجن مبنية على معلومات مأخوذة مباشرة من إخواني المعتقلين. ولم يكن بوسعي في ظل الظروف التي كنت فيها أن أحتفظ معي بصور منها، أو حتى بموجز عنها. وأعتمد الآن تماما على ذاكرتي التي قد يعتريها النسيان، في المذكرات المجملة التي سأذكرها لاحقا. وتعودنا أن نسمع في الراديو أن أعضاء من منظمة العفو الدولية أو من رابطة حقوق الإنسان، أو من الهيئة الدولية للحقوقيين، يزورون مسجونين سياسيين في بلدان أخرى. ولكن لم يزرنا أحد منهم في السجن. أسمينا أنفسنا: "المنسيون".

ولابد أن يستقيظ ضمير العالم. فالشر الأكبر الآن ليس **التعذيب،** الذي يكابده المسجونون، بل في ذات أساسه **المتمثل في الحبس دون محاكمة عادلة بواسطة محكمة كفئة.** هل إذا جرح إنسان

أصبعه يذهب لطبيب لعلاجه؟ وهل يحاول أحد غير الطبيب معالجة مصاب بالملاريا؟

إن كان هذا هو نسق المسؤوليات، فلماذا إذن **ينصب جهول بالقانون نفسه حكما، ويوقع العقوبات على أي مواطن، دون اللجوء إلى المحكمة، ولا إلى القوانين؟** إن من يشغل منصبا سياسيا ما ، هو أقل الناس قدرة على الفصل بحيادية في تهمة ما. ومن ثم فإنه من الطغيان اللاإنساني أن يكون هناك قانون يعطي لأي إنسان سلطة يكون بها أمره فوق القانون. **إن قانون الاعتقال دون محاكمة مُعاد لكل ما هو اجتماعي وديموقراطي وإنساني.**

أتذكر، حينما كنت رئيسا لتحرير جريدة المرشد الأسبوعية، منذ قرابة ربع قرن، أن **جون رانكين** المقيم البريطاني في زنجبار أنئذ، كان يستدعيني عادة على نحو شبه أسبوعي، **للتوبيخ**. وكان على رأس ما يلومني عليه **هجومي المتواصل** على الإجراءات القمعية الصادرة عن حكومة جنوب إفريقيا، وعن الحكومة الاستعمارية في كينيا. وكان يقول دائما أنه **لا تأثير لما يحدث هناك على الأوضاع في زنجبار**. ولو قدر لي أني قابلته الآن، فسيكون بوسعي أن أخبره أنه **لولا أن حكومة جنوب إفريقيا كان لديها قانون اعتقال بلا محاكمة، لما وجد نيكروما نموذجا يحاكيه، ولما توفر لنيريري ما ينقصه من إلإلهام للسير على ذات الدرب.**

ومن سوء حظنا أن **النسخ** جاءت أشد **فظاظة ووحشية من النموذج الأصلي**. وإنه لمن قصر النظر أن يعتقد المرء أن ما يحدث في البلدان الأخرى، لا علاقة له بما يحدث في بلده.

فعالمنا واحد. ولقد كنا نحن ضحايا القهر السلطوي ونحن بين جدران السجن الأربعة، نعي أن **أعتى أعدائنا** هم من يسمون "**الليبراليون الغربيون**"الذين يسعون إلى التغطية على كل ما فعله **الطغاة السود**، وإلى إضفاء منطق عليها، زاعمين، أنه لم يكن هناك **بديل لما حدث، "في ظل الظروف الإفريقية"**، وأن الغرب احتاج إلى ألفي عام للوصول إلى مستوى حريات الفرد الكائنة فيه الآن.

وإني لأتعجب، وأتساءل: ماذا لو أن الأفارقة بدأوا في قيادة **الطائرات على طريقتهم الإفريقية**، واستخدموا **البنادق** على طريقتهم القديمة؟ بالقطع لن يحاول الليبراليون الغربيون تبرير ذلك بذريعة أن للأفارقة معاييرهم في الملاحة الجوية، وفي استخدام الأسلحة الفتاكة، وأنها يجب احترامها، وليس إدانتها. لن **يقبلوا** ذلك لأنه **سيترتب عليه تعريض حياة الكثير من البيض للخطر.** بل إن الحقيقة التي لا مراء فيها أن الليبراليين الغربيين لا يتعاطفون تجاه تصرفات سياسية شاذة تمخضت عن نكبات، لمصالح البيض الاقتصادية. أما حين يكون **الضحايا كلهم، أو جلهم، أناس سود، او ملونين**، فعندها يشمر الليبراليون عن سواعدهم، **ويتكاتفون** جميعا: القس والمثقف الجامعي الليبرالي، للدفاع عن **القهر الأسود**. وهذا **النوع من المناصرة الضالة، يصيب الإفريقي الذي يعاني من هذا القهر بالغثيان.** ولو أن اليونان حادت عن الجادة، فإنها تؤنب وتنبذ، من أجل إصلاح الحكام لصالح الشعب. والحق أنه حتى الحكومات العربية تعامل باحترام، وعلى نحو يقارب الندية. أما بالنسبة **للسود فالأمر مختلف.** ولسان حال الليبرالية الغربية **يقول: دعهم يتخبطوا، ويضيفوا المزيد من التشوه على اسمهم.** ويحصلوا في مقابل

ذلك على **الإطراء والتملق من " الليبراليين" ومن "المثقفين"، وعلى صكوك الغفران لكل ذنوبهم من القساوسة.**

وقد يكون مقتضى التنظير المنطقي القول بأن الديبلوماسية الهادئة، سلاح أكثر فاعلية. ولكنني أعتقد أنه في التعامل مع حالة كحالتنا، فإنه ما لم يشعر **المستبد بالعار**، فإنه لن **يغير مساراته** على الإطلاق. وهو قد ينجح في الوقت الحاضر، **في قمع حرية التعبير في بلاده باستخدام سلاح الاعتقال**. ولكنه يجب على العالم الحر أن لا يهدهد عليه. على العكس، ينبغي أن يزود المنكوبين ببوق يسمعون العالم به صراخ عويلهم الذي أخرسه القمع، إلى أن **يتخلي الطاغية** عن مسارات ضلاله، أو **يتخلي العالم عنه**. فلم تضع الهجمات اللاذعة التي شنتها إذاعة صوت زنجبار وبيمبا الحرة، ومقاطعة الاحتفالات التي أقيمت تكريما لنيريري في استراليا سدى، بل كان لها تأثيرها الواضح.[6]

سابعا: نيريري يصف الاعتقال بلا محاكمة

" فلننظر في مسألة الإعتقال دون محاكمة. فهذه مسألة بالغة الخطورة. إنها تعني أنك تسجن إنسانا لم ينتهك أي قانون مكتوب، أو لست على يقين بمستوى لا يرقى إليه الشك بأنه قد ارتكب الجريرة التي تتهمه بها. وأنت هنا تقيد حريته، وتجعله يعاني بَدنيا ومعنويا، عقابا له على ما تعتقد أنه يعتزم القيام به، أو يحاول فعله، أو

---

[6] عنونت نهاية هذا التقرير بعبارة "كنت سجين نيريري ".

على ما تعتقد أنه قد فعله. وقليل هو بل نادر، ما هو أخطر على حرية المجتمع من ذلك.

ولما كانت الحرية لا تتجزأ، ومع إتاحة فرصة للحكومة القائمة للقيام بمثل هذا الإجراء، تتقلص حرية كل المواطنين. فتعليق حكم القانون أيا كانت الظروف، معناه فتح الطريق أمام إمكانية تأبيد أبشع المظالم"

الكلمات المذكورة أعلاه هي كلمات جوليوس كمباراجي نيريري، حينما كان شاغلا لمنصبي: رئيس الحزب الحاكم، ورئيس تنزانيا. وهي مقتبسة من تقرير اللجنة الرئاسية المعنية بالنظر في الأخذ بنظام التعددية الحزبية، تحت رئاسة كبير القضاة نيالالي. والإنسان الذي نطق بهذه الكلمات هو نفسه الذي أعطى نفسه عام 1962 سلطة "نصف إله" تحت ما يسمى: "قانون الاعتقال الوقائي". وبذا فإنه باعترافه، أبطل حرية كل مواطن تنزاني.

ولا زلنا نتطلع بعد مرور ما يزيد على ثلاثة عقود على سن هذا القانون الجائر إلى تصميم جاد من جانب قادة الرأي السياسي في تنزانيا على استئصال هذا القانون من جذوره. أما النفاق، والفرق الجلي بين الكلمات المقتبسة أعلاه، وبين أفاعيل نيريري، فلا تحتاج إلى بيان.

ثامنا: نبوءة عراف

بينما كنت في أتوبيس متوجه من (فوي) إلى (نيروبي)، بكينيا، على إثر هروبي من تنزانيا، وقعت حادثة مثيرة.

ركب الباص من محطة ماتشاكوس، تلك المدينة الواقعة بين فوي ونيروبي، **رجلان:** عجوز يبدو من ملامحه أنه عربي مولود بالخارج، و**شاب** يبدو أنه سواحيلي. جاء الشاب السواحيلي، وجلس بجواري **وكلمني بالعربية الفصحى.** قال لي أنه كان مدرسا بمدرسة إسلامية في ماتشاكوس. وسألني من أين جئت. قلت: من لامو. قال أنه من مواليد لامو. وسألني: من أي ضاحية فيها أنت؟ قررت أن أكشف له عن الحقيقة. قلت له: **"أنا صائم، ولابد أن أقول الحقيقة. . أنا قادم من زنجبار"**

قال: "أنا أعرف زنجبار جيدا. فلقد كنت مقيما في حمامني مع السيد علي قلتين". وبدا لي أن الرجل صادق فيما يقول. تابع حديثه قائلا: **" كنت مع بعض أبناء التومباتو في محاولة للإطاحة بالحكومة، واضطررت لمغادرة الجزيرة، لما بدأوا في إلقاء القبض على الناس. ماذا حدث للحزب الوطني الزنجباري ؟ ومن أي قبيلة أنت؟"**

حينما قلت أنني **علي محسن** كاد يطير من الفرح. وحين توقف الباص في استراحة نزل منه. وقال لي حين عاد إليه: "لقد أمضيت بعض الوقت في العربية السعودية أدرس الدين. وقد لا تصدقني، إن قلت لك أن من بين المعارف التي اكتسبتها ودرستها **التنجيم.** وكما ترى لم تكن أنت الذي بادرتني بالكلام، بل أنا الذي خاطبتك. وجئت فجلست بجوارك. فبالفراسة انجذبت إليك". لم أقاطعه فواصل حديثه قائلا: **"والآن سأنبؤك بالمزيد عما أراه سيحدث في المستقبل. ستتم رحلتك في أمان الله. ولن تشوبها شائبة. وستصل إلى وجهتك دون أية صعوبات. وفوق ذلك**

سيكلل نضالك من أجل زنجبار بالنجاح. وستتحرر زنجبار من جديد. هذا هو ما أراه صدقتني أم لم تصدقني"

تاسعا: لمصر الجديدة أولويات مختلفة

اصطحبني صديقي الدكتور **عبده سلام،** أنا وأسرتي، لدي وصولي إلى القاهرة، إلى بيتنا في منشية البكري. ولما اختلى بي، أسرّ إلي بأن **مصر بها الآن حكومة لها أولويات مختلفة، عن تلك الحكومة التي عرفتها من عشر سنوات. فالحكومة الحالية لا تضع إفريقيا والعالم العربي على قمة أولوياتها. بل تتطلع إلى الغرب. وأن علي أن أعرف ذلك من أول لحظة، مخافة أن أصاب بخيبة أمل فيما بعد.**

كانت تلك معلومة ثمينة أفادتني كثيرا، طيلة السنوات التي شاء الله أن أقضيها بصفة **لاجئ** في مصر. ومع أن موقف الحكومة تجاه **قضيتنا قد تغير تماما،** فإن **موقف أصدقائي المصريين، والمواطن المصري العادي نحوي، ونحو زنجبار، لم يتغير قيد أنملة.**

ظلت في مصر **أهراماتها** في شموخها، **وأبوالهول** في تأمله السرمدي، و**النيل** في تدفقه بتناغم لا معقب عليه، و**الأزهر** أقدم جامعة في العالم تواصل إنتاج العلماء والدراسات العلمية المنهجية، لتغذي بهم وبها كل أرجاء المعمورة. وظل **الفلاح** الودود والمضياف يلقى ضيفه بفلافله وبقلبه المفتوح. **وظل فيها على الود التليد أصدقائي:** الدكتور مصطفى مؤمن، وصهره الدكتور فريد أبوالعز، وفتحي صبري، وأسرته، و حلمي شعراوي وبهجت دسوقي، والدكتور عبده سلام نفسه. كل هؤلاء لم يتغيروا

وما بدلوا تبديلا. ولم **يطرأ تغيير على موقف الحكومة المصرية تجاهي أنا شخصيا، وتجاه أسرتي.** فلقد كنت ضيفا موضع ترحاب واحترام. ولكن موضوع زنجبار لم يعد على قمة الأجندة الرسمية. فالحكومة كانت ترى ضرورة إعادة بناء الجسور مع الغرب. وعلى طول ذاك المسار تقع تنزانيا نيريري، طفل الغرب المدلل أزرق العينين.

عاشرا: رضوخ عبد الناصر للاعتبارات النفعية

من مقتضيات **الإنصاف** بالنسبة **لنظام حكم السادات**، يلزم القول **بأن التغيير بدأ بالفعل على يد عبد الناصر نفسه.** فلقد أقنعه صديقه أحمد بن بلا، ومحمد فايق مستشاره في الشؤون الإفريقية، بأنه من الحكمة التوصل إلى تسوية مع السفاحين الذين أطاحوا بالحكومة الوطنية الزنجبارية، لاعتبارات عديدة، في مقدمتها:

أ- الحكومة المطاح بها حكومة ملكية، وبالتالي فإن الرجعية متجذرة فيها.

ب- نظام الحكم الغاصب يحظى بمساندة شعبية، ويقوده يساريون معروفون **بالرفاق**، وهو، من ثم، تقدمي ومنزه عن الخطأ.

وانخدع عبد الناصر. ولم يعرف هو، أو مستشاروه، أن "الثورة" هي في حقيقة أمرها، عملية **غزو خارجي**، بالتواطؤ بين **الاستعماريين وأذنابهم.** ورحب عبد الناصر بنيريري، وصافح يده ويد كارومي المخضبتين بالدماء، وهما لا تزالان تفوح منهما رائحة وبخار الدم النازف من ألوف الزنجباريين. ورضخ لمطلبهما الخاص بإغلاق بيت شرق إفريقيا الكائن بمنشية البكري، الذي

أسسه بنفسه قبل ذلك بسبع أو ثمان سنين، لمئات من الطلبة من زنجبار ومن بقية بلدان شرق إفريقيا فيما لو احتاجت إليه.

وبإملاء من نيريري وكارومي، نبذ عبد الناصر مشروع المعونة التعليمية لزنجبار برمته. وكان من بين مكونات ذلك البرنامج، مشروع مجاز يتعلق بإنشاء جامعة في زنجبار لمسلمي شرق ووسط إفريقيا.

ومما يبين أن عبد الناصر رضخ لاعتبارات **الإنتهازية السياسية الضالة**، ولم يتمسك **بالحق الإخلاقي** الذي قطعه بشكل مبدأي على نفسه، أنه قام **بزيارة رسمية لدارالسلام وزنجبار.** وتخلى عبد الناصر بفعله هذا، الناجم عن مشورة مضللة، عن مودته وحبه للوطنيين الزنجباريين، دون أن يحصل في المقابل علي أي شئ من نيريري وكارومي وأتباعهما. **فمصر**، بل كل شمال إفريقيا **عربية**، وهذا يكفي **لاستحاقاقها اللعنة**، في نظر أولئك السود الشوفينيين. وخرج فايق وبن بلا بخفي حنين، رغم كل ما بذلاه من جهود، في نيل رضا نيريري وكارومي. وأهاب نيريري في اجتماع سري عقده مع قادة "**المناضلين الأحرار**" في دارالسلام، بأولئك القادة الأفارقة، أن "يأخذوا حذرهم من **بيض شمال إفريقيا، باعتبارهم أخطر من بيض جنوب إفريقيا**". علمت ذلك من كرستيان أوبيرا، نائب رئيس مخابرات أوبوتي السابق، حينما كان معي بالمعتقل، في سجن دودوما، والذي كان من بين من حضروا ذلك الاجتماع. **فبيض شمال إفريقيا عليهم، في نظر نيريري، لعنة مضاعفة، بسبب عرقهم، وبسبب دينهم.**

وبات واضحا مع مرور السنين، باضطراد، أن حكام تنجانيقا وزنجبار ليسوا إلا **فاشيين مسعورين**، وأن العباءة الاشتراكية التي

يتخفون فيها ليست على مقاسهم. وفضحتهم تصرفاتهم في عريهم الحقيقي. ومن الأمور ذات الدلالة أن الإمبراطور هيلاسلاسي نفسه الذي قد يكون هو أكبر ملك إقطاعي رجعي في العالم، هو أول رئيس دولة يزور زنجبار بعد الإطاحة بنظام الحكم السلطاني. وكان ينبغي أن تكون هذه بذاتها مؤشرا كافيا على أن ما تسمى: الثورة، لم **تكن ضد الملكية ولا الإقطاع**. ولباب القاسم المشترك بين الرئيس نيريري والإمبراطور هيلاسلاسي هو **الكراهية المتأصلة في قلبيهما للعرب والإسلام**. ومما لاريب فيه أن الحكم السلطاني الدستوري في زنجبار، حيث السلطة التنفيذية بيد حكومة منتخبة بطريقة ديموقراطية، لا يمكن أن تكون أسوأ من حكم امبراطور الحبشة الديكتاتوري الإقطاعي الذي ظلت العبودية والرق رائجين في ظله في القرن العشرين.

إلا أن نيريري هو نيريري. فعلى ذات وتيرته، أرسل القوات التنزانية إلى إثيوبيا لتعزيز **طغيان مانجستو هيلاماريام** المترنح تحت سنابك هجوم الإريتريين. وكان الطاغية مانجستو مجرد امتداد للإمبراطور المخلوع. فكلاهما جاء من ذات البوتقة التي جاء منها نيريري.

أحد عشر: المجتمع الزنجباري في مصر

أقامت أسرتي في فترة إقامتنا بالقاهرة، في شقة مستأجرة بفيلا من ثلاثة طوابق. كانت شقتنا في الدور الأرضي وتتبعها حديقة صغيرة، وتتكون من ثلاث غرف نوم، وحجرة جلوس، وصالة بها جهاز تليفزيون. أما المطبخ فكان في البدروم. وكانت تلك الفيلا مملوكة لأرملة لواء شرطة سابق. وكان ابنه الودود، حسين العقيد بالقوات المسلحة، واخته الجميلة فاطمة يعيشان في الشقة التي

تعلونا. وكنا موضع حفاوة خاصة من الأستاذ الدكتور حسن صبري الخولي (مستشار عبدالناصر في الشؤون العربية) زوج فاطمة، الذي أهاب بهم بأن يخصونا بخالص رعايتهم.

وسرعان ما اكتشفت أن زوجتي، قد أرست، منسجمة مع طبيعة شخصيتها، **صداقة** مع كل الجيران بصرف النظر عن **الطبقة** أو **الدين**. ومن بين أولئك **الأصدقاء: موظفة حكومية** متقاعدة في البيت المجاور، **وأبو إدوارد وأم إدوارد، وابنهما**. وهم مسيحيون من الصعيد. وكان أبو إدوارد رئيس عمال في عملية بناء بمنزل مقابل. وعمي **عبده البواب** الذي يقوم بجانب ذلك بعمل الطعمية وبيعها، **وعمي صبري** البقال الفلسطيني، **والميكانيكي الشاب جمال** بالبيت المجاور، **وأم علي** المزارعة بائعة المنتجات الريفية المقيمة ببدروم المنزل المجاور للبقالة. كل هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، كانوا على **صداقة حميمة مع عزة وأولادها**. ومنهم أيضا **بائع السمك** الذي كان يمدنا باحتياجاتنا بانتظام. كان مسيحيا مغرما بالحلف بـ "**النبي الحق**" كما لو كان فلاحا مسلما.

وغير بعيد عن بيتنا، وفي ذات حي منشية البكري، كانت أختي **علياء** تقيم مع ابنها وحفيدتها وأطفال آخرون، ترعاهم، بعد **الإغلاق الرسمي لبيت الطلبة الزنجباريين** الذي كانت هي المشرفة عليه. وكانت تقطن بهذا الحي أيضا السيدة **فردوس محمد علي البروانية** أرملة أستاذي وصديقي **محمد سالم جينجا، وابنها محمد وابنتها فاطمة**. وعلى الجانب الآخر من خط الترام الذي كان يمر عبر حي منشية البكري، كانت تقيم **الزوجة**

الصغرى للشيخ محمد ناصر اللمكي مع أطفالها الذين كانوا طلبة بدور التعليم.

وبالقرب منا، كانت تقطن السيدة **خديجة البطاشي** زوجة الشيخ محمد بن سليمان بن ناصر اللمكي، مع أطفالها، الذين كانوا هم أيضا طلبة بدور التعليم. وكان شقيقها **ثابت البطاشي** يقيم هو وزوجته وأولاده في الزمالك. وفي **أطراف الحي** كانت السيدة **عائشة علي البوسعيدية** تقيم وترعي أطفالها في مراحل التعليم. وفي **حي مصر الجديدة** كانت تقيم السيدة العجوز **سكينة** الزوجة السابقة للسلطان الراحل **السيد علي بن حمود**. وتلك السيدة هي خالة أبناء الشيخ الراحل محمد بن علي بن خميس البرواني، والسيدة **فردوس** واحدة منهم.

وأقامت السيدة **سكينة**، وأخوها السيد **زين**، الذي هو واحد من خيرة المثقفين، العاملين بالسفارة البريطانية في مصر، على مدى سنوات عديدة. وتزوجت تلك السيدة التي نعتبرها رمزنا، من مصري بعد السلطان، وأنجبت طفلين: **سميح وسميره**. وحين وصلت إلي مصر، كان سميح بالشرطة، وسميرة بمكتب منظمة اليونسكو بالقاهرة. وبالرغم من كونهما قد ولدا في مصر، وأبوهما مصري، فإنهما يتحدثان السواحيلية بطلاقة.

ومن المقيمين بأطراف مصر الجديدة أيضا: **علي مسعود الريامي وشقيقه محمد وأسرتيهما**. أما أخوهما الأصغر **عبد الله**، فيقيم في منشية البكري قرب منزلنا (وكان يقيم من قبل هو وزوجته الودودة **بيمديجو** في حي المنيرة بوسط القاهرة، الواقع بين السيدة زينب وجاردن سيتي، في المنزل الذي كانت تقيم فيه من قبل **السيدة جوخة** بنت ناصر اللمكي (زوجة الشيخ **سالم بن**

سيف المعمري، الشهيرة **بسيدة المنيرة**، وهي حفيدة الشيخ **سليمان بن ناصر اللمكي**، الذي ناب عن السلطان **السيد خليفة بن حارب** ذات مرة، حينما سافر إلى انجلترا، وهي أيضا حفيدة **تيبوتيب** الشهير. وهي سيدة مرموقة اتخذت من مصر منفى اختياريا لنفسها، من أجل أن تتيح لأبنائها وأولي رحمها، فرصة تحصيل العلم غير المتاح إلا في مصر). وقامت أختي الفاضلة **علياء** بذات المهمة فيما بين عامي 1958 و1980، بالنسبة لكل أطفال زنجبار، الذين بقوا تحت رعايتها بصرف النظر عن كونهم من أقاربها أم من غير أقاربها. ومعظمهم لم يكونوا من أقاربها. ولكن **سيدة المنيرة** ظلت هي الروح المحركة والرائدة. فلطالما شجعتني علي إقامة بيت في مصر لتعليم أطفال زنجبار.

وممن أقاموا بوسط القاهرة بالقرب من النيل: **الزوجة الأولى** للشيخ محمد ناصر اللمكي، السيدة **آسيا الخروصي** (الشقيقة الكبري للإخوة الخروصيين، والتي كانت إحدي الركائز الكبري للمجتمع النسوي في زنجبار، وظلت على ذات الدرجة من التألق هنا في مصر)، والسيدة العظيمة الودودة **جهينه**، الزوجة السابقة للأمير السيد سعود بن علي (المقيمة مع أحفاد شقيقها في مصر الجديدة، والتي لم ينعم الله عليها بالإنجاب). وخالة عزة الدكتورة **فاطمة سالم سيف المعمرية** (الحاصلة علي درجة دكتوراه الفلسفة أستاذ اللغة اللاتينية في جامعة الإسكندرية)، وخالتها الثانية **السيدة سعاد سعيد سيف العمرية**(مفتشة بالتربية والتعليم متقاعدة، وزوجة العالم الإسلامي الجزائري الشهير الشيخ **إبراهيم بن اسحاق أطفيش**)، وخالتها الثالثة الدكتورة **نعيمة سعيد** (المدرسة بكلية المعلمين بالقاهرة).

وخلاصة القول، أنه كانت هناك جالية زنجبارية كبيرة مقيمة في مصر، ناهيك عن التلاميذ والتلميذات الذين كانوا يواصلون دراساتهم في رحابها.

ولما وصلت إلى مصر بعد إطلاق سراحي، من المعتقل، وجدت أن صديقي العجوز **عمي مبروك**، قد توفاه الله تعالى (وهو زنجباري قمري الأصل رحل إلى مصر من أمد بعيد، ومن ثم كان يعامل على أنه مصري. تزوج فتاة مصرية جميلة ذات عينين زرقاوين، وأنجب منها أولادا مصريين حتى النخاع). وعمي **مبروك** والدكتوره **نعيمة** هما اللذان تركت ابني **محمد** تحت رعايتهما، لما وصل إلى القاهرة عام 1955 للدراسة).

وقبل أن أفرغ من هذه النقطة، لابد أن أعبر عن غاية امتناني وامتنان أسرتي لابن بلدي الشاب **علي محمد يحيي** الذي عمل سكرتيرا لزوجتي عزة، طيلة السنوات التي أمضيتها بالمعتقل، خاصة على جهوده، فيما يتعلق بالاتصال بالمنظمات الدولية، مثل منظمة العفو الدولية.

ثاني عشر: الوصال المتجدد مع الإخوة القدامى

في غضون أيام معدودات من وصولي إلى القاهرة جاء بعض إخواني السياسيين، الذين انتظموا فيما أسموه " **المنظمة الزنجبارية**" لزيارتي. جاءوا من بريطانيا والعراق والإمارات العربية المتحدة لتهنئتي بإطلاق سراحي، وللتشاور بشأن نضالنا المتواصل من أجل تحرير بلادنا. واقترح **أحمد سيف الخروصي الخروصي**، القادم من بريطانيا، أن أتولى قيادة الحركة، التي كان هو حتى تلك اللحظة زعيمها، وأحد مؤسسيها. وطرحت

مقترحات مقرونة بتذاكر سفر جاهزة، بأن أسافر إلى بلاد أخرى للإلتقاء بإخواننا المناضلين من أجل الحرية.

وبينما كنا مختلين في المؤتمر، كانت زوجتي وأبنائي ينتظرون خارج الصالون والخوف يساورهم من أن يتعين على تركهم من جديد. تعاطفت معهم، **ورفضت كل العروض**، مذكرا إخواني أنني لم يحدث أبدا من قبل أن **عينت أو انتخبت، حتى في الحزب الوطني الزنجباري زعيما** بصفة رسمية، بل كان واجبي أن أخدم مثل أي عضو آخر. وأنا الآن بحاجة إلى وقت **لأستعيد توازني.** فعلى مدى ما يربو على **عشر سنوات، وأنا أفكر في مسألة تحرير بلادنا للمرة الثانية**. وتوصلت إلى نتيجة محددة، وهي أنها مهمة لا يمكن أن تتحقق **بإجراء عسكري**، ولا **بنشر الكتيبات** فحسب. بل يلزم **القيام بعمل أساسي ما**. وثمة نقاط تستعصي على الوزن بدقة. وأنا بحاجة إلى **الوقت والراحة لأشكل أفكاري هذه في صيغة ملموسة ومحددة.**

أذهل كلامي هذا الكثير من المندوبين، وأصابهم بخيبة أمل. فلقد جاء مغايرا لتوقعاتهم. بدأوا يمطرونني بسيل من الدعوات العاجلة **للنضال والتشدد**. ونهض الشيخ **راشد حمادي** ممثل الزنجباريين المقيمين بالعراق من بينهم لنجدتي، وقال أنه من المتوقع بالنسبة لأي إنسان بعد مثل تلك المدة الطويلة في السجن، أن يحتاج إلى وقت لاستعادة توازنه. وأضاف أننا يجب" **أن نحمد الله على أنه طبيعي. فأنا لم أكن مثله، حينما خرجت من السجن لأول مرة**". وبهذها الدفاع حسمت المسألة.

فمن بين الأصول العظيمة لمجتمعنا ولثقافتنا، أننا نحترم **السن والخبرة**. وكان الشيخ راشد حمادي هو **أكبر الحاضرين سنا**،

وأكثرهم خبرة. وتبني الحاضرون مشورته، وتنفست زوجتي وأولادي الصعداء، حينما خرجت من الاجتماع، وأبلغتهم بالقرار النهائي. وحتى بعد عودة أولئك المندوبين، إلى البلدان التي وفدوا منها، لم يكن ذلك القرار موضع ترحيب بوجه عام. وساورت البعض الشكوك من أن يكون **الخور** قد دب في قلبي، أو حتى أن **أكون** قد تحولت إلى **خائن** للقضية، أو أن يكون **السجن قد جعلني حريصا إلى درجة الجبن.**

تمثلت خطتي في أننا بحاجة إلى بذل جهد كبير لإعادة بناء معنويات شعبنا في بيمبا وزنجبار المحطمة، والمروعة، قبل أن يغدو بمقدورنا القيام بأي شئ آخر. فالنضال بجهود قلة مخلصة ممن يعيشون بالمنفى، مهما كانوا صقورا، لن يثمر الثمرة المرجوة. ونحن بحاجة إلى قاعدة بالداخل ينبغي أن تستوعب الشعب كله، أو على الأقل قطاع كبير منه في الوقت المناسب. وينبغي علينا أن نرضع شعب زنجبار الوطنية المرتكزة على وازع ديني، والمؤسسة على الحق الأخلاقي وليس على الانتهازية السياسية. والقيام بمهمة بهذا المستوى يحتاج إلى وقت، وتخطيط، وصبر، ومثابرة، وجهد شاق.

وقلت لزملائي أنني شرعت بالفعل في هذه المهمة وأنا بين جدران السجن. فلقد هزمنا بيسر بالغ **لأن عودنا كان لا يزال طريا من الوجهة الأخلاقية**. وفقدت الاستقامة الفكرية والأخلاقية التي استلهمنا منها نضالنا ضد الاستعمار، زخمها. ولابد من إحداث **إحياء روحي وأخلاقي**. فليس بوسعكم تحرير بلد، **لا يشعر** أبناؤه بالذنب من تكديس الممتلكات المصادرة، **ولا يحسون** بالعار من التواطؤ مع الطغاة والغاصبين، **ولا يشعرون** بالحاجة الملحة

لمجابهة الشرور بكل صنوفها، **ولا يجدون** غضاضة من كسب قوام حياتهم من بيع الخمر أو المخدرات، أو من تعرية أجسادهن أو أجساد أخواتهم وبناتهم، بما يثير شبق الفاسقين. إن بلادنا بحاجة إلى ثورة في **الأخلاق والسلوكيات**. وهذا هو ما يجب أن نتعاهد عليه الآن.

ويلزمنا قبل أن **نقاتل من أجل الحرية، أن نستعيد** قيمنا التقليدية واعتزازنا بتاريخنا، و**نجذر** الإحساس بالعار تجاه ظهور أدنى أثر للتعصب العرقي أو القبلي، و**نبني** الإحساس بالإثم في قلب كل إنسان من حيازة ما هو مملوك لغيره، أو الانتفاع به إلا بالتعاقد معه وبرضاه. ولا مندوحة عن **توبة نصوح** من المشاركة آنفا، أو **حتى من مرافقة من ارتكبوا المجازر وأعمال السلب والنهب والاغتصاب، التي صاحبت ما يسمى: الثورة**. وعلينا أن نؤسس إجماع وطني على المصلين بالمساجد، أن يحتجوا بصوت مرتفع، على مصادرة ممتلكات الأوقاف المخصصة لعمارة بيوت الله. يجب أن يدرك كل من استفاد من تلك الممتلكات المأكولة بالباطل بطريقة أو بأخرى، أن حجهم إلى البيت الحرام مردود عليهم، مأزور غير مأجور، وصلاتهم غير مقبولة، وسيفضي ما أكلوه منها في بطونهم بهم إلى نار السعير.

إن الثورة الحقيقية هي **الثورة الوطنية التي يستلهم منها الشعب الوحدة والاستقامة الأخلاقية**. إنها هي الثورة المؤسسة على التعاليم المنزلة من عند الله، كما بينها لنا آباؤنا ومعلمونا ومشايخنا في المدارس والمساجد، وكما بسطت على صفحات جريدة "المرشد" الأسبوعية، والتي لن تستطيع التعاليم الثورية الاستعمارية أن تبقى على قيد الحياة، في مواجهتها. **فلم تكن**

مذابح 1964 ثورة، بل هي غزو مضاد للثورة الأخلاقية، وتدمير للقيم، بوحي من الخارج. والقائمون بها هم أجانب، وبعض من خانوا وطنهم.

ولهذا السبب فإن المستفيد الحقيقي منها، هو **عدو زنجبار**. فالإنسان مكون من **جسد وعقل وروح**. تلك هي الدعامات الثلاث التي يقوم عليها. وخرجت من السنوات العشر التي قضيتها في غياهب سجون تنجانيقا بقناعة أكبر من أي وقت مضى، بأن النضال في زنجبار **لن يكلل بالنجاح**، فيما لو تم في **عزلة**. وحتى لو أمكن ذلك، فإنه سيكون من المجانب للصواب من الوجهة الأخلاقية، أن لا نقف صفا واحدا مع جيراننا في النضال. فاعتقادي الثابت على الدوام، أن ما هو مجانب **للصواب أخلاقيا، مفتقر إلى الحكمة سياسيا**. فأبناء الجزر، وأبناء البر ركاب سفينة واحدة، يجب أن تطفوا بهم، وإلا غرقوا جميعا.

ثالث عشر: أوسكار كامبونا يزورني بالقاهرة

بعد عدة شهور من اجتماعي بإخواني، زارني **أوسكار كامبونا**، الذي سبق له أن شغل منصبي وزير الشؤون الخارجية التنزاني، وأمين عام حزب الاتحاد الوطني الأفريقي التنجانيقي، والذي يعيش، بالمنفى في بريطانيا، منذ أن اختلف مع صديقه السابق جوليوس نيريري، وغادر البلاد خلسة. والحق أننا كنا على خلاف منذ أن تواطأ مع نيريري وبابو وكارومي في غزو زنجبار، والإطاحة بحكومتنا الوطنية المنتخبة. أما الآن فقد صرنا في الهم سواء. محنتنا واحدة. وبالتالي، فإن وجهات نظرنا وتطلعاتنا، متماثلة.

أما شقيقه الأصغر **أوتين كامبونا** فكان على وفاق معنا على الدوام، حتى حينما كان أخوه في السلطة. وهو الذي نظم ورعى مؤتمرا صحفيا لي في لندن، بعد فشل مؤتمرنا الدستوري الأول في مارس 1962. وكان أوسكار قد اجتمع بأحمد سيف الخروصي وزنجباريين آخرين، في بورتماوث بانجلترا، قبل أن يأتي إلى القاهرة للإجتماع بي. وجاء **حاملا اقتراحا بأن نوحد قوانا للإطاحة بنظام حكم نيريري**. وقال: "وأول شئ سنفعله بعد الإطاحة بنظام حكم نيريري **هو إعلان أن الوحدة بين تنجانيقا وزنجبار باطلة وكأن لم تكن**".

لم أشأ ان أجعله يعتقد أنني متلهف على ذلك. نصحته بالتروي، وقلت له: "أمامنا وقت كاف للتفكير في نوعية العلاقة التي ينبغي أن تقوم بين بلدينا. **ولكنني متفق معك تماما على أننا يجب أن ننسق نضالنا من أجل تحرير تنجانيقا وزنجبار من طغيان نيريري**".

رابع عشر: أبو السعود[7] يدعوني للإنضمام إليه في أمريكا

بعيد وصولي إلى القاهرة، جاءني ذات يوم، الدكتور **عبده سلام**، بصحبة أبي السعود الداعية الإسلامي الشهير بالولايات المتحدة، المتخصص في الاقتصاد، والشهير بكونه صاحب فكرة البنوك الإسلامية. واقترح علي أبوالسعود الذهاب معه إلى أمريكا، ومشاركته في رسالته. قلت له أنه رغم أن تبليغ كلمة الله والدعوة

---

[7] الأستاذ الدكتور محمود محمد أبو السعود من رواد الإقتصاد الإسلامي الحديث. له مؤلفات ودراسات عدة منها كتابه حول (معالم الاقتصاد الإسلامي) – محمد البرواني

إليها مهمة لا تعرف الحدود، فإنني أشعر **أنني مؤهل بوجه خاص لتكريس دعوتي لسد حاجات أبناء إفريقيا الناطقين باللغة السواحيلية.**

وأضفت أنني بصفتي **مؤلفا**، ولدي **مخطوطات حررتها بالسجن** فإن ما أنا بحاجة إليه هو مد يد العون لي في **نشر** تلك المخطوطات. وبوسعي أن أقوم بذلك على أفضل حال، وأنا بالقاهرة، حيث تتوفر لي **المراجع الأكاديمية** التي أحتاج إليها. وأنا أيضا بحاجة إلى **البقاء مع أسرتي**. فزوجتي مريضة بالذبحة الصدرية، وأبنائي لايزالون بالتعليم. وحرمت منهم، أكثر من عشر سنين. ودعته، وفقدت الاتصال معه بعد ذلك.

وبينما كنت مقيما بالقاهرة، زارني **شخص قمري** لطيف، على نحو غير متوقع، هو **حاجي حسن علي**، الذي كان يعمل في ذلك الوقت صحفيا حرا، ويقيم في منفاه الاختياري بباريس. وكان حاجي حسن علي صلة وثيقة بالأمير كمال ابن رئيس جزر القمر السابق السيد إبراهيم. وكان ذلك الصحفي الشاب، الذي لم يسبق له العيش في زنجبار، بعكس كثير من نظرائه القمريين، لا يزال على قناعة بأن جزر القمر لن **تتخلص من مشكلاتها مالم تستعيد زنجبار استقلالها وسيادتها هي الأخرى**. ويعتقد أن هاتين الدولتين مثل **التوائم المتطابقة**. فمصيرهما متشابك. وهما تعومان معا أو تغرقان معا.

وأراد أن يضع يده في أيدينا لصالح البلدين معا. وهو بذلك كان كمن يدعو رجلا للدخول في دين، بينما هو قد اعتنقه بالفعل من قبل. فلقد كنت أبذل قصارى جهدي منذ وصولي إلى مصر، **لمساعدة الطلبة القمريين الذين يدرسون بمصر، وأسوي بينهم**

وبين الطلبة الزنجباريين في مشاعري وتعاطفي. وحينما جاء وزراء ودبلوماسيو جزر القمر من أمثال المرحوم راشد محمد مبارك إلي القاهرة سعيا إلى الانضمام إلى جامعة الدول العربية، تمكنت بمساعدة صديقي الدكتور **مصطفى مؤمن**، من مساعدتهم على إجراء الاتصالات اللازمة، **وشكلت جماعة ضغط لمساندتهم.**

ومن سوء الحظ، أنه رغم كل ما بذل من جهود في زنجبار وفي جزر القمر، فإنهما لا تزالان في حالة التيه. فالقوى التي تضافرت ضدهما عاتية، وأصدقاؤهما الطبيعيون خارج منطقة شرق إفريقيا غير **واعين بأهميتهما الحيوية كمواقع أمامية.** وجزر القمر مستقلة من الوجهة الفنية، ومع ذلك فإن مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية ساحقة. وجزر القمر بدون زنجبار وحيدة ومعزولة إلى أبعد حد.

خامس عشر: وفاة زوجتي

دعيت عام 1976 لمساعدة الدكتور **عبد العزيز كامل**، وزير الأوقاف والشؤون الدينية المصري أنئذ في التحضير لمؤتمر دولي إسلامي، كان من المزمع عقده في لندن في إبريل 1976. وكانت تلك تجربة سارة ومفيدة للغاية بالنسبة لي. فالدكتور عبد العزيز مثقف، وتخصصه الأكاديمي هو أستاذ جغرافيا بجامعة القاهرة. وتعلمت منه ومن العلماء الكثر الذين تواصلت معهم في سياق مهمتي هذه، الكثير من الأمور المفيدة. وأصبح الأستاذ وزوجته صديقين لي ولزوجتي. ومن بين الزائرين المهمين الذين زاروني بمكتبي بالوزارة السير هارولد بيلي، السفير البريطاني

السابق في القاهرة، والذي كان مرتبطا باحتفالية إسلامية معقودة في لندن في توقيت موازي لتوقيت انعقاد المؤتمر.

وحينما ذهبت إلي لندن اصطحبت **زوجتي عزة معي**. وبعد المؤتمر، رتب ناصر سيف البوعلي السفير العماني بلندن، لعرضها علي اختصاصي **أمراض القلب، الذي يعالجه**. فحصها الطبيب، وكانت نتيجة الفحص أن لديها **مشكلتين: انسداد** في الشريان التاجي و**ثقب** ناتج عن عيب خلقي في القلب لم يلتئم أثناء الولادة. وأوصي الطبيب المتخصص بهارلي استريت، رالف بالكون **بعملية جراحية**. وقال أنه لا داعي لإجراء العملية فورا. وكان بإمكاننا أن ننهي المسألة عند هذا الحد، ولكن عزة سيدة جريئة، لم تتردد في تقبل المخاطرة.

ورغم أن الطبيب أكد لنا أن المخاطر محدودة للغاية، فإننا كنا نعلم أن عملية القلب المفتوح ليست بالأمر البسيط. وبضمان مالي من السفير ناصر البوعلي، إجريت لعزة عملية جراحية ناجحة. ولما عدنا إلى القاهرة تابع رعايتها الدكتور **محمد حسونة**، أحد كبار المتخصصين في القلب في مصر، والدكتور **قطان** الصديق الحميم للدكتور عبده سلام، الذي كان هو طبيب عائلتنا. وأحست أنها ولدت من جديد.

ومع ذلك، فإنه كان يتعين عليها أن تغير **صمام القلب** بعد عامين، ثم تغيره مرة أخرى بعد فترة. وعانت من جراء ذلك الكثير، ولكنها تحملت الألم بصبر جميل. وكانت عمليتها الأخيرة، دقيقة، وفق ما قاله الأطباء المعالجون، خاصة أنها جاءت في أعقاب جلطة صغيرة أصابتها بعد **وفاة ابنتنا مني** في

الثاني من ربيع ثاني 1403 (16 يناير 1983) في دبي **بالسرطان**.

وتعافت عزة من العملية الأخيرة بصعوبة، وخرجت منها منهكة القوى. وكنا قد انتقلنا إلى دبي لنكون بالقرب من أبنائنا. وخرجت من المستشفى، ثم فوجئت عصر اليوم الثاني من رمضان، بينما كنت **أقطف بعض الزهور**، من الحديقة لأقدمها لها، **بنداء من ابنتي سعدية**، تطلب مني المجئ على جناح السرعة إلى البيت. وجدت عزة تتنفس بصعوبة بالغة، من جراء أزمة قلبية عنيفة. حاولت إنعاشها بإسعافات أولية دون جدوى. جاءت سيارة الإسعاف، وبعد نصف ساعة من وصولنا إلى مستشفى راشد، أبلغونا أنها قد لقيت وجه ربها الكريم. كان هذا اليوم، الثاني من رمضان 1409 هـ السابع من إبريل 1989) هو **أسود يوم في حياتي**. فلقد عشنا معا خمسة وأربعين عاما، جسدين بروح واحدة وعقل واحد. والآن تعين علينا الفراق. وعزائي الوحيد هو يقيني، بأننا إن شاء الله تعالى، سنلتقي في الآخرة.

أتاحت لي زيارتي للندن لحضور **المؤتمر فرصة معرفة ومقابلة عدد من الشخصيات المهمة**. وكان المؤتمر نفسه معقود برعاية صاحب السمو الملكي الأمير السعودي محمد الفيصل. كما التقيت الأستاذ **اسماعيل الفاروقي**[8] وترسخت عرى الصداقة بيننا،

---

[8] الأستاذ الدكتور اسماعيل الفاروقي من مواليد يافا بفلسطين. قام بتدريس الدراسات الإسلامية في جامعة ماكجيل في بكندا وجامعات شيكاغو وسيراكيوز وتمبل بالولايات المتحدة الأمريكية. استشهد هو وزوجته في 27مايو 1986م الموافق 18 رمضان 1406هـ في بيتهما في الولايات المتحدة الأمريكية في ظروف شديدة الغموض ، حيث ثبت أن الاغتيال لم يكن أبدا بدافع السرقة. – محمد البرواني

وحضرت معه الحوار المسيحي الإسلامي الذي عقد في شامبيسي بجنيف في العام التالي. وممن **التقيتهم أيضا**: سالم عزام السفير السعودي السابق في لندن، ورئيس المجلس الإسلامي الأوربي، الذي اهتم بشدة بفعاليات المؤتمر. وتأسس تواصل وتفاهم وثيق بيني وبينه، هو والأستاذ الباكستاني خورشيد أحمد، والبنجلاديشي معظم علي.

سادس عشر: إلى الخليج

شهدت القاهرة في عام 1978 لقاء **مشتركا** لجامعة الدول العربية، ومنظمة الوحدة الأفريقية. وفي ذلك الاجتماع عرفني محمد عبد المطلب هاشم، الذي كان آنئذ رئيسا للجمعية الزنجبارية بدبي، علي **أحمد خليفة السويدي**، وزير خارجية الإمارات العربية المتحدة. ووجه الوزير الدعوة إلي لزيارة الإمارات، وأصدر تعليماته لسفيره بترتيب الزيارة. وأتيحت لي الفرصة أيضا أن التقي **عمر عرتي** وزير الخارجية الصومالي. وفور وصولي إلى **دبي** قمت بزيارة ودية لفخامة الشيخ الراحل **راشد بن سعيد آل مكتوم**، حاكم دبي. واصطحبني محمد عبدالمطلب في تلك الزيارة وقدمني لمعاليه. وأهم ما لفت انتباهي في هذه الزيارة هو **بساطة ذلك الحاكم وصراحته وقلبه المفتوح**.

فلم تكن هناك مظاهر احتفالية ولا حضور، مما أفسح المجال أمامي للجلوس بجواره بارتياح ومحادثته. وذكرتني بساطته تلك بسلاطيننا في زنجبار، الذين كانوا مماثلين له في تلك الخصلة إلى حد بعيد. وتفضل الشيخ راشد **بدعوتي للإقامة** في دبي وقتما أشاء. وكان قد سبق له هو وحكام الإمارات العربية المتحدة الآخرون أن استقبلوا اللاجئين الزنجباريين الذين اضطروا للرحيل

من بلادهم، ومنحوهم كل التسهيلات الكفيلة بتمكينهم من الحياة في الإمارات كضيوف مكرمين. وبات الزنجباري يشعر بحق وكأنه في بلده، حيثما حط الرحال، في أي مكان بالإمارات العربية المتحدة.

ويمثل هذا ردا مماثلا على **استقبال زنجبار لمن رحلوا إليها من الخليج، ومن شتى أرجاء جزيرة العرب الأخرى على مدى ألوف السنين**. وحتى الإطاحة بحكومتنا، كان بوسع أي مواطن من الخليج أو من جنوب جزيرة العرب، أن يدخل زنجبار ويقيم بها، حتى دون وثيقة سفر. وبعد إقامة المهاجر **خمس سنوات**، يصير من حقه الحصول على الجنسية الزنجبارية الكاملة. وأسفر هذا التيسير المتبادل عن تمازج الدم والثقافة والمصالح الاقتصادية على نحو قل نظيره، في أي مكان آخر من العالم.

ومنذ القدم، جعلت الرياح الموسمية التي تهب بانتظام بالغ باتجاهي الجنوب والشمال، **ساحل شرق إفريقيا والشرق الأوسط**، بمثابة منطقة واحدة. وبينما كنت أبحث مع السلطات المعنية في أبي ظبي فيما يتعلق بالأحوال المعيشية للزنجباريين المقيمين في الإمارات العربية المتحدة، **تلقيت دعوة لزيارة المملكة العربية السعودية**. وكان جلالة المرحوم الملك **خالد بن عبدالعزيز** قد عاد لتوه من الولايات المتحدة بعد إجراء عملية جراحية له هناك. وذهبنا أنا والمرحوم راشد حمادي، والدكتور أحمد عيدروس باعلوي، وأمان ثاني، وعمر محمد، ومحمد عبد المطلب، إلى السعودية لنهنئ جلالته بالسلامة، ولنتمنى له شفاء عاجلا.

ومن حسن حظنا أن شُرفنا بلقاء الملك خالد، وأخويه أصحاب السمو الملكي: **الأمير عبد الله، والأمير سلطان**. وكان الأمير

فهد خارج البلاد. ومن الله علينا أيضا على هامش تلك الزيارة **بأداء العمرة**. واغرورقت عيناي بدموع الفرح والشكر، عند أول نظرة علي بيت الله الحرام، الذي هو **أول بيت وضع للناس لعبادة الله الواحد الأحد**.[9] هنا في صحراء قاحلة، يوجد بيت الله الحرام، الذي لم يبني على **قمة** جبل أو تل بارز، بل في **قاع** الوادي. وما كانت أي عبقرية آدمية قادرة على أن تختار مثل هذا المكان الوعر الموحش غير الجذاب. فالممكن الوحيد هو أنه **باختيار الله** تعالى. ولما دخلت الحرم، غدت كل خطوة خطوتها، وكل حركة صدرت عني، معلما في رحلتي الروحية في أقدس مكان على ظهر البسيطة.

وأتاحت لي **العمرة فرصة التأمل في الدلالة الروحية المذهلة لشعائر العمرة، والطواف** حول الكعبة، **والسعي** بين الصفا والمروة، أسوة بما فعلته أمنا هاجر أم إسماعيل عليهما السلام، من ألوف السنين، وهي بين اليأس والرجاء، **وتقبيل** الحجر الأسود، أسوة بما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، **والصلاة** في مقام إبراهيم، ثم **التحلل** من الإحرام. . وبعد الانتهاء من شعائر العمرة هذه شعرت بإحساس عميق بإنجاز روحي لا نظير له، ولا يمكن وصفه بالكلمات. وأسأل الله تعالى حسن الثواب لمن مكنوني أنا وأصحابي من أداء تلك العمرة بكل يسر وراحة.

---

[9] يقول الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ }آل عمران:96-97.

وكانت تلك العمرة فاتحة لأدائي فريضة **الحج**، مع ابني الأكبر محمد، وزوجته عزيزة، وأختي عائشة **بعد ذلك بعدة سنوات**.

وفي الرياض، سنحت لي فرصة الإلتقاء في مناسبات عديدة بفضيلة **الشيخ بن باز**، رئيس هيئة الدعوة الإسلامية والإرشاد. ورغم كونه كفيف، فإنه واحد من أفصح العلماء في العالم الإسلامي، وهو يتمتع بذاكرة خارقة للعادة. فبمجرد أن التقي بمجموعتنا، وسمع أصواتنا، تذكر كل منا باسمه كلما تحدث. ولو كان أحدنا غير موجود، فإنه كان يسأل عنه. وهو إلى جانب حفظه القرآن الكريم كله، يحفظ عددا كبيرا من الأحاديث النبوية الشريفة، مع معرفة درجة صحة إسنادها ومتنها.

وقمت بصحبة الدكتور **مصطفى مؤمن**، الذي تصادف أن كان معنا بعض الوقت، بزيارة صديقي القديم **الدكتور أحمد اليماني**، الذي كان يشغل منصب وزير الإعلام السعودي آنئذ. وكنت قد التقيته من قبل في القاهرة ولندن.

وذهبنا نحن **الستة**: محمد عبد المطلب، وباعلوي، وعمر، وأمان، والشيخ راشد حمادي، وأنا، بدعوة من الهند لحضور احتفالية اليوبيل الفضي **لجامعة مدراس الإسلامية**. وفوجئنا أن كل المدعوين الآخرين ممثلون إما لبلدان **إسلامية غنية**، أو **لبلدان متقدمة علميا**. فما المكان المناسب لنا، ونحن لسنا من ذوي المكانة الأكاديمية، ولا الاقتصادية؟ بل إننا **ليس لنا وطن، وإنما نحن مجرد ممثلين للاجئين لا دولة لهم**؟ ولكن هذا هو عطاء الله تعالى لنا، فالشكر كله لله تعالى. كان هناك علماء من مصر والعراق والكويت والعربية السعودية والمغرب وتونس، على سبيل المثال لا الحصر. وألقيت **خطابا بصفتي ممثلا لمجموعتنا**، في

قرابة عشرة آلاف شخص، وجلست على ذات المنصة مع علماء **من أمثال:** الشيخ محمد متولي شعراوي، والشيخ الشرباصي.

وكان هذا أكبر تجمع **تحدثت فيه منذ الإطاحة بحكومتنا**. ومن الشواهد على أن الحضور تلقوا خطابي بقبول حسن، أن مبعوثين من بلدان آسيوية عديدة، **وجهوا لي الدعوة بعد إلقائي خطابي لزيارة بلادهم**، وإلقاء محاضرات عن الإسلام.

ومن المصادفات ذات الدلالة أن المدينة الصغيرة التي توجد بها تلك الجامعة الإسلامية المحتفى بها، تسمى: "**دارالسلام**". وكان المشهد كله حولي شديد الشبه بشرق إفريقيا كما عرفتها، بأشجار جوز الهند، وحقول الأرز، وحقول الكاسافا، وأشجار المانجو الضخمة. فكل هذا مماثل بكل دقة لما هو في شرق إفريقا. بل، علاوة على ما سبق، فإن الناس أنفسهم **سود** مثل سكان شرق إفريقيا، ويرتدون المئزر الأبيض أو الملون، على ذات شاكلة ملبس أهالي الريف الزنجباري.

ومؤسس هذه الجامعة الإسلامية هنا هو الشيخ **عمر**. ومن ثم فإن كل تلاميذه وحواريه، يلحقون بأسمائهم لقب: **العمري**. ورأينا أيضا أن كلا منهم ينادي الآخر بلفظ **(كاكا)** التي هي رمز الاحترام تماما مثلنا في السواحيلية، والتي تعني **(الأخ)**. ومما لاشك فيه أن **ثقافة المحيط الهندي تحتضننا جميعا**. وبذا شعرنا هنا وكأننا في وطننا بكل معني الكلمة. ووقع نظرنا على مشهد ريفي مطابق تماما لنظير له في جزيرة بيمبا، طلبت من الشيخ راشد أن نلتقط له معه صورة فوتوغرافية. ثم اقترحت مازحا، أن نرسلها إلى الغاصبين في زنجبار، مكتوب تحتها **(الشيخ راشد عاد إلي أولي)** مسقط رأسه، وسيجعل ذلك فرائص عبود جومبي ترتعد

حتى النخاع. وكان الشيخ راشد قائد الحزب الوطني الزنجباري بلا منازع في جزيرة بيمبا، لا يزال آنئذ يمثل قوة يحسب لها ألف حساب.

سابع عشر: الانتقال إلى كينيا

مع إتمام أبنائنا تعليمهم في مصر، رأيت أنا وزوجتي، أنه ليس ثمة داع لمواصلة الإقامة في القاهرة، بينما يتقدم السن **بوالدة زوجتي** في مباسا بكينيا. فلم يكن بالتعليم ساعتها غير إبنتنا الصغرى **نصره**، وكان من المأمول أن تنهي دراستها للهندسة المعمارية بجامعة القاهرة، في العام التالي. أما ابني الأكبر **محمد**، فكان أول من حصل على المؤهل الجامعي من أبنائي، وتزوج وسافر بعد الحصول على درجة البكالوريوس إلي الولايات المتحدة للحصول على **الماجستير**، ومعه زوجته عزيزة، الحاصلة على بكالوريوس التجارة.

وكانت منى *وفتحية* كبرى بناتي قد تخرجتا في الجامعة، وحصلت الأخيرة على بكالوريوس المحاسبة، والأولى على بكالوريوس علم الاجتماع، وتزوجتا. تزوجت منى من سالم البرواني. وتزوجت فتحية من عيسى محمد البرواني. واحتفلنا بزفافهما بشقتنا بمنشية البكري. وتم حفل زفاف محمد وعزيزة بذات الشقة قبل إطلاق سراحي.

و احتفلنا في شقتنا بمنشية البكري أيضا بزفاف ابنة اختي **لطيفة** على فاروق عبد الله. وتخرجت ابنتي الثالثة **سعدية** في جامعة عين شمس بالقاهرة، وانتقلت إلى الخليج بحثا عن وظيفة، وكان من المنتظر بإذن الله إن سارت الأمور على ما يرام، أن تتزوج

ممن خطبها من أمد طويل. وبالفعل تم زفاف سعديه على **وليد محمد بدر** في ممباسا في وقت لاحق بمنزلنا في جانجوني.

أما ابننا الأصغر **خلفان**، فلم يوفق لظروف خارجة عن إرادتنا في إكمال تعليمه، وترك المدرسة مبكرا. فلقد تأثر بشكل سلبي، وهو في الثانية من عمره، بانقلاب أحوالنا كلها رأسا على عقب، فبلدنا دمر، والده أصبح بالسجن، وهو مع أمه المكلومة والمريضة بالقاهرة. وتوفيت ماما بركه التي كانت هي بمثابة الأم لزوجتي والجدة لكل أبنائي قبيل وصولي إلي القاهرة.

وحين خرجت من السجن، كان خلفان قد بلغ **الثانية عشرة** من العمر. وكان الضرر قد وقع وقضي الأمر. فما كان بوسعنا أن نفعل شيئا على المستوى الأكاديمي. تدرب في **النجارة** بمدرسة صناعية بالقاهرة. وتتلمذ في ممباسا علي يد أحد أقاربنا، المعلم **عامر هلال البرواني**، بورشة النجارة التي يمتلكها في ليكوني علي الشاطئ الجنوبي. ومع ذلك، فإن المطاف انتهى بخلفان إلى العمل بنجاح منذ عدة سنوات في شركة تنقيب عن البترول في صحاري عمان. ونجح بكده وعرقه وادخاره، في شراء بيت خاص به في مسقط مجاور لبيت أخته وصهره (فتحية وعيسى). وهو رجل صلب وخشن، وعيبه الأكبر، إن صح كون ذلك عيبا، هو **سخاؤه المفرط.**

ومدينة ممباسا جزيرة مفصولة عن **البر الكيني** بخليج صغير، ويربطها به جسر في ماكوبا، عليه طريق وخط سكك حديدية يمتد من أحواض السفن في ميناء كليندييني، إلى كامبالا في أوغندا، مارا عبر العاصمة الكينية نيروبي. ورغم أن زوجتي عزة، وامها مولودتان في جزيرة زنجبار، فإن لهما جذورا في الساحل الكيني.

وكل من جدة عزة لأمها، ووالدها مولود في لامو، وكذا جد جدي سالم بن عيسى. وقبل استقلال كينيا وزنجبار في أواخر عام 1963، كان الساحل الكيني جزءا من ممتلكات السلطان. وبالتالي، فإن كل من ولدوا هناك قبل هذا التاريخ هم مثلنا زنجباريون بالمولد.

وبعد عام 1964 أقامت والدة زوجتي بعض الوقت في المملكة العربية السعودية، ثم عادت إلى ممباسا، واتخذت منها موطنا لها. فما أصابنا أصابها. فلقد صادر نظام الحكم الغاصب بيتها المكون من طابقين، وكل ممتلكاتها في زنجبار، بما فيها مزارعها الثلاث. وكانت السيدة رايه، الشهيرة بكل اعتزاز ببنيومو، معروفة في زنجبار بكرمها وحسن وفادتها. وواصلت الاحتفاظ بتلك الخصال وتلك السمعة التي اشتهرت بها في ممباسا. فكان بيتها في ممباسا مثل بيتها في زنجبار، لا يكاد يخلو من الضيوف.

ومع أنها كانت هي في واقع المر **لاجئة**، فإنها بذلت كل ما في استطاعتها لمساعدة **اللاجئين الكثيرين** الذين نزحوا من زنجبار، أو من أوغندا. فهي كانت متيمة بالضيافة بكل صورها الرسمية وغير الرسمية.

وحينما انتقلنا أنا وعزة إلى ممباسا أقمنا معها في شقة مؤجرة لبعض الوقت. وكانت تلك الشقة الرحبة، بمنزل مملوك لسالم بن عيد، وهو مواطن من مشاهير ممباسا. وبعد فترة انتقلت أنا وزوجتي إلى بيت مملوك لنا في جانجوني، بعد أن أخلاه المستأجرون، وتم الفراغ من التجديدات الضرورية.

وبعد ذلك جاء **ابننا محمد**، واشترى **لنا بيتا على الشاطئ قبالة ميناء كيليندي على البر الكيني بقرية تسمى متونجوي**. وانتقلت والدة زوجتي إلى المنزل الكائن بجانجوني. وكان مالك البيت الذي اشتريناه في متونجوي، شاب وسيم قوي البنية يدعى **حسن مزمل**، وهو صديق للمرحوم عبد الله سعود ابن خال عزة. وكان رجلا خدوما، هو وزوجته الجميلة فاطمة، وأولاده، وعبد الله، شقيق زوجته الذي كان مقيما معهما. وتوطدت عرى الصداقة بين أسرتينا. وبني حسن، على إثر بيع بيته القديم لنا، بيتا جديدا في منطقة قريبة، وانتقل إليه. وكان حسن وفاطمة زوجين كادحين، نجحا في تأمين مستوى حياة كريمة لأسرتهما بعرقهما وكدهما.

وعن طريق حسن مزمل تعرفنا على **سليمان شحبل**، ذلك الشاب الرائع، الذي يأسر اهتمام من يعرفه. قرأ سليمان كتاب لوفتشي الموسوم "**زنجبار: خلفية الثورة**"، وجاء به حسن إلي لنناقش معا القضية الزنجبارية. وسرعان ما تبين لنا أنه تجمعه درجة قرابة وثيقة مع عزه. فأمه هي **مريم محمود** ابنة خالة أم زوجتي.

وجاء سليمان برفقة مخطوبته **نهيدة باصديق**، التي تزوجها فيما بعد. وكان هو وهي لا يزالان وفي ذلك الوقت طالبين بجامعة نيروبي. **وتأثر سليمان بما سمعه مني عن الوضع السياسي في** زنجبار، بشدة، فقرر **إعداد بحث مناسب** في هذا الموضوع. وأصبح زائرا منتظما لمتونجوي. وحينما ذهب هو وزوجته عقب زفافها عليه، إلى الولايات المتحدة، أتيح له الوقت الكافي لإجراء المزيد من البحث، وتمخض ذلك عن **كتاب عن تاريخ زنجبار الحديث، لم يطبع بعد.**

أما البيت الذي اشتراه لنا محمد، فكان يقع في موضع لا يدور بخلد إنسان ان يجد مكانا أجمل منه. فهو قائم على جرف مطل على البحر، وفيما وراءه تقبع جزيرة ممباسا. ومن أروقة بيتنا، بل من حجرة الجلوس، ومن سرير حجرة النوم الرئيسة، يمكنك مشاهدة **السفن** وهي تغدو وتروح من ميناء كليندي، **والشمس** وهي تشرق وتغرب عن يمينك وعن شمالك. وتحت شجر المانجو الضخم بنينا مصطبة من الخرسانة المسلحة، نطل منها على هذا المشهد البديع.

ومع نسيم البحر، وصلادة الأرض، تخلصنا من البعوض معظم الوقت. ولم يبهرني الوصف الوردي الذي قدمه حسن لهذا المنزل، وإنما ملكت البيئة الساحرة المحيطة به فؤادي. فمثل تلك البيئة لا تقدر بثمن. فهي جيدة بقدر لا يصدقه عقل. وبدا وكأني في حلم. والحقيقة أن البيت قديم، ولكنه رحب.

وكان ذلك البيت يطل على مرساة قوارب الصيد اليابانية والكورية مباشرة. ولا يخلو بالتالي أبدا من حاجته من التونة، ولحم سمك القرش. بل إننا كنا لفترة نصيد أنواعا شتى من السمك بأنفسنا بشبكة صيد صغير، ثم توقفنا عن ذلك فور اكتشافنا أن جيراننا حسودين لا نعرفهم، قد اكتشفوا أمرنا. وبدلا من أن يصطادوا مثلنا، اكتفوا بأخذ ما تصيده شبكتنا، تحت جنح الظلام. نعم تخلينا عن فكرة الصيد. ذلك أن معظم شباب الحي كانوا يمارسون نوعا ما من التهريب أو من اختلاس ما يصطاده غيرهم. وهذه **هي النقيصة الكبرى في شرق إفريقيا الراهنة. فلقد راحت الأخلاق أدراج الرياح.**

وبقرابة فدان من الأرض محاط بسور، استطعت ان أشغل وقتي في **زراعة الزهور**، والخضروات والموز والباباي. واستطعنا بشجرتي مانجو ضخمتين، وعدد من أشجار جوز الهند، أن نستمتع بأجواء ريفية، ونعود **بالمعدية** في فترة وجيزة إلى المدينة. وصنع لنا قريب نجار بمساعدة ابنه وخلفان، حظيرة دواجن تسع **مائتي دجاجة**، مدتنا بكل احتياجاتنا من البيض ولحوم الدواجن على الدوام.

وترك لنا حسن مزمل المالك السابق لهذا البيت، كلبين ممتازين، سرعان ما ألفناهم وألفونا. إلا إننا بينما كنت أنا وعزة في رحلة فيما وراء البحار، وتركنا ابننا **خلفان** وابن أختي **سعيد** الذي كان حينها شابا راشدا، اقتحم لصوص البيت، وطعنوا سعيد بسكين، وهربوا بجهاز تليفزيون، بعد أن جاء خلفان بجراءة ملوحا ببندقية صوت.

وكانت إصابة **سعيد خطيرة**، ولكنه تعافى منها بعد مكوثه فترة بالمستشفي. وعجزنا عن فهم الكيفية التي غرر بها اللصوص بالكلبين، وجعلوهما لا يقومان بواجبهما. ويبدوا أن أحد أولئك المجرمين كان يعمل بالمبنى، وهو بالتالي مألوف للكلبين، وعارف بطريقة التعامل معهما. ومر وقت طويل قبل تحديد الجناة والقبض عليهم. ولكنهم في النهاية وقعوا في يد العدالة، ونالوا جزاءهم.

وتعد **الجرائم المصحوبة بالعنف** أسوأ سمة للحياة في كينيا، بل في كل أرجاء شرق إفريقيا. وبات **التعامل بأمانة عملة نادرة.** فليس ثمة أمانة بدرجة تذكر على **طول السلم الاجتماعي، من القاعدة، إلى القمة**. ويشم المرأ رائحة ذلك فور دخوله المطار.

فالكل يبدو مصرا على أن يسلب ما معك. والكل يبحث عن ذريعة ما ليتقاضى رشوة منك، حتى لو لم يكن هناك أي داع لذلك على الإطلاق.

وشرق إفريقيا بلاد جميلة، يمكن أن تتسع الحياة الرغدة والسعيدة فيها لكل سكانها. ولكن بعض سكانها مصرون على ما يبدو على تشويه سمعتها. والباقون مساوون لهم في الإثم بقبولهم الضمني، بإغماض عيونهم، والتزام الصمت. وعلينا أن نتعلم تلك الحقيقة الخالدة من القرآن، الواردة في قول الله تعالى:

"لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ{78} كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ{79} تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ{80}. (المائدة 78-80)

ومن ثمانين سنة خلت، كانت جزيرة العرب واحدة من أشد بلاد العالم جموحا، يعيش كثير من سكانها البدو على **اللصوصية وقطع الطريق**. وكان الذهاب لأداء فريضة الحج، يمثل في الواقع العملي **التوقيع علي شهادة وفاة**، ليس بسبب غياب الإجراءات الصحية فحسب، بل بسبب العصابات التي تعتمد في كسب مقومات حياتها على مصدر وحيد هو **السطو على القوافل**. ومن الشواهد ذات الدلالة، أن الإمارات العربية المتحدة الآمنة الآن،

كانت تسمى: **ساحل القراصنة**[10]، بسبب ولع سكان تلك المنطقة في الماضي بنهب السفن التي تقترب من سواحلهم. وإن لم يكن هناك شاهد دامغ على ذلك، فإنه يمثل، على أقل تقدير ما يدعيه كتاب غربيون. ثم قيض الله تعالى للجزيرة العربية **الملك عبد العزيز**، فاقام العدل وبسط سلطته الكاملة على نجد، بما له من شخصية، وبصلاحه المؤسس بالكلية على القرآن.

وفي فترة وجيزة، امتد سلطانه من الدمام إلى جدة. وامتد تأثيره الإصلاحي في إقامة العدل، في كل أرجاء شبه الجزيرة العربية، بشكل غير مباشر.

والآن يستطيع المرأ أن يسافر بسيارته منفردا من **البحرين** إلى جدة دون أن يعرض له أحد بأي سوء. وبوسع **سيدة** أن تسير بمفردها في الهزيع الأخير من الليل في شوارع **مسقط**، أو أن تقود سيارتها في المناطق الجبلية الداخلية من عمان بأمان كامل. **وسوق الذهب** في دبي مكشوف مثل سوق الخضار سواء بسواء.

والطريق الأمثل لأن تسجن، ثم ترحّل، في الإمارات العربية المتحدة، هو أن **تغش في المعاملات. فالبقشيش، أو الإكرامية، غير معروف فيها**. وبمثل هذه الخصال، غدت تلك البلاد الصحراوية، واحة أمان، ليس لمن يأتي إليها من السائحين

---

[10] كانت تسمى لدي العرب بساحل عمان الشمالي، ثم سميت بالساحل المتصالح. وتسميتها بساحل القراصنة تسمية استعمارية بريطانية نتيجة لما تتعرض له سفنهم من غزو على يد القواسم. – يعقوب بن سعيد البرواني

الزائرين فحسب، بل لرجال الأعمال الراغبين في الاستثمار والعمل كذلك.

إن المعجزة التي تحققت في منطقة "جبل علي" الحرة في دبي، في غضون سنوات معدودات، ما كان لها أن تحدث لولا مثل ذلك الإلتزام بالأمانة في المعاملات. فالنظام القائم يفرض نفس الأعراف والقوانين، المعمول بها بالنسبة للمواطنين جميعا، على العمال الأجانب الكثر القادمين من الخارج، سواء كانوا من الفلبين أم من شبه القارة الهندية، أم من البلدان العربية، على صعيدي القول والفعل. وبالطبع ستكون هناك بعض الانتهاكات، ولكنها نادرة الحدوث، وحين تحدث تقابل بعقوبات مناسبة.

فإن كان هذا قد أمكن تحقيقه في بيئة الجزيرة العربية الجموحة، فما **المانع من تحقيقه في شرق إفريقيا؟** ولن يستطيع أحد أن يقول أن الفضل في ذلك يرجع إلى **الثروة البترولية. فنيجيريا** غنية بالبترول هي الأخرى. فكيف حال الأخلاق بها؟ سمعتها رديئة، والرشوة عنوان منحوت لها. **وبشرق إفريقيا ثروات طبيعية أعظم بكثير من البترول القابل للنفاد.** بها غابات، وإمكانيات صيد كبيرة، وشواطئ، ومعادن، وخيرات المحيط الهندي من مناخ معتدل وأمطار وفيرة، وأنهار متدفقة، وبعض أكبر بحيرات العالم. ولا ينقصها غير **الإرادة الأخلاقية والسياسية لأن تكون أمينة وكريمة ومحترمة** لنفسها. ولقد كانت زنجبار بوجه خاص قبل عام 1964، تستمتع بالسمعة التي تتمتع بها دول الخليج العربي الآن. فأمانة وكرم حكامها كان ساريا في عروق كل سكانها، مما جذب كل الشرق إليها للتجارة والتلاقح الثقافي. ولم تكن زنجبار

ثرية، ولكنها كانت **أمينة ومحترمة لنفسها**. ومن مؤشرات ذلك أن زائريها العرب كانوا يسمونها "**بلاد الأخلاق**".

أتذكر علي كانجي، ذلك الهندي العجوز المحترم، الذي كان صاحب متجر في هورمزي بزنجبار، يقع خلف جماعة خان الاسماعيلية[11] مباشرة. قال لي وأنا بالغ الصغر، أنه حينما كان ذات مرة بحاجة إلى قرض **بمائتي ألف روبيه**، وكان ذلك المبلغ ضخما للغاية في حينها. أرسل خادمه إلى جدي **علي بن عيسي** يطلب منه ذلك القرض. ويقول ذلك العجوز المحترم: "أخذ الخادم هذا المبلغ بكامله فضة ليوصله إلي. ولم يكن مع الخادم، أي **طلب مكتوب، ولا أي تعهد كتابي**، على الإطلاق. **فكانت كلمة من أحد خدامي كافية لأن يأتيني بهذا المبلغ الضخم من جدك.** ذاك كان **مستوى الثقة بيننا**".

ولا يسأم المرء من الحنين إلى أيام **زنجبار الطيبة الخوالي**. أما **زنجبار اليوم فهي على النقيض تماما**. فلقد دمرت سمعتها التاريخية. فإن كان من ألبسوا أنفسهم زي الحكام، هم الذين انحطوا بأنفسهم إلى **دركات سرقة مواطنيهم**، فإن أساس الأمانة يكون قد انهار من أساسه. ولن يحالفهم الفوز في شئ، **وستظل زنجبار أضحوكة العالم، مالم تعود إلى احترام تقاليدها وأعرافها الدينية**، التي تبين الحلال من الحرام، بميزان شرع الله تعالى، ووفق المعايير الدولية للعدالة والفضيلة الأخلاقية، وليس وفق ما

---

[11] مجمع ومسجد طائفة الإسماعيلية الشيعية

تراه الحكومة غير الشرعية. فطالما بقيت الممتلكات المصادرة، مصادرة، فإن الشعب كله سيظل منغمسا في الحرام.

ولقد وصلنا إلى مرحلة يمكن القول أن قلة فقط في زنجبار هم الذين لا يزالون أمناء. أما أغلبية الشعب، فباتت تعتبر تلك المظالم الشنيعة مثل: السرقة، والنصب والاحتيال، والغش، وبيع الممتلكات المصادرة وشرائها، أمرا طبيعيا.

ولو لم تكن ثورة 1964، قد جرت على زنجبار غير تدمير المعايير الأخلاقية لشعبها وقيمه، فإنها تكون قد ارتكبت كبيرة، تستحق بسببها اللعنة.

ورغم كل شئ، فإن إقامتنا في ممباسا أدخلت السرور والرضا علي وعلى عائلتي، ليس بسبب **جذورنا العميقة** في كينيا، بل لوجود الكثير من **الأقارب والأصدقاء فيها**. فخال عزة، سعيد بن سيف في البيت المجاور لبيتنا. وسالم سعود ابن خال عزة، والفاضلة شريفة عمة عزة، وفهمي سالم، وليلى لايل وزوجها محمد دويلو، وعلي أحمد الجهضمي، **وأحمد عمر الجهضمي**، معنا على الدوام. وأنا مدين لأحمد عمر الذي نجاني الله به من جحيم أرضي. أما **محمد عبده** الذي يمتلك والده وعمه جراج حبيب في دراجاني بزنجبار، فقد بكي من الفرح، وهو يحتضنني حين التقينا لأول مرة بعد فراق استمر خمسة عشر عاما. أما الزنجباري الدكتور **حسن العطاس** فكان صديقا وطبيبا لعائلتنا. وكانت العلاقة جد وثيقة بينه هو وزوجته نونو محفوظ، وأنا وزوجتي عزة، وجرت العادة على قضائهما العطلة الأسبوعية معنا في متونجوي. وعلاوة على ذلك، كان لي جمع من الأصدقاء من أعمام وعمات، وأخوال وخالات عزة وأبنائهم.

وبمجرد أن تعبر الممر الواقع جنوب ممباسا، تصير في منطقة قبيلة الديجو التي تقطن الساحل كله بعد ذلك حتى تانجا بتنزانيا. وكانت تلك المنطقة تعتبر قبل الاستقلال قاصرة عليها. وكانت معظم الأراضي مملوكة لتلك القبيلة، ولا يستطيع أحد أن يشتريها. وهذه القبيلة مسلمة عن بكرة أبيها على وجه التقريب.

وبعد الاستقلال، أعطت حكومة الرئيس كينياتا لكل أسرة من قبيلة الديجو الحق في الحصول على **وثائق الملكية** المقرونة بكل أشكال التصرف، في قطعة الأرض التي هي تحت يدها. وفرح أبناء القبيلة بذلك، ولكن هذا الإجراء كان ظاهره فيه الرحمة وباطنه العذاب. فلقد أدركوا الآن أن ذلك الإجراء كان **مجرد مرحلة انتقالية صوب مصادرة أراضيهم**. فحق الملكية التامة، كان يعني تسهيل انتقالها إلى الأجانب.

وفي فترة زمنية قصيرة نسبيا، آلت ملكية معظم أراضي الديجو إلى أعضاء أكثر دهاء من قبائل البر الكيني مثل: الكيكويو والكامبا واللوو. وغدت تلك القبائل تهيمن حاليا على الساحل كله بما فيه ممباسا وماليندي ولامو. بينما صار السواحيليون والديجو والجريامـا معدمون، وأقليات في وطنهم. وكان معظم سكان الساحل سواحيليين عرب أفارقة، يتشكلون من مختلف المجموعات القبلية الباجوني، والمطافي والكيليندي[12]، والشيرازية وغيرها.

---

[12] يشير بعض الباحثين إلى أن طائفة الكيليندي هم من آل الجلندى الذين هاجروا في القرن الأول الهجري من عمان بقيادة سعيد وسليمان إبني عباد بن الجلندى بعد غزو الأمويين لعمان، وكان منهم من قدم إلى بلاط الأئمة اليعاربة لطلب العون لتحرير سواحل شرق إفريقيا من البرتغاليين وكانت إمارتهم في لامو. – يعقوب بن سعيد البرواني

وتجمع بينهم اللغة السواحيلية المشتركة والثقافة الإسلامية الجامعة. ثم جاء الديجو، الذين أصبحوا مسلمين من حيث **الديانة**، سواحيليون من حيث **الثقافة**. ثم جاء الجريامـا، ولكن معظم عناصرهم استمروا على قبليتهم، وديانـاتهم الطبيعية، في حين استوعب الفلك السواحيلي بعضهم. واكتسحت موجات هجرة حديثة متتالية من البر الإفريقي، تلك القبائل الأصلية الآن.

وتعارفت فترة إقامتي في متونجوي على سكان تلك المنطقة من الديجو. وكانت أسرتي هي الوحيدة، في أغلب الحالات، من غير أبناء تلك القبيلة، التي تدعى لحضور ما تقيمه من موالد ومن حلقات ذكر ومناسبات اجتماعية ودينية. بل كانوا يأتون أحيانا ويعقدون حلقات ذكر في بيتنا، في ضيافة زوجتي. أحبونا وأحببناهم.

واعتاد **مويني عطاني** أحد كبرائهم، على القول بأنني إن مت هنا، فلن يسمح لسكان ممباسا أن يدفنوني، بل سيقوم أبناء قبيلة الديجو بمراسم الغسل والتكفين والجنازة وفق تقاليد الذكر على الطريقة القادرية الخاصة بهم، التي يعتبرها البعض في عداد البدع. وكانت أسرتنا تدعو القرويين أحيانا إلى **المنطقة الفضاء المجاورة لمسجد القرية والمدرسة، وتعرض عليهم أفلام فيديو الهادفة مثل:** الرسالة ورابعة العدوية وعمر المختار. وكنت أقدم لهم **شروحا مختصرة** في ثنايا العرض، **باللغة السواحيلية**. وأحبوا تلك العروض، واستفادوا منها الكثير.

وفي **أيام الآحاد**، كان يزورنا أصدقاء من المدينة، ويقضون اليوم معنا. وأذكر من بين من **اعتادوا ذلك:** أبوسليمان المزروعي، ومحمد عبيد الحاج، وراشد علي الريامي، وعلي أحمد الجهضمي،

وحاجي خطيب، وموسى لاشوكا، ومحمد سليمان المحروقي، ومحمد سلطان المسكري، ومحمد عبده البلوشي. وكنت أصطحب محمد عبده في المناسبات في زيارة لرجل الدين وقاضي القضاة المتقاعد الشيخ **محمد بن قاسم المزروعي**[13] الذي كان يعيش في هدوء بمنزله بكساأوني، إحدى أحياء ممباسا. وكنت أحتفي باجتماعاتنا مع الشيخ، **فالتحدث معه هو التعلم بعينه**. فلا يمكن أن يخرج المرء من جلسة نقاش معه، دون التزود بمعلومة ثمينة وإرشادية. فهو لم يكن ينطق بغير المنطق والحكمة. وكان يخامرني ذات الإحساس تجاه سلفه العلامة الشيخ **الأمين بن علي المزروعي**[14]، الذي كان عملاقا بين علماء شرق إفريقيا.

وكان الشيخ الأمين سياسيا أيضا، ولكنه كان أبعد ما يكون عن الديماجوجية. واكتفى في ممارسته للعمل السياسي في البداية، على نشر توجيهاته عبر صحيفته المسماة "**الإصلاح**"، ثم عبر كتيبات من تأليفه فيما بعد. وكان هذا الشيخ الجليل معاصرا لوالدي وصديقا حميما لصديق والدي الشيخ **أبو بكر باكثير**.

وكنت أقضي وقتا طيبا مع **الشيخ أمين والشيخ بريك** المولود في لامو، والشيخ **مبارك بن علي الهنائي**، كلما زرت ممباسا في طريقي من ماكيريري، وفي طريقي إليها، ثم بعد أن تزوجت عزة، ومكثت أمدا طويلا في ممباسا. وكان الشيخ مبارك هو والي

---

[13] عائلة المزروعي تعود إلى قبيلة المزارعة من الرستاق بعمان، وكانوا ولاة على ممباسا في فترة حكم اليعاربة. وبعد انهيار دولة اليعاربة استقلوا، فقاتلهم البوسعيد وأخضعهم السلطان سعيد بن سلطان بعد ذلك. – يعقوب بن سعيد البرواني

[14] فقيه ومؤرخ له مخطوط تاريخ ولاية المزارعة في شرق أفريقيا. – يعقوب بن سعيد البرواني

الساحل، ويقوم **بوظيفة مزدوجة**: المسؤول الإداري تحت رئاسة بريطانية، وممثل سلطان زنجبار وفقا للتقاليد القديمة في احتفالات **رسمية معينة مثل**: الاحتفال بالعيد. وكان ضليعا في التاريخ المحلي والأدب السواحيلي. وكان مثل عمي الشيخ عيسي بن علي البرواني مغرما بجمع الآثار التاريخية التذكارية. واحتفظ ابنه فهمي الذي لم يبارح ممباسا أبدا، ببيت والده، وبه كل تلك المجموعات التذكارية، تماما كما كان في حياة والده.

وكنت أستمتع بزيارة الشيخ مبارك في المساء، بعد العشاء، حيث يأتيه أحبابه في هذا التوقيت لاحتساء القهوة وأكل التمر، وهم يتجاذبون أطراف الحديث حول شتى الموضوعات، وحديث الناس بالمدينة، ويستشهدون بقطوف من الشعر والنثر باللغتين العربية والسواحيلية. وكنت بصفتي شابا حديث السن، مراقبا صامتا، أكثر منه مشاركا، في موضع الشارب لا الحالب، بالرغم من أنني كنت أحادثه حينما أكون معه بمفردي. وماتت زوجته التي كانت زوجة وأما مثالية أثناء الولادة. وهي قريبة لزوجتي. فكلاهما من عائلة أولاد حميد البوسعيدي. الذين تربطنا بهم نحن ذرية سالم بن عيسى البرواني، علاقة قرابة قديمة. فجدي الأكبر سالم بن عيسى البرواني هو حفيد عبد الله بن جاعد البوسعيد، مثله مثل حميد بن سعيد، مؤسس عائلة أولاد حميد. وبهذه الطريقة فإن عائلتي، عائلة أولاد عيسى، أولاد عمومة لعائلة زوجتي، عائلة أولاد حميد.

ومن بين من ربطتني بهم أواصر الصداقة **في ممباسا**: الشريف ختامي، ابن السيد احمد بدوي الموقر، من لامو، وابن أخت موني عيدروس. ويعتبر ختامي من جهة أمه، حفيدا لأعظم رجل دين زنجباري، الشيخ **عبدالله بن محمد باكثير**، وعبره توجد علاقة

قرابة بعيدة بيني أنا والشريف ختامي، بحكم أن والدة الشيخ عبدالله، والجدة الكبرى لختامي **بروانية**. وفي نفس الوقت كان الشيخ عبدالله باكثير هو معلم والدي. وكنت أسعد وأتعلم من حضور الدروس الدينية التي يلقيها الشريف ختامي في مسجد أنيسه وفي مسجد المنذري. وكانت له حلقة علم يؤمها كثير من طلاب العلم. . كما كان عواده كثيرون من جهة أخرى لبراعته في التداوي بالأعشاب. والراجح أن ابنه بن سميط، يحافظ على التقاليد الدينية لأسرته، رغم تشبعه بالتعليم العلماني وحصوله على درجة الماجستير في الكيمياء. فلقد تواصلت مع حلقته الدراسية في دبي ومسقط، وسعدت بها واستفدت منها.

واستقبلت مباسا الشيخ **عبد الله صالح الفارسي**[15] بعد رحيله من زنجبار بعد الثورة بالأحضان، خاصة من جانب صديقيه: الشيخ محمد بن قاسم، وأبي سليمان. وتولى منصب قاضي القضاة. وجذب بدروسه في مسجد شيبو حشودا خفيرة من المستمعين. ولكن دروسه لم تكن نظامية على شاكلة ما كانت عليه في زنجبار، بل تشعبت، ولم تعد تنصب حول موضوع واحد، أو تعتمد على كتاب بعينه. وتمسك الشريف ختامي والشيخ بريك بالتقاليد المتعارف عليها، وركزا جهودهما على تعليم حلقة محدودة من الحواريين من ذوي الألباب ليصبحوا في الوقت المناسب جيلا جديدا من العلماء. ومن ثمرات هذه **الحلقات**: قاضي القضاة

---

[15] قاضي قضاة زنجبار قبل مجازر 1964، ثم قاضي قضاة كينيا. وله عدة مؤلفات منها "البوسعيديون حكام زنجبار" نشرته وزارة التراث العمانية. كما ترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغة السواحلية. – يعقوب بن سعيد البرواني

الشيخ ناصر النهدي الذي تتلمذ على يد الشيخ بريك. ومن بين تلاميذ الشيخ بريك **أيضا**: الشيخ علي الدراني قاضي ممباسا والمرحوم مبارك وارشو والد الدكتور وارشو، أخصائي القلب الكيني الشهير.

ويقع مسجد شيبو الذي أعيد بناؤه، ووضع تحت إدارة جديدة بجوار **سوق مويمبي تاياري الضخم غير المسقوف**. وعرف ذلك السوق، في أيام الآحاد في الماضي، رجال دين مسيحيين بروتستانت من كافة النحل، يبشرون بالإنجيل.

وبدأت الأمور تتغير في منتصف السبعينيات. وعاد أحد أبناء الديجو بعد أن كان قد تنصر مؤقتا، إلى دينه الأول (الإسلام) لما تبين حقيقة ما بالكتاب المقدس. وبات بمقدوره أن يدرك بمقارنة فحوى ما بالكتاب المقدس بما في القرآن الكريم، مستعينا بالترجمة التي أعدها الشيخ **عبد الله صالح الفارسي** لمعاني القرآن الكريم باللغة السواحيلية، وجود قدر كبير من الاتفاق بينهما في أمور العقيدة الحيوية، وأن **تعاليم الكنيسة مختلفة إلى حد بعيد عن الكتاب المقدس**، ناهيك عن البون الشاسع بينها وبين القرآن.

أنشأ ذلك الرجل القصير الممتلئ الجسم النشط، منبرا في مويمبي تاياري، وبدأ في طرح رؤية تحليلية نقدية للكتاب المقدس والقرآن. فكان يقرأ مقتطفات من كل منهما، ويبين مدى الاتفاق الكبير بينهما، ثم يطرح على مستمعيه سؤاله البليغ: **ما السر في أن القساوسة يعلمون الناس شيئا مغايرا لما في الكتاب المقدس؟** وجذبت مواعظه المزيد والمزيد من الجموع. وأراد ليكون جهده هذا بنّاء، أن يقنع عالم بالإسلام برفد ما يقوله هو في تفكيك **تعاليم الكنيسة**، ببيان **حقيقة الإسلام**. فلقد وقفت حدود استطاعته هو

عند حد إثبات أن ما تعلمه الكنيسة للبشر ليس هو المسيحية كما جاءت في الكتاب المقدس.

جد في البحث عن مثل ذلك العالم الإسلامي، ونجح في نهاية المطاف في إقناع المعلم **سعيد بن أحمد** بالمجئ إلى سوق مويمبي تاياري والتحدث إلى الجمع المحتشد به. ومثل ذلك حدثا غير مسبوق. فلقد اقتصر العلماء المسلمون قبل ذلك على **الوعظ بالمساجد**. وكانوا في مجموعهم يعتبرون **الوعظ في الهواء الطلق أمرا ينال من كرامتهم**، رغم أن تلك هي سنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

إلا أن المعلم سعيد الطاعن في السن، والمقطوع الرجلين لإصابته بداء السكري في مرحلة متقدمة، وافق على القيام بهذه المهمة الرفيعة. وكان من الأمور الجديرة بالإعجاب أن تستمع إلى الواعظ من الديجو وهو يقدم **مراجعة نقدية للمسيحية** الراهنة التي جرى تمريرها، المعارضة لتعاليم المسيح، ثم تستمع إلى **المعلم سعيد** وهو يبين ماهية الإسلام. ومن هنا بدأ الناس يدخلون في الإسلام أفواجا. واشتغل بعض الداخلين في الإسلام الجدد ممن توفرت لديهم موهبة الخطابة في الدعوة إلى الإسلام، ووسعوا نطاق أنشطتهم الدعوية، لتصل إلى ضواحي ممباسا، كحي كساأوني، وحي تشانجموي.

وكان المعلم سعيد بن أحمد واعظا لامعا في إذاعة ممباسا قبل الإستقلال. واعتاد سمو الراحلين السيد خليفة والسيدة نونو على الاستماع بشغف إلى أحاديثه الدينية. وكان له برنامج بعنوان " **لكل سؤال جواب**". وبقدر ما عرفت المعلم سعيد وأعجبت به، بقدر ما سعدت وشرفت بمعرفة والده الورع والموقر المعلم أحمد.

ومن بين الابتكارات التي رأيتها في فترة إقامتي في ممباسا، أن **خطبة الجمعة كانت تلقى باللغة السواحيلية**. كان هذا هو الشائع في معظم المساجد. إلا أن قليلا من المساجد التي يؤمها مسلمون يستطيع الجانب الأكبر منهم متابعة الخطبة باللغة العربية، كانت الخطبة تلقى فيها بالعربية، يليها الترجمة بالسواحيلية. وجذبتني خطب **إسلام خيار** في مسجد يسمي " **الأزهر**" في جورايا.

كان هذا الخطيب رائعا. فهو من حيث تخصصه المهني مدرس علماني، يشغل منصب ناظر مدرسة توم مبويا الإبتدائية. وهو بتلك الصفة، وبما حباه الله به من ظرف، يلقي خطبه على نحو مؤثر يجذب أعدادا غفيرة من المصلين من كل أرجاء المدينة. ولمع نجمه لخصال عديدة فيه **من بينها**: أنه كان شابا، ومطلعا، ومن أبناء ممباسا، ولا يتضايق من النقد، ولا من طرح مقترحات عليه، بل يرحب بذلك.

ومن بين العيوب الخطيرة التي لم أجدها في ممباسا فقط، بل في كل أرجاء بر شرق إفريقيا: **التقاطب بين التعليم الإسلامي، والتعليم العلماني**. فمن القواعد المستقرة المعمول بها في كينيا أن لا يسمح لطفل بدخول مدرسة ابتدائية، ما لم يكن قد أنهى دراسته بمدرسة الحضانة. وكل مدارس الحضانة تلك، تديرها **إرساليات مسيحية**، أو يدرس بها معلمون تدربوا على يد تلك الإرساليات. وكانت العادة على الدوام أن يرسل الآباء المسلمون **أبنائهم إلى المداس القرآنية، قبل إدخالهم المدارس العلمانية العادية**.

ومعنى ذلك، أن المسلمين كانوا هم الوحيدون الذين كانت لديهم نوعية من المرحلة الإبتدائية مناسبة لهم في نظامهم التعليمي، إلى أن أنشئت مدارس الحضانة العلمانية. وهنا وجد الآباء المسلمون

أنفسهم أمام معضلة، إذ بات لزاما عليهم الاختيار بين مدارس القرآن والتعليم العلماني. والبديل هو إدخال الطفل **مدرسة حضانة** في الصباح ومدرسة قرآن في **العصاري والعطلة الأسبوعية**، وهو ما يمثل عبئا كبيرا على كاهل الأطفال المسلمين.

أخبرت صديقي اسلام خيار بالكيفية التي عالجنا بها هذه المشكلة في زنجبار على **النحو التالي:**

أ- **إنشاء فصول قرآنية** في المدارس الحكومية قبل المرحلة الإبتدائية.

ب- **إنشاء مدارس حضانة** تدرس باللغة العربية فحسب، يتعلم التلاميذ بها تلاوة القرآن واللغة العربية.

ودعا **اسلام خيار** على إثر ذلك من على منبر المسجد في خطبة الجمعة إلى إنشاء مدرسة حضانة إسلامية. وأسفر هذا المسعى عن **إنشاء أول مدرسة** من هذا النوع في جورايا، ولا تزال هذه المدرسة، على حد علمي، مزدهرة حتى الآن. وسرعان ما سارت المدن الأخرى على ذات الدرب. وبلغ هذا المشروع درجة عالية من النجاح، حدت **بزنجباريين إلى المجئ إلى ممباسا لمشاهدة الكيفية التي تدار بها مثل تلك المدارس.**

ومن المؤسف أن السلطات الكينية منعت إسلام خيار، فيما بعد، من الخطابة بمسجد جورايا. ولم أستطع معرفة السبب الحقيقي وراء ذلك. هل هو قيامه بزيارة لإيران؟ أم لأنه تصادف أن تحدث بما يجرح مشاعر سياسي مهم ما في ممباسا؟ فالفتنة، للأسف، شئ معتاد في جزيرة ممباسا. وهي من الأمور التي من الصعب للغاية النجاة منها.

ثامن عشر: صديقي أبوسليمان المزروعي

على إثر وفاة الشيخ أمين والشيخ مبارك، اضطلع صديقي **أبوسليمان** بالسنة الحسنة الخاصة **بعقد البرزة المسائية**، أو المجلس في نفس البيت الذي كان الشيخ الأمين يقيم فيه. وأبو سليمان هذا هو: محمد بن سليمان بن علي المزروعي، صاحب الشخصية الفريدة، والذي كان هو رمز كرم ممباسا فترة عمادته لعائلته. وكان أخوه الأكبر الشيخ مأمون قاضيا بممباسا، ووالدهما الشيخ سليمان بن علي، علَم موقر وشهير من رجال الدين

ولم يكن أبوسليمان نفسه متعلما، ولكنه شب وتربى بين العلماء. وكان الشيخ **عبد الله صالح الفارسي** من بين أصدقائه المقربين. وبذا صار أبوسليمان تجسيدا للمنهجية العلمية، رغم عدم حصوله على الأستاذية من مقاعد التعليم. ولقد بكيته بحرقة، حين أدركته المنية، بعد أزمة قلبية حادة وقصيرة، وفقدت بموته واحدا من أعز أصدقائي. وقلت لصديق لي وله، أن هناك من نحزن على فراقهم **بسبب إنجازاتهم** كساسة، أو كعلماء، أو كجنود بواسل، أو كفاعلي خير أثرياء، أو كشعراء. **وأبوسليمان لم يكن واحد من** أي صنف من هؤلاء. بل نحزن عليه كشخص، **كان صديقا للجميع، مستعدا** على الدوام لمد يد العون، ليس لمن جاءه يطلبه، بل **لكل من هو بحاجة إليه**. فجل إن لم يكن كل الزنجباريين الذين فروا من جحيم الغزو النيريري ومروا بكينيا، مدينيون لأبي سليمان بطريقة أو بأخرى. وأخص بالذكر هنا الخدمة العظيمة التي أسداها ابوسليمان للشيخ **راشد حمادي** نائب زعيم الحزب الوطني الزنجبار. فلقد أقام ببيته، إلى أن اشترى بيتا في

كيسأوني بالبر الكيني شمال ممباسا. وتوفى الشيخ راشد بعد وفاة أبي سليمان.

وحرص أبوسليمان على ترتيب لضمان أن يوارى جثمان صديقه المناضل العظيم من أجل الحرية وزعيم الحزب الوطني الزنجباري، حين يحين أجله في موضع يليق بمقامه، في مقبرة الأشراف، تحت ظل قلعة يسوع، والبنادق المأخوذة من السفينة الحربية الألمانية كوينجسبيرج، وبيغاسو سفينة جلالة ملكة بريطانيا، مع أشراف ممباسا من موتى المزاريع، والمناذرة، والباشيخ، والباخشوين، والمعامرة، وغيرهم من السواحليين المغاوير، من المناضلين الأحرار، ورجال الدين، والقضاة، والشعراء. وكان الشيخ راشد قد أقسم عام 1956 قبل أول انتخابات، بأن لا يقيم في زنجبار، إذا حكمها **قطاع الطرق**. وهذا هو عين ما حدث. ومن هنا لم تدفن عظامه المشرفة في زنجبار الراضخة تحت حكم السفاحين، قطاع الطرق. وفضل الموت في المنفى على مرارته، على العيش فيها وهي على تلك الحالة.

وتشاورت أثناء إقامتي في ممباسا مع **ثلاثة** من الناشطين القدامى من أعضاء حزبنا حول أمور تتعلق بالوضع السياسي في زنجبار. وهؤلاء **الثلاثة** هم: حاجي خطيب من تومباتو، وموسي أحمد لاشوكا، ومسعود الريامي من بيمبا. وهم جميعا من كبار مناصري القضية الزنجبارية. وعلي الرغم من احتياجهم للعمل الشاق لسد متطلباتهم المعيشية، فإنهم كرسوا جزءا من وقتهم للنضال. فأحدهم كان عيننا وطوق نجاتنا. ظل بعد أن اغلق نيريري حدود تنزانيا مع كينيا يتسلل عبرها ليمد لنا يد العون جيئة وذهابا، مواجها وقاهرا ظروفا بالغة الصعوبة ومرعبة. فلقد كنا

بحاجة إلى البقاء على اتصال مستمر مع شعبنا داخل زنجبار وخارجها.

وكنا نحتاج، في المقام الأول، إلى من نأتمنهم على سرنا. وكان أولئك الثلاثة وزوجتي عزة، والسيدة شريفة أحمد، وابن اختي سعيد بمثابة لجنة غير رسمية يمكنها اتخاذ قرارات حيوية دون إبطاء. وبجهودهم صرنا مرارا قاب قوسين أو أدنى من التحرير، ولكن القدر شاء أن يحدث ما يحبط الأمل. فبين الكوب والشفاه ظهرت مزالق كثيرة.

واستطاعت بعثات سرية عديدة أن تأتي من زنجبار، وتعودني، بعضها اتسم بالجدية وتم الإعداد له بروية وحسن تقدير، وبعضها كان مغامرا ومحفوفا بالمخاطر. وأنا لا أؤيد الأعمال الطائشة المتهورة. واستجاب البعض لنصيحتنا الداعية إلى أخذ الحذر، بينما فسرها البعض على أنها دليل على جبننا، أو على نقص في صلابتنا. وليس ثمة خصلة أبغض إلى نفسي من التهور. فلقد كنت أعلم كيف دس نيريري، شخصا يدعى روبارو، من مؤتمر عموم إفريقيا بجنوب إفريقيا ليستدرج التشيباكا وتيتي إلى فخ، ثم اعتقلهم بتهمة الخيانة. وكنت أريد أن لا يحدث شئ من هذا القبيل لنا.

وعادني **اثنان من أصدقائي** من الإمارات العربية المتحدة، بمنتجعي في متونجوي دون سابق ترتيب. زارني ذات ليلة، **سيف الغرير**، كبير أعضاء مجموعة مؤسسة الغرير البليونية، بصحبة تاجر البن **عبد الله الزبيدي**. وكان سيف مستغربا من اختياري هذا المنتجع المنعزل، ولكنه حين وصل إليه، وجلس في الرواق المطل على البحر، تفهم سبب اختياري له.

كان **عبد الله الزبيدي** في شبابه من أشد أنصار الحزب الوطني الزنجباري، حينما كان لب برنامجه هو **الوحدة الجامعة** بين الجزيرتين – زنجبار وبيمبا – و**الشريط الساحلي** لكينيا الذي تم ضمه إلي كينيا بوصفه جزءا من ممتلكات السلطان. وكان رمز حزبنا في حينها **ثلاثة نجوم** تشير إلى: أونجوجا، وبيمبا، والشريط الساحلي لكينيا. ومن بين أنصار حزبنا في تلك **الفترة المبكرة أيضا:** فيصل بن علي أحمد الجهضمي، وراشد علي التوبي، وسلطان بن بريك، وأبوسليمان المزروعي. وعاد سلطان في وقت لاحق إلي زنجبار، وتمكن هو وحسين باهارون، وبادي مزي، أن يقضوا مضاجع القلة الضالة ممن يسمون " الرفاق" المقيمين في ضاحية مالينديي.

أما **الزائر الثاني** الذي زارني في متونجوي فهو الدكتور **عزالدين إبراهيم**، المستشار الثقافي لسمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبوظبي، ورئيس الإمارات العربية المتحدة. وكان برفقته محمد عبدالمطلب. وكان الدكتور عز الدين قد جاء إلى ممباسا لحضور حفل الافتتاح الرسمي لمدرسة **خليفة بن زايد**. ومن ثم جاء لزيارتي في متونجوي ليطلب مني ترجمة كتابه "**الأربعين القدسية**" إلى السواحيلية. وقبلت بكل سرور ترجمة ذلك الكتاب الذي يضم أربعين حديثا قدسيا رواها النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة سبحانه وتعالى.

وبلغ إعجاب سيف الغرير بالمكان الذي نقطن فيه في متونجوي، إلى حد الرغبة في المجئ بأسرته، وقضاء بعض الوقت فيه، بعد افتتاح فرع لبنكه في نيروبي. إلا أن القدر شاء، أن تقع محاولة مشؤومة للإطاحة بحكومة الرئيس موي، بينما كان الغرير لا يزال

موجودا في نيروبي. وأدت الأعمال التخريبية الناجمة عن تلك الحركة، إلي عزوفه عن فكرته. فقطع إقامته في كينيا، وعاد من توه إلي دبي.

وغير بعيد عن متونجوي، كان **سعيد بن سيف** عم عزة يقطن في مكان يضارع في جماله المكان الذي نقيم فيه. فبيته قابع على جرف مقابل لممر متونجوي المتفرع من مدخل ميناء كليندیني الرئيس. وفي مقابله موضع مملوك للشريف عبد الله باسكوت زوج عمة عزة، تليه عزبة بليليزا الرائعة، التي كانت في حين من الدهر من ممتلكات **الشيخ علي بن سالم البوسعيدي**، شقيق جد عزة، ثم تبرع بها للبحرية الملكية. وبلغ الكرم بالحكومة البريطانية، حد إعادة هذه الممتلكات الثمينة إلى ورثة السيد علي بن سالم، والتي **تضم:** خمسة أفدنة على الشاطئ، محاطة بسياج، بها أربع فيلات، وعدد من الأشجار المثمرة، من بينها المانجو وجوز الهند.

وقبل أن تصل إلى مزرعة سعيد بن سيف ومنزله، تمر على مزرعة مواشي خاصة بالأستاذ **محمد حيدر ماتانو**، أستاذ الأحياء البحرية بجامعة نيروبي سابقا، الذي كان يحتفظ بعدد من الأبقار من نوعية جيدة مدرة للألبان في متونجوي، ترعاها زوجته وابنه. وتربط علاقة قرابة بعيدة بين زوجته وزوجتي. وكان الأستاذ يأتي كلما سمح له عمله الأكاديمي من نيروبي لقضاء بعض الوقت مع أسرته، وتفقد مواشيه. وكنا نتزاور من آن إلى آخر. ونشرت زوجته كتيبا عن فن الطبخ السواحيلي.

وما كنت لأترك هذه البيئة الرائعة المحببة إلى قلبي، لولا ثلاثة أسباب طارئة:

أولها أن ابنتي **منى كان قد فتك بها السرطان، وأرادت في أواخر حياتها أن تأتي وتموت بيننا**. وحينما وصلت إلى دبي، كانت قد بلغ المرض بها حدا لا تستطيع معه السفر. وأوصى الطبيب المعالج لزوجتي عزة في ممباسا بقوة بأن تكون قريبة من أطفالها، حيث قد تتوفر لها إمكانيات علاجية أفضل من المتاحة في ممباسا. وبات لزاما علينا أن نسافر على جناح السرعة إلى دبي لنرى ابنتنا منى وقد بقيت أيام معدودات على رحيلها عن عالمنا.

وثانيها أنه بعد فترة جد وجيزة، أصيبت عزة بجلطة صغيرة، واستدعى ذلك نقلها إلى المستشفى، وإجراء عملية جراحة عاجلة في القلب في لندن.

وثالثها، أننا بينما كنا نستعد للعودة إلى ممباسا بعد تشافي زوجتي، **تلقينا تحذيرا من العودة**. فلقد تم بموجب مصالحة من نوع ما بين رئيس كينيا موي رئيس تنزانيا نيريري إلقاء القبض على عدد من المطلوبين من جانب الحكومة التنزانية. ومن بين من ألقي القبض عليهم سعيد محمد ناصر اللمكي الذي كان مقيما في نيروبي من أمد بعيد. وكنت أنا أيضا على **قائمة المطلوبين**. وبينما كانت الحكومة الكينية تتظاهر بالإمتثال لمقتضيات المصالحة، جرت ترتيبات من وراء الكواليس لتحذيري من الرجوع في الوقت الراهن. لذا قررت **الإقامة الدائمة في رحاب الإمارات العربية المتحدة الآمنة**. وبعت بيتنا في متنجوي على مضض. كما قررت ابنتي فتحية وزوجها عيسى اللذين كانا قد بنيا فيلا مجاورة لبيتنا، بيعها. وفقدت ممباسا جاذبيتها بالنسبة لهم جميعا.

تاسع عشر: في الخليج إلى الأبد

وهكذا اضطررت أنا وزوجتي إلى **تمديد إقامتنا في دبي إلى أجل غير مسمى**. ولدي عودتنا من لندن بعد العملية الجراحية الأخيرة لعزة، وجدنا أن ابنتنا سعدية انتقلت هي وزوجها وليد، ضابط الشرطة، من الراشدية إلى الجميره، التي هي واحدة من أفضل المناطق في دبي. وأقمنا في فيلا مؤجرة، متواضعة، من حجرتين مملوكة للحاكم، ولكننا قلبنا الجراج إلى غرفة نوم وحمام ملحق بها، وانتقلنا إليها، وشعرنا فيها براحة بالغة. ذلك أن المنطقة المحيطة بها كانت تشرح الصدر. وكنت أسير أربع كيلومترات يوميا فيها بانتظام، حينما يكون الجو معتدلا، ونسبة الرطوبة غير عالية. وكنت أيضا أتمشى مع أحفادي الثلاثة الصغار.

ومن المصادفات الطيبة، أن الدكتور ديفيد كلارك طبيب العلاج الطبيعي الأسترالي، كان مقيما بحينا على مسافة يمكن قطعها سيرا على الأقدام. استشرناه بخصوص ما تشكو منه عزة من ألم في ذراعها، وعدم قدرتها على التحكم في قدمها وتحريكه بعد الجلطة البسيطة التي كانت قد أصيبت بها، والتي اضطرت بعدها إلى ربط قدمها برجلها بضمادة، فضلا عن عجزها عن السير دون عصا.

شخص هذا الطبيب بعد عمل أشعة إكس على العمود الفقري، أنها تعاني من **انزلاق بسيط** في الفقرات، يضغط على الحبل الشوكي. وبعد جلسات علاج طبيعي استمرت عدة أسابيع، زال الألم، واستعادت تحكمها الكامل في قدمها، وبات بمقدورها **السير دون عرج، ودون عصا**.

وتزوجت إحدى بنات السيدة **شريفة**، بنت عم زوجتي، **محمد دويلو**، الذي هو من أصل إيطالي، اعتنق الإسلام، ويعد زنجباريا بحكم أنه من مواليد مباسا، في وقت كان الساحل فيه جزءا من سلطنة زنجبار. واسم زوجته **ليلى**، على اسم شقيقة زوجتي. وتوطدت عرى العلاقات الحميمة بيننا وبين كل من محمد دويلو وزوجته ليلى. وتزوجت أختها الكبرى سالمة، الطبيب الجراح **سالم سعيد** ابن عم عزة.

وحينما كنا مقيمين في الجميره، كانت ليلى ودويلو مقيمان في جبل علي، بالمنطقة التجارية الحرة التي أنشأها المرحوم الشيخ راشد، حاكم دبي، حيث كان دويلو يعمل بشركة هندسية هناك. وحينما غادرا دبي إلى عمان أعطاني دويلو **حاسويه القديم**. ومثّل هذا الجهاز الإلكتروني هبة من السماء بالنسبة لي، بوصفي كنت على دراية بالكتابة على الآلة الكاتبة اليدوية. فبه استطعت كتابة مخطوط كتيبي الموسوم "**لندع الكتاب المقدس يتحدث**". الذي كنت قد وضعت مسودته، وأنا بين جدران السجن في تنزانيا، على نحو منسق ومقروء.

وعرفني صديق من منطقة الساحل الكيني، يدعي محمد سالم عبد الله، على الدكتور **معاوية شونار**، ذلك الطبيب الفلسطيني الممارس في دبي، والذي كان إسلاميا ورعا، وواحدا ممن رتبوا لمجئ أحمد ديدات، المحاضر والكاتب الإسلامي الشهير بجنوب إفريقيا، إلى الإمارات العربية المتحدة، في بادئ الأمر. ولما رأى الدكتور معاوية مخطوطة كتابي، عرض طبعها على نفقته. وبتلك الطريقة صدرت الطبعتان الأولى والثانية من ذلك الكتاب. ثم أصدرت" **منظمة الأنصار للشباب المسلم**" بممباسا الطبعة

الثالثة منه. ونشر الدكتور معاوية طبعة مزيدة ومنقحة منه باللغة السواحيلية. ولقي **كتيبي** هذا قبولا واسعا في كل أرجاء العالم، من أندونيسيا حتى الولايات المتحدة، وإن كان العدد الأكبر من خطابات التقدير التي تلقيتها بخصوصه، قد جاءت من غرب إفريقيا، وبالأحري من نيجيريا وغانا وليبريا.

وكما قلت في مقدمة هذا الكتاب، فإن غايتي لم تكن المجادلة والمحاججة والمناظرة. فقط أردت أن أبصر كل من المسيحيين والمسلمين فيما يتعلق بلب دين كل منهما، عساهم يدركون الوحدة الأساسية التي تربط بينهما. وأعتقد أنني لم أخفق في تحقيق هذا الغرض. فلقد تلقيت خطابا من شاب مسيحي مقيم في سريلانكا، يستشف منه أنه اعتقد أنني مسيحي. وهو لم يجانب الصواب. فأنا مؤمن بعيسى وموسى ومحمد، بلا تفرقة بينهم ولا بين أحد من رسل الله. وقال مسلم نيجيري، أكثر حنكة، أنه يعتقد أن الله قيضني لتجسير الفجوة بين المسلمين والمسيحيين. وتلك كانت مهمتي، ولا شئ آخر معها. فالله تعالى يقول:

" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ". (آل عمران 64)

وأرسل إلى **المسلم الأيرلندي محمد كينان**، الذي كان ناظرا لمدرسة في دبي، خطابا يطلب فيه شراء عدة نسخ من كتابي. ولما رأيت رقم تليفونه، اتصلت به هاتفيا وأبلغته أنني أريد أن أقدم له تلك الكتب بنفسي. وفي نهاية الحوار الذي دار بيننا لما التقينا، قال لي أن مرد إعجابه البالغ بالكتاب ليس ما تضمنه من جهد بحثي معمق، بقدر ما هو بسبب أن أسلوبه ليس هجوميا بالنسبة

للقارئ المسيحي. قلت له أن مرد هذا هو بيئة التسامح والصداقة وحسن الجوار التي تربيت فيها.

عشرون: دواعي الحاجة إلى ترجمة أخرى لمعاني القرآن باللغة السواحيلية

بعد التدقيق في **ترجمة الشيخ عبد الله صالح الفارسي**، لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة السواحيلية، من واقع نسخة أرسلت إلي وأنا بسجن بوكوبا عام 1970، حررت بعض **ملاحظات أولية** على الصفحات الخالية في نهاية النسخة، وفق ما جاد به عقلي أنئذ. ولا زلت أرى أن تلك الملاحظات في محلها بعد مرور **ربع قرن على كتابتها**، وبعد ترجمتي التفسير القرآني الموسوم "**المنتخب في التفسير**" إلى اللغة السواحيلية. وأنا أدرك أنني غير مؤهل أكاديميا لترجمة نص القرآن الكريم، على غرار ما فعل الشيخ عبد الله، ناهيك عن أن أعقب على ترجمته.

وجرت العادة على ترجمة معاني القرآن الكريم **مشافهة** في المساجد وحلقات الدراسة، والمجموعات في شتي أرجاء شرق إفريقيا. ويرجع الفضل إلي الشيخ عبد الله بن محمد باكثير في تعميم المعرفة بتلك المعاني في زنجبار، وتحويل تلك الممارسة إلي مَعلم راتب، خاصة في شهر رمضان. وعنه أخذ والدي هذا التقليد، ومن بعده كبار طلابه وأتباعه، وابن الشيخ نفسه الشيخ أبوبكر. وسار الشيوخ الآخرون، وبالأخص الشيخ سليمان العلوي، والشيخ محمد بن عمر، والشيخ محمد بن عبدالله وزير، والشيخ برهان المكلا، والشيخ عبد الله صالح الفارسي، والشيخ حسن بن عمير، والشيخ عمير تاجو، والشيخ عبد الرحمن الكندي والشيخ عبدالله أحمد سيف الحاتمي، على ذات النهج.

ونشر الشيخ **صالح بن علي البحراني** ترجمة مكتوبة لبعض سور القرآن الكريم، **وكتيبا صغيرا** استخدم ككتاب مدرسي بالمدارس الحكومية. وحرر الشيخ **الأمين بن علي المزوعي** ترجمة لعدة أجزاء من القرآن الكريم، مع شروح مفيدة. أما أول طبعة تصدر لمعاني القرآن بالسواحيلية، فكانت من إعداد **القس دال** البروتستانتي ببعثة الجامعات بوسط إفريقيا. وبعدها ظهرت **النسخة الأحمدية**.

وفي ذات التوقيت، كان الشيخ عبد الله صالح الفارسي ينشر ترجمة من إعداده في سلسلة على صفحات جريدة المرشد الأسبوعية، حينما كنت رئيس تحريرها. وكلما فرغ من ترجمة جزء كنا ننشره في شكل كتيب. وتم بالفعل **ترجمة ونشر سبعة عشر جزءا** من أجزاء القرآن الثلاثين، حينما جرت الإطاحة بحكومتنا.

وكنت قبل ذلك بأمد طويل ألح على الشيخ عبد الله صالح الفارسي أن يفرغ من **ترجمة معاني القرآن إلى السواحيلية** بسرعة، ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك بسبب أعباء عمله الرسمي، في البداية **كمدرس** بالمدارس الحكومية، ولاحقا **كقاض**. وما كان بوسعه الفراغ من تلك المهمة بالسرعة المطلوبة إلا إذا **حصل على أجازة وتفرغ لها**. ولتمكينه من ذلك رتبت مع السلطات المصرية **لإقامته عامين أو أكثر** في القاهرة، حيث تكون تحت يده كل المراجع المطلوبة، فضلا عن مساعدة أكاديمية من أساتذة جامعة الأزهر. واتفقنا مع السلطات المصرية على تحملها كل النفقات، وبدلا عن راتبه الذي كان يتقاضاه في زنجبار، والذي سينقطع خلال تلك الأجازة بدون راتب. إلا أن الشيخ عبد الله اشترط شروطا أخرى لم أستطع نقلها إلى السلطات المصرية.

وبعد الإطاحة بنا، وبينما كنت لا أزال مسجونا في زنجبار، أرسلت إليه رسالة أهيب به فيها أن يكمل **عمله هذا بنفسه**، وألحقت بها المزيد من **الملاحظات الشارحة التفصيلية** المقترحة. رد باقتراح معاكس، فحواه أن علي أنا أن أقوم بهذا العمل، وأرسل إلي **الكتيبات السبعة عشر**. وقبل أن أستطيع الشروع في تلك المهمة، (وما كان بوسعي في تلك الظروف أن أفعل شيئا يذكر)، تم ترحيلي إلى البر التنزاني، وصودرت كل كتبي بما فيها تلك الكتيبات السبعة عشر.

ومن المفاجآت السارة، أنني تلقيت بعد ست سنوات، وأنا في سجن موانزا، الواقع على الشاطئ الجنوبي لبحيرة فيكتوريا، مسودة الترجمة الكاملة التي علمت أنه قد فرغ منها، وأنها تحت الطبع في نيروبي. وبعدها بعامين وبينما كنت في سجن بوكوبا الواقع على الساحل الشمالي لبحيرة فكتوريا، أرسل إلي راشد علي الريامي، أحد طلابي من ممباسا، **النسخة المطبوعة من ترجمة معاني القرآن الكريم**. غمرتني الفرحة. وأعتقد جازما، أن الفرحة غمرت الملايين من الناطقين باللغة السواحيلية في شرق إفريقيا والشرق الأوسط. وبات هذا المؤلف الهام واحدا من المعالم الكبرى في الأدب السواحيلي برمته بوجه عام، وفي الأدبيات الإسلامية بشرق إفريقيا بوجه خاص. صدرت تلك الترجمة في أوائل سبعينيات القرن العشرين. وقرأتها مرارا. وقررت في نهاية المطاف أن **أدون تعليقاتي على الأوراق الخالية الأخيرة. وها هي تلك الملاحظات.**

مقترحات لترجمة أخرى بالسواحيلية لمعاني القرآن الكريم:

1- يجب أن يكون النص حرفيا قدر الإمكان دون تأثير على المعنى، ولا على طبيعة اللغة السواحيلية. فمن غير الصواب فرض الرؤى الشخصية أو المذهبية على النص المترجم. فالترجمة تقتضي الحياد المطلق. ولا يسمح بالجمل الاعتراضية الشارحة، إلا إذا استدعتها الضرورة لبيان المعنى. ذلك أن الجمل الاعتراضية الشارحة تفسد جمال النص القرآني. ومن ثم يجب الاقتصاد فيها إلى أقصى حد مستطاع.

2- يجب أن يكون التفسير إيضاحيا، تربويا، غير جدلي، وغير تعسفي. وعلينا أن نضع في اعتبارنا أن بين من سيقرأون هذا المؤلف، كثيرون ممن تلقوا تعليما علمانيا، وممن بوسعهم أن يدرسوه ويحللوه بالعقل ويناقشوه، ولن تجدي معهم المزاعم التي لا دليل عليها. ومن شأن التفسير المغالي في التجسيم الحرفي للآيات ذات المضامين الروحية، أن يثير ثائرة العقل المثقف. ومن التضليل المبالغة في تخصيص ما يوحي معناه بوضوح إلى أنه أكثر عمومية.

فمن المرتقب أن يكون كثير من القراء قد احتكوا بالتعاليم المسيحية، سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين، عبر التعليم العلماني، والكتب الدراسية، ووسائل الإعلام الجماهيرية. ومن هنا يتعين أن يكون المفسر ضليعا في التعليل اللاهوتي. وأيا كان الأمر، فإن القرآن قد جاء مقوما لما اعوج من المسيحية الكنسية، مما يدفعها إلى أن تكون هي المنافس الرئيس له. ولنتأمل في المبررات الثلاثة لتنزيل القرآن الواردة في مستهل سورة الكهف.

يقول الله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا{1} قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً{2} مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً{3} وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً{4} مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً{5}. (الكهف 1-5)

وتأسيسا على ذلك، ينبغي التركيز بدرجة مناسبة في التفسير، على **دحض العقائد الكنسية المتعارضة مع القرآن.**

3- بعض الرؤى المدعى كونها أحمدية، والتي شجبها الشيخ عبدالله بالمطلق، ودمغها بالكفر، **ليست قاصرة على أتباع الطريقة الأحمدية، بل يتبعها كثير من المسلمين الآخرين** أيضا. فإن كان هناك تباين في الرؤى بخصوص نقطة ما، فإنه ينبغي طرحه بموضوعية واحترام. فأيا كان الأمر، فإن بين أيدينا مئات التفاسير للقرآن الكريم. وسيظل مفكرون آخرون يكتبون المزيد من التفاسير له حتي تقوم الساعة.

4- وينبغي شرح الآيات الحافلة بالمعاني الروحية، مثل آية النور، وآية الكرسي، شرحا وافيا. ويتعين أيضا استخلاص الأخلاق المتضمنة في قصص الأنبياء، وتقديمها في ضوء معطيات الواقع المعاش الراهن. وينبغي أن يؤكد المفسر على الآيات المتعلقة بالأخلاق، ويعطيها حقها من البيان.

5- القرآن رسالة عالمية، ويجب معاملته انطلاقا من تلك السمة. ومن **الممكن**، بل من **الواجب**، الاستفادة من التفاسير القديمة كنقاط انطلاق، وكأدلة إرشادية، ولكن لا يجب بالقطع

اعتبارها **قميصا حديديا لا يجوز الحركة إلا في داخله.** فالرسالة القرآنية تشبه المعدن الخام، بوسع كل جيل أن يصنع منه، ما يناسبه من الأدوات، وبما يتمشى مستوى التكنولوجيا التي وصل إليها. وسنكون في عداد الحمقى، فيما لو حصرنا أنفسنا في دائرة **صنع فؤوس، ورماح، وعربات كارو** تجرها حيوانات، بينما نحن الآن بحاجة إلى **المحاريث الآلية، والحصادات والطائرات النفاثة، وبمقدورنا أن نصنعها.**

ونحن نكن للمفسرين الأوائل **كل الاحترام لقربهم الزمني من المنبع، ولإخلاصهم وإيمانهم المقطوع به.** بيد أنه ينبغي على المفسر المعاصر، في الوقت الذي يعتمد فيه بشكل أساسي على السلف، أن لا يغمض عينيه، ويحرم نفسه من نور المعرفة التي تراكمت عبر القرون، وباتت بين يديه، في مجالات لم يحلم بها أسلافه، مثل **العلوم الطبيعية** (الفيزياء، الكيمياء، الأحياء، علم الفلك، علم الفضاء، التاريخ، الأديان المقارنة، والتلمود، وكشوف علم الآثار، والتهذيب الروحي والأخلاقي.

6- من المفارقات أنه بينما تتسم صيغة النصوص القرآنية بالعموم، يحاول المفسرون والمترجمون التقليديون **تخصيصها.** وعلى سبيل المثال، حينما يقول القرآن: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"[16]، يأتي مفسر فيقول: "**الخطاب موجه إلى المكيين**". وحين يقول " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ" نجد من يقول من المفسرين: "**هي إشارة إلى أهل المدينة**".

---

[16] البقرة: 21.

وبالمثل، بينما يكون من الجلي أن المعنى **رمزي** أو مجازي، ومطبق على نطاق واسع بمضامين وقيمة أخلاقية وروحية عميقة، نجد بعض المفسرين **يحصرونه ويقيدونه** بأفكار تجسيمية ومادية ضيقة للذات الإلهية، بتخصيص معناه **وفق إسرائيليات مزيفة**، ليس لها أي أساس تاريخي على الإطلاق. وفي مثل تلك الحالة، يغدو وجود مثل ذلك التفسير أسوأ من عدم وجود تفسير بالمرة.

وينبغي عدم الاستهانة بقدر **القارئ السواحيلي**، سواء من حيث **العدد** أم من حيث **النوعية**. فهو ليس مقصورا على قلة قد تبجل ما وجدت عليه أسلافها، وتلتزم به حذو القذة بالقذة. فالتعليم العلماني الذي يجري تعميمه باطراد، ووسائل الإعلام الجماهيرية، يؤديان إلى **نبذ الخرافات سواء جاءت من التراث الإفريقي، أو على لسان المبشرين المسيحيين**. والإفريقي متدين في صميمه. وهو حين ينبذ المعتقدات الخرافية، لا يريد أن يستبدلها بفراغ.

ومن هنا فإن من المفارقات التي قد تبدو غير منطقية في ظاهرها، أن التعليم الغربي أفضى مؤخرا **إلى تسريع وتيرة تحول المسيحيين الأفارقة إلى الإسلام منذ الإستقلال.**

فالإسلام بمنظوره البسيط ونظرته العقلانية، يجذب الشباب والشابات الإفريقيات الذين سئموا التعاليم الكنسية الخرافية والوثنية. ويلزم، بالتالي، أن تكون تفاسير معاني القرآن المكتوبة باللغة السواحيلية عقلانية، وليبرالية، وأخلاقية، وروحية، وأن لا تكون تعسفية، ولا مولدة لجدل عقيم. ويجب أن تكون موضوعية وإيجابية، وتنويرية، وليست سلبية. وينبغي أن تكون نورا للعقل، ومرقاة لما هو روحي. ومن غير المنطقي بالنسبة للمسلم الذي لا

يستطيع أن يفكر في الذات الإلهية، إلا من مدخل روحي، أن يطمس مفهومه للجنة والنار بتأويلات مادية ودنيوية محضة، مأخوذة من تفاسير ضيقة الأفق، عاجزة عن الغوص فيما وراء الحواس الخمسة، بينما يقرر النبي صلى الله عليه وسلم أن الجنة فيها "**ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**".

7- الأهم من كل ما سبق هو ضرورة تجنب الرمي بنعت "الكفر" ضد أي إنسان يقول أنه مسلم، بسبب الخلاف معه على مسألة عقدية، خاصة إن لم تكن تلك المسألة تتعلق **بأركان الإسلام، أو بأركان الإيمان.**

فالقرآن الكريم ينهانا عن دمغ كل من يلقي إلينا السلام بالكفر. يقول الله تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ **وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ** الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً". (النساء 94)

ويأمرنا الله تعالى **بالعفو عن غير المؤمنين**، حيث يقول:

" قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ". (الجاثية 14)

ويقول سبحانه وتعالى مخاطبا نبيه:

"فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ". (الزخرف 89)

ويأمرنا **بالعدل** حتى في **حالة الغضب**، ودفع السيئة بالتي هي أحسن. يقول الله تعالى:

"لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"

(فصلت 34)

ويقول:

" وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ".

(المؤمنون 95-96)

ويأمرنا بالعفو عن **أهل الكتاب**، حيث يقول سبحانه وتعالى:

"وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. " (البقرة 109)

ويأمرنا أن لا نسب معبودات غيرنا، حيث يقول الله تعالى:

" وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ". (الأنعام 108)

8- يجب أن تنأى الترجمة، والتفسير، بنفسيهما عن الطائفية. وينبغي لتحقيق ذلك تشكيل وفد من المفكرين الليبراليين، للتثبت من خلوهما من أي انتهاك لأساسيات أي من الفرق الرئيسة

الكائنة في شرق إفريقيا. وينبغي طرح الرؤى المتناقضة بموضوعية، ودون تحيز أو محاباة، على أساس التسليم بأن الإمام الحقيقي للمسلم في دنياه، وفي آخرته، هو القرآن.

9- ينبغي التعامل مع المعجزات الواردة بالقرآن بدقة بالغة. فمن السهل العقلنة وتقديم تفسير رمزي في المقام الأول، لأنه من المعتاد النظر في مرحلة ما من مراحل التطور الإنساني، إلى حدوث شئ ما، على أنه في **عداد المستحيلات**، ولكنه قد يغدو في مرحلة لاحقة **أمرا عاديا**. وينبغي علينا أن نعي أن المعجزات حدثت لأناس غير عاديين، أجراها الله على أيديهم برحمة منه وفضل، ومنها إبراء المجذوم، ورد بصر الأعمى، وإحياء من يبدو في حكم الميت. وهذه الأمور التي كانت معجزة، باتت من الممارسات الطبية الدارجة.

وأيا كان الأمر، فإن الآيات التي يصعب تفسيرها من منظور قارئ أو مفسر بعينه، يمكن اعتبارها **من الآيات المتشابهات**، التي أشار القرآن إليها في قوله تعالى:

" هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ **وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ". (آل عمران 7)

وينبغي الإيمان بها على ماهي عليه بلا تأويل ومع مرور الزمن، وتراكم المعرفة والكشوف قد ينكشف معناها الكامن.

وخلاصة القول، أن المعجزات الواردة بالقرآن قد تكون **حقائق تاريخية**، ولها في الوقت عينه **قيمة رمزية**. وعلينا أن نعي أن التأريخ ليست هي الهدف الأوّلي للقرآن. فغاية القرآن هي الإرشاد، والأخلاق، والاستنارة الروحية. وحتي الحقائق التاريخية المحضة مرتبطة بهذا الهدف. وعلى المفسر أن يلفت نظر القارئ باستمرار إلى الدرس المستفاد من مثل تلك الوقائع.

وبعد خمسة عشر عاما على كتابة الملاحظات سالفة الذكر، كنت أتصفح بعض المصادر **بمكتبة ابني محمد بأبي ظبي**، فوقعت في يدي بالصدفة نسخة من تفسير حديث للقرآن الكريم، عنوانها: "**المنتخب في تفسير القرآن**". وما أن قرأت أجزاء منها، حتي تبينت انها تلبي ملاحظاتي تلك بشكل شبه كامل. ولا أجد كلمات أعبر بها عن السعادة التي غمرتني. كدت أطير من الفرحة، لأنني لم أجرؤ رغم ملاحظاتي النقدية تلك، على أن أشرع في إنجاز مثل تلك المهمة الضخمة. فلم أشعر بأنني أمتلك المعرفة المطلوبة للنهوض بمثل هذه المهمة. وعلى الفور عزمت على **ترجمة هذا التفسير إلى اللغة السواحيلية**. ورأيت أن هذه مهمة مباشرة، وداخلة في حدود استطاعتي. ومن حسن حظي أن قيض الله لي ثلاثة ثابروا على تشجيعي على مواصلة إنجاز هذا العمل الصالح، وهم: **زوجتي عزة، وابني محمد، وصديقي الدكتور مصطفى مؤمن.**

وأود الإشارة إلى أن تفسير المنتخب لم يكن ثمرة جهد عقل فرد واحد، بل جهد لجنة من العلماء المستنيرين، تسمى: "**لجنة القرآن والسنة**" معينة من قبل المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر. وتصادف أثناء إقامتي في القاهرة أن كان العلامة الكبير

الشيخ محمد متولي شعراوي هو وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف. وكان يعتزم إصلاح المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وجعله أكثر تمثيلا للأمة، وأراد أن **يعينني عضوا فيه كممثل إفريقي**. ولكن تلك الفكرة لم تر النور، لأنه ترك ذلك المنصب بعد فترة وجيزة، وعاد لمنصبه الأكثر احتراما وهو العمل **مدرسا ومحاضرا وكاتبا**. وتنفس ملايين المعجبين به في شتى أرجاء العالم الإسلامي الصعداء. فلقد كانوا متوجسين خيفة من أن يتم إسكاته بذاك المنصب الوزاري، ويفقدونه.

واستغرقت عملية ترجمة المنتخب ست سنوات. وساعدني في هذا العمل عشرة علماء، راجعوا المخطوطات بعناية. وأسماؤهم مثبتة في ثلاثة مواضع: في التمهيد، وفي المقدمة، وفي تقريظ الأزهر نفسه.

ومن حسن حظي أنني حين قررت ترجمة هذا التفسير كنت قد أصبحت ماهرا في استخدام الحاسوب الذي وفره ابني محمد لي.

ولما كنا مقيمين باستمرار مع ابنتنا سعدية ووليد وأطفالهما، فقد قررنا البحث عن مسكن أرحب. ومن ثم انتقلنا إلى عجمان حيث أقمنا في فيلا من دورين.

ولما كان البحر قريبا من بيتنا، فإننا اعتدنا أن نتمشى إلى الشاطئ مع أحفادنا، ونستمتع بالجلوس على الرمل، أو نسترخي وأقدامنا في المياه الضحلة. وكان الكورنيش الطويل مثاليا لما تعودت عليه من أيام كنت مساعد أخصائي زراعة في أوائل الأربعينيات من القرن العشرين، من السير لمسافات طويلة. وأحببنا عجمان لكونها منطقة هادئة، وإن كان لها بعض السلبيات

بالنسبة لنا. فوليد وسعدية كانا يعملان في دبي ويحتاجان للسفر بالسيارة مسافة تستغرق خمسا وعشرين دقيقة ذهابا، ومثلها في العودة. ونتيجة لذلك اضطررنا إلى العودة إلى دبي حيث أقمنا في منطقة المردف، التي هي منطقة سكنية سريعة النمو، تقع على بعد ثلاث دقائق بالسيارة من الراشدية، مقر الجالية الزنجبارية. وكان هذا المكان مثاليا بالنسبة لنا، لقربه من مدينة بدر والراشدية التي يتمركز فيها السواد الأعظم من أقاربنا وأصدقائنا، فضلا عن كونها ليست بعيدة عن وسط المدينة.

أقمنا في هذا المكان على مدى السنوات السبع الأخيرة وأحببناه. وكان هذا الحي حين جئنا إليه حيا جديدا تحت الإنشاء. وكانت الصحراء تمتد أمام بيتنا حتى مشارف الراشدية. أما الآن فتكاثرت الفيلات والقصور الجديدة حولنا بسرعة مذهلة. ومع ذلك فإن هذه المنطقة لا تزال هادئة نسبيا فيما يتعلق بمستوى كثافة حركة سير السيارات بها.

ولي في هذا البيت ذكريات حزينة، سنامها هو: **وفاة زوجتي**. وكل شئ في هذا المكان يذكرني بها. بل إنني استيقظ من النوم مقتنعا بأنها بجواري.

وكانت أول زيارة لعمان بالنسبة لي بمثابة حدث فتح عيني على أفاق جديدة، بل كان مصدر إلهام لي. فمستوى التطور الحضاري العالي فاق كل ما كنت أتخيله من الحكايات التي سمعتها عنه، من أول انطباع خرجت به في الرحلة الطويلة بالسيارة على طول ساحل الباطنة من حدود الإمارات العربية المتحدة إلى مسقط. فالطريق السريع يتسع لحافلتين، وهو ناعم كطاولة البليارد، على جانبيه بيوت من الحجر، ومن الخرسانة المسلحة، تحفها بساتين

منسقة ومرتبة من النخيل، والمانجو، والليمون، والموز، تسر الناظرين. وتسر بالأخص إنسانا تربى في واحة زنجبار الغناء. ذكرتني ببيتنا، بالأحرى بالبيت الذي كان لنا.

وانقرض كل ما سمعناه عن صراعات قبلية وعشائرية في عمان، وصار من أمور الماضي. وساد السلام في ربوع البلاد تحت القيادة الحكيمة والحازمة للسلطان قابوس بن سعيد. ولم يعد هناك أي فرق بين الداخل العماني، والساحل العماني، وبين ظفار وصور وبقية مناطق عمان. فهي كلها بلد واحد، ليس بينها غير حدود إدارية. ومرافق التعليم والمرافق الصحية متاحة وبادية للعيان في كل مكان. وزرت الشرقية مسقط رأس جدودنا، وشاهدت أطلال منطقة البراونة والمعامرة في حي المنزفة بمدينة ابرا، التي ذكرتني بأطلال زنجبار في المدينة وفي العزب. وكما رثي السيد عبد الله بن علي بن ناصر قصور العز القديمة في باتي[17]، في ملحمته الخالدة، "**الانكشاف**"، فإنني شاهدت خرائب ابرا وزنجبار مسكونة الآن بالخفافيش والبوم. وعلى أي حال، فإن أبناءنا وأحفادنا يساهمون الآن، ليس فقط في إعادة التأهيل، بل في تنمية عمان وبقية مناطق الخليج. فالروح الإبداعية لا تزال حية. ومع مجئ الزنجباريين إلى الخليج، تزامنت مع عملية تنمية الخليج. ويقوم شبابنا الذين ساهمنا في تعليمهم وتدريبهم، بدور مشرف مع بني جلدتهم في إرساء البنية التحتية التي تعود بالخير على هذه البلاد.

---

[17] جزيرة باتي تقع في المحيط الهندي قريبا من الساحل الشمالي لكينيا حيث تنتمي. وهي أكبر جزيرة في أرخبيل لامو قريبا من الحدود الصومالية. – محمد البرواني

وفي رحاب السكينة والأمن في الإمارات العربية المتحدة، استطعت إنجاز العمل الضخم الخاص بترجمة **المنتخب**، ونسخ قصيدة سيرتي الذاتية الواقعة في **ألفين وخمسمائة** بيت من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية، ونشر كتيب "**لندع الكتاب المقدس يتكلم**"، ثم نشره في طبعة منقحة ومزيدة بعنوان: **الكتاب المقدس يتكلم**، ونشر كتيب: **كيف تتعلم الكتابة والقراءة باللغة العربية في ثلاثة أسابيع.**

وأسال الله أن يمد في عمري، ويمنحني القدرة على إنجاز ما شرعت فيه من مهام أخرى. فأنا بمجرد أن **أفرغ من مهمة، أشرع في أخرى. ويوم أتوقف عن العطاء، أسأل الله أن يقبضني إليه.**

الخاتمة

في سياق مذكراتي آنفة الذكر، وفي ختامها، أقترح أن **نكتب تاريخنا بأنفسنا**، لا أن نواصل الاعتماد على آخرين، ينحازون من بداية الطريق، ويرون الأحداث ويفسرونها بأعين مغرضة. وبنظرة خاطفة على بعض الأسماء نصل إلى قناعة بأن ما نعاني منه من قصور بالغ في المعلومات ليس ناجما عن عجزنا على تحصيلها. ومن بين الأسماء التي ترد على الخاطر في هذا الصدد، **الأساتذة:** علي المزروعي، عبده شريف، ابراهيم نور، عيسي ناصر الإسماعيلي، الشيخ سلطان القاسمي (حاكم الشارقة)، الأمين المزروعي، جعفر تيجاني، عبود جومبي، شعبان صالح، حارب عثمان، عبد القادر شريف، عبد الرحمن بابو، سليمان شحبل، أحمد باعلوي، أحمد رجب، أماني ثاني، محمد ناصر الخروصي، سعيد عبدالله الحاتمي، سعود حمد المعولي، والأستاذ إبراهيم الزين صغيرون.

بيد أن تلك المجموعة منوعة، ويختلف دافع كل فرد فيها وفق خلفياته. فهناك من ليسوا إلا **مجرد ناقلين** لما يكتبه المؤلفون الاستعماريون والمبشرون المسيحيون، يؤمنون بما يقوله معلموهم هؤلاء، ويرددونه. وهم يكتبون عن عمد أو دون أن يدرون، على نحو يرضي أساتذتهم السابقين، كما لو كانوا يكتبون للحصول على درجات في امتحان. وبعض من يسمون **أساتذة وكتابا يتحجرون على تصورات تشكلت لديهم منذ عشرات السنين.** وأمثال هؤلاء هم الذين يواصلون إزعاجنا برطانة "**الجدلية المادية**"، " **والتناقضات المتضادة**"، التي شاخت، ومر على نحتها قرابة نصف قرن. وبالمثل، هناك من لا يزالون غير مدركين لحقيقة أن سياسة العزل العنصري، لم يعد لها وجود، وأن

مؤسسي حركة الجامعة الإفريقية، من أمثال ديبوا، وكوامي نيكروما وجورج بادمور، قد سخطوا على الشوفينية السوداء، بل أدانوها، منذ عشرات السنين.

إلا أن الشئ الذي يبعث على الأمل أن من بين مثقفينا، حتى في حدود القائمة القصيرة سالفة الذكر، عدد من المفكرين يؤسسون تأويلاتهم على القيم الأخلاقية الخالدة، وعلى الروح الوطنية، وقد نذروا أنفسهم لقول الحقيقة دون خوف ولا محاباة. وينبغي على البقية أن تسير على درب هؤلاء الرواد.

وأود بوجه خاص، أن ألفت نظر أبناء شرق إفريقيا إلى الإسهام البحثي الرائع الذي قدمه الأستاذ الدكتور **إبراهيم الزين صغيرون**، الأستاذ بقسم التاريخ بجامعة السلطان قابوس بعمان، حاليا. فالكتابان اللذان ألفهما عن الإسلام والمسيحية في أوغندا ثمينان للغاية كمصدر للمعلومات، وللإلهام. والاطلاع عليهما ضروري لكل المهتمين بالعلاقة بين الإسلام والمسيحية في منطقة شرق إفريقيا.

وهكذا أصل إلى نهاية ذكرياتي وفصل من سيرتي، يبين الصراع الأبدي بين النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة، بين الزبد الرخيص، وبين ما هو حق وأخلاقي. وأتضرع إلى الله مخلصا له الدين، أن يهديني دائما إلى الحق، وأن أفوز برضوانه سبحانه وتعالى، وأن ينتهي المطاف بما يعتمل في نفوسنا ومجتمعنا من **تناقضات وصراعات، إلى وحدة ووئام.**

والحمد لله تعالى الذي بحمده تتم الصالحات،

الملاحق

(1)

رثاء المؤلف بالمجلة البريطانية لدراسات الشرق الأوسط[1]

علي محسن البرواني (1919 -2006) شاعر وعالم وسياسي، ولد في مدينة الباغ الزنجبارية التاريخية، في 29 ربيع أول 1337 هـ، الموافق 13يناير 1919 **لأبوين كريمين:** الشيخ محسن بن علي بن عيسى البرواني (1878-1953) والسيدة زيانه بنت سالم بن عبدالله البرواني.

وعشيرة البرواني عمانية الأصل[2]، ولكنها انصهرت في أواخر القرن التاسع عشر في نمط الحياة السواحيلية، وبرز فيها العديد من العلماء السنيين[3] الأفذاذ، الذين كان والد علي محسن أحدهم.

---

[1] ورد هذا التعريف بالمؤلف في معرض نعيه رحمه الله بقلم: ب. ج. ل. فرانكل بدراسة موثقة بصحيفة بريطانية مرموقة هي:

British Journal of Middle Eastern Studies ,33(2)263-265. Nov 2006

[2] البراونة أصولهم من قرية ابراء الواقعة بالشرقية من عمان، ولهم فيها بعض المحلات وخاصة محلة المنزفة وهي قرية محصنة بأسوار وبها منازل ضخمة مبنية بالجص والحصى. – يعقوب بن سعيد البرواني

[3] ومنهم فقهاء وعلماء إباضية، لأن أصل هذه العائلة إباضية، وتمذهب بعض علمائهم بمذهب الإمام الشافعي رحمه الله. – يعقوب بن سعيد البرواني

وفي عهد سلطنة البوسعيديين في زنجبار، انخرط البراونة في عملية تنمية ساحل شرق إفريقيا من **براوا** (الكائنة فيما عرف لاحقا في عصر الاستعمار الأوربي بالصومال الإيطالي) حتى **ليندي**، التي هي مدينة بجنوب تنزانيا أسسها **جد الشيخ علي من جهة أمه** (والتي صارت ضمن ما عرف لاحقا بإفريقيا الشرقية الألمانية).

وكان علي طالبا متميزا، استطاع أن ينتقل بسهولة من المدرسة الثانوية الحكومية بزنجبار إلى جامعة ماكيريري بكمبالا في أوغندا عام 1937. وتم التحاقه بتلكم الجامعة بإجراء غير معتاد تمثل في اتصال هاتفي بين ناظر مدرسته (ل. و. هولنجسويرث) ومدير التربية والتعليم بزنجبار. ولم يطلب منه أداء امتحان.

وفي تلك الجامعة التي كانت هي موئل التعليم العالي الوحيد في شرق إفريقيا، تخصص الشيخ علي في الزراعة. وكان جوليوس نيريري واحدا من بين رفاقه في الدراسة. وقدر لنيريري هذا الذي صار رئيسا لتنجانيقا، أن يلعب دورا بالغ الأهمية في حياة الشيخ علي بعد قرابة عشرين عاما.

وبعد عودة الشيخ علي إلى زنجبار، عقب إتمام دراسته الجامعية عام 1942، عين **مساعد اختصاصي زراعي** بحكومة المحمية في منجابواني (وهي قرية ساحلية تقع شمال زنجبار تعني حرفيا: الساحل العماني). وبعد عامين تزوج بصاحبة الحسب والنسب عزة بنت محمد سيف البوسعيدي، بتوفيق الله تعالي.

وبعد الحرب العالمية الثانية مال شيخنا للعمل السياسي، وأعرب ذلك التوجه عن نفسه بطريقتين: أولهما هي **توليه رئاسة تحرير**

صحيفة "المرشد" على مدى خمسة عشر عاما. أما الثانية فهي انضمامه **لحزب زنجبار الوطني**. وتصدرت طموحاته تحويل زنجبار إلى مجتمع لا عرقي، فدعا لهذا الغرض إلى إعداد قوائم ناخبين عامة، وليس على أساس عرقي أو طائفي.

وبعد أن حصلت سلطنة زنجبار على الحكم الذاتي الداخلي عام 1961 تبوأ الشيخ علي منصب وزير التربية والتعليم. ومن البصمات التي كرسها آنئذ ضمان حق المدرسات المتزوجات في أجازة رعاية طفل بأجر. وسرعان ما تبنت الوزارات الأخري هذا التقليد الجديد الذي سنه. وشغل بعد ذلك مناصب وزارية شملت: وزارة الداخلية، ووزارة الشؤون الخارجية، والتجارة.

وفي مارس وإبريل 1962 زار الشيخ علي لندن للمشاركة بصفته أحد ثمانية مندوبين منتخبين من زنجبار، في مؤتمر الشريط الساحلي الكيني (محمية كينيا) في لانكستار هاوس، الذي انتهى دون أي قرار حاسم بخصوص دمج الشريط الساحلي إلى كينيا.

وفي 24 يناير قضت ثورة دموية على **سلطنة البوسعيديين**. واعتقل الشيخ علي (وآخرون) **ستة أشهر** في سجن كليماني الزنجبارية الأثرية قبل نقله إلى البر الإفريقي، حيث واصل سجنه في كوندوتشي، وكيكو (دارالسلام)، ودودوما، وموانزا، وبوكوبا، على مدى **عشر سنوات وأربعة أشهر**، دون توجيه أي تهمة إليه. ثم تم الإفراج عنه بلا قيد ولا شرط في الخامس من مايو 1974. إلا أن السلطات التنزانية رفضت طلبه استخراج جواز سفر. عندها قرر الشيخ علي أن يدخل أراضي كينيا المجاورة متخفيا. ودخلها من قرية فانجا المعروفة بالصيد، ومنها سافر إلى نيروبي، ووصل إليها ظهر الفاتح من اكتوبر 1974، ليجد أن الدوام في

ذلك اليوم قد انتهى في مكتب الممثل المحلي لمفوض الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين. إلا أن كل شئ تم على ما يرام. وبعد حصوله على وضعية اللاجئ في فترة قصيرة للغاية، غادر الشيخ علي كينيا **إلى مصر**، ولم تطأ قدميه أرض زنجبار ثانية. فربما رأت السلطات في زنجبار الثورية، وفي تنجانيقا (اللتين صارتا لاحقا: الجمهورية التنزانية المتحدة)، في فكر الشيخ علي وقدراته تهديدا كامنا لزعامتها. ولا طائل الآن من البحث في أدلة صدق هذا الاحتمال من عدمه.

وبعد إقامة الشيخ عدة سنوات في مصر، عاد إلى كينيا، بشكل قانوني هذه المرة، وعاش فترة وجيزة في جانجوني بممباسا، ثم اقام بمنزل اشتراه في متونجوي (في البر الجنوبي المطل على كلنديني). . ومنه انتقل الشيخ علي وأسرته إلى دبي بالإمارات العربية المتحدة.

وفي عام 1409 هـ 1981 م، فاضت روح قرينته الحبيبة إلى بارئها بعد حياة زوجية دامت أكثر من نصف قرن، فيما مثل كبرى الفواجع التي حلت به.

وفي دبي نشر الشيخ كتابه الطموح على صغر حجمه الموجه إلى الناطقين بالغة السواحيلية الراغبين في تعلم القراءة والكتابة باللغة العربية في غضون أسابيع معدودات، والموسوم **(تعلم العربية بنفسك)**. [4]

---

[4] صدرت منه طبعة خاصة منه طبعة خاصة في دبي في التسعينيات.

وتعود جذور هذا الكتيب المهم إلى السنوات التي امضاها الشيخ في غياهب السجن. فهو ثمرة تلبيته، عليه رحمة الله، لطلب نزلاء السجن في تعلم قراءة القرآن باللسان العربي المبين الذي تنزل به.

وفي ذاك الوقت، بدأ بصر الشيخ يضعف، ولكنه استطاع مع ذلك أن يتم، وأن ينشر رائعته وأبدع ما خطه بنانه وهو ترجمة تفسير القرآن الموسوم (المنتخب في تفسير القرآن) باللغة السواحيلية[5]، وفيه يرد الفضل كله إلى سواحيلية آبائه، وينفي أي فضل للغة السواحيلية التي غرسها المسيحيون الأوربيون ومن سار على دربهم وروجها من بدايات العقد الثالث من القرن العشرين. وخرج هذا السفر ناطقا بأنه عمل محب، يلوح فيه الجمال والسلاسة في ترجمة كل آية.

وفي عام 1997 أنتج معلقته الشعرية في مدح النبي محمد صلي الله عليه وسلم الموسومة **(الأسوة الحسنة)**[6]، وذيل كل مقطع منها بحواشي نموذجية شارحة. وفي عام 1994 شرع الشيخ في كتابة مذكراته، البالغة الأهمية للمهتمين بلغة المناطق السواحيلية وثقافتها وتاريخها. ثم أمضى الشيخ علي محسن ما تبقى من عمره في **مسقط بعمان**، التي هي موطن أجداده وأبنائه.

---

[5] صدرت الطبعة الأولى في مجلدين عام 1995، ثم صدرت الطبعة الثانية في مجلد واحد عام 2000.

[6] صدرت منها طبعة خاصة في دبي في 1417هـ- 1997.

2

رثاء المؤلف في جريدة الجارديان اللندية

وفي **صحيفة الجارديان البريطانية** بعددها الصادر يوم السبت 20 مايو 2006 كتب سعيد بدر تحت عنوان (**علي محسن: السياسي القدوة**) يقول: لو قدر للتاريخ الزنجباري أن يكتب من منظور الحقيقة الدامغة، لشهد بالجهد المذهل الذي بذله الزعيم الراحل علي محسن البرواني في إيقاظ الوعي السياسي العملي في زنجبار. ومن يقرأ كتابه الذي ضمنه مذكراته المنشورة بالإنجليزية بعنوان (**الصراعات والوئام في زنجبار**) يلمس مدي التواضع الذي أنعم الله به على هذا الرجل، الذي غض دائما من صوته، ولم يعرف الخيلاء أبدا. **وكان إخلاصه المطلق في معاملاته السياسية هو السبب الأكبر لإخفاقه.**

ففي العمل السياسي المعاصر يسود لسوء الحظ توجه رائده هو مقولة: **الغاية تبرر الوسيلة.** والسياسة الخارجية الأمريكية نموذج صارخ على تطبيق تلك المقولة. وما كان للشيخ علي بالتوجه الديني المغروس في أعماق قلبه، أن يقبل بتلك المقولة.

وما حدث في زنجبار بعد الثورة هو نموذج حزين بشع على عاقبة ظاهرة: **الغاية تبرر الوسيلة.** ولقد بدأت أطروحتي هذه بقولي (لو قدر لتاريخ زنجبار أن يكتب) لأن تاريخ هذا البلد استعصى على الكتابة من عام 1964 حتى عام 1994، حيث عاش ذلك البلد في عصور الظلام مع الحظر الكامل للمؤسسات الديموقراطية، ومصادرة نظام الحكم السلطوي القائم هناك كل الحريات المتضمنة في الديموقراطية.

فطيلة الفترة من 1964 حتي 1994 طبق حظر شامل على الأحزاب السياسية عدا الحزب الأفرو شيرازي الرجعي، وغابت حرية التعبير، وحرية تكوين الجمعيات. ولم يكن في زنجبار في تلك الفترة صحفا، ولا حرية لنشر أي شئ عدا ما يصرح به القادة الثوريون. وأثر عن عبيد أماني كارومي قوله أنه لن تكون هناك انتخابات في زنجبار لنصف قرن. ولم يمتد العمر به ليري أول انتخابات فيها بعد واحد وثلاثين سنة في عام 1995 المفتقرة بدورها إلي النزاهة، والتي تذكرنا بعدالة قلب الحقائق في أوروبا العصور الوسطى.

وخلال مدة عمله **بالسياسة** التي لم تدم طويلا نادى الشيخ علي بحق الانتخاب العام لكل الراشدين، وفق مبدأ: **صوت واحد لكل ناخب** بزنجبار، حتي لو كان الزنجباري من أصل صيني. نعم كان عربيا كما يقول معارضوه السياسيون بحق. وكان يعي أن العرب أقلية معتبرة قوامها خمسة وأربعين ألف نسمة. ولم يمنعه ذلك من السعي إلى تقرير حق الانتخاب العام في زنجبار. ويكشف هذا الإجراء وحده عن مدى نضجه السياسي ومدى إخلاصه وتطلعه لإرساء مناخ سياسي صحي في زنجبار المستقبل. كان رجلا صاحب نية صادقة، في عالم اليوم الذي يفتقر لسوء الحظ لمن يقدرون مثل تلك الغايات النبيلة.

وقد لا يعرف كثيرون أنه حينما تم تشكيل حزب الإتحاد الوطني الأفريقي لتنجانيقا (تانو) عام 1954، ارتكزت سياسة نيريري على السماح للأفارقة السود فحسب بالانضمام إليه. وقد لا يعرف كثيرون أيضا أن الشيخ **علي محسن البرواني** هو الذي لفت نظر **نيريري** إلى أن هذا الصدع السياسي سيتسبب في استبعاد كفاءات

من أبناء تنجانيقا من أصول غير سوداء، أصحاب نية وهمة، **من أمثال:** أمير جمال، ودريك برايسن، والنور قاسم، والدكتور ليدرستيرلنج من المساهمة في النضال من أجل الإستقلال، وفي إدارة شؤون الحكم بعد الاستقلال.

وقد يروق لمن لا يعلم، أن يعرف أن الشيخ علي محسن هو الذي أقنع نيريري بأن يفتح باب العضوية بالحزب لكل أبناء تنجانيقا بصرف النظر عن العرق، وأن نيريري قبل النصيحة، وعقد مؤتمرا شعبيا أعلن فيه تغيير سياسته. وطلب من الشيخ علي أن يرسل ممثلا له لحضور إعلانه الأخذ بها. إلا ان نيريري لم يعترف بهذا الجميل للشيخ علي، لا لشئ إلا لكونه عربيا ومسلما.

ويعتقد البعض مجانبين للصواب أن الشيخ علي محسن هو الذي أسس حزب زنجبار الوطني. والحق أن الشيخ عاد من لندن إلي زنجبار مع مناضل من أجل الاستقلال من ترينداد وتوباجو مناصر لفكرة تشكيل أحزاب سياسية للنضال من أجل الاستقلال، فوجد أنه قد تم بالفعل تشكيل حزب سياسي لذات الغرض، يسمى: **حزب الوطن لرعايا السلطان**، أسسه زنجباريون أصليون من أهالي قرية كيمبي سماكي، برئاسة: فواي كيتويو. وضمت اللجنة التنفيذية للحزب حاجي حسين ، ومعراج شعلب، والمعلم زايد. ولم يكن الشيخ علي عضوا باللجنة المركزية للحزب حينها. إلا أن مؤسسي الحزب لاحظوا تحمس الشيخ علي للمشاركة في النضال من أجل الاستقلال، وما يتمتع به من قدرات قيادية، فقرروا أن تكون له الريادة في الحزب، وأسموه: **الزعيم**. وتناغم ذلك مع ما كان يجري في البر التنزاني. فلم يكن نيريري هو مؤسس حزب تانو، بل أسسه شيوخ تنجانيقا المسلمون، وقرروا أن

يتخذوا من نيريري زعيما له لما لمسوه في شخصيته من جاذبية. وغطى المؤرخ محمد سعيد سالم هذه النقطة على نحو جدير بالإعجاب في كتابه الموسوم **(في الثناء على الأسلاف)**.

وسهل الشيخ علي مهمة التوصل إلى تسوية لمسألة السيادة الكينية على الشريط الساحلي الكيني، بنصحه السلطان بالسماح بضمه إلى كينيا باعتبار ذلك هو الحل العملي لتلك المشكلة. ولم ينسى الرئيس جومو كينياتا هذاالجميل لزنجبار، وامتنانه على هذا العمل الكاشف عن النضج السياسي.

ونادى علي محسن أثناء مفاوضات استقلال زنجبار في لانكسترهاوس بلندن بتأسيس حكومة وحدة وطنية مع حزب الإفروشيرازي من أجل الوحدة السياسية لزنجبار. ولكن عبيد أماني كارومي رفض هذا العرض بعد تشاوره مع نيريري بخصوصه.

وكان هدف نيريري من التحريض علي رفض اقتراح حكومة الوحدة الوطنية، هو إقحام زنجبار في ظلمة سياسية لا تزال تحدق بها دون أي حل يلوح في الأفق. ومن الواضح أن نيريري انغمس من البداية في العمل السياسي الزنجباري من أجل تحقيق طموحات زعامته السياسية، مستفيدا من ضعف الخصال القيادية في شخصية كارومي.

وتعللت الولايات المتحدة رعايتها للوحدة بين زنجبار وتنجانيقا بتخوفها من النفوذ الشيوعي في زنجبار خاصة، وفي شرق إفريقيا عامة، وصبت تلك الدعوي فيما يشتهيه نيريري.

ولم يكن لتلك المخاوف من أساس لأن الزنجباريين مسلمون ورعون، من غير الممكن أن تروق الشيوعية لهم، بوصفها عقيدة

إلحادية. وكشف ذلك عن قصور في قدرة المخابرات الأمريكية على جمع المعلومات. ولم يكن البريطانيون يشاطرون الأمريكيين تلك المخاوف، ولكنهم آثروا الصمت لرغبتهم في عدم الظهور بمظهر من يثير حفيظة الأمريكيين.

ويبدو أن القنصل الأمريكي في زنجبار فرانك كارلوتشي[7] لم يفهم عمق جذور الثقافة الإسلامية في زنجبار. ومن ثم كانت مشورته المجانبة للصواب لحكومته. وجنى نيريري ثمار طموحه السياسي في ابتلاع زنجبار بعد إخفاق اتحاد شرق إفريقيا. ويبدو أن هناك أسبابا أخرى أكثر أهمية وراء القرار الأمريكي بتخريب سيادة زنجبار، يتصدرها الكراهية الأمريكية المرَضية للإسلام.

و أخيرا فإنه لولا أن قدر الله تعالى شاء أن تقع الثورة بزنجبار، وتزول سلطنة البوسعيديين، لتبوأ الشيخ علي أرفع المناصب في زنجبار. ويبقى عماد شهرة الشيخ ليس العمل السياسي، بل فيما سطرته يداه في تفسيره القرآني باللغة السواحيلية. ولم يكن رحمه الله أول من حاول إخراج مثل هذا التفسير، بل سبقه إليه عالمان شهيران هما الشيخ الأمين بن علي المزروعي والشيخ عبد الله صالح الفارسي، إلا أن تفسيره انفرد بعرض اللغة السواحيلية في

---

[7] فرانك كارلوتشي خدم مع وكالة المخابرات الأمريكية في الكونغو وتورط في اغتيال الزعيم الكونغولي باتريس لومومبا عام 1961. كان كارلوتشي القائم بالأعمال الأمريكي في زنجبار ولعب دورا خطيرا قبل وبعد قيام الوحدة بين زنجبار وتنجانيقا. وما زالت البرتغال تذكره باعتباره المستفيد الأكبرمن الإنقلاب البرتغالي في السبعينات حيث كان كارلوتشي سفيرا للولايات المتحدة الأمريكية بين 1974 و1977. في الفترة 1981- 1983 أصبح نائبا لوزير الدفاع الأمريكي، وفي 1986-1987 أصبح مستشارا للرئيس الأمريكي للأمن القومي، ثم أصبح كارلوتشي وزيرا للدفاع في 1987. – محمد البرواني

أزهى حللها وبكل روعتها وجمالها. . وعلاوة على ذلك فإن الرجل قام بتلك المهمة الصعبة، مثله مثل البروفيسور أربري في إنجازه هو الأخر مؤلفه الموسوم (القرآن مفسرا) في ظروف شخصية عصيبة ومؤلمة ومن ثم فإن ذكراه ستظل خالدة ما بقيت اللغة السواحيلية وآداب الناطقين بها على قيد الحياة[8].

وفي يوم الإثنين الواحد والعشرين من ربيع أول 1427 هـ الموافق العشرين من مارس 2006 فاضت روح هذا الفارس إلى بارئها، بعد مسيرة مباركة دامت أربعة وثمانين عاما، ولسان حالها يردد قول الله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }[9]، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }[10] وهي تنادي أن "{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}[11].

---

[8] British Journal of Middle Eastern Studies, Nov 2006 ,33(2)263-265.

[9] الأنبياء: 35

[10] العنكبوت:57

[11] الفجر:27-30.

3

قائمة الخرائط

إمبراطورية عمان وزنجبار حتى عام 1856 عند وفاة السيد سعيد بن سلطان	
زنجبار خلال عهد السيد ماجد بن سعيد	
زنجبار بعد التقسيم الأنجلوألماني في عهد السيد برغش بن سعيد	
جزر زنجبار تحت الحماية البريطانية 1890-1963	

4

قائمة الصور

والد المؤلف – الشيخ محسن بن علي البرواني	74
جد المؤلف – الشيخ سالم بن عبدالله البرواني	75
صاحب العظمة السيد خليفه بن حارب بن ثويني بن سعيد	89
محمد بن خلفان البرواني (روماليزا)	104
حمد بن محمد بن جمعه المرجبي – تيبوتيب	105
مونيي مكوو – أحمد بن محمد بن حسن العلوي	155
الأميرة العربية السيدة سالمة بنت سعيد بن سلطان	211
بشير بن سالم الحارثي مع رفاقه الشجعان	229
فواي كيتوأو – رئيس الحزب الوطني الزنجباري 1955-1964	278
وفد الحزب الوطني الزنجباري للصين مع علماء المسلمين الصينيين	279

لجنة فرع الحزب الوطني في كيئمبي سماكي	280
كوامي نكروما وعلي محسن	304
رئيس غانا كوامي نكروما مع زعماء أفريقيين	305
جمال عبدالناصر – اللقاء الأول – 7 يونيو 1958	328
الطلاب المبتعثون إلى القاهرة مع ذويهم	329
جمال عبدالناصر يرحب بحكومة زنجبار الديمقراطية 1963	330
مع عبدالناصر في مصر 1963	331
عدد من طلبة زنجبار في القاهرة	332
أبناء زنجبار الدارسون في مصر	333
الزعماء الأفريقيون في القاهرة	334
الوزراء بعد تولّي السيد جمشيد مقاليد العرش	422
علي محسن البرواني يؤدّي اليمين الدستورية أمام جلالة السلطان جمشيد بن عبدالله آل سعيد أغسطس 1963م.	423
الشيخ عبدالله بن سليمان بن حميد الحارثي – رئيس الجمعية العربية في زنجبار	525
السيد حسن سلطان المرعشي	526
مظاهرة للجمعية العربية في زنجبار تطالب بانتخابات المجلس التشريعي	527
انضمام زنجبار للأمم المتحدة	545

5

فهرس الأعلام والبلدان

أحمد عمر الجهضمي695 ,
أباذر جمعه575 ,175 ,
أباذر637 ,612 ,
ابرا727 ,376 ,206 ,112 ,
إبراهيم الزين صغيرون730 ,729 ,58 ,
ابراهيم قاسم617 ,
إبراهيم ماكونجو599 ,
ابراهيم نور729 ,
ابن بطوطة140 ,
أبوبكر ديواني128 ,
أبوسليمان المزروعي697 ,
أبوسليمان المزروعي705 ,
إبون صالح294 ,
إبوني صالح637 ,414 ,396 ,
إثيوبيا666 ,477 ,476 ,97 ,
أحمد الخروصي بامنجا311 ,
أحمد بن بلا378 ,
أحمد بن بلا664 ,
أحمد بن سعيد البوسعيدي90 ,
أحمد بن محمد بن خالد البرواني206 ,
أحمد بن محمد ملومري62 ,
أحمد خليفة السويدي680 ,
أحمد دريا340 ,
أحمد راشد557 ,508 ,241 ,240 ,
أحمد رشاد ,313 ,312 ,311 ,241 ,
314 ,320 ,323 ,340 ,380 ,399
أحمد سعيد الريامي281 ,
أحمد سيف الخروصي ,411 ,296 ,292 ,
448
أحمد سيف الخروصي ,292 ,273 ,239 ,
411 ,448 ,520 ,670
أحمد سيف الخروصي670 ,
أحمد علاي622 ,573 ,568 ,
أحمد عمر الجهضمي373 ,
أحمد عيدروس باعلوي ,531 ,299 ,296 ,
567 ,612
أحمد عيدروس باعلوي637 ,612 ,
أحمد عيدروس باعلوي241 ,
أحمد لاكا522 ,389 ,
أحمد محمد ناصر اللمكي520 ,514 ,
أحمد ملومري398 ,
إدريس عبد الوكيل560 ,
آدم سابي603 ,
آدم مبامبا398 ,
إدنجتون كيساسي614 ,
أدوارد ستيري96 ,
أديس أبابا554 ,533 ,338 ,
إذاعة196 ,195 ,
إذاعة صوت إفريقيا298 ,
آرثر هاردينجي444 ,
إرسالية الجامعات بإفريقيا الوسطى ,
463
أرستو مانجينيا241 ,
آرني كريستنسين656 ,
أرني هـ .كريستنسين636 ,
اريك ستيفنز446 ,
أسقفية كانتربري79 ,
إسلام خيار704 ,703 ,
اسماعيل الفاروقي76 ,
اسماعيل الفاروقي679 ,
آسيه محمد132 ,
أغاخان ,390 ,367 ,366 ,227 ,
515 ,537
أفغانستان81 ,
أكرا ,385 ,310 ,309 ,306 ,303 ,
388
الاتحاد السوفيتي336 ,
الأحزاب الديموقراطية المسيحية78 ,
الأردية232 ,127 ,125 ,
الإرساليات التبشيرية ,126 ,96 ,84 ,
129 ,453 ,461 ,463 ,467 ,475 ,
503
الإرساليات المسيحية ,130 ,85 ,76 ,
انظر الإرساليات التبشيرية
الأزهر ,337 ,232 ,226 ,117 ,63 ,
374 ,467 ,703 ,715 ,725
الأستاذ إبراهيم الزين صغيرون58 ,
الأسقف توزير96 ,

الإفروشيرازي ,176 ,168 ,71 ,70 ,
300 ,307 ,347 ,357 ,384 ,385 ,
386 ,387 ,388 ,389 ,390 ,391 ,
393 ,395 ,400 ,426 ,515 ,540 ,
557
الألمان ,212 ,135 ,109 ,103 ,101 ,
213 ,214 ,215 ,222 ,223 ,224 ,
238 ,254 ,257 ,258 ,259 ,379 ,
398 ,410 ,494 ,510 ,512 ,603
الإمام أحمد94 ,91 ,90 ,
الإمام علي365 ,342 ,226 ,168 ,
الأمير بدر ككونجولو247 ,
الأمير سعيد بن علي231 ,230 ,
الإنجيل584 ,500 ,466 ,190 ,
الأوربيون ,503 ,345 ,127 ,103 ,
552 ,735
الباجونيون143 ,
الباغ ,249 ,197 ,196 ,189 ,107 ,
357 ,731
البانتو ,161 ,159 ,158 ,125 ,124 ,
452 ,605
ألبانيا81 ,
البحيرات العظمى504 ,159 ,127 ,
البراونة732 ,109 ,107 ,106 ,94 ,
البرتغال740 ,547 ,477 ,
البرتغاليون464 ,307 ,154 ,88 ,
البرتغاليين ,154 ,153 ,147 ,139 ,88 ,
202 ,352 ,599
البرزة705 ,365 ,313 ,113 ,
البرلمان البريطاني493 ,344 ,79 ,
البريطانيين ,288 ,257 ,226 ,94 ,67 ,
308 ,309 ,377 ,378 ,383 ,403 ,
408 ,469 ,498
البهرة611 ,365 ,
البوسعيديون91 ,
البوسعيديين ,732 ,151 ,139 ,96 ,91 ,
733 ,740
البوسنة ,495 ,494 ,254 ,225 ,73 ,
496
البوكيرك134 ,
التاريخ الإسلامي230 ,64 ,
التسامح الديني ,355 ,135 ,133 ,124 ,
497
التشاجا429 ,248 ,200 ,
التوتسي587 ,586 ,
التومباتيون148 ,
الجالا223 ,
الجزيرة العربية ,141 ,110 ,81 ,
144 ,353 ,471 ,692 ,693
الجمعية الإسلامية67 ,
الجمعية الإفريقية ,289 ,273 ,181 ,
292 ,320
الجمعية الشيرازية400 ,384 ,181 ,
الجمعية العربية ,276 ,274 ,67 ,
288 ,318 ,391 ,448 ,507 ,520 ,
521
الجمعية القمرية67 ,
الجمعية الوطنية الهندية176 ,
الجنرال ابراهيم عبود285 ,
الجنرال أيوب خان378 ,
الجوجو644 ,
الحاج مصطفي582 ,581 ,
الحبيب بورقيبة378 ,
الحزب الإفروشيرازي ,181 ,179 ,
182 ,183 ,605
الحزب الوطني الزنجباري ,67 ,66 ,
68 ,69 ,70 ,118 ,122 ,171 ,175 ,
176 ,177 ,178 ,180 ,181 ,182 ,
183 ,184 ,186 ,188 ,225 ,251 ,
252 ,264 ,265 ,271 ,275 ,290 ,
291 ,293 ,294 ,295 ,298 ,300 ,
303 ,309 ,310 ,314 ,335 ,339 ,
343 ,357 ,381 ,382 ,383 ,384 ,
385 ,386 ,387 ,388 ,389 ,393 ,
394 ,395 ,399 ,404 ,415 ,421 ,
426 ,456 ,457 ,458 ,459 ,481 ,
498 ,516 ,529 ,531 ,541 ,550 ,
555 ,556 ,557 ,622 ,671 ,685 ,
705 ,706 ,708
الحكم البريطاني ,507 ,403 ,90 ,
547
الدعوة الإسلامية683 ,581 ,

الدكتور أحمد اليماني683 ,
الدكتور الأندونيسي راشد76 ,
الدكتور باترون419 ,
الدكتور بارتون109 ,
الدكتور خالد شيلدريك232 ,
الدكتور طه حسين111 ,
الدكتور عبد العزيز كامل677 ,
الدكتور عبدالعزيز إسحاق320 ,
الدكتور عبده سلام ,323 ,320 ,314
381, 629, 663, 675 ,
الدكتور عزالدين إبراهيم708 ,
الدكتور فريد أبوالعز663 ,
الدكتور كارفالو498 ,
الدكتور كليرو648 ,603 ,
الدكتور ليو واليدمان283 ,
الدكتور مصطفى مؤمن ,677 ,663 ,
683, 724
الدكتور مصطفي مؤمن ,313 ,312 ,64 ,
314
الدكتور معاوية شونار712 ,
الدكتور وليام هتشن140 ,
الدكتورة فاطمة سالم669 ,348 ,
الدنمارك80 ,
الديبوليون145 ,
الديبوليين .انظر الديبوليون
الروس257 ,
الزعيم آدم سابا101 ,
الزولو605 ,452 ,124 ,
السلطان قابوس730 ,503 ,
السواحيليون696 ,480 ,477 ,127 ,
السودان591 ,455 ,285 ,230 ,140 ,
السويد80 ,
السيد أحمد بن حسين المرعشي523 ,
السيد احمد بن سميط370 ,
السيد أحمد بن سميط397 ,373 ,115 ,
السيد السمار البوسعيدي398 ,
السيد برغش ,416 ,366 ,212 ,95 ,92 ,
469, 471, 477
السيد تركي94 ,
السيد ثويني222 ,
السيد جمشيد ,418 ,394 ,266 ,200 ,
419, 420, 421
السيد حامد منصب116 ,
السيد حسين المرعشي370 ,
السيد خالد419 ,109 ,106 ,
السيد خليفة بن حارب90 ,
السيد خليفة بن حارب ,368 ,366 ,
416, 669
السيد خليفة بن سعيد222 ,102 ,
السيد سعيد بن سلطان90 ,
السيد سيف بن حمود بن فيصل ,318 ,
520
السيد سيف بن حمود بن محمد62 ,
السيد سيف مابوستي .انظر السيد سيف
بن حمود بن محمد
السيد علي بن حمود ,230 ,130 ,
234, 418, 668
السيد عمر بن سميط523 ,373 ,370 ,
السيد عمر عبد الله511 ,116 ,
السيد ماجد ,223 ,222 ,95 ,93 ,91 ,
502
السيد مصطفي جمل الليل116 ,
السيدة سالمة ,212 ,208 ,206 ,93 ,
215, 219, 221, 469
السيدة نونو379 ,
السير آرثر هاردنج238 ,
السير فنسينت جلنداي335 ,
السير فيليب ميتشل367 ,366 ,
السير لويد ماثيوس238 ,
السير هارولد بيلي677 ,
الشارقة729 ,157 ,146 ,
الشيخ أبوبكر714 ,114 ,
الشيخ أبو بكر باكثير698 ,
الشيخ أبومسلم ناصر الرواحي370 ,
الشيخ أحمد بن محمد الخليلي358 ,
الشيخ أحمد زهران الريامي199 ,
الشيخ أحمد مولومري115 ,
الشيخ الأمين بن علي المزروعي ,
698, 740
الشيخ الشرباصي684 ,
الشيخ المخزومي116 ,
الشيخ برهان المكلا373 ,
الشيخ برهان محمد المكلا199 ,
الشيخ بريك701 ,
الشيخ بن باز683 ,
الشيخ حاجي محمدي621 ,
الشيخ حسين لمبا116 ,
الشيخ حميد مباي532 ,315 ,

الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم680 ,
الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان708 ,
الشيخ سعيد بن راشد الغيثي348 ,
الشيخ سليمان العلوي714 ,116 ,
الشيخ سليمان العلوي523 ,
الشيخ سليمان العلوي373 ,116 ,
الشيخ سيف بن ناصر الخروصي370 ,
الشيخ شلتوت360 ,
الشيخ عبد الرحمن الكندي714 ,
الشيخ عبد الرحمن الكندي200 ,
الشيخ عبد الله الحضرمي199 ,
الشيخ عبدالله باكثير ,114 ,103 ,66 ,
197, 373, 700
الشيخ عبد الله بن سليمان الحارثي288 ,
الشيخ عبد الله بن محمد باكثير ,110 ,62 ,
714
الشيخ عبد الله صالح الفارسي199 ,
الشيخ عبدالله .انظر الشيخ عبدالله بن
سليمان الحارثي
الشيخ عبدالله أحمد سيف الحاتمي714 ,
الشيخ عبدالله بن سليمان الحارثي521 ,
الشيخ عبدالله بن محمد باكثير .انظر الشيخ
عبدالله باكثير
الشيخ عبدالله صالح الفارسي116 ,
الشيخ علي الدراني701 ,
الشيخ علي بن عبد الله المزروعي358 ,
الشيخ محمد الدهان370 ,
الشيخ محمد بن سليمان بن ناصر اللمكي ,
622, 668
الشيخ محمد بن علي بن خميس357 ,
الشيخ محمد بن عمر714 ,373 ,116 ,
الشيخ محمد بن قاسم المزروعي698 ,
الشيخ محمد قاموس116 ,
الشيخ محمد متولي شعراوي725 ,684 ,
الشيخ محمد ناصر اللمكي622 ,
الشيخ مسعود بن علي الريامي373 ,
الشيخ ناصر النهدي701 ,
الشيخ يحيي بن حمد الهنائي300 ,
الشيشان494 ,
الصراع الديني133 ,
الصليب ,499 ,194 ,193 ,192 ,80 ,
635
الصومال ,161 ,139 ,125 ,124 ,90 ,
285, 370, 417
الصين496 ,336 ,232 ,144 ,127 ,
العاهل البريطاني79 ,
العراق450 ,370 ,259 ,157 ,
العرب ,140 ,138 ,112 ,94 ,87 ,
141, 142, 146, 151, 152, 157,
161, 171, 177, 178, 186, 187,
221, 252, 254, 290, 294, 306,
316, 317, 318, 319, 321, 345,
346, 352, 353, 394, 395, 439,
455, 461, 462, 468, 470, 504,
510, 518, 552, 577, 615, 681,
691, 694, 737
العلاقة بين الكنيسة والدولة78 ,
العلمانية ,133 ,131 ,81 ,79 ,76 ,4 ,
197, 243, 703
العمانيون424 ,144 ,88 ,
الفارسية146 ,144 ,125 ,
ألفونسو أدونجو572 ,569 ,568 ,
القاعدة البغدادية189 ,
القاهرة ,226 ,117 ,113 ,110 ,
232, 251, 277, 290, 298, 303,
307, 309, 310, 311, 313, 314,
320, 323, 326, 336, 338, 381,
399, 471, 542, 555, 623, 627,
630, 663, 668, 669, 670, 675,
677, 678, 680, 683, 685, 686,
715, 724
القرآن ,189 ,131 ,124 ,120 ,113 ,
190, 192, 196, 199, 208, 242,
243, 286, 287, 313, 350, 359,
369, 374, 376, 411, 445, 481,
482, 489, 492, 500, 584, 585,
587, 656, 683, 691, 692, 701,
704, 714, 715, 716, 717, 718,
719, 720, 723, 724, 735, 741
القرنفل ,262 ,196 ,187 ,176 ,
263, 379, 427, 436, 437, 438,
439, 440, 508, 509, 535, 544,
556, 613, 618
القمريون398 ,397 ,396 ,
الكابتن تومبلنج244 ,
الكاثوليكية ,454 ,249 ,238 ,80 ,
472, 486, 499, 577, 593

الكتاب المقدس ,454 ,194 ,192 ,77 ,
455, 491, 500, 577, 585, 656,
701, 712, 728
الكستدر وولكوت162 ,
الكنيسة ,249 ,218 ,130 ,80 ,79 ,78 ,
454, 472, 476, 486, 498, 593,
614, 701
الكومنويلث ,533 ,276 ,173 ,172 ,
536, 540, 546, 548, 553
الكونغو ,140 ,139 ,125 ,101 ,90 ,
271, 394, 417, 515, 639, 740
الكيكويو696 ,243 ,124 ,119 ,
اللغة السواحيلية ,127 ,126 ,125 ,124 ,
128, 161, 200, 313, 374, 630,
697, 714, 717, 724, 741
اللغة العربية ,189 ,133 ,131 ,124 ,
191, 199, 286, 380, 606
اللورد سالسبري215 ,
المارشال تيتو323 ,
الماكوندي98 ,
ألمانيا الشرقية599 ,
ألمانيا الغربية379 ,
الماوماو281 ,
المجلس التشريعي ,318 ,292 ,274 ,79 ,
383, 388, 389, 396, 406, 519,
524, 539, 540
المجلس الثوري ,516 ,357 ,185 ,179 ,
562, 653
المجلس العالمي للكنائس82 ,76 ,
المرشد ,448 ,انظر جريدة المرشد
جريدة المرشد ,289 ,274 ,272 ,238 ,
293, 298, 335, 343, 455, 513,
514, 522, 523, 658, 673, 715,
733
المزروعيين91 ,
المسيح ,166 ,159 ,134 ,77 ,72 ,
192, 193, 218, 464, 485, 490,
494, 631, 632, 702
المعامرة109 ,
المعلم زام علي عباس514 ,299 ,
المعلم زايد ,288 ,287 ,286 ,275 ,
289, 290, 291, 295, 738
المعلم سعيد بن أحمد702 ,
المعلم عباس596 ,
المعلم مقصود357 ,
المعلم مقصودي275 ,
المعلم هلال .انظر هلال محمد هلال ,
انظر هلال محمد البرواني
المعلم هنري197 ,123 ,
المغرب ,610 ,583 ,541 ,456 ,63 ,
634
الملك إدوارد الثامن79 ,
الملك الحسن378 ,
الملك جورج السادس244 ,
الملك خالد بن عبدالعزيز681 ,
الملك عبد العزيز692 ,
الملك فاروق277 ,
المنتخب في تفسير القرآن الكريم125 ,
المنزفة731 ,727 ,
الميجور بيرسي150 ,
الميجور ف .ب .بيرس148 ,
الميجور كويسلنج255 ,
الميلاد61 ,
النادي الإنجليزي108 ,67 ,
النبي محمد ,472 ,319 ,77 ,62 ,
480, 702, 735
النبي محمد141 ,
النرويج257 ,256 ,255 ,
النياسا287 ,
الهاديمو ,345 ,154 ,153 ,انظر
الواهاديمو ,انظر الواهاديمو
الهند ,122 ,119 ,97 ,95 ,93 ,69 ,
157, 230, 232, 240, 262, 263,
294, 296, 312, 351, 379, 427,
436, 439, 440, 446, 508, 509,
552, 580, 613, 645, 683, 684,
690, 709
الهندية ,135 ,127 ,125 ,90 ,67 ,
146, 182, 353, 439, 693
الواتومباتو352 ,
الواهديمو352 ,
الهيبي604 ,603 ,601 ,102 ,101 ,
الوتومباتو143 ,
الكامبا128 ,
الولايات المتحدة ,428 ,259 ,80 ,
461, 544, 555, 681, 685, 688,
713, 739
الولايات المتحدة336 ,

النيامويزي571 ,266 ,101 ,
اليابان548 ,544 ,428 ,380 ,172 ,
اليعاربة95 ,91 ,
اليونسكو668 ,533 ,336 ,282 ,
أم كلثوم111 ,
أمان ثاني681 ,
أماني ثاني729 ,542 ,541 ,
أمير علي عبد الرسول415 ,
أمير علي عبدالرسول637 ,
أمينو كانو541 ,306 ,
أنانجيسي583 ,580 ,
انتخابات ,343 ,182 ,181 ,70 ,69 ,
387, 389, 393, 399, 457, 459,
706, 737
انجرامز144 ,142 ,
أنجوجا148 ,
انجوجاأكو352 ,154 ,
أندونيسيا713 ,556 ,508 ,263 ,112 ,
أنديرا غاندي541 ,
أنور السادات314 ,277 ,
أوباديو روجامبوا642 ,564 ,
اوبايدو روجامبوا574 ,
أوتين كامبونا675 ,
أوجيجي101 ,
اوجينجا اودينجا242 ,
أوسان139 ,
أوسكار كامبونا ,593 ,529 ,479 ,407 ,
674
أوغندا ,248 ,247 ,245 ,185 ,131 ,
261, 268, 310, 325, 426, 427,
428, 429, 431, 442, 453, 479,
573, 574, 591, 594, 605, 653,
686, 687, 730, 732
أوكوتاني115 ,113 ,
أوكيلو .انظر جون أوكيلو
أولي ,273 ,234 ,194 ,189 ,96 ,87 ,
275, 684
أونجوجاأكو382 ,154 ,149 ,
أياني317 ,
آياني184 ,
ايدنجتون كيساسي616 ,391 ,
إيران151 ,146 ,112 ,
ايرنجا ,597 ,516 ,427 ,117 ,101 ,
601, 603, 604, 649
إيميل ابريك248 ,
ايميل فون زاليوسكي224 ,
ب .أ .بب284 ,
بابو ,180 ,179 ,178 ,177 ,119 ,
183, 185, 186, 291, 300, 309,
340, 344, 381, 384, 385, 386,
388, 456, 458, 459, 565, 596,
,729 ,612 ,598 ,597انظر
عبدالرحمن محمد بابو
باتريس لومومبا740 ,336 ,320 ,
باتريك روبتسون67 ,
باتيل387 ,346 ,
باجامويو246 ,224 ,
بارتليت441 ,440 ,
بارسيي66 ,65 ,
باعلوي .انظر أحمد عيدروس باعلوي ,
انظر أحمد عيدروس باعلوي
بافميكا386 ,310 ,309 ,
باكنهام288 ,
بانجاني224 ,
بدر محمد265 ,
براروجا191 ,
براوا732 ,151 ,112 ,
برابنت173 ,
برغش ,109 ,108 ,106 ,93 ,87 ,
202, 214, 223, 291, 319, 417,
418, 469, 471
برنارد شو250 ,60 ,
برهان المكلا714 ,398 ,
بريانت267 ,
بريطانيا ,180 ,97 ,92 ,91 ,80 ,
213, 215, 243, 255, 257, 259,
298, 308, 344, 345, 367, 378,
383, 393, 396, 407, 417, 425,
442, 453, 457, 462, 476, 479,
497, 503, 513, 547, 557, 575,
670, 674, 706
بسمارك225 ,214 ,212 ,
بشير .انظر بشير بن سالم الحارثي
بشير الحارثي .انظر بشير بن سالم
الحارثي
بشير بن سالم الحارثي222 ,
بلاد فارس .انظر إيران
بلجيكا255 ,

بن بركة541 ,
بندر عباس96 ,
بهجت دسوقي663 ,
بهجت دسوقي320 ,
بوانا خيري224 ,
بوبوبو ,265 ,197 ,123 ,122 ,121
511
بورتسماوث200 ,
بورقيبة541 ,
بوروندي587 ,125 ,
بوكوبا ,564 ,429 ,378 ,191 ,190
,587 ,586 ,583 ,582 ,581 ,580
,603 ,595 ,593 ,591 ,589 ,588
,653 ,650 ,646 ,640 ,623 ,608
656, 714, 716
بوكي مونانكا386 ,
بول بوماني316 ,310 ,
بول روبسون162 ,
بولندا255 ,
بيأوبوا132 ,
بيبي تيتي646 ,645 ,592 ,
بيت العجائب478 ,419 ,291 ,
بيرسي أندرسون505 ,215 ,
بيرنارد بلامود641 ,
بيلي ميرفي392 ,
بيم إبريك241 ,
بيمبا ,157 ,156 ,147 ,145 ,132 ,91
,184 ,183 ,182 ,178 ,176 ,172
,301 ,300 ,297 ,271 ,196 ,188
,395 ,388 ,384 ,361 ,339 ,319
,514 ,503 ,470 ,441 ,424 ,415
,562 ,550 ,537 ,535 ,534 ,517
,636 ,621 ,618 ,617 ,582 ,563
672, 684, 706
بيوبوا313 ,299 ,
تابورا266 ,101 ,
تاريا توبان366 ,365 ,
تالاتي66 ,
تانجا696 ,625 ,567 ,242 ,224 ,70 ,
تانجي106 ,
تايلور134 ,78 ,
تركيا488 ,230 ,97 ,81 ,
تشرشل ,260 ,259 ,257 ,256 ,254 ,
261, 269
تشيباكا645 ,609 ,608 ,592 ,
تشيكوسلوفاكيا255 ,
تعيين كاثوليكي نائبا لرئيس هيئة
الإذاعة البريطانية80 ,
تقسيم الإمبراطورية92 ,
تنجانيقا ,109 ,102 ,101 ,98 ,70 ,
,185 ,169 ,156 ,140 ,134 ,117
,294 ,266 ,262 ,214 ,190 ,186
,361 ,351 ,350 ,339 ,337 ,310
,407 ,392 ,390 ,378 ,377 ,362
,460 ,433 ,428 ,426 ,417 ,408
,516 ,502 ,478 ,463 ,462 ,461
,612 ,580 ,569 ,566 ,565 ,563
738 ,734 ,675 ,674 ,665 ,613
توم مبويا703 ,336 ,310 ,
توماس باكانهام223 ,
توماس باكنهام225 ,215 ,
توماس ماريالي200 ,
تومباتو ,150 ,149 ,148 ,144 ,
152, 153, 206, 352, 563, 706
تومبلنج245 ,
تيبوتيب669 ,101 ,
تيدبري267 ,173 ,
ثابت البطاشي668 ,
ثابت كومبو386 ,184 ,
ثويني ,223 ,96 ,94 ,93 ,92 ,91 ,
319, 416, 502
جانداسكوي ماروما241 ,
جبل علي712 ,693 ,
جراي جريج535 ,
جراي ماتاكا646 ,645 ,
جريج .انظر جراي جريج ,انظر جراي
جريج ,انظر جراي جريج
جريدة المرشد396 ,
جريج .انظر جراي جريج
جريزبروك440 ,
جزر القمر ,161 ,144 ,138 ,124 ,
,397 ,370 ,294 ,248 ,224
677 ,676 ,622 ,446
جزر المالديف157 ,146 ,
جزيرة العرب681 ,139 ,
جعفر تيجاني729 ,
جمال الدين الأفغاني225 ,

جمعة علاي ,621 ,611 ,567 ,410 ,
622, 638, 653
جمعه علاي ,562 ,531 ,414 ,405 ,
567
جمعية حضرموت67 ,
جنوب السودان285 ,125 ,
جنيف277 ,270 ,177 ,82 ,80 ,76 ,
جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار101 ,
جوب لوسيندي194 ,
جوجان267 ,
جودفري بينايسا573 ,
جودفري بينيسا653 ,
جودفري بنايسا454 ,
جوديفري بنيسا241 ,
جورا ديا134 ,
جورج بادمور730 ,541 ,308 ,
جورج برنارد شو496 ,232 ,
جورج تيرنر449 ,235 ,
جورج تينر .انظر جورج شارلوود تارنر
جورج شارلوود تارنر243 ,
جورج مورنج299 ,
جورج مورينج ,392 ,387 ,376 ,67 ,
,444 ,443 ,442 ,420 ,418 ,393
457, 536
جورجي زيدان227 ,226 ,
جوز الهند613 ,522 ,287 ,263 ,186 ,
جوزيف تومبسون469 ,
جوزيف موروميي310 ,308 ,
جوزيف موروميي405 ,
جوسيف موروميي252 ,
جوفو117 ,115 ,113 ,
جولدا مائير306 ,
جوليوس نيريري ,377 ,339 ,306 ,70 ,
400, 674, 732
جوميز134 ,
جون أوكيلو400 ,171 ,
جون إينالز277 ,
جون جراي ,157 ,154 ,147 ,146 ,
158, 289
جون جنثر533 ,
جون رانكين437 ,
جون سترينجر70 ,
جونسون ,346 ,345 ,344 ,182 ,132 ,
347, 544
جيمس جونسون347 ,344 ,
جيمس كالاهان377 ,
جيمس ماكوني576 ,193 ,
جينجا235 ,
محمد سالم جينجا ,236 ,235 ,232 ,
,667 ,600 ,296 ,282 ,281انظر
محمد سالم جينجا
حاجي حسن علي676 ,
حاجي حسين ,291 ,287 ,122 ,116 ,
292, 357
حاجي حسين738 ,401 ,275 ,
حارب سعيد242 ,
حارث خلف603 ,117 ,
حركة حرية عموم إفريقيا لشرق ووسط
إفريقيا182 ,
حزب أبناء بمبا وزنجبار180 ,
حزب الاتحاد الوطني الأفريقي
التنجانيقي ,604 ,583 ,580 ,186 ,
605, 643, 674
حزب الأفروشيرازي ,183 ,70 ,
,299 ,291 ,275 ,274 ,273 ,266
,347 ,345 ,309 ,308 ,307 ,300
,387 ,386 ,385 ,384 ,383 ,357
,395 ,393 ,391 ,390 ,389 ,388
,457 ,424 ,421 ,404 ,400 ,399
,557 ,556 ,540 ,516 ,515 ,463
739 ,598 ,589 ,563 ,558
حزب الأمة307 ,186 ,179 ,176 ,
حزب الشعب ,387 ,385 ,383 ,
557 ,529 ,426 ,388
حسن البنا312 ,
حسن بن عمير714 ,373 ,166 ,
حسن بن علي147 ,139 ,
حسن صبري الخولي667 ,
حسن مزمل690 ,688 ,
حسين قحطان240 ,
حضرموت ,113 ,112 ,110 ,67 ,
140, 370, 371
حلمي شعراوي320 ,
حمد بن سعيد90 ,
حميد بن عبد الله البهري224 ,
حميد بن محمد المرجبي) تيبوتيب ,(
101
حميد مباي339 ,

حيجا صالح340 ,
حيدر متانو252 ,
خالد بن برغش108 ,
خالد بن وليد58 ,
خلفان بن سالم621 ,234 ,120 ,
خلفان محمد58 ,
خليل علي446 ,
خميس صبور621 ,
خميس محمد مطافي366 ,98 ,
خورشيد أحمد680 ,
دراجاني695 ,
دارالسلام ,224 ,195 ,157 ,90 ,70 ,
294 ,365 ,386 ,407 ,563 ,571 ,
574 ,576 ,577 ,591 ,607 ,608 ,
610 ,621 ,622 ,630 ,634 ,637 ,
648 ,665 ,684 ,733
دارسي233 ,205 ,203 ,
داهول145 ,
داوود محمود621 ,
دبا157 ,146 ,
دباويون145 ,
دبي ,680 ,679 ,627 ,430 ,255 ,
692 ,693 ,700 ,709 ,710 ,711 ,
712 ,713 ,726 ,734 ,735
درهاش بن شاه147 ,
دودوما ,193 ,192 ,169 ,163 ,102 ,
195 ,405 ,455 ,502 ,529 ,566 ,
568 ,570 ,574 ,576 ,578 ,595 ,
596 ,603 ,607 ,608 ,611 ,622 ,
634 ,639 ,643 ,649 ,650 ,653 ,
656 ,665
دورهام405 ,
دوق جلوسستر244 ,
دي بنسين451 ,
دي لوردس134 ,
ديبوا730 ,
ديجول259 ,
ديفيد أوين541 ,378 ,270 ,177 ,
ديفيد ريد578 ,
دينا492 ,134 ,
راحاليو563 ,415 ,414 ,379 ,
رأس الرجاء الصالح143 ,

راشد توفيق ,602 ,597 ,567 ,566 ,
603
راشد حمادي ,412 ,339 ,300 ,275 ,
415 ,562 ,636 ,671 ,681 ,705
راشد علي الريامي716 ,
راشد علي الريامي697 ,
راشد محمد مبارك677 ,
رانكين658 ,442 ,292 ,274 ,
رايه بنت ماجد348 ,
رجب زايد240 ,
رستم سيدوا387 ,
رمضان مدافو ,294 ,292 ,273 ,
295 ,357
رمضان نيامكا612 ,582 ,
رواندا125 ,
روبرت موري497 ,81 ,
روبرتسون445 ,444 ,406 ,
روتشلد79 ,
روتي بالسارا66 ,
روجامبوا654 ,565 ,564 ,
رودولف روتي216 ,206 ,
روزفلت259 ,
روماليزا ,103 ,102 ,101 ,98 ,
249 ,603 ,622
رومل259 ,
روميل348 ,
رونس267 ,266 ,
ريتشارد رانكين439 ,437 ,436 ,
زام علي514 ,299 ,
زبير رجال241 ,
زبير متينفو337 ,
زليخة132 ,
زمزم المعولية132 ,
زهيرة132 ,
زهيره غريب299 ,
زوينة عبدالله299 ,
زيانة بنت سالم62 ,
سالسبوري ,444 ,239 ,225 ,215 ,
504 ,505
سالم احمد البوسعيدي411 ,
سالم بن عبد الله108 ,
سالم بن عيسى699 ,687 ,108 ,90 ,
سالم بن عيسى البرواني699 ,94 ,90

سالم بشير223 ,96 ,
سالم عزام680 ,
سالم كومبو ,565 ,412 ,193 ,163 ,
566 ,576 ,612 ,637
سالم مهشم252 ,
سالمين عامر560 ,
سالم حافظ117 ,116 ,58 ,
سبات404 ,
سترنجر406 ,
ستيفانوماتولا129 ,
سجن كيكو ,610 ,565 ,564 ,429 ,
612 ,621
سر الختم خليفة285 ,
سعد زغلول226 ,
سعود أحمد البوسعيدي315 ,
سعود حمد المعولي729 ,299 ,
سعود ماجد249 ,
سعيد بافوأي599 ,
سعيد بدر736 ,411 ,123 ,
سعيد بن خلفان الخليلي96 ,
سعيد بن سلطان ,94 ,93 ,92 ,91 ,90 ,
95 ,97 ,98 ,108 ,135 ,140 ,206 ,
212 ,221 ,298 ,307 ,346 ,394 ,
468 ,469 ,475 ,476 ,502
سعيد بن سيف709 ,695 ,349 ,
سعيد بن علي المغيري101 ,
سعيد بن ناصر327 ,
سعيد عبود طاهر382 ,
سعيد عبود ماكندا622 ,
سعيد عبود مكاندا625 ,
سعيد مباي522 ,
سعيد محمد البرواني269 ,
سعيد محمد ناصر اللمكي710 ,
سعيد واشوتو653 ,562 ,
سكانديناڤيا180 ,
سلطان أوسامبارا224 ,
سلطان خميس المغيري234 ,233 ,
سوليفان404 ,
سليمان بن حبيب92 ,
سليمان بن حمد90 ,
سليمان بن حميد90 ,
سليمان بن ناصر اللمكي669 ,224 ,
سليمان سعيد .انظر سليمان سعيد
الخروصي

سليمان سعيد الخروصي ,299 ,241 ,
401 ,407 ,540 ,563
سليمان شحبل729 ,688 ,58 ,
سليمان مالك542 ,541 ,320 ,
سليمان مزي247 ,
سميثيمان445 ,
سوريا230 ,
سوكارنو541 ,
سوليفان407 ,405 ,400 ,
سويسرا80 ,
سيدة المنيرة669 ,
سير فيليب ميتشل269 ,
سيراليون548 ,546 ,544 ,543 ,
سيف الصباحي249 ,
سيف الغرير708 ,707 ,
سيف بكاري599 ,
سيف بن سالم96 ,
سيف بن ناصر الخروصي .انظر الشيخ
سيف بن ناصر الخروصي
سيف شريف حماد558 ,
سيلفانو أوليمبيو467 ,
سيوا حاجي365 ,133 ,
شامتي ,409 ,387 ,383 ,300 ,184 ,
410 ,412 ,413 ,419 ,445 ,456 ,
531 ,543 ,550 ,637 ,646 ,
شرق إفريقيا ,77 ,76 ,71 ,69 ,65 ,
87 ,88 ,90 ,91 ,92 ,93 ,94 ,95 ,
97 ,98 ,101 ,112 ,124 ,125 ,
127 ,129 ,133 ,135 ,136 ,139 ,
140 ,141 ,142 ,143 ,144 ,145 ,
146 ,147 ,148 ,151 ,153 ,159 ,
160 ,161 ,178 ,185 ,212 ,213 ,
215 ,223 ,235 ,240 ,241 ,243 ,
252 ,253 ,276 ,281 ,307 ,310 ,
311 ,325 ,338 ,340 ,346 ,350 ,
351 ,361 ,364 ,365 ,366 ,367 ,
369 ,370 ,371 ,378 ,394 ,397 ,
398 ,399 ,417 ,424 ,428 ,429 ,
444 ,464 ,467 ,475 ,476 ,478 ,
502 ,503 ,504 ,521 ,524 ,530 ,
539 ,540 ,554 ,568 ,571 ,614 ,
646 ,653 ,664 ,681 ,684 ,689 ,
690 ,693 ,698 ,703 ,714 ,716 ,
723 ,

730, 732, 739, 740
شريفه أحمد البوسعيدية572 ,
شريفه اللمكي) هوبو311 ,(
شعبان سعودي مبوندا275 ,
شعبان صالح الفارسي622 ,
شكسبير656 ,503 ,267 ,
شنغاني109 ,67 ,
شيخة بنت عبود132 ,
صالح بن علي715 ,95 ,94 ,
صالح شوهيز241 ,
صالح مبامبا297 ,
صلاح الدين258 ,230 ,
صلاح سالم315 ,
صمويل كاتونجوتو575 ,
عامر زاهر589 ,520 ,273 ,
عامر زاهر الإسماعيلي273 ,
عامر بن علي134 ,
عامر زاهر116 ,
عباس سايكس386 ,
عبد الباري العجيزي199 ,
عبد الرازق عبد الودود241 ,
عبد الرحمن بن عامر271 ,
عبد الرحمن عزام161 ,
عبد الرحمن محمد بابو69 ,
عبد الرسول خاكو241 ,
عبد العزيز اسحاق112 ,110 ,
عبد العزيز توالا395 ,
عبد الله See .عبدالله محسن
عبد الله الحضرمي231 ,230 ,199 ,
عبد الله الزبيدي708 ,707 ,
عبد الله بن الحسين259 ,
عبد الله بن جاعد البوسعيدي90 ,
عبد الله بن جمعة بن عامر البرواني94 ,
عبد الله بن سالم106 ,96 ,
عبد الله بن سالم ,108 ,106 ,95 ,92 ,
223 ,416
عبد الله سراج الدين252 ,
عبدالله عامر سليمان188 ,
عبد الله صالح ,555 ,242 ,انظر عبدالله
صالح الفارسي
عبد الله صالح الفارسي ,233 ,203 ,199 ,
374, 513, 523, 700, 701, 705,
714, 715, 741
عبد الله عجمي240 ,
عبد الله فرحان498 ,205 ,
عبد الله فونديكيرا241 ,
عبد الله محسن58 ,
عبد الله مسعود الريامي312 ,
عبد الملك بن مروان352 ,206 ,
عبد الناصر ,311 ,310 ,277 ,251 ,
316, 320, 321, 322, 323, 324,
325, 326, 335, 336, 344, 378,
541, 664, 665
عبدالله موانيدي603 ,
عبده شريف729 ,
عبود جومبي ,357 ,342 ,241 ,134 ,
436, 515, 557, 558, 562, 619,
620, 627, 684, 729
عثمان سعود357 ,292 ,275 ,273 ,
عثمان شريف ,281 ,261 ,241 ,69 ,
387, 395, 463, 515, 516, 517,
518, 557, 589
عدن406 ,200 ,
عزان بن قيس96 ,
عزة بنت محمد بن سيف البوسعيدي ,
348
علي خميس556 ,508 ,449 ,261 ,
علي سالم حافظ58 ,
علي محمد يحيى58 ,
علي أحمد الجهضمي697 ,
علي المزروعي729 ,705 ,
علي بن عيسي694 ,
علي خميس موسى411 ,
علي سعيد الخروصي316 ,
علي شريف387 ,383 ,
علي صبري322 ,
علي محفوظ596 ,
علي محمد يحيي670 ,
علي أحمد الجهضمي248 ,
علي أحمد الريامي ,271 ,270 ,247 ,
273
علي الجهضمي .انظر علي أحمد
الجهضمي
علي باكثير112 ,111 ,110 ,
علي بن أبي طالب365 ,297 ,168 ,

علي بن سيف بن علي الإسماعيلي93 ,
علي بن عيسى121 ,
علي خميس261 ,246 ,241 ,
علي سالم572 ,118 ,117 ,58 ,
علي سالم حافظ117 ,58 ,
علي سعيد الأكبري299 ,
علي سلطان381 ,340 ,286 ,
علي عيسى البرواني297 ,296 ,116 ,
علي فوم116 ,
علي محسن ,177 ,163 ,118 ,59 ,3 ,1 ,
183, 237, 308, 318, 322, 327,
344, 350, 409, 443, 523, 662,
731, 735, 736, 737, 738, 739
علي محفوظ ,599 ,598 ,597 ,284 ,
600, 601, 602, 603, 611
علي أحمد الجهضمي249 ,
علي بن أبي طالب162 ,
علي حسن موينى558 ,556 ,
علي عبد الرحمن باعلوي300 ,
علي كانجي694 ,
علي محسن57 ,
علي محفوظ601 ,597 ,596 ,
عمان ,94 ,93 ,92 ,91 ,90 ,88 ,87 ,
95, 96, 97, 109, 112, 125, 133,
139, 140, 146, 151, 157, 205,
206, 223, 319, 358, 359, 362,
370, 377, 417, 464, 471, 474,
476, 503, 521, 622, 686, 692,
712, 727
عمبر الحبشي94 ,
عمر زهران315 ,299 ,
عمر عبد الله241 ,
عمر عرتي680 ,
عمر محاجي ,620 ,619 ,615 ,612 ,
623, 638
عمر محاجي612 ,
عمر محمد681 ,296 ,
عمير تاجو714 ,386 ,384 ,383 ,
عنتيبي245 ,
عيسى بن سالم94 ,90 ,
عيسى ناصر الإسماعيلي58 ,
عيسى ناصر93 ,58 ,
عيسي بن علي البرواني699 ,
عيسي ناصر الإسماعيلي729 ,622 ,
غانا ,312 ,309 ,307 ,306 ,302 ,
451
غاندي378 ,308 ,283 ,230 ,
غاية محمد58 ,
فاسكوداجاما143 ,
فاطمة أبو العز313 ,
فاطمة شريف132 ,
فان غوخ267 ,
فانجا733 ,632 ,250 ,
فتحي صبري663 ,
فتحي صبري322 ,320 ,315 ,314 ,
فرانسيس خميس337 ,309 ,
فرنسا379 ,307 ,295 ,255 ,80 ,
فريد أبو العز314 ,313 ,
فريدرك هولموود213 ,
فواي كيتويو738 ,
فوستر132 ,131 ,
فونديكيرا569 ,302 ,
فووأي كيتوويو287 ,
فيصل بن الحسين259 ,
فينر بروكوي541 ,
فواي كيتوويو327 ,
قابوس بن سعيد727 ,
قادرباي367 ,366 ,
قاسم عبد الحافظ69 ,
قاسم هانجا557 ,395 ,307 ,
قبائل المانييما101 ,
قبائل الهيهي101 ,
قبيلة الخوسا605 ,
قبيلة الماكوندي319 ,
قبيلة الهايا589 ,587 ,583 ,564 ,
قيصر ألمانيا103 ,
كاتدرائية إرساليات الجامعات لوسط
وشرق إفريقيا133 ,
كارومي ,231 ,185 ,184 ,168 ,
251, 271, 284, 286, 291, 309,
316, 339, 340, 342, 343, 346,
347, 357, 384, 385, 386, 387,
388, 389, 394, 395, 396, 397,
399, 414, 416, 463, 515, 516,
517, 518, 530, 557, 558, 559,
562, 563, 589, 596, 598, 600,
612, 613, 652, 664, 737, 739

كازونجو101 ,
كاسانجا تومبو575 ,
كاسيلا بانتو645 ,
كامبالا686 ,268 ,247 ,
كامبل468 ,
كانياما شيومي309 ,
كاواوا310 ,
كاوندا541 ,
كباكا425 ,247 ,
كرابتري،142 ,
كرسان134 ,
كرستيان أوبيرا665 ,
كروسويث406 ,405 ,
كريج77 ,76 ,
كريج رد76 ,
كريمجي ,384 ,366 ,365 ,291 ,133 ,
395
كلارا ديسوزا188 ,
كلايد سانجر343 ,178 ,177 ,171 ,
كلود هوليس442 ,
كمبالا407 ,248 ,246 ,245 ,243 ,
كنجسلي جرين ,195 ,194 ,193 ,192 ,
455
كنجوابا557 ,241 ,69 ,
كنجوابا حسن241 ,69 ,
كوا ميتبورا71 ,
كوامي نيكروما378 ,
كوامي نيكروما730 ,
كوبلاند346 ,141 ,134 ,
كوندوشي564 ,
كيبلي شاترون143 ,
كيتندو114 ,
كيتوندو120 ,106 ,
كيجوما566 ,479 ,
كيزمباني514 ,511 ,510 ,509 ,508 ,
كيزمكازي352 ,
كيساسي .انظر ادينجتون كيساسي
كيلوا479 ,361 ,307 ,147 ,
كيلونزي562 ,
كيمب سماكي287 ,
كينث كريج .كريج
كينجسلي جرين577 ,
كينيا ,119 ,112 ,110 ,98 ,96 ,
124 ,157 ,161 ,185 ,215 ,238 ,
243 ,250 ,252 ,253 ,308 ,309 ,
310 ,312 ,315 ,325 ,337 ,349 ,
350 ,355 ,361 ,366 ,390 ,405 ,
407 ,408 ,424 ,427 ,469 ,476 ,
500 ,504 ,510 ,538 ,544 ,548 ,
554 ,568 ,572 ,573 ,625 ,630 ,
632 ,633 ,634 ,635 ,637 ,658 ,
685 ,687 ,690 ,695 ,703 ,706 ,
708 ,709 ,710 ,733 ,734 ,739
لإفروشيرازي346 ,
لامو ,114 ,113 ,110 ,96 ,95 ,90 ,
115 ,143 ,144 ,197 ,247 ,249 ,
350 ,370 ,424 ,503 ,662 ,687 ,
698 ,699 ,727
لكسمبرج255 ,
لوجوشا302 ,
لورانس العرب259 ,
لورانكو رافاسكو149 ,
لورد كتشنر417 ,
لوفتشي688 ,318 ,317 ,
لويس جولدنج466 ,
لويمبازي242 ,
ليبريا97 ,
ليفنجستون503 ,
ليندن هاريس141 ,
ليندون هاريس464 ,
ليندي ,292 ,274 ,117 ,116 ,98 ,
350 ,362 ,624 ,732
ليو تلستوي249 ,
ماجد بن سعيد206 ,108 ,94 ,
ماجد بن سعيد البرواني94 ,
ماجد يحيى الكندي622 ,195 ,
ماجوجو300 ,243 ,
ماركوس جارفي448 ,
ماريالي302 ,
ماك آرثر428 ,427 ,172 ,
ماكريري429 ,240 ,
مكواوا102 ,
ماكوندي598 ,362 ,292 ,
ماكيريري ,244 ,241 ,134 ,62 ,
245 ,248 ,250 ,254 ,261 ,262 ,
267 ,

268 ,407 ,448 ,449 ,450 ,451 ,
453 ,454 ,508 ,532 ,603 ,698 ,
732
مالينديي ,410 ,405 ,362 ,197 ,187 ,
411 ,708
ماليندي90 ,
مامبروي90 ,
مانجينيا242 ,
مانديز134 ,
مايكل فوت250 ,
مايهيوز70 ,
مبارك بن علي الهنائي698 ,366 ,
مبارك خلفان320 ,
مبيا117 ,
متوموا بورافيا515 ,
مجاو موانيا98 ,
مجيني علي116 ,
محسن بن علي731 ,265 ,
محمد أبو بكر297 ,198 ,
محمد أبوبكر398 ,
محمد أحمد الكنعاني582 ,
محمد إقبال230 ,
محمد الأشرقي313 ,
محمد السكيتي401 ,
محمد الغساني241 ,
محمد الفيصل679 ,
محمد المروني398 ,
محمد برهان المكلا396 ,
محمد بن خلفان البرواني101 ,
محمد بن سالم الغربي96 ,
محمد بن سيف ,348 ,313 ,271 ,249 ,
349 ,350
محمد بن عبد الرحمن الديباوي145 ,
محمد بن عبدالرحمن الديباوي156 ,
محمد بن علي بن خميس البرواني668 ,
محمد بن ناصر بن عيسى95 ,
محمد تقي203 ,
محمد ثاني297 ,
محمد حمود624 ,621 ,589 ,273 ,
محمد حميد58 ,
محمد سالم البرواني513 ,281 ,231 ,
محمد سالم جينجا589 ,520 ,447 ,236 ,
محمد سالم سيف المعمري257 ,63 ,
محمد سعيد قاسم411 ,
محمد سالم السكيتي299 ,
محمد سليمان البرواني269 ,
محمد سليمان المحروقي698 ,
محمد عبد المطلب683 ,680 ,58 ,
محمد عبده698 ,695 ,225 ,
محمد عبده البلوشي698 ,
محمد عبيد الحاج697 ,299 ,110 ,
محمد علي المجيني297 ,
محمد علي سعيد252 ,
محمد علي عوض241 ,
محمد علي جناح446 ,439 ,230 ,
محمد عيسى البرواني188 ,
محمد فايق664 ,320 ,
محمد كينان713 ,
محمد مسلم الرواحي411 ,
محمد ناشر248 ,
محمد ناصر الحبسي241 ,
محمد ناصر اللمكي ,408 ,373 ,315 ,
668 ,669
محمد نجيب277 ,
محمود أحمد285 ,
محي الدين القحطاني108 ,
مدرسة إعداد المعلمين132 ,
مدونجي أوسي557 ,515 ,514 ,
مدينة البعوث الإسلامية337 ,
مزي مسقطي240 ,
مزي مبابا599 ,563 ,401 ,
مستر باتيل283 ,
مسعود الريامي668 ,239 ,
مسعود محمد الريامي448 ,
مصر ,117 ,113 ,112 ,110 ,71 ,
127 ,140 ,142 ,143 ,166 ,167 ,
225 ,226 ,230 ,231 ,259 ,277 ,
286 ,302 ,303 ,310 ,311 ,312 ,
315 ,316 ,320 ,321 ,322 ,325 ,
335 ,336 ,337 ,338 ,339 ,340 ,
344 ,348 ,370 ,371 ,377 ,380 ,
381 ,414 ,532 ,577 ,621 ,623 ,
631 ,638 ,642 ,663 ,666 ,668 ,
669 ,670 ,676 ,678 ,683 ,685 ,
734
مصطفي دانتشي ,572 ,568 ,567 ,
573
مصطفي كامل314 ,231 ,225 ,

معراج شعلب738 ,291 ,286 ,
معظم علي680 ,
مقام ندومي156 ,145 ,
مقاماندوم300 ,298 ,
مقترحات رانكين290 ,274 ,
مقديشيو284 ,282 ,281 ,95 ,90 ,
مكانجوني300 ,132 ,
مكواوا603 ,101 ,
ملاوي591 ,310 ,309 ,287 ,125 ,
ملاوي140 ,
ممباسا249 ,
مملكة الأوسان .انظر أوسان
مزي مويتا بن معلم116 ,
منظمة الأغذية والزراعة ,173 ,172 ,
282
منظمة الصحة العالمية ,282 ,270 ,177 ,
551
منظمة العمل الدولية ,283 ,282 ,175 ,
551 ,623
مهتا134 ,
موامبندي649 ,648 ,
موانجيسي608 ,
موانزا ,581 ,580 ,578 ,577 ,310 ,
582 ,583 ,587 ,593 ,596 ,646 ,
647 ,649 ,650 ,653 ,716
مؤتمر136 ,
موتورو ريحاني515 ,
موزة بنت خلفان103 ,98 ,
موزمبيق ,160 ,139 ,124 ,112 ,88 ,
262 ,274 ,476 ,503 ,504 ,598 ,
639
مؤسسة ليسيستر الإسلامية82 ,
موسوليني316 ,244 ,
موسي أحمد لاشوكا706 ,
مولانا عبد العليم صديقي232 ,
مولد ,252 ,190 ,159 ,142 ,111 ,
538 ,580 ,582 ,588
مولد مشنجاما ,580 ,538 ,398 ,190 ,
582 ,583 ,584 ,585 ,588 ,590 ,
591 ,594 ,611 ,621 ,623 ,638 ,
640
موليرا310 ,
ممباسا ,250 ,248 ,247 ,110 ,98 ,91 ,
251 ,252 ,254 ,358 ,366 ,367 ,
476 ,571 ,572 ,633 ,685 ,686 ,
687 ,689 ,695 ,696 ,697 ,698 ,
699 ,700 ,701 ,702 ,703 ,704 ,
705 ,706 ,708 ,710 ,712 ,716
مونتجومري259 ,
موبني هازي398 ,224 ,
موبني مكو424 ,154 ,
موبنيي مكو298 ,
ميدلتون469 ,468 ,346 ,
ناث134 ,
ناصر بن خلفان البرواني249 ,
ناصر سيف البوعلي678 ,
ناصر عيسى الإسماعيلي297 ,
ناصر محمد عمير الهنائي300 ,
ناصر بن عيسى البرواني98 ,
ناكنج591 ,
ناكنجا592 ,
نسيلو سواي463 ,460 ,
نكروما541 ,385 ,308 ,307 ,182 ,
نكومو541 ,
نهرو541 ,533 ,378 ,230 ,
نورمان ر .بينت317 ,
نيالالي661 ,433 ,186 ,
نيجيريا713 ,574 ,451 ,442 ,306 ,
نيروبي ,315 ,303 ,248 ,119 ,
345 ,405 ,427 ,581 ,633 ,635 ,
653 ,661 ,686 ,688 ,708 ,709 ,
710 ,716 ,733
نيريري184 ,
نيريري ,180 ,169 ,168 ,71 ,70 ,
194 ,195 ,196 ,239 ,241 ,255 ,
286 ,291 ,294 ,302 ,303 ,306 ,
337 ,339 ,377 ,400 ,478 ,529 ,
660 ,674 ,732 ,
هـ .انجرامز159 ,
هارولد لاسكي250 ,
هارون لوجوشا241 ,
هاشم اسماعيل315 ,
هان533 ,532 ,
هتلر ,427 ,316 ,257 ,255 ,244 ,
575
هلال سنان البرواني622 ,
هلال محمد البرواني201 ,
هلال محمد علي البرواني356 ,
هلال محمد هلال543 ,520 ,411 ,
هوف فوت462 ,
هولنجزويرث ,235 ,203 ,198 ,132 ,
236 ,237 ,239 ,447 ,485 ,627
هولندا255 ,80 ,
هوليس .انظر كلود هوليس
هيتشكوك441 ,
هيلاسلاسي666 ,541 ,477 ,
وابمبا294 ,
وابيمبا352 ,
واتومباتو294 ,
والتر كوتس298 ,
واهاديمو294 ,
وزير بن معلم290 ,
وسط إفريقيا125 ,
وليام هيشنز464 ,
وولفانج دورادو498 ,
وولفجانج دورادو188 ,
ويليزو513 ,133 ,
ويندل فليبس471 ,
ياقوت .انظر ياقوت الحموي
ياقوت الحموي156 ,148 ,
يحيى علوي515 ,200 ,198 ,

ملاحظة

ملاحظة

ملاحظة

ملاحظة

ملاحظة

ملاحظة



المؤلف علي بن محسن البرواني

- شاعر وعالم ومفكر وسياسي عربي أفريقي مسلم
- رائد حركة الوحدة الوطنية والإستقلال بزنجبار وزعيم الحزب الوطني
- ولد في زنجبار في 13 يناير 1919 وتلقى تعليمه في زنجبار وجامعة مكيريري بأوغندا وتلقى تعليمه الديني من والده وعلماء آخرين في زنجبار
- عمل في الحكومة كمهندس زراعي وكمدرس للزراعة في معهد المعلمين لخمسة أعوام
- رأس تحرير جريدة "المرشد" رائدة الفكر الوطني بزنجبار لمدة خمسة عشرة عام
- خدم كوزير للتعليم وللداخلية ثم للخارجية في الحكومة الديمقراطية المنتخبة قبل سقوط زنجبار في يناير 1964
- قضى أكثر من عشر سنوات في معتقلات تنزانيا بدون محاكمة بعد سقوط الحكم الوطني الذي حرر زنجبار من الإستعمار البريطاني
- هرب من تنزانيا إلى مصر بعد رفض حكومة نيريري منحه جواز سفر. انتقل للعيش في كينيا ثم الإمارات العربية المتحدة وأخيرا سلطنة عمان حيث انتقل إلى جوار ربه في 20 مارس 2006
- له عدة مؤلفات مطبوعة باللغة السواحيلية والإنجليزية. منها الترجمة السواحيلية لـ "المنتخب في تفسير القرآن الكريم" و"أسوة حسنة" عن السيرة النبوية في 1300 بيت شعر سواحيلي و"تعلم قراءة العربية" للقارئ السواحيلي و"دع الكتاب المقدس يتحدث" عن مقارنة الأديان باللغة الإنجليزية ترجمه بنفسه للسواحيلية، ثم أخيرا ذكرياته هذه "الصراعات والوئام في زنجبار" باللغة الإنجليزية

الغلاف من تصميم الفنان العماني مدني البكري www.madny.net